



A S R

الناشر: منشأة المعارف، جلال حمزي وشركاه

٤٤ شارع سعد زغلول - محطة الرمل - ت/ف : ٤٨٧٠٣٣ - ٥٥ - ٤٨٥٢٠٥٥ الإسكندرية

٢٢ شارع الدكتور مصطفى مشرفة - سولير - ت : ٤٨٤٣٦٦٢ - ٤٨٥٤٣٣٨ الإسكندرية

الإدارة : ٢٤ شارع إبراهيم سيد أحمد - معلوم بك - ت/ف : ٣٩٢٢١٦٤ الإسكندرية

Email : monchan@maktob.com

حقوق التأليف : حقوق التأليف والطبع محفوظة، ولا يجوز إعادة طبع أو استخدام

كل أو أي جزء من هذا الكتاب الا وفقا لأصول العلمية والقانونية المتعارف عليها .

الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية :

تاريخ المغرب العربي جزء ٥ / سعد زغلول عبد الحميد

رقم الإيداع : ١٥٢٠٢/٠٠ ISBN 977 - 03 - 0650 - 9

التجهيزات الفنية :

كتابة كمبيوتر وتصميم غلاف : سلطان كمبيوتر ت : ٥٤٤٥٦٦٤

طباعة : مطبعة مصام جابر

تاريخ المغرب العربي

الجزء الخامس

الموحدون : مصاحبة السوس الجباليون
ورثة المرابطين
تأسيس الدولة وقيامها
(٥٠٠ - ٥٥٨ هـ / ١١٠٠ - ١١٦٣ م)
علي مهدي

سراج الموحدين
عبد المؤمن بن علي الكوسمي

شهاب الدين
محمد بن تومرت المريني

الدكتور

سعد زغلول عبد الحميد

الناشر // منشأة فا بالاكندرية
جلال حزي وشركاه

Handwritten text at the top left.

Handwritten text at the top right, including a date: 2-19-2007.

ASR

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

قرآن کریم : سورة يوسف

آیه ۱۱۱



التقديم

وبعد خمس سنوات أخرى قضيناها في التفكير المضني والعمل الشاق، نقدم الجزء الخامس من كتابنا في تاريخ المغرب العربي، وهو في القسم الأول من تاريخ الموحدين، عصر تأسيس الدولة وقيامها، علي أن يتلوه القسم الثاني - إن شاء الله في عهد العظمة : بداية الانحلال - حسب مقولة ابن خلدون.

إنني أفهم بعمق مقولة الماوردي - في أدب الدنيا والدين - إن العلم لا يتطلب الرغبة فقط وإمكانيات التعليم، بل وأيضاً طول العمر. هذا، ولو أنني أعرف أيضاً أن مسار العلم لا يتوقف، وأن ما بدأه الآباء والأساتذة يستكمله الأبناء والتلاميذ.

أنني أتذكر آخر سنوات الدراسة وما كنا نأمل من بداية حياتنا العملية وكسب الرزق، وأفكر فيما كان يدور بخلد بعضنا من مواصلة الدراسة والبحث. وفي ذلك أتذكر مقولة فقيدها الصديق «الأستاذ الدكتور / عبد المنعم ماجد» زميل الدراسة والشباب، وهو يقول عن شهادة الليسانس الممتازة بأنها جواز المرور إلى البعثة والسفر إلى الخارج، وأتأمل في الظروف التي هيأت لنا وقتئذ تحقيق هذه الأمنية - عقب نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة.

لقد تحقق الحلم بفضل إخلاص أساتذتنا، شيوخاً وشباباً، قال شيوخ كانوا نعم الآباء المربين، والشباب كانوا نعم الإخوة المخلصين والأصدقاء.

إنني أتذكر في موقعي هذا، الأساتذة : العبادي وسوربال وفكري وشعيرة والشمال وصفوت وحسن عثمان - رحم الله الجميع. إننا نستكمل عملهم، كما يكمل تلاميذنا أعمالنا.

إنني أرجو أن استكمل تاريخ الموحدين بالجزء السادس - بمشيئة الله، عما

- ب -

قريب. وأوجه الشكر إلى كل من ساعدني في إنجاز هذا العمل ، من : الزملاء ،
الأفاضل والتلاميذ النجباء .

وفي النهاية أوجه الشكر إلى الناشر السكندري : جلال حزي ، والعاملين معه
في منشأة المعارف بالاسكندرية.

سعد زحلول محمد الحميد

٢٥ سبتمبر ٢٠٠٠

A δ R

الفهرس

أ	التقديم
ب	الفهرس
ث	المخرائط والأشكال
ج	محتويات الكتاب
هـ	التهميد : في أهمية الموضوع ومصادره وأسلوب العمل
٧	المصادر وأسلوب الدراسة
٢٨	الفصل الأول : البلاد والسكان
	الفصل الثاني : الحياة الثقافية في المغرب والاندلس في مطلع القرن
١١٧	الـ ٦ هـ / ١٢ م.
١٩٣	الفصل الثالث : شهاب الدين : محمد بن تومرت : إماماً معصوماً.
	الفصل الرابع : قيام الدولة الموحدية : محمد بن تومرت ملكاً لا
٢٢٤	يخفى.
	الفصل الخامس : سراج الموحدين : عهد المؤمن بن علي خليفة الإمام
٢٦٧	المعصوم.
	الفصل السادس : عهد المؤمن : أميراً للمؤمنين ، وردود الفعل المباشرة
٣٤٣	للسقوط إمارة المسلمين المرابطين.
٤١٥	الفصل السابع : الأندلس علي عهد عهد المؤمن.
٥٤٧	- المصادر -
٥٥٤	- الكشف -

الخرائط والأشكال

- ٢١ - فاس : الزاوية الكتانية الكبرى
- ٣٥ - المغرب (مراكش) : رسم الجبال ومجاري المياه.
- ٤٦ - عجائب الطبيعة والآثار.
- ٧٢ - قبائل مصوذة (الموحدة) بمنطقة السوس.
- ١٢٤ - رحلة محمد بن تومرت الشرقية : الذهاب والعودة.
- ١٥٧ - عودة ابن تومرت : العبور من مراكش إلى إيجليز هرغة.
- ٢٣٩ - جامع تَنْمَل : بلاطة المحراب.
- ٢٤٢ - جامع تَنْمَل : تخطيط.
- ٢٤٤ - جامع تَنْمَل : دعامة داخلية من الطوب (مواجهة للصحن)
- ٢٥٦ - مراكش : باب أجناو.
- ٢٩١ - حرب المطاولة بين عبد المؤمن والمرابطين.
- ٣٦٨ - صقلية وجنوب إيطاليا وبلاد إفريقية.
- ٣٨٩ - الرباط : باب الوداية - أسوار المدينة القديمة .
- ١٤ - المغرب والاندلس علي أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين.
- ٤١٨ - منطقة المجاز : مضيق جبل طارق.
- ٤٤٣ - امبراطورية الموحدين : المدن الرئيسية في المغرب والاندلس
- ٥٢٤ - علي عهد عبد المؤمن.

محتويات الكتاب

التمهيد : في أهمية الموضوع ومصادره : ص ٥ .

الفصل الأول : البلاد والسكان ص ٢٨ .

البلاد : ص ٣٠ - الجبال ص ٣٢ - جبال درن (أطلس) ص ٣٤ - جبال الريف
- أطلس العليا ص ٣٧ - أطلس الجنوبية لصحراوية ص ٣٨ - الشفاريص :
الريف ص ٣٩ - أطلس العليا ص ٤١ .

الطقس والمناخ : ص ٤٣ - تقسيمات الطقس - النمط الصحراوي ٤٧ -
النمط الجاف ص ٤٨ - النمط الاطلنطي الضعيف المطر ص ٤٩ - النمط المطير -
الجبلي المطير جداً ص ٥٠ - النمط الهارد في الجبل الشاهق ص ٥١ .

الأراضي الخصبة : ص ٥٢ الريف ص ٥٣ - السهول الغربية ص ٥٣ - وادي
سبر ص ٥٧ - وادي ام الربيع ص ٥٨ - وادي ملوية ص ٥٩ - وادي درعة ص
٦٠ - الاودية المتوسطة في الريف - مجموعة الاودية الاطلنطية ص ٦١ -
مجموعة جنوب المغرب الاطلسي - السوس - تنسيفت - وادي ماست ص ٦٣ -
الحياة الساكنة والجوفية ص ٦٦ - السكان وتوزيعهم عند الحسن الوزان في البلاد :
الاقليم العمرانية ص ٦٦ - مملكة مراكش - مملكة فاس ص ٦٨ - غمارة - بربر
مصودة : صفاتهم العرقية ص ٦٩ .

توزيع قبائل البربر في المغرب الأقصى : قبائل مصودة ص ٧٠ - أهل الريف .
تامسنا وساحل الاطلنطي ص ٧٣ - أهل مكناصة ص ٧٤ - أهل فاس ص ٧٦ -
أهل حوز مراكش والسوس - أهل دكالة ص ٧٥ - السوس وأغصمات ص ٧٨ -
سكان مراكش ص ٧٩ .

الثروات الزراعية : ص ٨٠ - بلاد الريف : غمارة - السوس الأدنى - مكناص

وتازة وفاس ص ٨١ - مبيتة وطنجة - تامسنا ص ٨٣ - تازا ص ٨٥ - مكاسة
ص ٨٦ - فاس ص ٨٨ - مراكش والسوس الاقصى ص ٨٩ - أغصات ص ٩٠ -
مراكش ص ٩١ السوس الاقصى ص ٩٢ .

الثروات الحيوانية : الحيوانات الوحشية - الاسود ص ٩٥ - القردة ص ٩٦ -
العقارب السامة والافاعي المستأنسة - النعام ص ٩٧ - الجراد - اللحط -
السلاحف البرية الضفحة ص ٩٨ - الحيوانات الداجنة - تربية الماعز والهرجان
ص ٩٩ - صيد البحر ص ١٠٢

الثروات المعدنية : ص ١٠٣

مصامدة الجهال : الحياة اليومية والعادات والتقاليد ص ١٠٤ - المصامدة ص
١٠٥ - برغراطة ص ١٠٦ - أهل فاس ص ١٠٧ - الغماريون ص ١٠٨ .
المسكن : ص ١٠٩ - الاثاث والأدوات المنزلية ص ١١١ - الزبي ص ١١٣ -
المرأة ص ١١٤ - السحر والطب ص ١١٥ - الطب والسحر والتجربة ص ١١٦ .

الفصل الثاني : ص ١١٧

الحياة الثقافية في المغرب والاندلس في مطلع القرن ال ٦ هـ / ١٢ م -
ص ١١٩ .

عصر ابن تومرت - مدارس الاندلس - منهج البحث في مدارس الاندلس ص
١٢٠ - رحلة ابن تومرت ص ١٢١ - رحلته العلمية في المغرب ص ١٢٢ - مراكش
ص ١٢٣ - فاس - سبتة ص ١٢٥ - رحلة الاندلس ص ١٢٦ .

اساتذة قرطبة : ابن عتاب ص ١٢٣ - ابن عفيف (الطليطلي) ص ١٢٨ - ابن
الجمان - ابن حزمون ص ١٢٩ - ابن أصبع - ابن حمدين ص ٨٣٠ - ابن سلمة
(القرطبي) ص ١٣١ - ابو الوليد بن رشد (الجد) ص ١٣٤ - ابن العواد ص ١٣٣ -
ابن حزم الابن : ابو اسامة يعقوب ص ١٣٣ - ابن مغيث (القرطبي) - خصائص
مدرسة قرطبة ص ١٣٤ .

مدرسة الشيعية : ابن يربوع - المقرئ (السرقسطي) - ابن مخدش المقرئ
ص ١٣٦ - الزبيدي - ابن أبي العافية - ابو بكر بن العربي ص ١٣٧ - لقاء بن
العربي وابن تومرت ص ١٣٩ .

مدرسة النورية : ابن قريال ص ١٤٠ - ابن شعيب - البلخي - الجذامي (ابو
الحسن) ص ١٤١

مدرسة الحرناطة : ابن كرز الانصاري (ابو الحسن) ص ١٤٢ - ابن خلف
الانصاري (ابو الحسن) .

من المدن الاندلسية المختلفة : مالقة (ابن خليفة) ص ١٤٣ - شلب (ابن
مسعود) - تطيلة (ابن خلف الرعيني) - موسية (ابن طاهر : ابو عبد الرحمن)
ص ١٤٤ - طليطلة (محمد بن احمد : ابو عامر) - طرطوشة (ابو بكر الطرطوشي :
دفين الاسكندرية - استاذ ابن تومرت) ص ١٤٥ - علوم الاندلس ص ١٤٧ .

الرحلة الشرقية وعودة محمد بن تومرت الي المغرب : ص ١٤٨ - بداية الرحلة
لطلب العلم ص ١٤٩ - في الشام والعراق ص ١٥٠ - ابو بكر الشاشي ص ١٥١
- العزالي ص ١٥٢ - علم الكلام والشهرستاني ص ١٥٣ - الشهرزوري -
الاطرابلسي - ابن الهبارة ص ١٥٤ - ابن ابي كدية القسرواني - ابو الوفا بن
عقيل (شيخ الحنابلة) ص ١٥٥ .

عودة محمد بن تومرت الي المغرب : ص ١٥٦ - الأمر بالمعروف - في مكة ص ١٥٨ - في مصر ص ١٥٩ - في الاسكندرية ص ١٦٠ - في السفينة ص ١٦٢ - في طرابلس - في المهدية ص ١٦٣ - في المنستير وتونس ص ١٦٤ - قسنطينة ص ١٦٥ - وجاية ص ١٦٦ - في ملالة ص ١٦٨ - واللقاء مع عبد المؤمن - عبد الواحد الشرقي - عبد المؤمن شاهياً ص ١٧٠ - في متيجة والأخماس ولبنة ص ١٧١ - في واندسريش وتينملت (مستماع بني يزناسن) وشلف ص ١٧٢ - والبطحاء وتلمسان ص ١٧٣ - في وجدة وضاء ص ١٧٥ - في احرسيف ص ١٧٧ - وهايس ص ١٧٨ - في مكثسة ص ١٧٩ - وسلا وام الربيع ص ١٨٠ - في مراكش ص ١٨١ - مجلس الأمير علي بن يوسف - المناظرة ص ١٨٢ - ومالك بن وهيب ص ١٨٣ - جباية سراكش ص ١٨٤ وأشحات هيلانة ص ١٨٥ - أغشات وريكة - الطريق إلي تينملل ص ١٨٦ - الي ايجليز ص ١٨٧ - ربط ايجليز وتنظيم الأصحاب ص ١٨٩ .

الفصل الثالث، ص ١٩٣

شهاب الدين : محمد بن تومرت : إماماً معصوماً (٥١٥ هـ / ١١٢١ م - ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م) .

دخول الفار ص ١٩٥ - القوات المسلحة : أولي المظلمات - المعصوم انساناً ص ١٩٦ - الإقامة في ايجليز ص ١٩٧ - أهل (آيت) عشرة ص ١٩٨ - أهل المسلمين ص ١٩٩ - مجلس السبعين ص ٢٠٤ .

دستور الدولة المصمودية الناشئة : مذهب التوحيد ص ٢٠٥ - اعز ما يطلب وعلوم المدرسة المشرقية ص ٢٠٧ - العلم والفقه والمصطلحات الكلامية ص ٢٠٨ - العقيدة - إنكار الصفات ص ٢١٠ المرشدة - الإمامة ص ٢١١ - فصل المقال في مذهب التوحيد التومرتي ص ٢١٤ - العصمة التومرتيه ص ٢١٥ - محاولة

التوفيق بين المذاهب الاسلامية - توحيد المعتزلة ص ٢١٦ - حرب دعابة عنيفة ضد المالكية المرابطين : بداية حرب المطاولة ص ٢١٧ - الزام البربر الجياليين بالتوحيد المطلق - النظام الديني يسير متوازياً مع النظم السياسية العسكرية ص ٢١٨ - أعداء الاسلام : أعداء التوحيد - حرب دعابة عنيفة ضد المرابطين - الموحدون هم المسلمون والمراهطون هم الكفرة المجسمون : حزب الشيطان ص ٢١٩ - الرسالة الكافية في براهين الامام المهدي، وهو الامام « الذي يستحق أن يكون ملك المعصرة الكونية » ص ٢١٩ - ٢٢٢ .

الفصل الرابع :

قيام الدولية الموحدة ص ٢٢٣ - محمد بن تومرت ملك لا يهبط ص ٢٢٦ .
نسب محمد بن تومرت واسرته ص ٢٢٦ - لقب الامام المعصوم ص ٢٢٧ -
والده ونشأته ص ٢٢٨ - صفاته ٢٢٩ - أفراد أسرته ص ٢٣٠ .
حرب المطاولة : دور المهدي بن تومرت ص ٢٣١ - المواجهات الاولى في ايجليز ومواصله حرب الدعابة - مقاومة هرغة ص ٢٣٢ - الوقائع الاولى : ابن ورييل اللمتوني - علي بن تاهشا ص ٢٣٣ - أول غزوة لابن تومرت في تاودزت - حملة ابراهيم بن تيفشت ص ٢٣٤ - قبائل المرابطين بين التوحيد والرفض وتأرجح هتاتة ص ٢٣٩ - الغزوة الثانية لابن تومرت ص ٢٣٥ - الغزوة الثالثة - ما بين العمليات الحربية والدعابة السلمية ص ٢٣٤ - حصار ايجليز ص ٢٣٧ - النقلة الي تينملل وتحصينها ص ٢٣٨ - تحرير تينملل من سلطان المرابطين - رويسفو حديدة ص ٢٤٠ - التمييز ص ٢٤١ - ظهور البشير ص ٢٣٤ التمييز نظاماً مقررأ ص ٢٤٥ - تواتر الصراع في تينملل ضد المرابطين - غزوة ماست ص ٢٤٦ - غزاة تفنوت ص ٢٤٨ - غزوة هسكورة ص ٢٤٩ - غزوة تازاجورت ص ٢٥٠ - غزوة أسدرم مشاع الغزي - تلقيب المرابطين بالمجسمين ص ٢٥١ - ايام البحيرة -

سوء الاحوال في الاندلس ص ٢٥٢ - محاولة سد منافذ الجبل في تينمل ص ٢٥٣
 - التمييز - مقدمات أيام البحرة : هياج باب أغصات ص ٢٥٤ - أيام البحيرة ص
 ٢٥٧ - استمارة المرابطين بالخرابات الاندلسية : ابن هُشك ص ٢٥٨ - يوم بحيرة
 الرقائق : هزيمة الموحدين ص ٢٥٩ - مقتل البشير - استشهاد نصف العشرة ص
 ٢٦٠ - لحياة عبد المؤمن - عدم جزع الامام المعصوم ص ٢٦١ - يوم البحيرة
 الثاني : حومة أغصات والحرب سجال ص ٢٦٢ - تأمين تينمل - توابع البحيرة -
 التمييز الأخير ص ٢٦٣ - الغيبة والوفاة ص ٢٦٤ .

الفصل الخامس :

سراج الموحدين ص ٢٦٦ : عبد المؤمن ابن علي خليفة الامام المعصوم : ٥٢٤ هـ /
 ١١٣١ م - ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م - ٢٦٨ .

الخليفة : قرين ابي بكر - عمر اصناع مستشاراً عسكرياً - عبد المؤمن المشرع
 الوحيد للخلافة ص ٢٦٩ - شخصية عبد المؤمن ما بين الحقيقة والرمز ص ٢٧٠ -
 نسبه ص ٢٧٢ - صفاته الشخصية ص ٢٧٣ - أخلاقه وفضائله ص ٢٧٤ -
 أسرته ص ٢٧٥ - أسلوب حكمه ص ٢٧٦ .

عبد المؤمن خليفه ص ٢٧٤ : فترة الكتمان ص ٢٧٨ - البيعة - بيعة الخاصة
 ص ٢٧٩ - ما بين الحقيقة والأسطورة ص ٢٨٠ - بيعة العامة ص ٢٨٢ .

عبد المؤمن وتهديد بلاد المصامدة ص ٢٨٣ - غزاة عمر أصناج - غزاة
 تاسغيموت ص ٢٨٤ - غزاة جزولة مناجزة الثوار بعد الكتمان - ثورة عبد الله بن
 ملوية ص ٢٨٥ - حملة تازاجورت ص ٢٨٦ - جلاوة وهرجة وهسكورة وصنهاجة
 وجنوب تادلا وتازيجات ص ٢٨٧ - بداية حرب المطاولة ص ٢٨٨ - حملتا بني
 بيفيز ص ٢٨٩ - تعاظم حرب تقرير المصير - انتصار مسكر وطن وتعلق عبد

المؤمن بالجبال - تادلا ص ٢٩٠ - جبل غبياته ص ٢٩٢ - غمارة ص ٢٩٣ -
الحرب سجال - انتصارالموحدين - استدعاء تاشفين بن علي من الاندلس وولايته
العهد - حاحة ص ٢٩٤ - أول لقاء بين عبد المؤمن وتاشفين وتحت إمرته الريبرتير
- قبائل منانة - وقعة آجر فرجان وهزيمة تاشفين - هزيمة جزولة أمام عمر اصناح ص
٢٩٥ - المطاردات مع الريبرتير ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م ص ٢٩٦ - تيسلين
وامسكروطان والسوس وتوحيد الفلاكي - الإهتمام بالسبايا من النساء اللاتي كن
موضوعاً للمساومات ص ٢٩٧ - من توابع حاحة : المطاردات في اشبار وتاساوت
ودمنات وقند وكدية وبسيط تيزي - فازاز واعادة تشكيل الجيوش الموحدية في
منطقة جرانده ص ٢٩٨ - قرب فاس حيث تربص تاشفين والريبرتير - الاستيلاء
علي تيرزفت ووادي زيز - التحالف مع السجلماسيين ص ٢٩٩ - الطريق الي
غبياته في فصل الشتاء ٥٣٦ / ١١١٢ حيث البرد والمطر ص ٣٠٠ - حملة جبال
الريف الي تخوم المغرب الأوسط ص ٣٠١ - المطاردات مع تاشفين والريبرتير -
تكتيك الكماشة ومحاولة الريبرتير الاحاطة بالموحدين ص ٣٠٢ - تدخل القائد
عمر اصناح وهو يموت مرضاً ص ٣٠٣ - مساعدة قطائع الاسطول للجيش - دخول
القبائل في التوحيد ص ٣٠٣ - غزوة الطين - مقتل ابراهيم أخي عبد المؤمن ص
٣٠٤ - التحالف مع قبائل المغرب الأوسط بالمصاهرة عن طريق السبايا ص ٣٠٥
حملة تلمسان ونهاية الدولة المرابطية - الجيوش الموحدية ص ٣٠٦ - الزناتيون
يقفرون زعيم بني ومانو : أبا بكر بن ماخوخ غدرأ - عبد المؤمن يرحل الي تاجرة
وتيفسرت ويسيطر علي منطقة تلمسان ص ٣٠٧ - بداية النهاية بالسببة للدولة
المرابطية - تاشفين أميراً وقائداً عاماً محارماً ص ٣٠٨ - الفتنة بين لمثوية ومسوفة
- توحيد زناته ص ٣٠٩ - الموحدون يغفرون علي بلاد بني عبد الواد وبني بلومي
ص ٣١٠ - عبد المؤمن يجهض خطط الريبرتير في الإحاطة بالقوات والموحدين -
تاشفين والريبرتير يطالبان ارسال العساكر الي تلمسان ص ٣١١ .

استدعاء ابراهيم بنى تاشفين من الاندلس لولاية العهد ص ٣١٢ - الموحدون
يهزمون لمجدة صنهاجية من بجاية - توحيد ابن كيتاب الحمادي - استعراض عساكر
تاشفين بسفح جبل تلمسان - خطة حرب المربع الموحدية في يوم منداس ص ٣١٣ -
مقتل الربيرتير ٣٥٩ هـ / ١١٤٤ م ص ٣١٤ - ما بين توحيد الجزوليين وردتهم ص
٣١٥ - مصرع تاشفين ما بين تلمسان وهران ص ٣١٦ - ما بين الحسبيقة
والاسطورة ص ٣١٩ - ٣٢٠ - فتح وهران - مأساة تليق بمصرع الأمير ص ٣٢٢
- فتح تلمسان ص ٣٢٣ - فتح منطقة السوس الأدنى : فاس ص ٣٢٥ - مكناسة
ص ٣٢٦ - سقوط فاس ص ٣٢٧ - خضوع سبتة ص ٣٣٣ - استسلام سلا ص
٣٣١ - طنجة وسبتة ص ٣٣٢ .

الطريق الى مراكش ص ٣٣٣ - ابو اسحق ابراهيم بن تاشفين ص ٣٣٤ -
التزول في جبل ايجليز وحصار مراكش - من أول المحرم ٥٤١ هـ / ١٢ يونية
١١٤٦ م ص ٣٣٩ - يوم الكمائن ص ٣٣٧ - أحوال الحصار - يوم الفتح ص
٣٣٨ - التمييز ص ٣٣٩ - مقتل الأمير ابراهيم بن تاشفين ص ٣٤٠ - استباحة
مراكش - استئصال أسرة يوسف بن تاشفين ص ٣٤١ .

الفصل السادس : ص ٣٤٣

عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين ، وردود الفعل المباشرة لسقوط امارة المسلمين
المرابطين ص ٣٤٥

١ - انتفاضة الماسي ص ٣٤٦ - صاحب الثورة : الاسم واللقب : الماسي
والهادي ص ٣٤٧ - وجه الشبه مع ابن ملوية - التمسك بالأصول الموحدية -
دخول قبائل السوس في دعوته - الاستقرار في رباط ماست ص ٣٤٨ - سلا مهد
الثورة - هزيمة القائد الحجار ص ٣٤٩ - ابو حفص آيتي - يهزم الشائر ويقتله -
تفصيلات عن الحرب ما بين رباط ماسة وتامسنا - الهنتاتي «سيف الله المسلول»

ص ٣٥٠ - اكتشاف الوزير الكاتب ابن عطية - حرب المرتدين من برغواطية في تامسنا ص ٣٥١ - قيادة عمر الحياط - هزيمة أبي حفص - هرب الصحراوي الي سبتة ص ٣٥٢ - فتك الصحراوي بعلي بن عيسى قائد الاسطول واسيلائه علي المجاز ص ٣٥٣ - التحالف بين الصحراوي وبرغواطية - الخروج الي دكالة ص ٣٥٣ - حملة بصلاسن ضد الثوار والهبط وطنجة وسبتة التي وُحِدت مع قاضيها عياض - عودة بصلاسن إلي مكناسة - والعودة بقيادة عبد المؤمن الي مراكش ص ٣٥٤ .

٢ - الحشد الكبير وعملية التهدين الشاملة : جمع العساكر من بلاد الشرق والغرب بقيادة عبد المؤمن الي دكالة ص ٣٥٥ - الانحياز الي السوس - اللجوء الي سيف البحر حيث قتل أكثرهم - مطاردة بصلاسن لرجرجة في الصحراء ص ٣٥٦ - تهدين تامسنا ودفع الضرائب - استقامت الدنيا لعبد المؤمن ص ٣٥٧ - الاعتراف (التمييز) بعد التهدين - اضطراب أهل مكناسة وفاس حيث الجياني ص ٣٥٨ - عملية التطهير ضد أهل التخليط - الموازنة بين الترغيب والترهيب ص ٣٥٩ - الحملات العسكرية ص ٣٦٠ - ٣٦٣ - النتائج علي المستوي الاقليمي - والقيادة العسكرية ص ٣٦٣ - والمستوي السياسي والديني والاخلاقي ص ٣٦٥ - الكشف عن المنحرفين أخلاقياً ص ٣٦٦ .

٣ - المرائط السياسية - الاجتماعية لافريقية الزيرية - الحمادية في النصف الأول من القرن ٦ هـ / ١٢م : النتائج السلبية للهجرة الهلالية - نظام الطوائف ص ٣٦٦ - الظروف الطبيعية الصعبة - الاستعمار لنورمندي الصقلي ص ٣٦٧ - ٣٨١ - الموقف منذ العقد الأول - عدم الاستقرار علي عهد يحيى بن تميم ص ٣٧٠ - في العقد الثاني : سوء العلاقات بين الزيريين والحمادين - الصراع بين قابس والمهدية بشأن حق المراكب التجارية ص ٣٧٢ - لاصدي لتلك الأحداث في رحلة ابن تومرت ص ٣٧١ - الوحشة بين رجار وعلي بن يحيى ومهاجمة المرابطين لبعض الحصون الصقلية ص ٣٧٢ - وهجوم الصقلبيين علي جزيرة الأحاسي ص

٣٧٣ - الحماديون يخضعون اصير تونس (ابن خراسان) - الصراع بين المهديّة
وبجاية - تحريض العرب ص ٣٧٤ - تدخل ملك صقلية - جزيرة جربة ص ٣٧٥ -
بين القاهرة والمهديّة ويلزم - طرابلس الغرب - ملك صقلية يعاقب صاحبها ابن
مطروح - مهاجمة جيجل .

٤ - الموقف من مقاومة الهيمنة الصقلية الفرنجية - فتح برشك ص ٣٧٧ -
غزو طرابلس الغرب سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م وقت سقوط مراكش المرابطية ص
٣٧٨ - نظام الحماية الصقلية في قابس ص ٣٨١ - استعانة المتشاحنين في قابس
بكل من ملك صقلية وصاحب المهديّة ص ٣٧٩ - الشدة العظمى وفتح المهديّة ص
٣٨١ - مسير الاسطول الصقلي الي المهديّة صباحاً ص ٣٨٢ - الحسن يعلن
المهديّة مدينة مفتوحة ص ٣٨٣ - الحسن يغادر الي المعلقة ص ٣٨٤ - سقوط مدن
الساحل من صفاقس الي سوسة ص ٣٨٥ - العلاقات العدائية بين روم
القسطنطينية وفرنج صقلية كانت في صالح المسلمين ص ٣٨٦ .

٥ - فتح الموحدين بجاية ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م - الحشد العسكري في سلا ص
٣٧٨ - البدء في انشاء رباط الفتح ص ٣٨٨ - منع السفر علي طرق المغرب
الأوسط - الخروج من سبتة الي طرق غير معهودة - مفاجأة يحي بن العزيز وأخويه
- دخول بلاد بني حماد في طاعة الموحدين ص ٣٩٠ - ثورة قبائل صنهاجة المغرب
الأوسط ص ٣٩١ - سقوط قلعة بني حماد ص ٣٩٢ - وقوف عرب افريقية ضد
الوجود الموحي ص ٣٩٣ - الاتصال بملك صقلية - يوم سطيف ص ٣٩٤ - هزيمة
فاحشة للمغرب - تقسيم اموالهم والحفاظ علي النساء - مكاتبة أمراء العرب ص
٣٩٥ - ولاية محمد بن عبد المؤمن للعهد - غزوة بونة ووقاة روجار الثاني في ص
٣٩٦ - غلبوم بن روجار - التمهيد لاسترجاع المهديّة : جربة وقرقنة وصفاقس ص
٣٩٧ - طرابلس وقابس وبونة ص ٣٩٨ - محاولة تحرير زويلة ص ٣٩٩ - الاقدام

-ق-

على تحرير المهدية ص ٤٠٠ - عودة الفرنج الي المهدية - الاستنجاد بعبد المؤمن ص ٤٠١ .

٦ - استرداد المهدية : الاعداد للحملة ص ٤٠١ الاستعدادات الحربية واعداد الطرق والآبار - بدء العمليات الحربية ص ٤٠٢ - الوصول الي تونس ص ٤٠٣ - إقبال الاسطول - استسلام تونس - مقاسمة الناس علي أموالهم ص ٤٠٤ - المهدية ص ٤٠٥ - النزول في زويلة ص ٤٠٦ - تفاصيل المعركة - توحيد صفاقس وطرابلس ونفوسة - قابس - قفصة ص ٤٠٧ - ورغة - طبرية - جبل زغوان - مدينة الأربع ص ٤٠٧ - التدخل الصقلي ص ٤٠٨ - وصول الاسطول الصقلي - المارك البحرية ص ٤٠٩ - الفرنج بطلبون الأمان ص ٤٠٨ - دخول عبد المؤمن المهدية ص ٤١٠ .

ردع عرب افريقية وتهجير جماعات منهم الي المغرب والاندلس - تقدير عبد المؤمن لمميزات عرب افريقية الحربية ص ٤١١ - طلب ١٠.٠٠٠ فارس من أهل النجدة منهم - حرب العرب أثناء المسير الي البر ص ٤١٢ - يوم جبل القرن - أخذ الاموال وحفظ النساء ص ٤١٣ - تهجير العرب الي ثغور الاندلس ص ٤١٤ .

الفصل السابع :

الاندلس علي عهد عبدالمؤمن ص ٤١٥

خريطة الاندلس وأحوال اهلها أثناء حرب المطالبة ص ٤١٧ .

الخريطة - نظام الطوائف ص ٤١٧ حدود الاندلس علي أواخر ايام المرابطين - شرق الاندلس - ابن عياض ص ٤١٩ - ابن مردنيش - الحربة ص ٤٧ - جيان - دانية وميورقة- غرب الاندلس ص ٤٢١ - موسطة البلاد - أغرناطة واشبيلية - الثغر الأعلى .

أحوال الأندلس طوال حرب المطالبة المرابطية - الموحدية ص ٤٢٢ - الفتنة والكوارث الطبيعية - نظام الطوائف والنشاط التخريبي ص ٤٢٣ التطرف الديني ص ٤٢٤ - الحركة الثقافية ص ٤٢٥ .

الطائفة المرابطية في الأندلس أواخر عهد ابن تومرت - الصراع ضد النصاري الإسبان ص ٤٢٦ - ردود فعل تومرتية في فاس ص ٤٢٧ - استدعاء تاشفين من جهة الأندلس - الاهتمام بالشعر في الأندلس ص ٤٢٨ - تقييم الموقف بالأندلس ص ٤٢٩ - سوء الأحوال الاقتصادية ص ٤٣٠ .

عواصم الأندلس مسارج للخيالة الأسبانية ص ٤٣١ - ولاية تاشفين لعواصم الأندلس الثلاث - غارات السليطين وحليفه ابن هود ص ٤٣١ - ٤٣٢ - تاشفين يظل الدفاع ضد الأسبان والموحدين ص ٤٣٣ - وقعة البكار ص ٤٣٤ - قرطبة مسرحا للقتال - مقتل قاضي قرطبة ص ٤٣٥ - الصراع مع أهل الذمة - انتصار أفرغة ص ٤٣٤ - السبب في حرب أفرغة - شدة الحصر والاستنجد بابن غانية ص ٤٣٧ - المعركة خارج الأسوار - هزيمة الفونس المحارب في أفرغة - النواقيس الغنيمة ص ٤٣٩ - استدعاء تاشفين إلى المغرب في الوقت الذي تسوء فيه حرب الاسترداد ص ٤٤٠ - السنوات الأخيرة من حرب المطالبة - وفاة علي بن يوسف ص ٤٤١ - استدعاء ولي العهد إبراهيم بالمدد - عبد المؤمن يستعد للسيطرة على المجرى - ازدياد الانقسامات الطائفية في الأندلس ص ٤٤٢ .

ابن قسي وحركة المريدين بالأندلس ص ٤٤٤ - المريدون فتيان الصوفية ص ٤٤٥ - ابن قسي قائد المريدين في غرب الأندلس ص ٤٤٦ - بين الفكر الثوري للمرابطين والفكر المرابطي - الموحدي ص ٤٤٧ - فكر ابن قسي لا يفرق بين السنة والشيعة - تسميتهم بالمرتدين - المريدون في شرق الأندلس ص ٤٤٨ - تفوق طريقة ابن قسي ص ٤٤٩ - مخاريف ابن قسي - الالتفاف حوله في مقابل

ضغوط ملك البرتغال ص ٤٥٠ - التحالف مع ابن وزير وابن المنذر ص ٤٥٠ -
بداية العمل الايجابي - مرتلة قاعدة لابن قسي - ابن القابلة عضد دولته يغدر
بمرتلة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م ص ٤٥١ .

نظام دولة مرتلة : الامام الهادي وتوفر المال ص ٤٥٢ - مرتلة كيان سياسي
ديني ص ٤٥٣ - دولة الاتحاد ثلاثي مع ابن المنذر وابن وزير ص ٤٥٤ - يحيى بن
شانية بهزم ابن المنذر ويحصره في شلب - ثورة ابن حمدين بقرطبة ص ٤٥٥ -
العلاقة مع ابن حمدين ص ٤٥٦ - انحلال الاتحاد الثلاثي لحساب ابن حمدين ص
٤٥٦ - ابن قسي يتصل بعبيد المؤمن ويعان الطاعة ص ٤٥٧ - بداية تدخل
عبدالمؤمن في الاندلس ص ٤٥٨ .

دخول الموحدين الي الاندلس : التمهيدات الاولى في الغرب ص ٤٥٩ - ٤٦٠
- ابن قسي يستعين بملك البرتغال وقتك أهل شلب به ، وتنصيب ابن المنذر ص
٤٦١ .

في شرق الاندلس : ابن أضحى الذي دعا لابن حمدين في غرناطة ص ٤٦٢ -
ابن أضحى وابن هود ضد المرابطين في غرناطة ص ٤٦٣ - ابن عبد العزيز وابن
عباض وابن أبي جعفر في بلنسية وشاطبة ومرسية ص ٤٦٣ - في بلنسية الصراع
ضد المرابطين ص ٤٦٥ - انشقاق المرابطين وقبام ابن عبد العزيز ص ٤٦٦ -
مبايعة ابن عبدالعزيز - الصراع مع ابن شانية واستيلاء ابن عبد العزيز علي شاطبة
ص ٤٦٧ - خلغ ابن عبد العزيز وتسبيحه الي ميجورقه ص ٤٦٨ - ٤٦٩ - وترحيله
الي مراكش - ما بين ثوار الشرق وعبيد الغرب من المريدين ص ٤٧٠ - التركة
التي ورثها الموحدون ص ٤٧١ - ٤٧٢ .

الموحدون في الاندلس : أرض الجهاد ودار الرباط :

اتصال علي بن ميمون بعبد المؤمن ص ٤٧٣ - احمد بن قسي أول مقبم للدعوة

بالاندلس - أبو حفص عمر آيتي ص ٤٧٤ - موقف يحيى بن علي بن غانية ص
 ٤٧٥ - بفضل استمسك حال البلاد - الصراع بين ابن حمدين ويحيى بن غانية ص
 ٤٧٦ - دخول ابن حمدين والعسكر القشتالي التي قرطبة ٥٤٠ / ١١٦ - التحالف
 بين يحيى والقشتاليين ضد الموحدين ٤٧٧ - الفونس الـ ٧ يعلن يحيى نائباً له في
 قرطبة والموحدون في اشبيلية - الآثار السلبية لثورة الماسي في الاندلس - يحيى
 داخل مَن في اشبيلية من الموحدين ص ٤٧٨ - يحيى يسلم جَبَّانَ للملك قشتالة
 ويسير الي غرناطة : آخر المدن المرابطية ص ٤٧٩ - وفاة يحيى في شعبان
 ٥٤٣ هـ / ديسمبر ١١٤٨ م - ابن قسي والصراع مع المرابطين وابن حمدين ص
 ٤٨٠ - دخول الموحدين اشبيلية ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م - قصيدة عبدالمؤمن - نبش
 قبر ابن حمدين بمالقة ص ٤٨١ - ابن حَسُونُ بمالقة يستدعي الروم نظير دفع المال
 ص ٤٨٢ - بداية التدخل الموحيدي في الاندلس ص ٤٨٣ - رواية ابن خلدون - رد
 الفعل للوجود الموحيدي بالاندلس ص ٤٨٤ - مسئولية أخوي المهدي : عبدالعزيز
 وعيسى ص ٤٨٥ - إخوة المهدي من مشيخة عسكر اشبيلية ص ٤٨٧ - انحصار
 الموحدين في اشبيلية وسط الثوار ص ٤٨٧ - الدفاع عن قرطبة وفك الحصار عنها
 ص ٤٨٨ - ابن غانية يتخذ جانب الموحدين ص ٤٨٩ - لقاء كبير مع أهل
 الاندلس في سلاسة ٥٤٥ هـ / ١ - ١١٥٠ م - وفد زعماء الاندلس ومبايعة عبد
 المؤمن بالخلافة ص ٤٩٠ - استصحابهم الي مراكش - ما بين فتح افريقية وضبط
 الاندلس ص ٤٩١ - غارة علي المرية المحننة ص ٤٩٢ - تعيين أولادعبد المؤمن
 علي ولايات المغرب ص ٤٩٣ - ولاية العهد وإثارة أجوي المهدي ويصلاسن ص
 ٤٩٤ - ٤٩٥ - التطهير (التميز) ص ٤٩٦ - تغافر الموحدين ص ٤٩٧ -
 استكمال فتح الاندلس ص ٤٩٨ يحيى بن يغصور والي اشبيلية ينتقم من أهل ليلة
 - زيارة ابن وزير لعبد المؤمن استنصاراً به علي العدو ص ٤٩٨ - تنازل ميسون بن
 بَدْر اللمتوني عن غرناطة للموحدين - حملة مظفرة ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م لوالي

قرطبة وهزيمة الكونت صاحب البطروج - والي اشبيلية أبو محمد التينمللي يغزو بلاد ملك البرتغال ص ٤٩٨ - تقديم الحساب الي عبد المؤمن ص ٥٠٠ - توحيد أهل غرناطة - أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قائداً لكل من اشبيلية وقرطبة - غرناطة تطلب الصلح وحمل المثلثين منها الي مراكش - اضافة غرناطة الي السيد / أبي سعيد عثمان مع سبعة ص ٥٠١ .

النظر في تحرير المرة - خروج العسكر اليها ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م - حصار المرية بالمنجنيق - وصول الفونس بعسكره ومعه ابن مردنيش - صدور الامر الي الأمير يوسف والوزير عطية بانزال المحاصرين في قصبتها بالامان ص ٥٠٣ - حصار طهيرة حيث الشائر الوهبي ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م - بداية المطالبة لابن عطية (الوزير) - امتلاك الموحدون ميرتلة ص ٥٠٤ - هزيمة غبولة - لحاجة الأمير يوسف ص ٥٠٥ - سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م عام ابن عطية - عبد السلام الكومي وزيراً - احضار ابن عطية الي الجامع حاصر الراس ص ٥٠٦ - فضائله - حبه - اقتياده في زيارة المهدي ص ٥٠٧ - كيد عبد السلام الكومي له - استعطافه ص ٥٠٧ - ما بين مهدية سلا الموحدية ومهدية افريقية الفاطمية - التفكير في جلب عرب الهلالية الي الاندلس - التفكير في فك أسار المهدية - الاعداد - المفاجاء ص ٥٠٨ - التمرد من سلافي صفر ٥٥٤ هـ / ابريل ١١٥٩ م - ولاية الاقاليم ص ٥١٠ - مخاطبة عرب سليم ص ٥١١ - معاناة شرق الاندلس من الاسبان وابن مردنيش ينازل قرطبة - حصن دفاع السيد / يوسف ص ٥١٢ .

- اخبار الانتصار في المهدية تأتي الي اشبيلية ويكتبها الطلبة ص ٥١٣ - عمل البريد البحري السريع بين افريقية والاندلس ص ٥١٥ - مغزي الاعتقال بفتح افريقية علي الصقليين في جبل طارق - بناء جبل الفتح ص ٥١٦ - ٥١٧ - عبد المؤمن ينقل معه عرب الهلالية الي الاندلس ص ٥١٨ - بناء البطحاء علي نهر

شلف (تصويرها) - القبض علي الوزير عبد السلام الكومي في تلمسان ص ٥١٨
- ٥١٩ - المسير الي طنجة - الجواز الي الاندلس ص ٥١٩ - حفل البيسة في
جبل طارق ص ٥٢٠ - الغدر بقرمونة، ومقتل والي قرطبة : ابن بيجيت ص
٥٢١

- جواز عبد المؤمن ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م الي جبل الفتح : إعلان قيام
الامبراطورية الموحدية ص ٥٢١ - استقبال عبد المؤمن الحافل - الإذن للشعراء
بالانشاد ص ٥٢٢ : ابو بكر بن منحل - الطليق ص ٥٢٣ - ابن صاحب الصلاة
ص ٥٢٥ - ابو العباس الجراوي الشاعر ص ٥٢٦ - غزو غرب الاندلس بمعرفة
عبد الله ابن ابي حفص - ملحمة أطرانكس ص ٥٢٧ - تكسير الفريضة والمغرب -
احتفال الانتهاء من بناء جبل الفتح ص ٥٢٨ - الشعراء : ابن حبيوس - ابن
الطليق - اللص - الرصافي ص ٥٢٩ - ٥٣٠ - العودة الي مراكش بعد ملتها
خيلاً ورجلاً من المصامدة والعرب وغيرهم ص ٥٣١ - مناخرة الغادرين بقرمونة ص
٥٣٢ - استسلامها ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م العناية بسلاح الفرسان - الصراع مع ابن
مردنيش ص ٥٣٤ - الغدر بقرناطة - عبد المؤمن يقرر الجواز الي الاندلس ص
٥٣٥ - هزيمة الموحدين في فحص غرناطة ص ٥٣٦ - انتصار وادي حذره ص
٥٣٨ - حصار ابن همشك جيان والعمل علي احبء قرطبة ص ٥٣٩ - ٥٤٢ .

التهييد

فى أهمية الموضوع ومصادره،

الأهمية : إذا كانت دولة صنهاجة الصحراء المرابطية (ج) قتل أول دولة مغربية كبرى تقوم فى ظل الإسلام على أكتاف أهل البلاد من البربر الذين ربطوا فى النصف الثانى من القرن الـ ٥ هـ / ١١ م ، إقليم المغرب الأقصى ، ما بين السودان الغربى جنوبا وبلاد الأندلس شمالا ، عبر أقاليم الصحراء الأفريقية الكبرى ، فجعلوا من تلك الصحراء هبة الوصل بين تلك البلاد ، بعد أن كانت جغرافيا ، بمثابة حاجز الفصل ، فهو الأمر الذى لا يدانيه إلا توحيده كل بلاد الشمال الإفريقى (المغاربية) كما يقال الآن ، والأندلس ، جنوبيها ، تحت رايات الفتوح الإسلامية ، قبل ذلك بأربعة قرون . وإذا كان قيام الدولة المرابطية يستمر أهم المحطات أهل الصحراء الإفريقية (من المثلثين) ، فإن قيام الدولة الموحدية فى المقابل ، يعتبر معجزة أهل جبال درن (أطلس) المغربية (من المصامدة) الذين نجحوا لأول مرة - كما يظهر - فى الربط (سياسيا وثقافيا) بين سلاسل جبال المغرب الممتدة كالهيكل العظمى الذى يربط البلاد الممتدة على طول شواطئ المحيط الأطلسى الشمالية الغربية ، والذى يسير عبر مضيق الزقاق نحو الشرق على طول امتداد سواحل الجزائر والبلاد التونسية ، وحتى جبال ليبيا الأخضر الذى يعتبر نهاية طبيعية لجبال درن ، عند منطقة «رأس أوثان» فى الطريق إلى الاسكندرية .

والهم أن كلا من الدولتين المغربيتين الكبيرتين : الصحراوية (المرابطية) ، والجبلانية (الموحدية) تشتركان فى عدد من السمات المميزة . فقد أخذت كل منهما شكل الدولة العظمى التى عرفت فى الإسلام باسم الخلافة ، أو إمارة المسلمين ، وهى الأبراطورية بمعنى اتحاد الممالك فى المصطلح الحديث ، وإن كانت الدولة الموحدية قد حققت وحدة بلاد الشمال الإفريقى (المغاربية) من حدود مصر شرقا حتى مورطانيا والسنغال غربا ، وذلك لأول مرة ، ولأخر مرة أيضا فى التاريخ حتى وقتنا الحاضر - وهو الأمر الذى يحسب لتأسيسها من غير شك .

ولكن ما هو أهم من ذلك أن كلا من الدولتين المغربيتين الكبيرتين لم تعيش إلا لمدة قرن واحد من الزمان تقريبا ، مع الأخذ في الاعتبار فترة «حرب المطاولة» وهي حرب الصراع من أجل البقاء عند قيام وسقوط كل من الدولتين .

وهنا لا بأس أن يكون ابن خلدون قد استنبط نظريته في عمر الدولة في عالم الإسلام ، مما يقدره بـ ٣ (ثلاثة) أجيال أي ١٢٠ (مائة وعشرين) سنة ، ربما قياسا على عمر امبراطوريتي الشرق الإسلامي الأوليين ، وهما : الأموية (التي عاشت حوالي القرن) ، والعباسية التي يقسم عمرها إلى مراحل (كالعصر الفارسي ، والعصر التركي الأول ، والعصر التركي الثاني) يبلغ طول كل منها حوالي القرن من الزمان ، ومثل هذا يقال أيضا عن دولتي المغرب العظيمين المتأخرتين : (المرابطية والموحدية) ، حيث عاشت كل منهما حوالي قرن من الزمان ، مع الأخذ في الاعتبار فترة «المطاولة» . وهنا لا بأس من الإشارة إلى أنه إذا وصفت الدولة المرابطية بأنها صحراوية (قارية) ، وأن الدولة الموحدية جبلية محيطية - متوسطة (أي بحرية) ، فإن الوصف الأخير ينطبق هو الآخر على الدولة الأموية التي توصف بأنها دولة شامية - بحرية ، بينما توصف الدولة العباسية بأنها عراقية - قارية.

والمهم من تلك المقابلة بين امبراطوريتي الإسلام الأوليين في المشرق ، وامبراطوريتي المغرب المتأخرتين أنها يمكن أن تعني أن بلاد المغرب بعد أن عرفت فترات من انشغاف الطائفي في العصر العباسي (عصر الدويلات) ، تنبعت إلى التجربة الإسلامية الوحدوية الأولى ، وبدأت تعمل على تطبيقها في المغرب الإسلامي بشكل عام.

فإذا كانت الخلافة العباسية قد وقعت أسيرة سلاطين المشرق من الديلم ثم السلاجقة ، فإن حركة التوحيد الإسلامية المغربية نجحت ، على العكس من ذلك في تحقيق الوحدة السياسية في المغرب والأندلس ، الأمر الذي صاحبه نهضة ثقافية مبنية على نهضة المشرق العلمية والثقافية في القرنين الرابع والخامس للهجرة ، الأمر الذي ظهرت بشائره على عهد المرابطين والموحدين ، وهو أيضا الأمر الذي يؤكد

تلازم النهضة السياسية والثقافية ، فكل منهما يرفد الآخر بثقوته أو ضعفه ، وهو ما يماثل التفتح والاستنارة في مقابل العكس من ذلك مما يشمل في الانغلاق والتعصب.

إن ما بشرت به الصحراء المغربية الكبرى بقيام الدولة المرابطية ، وما قام به أهل جبال أطلس المغربية (درن) من وراثته التركية الصحراوية المغربية الأندلسية التي ظهرت وكأنها تبشر بعصر نهضة مغربية قد يعدل من الأوضاع السياسية والثقافية في المغرب والأندلس لصالح الإسلام ، ثم يلبث بعقد قرنين من الجد والاجتهاد والعمل والجهاد أن أتى بهير المبرز منه من الثمار - فكانت العودة إلى الطائفية انتظارا للمعجزة التي لا يعمل الناس على تحقيقها بأيديهم وعرقهم حتى الآن - وهذا ما نحاول بيانه في هذا الدراسة.

المصادر وأسلوب الدراسة:

مصادر تاريخ دولة الموحدين في المغرب والأندلس - على عهد المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي - لها خصوصيتها المميزة ، فاما كما هو الحال بالنسبة لفترات التاريخ الإسلامي ذات الاتجاهات السياسية والمذهبية الخاصة ، مما هو معروف بالنسبة لدول الخوارج أو الشيعة ، كما هو الحال بالنسبة للدولة الفاطمية مثلا.

فالدولة الموحدية في المغرب قامت على مذهب التوحيد التومرتي الذي يدعو الي لم شمل المذاهب الإسلامية المختلفة ، من : سنية وشيعية وكلامية، تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويتوجبه من الرئيس أو المرشد الذي لا يخطئ بفضل الهداية الربانية. وعلى هذا الأساس سار مهدي الموحدين ، محمد بن تومرت ، على نهج الرسول ، فهو عندما كان ينظر في تعذيب الإسلام ، كان يتخذ السيرة النبوية نبراسا يهتدى به.

وهكذا كانت حركة التجديد الموحدية مصادرها التاريخية الأولية ، التي تنبنى عليها فكرة الدولة المستجدة من حيث التنظيم والتنظيم ، والتي تقتدى في مسيرتها

بالسيرة النبوية ، وعصر الخلفاء الراشدين : مسمى عصر النبوة ، كما سيكون الحال بالنسبة لعبد المؤمن (الخليفة) على الأقل.

ومن هنا تمثلت مصادر الدعوة الموحدية الأولية في إنتاج محمد بن تومرت صاحب الدعوة التي تتبنى عليها نظرية التجديد الإسلامى الموحدية ، والتي توجد في مؤلفه المشهور باسم « أعز ما يطلب » ، وهي الجملة التي تمثل مطلع الكتاب ، والذي يحتوى - أساساً - على قسمين ، أولهما في : العقيدة بمعنى أصول الدين ، والثاني في : المرشدة بمعنى التطبيق العملى للتكاليف . وهذا يعنى أن الكتاب هو المصدر الأول لدراسة تاريخ الموحدين الذى نحن بصدده - في عصره الأول.

ابن تومرت - أعز ما يطلب : نشر عمار الطالبي ، الجزائر ١٩٨٥

أهم تواليف محمد بن تومرت الذى كتبه في بلدته ايجلبز في رباط هرغة ، سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ، عندما اعتكف في الغار على ما نطن ، والذي كتبه باللغتين : العربية والمغربية (البربرية) ، وأملى حفظه على أتباعه البسطاء ، من بربر مصمودة ، فكانه دستورهم (كتابهم) في الإسلام الجديد ، أو المتجدد (١) ، وأول الكتاب : « أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل :

الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير » ، وهو يشتمل على كل التعاليق التي أملاها ابن تومرت ، ثم أملاها بعده عبد المؤمن بن على .

ويبدأ « أعز ما يطلب » بالتعريف بالعلم ، والمنهج العلمى في الدراسة ، ويستخدم في ذلك المصطلحات الكلامية ، ويعرف بالمسلحات . أما أهم موضوعاته في العقيدة : فهي التوحيد في إنكار الصفات ، والمرشدة في تنظيم المعاملات والعبادات ، ومن ثم الإمامة : أهم النظم فهي رأس المذهب من حيث أنها مرادفة

(١) انظر ص ١٤ - حيث النص : وفيه باللسان القبرى : السبعة أحزاب : الدوائر ، وهو الطهارة ، علامة المنافقين : « محانت أكو صف تازا كوت أن تينار نوقا دران يا العالمين » - وغير ذلك التعاليق المفيدة.

لإمارة المؤمنين أو الخلافة ، وهي في الحقيقة أصل عقيدة التوحيد من حيث العصمة التي تجعل من الإمام مرشداً لا يخطئ ، كما هو الحال في الفكر الشيعي - هذا إلى جانب ما يلحق بكل ذلك من الأوامر الدينية والأحاديث النبوية (٢) .

البليدي ، أبو بكر الصنهاجي

- ويأتي بعد كتاب ابن تومرت : أعز ما يطلب ، كتاب أخبار المهدي محمد بن تومرت ، وهو كتاب خادمه وصاحبه الأمين : أبو بكر بن علي الصنهاجي ، المعروف بالبليدي - وهو بتقديم وتحقيق وتعليق عبد الحميد حاجيات - ط٢ - الجزائر ١٩٨٦ .

وصاحب الفضل في اكتشاف هذا الكتاب هو الاستاذ أ. ليفي-بروفنسال ، وكان كشفا رئيسيا بالنسبة لدراسة حركة ابن تومرت الدينية ، وقيام الدولة الموحدة . وأهم ما يميز به هذا الكتاب المعاصر لقيام حركة التوحيد التومرتية هو أنه يعتبر واحداً من المصادر الوثائقية الأولى التي وصلتنا دون أن يصيبها التغيير أو الكثير من التحريف.

والكتاب الذي ينتهي بالإشارة إلى وفاة عهد المؤمن ، وولاية ابنه يوسف في سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م يمكن أن يكون منتهيا فعلا في آخر تاريخ مذكور فيه (قبل ذلك) وهو سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٣ م ، بمعنى أن ما يأتي بعد ذلك هو إضافات محتملة لمن وضع الكتاب في شكله الأخير ، وتتمثل في الصفحات الأخيرة ، والملاحق الخاصة بإحصائيات الشوار والحصون التي بناها المرابطون ، ومن ثم الحوليات المستمرة بعد ذلك.

ورغم الأهمية المرجعية لهذا المصدر بالنسبة للفترة المبكرة من تاريخ الموحدين على عصرى كل من المهدي (ابن تومرت) والخليفة (عبد المؤمن) ، والأهمية البالغة لكثير من المعلومات التفصيلية الخاصة بالأشخاص فرديا ، والأحوال بعامة ، فلا

(٢) أنظر ما يأتي : عن الإمامة ، ص ٢١١ . وما بعدها .

شك أن النص العتيق قد انتابته عدة من الآفات ، من : أخطاء النسخ ونحرفاتهم ، إلى جانب إضافة بعض المعلومات الفلكلورية أو الاسطورية الشعبية ، والتي عادة ما تكون لها أهداف منقوية تربية، مما يمثل عادة في سير كبار رجال الدول ، من : عظماء الساسة وكبار الأبطال.

وهكذا يضاف البديق بصفته شاهد عيان ، قريب من كل من ابن تومرت وعبد المؤمن ، الكثير من الأصالة على بطلى التنظير والتأسيس الأولين للدولة الموحدية، ويعرف بتنظيم جماعة الموحدين في ذلك الوقت المبكر من نشأتها ، بل يعطى التفاصيل المرحقة في مراحل الصراع الأولية بين الموحدين والمرايطين ، كما يعرف بأسلوب الترغيب والترهيب الذى كان يطبقه كل من ابن تومرت وعبد المؤمن بن على ، وذلك ما يظهر بصفة خاصة في نظام التطهير الذى عرف (بنظام) التمييز.

الرسائل الموحدية :

مجموع رسائل موحدية - إصدار أ. ليفى - بروفنسال - رباط الفتح - ١٩٤١

ويضم إلى المصدرين الرثائقيين السابقين ، بالنسبة لفترة تأسيس الدولة الموحدية وقيامها ، مجموعة الوثائق من الرسائل والكتب الرسمية التى يرجع الفضل فى اكتشافها، ومن ثم التعريف بها إلى الاستاذ أ. ليفى - بروفنسال ، وهى ال ٣٧ (سبع وثلاثون) رسالة والنسبة لثلاثة فترات المهدى وعبد المؤمن وهى الرسائل ال ٢٣ (الثلاثة والعشرون) الأولى ، وممظمها من كتابة الوزير ، الكاتب الشهير : أبى جعفر أحمد بن عطية . وهى الرسائل التالية ، حسب ترقيمها الأصلية:

١- الرسالة الصادرة من حضرة مراکش إلى طلبة سبتة ، والنسبة تشهير إلى غزوة تم القيام بها من أجل إطفاء الفتنة، وقطع داهر المجرمين - ويمكن تأريخها بسنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م بصدد توفي الشاعر الماسى (الماسى) قبل ثورة القاضى عياض

بسببته ، بتحريض من يحيى الصحرأوى (النص ، ص ١ - ٣ ، والدراسة ص ٢١).

٢- من حضرة مراکش إلى الشيخ الفقيه القاضي (قاضي قرطبة) :
أبى القاسم محمد بن الحاج . الموضوع : الإفادة بوصول أخى المخاطب الشيخ الجليل
أبو محمد ، وابنه أبو الحسن ، وصاحبه الشيخ الكاتب أبو عبد عبد الله بن زرقون .
أما سبب البعثة فهو تقديم البيعة بعد دخول قرطبة فى طاعة الموحدين - على يدى
الوالى : يحيى بن على بن عابشة سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م (أنظر النص ص ٣-٤ ،
والدراسة ، ص ٤).

٣- من حضرة مراکش إلى طلبة صنهاجة تاشفرت . والموضوع زيارة
عيد المؤمن للحضرة العلوية بتينمل ، نسخته بتاريخ ٢٧ ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ /
١٧ أغسطس ١١٤٨ م. والظاهر أن هذه الرحلة لم تسجل من قبل المؤرخين ، كما
يرى بروفنسال (النص ٥-٦ ، الدراسة ، ص ٢٣).

٤- من حضرة مراکش إلى الشيخ الأجل أبى زكريا يحيى بن على
(ابن غانية) . وموضوعها دعوة ابن غانة إلى الخضوع بناء على مظاهر من
محبتة وصفاته - بعد خلاف مع الفونسو ال ٧ - بالنسبة للموحدين ، وكذلك الأمر
بالنسبة لقبيلة مسوفة ، وكذلك الشيخ أبو زكريا يحيى بن اسحق بن ابراهيم -
بتاريخ ٩ ربيع الآخر ٥٤٣ هـ / ٢٧ أغسطس ١١٤٨ م (النص ص ٦-٩ ، والدراسة
ص ٢٣).

٥- من حضرة مراکش الى طلبة سبتة ، وموضوعها غارة بحرية على
المرية. وهى مهمة من حيث أنها تبين أن هذا الحدث التاريخى وقع سنة ٥٤٦ هـ /
١١٥٠ م ، بمعنى أنه مخالف لأحداث تحرير المرية من الاحتلال الاجنبى (الفرنجى -
الاسبانى) التى وقعت ، كما هو معروف فى سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م (النص ص ١١
- ١٣ ، الدراسة ص ٢٥-٢٦ ، وفيما بعد ص ٥٠٢)

٦- من حضرة مراکش إلى جماعة المشيخة بقرطبة ، بتاريخ ٢١ صفر

سنة ٥٤٤ هـ / ١١ يونيو ١١٤٩ م . والموضوع هو عودة قرطبة للخضوع للموحدين بعد رفع حصار الفونسو عنها (النص ص ١٣ ، والموضوع ص ٢٧ - حيث نفس أشخاص المباحين في الرسالة ٢ لسنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) .

٧- من حضرة بجاية ، في ٢٤ جمادى الأولى ٥٤٧ هـ / ٢٧ أغسطس ١١٥٢ م ، إلى الشيوخ والأعيان وجميع من بقسنطينة . وموضوعها فتح البلاد الشرقية ، وطلب الخضوع من أهلها للموحدين مع وعد بالامتيازات المادية والمعنوية التي سيلقونها . مع التعريف بخضوع القائد أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون في منطقة بجاية ، والذي أصبح وأخوه الفقيه : أبو عبد الله محمد بن علي بن حمدون وأتباعهما وأقاربهما في مناصب سامية . مع الاقادة بما كان يعانيه أهل البلاد من : القبالات والمكوس والمغارم بينما لا تتطلب تعاليم المهدي الا إقامة السنة السمحة (النص ص ١٧ - ٢٢ ، والدراسة ص ٢٦) .

٨- من حضرة بجاية إلى طلبة تلمسان ، وجميع من فيها من الموحدين ، في ١٠ شعبان سنة ٥٤٧ هـ / ١٠ نوفمبر ١١٥٢ م . والموضوع في التعريف بفتح تلك البلاد ، وخضوع يحيى ابن العزيز بن المنصور بن الناصر وجميع إخوته وقرابته وخزوله لأمر الله المبارك ، واللجوء إلى بلد قسنطينة بجهة القلعة - حرسها الله - واتفاقهم على إرسال جماعة منهم إلى بجاية فيهم : آخر أبي زكريا يحيى وشيوخ صنهاجة وقسنطينة مستسلمين . وفتحوا أبواب المدينة المذكورة مستظلين بظلال هذه الدعوة المحيطة الجامعة (النص ص ٢٢ - ٢٦ ، الدراسة ص ٢٨) .

٩- من حضرة تلمسان ، في مستهل ربيع الآخر سنة ٥٤٨ هـ / ٢٦ يونيو ١١٥٣ م ، إلى الشيخ أبي محمد وسنار ، وجماعة أصحابه الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة من أهل مراكش . والموضوع في تنابح فتح البلاد الشرقية ، وما حدث فيها من الجلاء والخراب بسبب الأعراب المفسدين في صحرائها ، وكيفية الإيقاع بهم في جوة سطيف - عَمَرها الله - ونحن إذ ذاك بمتيجة - عَمَرها الله .

مع بيان ما كابدته العرب من الهول ، حيث اختلطوا بمواشيهم وأنعامهم . ثم متابعة
الموحدين لهم لمسافة ٤ (أربعة) أيام ، يغزونهم ويفنمونهم من السبى والخيل
والسلاح (النص ص ٢٦ - ٣٤ ، الدراسة ص ٢٩).

١٠- من حضرة مراكش ، فى ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٤٨ هـ / ٩
سبتمبر ١١٥٣ م ، إلى الشيخ أبى عبد الله محمد بن سعد (ابن مردنيش) .
والموضوع: تحريض ابن مردنيش على التمسك بأمر المهدي ، وهو ما ظهر منه تمسك
أهل بالنسبة بكلمة التوحيد ، ثم ما ظهر من إخلاص أهل لورقة والأصل فى
«موالات هذه الطائفة المباركة» (ص ٣٥ - ٣٧ ، الدراسة ص ٣١).

١١- من حضرة مراكش - دون معرفة المرسل إليهم بسبب البتر - أما
الموضوع فهو عن أخوى المهدي وأصحابهما من أصحاب النفوس الخبيثة حيث قابلوا
حسن الرعاية بأعمال الشقاوة حتى انتهى الأمر باعتقالهم اعتقالا جميلا فى فاس ،
ولكنهم لم ينتهوا عن مخالطة الأوباش حتى انتهى بهم الأمر إلى محاولة الغدر
بمراكش ، حيث قتلوا نائب عبد المؤمن بقلعتها ، وهو القائد أبو حفص عمر بن
تفراجين ، الأمر الذي أدى بالعامّة إلى قتلهم . ومن ثم تتبع عبد المؤمن أعوانهم
لأشقياء المنافقين ، الأمر الذي تطلب حركة تطهير وتقييم (النص ٣٨-٤٦ ، الدراسة
ص ٣٢ وانظر فيما يأتى ص ٤٨٤)

١٢- من حضرة مراكش إلى طلبة تلمسان . والموضوع هو اهتمام
الدولة الموحدية بتنظيم المجتمع بما يؤدى إلى تحقيق مصلحته الدينية والدنيوية ،
وذلك عن طريق اشتغال أهل التوحيد بنفوسهم ، والعكوف على قراءة توحيدهم .
وهكذا استدعيت مختلف القبائل ، وأخذوا بالقراءة والتعليم ، ومدارس التوحيد .
وبناء على هذا الاختبار ابتدئ بتنظيم الناس على طبقات ٣ (ثلاث) ، هى : ١-
السابقون الأولون ، ٢- من دخل الحزب من بعد البحيرة إلى فتح وهران ، ٣- من
دخل الحزب من فتح وهران إلى هلم جرا (النص ص ٤٧-٥٥ ، الدراسة ص ٣٣-٣٤).

حيث تحديد عام الاعتراف الذي تم فيه ذلك بسنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م - وقارن الرسالة (١٥).

١٣- من رباط الفتح إلى طلبة سبته وطنجة وجميع من بهما من الموحدين والأشباخ والأعيان والخاصة والعامة . والموضوع هو ترشيح السيد/أبي عبد الله محمد (ابن الخليفة :عبد المؤمن) لولاية العهد . من قبل : العشائر العربية الهلالية ، والقبائل الشرقية والصنهاجية . هذا إلى جانب توليه لبلادهم وإنفاذه معهم . وهذا الأمر تطلب عقد اجتماع للمشايخ ، وأخذ رأى الشيخ الأجل أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني الذي رحب بتقديم محمد . هذا ، مع الإشارة إلى أن الخليفة لم يكن قد نظر في ذلك ولا فكر فيه ، ولكنه تقبل ماتم الاجماع عليه ، وهو تعيين محمد وليا للعهد ، وحاكما للمشرق (النص ٥٥-٦٠ ، الدراسة ص ٣٥ ، حيث اقتراح تاريخ الرسالة بأوائل سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م - كما يستشف من حوليات ابن الأثير).

١٤- من رباط الفسح ، في ١٢ ربيع الأول ٥٥١ هـ / ٥ مسايه ١١٥٦م ، إلى طلبة سبته والأعيان والكافة . والموضوع : اجماع الموحدين على البيعة لمحمد بن عبد المؤمن ولياً للعهد . مع التأكيد على أن ذلك «لم يكن له عندنا (أمير المؤمنين) قصد متقدم ولاهم متوهم، ولكنه أمر أراد الله» وأنه أتى عن طريق العشائر الهلالية والوفود المشرقية مع الرغبة أيضا في استصحاب أحد أخوته . وبعد المذاكرة رؤى جعل منطقة المجاز ، من : غمارة وسبته ولاية رابطة بالعدوتين مع طنجة والجزيرتين ومالقة ، حيث يكون ارتباط البر بالبحر . وبعد المدارس تقرر أن يكون مع كل أحد من الآخرين من يعينهما ، من : كبار الطلبة والحفاظ وأعيان الفقهاء والقضاة ، ونخبة من الأئماء والثقة من يعينهم في مهامهم المختلفة (النص ص ٦١-٦٦ ، الدراسة ص ٣٧-٣٨ حيث تولية أبناء عبد المؤمن الولايات المختلفة).

١٥٠- من حضرة مراکش إلى طلبة سبتة والأشباخ والأعيان والكافة . وموضوع الرسالة هو إرشاد الناس إلى طريق الخير باللجوء إلى التوبة والتمسك بالأخلاق الكريمة ، من : الصدق ودفع النسيئة والذميمة . ومعاهدة الله على ذلك حتى غُتِ المغفرة والمحابة عن الناس ظلمة التوحش . مع تكرار الدعوة إلى التصافح والتغافر والتحلى بالآداب الكرام (النص ٦٧-٧١ ، الدراسة ص ٣٨ - حيث النص على القراءة مع الرسالة رقم ١٢ الخاصة بتطبيقات الموحدين).

١٦- من حضرة مراکش ، في العشر الأول من شعبان سنة ٥٥٢ هـ / أوائل سبتمبر ١١٥٧ م ، إلى طلبة بجاية والأشباخ والأعيان والكافة . والموضوع هو فتح المرية وبهاية وأبذه ، وموت السليطين (الفونس الـ٧) القشتالي . وتبدأ الرسالة بالنص على أن بلاد الأندلس كانت تستدعى من الدولة المزيد من العناية بسبب خطر العدو الأسباني . أما عن اختيار تحرير المرية فبسبب موقعها الاستراتيجي بين كل من الجهات الشرقية والغربية والرابط بين البلاد البرية والبحرية. وكانت المبادرة من طلبة غرناطة الذين اقتحموا أبواب المرية . وتيسر لهم فتح المدينة باستثناء القسبة التي ضرب عليها الموحدون الحصار . وعندئذ استصرخ ابن مردنيش بملك قشتالة السليطين ، ولكن الهزيمة التامة لحقت بالأشقياء ، وتم سقوط القسبة ، وكانت نتيجة الهزيمة الموت كمدا بالنسبة للسليطين ، بالقرب من بيسة التي سار إليها الموحدون واستولوا عليها ، كما تبعوا الغازي منها إلى أبذة واستولوا عليها أيضاً . وبذلك نص الرسالة على استراحة بلاد الأندلس من دانها العضال (النص ص ٧١-٨١ ، الدراسة ص ٣٩-٤١ ، حيث تقرر أن تلك الرسالة كانت المصدر الذي استقى منه ابن الأثير روايته).

١٧- من حضرة مراکش ، في ٢٨ رمضان ٥٥٢ هـ / ١٣ أكتوبر ١١٥٧ م ، إلى الطلبة والأشباخ والأعيان والكافة - دون ذكر الجهة وأنظارها . والموضوع :جولة تفتيشية في بلاد الموحدين لتجديد الذكرى والموعظة ببلاد قبائل:

جدمية ، وجلسودة ، وجنفيسة وجراحة وحاحة . وكان الوصول إلى تارودانت في شهر رمضان / أكتوبر نوفمبر ١١٥٧ م . ومنها كانت زيارة ضريح المهدي في تينملل حيث الإقامة فيه بضعة أيام تبركا ، وللنظر في تحسين الأوضاع في الثرية المقدسة ، من : نصب باب على مدخل القاريق من شدة الهواء ، والنظر في إقامة قبة تغطي أرجاء مع تسوير أرضه - الأمر الذي تم المجازة بفضل العمل الدائب نهاراً وليلاً . هذا ، كما تم اللقاء بشيوخ هرغة وأعيانهم حيث أعلن الصفح عنهم - ربما بسبب مسألة أخوي المهدي وقربهم بصلامن ، على ما نظن ومن هرغة كان المسير في قسم الجبال العالية إلى أنسا حيث قبائل تينملل وهنتاتة ، والإقامة عند قبائل الجنوب من صنهاجة وهسكورة حتى نهاية الحريف ، حيث كانت العودة وسط ترهيب القبائل على طول الطريق ، حيث النص على لحاج الجولة ، وتجهيد البيعة ، وإعلان التمسك بالدعوة الموحدية ، وإعراب الكثيرين ، وخاصة من قبائل الكوست عن الرغبة « في الإسلام » . وهم يتوسلون بحرمة ذلك المقام . وفي مقام المهدي قبيل ، كما قيل في الروضة النبوية المشرفة : « ما بين قهر المنعم ومسجده المكرم ، روضة من رياض الجنة » (النص ص ٨١-٩١ ، الدراسة ، ص ٤١-٤٣ حيث الإشارة إلى زيارات عهد المؤمن المختلفة مع المقارنة مع رواية البيهقي).

١٨- من حضرة مراكش ، في ١٤ رجب من ٥٥٣ هـ / ١٣ أغسطس ١١٥٨ م والموضوع إشارة إلى انتصار محقق على العدو الاسباني ، مع تحريض المرسل إليهم على الماكر والاتفاق في الكثير والقليل من الاعمال (النص ص ٩٣-٩٥ ، الدراسة ص ٤٣ - حيث النص على عدم معرفة الحدث في المصادر).

١٩- من منزل الموحدين بظاهر المهدية ، في ٢٠ من ذي القعدة سنة ٥٥٤ هـ / ١٤ ديسمبر ١١٥٩ م إلى طلبة غرناطة والموحدين بها . والموضوع هو الاهتمام بالبلاد الشرقية ، مع الانشغال بأحوال العدة الأندلسية ، والنظر فعلا في

اختطاط «مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق .. «مجمع البحرين، والقطب الآخذ بأطراف البرين» . ولقد سير عبد المؤمن إلى هناك الشيخ برّاز بن محمد (السوفى) والحاج يعيش (المهندس) لتنفيذ العمل . هذا مع إخطار الشيخ الأجلّ أبى حفص ليصل إلى المكان ، وكذلك القائد أبى محمد عبد الله بن حيار الجياني حيث المذاكرة فى تلك المسألة . هذا ، مع الإشارة إلى فتح قفصة ، ومخاطبة عرب قابس (النص ص ٩٥ - ٩٩ الدراسة ، ص ٤٣ - حيث الإشارة إلى تأكيد بناء جبل طارق قبل سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م).

٢- من داخل قفصة إلى طلبه قرطبة والموحدين والاشياخ والأعيان والموضوع عن استيلاء الموحدين على مدينة قفصة ومشاركة الأعراب وأوياش الأكراد فى الثورة والفساد بسبب حصانة الموضع ، والمسير إليها فى طريق غير معهود ثم الالتفاف حولها فى غروس وبنات وعرة المسالك أما عن الحصار فكان شديدا ، مع نصب المجانيق التى هدمت سوارحه ودبها . ومع ذلك فقد استمرت المقاومة حتى عرض عليهم الموحدون الأمان نظير الاستسلام . ولكنهم غادوا فى المقاومة . وهكذا تطلب الأمر الاستمرار فى الرمي بالحجارة ، وقاموا برده المندق ، واقتحام السقارة ، ودخول المدينة صوة ، وبالتالى استباحتها وعندئذ طلب القفصيون الأمان وأعلنوا التوبة فقبل منهم وهكذا «خرج رعيهم عن البلد صاغراً مع «دعار اللصوص وأباق العبيد» .

أما عن العرب فى المنطقة فإنهم وافقوا تعريض زللهم بالغزو فى جزيرة الأندلس (النص ص ٩٩-١١٢ ، الدراسة ص ٤٥-٤٧ - حيث تقرير أن المعلومات شعبية عن فتح قفصة).

٢١- من أمير المؤمنين (عبد المؤمن) فى ٢٤ من ربيع الآخر سنة ٥٥٥ هـ / ٢٣ أبريل ١١٦ م ، إلى طلبه فاس والشيوخ والأعيان والكافة . والموضوع تكملة غزو أفريقية التى هى فى حوزة قبيلة رباح ، حيث الإشارة إلى ظفر

العساكر بالسبأيا والغنائم ، مما غصّ به الفضاء ، ودخول العرب لى سلك أهل التوحيد ، والمواقفة على الهجرة إلى بلاد الموحدين ، وكذلك قبيلة جشم والفخذ الحميدى منها . هذا كما أظهر الأئيج وزغبة الطاعة (النص ص ١١٣ - ١٢١) . الدراسة ، ص ٤٨ - حيث الإشارة إلى كتابة الرسالة فى فحص متبجة ، والمقارنة مع ابن الأثير).

٢٣- والرسالة هذه ، هى المعروفة باسم «الفصول» ، وهى صادرة من رباط الفتح ، فى ٣ ربيع الأول سنة ٥٥٦ هـ / ٢ مارس ١١٦١ م . من أمير المؤمنين عبد المؤمن إلى أهل بجاية ، وهى من رسائل الدعاية الموحدية التى كانت ترسل إلى جماعة الموحدين ما بين الحين والآخر ، وهى تعرف بأصول مذهب التوحيد - الذى ينبغى أن يقرأ باللسان القربى (البربرى) لمن يفهمونه - من أوله إلى آخره بهنصره المختلفة ، مثل : العقيدة والمرشدة ، وجهاد المجسمين (الأصل ص ١٢٦ - ١٣٨) . الدراسة ، ص ٤٩ - حيث النص على أنها لابن عطية ، وترجع إلى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، وانها استخدمت فيما بعد مع تغيير التاريخ).

المن بالإمامة لآل بن صاحب الصلاة :

تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين «المن بالإمامة» - السفر الثانى - تأليف عبد الملك بن صاحب الصلاة - تحقيق عبد الهادى الغازى - بيروت ١٩٦٤ .

وابن صاحب الصلاة : المؤلف ، هو : أبو مروان عبد الملك بن محمد بن احمد . الباحى ، المعروف بصاحب «القارىخ» ، «وتاريخ ثورة المريردين بالأندلس» (ص ١٣) . وإذا كان كل من ابن الأبار وعبد الواحد المراكشى لا يقدم شيئا عن حياته ، فقد عرف المؤلف بنفسه فى عدد من المواضع فى ذلك السفر ، وإذا كان الباحثون المحدثون يجعلون وفاته فى ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م (ص ٢٥ - فإن المحقق يقترح أن تكون وفاته بعد سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ (ص ٢٦).

والسفر الثانى يعالج فترة ١٥ (خمسة عشر) عاما من تاريخ الموحدين (ما بين ٥٥٤ / ١١٤٧ م - ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م . أما عن الدراسة التى قام بها د. عبد الهادى التازى لهذا السفر فهى دراسة شاملة ، عالج فيها أسانيد المؤلف ، وطريقة الخوليات التى أتبعها (ص ٤٤) ، كما وضح أنه مرجع اساس لكل من ابن القطان وابن عذارى.

وفىما يتعلق بالفترة موضوع دراستنا فإن ابن صاحب الصلاة يعالجها فى سنوات ٥٥٤ هـ / ١١٥٩ م - حيث منازلة ابن مرنيس مدينة جيان ومحاصرة قرطبة (ص ١١٥) ، وحيث ورود الكتابين (الرسالتين) المبشرين بالفتح من ظاهر المهديّة، وفتح المهديّة نفسها فى يوم عاشوراء، واتصال فتوح افرىقية ، وطوع العرب ثم ارتدادهم (ص ١٢١) .

ومن أهم الرسائل الرسمية التى يشير اليها ابن صاحب الصلاة فى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م : كتاب فتح المهديّة المرسل إلى اشبيلية (ص ١٢٦) ، والخطاب بفتح قفصة ، ومخاطبة بنى سليم بالتوحيد (ص ١٢٩) وكتاب الايقاع بالوزير عبد السلام الكوسى (ص ١٣٦) ، وكتاب بناء مدينة جبل طارق (ص ١٣٨) . وفى أول سنة ٥٥٦ هـ / آخر سنة ١١٦٠ م كان انصراف عبد المؤمن من جبل الفتح إلى مراكش (ص ١٧٢) . وفى سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م كانت حركة عبد المؤمن إلى رباط الفتح بقصد الغزو ، ووصول أنباء هزيمة مرج الرقاد بفرناطة . ومن ثمّ الثأر فى موقعة حذاره (ص ٢٠٣) . أما عن سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م فهى سنة وفاة عبد المؤمن وإسقاط ولاية العهد نهائيا عن محمد ، وتثبيتها ليوسف.

نظم الجمال لابن القطان :

ويأتى فى المرتبة التالية لكتاب المن بالإمامة - بالنسبة لتاريخ الموحدين - كتاب نظم الجمال لابن القطان : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط ، تحقيق د. محمود على مكي - بمساهمة المركز الجامعى

للبحث العلمى وتحت اشراف معهد مولاي الحسن للبحوث (٣).

المؤلف مابين الأب والابن

كان من المتفق عليه قبل نشر تلك القطعة من نظم الجمال أن مؤلف الكتاب هو أبو الحسن على بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامى الفاسى، والمعروف بابن القبطان، والمتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م . ولكنه لما كان ابن القبطان المؤلف قد

(٣) وهذه القطعة من نظم الجمان كانت إلى قبيل سنة ١٩٥١ ملكا للعالم المغربى الجليل سيدى عبد الحى الكتامى، وإنه أهدها قريب ذلك الوقت لأستاذنا أ. ليفى - بروفنسال. هذا ما قاله لى «مولاي» عبد الحى عندما زوره فى داره العاصرة لى ربيع سنة ١٩٥٩ (قارن تقديم المعلق، ص ٢٧-٧) بمدينة فاس - المحروسة - وهى طلمنى، فى حضور لجنة الشاب الأدبى، على ذخائر خزائنه من المصاحف الأثرية الثمينة. وهنا لا بأس من الإشارة إلى أنه فى ذلك الوقت كان من الصعوبة بمكان أن يسمح لمثلى - بصفتى مواطنا مصريا - بدخول أراضى المملكة المغربية الشريفة، حيث كانت الأزمة السياسية بين السلطان محمد الخامس وفرنسا قد بلغت الذروة، وتخطت الحدود المعروفة بين الدول. وهنا أقول انه لولا تركية الأستاذ بروفنسال لى - بصفتى تلميذه المصرى - لما تمكنت وقتئذ من دخول المغرب.

وبهذه المناسبة أحب أن أسجل أن الأستاذ بروفنسال كان يقول لى فى ذلك الحين إنه يثق إلى جانب السلطان محمد الخامس ويؤيده. كما أرى أنه من المناسب أن أسجل انى عندما ذهبت لى رحلتى العلمية هذه إلى مدينة مراكش، وعرف الطلبة المغاربة بوجردى - وكان منهم الصديق الأستاذ محمد بن شريف - كما عرفت مؤخرا - رتبوا لى لقاء خاصا معهم، ثم فى فناء بعض الدور، حيث تحدثنا عن الظروف الصعبة التى كانت تمر بها البلاد وقتئذ، وأذكر أننى انتهت وقتئذ أن تسمح لى الظروف، فى وقت قريب، باللقاء معهم فى العلن - فى ساحة الفناء - وليس فى الستر كما كان الحال.

هذا، كما أشير اليه ما دار بينى وبين رجال التفيتش الجمركى وهم يفتشون كتبى تحت إشراف المسؤولين من رجال الجمرک الفرنسيين، فأذكر أننى قلت لهم - غاصبا - إننى سوف أهرود قريبا دون أن يكون هناك من يشرف على التفيتش أحد من غير المغاربة، بل سأعني من التفيتش تماما. وهذا ما تحقق لى فعلا - والحمد لله - عند زيارتى الثانية للمغرب، وإن كان فى سنة ١٩٨٨، وفى جمرک مطار الرباط، بفضل شهامة رجاله الكرام.



فاس : الزاوية الكتانية الكبرى

أدرك الخليفة الموحدى المرتضى - كما يلهم من نص لابن عذارى - الذى حكم ما بين ٦٤٦ - ٦٦٥ هـ / ١٢٤٨ - ١٢٥٧ م ، حق للمحقق د. مكى أن يرجع أن يكون أبو الحسن المذكور ، والمتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ، هو الأب ، بينما يكون المؤلف هو الابن ، وهو أبو على الحسن (حسين أصلاً) بن القطان الكتامى مؤلف «نظام الجمان» كما يرد فى كتاب مفاخر البربر - وإن لم يعرف تاريخ مولده أو تاريخ وفاته (٤).

والذى نراه أنه لما كان المؤلف الابن من كتاب الدولة الموحدية ، وأن الأب كان من الدعاة الموحدين المتحمسين (ص : ص ، ف) فلا بأس أن يكون الأب مشاركاً لابن بطريقة أو بأخرى فى تأليف الكتاب ؛ كأن يكون هو الذى بدأ بتدوين التاريخ الذى استكمله الابن بعده ، وهو الأمر المقبول .

أما عن عنوان الكتاب فهو «نظم الجمان لترتيب ماسلف من أخبار الزمان» . بمعنى أن الكتاب موسوعة من نوع كتب التاريخ العالم ، كالطبرى وابن الأثير ، الأمر الذى يعنى أن القطعة المنشورة ليست إلا جزءاً صغيراً منه . وهى الحقيقة لاتتناول إلا ٣٣ (ثلاثة وثلاثين) سنة ، ابتداءً من سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م إلى سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م ، فهو إذن من المصادر الأساسية بالنسبة لعهدى المهدي وعبد المؤمن . والكتاب يستقى معلوماته من كتب تاريخ المغرب الضائعة ، مثل : فضائل المهدي لأبى القاسم المؤمن المصرى وابن الراعى واليسع ، والموجود منها مثل : كتب البيهقي وابن صاحب الصلاة ، هذا إلى جانب الرسائل الموحدية التى كانت واسعة الانتشار ، من : رسمية أو دعائية - الأمر الذى وثق تاريخ الموحدين ، رغم ما أصابه من حكايات شعبية فلكورية أو حكومية متقبة.

وهكذا يعتبر نظم الجمان لابن القطان من مصادر التاريخ الموحدى الرئيسية ،

(٤) انظر المقدمة ، ص . ط (الأب) ، ص . د (الابن).

رغم منافيه من اضطراب أو خروم ، والأمل فى العثور على نسخ أو قطع أوفى مما بين أيدينا ، لا ينقطع بطبيعة الحال.

المعجب لعبد الواحد المراكشى:

ومن الكتب المصدرة أيضا بالنسبة لتاريخ الموحدين ، يذكر أيضا : كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، الذى ألف بمعرفة عبد الواحد المراكشى المتوفى سنة ٦٢١ هـ / ١١٢٤ م بالمشرق أثناء إقامته هناك .

والحقيقة أن الكتاب الذى يظهر فى القسم الأول منه وكأنه كتاب عام فى تاريخ المغرب والأندلس ، يتحول فى القسم الثانى منه إلى كتاب مرجعى أصيل بالنسبة لتاريخ الموحدين ، من حيث إن المؤلف موحدى أصيل له صلات ببعض السادة (من الأمراء) الموحدين ، وله علاقات حميمة بعدد من كتب الدواوين.

والكتاب يبدأ ذلك القسم (فى ص ١٧٨) بذكر ظهور محمد بن تومرت المتسمى بالمهدى ، وقيامه بالأمر بالمعروف ، ومن ثم بداية الدعوة الموحدية والصراع مع المرابطين ، كتمهيد لولاية عبد المؤمن ، وبداية تكوين الامبراطورية الموحدية ، بدأ بفتح المشرق ومن ثم العبور إلى الأندلس.

ومن المهم الإشارة إلى أن عبد الواحد أديب يحب الأدب ، ويتذوق الشعر ويعرف بالكثير من الشعراء. والمعجب فى الحقيقة كتاب سياسة وثقافة واجتماع ، وساعد المؤلف على توجيهه تلك الوجهة العامة أنه كان يكتب فى المشرق بعيداً عن مصادره الأساسية ، ولو أنه يشير فى كثير من المواضع إلى أنه كان يأخذ أخباره عن الأمير يحيى من أولاد ابن يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (ص ل).

وإذا كانت أخبار عبد الواحد تنقصها الدقة فى بعض الأحيان ، فإنها على وجه الإجمال تعطى فكرة معتبرة بفضل معاصرة المؤلف ومركزه الاجتماعى والثقافى المتميز.

البيان المغرب لابن عذارى:

أما عن كتاب ابن عذارى الموسوم بالبيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب. فهو يعتبر عمدة تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامي وحتى أوائل القرن الثامن الهجري (١٤ م). والمؤلف الذي له دراية متعمقة بكل مصادر تاريخ المغرب، التي يعرضها بإسهاب في مقدمة الكتاب، يعتبر من عمالقة مؤرخي الإسلام الموهوبين، من حيث المقدرة على حسن اختيار المصادر الخاصة بمعهد دول المغرب المختلفة، والموهبة في التقاط الأحداث الهامة، وبالتالي الوصول إلى الهدف مباشرة. دغما خروج عن صلب الموضوع، مع المقدرة على بيان ترابط الأحداث في شكل طبيعي دون اقتعال - الأمر الذي يذكر بهن الاثير في كامله.

وهنا لابد من الإشارة إلى جهود الأستاذ أمبروزيو هويشي ميراندا في الكشف عن القسم الثالث من البيان المغرب، وهو الخاص بالموحدين، والذي وفق بعد جهود مضنية في نشره، ومن ثم في استخدامه في كتابه عن الموحدين. وهذا القسم الخاص بالموحدين، من منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس، وثم أخراجه تحت إشراف معهد مولاي الحسن بتطوان، بمعرفة هويشي، وبمشاركة محمد بن تاويته ومحمد إبراهيم الكتاني - تطوان - ١٩٦٣ (٥) ونكتفي هنا بالإشارة إلى أن مصدر ابن عذارى الرئيسي في القسم الخاص بالموحدين هو ابن صاحب الصلاة في المن بالامامة.

(٥) هذا كما تذكر مساهمة الأستاذ عبد القادر زمامه، في إلقاء الضوء على قطعة مكتشفة من ابن عذارى تلقى مزيداً من الضوء على جواز القاضي عياض إلى ابن عاتيه والوفد الناهض من اشبيلية إلى عبد المؤمن وتلخيص دخول الموحدين للأندلس، وما حدث على أهل اشبيلية عند فتح الموحدين لها - انظر مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطريد، المجلد ٢٠ (٧٩-١٩٨٠)، ص ١٠٣ - ١١٢ {

الكامل لابن الأثير:

وكامل ابن الأثير ، ط. أوربا في ١٢ ج + ١ ج للمحتوى ، يعتبر من مصادر تاريخ المغرب والأندلس على مرّ العصور - كما هو عمدة تاريخ المشرق . والحقيقة أن ابن الأثير في كتابه الكامل مؤرخ موهوب يعرف أصول المنهج العلمى الصحيح فى التاريخ ، والذي يعتمد على التوثيق المعتبر . وهو ما يظهر فى تاريخ الموحدين بشكل خاص من حيث أخذه من الرسائل الحكومية والمنشورات الرسمية للدولة الموحدية - وهو الأمر الذى أشار اليه الاستاذ بروفنسال أكثر من مرة فى مجموع رسائله الموحدية (انظر ماسبق ، ص ١٥ - الرسالة ١٦)

صلة ابن الأثير وحلته السيرة :

والى جانب ابن الأثير ينفرد ابن الأثير بمكانة خاصة بالنسبة لتاريخ الموحدين ، وذلك فى كتابه : الصلة الذى استفدنا منه فى التاريخ الثقافى للأندلس على أواخر أيام المرابطين وبداية عصر الموحدين ، وكذلك الأمر بالنسبة لكتاب الحلة السيرة الذى ألقى بكثير من الأضواء السياسية والاجتماعية على فتن الطوائف فى الأندلس فى الفترة موضوع الدراسة.

عبد الرحمن بن خلدون :

وفى خضم أحوال الطوائف والصراعات بين المرابطين والموحدين ينفرد ابن خلدون فى كثير من المواضع ، بمعلومات أصلية عن كثير من الأحداث ، وإن لم يُشر إلى مصادرها .

أما عن وفيات ابن خلدون وأعمال ابن الخطيب ونفح المقرئ فلها قيمتها المصدرية فى كثير من المواضع أما عن الأعمال الحديثة فنذكر منها امبراطورية الموحدين لهريشى ميراندا ، وتاريخ المرابطين والموحدين لعنان ، إلى جانب الدراسات الحديثة لشباب الباحثين الجامعيين.

وقدما يتعلق بأسلوب الدراسة والبحث الذي التزمنا به ، فيتلخص في تمسكنا بتقديم المصادر حسب أصالتها من الناحيتين الزمنية والموضوعية ، وهو الأمر الذي تطلب الكثير من الصبر والمعاناة في إمعان النظر في النصوص الأصلية ، مما كشف عنه حديثا في شكل قطع متناثرة ، ربما لاتصلح أوضاعها في عدة مواضع - رغم الجهد في التحقيق - هذا مع محاولة إلقاء بعض الضوء على ما درسناه من تاريخ الموحدين .

وعلى الله التوفيق .

الفصل الأول

البلاد والسكان

A S R

البلاد

A S R

البلاد

مهد الدولة الموحدية هو بلاد المغرب الأقصى ، التي عرفت منذ العصر الموحدى باسم البلاد المراكشية ، نسبة إلى مدينة مراكش العاصمة وقتئذ . ومراكش بناها المرابطون ، ومصرها الموحدون ، فجعلوها منها وريثة لقرطبة ، أى مقراً لخلافة جديدة ، منافسة لخلافة بغداد العباسية ، هى خلافة الموحدين ، خلفاء محمد بن تومرت : المهدي وعبد المؤمن بن علي الكومي . والحقيقة أن مراكش أصبحت على عهد الموحدين مدينة عالمية ، حق لها أن تعطى اسمها لكل بلاد المغرب الأقصى التي صارت تعرف باسم مراكش ، أى البلاد «المراكشية» ، كما عرفت إفريقية التونسية من قبل باسم «بلاد القيروان» نسبة إلى عاصمتها الأولى ، مدينة عقبة بن نافع.

وهكذا فإذا كانت «المملكة المغربية» مارالت ، حالياً ، تحمل اسم مراكش فى صيغته الأوربية ، سواء فى شكل (Marruecos) الإسبانية أو موروكو (Morocco) الإنجليزية أو ماروك (Maroc) الفرنسية ، فبأن العودة حديثاً إلى اسم «المغرب» الحالى بمعنى «المغرب الأقصى» الذى لا مغرب بعده ، هى فى الحقيقة عودة إلى التسمية التاريخية الإسلامية الأولى ، الأمر الذى يكرس شخصية تلك البلاد حقاً ، من حيث أنها مغرب لكل الشمال الأفريقى ، وليست مشرقاً بالنسبة لأى من وحداته السياسية المعاصرة.

وتتمثل الشخصية المراكشية - حقيقة - فيما يضمه عليها الموقع الجغرافى من صفات مميزة ، قد لا تتوفر لغير المغرب الأقصى من بلاد المغرب الأوسط الحزانى أو إفريقية التونسية : بلاد القيروان القديمة ، فالمغرب الأقصى يتميز عن بقية الشمال الأفريقى بواجهتيه البحريتين : المتوسطية فى شرق مضيق جبل طارق ، باستقامة

حتى ولاية وهران ، على امتداد حوالي ٥٠٠ كم في مواجهة الشواطئ
الاسبانية ، والأطلنطية من طنجة إلى رأس سبارتل على امتداد أكثر من
٨٠٠ كم .

السواحل البحرية :

١- المتوسطية :

وهي شواطئ وعرة تقطعها خلجان جميلة على شكل أقواس الدائرة ، كما هو
الحال بالنسبة للخلجان المتوسطية في الشرق ، وهي عادة ليست مكنونة من الأنواء
بما فيه الكفاية ، كما أنها صعبة الاتصال بالداخل . مضيق جهل طارق يعتبر
النقطة الأساسية في العبور من المحيط الأطلسي إلى البحر المتوسط ، وعلى المضيق
تقع مدينتا طنجة وسبتة ، ومن هذه الأخيرة ، أو بالقرب منها يكون التناهب للعبور
من العدو المغربية إلى العدو الأندلسية (١) . وإلى الشرق تقع خلجان بادس ،
والحسيمة ، ومليلة ، وغير بعيد من حدود وهران تتقدم رأس الماء ، والتي تتواصل
بجميعها جزائر الظفارين (٢) .

٢- الأطلنسية :

وهي شواطئ تمتد ابتداء من رأس سبارتل (بطنجة) في اتجاه شمالي خفيف ، ثم
جنوبي غربي على امتداد أكثر من ٨٠٠ كم . حتى موجدور ، وهي على غلط
واحد ، واطئ ، وتنقصه الموانئ الطبيعية المكنونة . وهذه السواحل الأطلنطية قليلة
الارتفاع ، ودائما ما تضربها الأمواج.

(١) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق بالفرنسية، ص ٤ - حيث تعرف كل من جهل طارق وطنجة
بأعمدة هرقل - انظر P. Ricard, Maroc, les guides bleus, Paris, 1950 .

(٢) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص ٤.

وهي في بعض المواضع تتكون من رمال آتية من تلتت الحصى الهش ، ويلى ذلك تشكيل من المستنقعات المنتظم (٣) .

ووصف الادريسي لينا ، سلا ومدينة سلايين تلك الحقيقة . فسلا القديمة وهي شالة تقع على بعد ٢ ميل من البحر (٤) بمعنى أن ميناها كان في داخل فم النهر (أسير) ، وليس على شاطئ البحر . أما سلا الحديثة فهي منبوعة من جانب البحر ، لا يقدر أحد من أهل المراكب من الوصول اليها من جهته ، وذلك أن «المراكب الواردة عليها لا ترسى منها في شئ من البحر ، لأن مرساها مكشوف ، وإنما ترسى المراكب بها في الوادي» (الذي تقدم ذكره) . هذا إلى جانب النص على أنه «تجوز المراكب على فوهته بدليل ، لأن فم الوادي أحجار وتروش ينكسر عليها المراكب . والمدة والجزر مرتين في اليوم تدخل به المراكب وتخرج» (٥) وفي مسافة لأخرى تظهر بعض الرؤوس البحرية . مثل الرأس الأبيض في جنوب مزاجان ورأس كانتين شمال صاقى . ورأس غير (Guir) شمال أغادير . ورأس درعة عند مصب الوادي الذي يحمل نفس الاسم (٦) .

الجبال

والى جانب الامتداد الساحلى الذى يناهز ١٣ كم. يتميز المغرب الأقصى بسلاسل جبال الأطلسى ، التى تعرف عند الكتاب العرب باسم جبال درن ، وهي الكلمة البربرية (درن Dren) ، التى تعنى جبل الجبال ، أو جبل الزئير . زئير

(٣) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص ٤.

(٤) نزهة المشتاق، ص ٢٣٨

(٥) نزهة المشتاق، ص ٢٣٨-٢٣٩

(٦) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص ٤.

الأسود (٧). والحقيقة أن جبال درن (أطلس) في شمال الصحراء (الكبرى) الأفريقية، أشبه ما تكون بالهيكل العظمى الذي يشد أوصال بلاد المغرب الحضرية من شرق بلاد أفريقية المتوسطية - حيث يبدأ محورها - وحتى نهاية بلاد المغرب الأقصى الأطلنطية - عند نول لمطة - فكانها وحدة طبيعية واحدة ، تتصف بالصلاب والقوة ، في مقابل الصحراء الكبرى الشبيهة ببحر هائل من الرمال السائلة من الشرق والبحر المحيط الذي لانهية لأمواجه الدافقة من الغرب ، حتى عرف في المصطلح ببحر الظلمات (٨) .

وهكذا كان للبحر والجبل اللذين يرسمان الحدود الطبيعية أثرهما في تكوين

(٧) انظر الادريسي، نزهة المشتاق، ١٩٩٤، ص ٢٢٩ - حيث التسمية : "جبل درن الأعظم الذي ليس مثله إلا القليل في السموات وطول المسافة، وانظر دبليردان (G.Deverdun) ، مراکش (بالفرنسية)، ص ٧ وهـ ٣ - حيث جبال أطلس، وهي درن (dren) القديمة، من البربرية؛ ادرار، ن : جبل الجبال، وانظر تاريخنا، ج ٤ ص ٢٩ - ح ٤ ص ٦٨ وهـ ٢٩ - حيث الإشارة إلى ابن خلدون، درش (J.dresch) : وتعليق لاوست (E.Laoust) على خريطة درش لجبال أطلس العليا (درن)، مجلة الدراسات الإسلامية، سنة ١٩٣٩، كراسة ٣ - ٤ ، ص ٢٠١ عن تسمية أطلس العليا (درن)، مجلة الدراسات الإسلامية، سنة ١٩٣٩، كراسة ٣ - ٤ ، ص ٢٠١ عن تسمية أطلس العليا ب ادرار درن، وقارن ، ويكار، مراکش، المرشد الأزرق (بالفرنسية) ص ١٥٤.

(٨) الادريسي، نزهة المشتاق، ج ١ ص ١٧ - حيث البحر الغربي، وبحر الظلمات، الذي توجد فيه جزيرتان تسميان بالخالدات، لا يعلم شيء من المصير خلفها، ص ١٠٣ - حيث اسم الجزيرتين : مصفهان ولفوص، وأنها أكبر جزيرتين في مجموعة من ٦ (ست) جزر، وتسمى بالخالدات، ومنها يبدأ بطليموس بالتعديل، ص ٢١٧ - حيث توجد بالبحر المحيط بجزيرة سادة، وجزيرة السعالي التي يوجد بها وجدل كلتسا لهم أنياب بادية (كناية عن الشكل المخول)، ولقنهم لا تفهم، وأنهم "يحاربون الدواب البحرية" (كناية عن صيد الأسماك الكبيرة الحجم بالحرايب). هذا إلى جانب جزيرة الثور، وجزيرة الآخرين الساحرين اللذين كانا يقطعان على المراكب، فمسح الله بهما، وبقيا حجرين (حسب المعتقدات الشعبية القديمة، والتي تعبر بتلك المقولة عن اتقان صناعة السانيل قديما) على ضفة البحر، في مقابل مدينة أسفى.

الشخصية المغربية من حيث أنه كان لكل منهما تأثيره في الآخر، وبالتالي في تشكل البيئة الطبيعية والمحيط الإنساني.

الجبل ودرن (هـ ٧ ص ٣٢)

نظريية الجغرافية العربية - المتأثرة بجغرافية بطليموس - ترى أن جبل درن الأعظم يمتد من الغرب إلى الشرق ، حيث يكون مبدؤه من البحر المحيط في أقصى بلاد السوس ، لكي يمر بعد ذلك مستقيما نحو الشرق حتى يصل إلى جبل نفوسة أو جبال طرابلس ، ثم أنه يندق هناك ويختفي أثره - حسبما ينص الإدريسي (٩) . وأن كانت هناك بعض الآراء التي تقول بأن جبال درن تستمر في مسيرتها شرقا بعد ذلك نحو برقة وأرض مصر حيث يظهر غير بعيد من الإسكندرية ، فيما يعرف هناك باسم رأس أوثان التي ربما قصد بها ما عرف باسم «العقبة الصغرى» ، وهي عقبة السلوم الحالية ، كما نرى (١٠) . وهكذا تعتبر سلاسل الجبال الممتدة نحو الشرق في المغرب الأوسط وإفريقية التونسية من توابع جبل درن ، مثل جبل أوراس

(٩) نزهة المشتاق، ج ١ ص ٢٢٩ .

(١٠) نزهة المشتاق، ج ١ ص ٢٢٩ - حيث النص على أنه "وحكى غير واحد أن طرف هذا الجبل (درن) يصل إلى البحر حيث الطرف المسمى أوثان، وقارن الاستبصار، ص ١٦٣ - حيث اعتبار جبل أوراس بمثابة جبل درن (أطلس) ، وأنه يشق بلاد المغرب وإفريقية، فيكون طرفه الغربي في أيغيران يطوف (حيث انتهى عقبيه بن نافع) بينما يكون طرفه الشرقي بقرب الإسكندرية، وهو المسمى بطرف أوثان، الذي إذا عبرته المراكب (نحو الإسكندرية) استثمرت بالسلامة، وانظر أيضا، ص ٢١١ . عن مدينة فروجة (أو أفروجي) على مرحلة من مراكش، من حيث يرقى إلى جبل درن، حيث النص على أنه أكبر جبال الدنيا، وأنه يتصل بجبل المقطم الذي به بلاد مصر. وقارن الحسن الوزان ، الترجمه، ص ٨٢، حيث النص على أن جبال أطلس تمتد من المحيط غربا نحو الشرق حتى قرب مصر، وأيضاً ص ٢١١ - حيث القول إن جبل درن الذي يعتبر أكبر جبال الدنيا، يتصل بجبل المقطم الذي به بلاد مصر الأمر الذي يبين أن الوزان عرف كتاب الاستبصار ونقل منه.

(١١) الذى يناهز ارتفاعه ٢٣٠٠ م (١٢) ، أو جبل ونشريس الذى يوصف بشدة الارتفاع (١٣) ، وجبل طرابلس المعروف بجبل نفوسة ، وكذلك جبل برقة (المعروف بالجبل الاخضر) (١٤).

وفى مقابل النظرية العربية ، يرى البحث الحديث أن محور جبال أطلس يسير من الشرق متدرجا فى الارتفاع نحو الغرب ابتداء من برقة إلى طرابلس واقريقية التونسية ثم الجزائر فى المغرب الأوسط حيث تعظم السلسلة فى جبل أوراس ، قبل أن يصل إلى الارتفاعات الكبيرة فى سلسلة جبال الريف ، ثم الارتفاعات السامية ، ومن ثم الذروة فى أطلس العليا : جبل درن الأعظم (١٥).

هذا ، ويقسم البحث الحديث جبال الأطلس بشكل عام إلى سلسلتين مختلفتين
النشأة ، هما :

١- جبال الريف فى الشمال (المتوسطى).

٢- جبال أطلس فى الجنوب - الغربى (الأطلنطى).

(١١) نزعة المشتاق ، ج ١ ص ٢٦٤- حيث النص على أن أوراس الذى يقع على بعد مرحلة من مدينة نقاوس ، هو فى الحقيقة قطعة متصلة من جبل درن المغرب ، وقارن الاستبصار ، ص ١٦٣- حيث اسم أوراس أيضا ، جبل جزلة ، وأنه كان يعرف عند الجزوليين باسم جبل تكسيت

(١٢) سيليريه ، مراكش ، ص ١٤- حيث الإشارة إلى جبل جرجورة من جبال الحرائر أيضا الذى يصل إلى نفس الارتفاع.

(١٣) الحسن الوزان ، الترجمة ، ص ٤١٦- حيث اعتباره من جبال مملكة تلمسان ، وإشارة إلى أن اسمه القديم هو : ورستيس التى تحولت إلى ونشريس.

(١٤) الاستبصار ، ص ١٤٣.

(١٥) ديفيردان ، مراكش ، ص ٢- حيث الإشارة إلى أن سهل مراكش يتجه محوره شرقا بغرب تقريبا.

وتنقسم جبال أطلس بدورها إلى ٣ (ثلاثة) أقسام متباينة ، هي :

أ- أطلس العليا في الجنوب (المراكشي).

ب- أطلس الوسطى.

ج- أطلس الجنوبية الصحراوية ، وهي :

سلسلة الجبال المعترضة لجبال أطلس (Anti Atlas) (١٦) .

وهكذا تنتظم جبال المغرب (المراكشي) في ٥ (خمس) مجموعات كالآتي:

١- جبال الربيع في الشمال (المتوسطى) :

وهي ترسم في شكل قوس مركزي على شاطئ البحر المتوسط ، يجعل تلك الجبال في وضع متسلط على ذلك البحر . وجبال الريف التي تعتبر مع جبال أطلس الهيكل العظمى للبلاد ، وهي في الحقيقة جزء من جبال الأندلس الجنوبية ، انفصلت عن القارة الأوروبية، وانضمت إلى الشمال المراكشي في العصور الجيولوجية القديمة . وهكذا كان التشابه في الوضع الجغرافي بين جنوب ايبيرية (الأندلس) وشمال المغرب (بلاد الريف) ، إلى جانب عدم تجاوز مضيق جبل طارق ١٥ كم بفضل ارتفاع رأس طنجة نحو الشمال ، من الأمور التي سهلت العبور بين الشاطئ الأوربي والإفريقي ، حتى أصبح المضيق همزة وصل بين العدوتين أكثر منه فاصلاً (١٧).

٢- جبال أطلس العليا في الجنوب (المراكشي) :

وهي جبال أطلس بالامتياز ، والتي جعلت منها جبل الجبال : جبل زئير الأسود

(١٦) سيليريه، مراكش، ص ١٠-١٣.

(١٧) قارن، سيليريه، مراكش، ص ١٠، وانظر، ريكارد، مراكش، ص ١٠- حيث وصف جبال الريف بأنها نمت من جبال الألب، والحسن الوزان، ص ٣٢٦- حيث الريف من مملكة فاس، وأنها تمتد من تقوم أعصدة هرقل شرقاً حتى نهر الكور- حوالي ١٤٠ ميلاً.

المخوف . وتنتصب أطلس العليا ابتداء من الشاطئ الأطلسي ، عند رأس ايعبران يطوف في بلاد السوس ، لكي تتجه شرقا نحو الحدود الجزائرية في شكل حاجز قوى ، يكاد يفصل ما بين شواطئ المحيط ، وظلماته وبرودته ، وبين سخونة الصحراء التي تتقيأ لها ، كما يقول كورييوس (١٨) .

٣- أطلس الوسطى :

جبال الأطلس هي سلسلة فرعية ، تبدأ في جبال حيان (٣٠٠٠ م) وتنتشر في الاتجاه الجنوبي الغربي والجنوبي - الشرقي حتى جبل تاركا في جنوب تازا بعد أن تكون قد ارتفعت في جبل يوريلاما إلى ٣٠٢٠ م ، وفي جبل موسى أو صلاح إلى ٣٢١٩ م ، لكي تقف بعد ذلك في الشرق ، من حيث تمتد في اتجاه غربي جنوبي غربي يسمى بجبال (١٩) وهكذا تفصل جبال أطلس الوسطى المغرب الأقصى إلى قسمين : أحدهما شرقي مرتبطا طبيعيا بإقليم وهران (الجزائري) ، والآخر غربي يتميز بصفاته الأطلسية أي البحرية المحسطة . وهنا يلاحظ أنه إذا كانت جبال أطلس الوسطى تلتهم بأطلس العليا في الجنوب ، فإنها لا تنفصل أيضا عن جبل الريف في الشمال إلا بممر تازا الضيق (٢٠) .

٤- أطلس المعترضة (الجنوبية)

وهي تأخذ اتجاهها شماليا شرقيا معترضا بالنسبة لسلاسل الأطلس والريف . وهذا الاعتراض يفصل ما بين جبال أطلس العليا ، وجبال أطلس الوسطى ، ويجعل الاتصال بالسوس من الداخل من الأمور الصعبة ، حيث تنتهي السلسلة الجبلية هناك فجأة في شكل انكسارات عميقة .

(١٨) الحسن الوزان ، (الترجمة) ص ٨٣ - ٨٦ ، وكورييوس من رجال القرن السادس م .

(١٩) ريكارد ، مراكش ، بالفرنسية ، ص ١٠ ، وأنظر سيليرييه ، مراكش ، ص ١٤ ، ص ١٦ .

(٢٠) سيليرييه ، ص ١٤ ، ص ١٩ .

والحقيقة أن هذه الوديان هي سبيل المواصلات إلى الهضبة ، والماء قليل على الطرق ، وهو يوجد في الآبار ، كما في سنج السوس ووادي ماست (٢١).

٥- أطلس الجنوبية الصحراوية؛

وهي تسير مطلة على الصحراء ، معاذية لسلسلة الجبال المتوسطية ثم المحيطية . وامتداداتها هي المعروفة باسم السرهو (Sarrho) وذلك تكون جبال أطلس المراكشية ٥ (خمس) سلاسل من الجبال تتوالى محاورها الشرقية الغربية من الشمال إلى الجنوب كالآتي :

الريف المتوسطية شرقا ، تليها جنوبا بفرب أطلس العليا ثم أطلس الوسطى ، وقيما بين هذه الأخيرة وبين العليا تنتصب الجبال المعترضة (Anti Atlas) ، وأخيرا تأتي أطلس الجنوبية ، وهي الصحرواية ، لكي تقف سداً منيعاً ما بين مراكش البحرية اللطيفة الطقس الباردة ، وبين مراكش الصحرواية القارية الساخنة . والمهم أن هذه الجبال كانت معروفة ، طبيعياً ، بأنها جبال درن ، رغم ما كانت تحمله من أسماء محلية : هنصرية كانت أم وصفية فنية.

التضاريس ،

والمهم أن سلاسل الجبال تلك تبحر فيها بينها ، وعلى طول امتداداتها الشاسعة نظاماً من الهضاب والسهول الذي يتصف بالتدرج (٢٢).

منطقة الريف ،

منطقة سلاسل جبال الريف التي تنتسب إلى امتداد نمق جبال الألب ، وإن لم

(٢١) ريكارد ، مراكش ، ص ٢١٢ .

(٢٢) سيليسيه ، مراكش ، ص ١٠ .

تكن منها (٢٣) ، والمعتدة على طول ساحل البحر المتوسط ، من جبل طارق شرقا إلى وادي الملوية ، وجنوبا حتى وادي سيرا (٢٤) ، ويحد السلسلة من جهة الغرب جبل موسى الذي يرتفع إلى ٨٥٦ م ، وهو عمود هرقل الثاني ، الذي يشرف على سبتة ، في مقابل العمود الأول وهو جبل طارق (٢٥) .

ورغم الارتفاعات المعتبرة لجبال الريف التي تصل في بعض المواضع إلى ٢.٤٥٠ م ، كما في جبل ببيديغين في الشرق ، فإنها لا تجرى من غير شك قمم الأطلسي (الجبل الأعظم) التي تفوق الـ ٣.٠٠٠ م ، بل والتي تناهز ، بل وتزيد على الـ ٤.٠٠٠ متر ، كما في «أبو كريم» ، وإيفردان ، ومجوتا (٢٦) ولكن يعوض فارق الارتفاع هذا في بلاد الريف شدة التكسيرات الالتوائية التي تظهر أكثر عنفا في الجزء الغربي من شبه الجزيرة الطنجية بين البحر المتوسط والمحيط الأطلنطي ، وهي منطقة جبل طارق (٢٧) . أما في المنطقة الوسطى التي تبدأ من عند جبل أماتراس (في بني درقول) فالسفع جيري مفتوح على الشاطئ ، كمركز للصيادين (٢٨) أما المنطقة الشرقية من الريف ، والتي تدخل في وادي كرت

(٢٣) انظر ريكار، مراكش، بالفرنسية، ص ٢ ، وقارن ، ص ٦ لسليبييه، مراكش، ص ١٠- حيث النص على أن جبال الريف جزء من جبال الأندلس- وهذا لا يمنع من أن تكون على نفس امتداد جبال الألب.

(٢٤) الاستبصار، ص ١٩- حيث طولها ٦ أيام، وعرضها ٣ أيام .

(٢٥) ريكار، مراكش، بالفرنسية، ص ٢ ، وقابل : الحسن الوزان (ليون الأفريقي) ، الترجمة العربية، ص ٣٢٦، حيث النص على أن «الريف» من مملكة فاس، من تخوم أعمدة هرقل شرقا حتى نهر الكور على طول مسافة ٤ أيام، حوالي ١٤٠ ميلا، شمالا إلى المتوسط، وجنوبا إلى جبال نهر الوردغة في منطقة فاس.

(٢٦) سليبييه، مراكش، بالفرنسية ص ١٤ .

(٢٧) سليبييه، مراكش، ص ١٩ .

(٢٨) سليبييه، ص ١٧ .

(Kert) وادى الملوية فلها شكل مختلف فى الشمال حيث تتصل السلسلة بالانواءات الكثيفة ، بينما تأخذ شكلا مختلفا فى الجنوب والشرق من حيث الالتواءات المرتفعة والمتكتلة (٢٩) .

ويعتبر وادى سبور قلب بلاد الريف ، وهو حوض منخفض ، مقارنة بهضبة مراكش الوسطى ، وذلك بفضل جبال الريف التى تعتبر السبب فى نظام الرى العظيم والمتقدم فى وادى سبور (٣٠)

أما عن المنخفض الواقع بين بلاد الريف والمرتفعات الشمالية لجبال أطلس الوسطى فقد كان مغسورا بذراع من الماء فى العصور الجيولوجية القديمة ، وهو الآن يتمثل فى المضيق الواقع فى جنوب بلاد الريف ، والذي يصبح أضيق ما يكون بالقرب من مدينة تازا . وفى هذه النقطة من ممر تازا يبدأ المنخفض فى الاتساع شرقا فى شكل وادى ملوية ، وفى سهول مراكش الشرقية (بالمغرب الأقصى) . كما يتسع الممر غربا فى شكل السهل المعروف بـ «الغرب» والذي يقصد به البلاد الواقعة إلى الشمال أكثر من ذلك ، فى مثلث : طنجة - الرباط - فاس ، ونهرها المهم هو وادى سبور.

منطقة أطلس العليا ، جبل درن الأعظم ،

منطقة «جبل درن الأعظم» حسب تسمية الادريسي ، «أكبر جبال الدنيا» ، كما يقال عند صاحب كتاب الاستبصار (ماسبق ، ص ٣٢ ، ٣٣ والهوامش) فكانه يضاهى هضبة «پامير» ، الشهيرة فى أواسط آسيا ، والتى تعنى «سقف العالم» ، وهى منطقة المغرب الأقصى ، منطقة مراكش : عاصمة المغرب الجنوبية ، قلب بلاد المصامدة : قبائل الموحدين حقا .

وترتفع جبال أطلس العليا هذه إلى مايجاوز الـ ٣ آلاف والـ ٤ آلاف مترا ،

(٢٩) سيليريه، مراكش، ص ١٧ .

(٣٠) سيليريه، ص ١٨ .

ويأتى ذلك الارتفاع الشاهق نتيجة التواء أرض أساسى . يرفع القاعدة بشكل غير متوازن . وعن هذا الطريق يأتى المنخفض العرضى لمنطقتى «جلاوة» و «تل تلوت» ، وهو الممر التاريخى الذى كان يعرف باسم «باب درن» أو «باب السودان» . ليفصل بين مظهرين من مظاهر السلسلة الجبلية ، هما : القسم العربى وهو مراكش ، والقسم الشرقى وهو الأوسط (٣١).

وفى المنطقة العربية تتدرج سلاسل الجبال وخطوط الأودية . وفى المنطقة المرتفعة من مراكش تكون رؤوس الجبال مكسوة بالثلج خلال فترة طويلة من السنة ، وهى تشرف على الهضاب والسهول من مرتفعة وواطئة ، وهى تمدها بما ينبت الحياة فى أرجائها من الماء (٣٢). وإذا كانت قسم جبال عباس ، ومجون ، وتوكال تتميز بارتفاعاتها القياسية ، بين ٣.٥٠٠ م و ٤.٠٠٠ (٣٣) ، فإن الجبال بالنسبة لتاريخ الموحدين أكثر من غيرها هى جبل تينمل (تينملل) ، وجمبوة ، وهنتاته . وجزولة (هلاله) ، ثم جبل السوس (٣٤).

فجبل درن الأعظم . كما وصفه الادريسي فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ١١ م . كان جبل الحصون المنيع ، فقد كان يحوى مايزيد على ٧٠ (سبعين) حصنا ، أشهرها حصانة وأهمها تاريخيا . بلدة تينمل حيث ضريح المهدي محمد بن تومرت . التى توصف بأنها حصن الحصون (٣٥) أما عن المنطقة الغربية من أطلس العليا

(٣١) سيلبريه، مراكش، ص ٢٠. ٢١.

(٣٢) سيلبريه، ص ١٢.

(٣٣) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص ٩.

(٣٤) الحسن الوزان، الترجمة، ص ١٥٣-١٥٦.

(٣٥) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٢٩، حيث توصف به «الحصن المنيع الثقليل مشبه فى حصون الأرض، بنهية، وقصينا ومنعة، وهو الجبل». والدليل على : حصانته وثقافة مكانه ان (الربعة) رجال يسكنونه، ويمنعون من الصعود إليه، لأن الصعود إليه على مكان ضيق، وعمر المرتقى، لأنه يشبه البرج المخرج. ولا ترقى إليه دابة البتة إلا بعد جهد ومشقة.

والوسطى والريف وإقليم الجبال ، والساحل الأطلنطى فهى منطقة فصيحة منبسطة ، وتسمى عند الجغرافيين بالميزيت (الهضبة) المراكشية ، تشبها لها بسهولة الهضبة الأيبيرية الوسطى ، وهى تشتمل على بلاد جبال زاير ، والشاوية (تامسنا) ، ودكالة ، وعبدية ، وحوز مراكش (المدينة).

وهذه الهضبة الغربية يصل ارتفاعها ما بين ١٥٠ م و ٢٠٠ م فى المناطق الساحلية ، ويمكن أن يصل ارتفاعها إلى ما بين ٣٠٠ و ٧٠٠ م فى المناطق الداخلية (أى الغربية من قواعد الجبال) . أما البلاد الواقعة أكثر من ذلك إلى الشمال ، فى مثلث : طنجة - الرباط - فاس ، فهى التى تعرف بـ «العرب» ، ونهرها المهم هو وادى سمير (٣٦) ، حيث الأرض الرسوبية الجيدة الخصبة.

أما منخفض السوس فيمتد على طول مسافة ٢٠٠ كم تقريباً ، ويعرض ٤٠ كم . وهو محصور ما بين الأجزاء الغربية لجبال أطلس العليا الغربية ، وجبال أطلس المعترضة (Anti Atlas) (٣٧).

الطقس والمناخ ،

رغم التنوع الإقليمي فى بلاد المغرب المراكشية ما بين إقليم المتوسط فى الشمال ، والأطلسى فى الغرب ، وشبه الصحراوى والصحراوى فى الجنوب ، الأمر الذى يقضى بتنوع الطقس تبعاً لطبيعة الوضع الجغرافى ، فالمعروف أن المطامع المحيطي الجبلى الأطلنطى ، هو الغالب على الطقس ، رغم التأثيرات الصحراوية . إذ الحقيقة أن مياج جبال أطلس المعمارى الشكل لا يمنع من تسيل الطقس شبه الصحراوى عبر عدد من الممرات الواصلة بين الصحراء الكبرى والبحر الأعظم (المحيط).

(٣٦) ريكار، مراكش، المرشد الأزرق، بالفرنسية، ص ٢ .

(٣٧) ريكار، مراكش، ص ٢ .

وهكذا يمكن إجمال ذلك الطقس في حقيقة عميقة وإن بدت غريبة من حيث الشكل ، وهي : أن مراكش بلد بارد وحار في نفس الوقت - وهي في الحقيقة طبيعة الجبل مابين القاعدة والقمة ، وخاصة إذا ما سطعت الشمس (٣٨) .

والحقيقة أن تغير الطقس في البلاد الجبلية يتأثر بالارتفاع ، الأمر الذي يظهر واضحا للعيان في القمم الشاهقة حيث تكون كسوة الجليد معرضة لسطوع الشمس ، وخاصة في فصل الصيف ، وإن كان مصدر الحرارة الرئيسي الذي يعكس الطقس المحيطي الأطلسي ، هو الوافد حقا من الأقاليم شبه الصحراوية الجنوبية ، وهنا يبعث البحر السحب التي تلتفط الجو ، وبطبيعة الحال فإن تأثير البحر المتوسط (في الشمال) غير محسوس بالنسبة لتأثير المحيط (في الغرب).

هذا ويتضح تأثير المحيط في تأكيد عامل البرودة أو تلطيف الجو ، في ظاهرة التيارات المائية الباردة - التي يأتي بها على طول الساحل المحيطي من رأس سبارتل (طنجة) وحتى السنغال . وهذا التيار المائي البارد - بالنسبة لحرارة المياه في أعالي البحر على نفس المستوى - أشبه مايكون بحزام من الماء البارد ، غير العريض ، والذي يتحرك حركة بطيئة من الشرق إلى الجنوب ، وهو الذي يعرف باسم تيار الكناري ، وهو في بعض الأحيان أبرد في الصيف منه في الشتاء (٣٩) .

وفي مقابل تناقض البرودة والحرارة ، يقف تبادل الرطوبة والجفاف . ففي بعض

(٣٨) انظر سيليريه، مراكش، ص ٢٥، وتارن ريكار، مراكش (المرشد الأزرق)، ص ٢-عبث النص على أنه معتدل مع الإشارة إلى النمط المتوسطي والأطلنطي والصحراوي، ثم تخصيص المغرب الأقصى، بأنه "حار جدا، بارد جدا، شديد الرطوبة من ناحية وشديد الجفاف من ناحية أخرى. وديفيدان، مراكش، ص ٥- حيث القول بأن الطقس: بحر متوسط، شبه قاري

(٣٩) سيليريه، مراكش، ص ٢٥-٢٦، وانظر ريكار، مراكش، ص ٢- حيث النص على أنه يظهر في مضيق جبل طارق أثر التيار البحري البارد نسبيا، والمعروف باسم الكناري. كما تتأثر سائر المنطقة بالتقلبات ما بين المتوسط والأطلنطي.

الأقاليم الرطبة قد لا يسقط المطر أبداً (٤٠) هذا كما أن ربيع «الشرقي» تهب حارة جافة من سهوب وهران ، وتفعّل الأفاعيل ، من : تجفيف الهواء ، ورفع درجة الحرارة (٤١) - هذا كما تتورّ العواصف في الانقلاب الصيفي الشتوي في منطقة مراكش ، بدون أن يسقط المطر ، فتسخن الهواء (٤٢) : وكما يتوقف المطر على ارتفاع الجبال والهضاب ، فهو يتوقف أيضاً على اتجاه الرياح . فالرياح الشمالية والشمالية الغربية تأتي بالمطر وتحمّن الجو ، بينما الرياح الشرقية تأتي بالحرارة والجفاف. والفصل المطير يمتد من أكتوبر إلى إبريل ، مع ذروتين في شهري مارس ونوفمبر (٤٣).

والارتفاع في مراكش يتوافق مع حركة الرياح الدائمة المضادة للعواصف ، والتي تعرف بالأزوروس ، ومن حيث تنطلق تيارات الهواء المنتظمة المعروفة بالإليزيه ، والتي يخضع لها الطقس المغربي (المراكشي) ، وهي الإليزيه الشمالية الشرقية ، وهي عادة جافة ، وكذلك الأمر بالنسبة للإليزيه المضادة لها في الارتفاع ، وهي الجنوبية الغربية.

وهكذا يصبح الجفاف آفة في البلاد المراكشية ، وهو في نفس الوقت ميزتها الكبرى ، كما هو الحال في بلاد البحر المتوسط (٤٤) ويترتب على الارتفاع ، فوق ذلك أن تصبح مراكش الجنوبية أو الصحراوية في مواجهة مع مراكش الشرقية أو المتوسطية ، بينما يجعل المحيط مراكش الغربية - ذات الطقس المحيطي - في

(٤٠) سيليريه، مراكش، ص ٢٥. وقارن ديكار، مراكش، ص ٢ - حيث النص على أن المغرب الأقصى شديد الرطوبة، شديد الجفاف من ناحية أخرى.

(٤١) سيليريه، مراكش، ص ٢.

(٤٢) ديفيردان، مراكش، ص ٦.

(٤٣) ديفيردان، مراكش، ص ٨، ٧.

(٤٤) «سيليريه، مراكش، ص ٢٧.

مواجهة مع مراکش الشرقية ذات الطقس القاري العنيف . ولما كان الطرفان الغربي والشرقي مرتبطان ببعضهما عن طريق منطقة وسطية ، فإن هذا يؤدي إلى تقسيم البلاد المراكشية إلى مناطق رأسية ، وإن كان هذا التقسيم الرباعي - الهندسي يخفف من شدة التأثيرات التضاريسية المحلية (٤٥)

والمناطق الأكثر مطراً هي السفوح الجبلية المواجهة للمحيط في غرب بلاد الريف أو منطقة الجبال ، حيث متوسط الارتفاع ٨٠٠ م ، ويكون ذلك تبعا للارتفاع والقرب من المحيط.

وفي الجبال العالية يكون تراكم الثلج فوق القمم بكميات كبيرة أفضل من سقوطه في شكل أمطار ، إذ يصبح الجليد احتياطيا من الماء لمدة أطول (٤٦) .

تقسيمات الطقس في المناطق المغربية :

لما كان الارتفاع بالنسبة لسطح البحر ، وحركة الرياح ونسبة الرطوبة هي العوامل الأساسية في تحديد نوعية الطقس والتضاريس بالنسبة لمنطقة من المناطق ، فيمكن عن هذا الطريق تقسيم الطقس في المغرب إلى ٦ (ستة) أصناف نوعية أو أنماط - حسب الارتفاع والقرب أو البعد من البحر بصفتها أهم العوامل ، وهي :

١- النمط شبه الصحراوي :

وهو الاقليم المحتد من الجنوب حيث أطلس الداخلية ، وأطلس العليا الشرقية ،

(٤٥) سبليسيه، مراکش، ص ٢٦ .

(٤٦) سبليسيه، مراکش، ص ٣٢، وقارن زيكار، مراکش (المشهد الأزرق) ، ص ٣- حيث الإشارة إلى سقوط الثلج في بعض الأحيان على المرتفعات ما بين ٦٠٠ م و ١٠٠٠ م لمدة أيام أو عدة أسابيع . أما على الارتفاع ما بين ١٠٠٠ م و ٢٠٠٠ م فقد يسقط لفترة ما بين ٦ أشهر أو ٩ أشهر (من أكتوبر إلى يونيو) ، أما على الارتفاع أكثر من ٢٠٠٠ م فيكون الثلج طبقات متوالية أو ألواح متراصة، وقارن الحسن الوزان، ليهون الإفريقي، الترجمة، ص ٨٢- حيث النص على أن ساحل البربر منطقة تميل للبرد ويسقط فيها الثلج.

ويستمر شمالا تبعا للبعد من المحيط حتى قرب الجزائر.

ومعدل المطر فيه أقل من ١٥٠ م.م. ، ويمكن أن يصل إلى مستوى الصفر نتيجة للجفاف الذي تؤدي اليه التغيرات الحرارية ما بين الشتاء والصيف ، والليل والنهار.

والمنظر النهائي يتمثل في القليل من شجر الأكاسيا الشوكي ، والطلح في مكان الحمادة ، حيث الرمال الرطبة ، والأثل ، وكذلك في منطقة العرق حيث ملفوف الصحران ، وفي التلال حيث النباتات التي تتوافق مع المياه المالحة ، والشمس المحرقة . وكذلك الأمر بالنسبة للواحات حيث ينمو النخل ويكثر التمر ، وهي تهيئ الظل الظليل والطعام للإنسان والحيوان (٤٧).

٢- المنطقة الجافة (القارية) :

ويشمل هذا الطراز الإقليمي ٣ (ثلاث) مناطق هي :

أ- أطلس الجنوبية الشرقية والسرهر (Serrho) حيث منطقة أعشاب الحلفا ، والأرض ذات الملحوحة ، والأمطار أقل من ٣٠٠ م.م. ، ولكنها تتوزع حسب التغيرات الفصلية بشكل متباين ، حيث التنوع القاري الذي يؤدي إلى تغير هام في درجات الحرارة إلى جانب عملية البخر القوي . وفي الشتاء تهبط الحرارة إلى أقل من درجة الصفر.

ب- السهول القارية المجاورة للمتوسط في مراكش الشرقية (في ألجناد ونفارتا) ، والسهول الداخلية العالية لمراكش الأطلنطية (في الحوز وتادلا) ، وتتميز بالأعشاب الشوكية والغابة المفتوحة ، حيث أعشاب السفانا ، ومياه الجبل الكثيرة

(٤٧) سيليسيه، مراكش، ص ٢٤، ص ٢٤. مكار، مراكش، ص ٣- حيث : وهي منطقة قليلة الرطوبة (أقل من ٢٠٠ م.م) وهي تكون شتوي جزيرة ما بين مراكش وصافي، ومحوري الأقاليم الصحراوية والعشبية من رأس نون ويزنوب، وولد الحاج وجادة دبدو، وبرغنت.

والسقى الغزيرة.

البحر المتوسط

ج- والمنطقة الأطلنطية ، وتمثل في الشريط الساحلى فى الجنوب الغربى ، بين مهب وادى تنسيفت ووادى نون ، وتتميز بانتظام الحرارة ، وغياب الجليد تماما ، إلى جانب كثرة بخر الماء الذى يتضائل مع ضعف زخات المطر.

والمسرخ النباتي هناك يأخذ شكل السفانا العشبية ، من : كثيفة وخفيفة ، إلى جانب شجر الهرجان الذى يستخرج من بذوره الزيت (٤٨) .

٢- المتوسط الأطلنطى الضعيف المطر:

ويشمل السهول والهضاب الرابطة بمراكش الواقعة تحت تأثير الأطلنطى فى شمال وادى تنسيفت ، وتتميز المنطقة بالمطر الضعيف الذى يصل منسوبه ما بين ٣٠٠م. و ٥٠٠م. ، كما تتميز باعتدال الحرارة التى لا تنزل ، الا فيما ندر ، إلى درجة الصفر.

أما عن المنظر الطبيعى فيتمثل فى الغابة النفضية ذات الأشجار الجافة ، من: المرعر ، والدهر الأحمر ، والصنوبر الحلبى أو البلوط (الفلبينى) فى المواطن الرطبة (٤٩) .

(٤٨) سيلبييه، مراكش، ص ٣٧-٣٣، وقارن ريكار، مراكش، ص ٢-٣- حيث منطقة رطبة إلى حد ما، متوسط المطر فيها أكثر من ٢٠٠م، وتعادل النسم الجنوبي من السهول المراكشية الغربية، والنسم الشمالى من البلاد المراكشية الشرقية، على السفوح الجنوبية الشرقية لأطلس الوسطى، وأطلس الداخلية، وعن شجر الهرجان الذى يستخرج منه لزيت انظر ج ٤ ص ٨٨ هـ ٩٨.

(٤٩) هذه الغابة انصهت الآن، وتحولت إلى أرض بور من الشمس، والنخيل القرم، كما تحولت الأماكن الأكثر جفافاً إلى أرض عشب مجل صيفا، فلا يبقى فيها الا أطراف النخيل القرم. وبفضل النباتات التى تفضل كل عام صارت الأرض خصبة صالحة لزراعة الحبوب كالذرة التى تنبت فى الربيع دون سقى، وذلك فى الأرض الساحلية الخفيفة، بفضل رطوبة الهواء - سيلبييه، مراكش، ص ٣٥.

٤- النمط المطير:

ويشمل المنطقة في شمال غرب مراكش ، والهضاب القريبة من الريف ، وعلى السفوح السفلى للريف والدير (Dir) الأطلسي . وزيادة الأمطار تكون طرديا مع الصعود شمالاً . إلى جانب المزيد من الارتفاع ، حيث يصل منسوب المطر إلى مابين ٥٠٠م. و ٦٠٠م. (وهو معدل منسوب مسطح باريس) . أما الحرارة فتتغير تبعاً للارتفاع ، وتبعاً للقرب والبعد من البحر أيضاً.

أما عن التشكيل الحضري فهو يتأثر بصفة خاصة في السفوح المعرضة للشمس والحرارة تماماً ، الأمر الذي يساعد على تكوين تشجير كثيف وإن كان قليل الطول ، وذلك من نوع الأعشاب المعروفة بالكورسيكي ، وهو الذي يوجد تحت جلده خشب عطري ، إلى جانب نباتات عطرية أخرى من السنبل (الناردين) والنعناع والسعر وغيرها من أنواع النباتات من العقاقير التي تنصرف في العلاجات الرفيعة (٥٠) . هذا إلى جانب النباتات العدسية ، من : الزيتون الوحشي ، الكثير الانتشار . كما يبدأ الأرض الأخضر في الظهور بأوراقه الحادة في كل مكان (٥١) .

٥- النمط الجبلي أو المطير جداً :

ومجالاته في الجبال المرتفعة ، حيث يشمل كل منطقة الجبال والريف الأوسط ، والكتل الأطلسية فيما فوق ٣.٠٠٠ م ، حيث تستقبل المطر بمسبب أكثر من

(٥٠) الاستبصار، ص ١٨٧- من جبل فاذاز.

(٥١) المهم أن الأعشاب قد انهارت تماماً ، كما هو الحال بالنسبة للغابة ، من حيث أن الموضع أفضل مكان لسكنى الإنسان-سيليريه، مراكش، ص ٣٦ ، وقارن ويكار، مراكش، المرشد الأزرق ، ص ٦- حيث النباتات الصخرية والفطرية، ص ٢- حيث منطقة متوسطة الرطوبة، تستقبل أكثر من ٤٠ سم (٤٠٠م.) وهي التي تحوي القسم الشمالي من السهول المراكشية الغربية، وأقاليم تازا، وفاس، ومكناسة. وكذلك النواحي المرتفعة من أطلس العليا الوسطى الغربية.

٦٠٠ م.م ، ويسقط معظمها في شكل ثلج مندوف يغطي القمة مع مرور الوقت في شكل كسوة من الجليد.

إنه منطقة الغابة الكثيفة المتدرجة من الأفقى إلى الأعلى ، حيث الأشجار الضخمة من الأرز الأخضر من خشب الزان أو البلوط والسنديان وهى أشجار خشب القطع والاستثمار ، من أرز الزان والأرز النقى مما يوجد في جهاله ، وتحت اشعاعات الضوء تتفتح أنواع ، من : الجرمشق والدردار ، والنسر أو الشربين ، وشجرة الغيبراء . ويتأكد ذلك في النخل حيث أشجار الظل الرطبة ، من : القصب والشجيرات المختلفة مما يكون غابة تحتية متداخلة.

إنها ليست الغابة المتوسطة ذات التهوية ، وذات الإضاءة أو الترافد المظلمة من السماء بين الأشجار ، بل إنها الغابة الشمالية . الغامضة بظلمها ورائحة الأرض الزراعية . إنها تعلم معادل للارتفاع المغربى (المراكشى) . وفى المساحات المضيفة (الفارغة) ، والمنخفضات الرطبة ، كما فى مسكدال أو تيمروين أطلس الوسطى أو على الهضاب العالية ، من : الأدوار الأحمر (السن الأحمر) فى أطلس العليا ، كما فى باجور وتوشكا مما يشير الخاطر بالنسبة لجبال الألب (٥٢).

٦- التمهيد: البارد فى الجبل الشاهق ،

ويشمل قسم جبال الأطلس المتوسطة والعالية التى تناهز ال ٣,٠٠٠ متر وأكثر. فمع الارتفاع الشديد تقل الرطوبة ، ويصبح الجو أكثر جفافاً . ولكن الثلج يبقى فوق القمة لفترة طويلة من السنة فى شكل كسوة من الجليد . ويأتى سطوع الشمس الشديد بعد فترة من البرودة القاسية . ولكن الأرض يمكن أن تبقى باردة بعد ذلك

(٥٢) سيليريه، مراكش، ص ٣٩-٣٧، وقارن، ريكار، مراكش، ص ٢-٣ : منطقة غزيرة الأمطار، تستقبل أكثر من ٨٠ سم (٨٠٠ م.م)، وهى تحوى الزاوية الشمالية لمنطقة البطنع الساحلية وأقاليم أطلس الوسطى والعليا المتعرضة للرياح الغربية الرطبة. ص ٦ - حيث الغابة.

لفترة من الصيف ، ورغم الحرارة على السطح.

وهكذا تكون أرض العشب في المناطق الباردة ذات آفاق كثيرة متغيرة ، فقد يوجد تجمع خفيف من النباتات ، في طبقات شوكية ، وأخيرا بعض النباتات شديدة القصر ، ذات الجذور القوية . وبطبيعة الحال فليس هذا مكان استقرار الإنسان ، وحتى رعاة قطعان الماشية قلما يأتون إلى تلك المواضع (٥٣) .

وهكذا تتعدد الأنماط المناخية ، وبالتالي طرز البيئة المختلفة في البلاد المراكشية . والحقيقة أن تنوع المناظر الطبيعية المتوالية على طريق الصعود من القاعدة إلى القمة ، عبر السهول والهضاب وسفوح الجبال ، هي التي تعطي بلاد المغرب خصوصيتها الأصلية ، وتؤكد شخصيتها الجبلية المميزة.

الأراضي الخصبة :

والمقصود بالأراضي الخصبة هي مناطق التجمعات الأنسانية ، من الهضاب والسهول الرطبة ، من حيث تنوع الأنهار ، أو مجاريها على طول الطريق إلى المصب ، أو ما يلحق بها من الروافد ، وحتى انتهاء حوض النهر في المصب ، سواء في البحر كما هو المعتاد أو في البر ، كما في الأقاليم شبه الصحراوية.

وأهم مناطق السهول هي الأطلسية ، التي تتواصل على طول ساحل الأطلنطي من موجدور جنوبا إلى رأس سبارتل في طنجة شمالا ، وهي عرضة أيضا ، وإن بشكل متباين . وهذه السهول الرطبة ذات الطقس اللطيف والخصبة تمتد كذلك في الداخل ، ابتداء من رحاب بفضل أحواض سبو ، وإينارن ، وبحر تازا ، وحتى وادي ملوية . أما عن الأرض السوداء القوية الخصوبة حاليا ، والتي تتشقق عند الجفاف (وتسمى تير Tirs) فهي تمتد في شكل بقع سوداء كبيرة أو صغيرة بين وادي بورجيرج (أبو الرقراق) ووادي تنسيغت (نهر مراكش) ، على طول ٣٠٠ كم ،

(٥٣) سيليريه، مراكش، ص ٣٧، تارن ريكار، مراكش، ص ٢ .

وعرض ما بين ١٠.٠٦٠ و ١٠.٠٨٠ كم وهي تكون الاقاليم التي تسمى : زاير وشاوية ،
وعهدة ، ودكالة (٥٤)

وأهم أماكن التجمعات الإنسانية بالمغرب (المراكشي) ، ٦ (ستة) مواضع هي:
بلاد الريف ، ووحش نهر سبو ، والسهول والهضاب الغربية ، وسلاسل الأطلس ،
والإقليم شبه الصحراوي ، ثم السهول والهضاب الشرقية (٥٥).

الريف :

تتمثل منطقة الريف المعصورة في السهول المرتفعة فوق جبال الأطلس (درن)
غربا ، حيث تنتشر في اقاليم تامسنا (الشاوية) ودكالة وعهدة على طول الساحل مع
هضاب تلول مغطاة بطبقة خصبة من الأرض السوداء (٥٦) ومن ناحية الشرق تمتد
السهول بين السلاسل الجبلية الممتدة على طول المتوسط من جبل طارق إلى وادي
ملوية ، كما تمتد أيضا جنوبا حتى وادي سبو (٥٧) . أما المنطقة الوسطى فتبدأ
عند جبل أما ترأس في بني أرقول ، حيث السطح الجبلي المنفتح على الشاطئ

(٥٤) ريكار ، مراكش ، ص ٦ - حيث الإشارة إلى أن تلك الأرض تحتاج إلى الجص أحيانا . وأنه
في مقابل أرض التبر الخصبة هذه والمنتجة للمحسوب ، توجد أرض "الحصري" (أو الحمراء) ،
وهي خفيفة رملية ، وعادة ما تكون غنية بالجير ، وحامض الفسفوريك ، ولكنها تحل سريعا .
فالرمل الدقيق والخفيف والذي قد يتحرك أحيانا يؤدي إلى الجفاف ، وكذلك الذهب
الصلصالي والحروشة (الخشونة) في الأرض ذات الجص ، ص ٩ - ١٠ حيث الأرض الصلصالي
الشديدة الخصوبة لمصل احتوائها على الأوزون والموناس بكثرة والتي تسمى حديثا "بالتبر" ،
كما تشبه بالأرض الروسية السوداء أو الترملية الحمراء مفضل أكسيد الحديد الغني بالجير
والفسفور .

(٥٥) سيليريه ، مراكش ، ص ١٤ ، ١٥ ، وانظر ريكار ، مراكش ، ص ٢١٧ ، دائرة معارف
ليكسيكون (Lexicon) ج ١٣ ص ٥٨٤ .

(٥٦) سيليريه ، مراكش ، ص ١٦ .

(٥٧) سيليريه ، مراكش ، ص ١٦ .

كمركز لصيد البحر (٥٨).

والمهم أن بلاد الريف عرفت بسهول جبالها الحصبة . وهكذا عُرِفَ جبل غمارة ، وقبائل الريف ، عند الجغرافيين العرب المعاصرين بأنه أخصب جبال المغرب فهو: «بسانط للحرث ، ولدن قديمة ، وآثار للأول تبين أن عمارته قديمة أزلية» (٥٩) . ومدينة سبتة تعتبر قاعدة بلاد الريف التي تسيطر على العدو من حيث يكون العبور إلى الأندلس ، وتوصف بأنها مدينة حصينة في شرقها جبل كبير في شعراء كثيفة يسمى جبل الميناء * فكانه بعض أعمدة هرقل التي تحرس المضيق.

السهول الغربية:

والسهول الغربية متواصلة وإن كانت ذات عرض متباين ، ما بين موجدادور جنوبا وطنجة (وأسل سبارتل) شمالاً ، محاذية لساحل الأطلنطي . وهي سهول خصبة ، رطبة . ذات طقس لطيف ، وهي تمتد أيضا في الداخل ابتداء من رحاب ، وذلك بفضل حوض وادي سبو (٦٠).

والنموذج للسهول المرتفعة الجيدة التربة هو الهضبة الغربية ، الشبيهة بهضبة الميزيتا الأيبيرية ، وتقع بين جبال أطلس العليا ، وأطلس الوسطى ، وبلاد الريف ، وأقليم الجبال ، والساحل الأطلنطي. فهي عبارة عن مجموعات من السهول والهضاب المكونة من طبقات رسوبية خصيبة (٦١).

(٥٨) سيليريه، مراكش، ص ١٧.

(٥٩) الاستبصار، ص ١٩٠-١٩١، هذا إلى جانب حصونه الكثيرة إلى تمتع لها غمارة وتناقص على الولاة، وهو ما يركز عليه الإدريسي أكثر من غيره، قارن نزعة المشتاق، ج ١ ص ٢٤٩ .

* (الاستبصار ، ص ١٣٧)

(٦٠) سيليريه، مراكش، ص ١٤.

(٦١) سيليريه، مراكش، ص ١٧، وكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص ٢.

ومنطقة مدينة مراكش ، التي تعرف بالحوز ، تشبه بطسعت غير عميق ، ينحدر بركة عند قدم جبال أطلس . وهذا السهل الذي يتجه محوره شمالاً بشرق تقريباً ، يمتد بطول يصل ما بين ١٥٠ كم. و ١٧٥ كم. ، ويعرض يبلغ في المتوسط ٣٠ كم. وهكذا يراه الرحالة منبسطة من الأرض المتربة التي تشعر السالك بالرتابة والملل (٦٢) ، وهو الأمر الذي يؤيد تفسير كلمة مراكش البربرية ، بأنها مكونة من كلمتين: أولهما سِرٌّ والأخرى مُسرَعاً، كناية عن أن الموضع القديم كان مخوفاً موحشاً (٦٣).

والحقيقة أن منطقة مراكش تمثل منطقة القلب (أى المركز) من المغرب ، من حيث أنها تحتضن بنظام تضاريس مُواتٍ بالنسبة لنظام مائى ثرى ، يشجع على الحياة المتواصلة ، فلا يكذره إلا ثوران العواصف والأنواء (٦٤). وهى تتمثل فى الكتلة المركزية التى تكون الهضبة الوسطى من أطلس الوسطى ، وأطلس العليا . وهى بدلا من أن تكون مركز جذب ، صارت منطقة طرد ، تتوزع فيها منابع الأنهار الكبرى ، التى تتوجه إلى أركان الأرض الأربعة ، وهى : وادى سبو ، وادى أم الربيع ، وادى ملوية ، إلى جانب نهري دكيس وزيز (٦٥) .

المياه الجارية ،

كثرة المياه فى البلاد المراكشية تجعل منها «بلاد المغرب السعيدة» بالمقارنة مع

(٦٢) ديفردان، مراكش، ص ١-٢.

(٦٣) انظر ج ٤ ص ٢٤١.

(٦٤) سيليبيه، ص ١٥- وهذا ما شاهدناه في نوفمبر سنة ١٩٨٨، عندما صعدنا الجبل من مدينة مراكش صوب مدينة أغمات ظهراً فى جو حسن، ولكننا ما كدنا نصل إلى قمة الجبل حتى نكدر الجو عاصفا فجأة. الأمر الذى خشينا معه أن نجربنا دوافعات الهواء نحر أسفل الوادى البعيد، فهرعنا إلى السيارة نازلين.

(٦٥) سيليبيه، مراكش، ص ١٥.

بلاد المغرب الإفريقية والصحراوية ، تماما كما هو الحال بالنسبة لبلاد «البحر
السعيدة» - بفضل إرتفاعها وكثرة مياهها - بالمقارنة ببقية بلاد العرب الشمالية
من : صحرية وقاحلة.

وكثرة المياه في المغرب ترجع إلى الارتفاع الرأسى وامتداده الطولى ، والأوضاع
الجغرافية والتضاريسية المتمثلة في كتل الجبال، وبالتالي كثرة الأمطار على السفوح
وتراكم الثلج على القمم وطبيعة الأرض الجيرية التي لا تسمح بالتسرب إلى داخل
جوف الأرض - كل ذلك يعطى بلاد المغرب الأقصى ثروة من المياه الجارية، الأمر
الذى يتفق مع ازدهار البلاد في الماضى ويضمن لها التقدم في المستقبل (٦٦) .

والأنهار المراكشية رغم تشابهها داخل النظام المتوسطى ، فإنها تقدم تنوعا
يسمح بتقسيمها إلى ٣ (ثلاث) مجموعات ، هى : المجارى المتوسطية ،
والأطلسية، والصحراوية.

والمجموعة الأطلسية أكثر أهمية بوفرة عددها ، وعرض اتساعها أكثر من
تصريفها . أما استخدامها للملاحة فغير ممكن . ففي الداخل يكون العمق غير
كاف، وغير منتظم . والمصب عرضة لأمواج البحر من مذكر وجزر ، وإن كانت تقدم
عونا للملاحة ، ولكن الرواسب والرمال كثيرا ما تكون عوائق صعبة . وهذا ما
يفسر كيف حلت العرائش على نهر لوكوس محل يقاسوس (الفينيقية) القديمة ،
والرباط (الموحدية) محل سلا (الرومانية) على وادى بورجرج.

والمهم أن كل الأنهار المراكشية - رغم تعقيد الخوض والروافد - تقع تحت تأثير
الطقس المتوسطى ، كما أن نظامها غير منضبط . فهى زائدة متدفقة في الشتاء ، مع

(٦٦) سيليرية، مراكش، ص ٣٧، ٣٨ - حيث المقدرة مع أنهار الجزائر الكبيرة التى لا تقارن في
تصريفها ببعض الأنهار المراكشية المتواضعة، وقارن ريكار، مراكش، المرشد الأزرق،
ص ٣ - حيث اعتبار أن شبكة مياه المغرب أهم شبكة في كل بلاد المغرب الأقصى رغم عدم
لجانسها بفضل الاحتياطى المائى المراكشى المستمر من الأطلنطى والمحيط

ارتفاعات مفاجئة، وهي في الصيف ضعيفة قليلة حتى جفاف الروافد بشكل عام.

وادي سبو ،

وحوض وادي سبو المنخفض يفصل جبال الريف عن هضبة مراكش الوسطى ،
ويتسبب في نظام الري العظيم ، والمتقدم في وادي سبو . وعن هذا الطريق تسود
السهول الخصبة إلى جانب الالتواءات البديعة.

ويعتبر وادي سبو أهم أنهار المغرب ، من حيث امتداد طوله واتساع حوضه
بفضل روافده المتعددة ، التي تده بالمياه من كل من مرتفعات الريف ، والهضبة
المراكشية الوسطى ، التي تعتبر بمثابة الصهيرج الكبير الذي لا ينفد بفضل احتياطيه
من ماء الثلج بطيئة الذوبان.

ونهر سبو ينبع من جبال أطلس الوسطى ، حيث يحمل هناك اسم جيجو- سبو ،
على مسافة ١٢٠ كم شرق مدينة فاس التي يخترقها أحد الروافد الذي يعرف
باسم المدينة ، فهو وادي فاس الذي يدخل المدينة في كل شارع أو زقاق في شكل
عين جارية تطلعن عليها الأرحاء ، وتدخل الدور من كبيرة وصغيرة ، وتميرها بالماء
النقى وعليها قباب مبينة ودرايمس محنية ، ونقوش ، وضروب من الزينة (٦٧).
وهو يتضخم بفضل روافده العديدة ، وأهمها :

- أيتارن الذي يأتي بالمياه من معبر تازة .

- ووغه الذي يهبط من بلاد الريف .

- ردم وبنت ، ويأتیان من الهضبة الداخلية لبلاد بني مجلد.

واتساع مجرى سبو الأسفل يصل إلى ٣٠٠ متر ، ويصل تصريفه المعتاد إلى
ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ م^٣/ثانية . ووقت الفيضان يصل تصريفه إلى ٣٢٠٠ م^٣

(٦٧) الإدرسي، نزعة المشتاق، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

/ثانية ولكنها يمكن أن تصل إلى ١٥ م ٣ /ثانية ، وقت التعاقب (والمستوى الأدنى) (٦٨).

وادي سبو كنهر سهلى يدين بشكل مجراه إلى منطقة الريف ، وتدفعه فى شكل شلال لا ينسجم مع امتداده الطولى بشكل عام . فهو قليل الانحدار ، الأمر الذى يسهل الملاحة لمسافة قصيرة . والمستنقعات يمكن أن تعتبر عقبات تزيد فى طول المسافة ، كما أنه فى النهاية ، وقرب المصب ، يدخل فى الرواسب التى يتكون عليها طريق من عدة أمتار ، فى نفس الوادى . ومستنقعات المصب هذه تسمى المرسج . وميناء القنيطرة (Port Lyauty) يقع على مسافة ١٧ كم. قبل المصب (٦٩).

وادي أم الربيع (موربيج) :

يعتبر نهر أم الربيع - من بين الأنهار المغربية - منافساً لنهر سبو ، من حيث الأهمية والألوية . من جهة الطول الذى يصل إلى ٥٥٠ - ٦٠٠ كم. وكثرة الماء ، ومن حيث بساطة المجرى وقلة التعاقب فى مجراه الأعلى ، حيث المنبع فى أحد جوارب أطلس الوسطى ، ويتكون من ٤٠ (أربعين) نهجا تلتقى بتصريف يبلغ عدة أمتار مكعبة فى الثانية (٧٠) . ولكن التصريف يتزايد على طول المجرى (٦٨) ريكار ، مراكش ، المرشد الأزرق ، ص ٣ ، وقارن سيليريه ، مراكش ، ص ٤٠ ، وقارن الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٤٧ - حيث النص على أن سبو نهر عظيم ، يأتي من بواحي جبل التلعة (قلعة مهدى) لابن تواله ، يحاذى فاس من شرقها على ٦ أميال منها (ثلاثة أيام) الاستبصار ، ص ١٨٤ ، والمنبع من جبل بلاد بنى وارتون ، وهناك يقع نهر فاس مع ما اجتمع من سائر العيون والأنهر الصفار ، وعليه تبنى وعمارت ، يمر منه الطريق إلى ثمالية (مرحلة) وهي قرية على نهر يأتيها من الجنوب هو وادي ايمان.

(٦٩) ريكار ، مراكش ، المرشد الأزرق ، ص ٣ ، وأنظر سيليريه ، مراكش ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٧٠) سيليريه ، ص ٤١ ، ٣٨ ، وقارن الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ج ١ ص ٢٣٧ - حيث قرية ابغبل - القريبة من قرية أم الربيع ، الواقعة على وادي كبير خزار ، يجاز بالمراكب سوبها هيون كثيرة ودافعة بالماء من الصخور الصلبة .

بزيادة تدفق الروافد حتى يصل في وقت الذروة القصوى إلى ٢١٦٠٠ م^٣ / ثانية ،
وتتضائل في مستواها الأدنى إلى ٣٥ م^٣ / ثانية.

وهكذا يكون وادي أم الربيع سيلا جبليا من المياه الصافية ، وهو ينحرف من
الجبيل بشكل مفاجئ ، ويدور حول مسطح منطقة تادله التي يقطعها وهو محتفظ
بجريه السريع في الوادي العميق . ومن جهة اليسار يستقبل راقدين يأتيان مثله من
جبال الأطلس الوسطى ، وهما : زاد سرو ، ودرنت ، ثم إنه يستقبل بعد ذلك ،
نهرين كبيرين ، هما : وادي العبيد الذي يبدأ من منطقة تلاقي أطلس العليا
وأطلس الوسطى ، وتساورت واللذان يجلبان الرواسب من أطلس العليا والوسطى .

وبعد تغير الاتجاه يندفع أم الربيع في قاعدة الهضبة الفوسفاتية ، وهو يحتفظ
برواسبه المجلوبة من السهل الساحلى ، نحو المحيط حيث المصب بعد مدينة
آزمور (٧١).

وادي ملوية :

نهر ملوية من أنهار المغرب الكبرى ، المتعددة الصفات تبعا لتعدد الأقاليم التي
يجرى فيها ، واختلافها من حيث الطقس والتضاريس فهو على التوالي نهر رملى
يجرى بشكل متواتر ، وهو يمتاز بالمياه من ذوبان الثلج بشكل مؤقت من جبال
أطلس الوسطى والعليا . ووادي ملوية الاوسط يجرى في منطقة الهجان في اتجاه
جنوب وجنوب - غرب ثم يتجه إلى الشمال والشمال الشرقى في سهل عادة ما

(٧١) انظر سيليريه ، مركش ، ص ٤١-٤٢ - حيث الإشارة إلى أن آزمور لم تستطع الاستفادة
من موقعها في أن تكون ميناء خليجيا ، مثل الرباط والعرايش ، ريكار ، مراكش ، المرشد
الأزرق ، ص ٣ . وقارن الحسن الوزان ، الترجمة ، ص ١٦٦ - حيث آزمور في دكالة ، على ساحل
المحيط عند مصب أم الربيع على ٣٠ (ثلاثين) ميلا في اتجاه الشمال ، ص ١٨٣ - حيث الإشارة
إلى منطقة تادلة بوصفها بالشكل المثلث ، وأنها بلاد واسعة جدا ، من : نهر العبيد إلى أم
الربيع (عند المنبع) - وهي التي أعطت اسمها للنهر على ما نرى .

يكون صحراوي المظهر. وهو بعد ذلك نهر الهضبة العشبية ، وهو أخيرا نهر السهل المتوسطي . وإن امداده بالماء الذي يقل بسبب البخر الكثيف ، وبفضل استنزاف الري ، يختلف ما بين الفيضان الكبير الذي يزيد معدله على ١٠٠٠ م^٣ / ثانية ، في وقت الذروة ، ويقل في المستوى الأدنى إلى ٣٥ م^٣ / ثانية.

أما عن روافده ، فلبعضها أهمية خاصة ، مثل : المجموعة العليا في اليمن . وهي : أودغيس ، ووطاط ، وأنسجمير ، وهي التي تده بالماء المتسرب من كتل أرض الجبس الكبيرة في مواضع : معسكر والعياشي ووادي زا . ومن اليسار يأتي الماء من أودية هضاب السهول العشبية التي تحيا بفضل «شق الأرض» في وادين الملولو - الفنى بمآخذه من الجبال العالية في بنى واراين - ومسوت الذي يتصف بطوله الذي يبلغ ٤٥٠ كم . ويعرض مجراه في الربيع حيث يتسع إلى ١٠٠ (مائة) متر ، كما يتراوح فيضانه ما بين ١٠٠٠ م^٣ / ثانية في أقصاه و ٣٥ م^٣ / ثانية في أدنى مستواه (٧٧).

وادي دزعة :

ونهر درعه (أو دراع) هو أهم أنهار المجموعة الصحراوية التي تحوى أيضا كلا من : جبر ، وزيز ، رغم وجود مصبه في المحيط الأطلنطي.

ويتكون درعه من رافدين رئيسيين يخرجان من جبال أطلس العليا المتوسطة وهما إيدرمى ، ودادس الذي يجف في الثلث الأول من مجراه بفضل استنزاف الري والسقيا . ويعتبر درعه أطول الأنهار في البلاد المغربية إذا بلغ طول مجراه حوالى ١٥٠٠ (الف وخمسمائة) كم. الأمر الذي يعنى أن كثيرا من امتداداته سواء في المنابع أو في المصب عرضة للجفاف بفضل البخر الشديد أو النقص في الامدادات.

والهم ان درعة يتصل جبال أطلس الداخلية عن وادي سراره بأخدود عميق ، وهو

يتجه نحو الجنوب الشرقى حيث واحات النخل الجميلة ، قبل أن يدخل إلى بلاد
المحاميد ، ويستدير نحو الغرب حيث ينتشر فى مسطح أيريقى . والحقيقة أن
المجرى الأسفل لدرعة هو نهر آخر ينشأ من تجمع المياه النازلة من أطلس الداخلية.

- والتي تتجمع فى كميات صغيرة تختفى فى واحات هانى (٧٣)

الأودية المتوسطة فى بلاد الريف (خمارة) :

السمة المميزة لأودية سفح جبال الريف أنها ليست أكثر من جداول قصيرة وإن
كانت كثيرة العدد . فرادى كرت مثلاً ، وهو المتأثر بالطقس القارى للريف الشرقى ،
لا يتناسب تصريفه مع اتساع المجرى العريض . وفى الغرب يقطع الجبل عدد من
الأخاديد العميقة المتعرجة ، التى لا يجرى فيها إلا خيوط سريعة من الماء أشبه
بالشلالات ، ومع ذلك فهي تجمع المياه الوفيرة فى القليل من الوقت.

وأهم تلك النهيرات الشلالية ، هى :

نكور ، ورص ، ولاوو (٧٤) .

مجموعة الأودية الأطلنطية :

وهى أكثر أهمية من مجموعة الريف ، من حيث كثرة العدد ، وإن كانت نسبة
اتساع مجاريها أكبر من تصريفها وبطبيعة الحال فإن استخدامها للملاحة غير

(٧٣) ريكار ، مراكش ، المرشد الأزرق ، ص ٣-٤ ، وانظر سيليريه ، مراكش ، ص ٣٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ،
وقرن الاستبحار ، ص ٦ ، ٧ - حيث النص على أن منبع وادى مدينة درعة من جبل درن ، وعليه
عمارة متصلة ٧ (سبعة) أيام ، وقارن الحسن الوزان ، ص ٤٩٠ - حيث النص على أن النهر
ينفض شتاءً بالبحر ، وأن لم يفض فى بداية إبريل تلف المحصول.

(٧٤) سيليريه ، مراكش ، ص ٣٩ ، وقارن ، ريكار ، المرشد الأزرق ، ص ٤ - حيث النص على أن
أنهار بلاد الريف عبارة عن أودية سريعة نحو البحر ، ولكنها كثيراً ما تكون جافة.

ممكن. ففي الداخل يكون العمق غير كاف ، وغير منتظم . أما المصب فهو مجرى
لأمواج البحر ، من مدة وجزر ، وهذه وإن كانت معاونة في الدخول والخروج إلى
خلجان الأنهار ، فإنها يمكن أن تكون معوقة أيضا لنفس الأسباب . والمهم أن
الرواسب الوافدة في نهاية المجرى ، وكذلك الرمال كثيرا ماتكون عوائق صعبة
(٧٥).

والحقيقة ان مصبات الأنهار في الأطلنطي ذات طابع معين . فالضفة اليمنى
عادة رملية واطنة ، والضفة اليسرى مرتفعة مقطعة في الصخور المرتفعة . وفوق
ذلك فإن اضطراب البحر شبه المستمر ، بالإضافة إلى تصادم التيار النهرى مع
الأمواج البحرية تؤدي إلى ظاهرة المانع الرملى (القطيب) الذى يؤدي إلى امتناع
الوصول إلى خلجان مصبات الأنهار (٧٦).

والأمثلة على الموانئ التى قامت في مصبات أنهار منهارة ، وهى العرايش على
نهر لوكوس ، التى حلت محل ليكوس الفينيقية القديمة ، ومدينة الرباط ، عاصمة
المغرب الحالية ، التى حلت محل مدينة سلا القديمة ، وهى شالة الرومانية على وادى
بروجرج (أبو الرقراق) (٧٧)

أما عن أهم موانئ الأطلنطي في منتصف القرن ال ٦ هـ / ١٢ م . فهى كما
يرتبها الادريسي في الفترة التى تهمنا ، من الشمال إلى الجنوب : مرسى فضالة في
جنوب سلا ، مرسى أنفا على بعد ٤٠ ميلا ، ثم مرسى مازيفر على بعد ٦٥ ميلا

(٧٥) سيليرييه ، مراكش ، ص ٤١ ، وكار ، مراكش ، ص ٤ .

(٧٦) وكار ، مراكش ، المرشد الأزرق ، ص ٤ .

(٧٧) سيليرييه ، مراكش ، ص ٤١ ، وابتظر وكار ، مراكش ، المرشد الأزرق ، ص ٣- حيث نهر
"لوكس" أنصبف الأنهار التى تصب في الأطلنطي من حيث إنه ينصرف في قسم من إقليم
جباله ، ويسير القسم الأخير منه إلى القصر القديم وإلى العرايش ، وهو واسع منبسط في شكل
مستنقع ، ص ٤- حيث النص على أن التقنيه الحديثة هى التى أدت إلى نجاح ميناء الدار
البيضاء الذى سهل الوصول إلى البلاد المراكشية بشكل كبير .

ثم جون البيضاء على مسافة ٢٠ ميلا . ومرسى الفبط على ٥٠ ميلا ثم مرسى أسفى على ٨٥ ميلا . وهنا ينص الادريسي على «مرسى أسفى كان فيما سلف آخر مرسى تصل إليه المراكب ، فأما الآن فهي مجهوزة بأكثر من ٤ (أربعة) مجار حيث مرسى ماست فى طرف الجون على مسافة ١٥٠ ميلا - فكان المجرى حوالى ٤٠ ميلا (٧٨) .

وبالنسبة لجارى المياه فى منطقة الأطلس الوسطى ، فإن حضبة الميزيتا هي صهرج مياه الأنهار المغربية الكبرى (٧٩) . فبسبب كونها محصورة لا تستطيع أن ترفع رواسبها من الصخور الصلبة فى القاعدة الأولية ، حيث تنقف فى طريقها تكوينات صخرية راسية ، فإن هذا الأمر جعل من المجرى المائى أشبه بأخدود ذى حواف نائنة . ولقد ترتب على هذا الأمر أن صارت مبرتها من الماء ضعيفة . وأهم النماذج هو : وادى ابو الرقراق (بورجرج) ، وشقبه رافد الجرو (٨٠)

مجموعة جنوب المغرب الأطلسي :

السوس وتنسيضت وماست :

وادى السوس :

ويحمل هذا النهر اسم إقليم السوس : آخر بلاد المغرب الأقصى ، «نهاية بلاد

(٧٨) انظر نزهة المشتاق، ص ٢٤٠، وما يؤسف له ان الادريسي لم يفسر سبب تسمية أسفى بهذا الاسم قائلا إنه سيأتى به عند ذكره لمدينة اشبونة، بسبب منهجى اذ يقول " وذكر الشئ فى موضعه أليق- ومع أننا كنا نود لو ذكر ذلك هنا إلا أنه وفى بما قاله، وهو ان اسم أسفى من الأسف، وذلك لرقاة قائد الأسطول المرابط أحمد بن عمر المعروف بدقم الإور قبل ان يحقق رغبته فى الوصول إليها- ولهذه الجزيرة قصة غريبة أخبر عنها المفسرون من أهل أشبونة بالاندلس حين استقروا إليها بمراكبهم، وكيف سميت أسفى بهم.... (انظر ص ٢٢٠). وقارن ريكار، ص ١٨٣- حيث أسفى هي بالعربية "صافى"، كما عند ابن خلدون.

(٧٩) انظر ما سبق، من أطلس الوسطى، ص ٣٧ .

(٨٠) سيلينيه، ص ٤١.

البربر» عند الحسن الوزان (٨٦). وإذا كان الوزان يصف وادي السموس بالنهر الكبير ، فالمعروف أن المنطقة التي يجري فيها قليلة المطر ولا تسمح عادة بجري الأنهار الدائمة . وبناء على ذلك فالفضل في جريه يعود إلى الكتلة الأطلسية المرتفعة التي تتراكم فوقها الثلوج . فبسبب ذوبان الثلوج حتى حلول الصيف يستمر بهريان النهر ، وإن كان بمعدل بطيء وضعيف ، حيث يختفى الماء بالمحرق تحت الحصى، في وقت الصيف (٨٧) . أما عن فيضان النهر فيكون مرتين في العام : أولهما في سبتمبر عند هطول أمطار الخريف ، والثانية في إبريل عند ذوبان الثلج (٨٣).

وادي تنسيقت :

وتنسيقت هو نهر مراكش بالامتياز من حيث موقع العاصمة المغربية منه . فهو ينبع من جبال أطلس العليا (درن الأعظم) في منطقة دمنات ، ويمر غير بعيد من مدينة مراكش ، على بعد حوالي ٦ كم أو ٣ (ثلاثة) أميال (٨٤).

وهو على طول المجرى ، يستقبل عددا مهما من الروافد ، من أودية : زادت ، ووريكة ، وغدجايا ، ونفيس ، وشيشاوا (٨٥) . وكان لوادي وريكة الذي يخترق مدينة أغمات وريكة من الجنوب ، ويخرج منها من الشمال ، وعليه الأرحاء تطحن

(٨١) وصف الخريطة، الترجمة، ص ١٢١ .

(٨٢) سيلييرييه، ص ٤٢ ، وقارن الحسن الوزان، الترجمة ، ص ١٢٤ حيث النص على أن نهر السموس يعبر غرضا في الصيف، ولكن لا يمكن اجتياز شتاء إلا في المراكب الصغيرة.

(٨٣) الحسن الوزان، ص ١٢١.

(٨٤) الاستبصار، ص ٢٠٩ ، وانظر ويكار، المرشد الأزرق، ص ٣، وقارن ديليردان، مراكش، ص ١١ حيث تنسقت جزء من النظام المائي لوادي أم ربيع.

(٨٥) سيلييرييه، ص ٤٢، وقارن الاستبصار، ص ٢٠٩ حيث دروافد: وريكة، ونفيس، وأودية كثيرة. وانظر ديليردان، مراكش، ص ١١ حيث النص على أن أهم الروافد هي : وريكة وبرايا ونفيس.

المنطقة في نظام يديع يحقق تنظيم مائة ما بين منفعة المدينة ، وري الأراضي الزراعية خارجها ، فالنهر يدخل البلد ٤ (أربعة) أيام في الأسبوع ، هي الخميس والجمعة والسبت والأحد ، أما باقي أيام الأسبوع فيحولونه لسقى جثاتهم وأرضهم - وحينئذ تتوقف الأرحاء عن الطحن (٨٦).

وهو في النهاية يعبر السهل الرسوبي الواسع في منطقة الخوز ، قبل أن يندفع في المنطقة الساحلية القاحلة . ، وهو من هذا الوجه يعتبر أكثر أهمية من وادي السوس . وذلك من حيث أن روافد تنسيف تجلب إليه في الربيع المياه الوفدة من ذوبان الثلوج . ولكنه لما كان معظم الروافد يستنزف في الري والسقيا ، فإن معظمها لا يحمل المياه في فصل الصيف . وهنا تقوم منطقة الخوز (وهي الكتلة الرسوبية) وقد النهر بمياهها الجوفية (٨٧).

وادي ماسة (ماست) ،

وآخر أنهار المغرب الأطلسية في الجنوب هو وادي ماست الذي ، الذي يعتبر من أنهار بلاد السوس (٨٨) . وهذا النهر رغم صفه يثل نموذجاً هاماً بالنسبة لأنهار جبال أطلس (درن) الجنوبية . فروافده العليا تحيط حقيقة بالكتلة الجبلية الكثيفة ، المعروفة بـ «كست» ، والتي تمثل مجعاً مائياً (صهريجاً) كبيراً . وتخصفها جيد يفيد الري منه بشكل كاف ، وعلى نطاق واسع (٨٩).

(٨٦) نزهة المشتاق، ص ٢٣١.

(٨٧) سيلبريه، ص ٤٢.

(٨٨) الاستبصار، ص ٢١١- حيث وصف ماسة بالنهر العظيم، وأن مصبه في البحر المحيط، وإن كان جريه من القبلية (الجنوب) إلى البحر كجري نيل مصر.

(٨٩) سيلبريه، مراكش، ص ٤٢ .

المياه الساكنة (الثامنة) والمياه الجوفية :

والمياه الساكنة أو الثائمة هي التي لا تتحرك مثل : البحيرات والمستنقعات . أما المياه الجوفية فهي الآبار والعيون الارتوازية التي قد تتبخر أو تستنقع وكذلك شبكات مياه السرايب الأرضية العميقة التي تعرف بالفجارات أو الحفارات .

والبحيرات قليلة في المغرب بسبب الحرارة وكثرة البخر التي لا تساعد على حجز شبكات المياه الراكدة . والمهم أنه لا توجد مسطحات مائية كبيرة ساكنة في شكل بحيرات ، وإن عملت التضاريس من الهضاب المسطحة والأودية والخلجان على وجود عدد من المصطحات المائية التي تشبه الأطباق أو الطسوت ، التي تتجمع فيها المياه عقب سقوط الأمطار ، ويقاها لعدة أشهر حتى دخول الصيف .

ومثل هذه التجمعات المائية الطارئة قد تحف في فصل الصيف وتتحول إلى مروج للزراعة الخفيفة أو مراعى للماشية . والمثل لذلك مرجة سبو في أدنى الوادي ، وكذلك في منطقة عبدة حيث بحيرة زينا . هذا كما يمكن لبعضها أن تتحول في الصيف إلى ملاحات ، لاستخراج ملح الطعام .

أما في الجبال فقد توجد برك عميقة أو ضحلة مما يتكون في بعض الأودية ، والتي تحف بعد فصل الأمطار . كما يمكن أن تتكون التجمعات المائية الساكنة نتيجة حادث أو ركام بركاني ، كما في انزم آجملحان : سيدى على ، في طريق أطلس الوسطى ، أو نتيجة انكسار سطحي كما في أفنى في جنوب تلة تويقال أو جنوب تازا (٩٠) .

وعن المياه الجوفية فهي على العكس من المياه الساكنة وفيرة في البلاد المراكشية ليس عن طريق الأمطار ، بل نتيجة لطبيعة الأرض ، وتشكيل السطح والتضاريس التي تسمح بأن تكون فيها شبكات مياه عميقة ، ومستويات مهمة من الموارد

(٩٠) سليليه، مراكش، ص ٤٢، بكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص ١٤٠ .

الثانية التى تتأعد على الاستقرار الإنسانى : فهى عادة فليكة بالماء - مثل هضبة
مراكش الوسطى - مما يعتبر صهاريج عظيمة تدير العديد من المنابع التى تتفجر فى
كل المنطقة المتصلة بالسهل . وأهم النماذج هى : ينابيع وادى سبو الارتوازية ،
وكذلك ينابيع وادى أم الربيع الأرمين .

أما عن الفجارات والخطارات فهى تتكون نتيجة لرشح مياه الأنهار فى كتل
الطين والحصى والرمل ، التى تتجمع عند وصولها إلى الطبقة الجوفية الحصوية التى
لا تسمح بالرشح .

وهذه المياه التى يصطادها الأهالى المحليون بمهارة تسمح لهم بتنظيم وسائل
الرى عن طريق قنوات الخطارات والفجارات بشكل هندسى منظم يشير الإعجاب .
ونفس النماذج الهندسية توجد فى خطارات حوز مراكش ، وفى فجارات
الواحات (٩١) .

السكان وتوزيعهم فى الإسلام :

الأقاليم العمرانية :

تقسم بلاد المغرب جغرافيا إلى ٤ (أربعة) أقاليم متتالية ابتداء من البحر نحو
الداخل ، وهى : الساحل ، سلاسل الجبال ، السهول المصبية بين الجبال ، ثم الأقاليم
شبه الصحراوية . هذا إلى جانب التقسيم التقليدى الرباعى ، من : شمال وجنوب
(من سبتة إلى سبلماسة) وغرب وشرق (من سلا إلى وبندة) . وهذه التسميات
الاصطلاحية تستخدم من غير شك عند رسم خريطة توزيع السكان .

ولكنه لما كانت طبيعة الاجتماع المغربى من الطراز القبلى ، كان من الطبيعى
أيضا أن تأخذ الأرض أسماء ساكنيها ، صناع عمرانها ، وهو الأمر الدارج فى
الاجتماع البدوى - المبنى على النسب والعرق - أيا كان مقره . هذا ولو أن أهم

(٩١) سيليريه، مراكش، ص ٤٣ . ٤٤ ، وقارن ويكار، مراكش، المرشد الأزرق، ص ١٤ .

عوامل العمران تتمثل في الأرض الطيبة ، في أحواض الأنهار الخصبة ، مثل سهول الريف وسبو والسهول الغربية وغيرها (٩٢) وتظهر أنواع التقسيمات المختلفة هذه عند الحسن الوزان (ليون الأفريقي) ، في القرن الـ ١٦ م / ١٠ هـ ، إلى جانب التقسيمات السيامية التاريخية المستجدة على مرّ الأيام والسنين ، فهو يقسم بلاد البربر إلى ٤ (أربع) ممالك ، يخص البلاد المراكشية منها مملكتين ، هما .

١- مملكة مراكش ، وتنقسم إلى ٧ (سبع) مناطق ، هي : حاحة ، والسوس ، ومراكش (العاصمة) ، وجزولة ، ودكالة ، وهسكورة وتادلة . وهكذا تنوزع الأسماء ما بين أسماء الأماكن ، مثل : السوس ومراكش وتادلة ، والقبائل ، مثل : حاحة وجزولة وهسكورة ودكالة .

٢- مملكة فاس ، وهي ٧ (سبع) مناطق أيضا ، هي : تامسنا ، وفاس ، وأزعار ، والهبط ، والريف ، وحارث والحوز (حوز فاس) . والغالب هنا : التسمية الإقليمية إذ أن التسمية القبلية لا تتجاوز قسمين ، هما : أزعار ، وحارث من بين الأقاليم السبعة (٩٣) .

ويأتي بعد ذلك تقسيم الوزان للأفارقة البيض إلى ٥ (خمس) أقسام ، هي : صنهاجة ، ومصمودة ، وزنانة ، وهوارة ، وغسامة . وهو يوزع المصامدة على ٤ (أربعة) أقاليم ، هي : حاحة (أصلها إبحاحان بالبربرية) ، والسوس ، وجزولة ، ومنطقة مراكش . وإثنان منها أسماء عرقية ، وهما : حاحة وجزولة ، وإثنان إقليميان ، هما : السوس وحوز مراكش .

أما عن موطن قبائل غمارة فهي بلاد الريف (موريتانيا الرومانية) . أما عن تامسنا التي تعادل هضبة الميزيتا الغربية ، فهي موطن لـ ٣ (ثلاث) قبائل ، هي :

(٩٢) انظر فيما سبق ، ص ٥٢ - ٥٣ - حيث تحديد ٦ (ست) مناطق سكانية ، هي : الريف .

السهول الغربية ، جبال الأطلنطي ، الأقاليم شبه الصحراوية ثم الأقاليم الشرقية .

(٩٣) الحسن الوزان ، الترجمة العربية ، ص ٣٨ .

زناتة ، وهوارة ، وصنهاجة (٩٤) ولكنه لما كانت العينات الأولى (الأصلية) من البربر لا توجد إلا في الأماكن الاتعزالية الصعبة ، مثل : أوراس والقبائل بالجزائر ، والريف وسفوح الأطلس بالمغرب ، وبعض واحات الصحراء (٩٥) ، يكون من المقبول وضع بربر مصمودة وحادة : أهل جبل درن الأعظم (أطلس العلوي أو الريف) ضمن العروق النقية من البربر ، أهل البلاد الأصليين . وأهم صفاتهم العرقية ، هي :

١- عرض الأكتاف ، وضيق الإليتين ، أشبه ما يكونون بسكان وادي النيل.

٢- صغر الحجم ، أشبه بسكان سواحل المتوسط الشمالية ، في : إسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا.

٣- سمرة اللون ، وساطة الحركة ، وعصبية المزاج.

٤- ومنهم نماذج شقراء نقية ، ونماذج ملونة غير سوداء.

والمهم أن كل ذلك يسمح بوضعهم في عائلة لغوية واحدة (ما بين السامية والحامية) وليست عرقية (٩٦) .

أما عن لغتهم فهي قريبة من المصرية القديمة وكذلك الحبشية (الأمهرية) . ولهم نوع من الكتابة لم يتم الكشف عنه ، وإن وجدت بقاياها لدى الطوارق الصحراويين

(٩٤) وصف إمبريقية نوحسن الوزان ، ص ٤٤ ، وانظر أيضا ص ١٠٧ - حيث حاجة اسم لقبيلة (إمهاحان) أصبح يعبر عن المنطقة القريبة من مراكش ، التي تنتهي غربا بجبال أطلس ، وشرقاً عند نهر اسيف أتيشوال (نهر الأكواخ بالبربرية) .

(٩٥) ريكار ، مراكش ، المرشد الأزرق ، ص ٦٤ .

(٩٦) ريكار ، مراكش ، المرشد الأزرق ، ص ١٤ - حيث النص على أنهم حفدة اللبسين الذين غزوا مصر في القرن ١٤ - ١٣ ق.م. وأن بقاياهم موجودة في عمارتهم الجنازية ، وفي النقش على الصخور ، وعلى الأشياء المنقولة.

فى مراكش (٩٧).

توزيع قبائل البربر فى المغرب الاقصى ، وقبائل مصمودة ، على عهد الموحدين ،

مثلا يعتبر البكرى المصدر الجغرافى الرئيسى ، والمعاصر لدولة المرابطين الصنهاجية الصحراوية ، مطلع النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى / ١١ م ، يعتبر الادريسي المصدر الجغرافى المعاصر لدولة الموحدين المصمودية فى منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، ويتلوه فى نهاية هذا القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م كتاب الاستبصار الذى ربما كان مؤلفه أحد كتاب الدولة الموحدية ، الأمر الذى يؤصل معلوماته تأصيلاً أكيداً ، وإلى جانبهما يقف على نفس المستوى من المعاصرة كتاب البيدق فى أخبار المهدي محمد بن تومرت . فعلى هذه الكتب يكون الاعتماد - المظمن - فى رسم الخريطة السكانية للبلاد المراكشية فى عصر نشأة وعظمة الدولة الموحدية ، وتكون كتب المتأخرين من الجغرافيين والمؤرخين بمثابة المصادر المساعدة .

ومن المهم هنا البدء بالإشارة إلى حصانة موقع حصن أو قرية تامللت (تملل ، تملل) التى اتخذها محمد بن تومرت مقراً له فى بداية دعوته . فالادريسي يصف تملل « بالحصن المنيع ، القليل مثله فى حصون الأرض : بنية وتحصينا ومتعة » .

(٩٧) ويكار ، مراكش ، المرشد الأزرق ، ص ١٤ ، ولزبد من التفصيلات فى البحث الحديث ، انظر ص ٤٩ - حيث تقسيم البربرية المعاصرة إلى ٣ (ثلاث) مجموعات لغوية ، وهى : ١ - المجموعة الريفية (زناينة الأصل) ، ٢ - مجموعة البرابرة (صنهاجية الأصل ، فى أطلس الوسطى والغربية) ، ٣ - مجموعة الشلوح : لغة الحضر المدنيين وخاصة فى أطلس العليا والوسطى والغربية والسموس والواحات ، والمسافات تقترب وتبتعد بين هذه اللهجات ، كما تظهر بين الحين والآخر بعض الكتابات البربرية مكتوبة بالخط العربى ، كما فى كتاب الوسيانى عن إباحية تاهرت ، انظر للمؤلف ج ٩ (ط ٢٠٠٠) ص ٤٨ - ٤٩ وما بعدها . أما من الكتابة البربرية عند الطوارق والتى تعرف بالتيغيناغ ، انظر ج ٤ ص ١٣ وما بعدها .

وأنة «من حصانته وثقافته مكانة أن ٤ (أربعة) رجال (نقط) يسكونه ، ويمتعون الصعود إليه ، لأن الصعود إليه على مكان صعب ، وعمر المرتقى ، لأنه يشبه البرج الخرج» . «لا ترتقى إليه ذابة البتة إلا بعد جهد ومشقة» . «وهو كان عمدة المصودى : محمد بن تومرت ، حين ظهر بالمغرب» (٩٨) . وإذا كانت منعة تأملت وغيرها من «حصون جبل درن الجديدة ، وقراء المنعية ، تصبح قريبة على أن المصامدة سكان المنطقة يمثلون أنقى عناصر البربر ، الذين حافظوا على سماتهم البشرية (مأسبق، ص ٦٩) والروحانية التي تتفق مع طبيعة الهيئة (مايأتى، ص ٧٨ ، ١٦٦) .

وأغلب الظن أن المكان الهيد المنال هو الذى ساعد على ظهور مقولة ان المهدي بن تومرت أصيل من الشرفاء العرب المنشيين ، الذين قروا أمام البربر الذين كانوا يطلبونهم فى هروب الفتوح ، ولاذوا بهذا الملجأ الحصين حيث تهربوا مع مرور الوقت فى الموقع الأنغزالي الهيد (٩٩) .

وهكذا يقسم الادريسى البربر إلى طائفتين ، هما : البرابرة (يعنى البربر المخلص) والمعتبرين بالتأثير والجنار ، تماما كما يقسم النسابة والمؤرخون قبائل العرب إلى جماعتين كبيرتين ، هما : العرب النارية (الأصلاء) والعرب المستعربة (الذين اتخذوا العربية لغة لهم) ، وبعد ذلك يمكن أن نقسم كل من الطائفتين من حيث النقاء العرقى إلى أصيل (بربر أو برابرة دون توصيف) ، ومختلط (والجمع أخلاط) .

(٩٨) نزوة المشاق، ج١ ص ٢٢٩-٢٣٠ .

(٩٩) انظر الاستبصار، ص ٢١١- حيث النص على انه فى جبل درن كثير من قبائل المصامدة الذين يقال إنهم من العرب ، قد دخلوا تلك البلاد ، وسكنوا بتلك الشعاب فى الفترة الواقعة عند هزيمة ميسرة التي تسمى هزيمة الأشراف . وكان البربر يظهرون العرب فتوغلوا فى تلك الجبال وتناسلوا ، فهم أهلها على الحقيقة لأنهم أصبحوا- مع ذكر حديث : «من أحب أرضا ميتة فمى له» .

وإلى جانب البربر كان هناك إيهود الذين عاشوا في البلاد منذ العهود القديمة ،
ثم العرب المخلص من القادمين الجدد من الهلالية - الذين دخلوا الأقاليم الشرقية من
المغرب على أيام الزيريين (ج ٤) ، والذين بدأوا يدخلون المغرب الأقصى ، وكذلك
الأندلس على أيدي خلفاء الموحيدين ،

وهكذا يمكن رسم خريطة إقليمية عرقية لسكان البلاد المراكشية على الوجه
التالي :

أهل الريف :

في الشمال ، في منطقة جبال الريف ، عاشت قبائل غمارة التي تعتبر من فروع
مصودة (١٠٠) . وهم أمم لا تحصى ، عرفت العصيان على الولاة بسبب حصونها
المنيع في الجبال (١٠١) .

تامسنتا وساحل الأطلنطي :

أما عن منطقة تامسنتا المعروفة بالشاوية (نسبة إلى رعى الشاة) - والتي يصنف
أهلها ضمن المصامدة مثل غمارة الريف - فقد كان أهلها على عهد الإدارة ،
كما يقول الإدريسي عن منطقة قرية أم الربيع ، أخلاطا من البربر ، وقبائل شتى
ممتزجة ، من : رهونة ، وبعض زناقة من بني يجطش ، وتامسنتا (وهو اسم المنطقة
ويقصد بها جمهرة أهلها على أيام المرابطين والموحدين ، الذي ينتسبون إلى مصودة

(١٠٠) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٠٠ ، وانظر ديفيردان ، مراكش ، ص ٢٨ ، حيث تقسيم مصودة إلى ٣
فروع ، هي غمارة في الريف ، وبرعراطة وتامسنتا ، بينما المصامدة المخلص في الوسط من وادي
سور إلى أم الربيع .

(١٠١) الاستبصار ، ص ١٩٠ ، وقارن الحسن الوزان ، ص ٣١٢ - حيث موضعهم في القرن
ال١٦م / ١٠ جبال الهبط ، ص ٣٧٠ - حيث النص على أنهم (في جبال غمارة) خليط يعرفون
بـ الجبال أي أهل الجبل .

مراكش) ، ومطماظة ، ويتو تسلت ، ويتو او بقران ، وزقارة ، وينص الادريسي على أن هذه القبائل المختلفة منتشرة على طول ساحل الأطلس ، في اتجاه الجنوب من سلا حتى مرسى قضاة (شمال الدار البيضاء) . على امتداد ٣ (ثلاث مراحل) (١٠٢) . وهي تستمر جنوبها من ذلك .

وفي ساحل أسفى وحتى مرسى الغبظ ، وجدت عمارات وبشر كثير من البربر المسلمين ، من : رجاجة ، وزودة ، وأخلاط من البربر (١٠٣) . والذي يلاحظ هنا هو تقسيم البربر في تلك المنطقة من شواطئ الأطلس إلى مسلمين وأخلاط ، الأمر الذي قد يشكك في موقف الأخلاط من الثقافة الإسلامية ؛ وفي الجنوب من ذلك يتصل مرسى الغبظ بأرض قبائل البربر من دكالة (١٠٤) .

والمنطقة جميعها ، كما في تطن وقرى ، على بعد يومين من سلا ، وكما في داي على بعد مرحلة من كل من مدينة داي ومدينة تادلة ، يسكنها خليط من البربر ، من : بنى وليهم ، وبنى يزكون ، ومنداسة ، إلى جانب قوم من صنهاجة كانوا يسكنون بجبل داي (١٠٥)

وقبلى تادلة كانت تسكن قبائل من زناتة ، من : بنى سمجون ، وبنى هجلان ، وبنى نتكدلت ، وبنى عبد الله ، وبنى موسى ، وبنى ماوري ، وتكلمان ، وأرلوشن ، وأنتفاكن ثم بنى سامرى (١٠٦) .

أهل مكناسة :

وتسمى تالبرت ، وحولها مواضع بنى زياد ، وبنى تاوررة ، وبنى عطوش . وعلى أسفل منازل بنى عطوش ، وعلى مجرى الماء الأتى منها ، تقع منازل قبيلة

(١٠٢) نزهة المشتاق، ص ٢٣٧-٢٣٦ .

(١٠٣) نزهة المشتاق، ص ٢٤١-٢٤٠ .

(١٠٤) نزهة المشتاق، ص ٢٤١ .

(١٠٥) نزهة المشتاق ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(١٠٦) نزهة المشتاق ، ص ٢٤٣ .

مكناسة (نسبة الى جدهم مكناس البربري). وإذا كان الادريسي ينص على أن قبيلة مكناس هذه تعرف باسم بنى برنوس ، فإن ذلك لايعنى أنهم من بربر البرانس الحضري أصلا - على ما ترى (١٠٧)

والادريسي ، يحدد من قبائل بنى مكناس المجاورة ، في طواهر المدنية:

بنى سعيد ، وبنى بسيل ، ومغيلة ، وبنى مصمود ، وبنى على ، وورباغل ، ودمر ، وأرية ، وصهاوة ، ويصفهم بأنهم بربر بمعنى مقاربة أصليين (١٠٨).

والذي يسترعى الانتباه هنا هو وجود جماعات مكناسية تحمل اسما : سعيد وعلى ومصمود ، الأمر الذي يشكك في نقاء عروق تلك الجماعات ، وفي وقوعها تحت تأثيرات عربية أو بربرية مخالفة.

والذي يشير الانتباه فوق ذلك ، هو أن صاحب كتاب الاستبصار ، يؤكد بعد حوالي ٤٠ (أربعين) سنة معلومات الادريسي ، وإن ظهرت منطقة مكناسة أكثر تنظيما ، إذ حدد عدد المواطنين التي ترقى إلى مستوى البلدة أو المدينة ، والتي لها مسجدها الكبير (الجامع) الذي تقام فيه الخطبة لصلاة الجمعة بتسع مدن أو بلدات. تسمى الواحدة منها «خطبة» (أي منبر) . والخطب التسع في : مكناسة الزيتون، التي كانت تتبع نظر مدينة فاس في سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م وهي :

١- الحصن (القصبه : مقر الحكومة أو الإدارة).

٢- مدينة السوق القديمة .

٣- تاورا .

٤- أولاد عطوش.

(١٠٧) نزعة المشتاق، ص ٢٤٥- وعن البرانس الحضري انظر ج ١ ص ٨١ .

(١٠٨) نزعة المشتاق، ص ٢٤٥-٢٤٦ .

٥- أولاد بروتوس .

٦- بنو موسى .

٧- بنو زياد .

٨- بنو ووزيفة .

٩- بنو مروان (١٠٩)

أهل فاس :

ومدينة فاس ، تطب ، ومدار لمدن المغرب الأقصى ، في ذروة العصر الموحدى ، كان يسكن حولها قبائل من البرابرة ، ولكنهم كانوا يتكلمون العربية (فهم مستعربة المغرب) وهم : بنو يوسف ، وفندلاوة ، ويهلول ، وزواوة ، ومجاجة ، وغبية وسلالون (١١٠) . ومع أن الادريسي لا يذكر نسبتهم إلى أحد شعوب المغرب الكبير من : البرانس أو البتر أو زناتة أو صنهاجة ، فأغلب الظن أنهم أصلا من نفس العرق المكناسى الزناتى ، الذى ينتسب إلى عرب القيسية أو المضربة . فهم أقرب إلى البتر أى إلى عرب الشمال منهم إلى البرانس الذين ينتسبون إلى عرب اليمن الجنوبية (١١١) .

(١٠٩) الاستبصار، ص ١٨٧-١٨٨ ، وقارن الحسن الوزان قرن ، ١٠هـ / ١٦م - حيث تقسيم فاس إلى ٧ مناطق هي : ١- تامسنا ، ٢- فاس ، ٣- ازغار ، ٤- الهبط ، ٥- الريف ، ٦- حارث ، ٧- الحوز .

(١١٠) نزعة المشتاق ، ص ٢٤٦ .

(١١١) انظر ج ١ للمؤلف (ط ٢٠٠٠) ص ٩٢ - ٩٣ - حيث قائمة قبائل البربر حسب ترتيب ابن خلدون ، وانظر الحسن الوزان ، الترجمة ، ص ٣٨ - حيث أقسام مملكة فاس ، أى المناطق الـ ٧ (سبعة) ، السابق ذكرها فى ص ٦٨ .

بلاد المصامدة :

أهل حوز مراكش والسوس :

حوز مراكش والأقاليم المجاورة هي بلاد المصامدة بالامتياز ، فهي قلب بلاد المغرب (١١٢) ، وكذلك الأمر بالنسبة لبلاد السوس التي نسب إليها محمد بن تومرت ، مهدي الموحدين ، الذي اشتهر في المشرق باسم « الفقيه السوس » . (١١٣).

أهل دكالة :

وأقليم دكالة التاخم لم يسي ماست حيث مصب نهر السوس ، وإلى تارودانت مدينة السوس ، كان يسكنه قوم من المصاميد (١١٤) . هذا وإن عرف سكان تارودانت والسوس في موضع آخر عند الإدريسي ، بأنهم أخلاط من البرابرة (١١٥) بمعنى أنهم عروق لبست نقية ، وهو الأمر المقبول بسبب اختلاطهم بغيرهم

(١١٢) انظر ريكار ، مراكش ، ص ١٤٢ - حيث حوز مراكش محدود من الشمال بالمجرى الأوسط لأم الربيع ، وشرقا بمساند أطلس الوسطى ، وجنوبا بسفوح أطلس العليا ، وغربا بدكالة وعبدة ومشباديه حاجبة . أما عن إقليم قبيل حاجبة فهي منطقة الساحل الشمالي من موجدور إلى أغادير ، وهي بالبربرية إيحاحانه (ريكار - مراكش ، ص ٢١٢) .

(١١٣) انظر البيدق ، الجزائر سنة ١٩٨٦ ، ص ٢٣ ، ٣٤ (كما عرّفه عبد المؤمن الشاب في بلاد الجزائر) . وعن بلاد السوس ، وأهلها البربر عرفا ولغة فانظر ريكار ، مراكش ، المرشد الأزرق ، ص ٢٠٥ - حيث لم يهدأ اختلاطهم بالدم العربي إلا منذ القرن ١٣م ، ١٤م . وعن السوس الحالية فإنها تنقسم إلى ٤ مناطق ، هي : ١- رأس الوادي ، البلاد العليا (من أولوز إلى تارودانت) ، ٢- هوارة وهم فرسان ، ٣- شتوكا : جنوب الوادي الأسفل (وهم فقراء) ، ٤- أراغار (سهل تميزت) .

(١١٤) نزعة المشتاق ، ص ٢٤١ - حيث صيغة المصاميد ربما كانت جمع الجمع للمصامدة ، ومفردها مصمودة .

(١١٥) نزعة المشتاق ، ص ٢٢٨ .

من قبائل البربر ، عن طريق الصلات الحربية والمحضارية مع أهل الصحراء بل
والسودان.

أهل السوس :

ومن إقليم السوس إلى أغمات كانت بلاد المصامدة تمتد على طول ٦ (ست)
مراحل ، وأشهر قبائلهم في تلك المنطقة ، عند الإدريسي ، هي اتني نتان (وهي
الصيغة البربرية الأصلية لاسم هنتانة الشائع عند الكتاب ، كما نرى) ،
وينواسنوا ، وانكطوطاين ، وانسوطيط ، وأرعى ، والنفيس ثم بانتوركيت ، وإلى
جانب تلك القبائل التي كانت تعمر تلك الجهات في منتصف القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ،
يذكر أيضا ضمن قبائل المصامدة قبائل منطقة نفيس الجبل (١١٦) . وتحديد نفيس
الجبل هنا يعني أن مصامدة منطقة نفيس ينقسمون الي جماعتين :

أهل الجبل هؤلاء ، وهم بمثابة نفيس الضواحي أو الظواهر ، بالنسبة لأهل المدينة
الذين يعتبرون : نفيس الحضر . وبطبيعة الحال يكون أهل الظواهر أقل نقاء في
« مصوديتهم » من الحضر ، لتعرضهم للتلاحم مع العروق الخارجية البعيدة عن
المركز بسبب الحاجات الاقتصادية أو ما تالية التحالفات السياسية - الاجتماعية.

أهل أغمات :

وهكذا كان أهل أغمات من البربر المتبردين بالمجاورة ، وربما كان ذلك نتيجة
اشتغال أهل أغمات بالتجارة التي عرفوا بها ، وخاصة مع بلاد السودان (١١٧)
ومدينة أغمات تقع على ٢٤ كم شمال مراكش (١١٨) . وهي التي توصف
بأغمات وريكة ، نسبة الي رافد تنسيفت الذي يخترقها من الجنوب إلى الشمال .
وهي تعرف أيضا بأغمات الجبل تميزا لها عن « أغمات ايلان » أو « أغمات ان

(١١٦) نزهة المشتاق، ج١ ص ٢٢٩ .

(١١٧) نزهة المشتاق، ص ٢٣٢ .

(١١٨) الحسن الوزان، ص ١٥٨ ، وانظر الإدريسي، ص ٢٣٢ وما بعدها .

وايلان» حميما يسهى البيدق (١١٩) أو أغمات هيلاته (١٢) ، وهى مدينة السهل أو أسفل جبل درن (١٢١) . وهى تقع شرق أغمات وريكة على بعد ٨ (ثمانية) أميال (١٢٢) .

وهذه المدينة عرفت بمدينة اليهود ، لقرىها من العاصمة مراكش التى لم يسمح لليهود بسكناها على عهد على بن يوسف بن تاشفين ، فكانت أغمات هيلانة مأوى لهم يمكنهم من ممارسة نشاطاتهم التجارية عن قرب مع العاصمة مراكش . وبفضل هذه النشاط الاقتصادي أصبحت أغمات إحدى عاصمتى حوز مراكش ، إلى جانب العاصمة الثانية نفيس (١٢٣) . وهذا لايعنى أن أغمات هيلانة كانت مدينة لليهود ، وذلك أن قبائل من مصامدة أغمات وريكة كانوا يسكنون غربى هيلانة وشرقها (١٢٤) .

سكان مراكش :

أما عن مدينة مراكش ، فكان يسكن فى قبلتها من قبائل البربر : ايلان (من المصاميد) ، وجولها ، من القبائل : نفيس ، وينويدفر ، ودكالة ، ورجرجة ، وزودة ، وهسكورة ، وهزرجة ، من بربر مصمودة (١٢٥) .

(١١٩) أخبار المهدى ابن تومرت ، ص ٤٩ .

(١٢٠) ديفيردان ، ص ٤٣ .

(١٢١) الحسن الوزان ، ص ١٥٨ .

(١٢٢) الاستبصار ، ص ٢٠٧ .

(١٢٣) ديفيردان ، مراكش ، ص ٣ .

(١٢٤) نزهة المشتاق ، ص ٢٢٢ (عن أغمات) وص ٢٣٥ (عن أغمات ايلان) .

(١٢٥) نزهة المشتاق ، ص ٢٣٦ ، وقارن الحسن الوزان (قرن ١٦م / ١٧م) ص ٣٨ - حيث تقسيم مملكة مراكش إلى ٧ (سبع) مناطق ، هى : حاحة ، والسوس ، ومراكش ، وجزولة ، ودكالة ، وهسكورة ، وتادلة ، وانظر أيضا ص ٤٤ - حيث توزيع المصامدة فى ٤ أقاليم ، هى : حاحة ، والسوس ، وجزولة ثم منطقة مراكش - الأمر الذى يعنى لجميع معلومات من فترات تاريخية مختلفة ، أو من مصادر مختلفة .

أما عن مدينة نفيس التي خلدت ذكرى القبائل التي حملت هذا الاسم ، والتي ربما كان موضعها هو مكان رباط شيكر ، الذي ينسب بناؤه إلى عقبة بن نافع (١٢٦) ، فإنها كانت نداءً لأغمامات وريكة بصفتها العاصمة الثانية لحوز مراكش.

فكان حوز مراكش كان له دائرتان يدور على قطبيهما ، هما : أغمامات على رافد تنسيفت ، ونفيس على رافد السوس النفيس . وهكذا تكون مراكش قد ربطت بين وادي المغرب الأقصى الشرين ، ويكون على أكتاف وجالهما قيام كل من دولة صنهاجة المرابطية ، ومن بعدها دولة مصمودة الموحدية . والمهم في المسألة العرقية هذه ، أن دولة مصمودة كانت الورشة الشرعية لدولة صنهاجة في نفس مراكش وحوزها . وأن الدولتين عملتا في نهاية الأمر على تجميع كل قبائل المغرب على مختلف عروقها تحت الرايات المرابطية والموحدية ، فكانت المجازات كل من الدولتين في آخر الأمر نتاج بلاد المغرب لحما ودما.

الثروات الزراعية :

بعد عرض المسرح النباتي الطبيعي الذي يتميز بفناء وتنوعه في المناطق الجبلية العالية في البلاد المراكشية ، والذي يتدرج من النمط شبه الصحراوي ، حيث القليل من الأشجار الشوكية ، إلى الجاف حيث أعشاب الحلفا وأعشاب السافانا ، وشجر الهرجان الذي يستخرج منه زيت الطعام والطبي في نفس الوقت ، إلى النمط الأطلنطي الضعيف المطر حيث الغابة الخفيفة والأشجار الجافة ، إلى النمط المطير حيث التشجير الكثيف والنباتات العطرية ، إلى النمط الجبلي المطير جداً ، حيث الغابة الكثيفة المتدرجة ، وأشجار خشب القطع الضخمة ثم النمط البارد في أعلى الجبل الشاهق حيث أعشاب المناطق الباردة المتغيرة الشكل (مما سبق ، ص ٥١ -

(١٢٦) ديفردان، مراكش، ص ٣٩، ص ٤١، حيث موضح نفيس عند خرائب زاوية الشراي على التقاء وادي نفيس ووادي تنسيفت. أما عن الذي حدد موضعها برادي شيكر (شاكر) على بعد ٦٠ كم من مراكش، فهو سيلبي عهد الحى الكتاني : الشريف الإدريسي.

(٥٢). نعرض الآن للمسرح الزراعى أى النباتى الاصطناعى الناتج من الجهد الانسانى. ويكون ذلك بطبيعة الحال فى الأراضى الخصبة ، الصالحة للاستزراع . وإن كان لمظاهر البيئة المختلفة من : الارتفاع والحرارة والرطوبة آثارها - بطبيعة الحال - فى توجيه نوعية الزراعة بحيث تنسق مع واقع البيئة . ولما كنا بصدد تاريخ الموحدين ، فسيكون عرض موضوع الزراعة فى المغرب ، عرضا تاريخيا ، نرجع فيه إلى المصادر المعاصرة ، من نزهة الأديسى ، وكتاب الاستبصار، مع محاولة الاستفادة من وصف افريقية للحسن الوزن (ليون الافريقى)، وكذلك أعمال الجغرافيين المحدثين - فكان الهدف التاريخى هو خدمة الحاضر.

ونحن هنا نسترشد بالوزن فى وصف افريقية ، فى تقسيم بلاد المغرب المراكشية إلى قسمين: شرقى ويشتمل على بلاد الريف (غمارة) التى تعنى البلاد الساحلية المتوسطة مع مايتاخسها من إقليم تامسنا (برغواطية) غربا، وما يلىق بها جنوبا من تازا ومكناس وفاس، وهى تاريخيا بلاد السوس الأدنى (ج ١ ص ٧٨ ، ٤٥ هـ) ، والآخر غربى، وهو مايمثل البلاد المراكشية، قلب المغرب، وما يلىق بها من بلاد السوس الأقصى. وهذا التقسيم يتفق مع أصول الجغرافية الطبيعية التى تجعل سلاسل جبال أطلس تشطر البلاد المراكشية إلى نصفين، أحدهما شرقى مركزه فاس، ويرتبط بإقليم وهران، والآخر غربى ومركزه هضبة مراكش ويتجه نحو المحيط جنوبا بغرب. وهذا الأمر هو الذى كان له صداه فى الجغرافية العربية التى أطلقت على الإقليم الشرقى اسم «السوس الأدنى»، وخصت الإقليم الغربى باسم «السوس الأقصى» (١٢٧).

بلاد الريف : غمارة ، والسوس الأدنى : مكناس وتازا وفاس:

بلاد الريف (غمارة) :

بلاد الريف تعنى بلاد الزرع والنضج الحيرة ، وهى التسمية التى تطلق على (١٢٧) ج ١ أنظر للمؤلف : الجزء الأول من تاريخ المغرب العربى (ط ٢٠٠٠) ص ٧٨ و الهوامش.

المنطقة الشمالية المتوسطية ، والتي تبدأ بمنطقة جبل طارق (أعمدة هرقل القديمة) حيث سبتة وطنجة . وهذه التسمية تعتبر مصطلحاً حديثاً نسبياً ، فهو إذا كان يظهر عند الحسن الوزان (قرن ١٦م / ١٠ هـ) بمعنى الإقليم الممتد من أعمدة هرقل شرقاً حتى نهر الشكور ، لمسافة حوالى ١٤٠ ميلاً . ومن الشمال حيث البحر المتوسط إلى الجنوب حيث جبال نهر الوردغة (رافد سبو) (١٢٨)، فإن الإدريسي ، وصاحب الاستبصار لا يعرفان اسماً لمنطقة الشمال المراكشى المتوسطية هذه ، إلا «جبل غمار» بمعنى سلسلة جبال درن (أطلس) أو بالأحرى سفوح تلك الجبال الواطئة ، وما يتخللها من سهول وهضاب.

ويفهم من رواية الإدريسي ، أن المقصود بجبل غمار ليس كل سلسلة الساحل الشمالى ، بل القسم الأوسط منها ، على طول ٣ (ثلاثة) أيام (حوالى ١٠٠ كم) ، وذلك على ساحل البحر ابتداء من مرسى انزلان (أول بلاد غمار) (١٢٩). أما آخر بلاد غمار فهي مدينة بادس التي كان يلجأ إليها الغماريون فى حوانيجهم. أما من ناحية الجنوب فكان الجبل يمتد إلى مسافة ٤ (أربعة) أميال من مدينة تودا ، كما يمتد فى البرية إلى قرب مدينة فاس (١٣٠) والإدريس بصف بلاد غمار بكثرة الخصب بمعنى كثرة الخير من الزرع والحيوان الداجن (١٣١).

(١٢٨) الحسن الوزان، ٣٢٦.

(١٢٩) نزهة المشتاق، ص ٥٣٢.

(١٣٠) نزهة المشتاق، ص ٥٣٢-٥٣٣.

(١٣١) نزهة المشتاق، ص ٥٣٢، وقارن الاستبصار الذى مكتفى بمثل هذا، فيقول إن جبل غمار "بساط للحرث" إلى جانب آثار الأوائى التى تبين أن عمارته قديمة... أزلية، وانظر الحسن الوزان (قرن ١٦م / ١٠ هـ)، ص ٣٢٦- حيث الإشارة إلى شهابات التين والبرتقال، إلى جانب شرب الخمر، بمعنى العناية بالكرومة وإنتاج العنب. ومن لهجاء العناية حديثاً بإنتاج العنب، انظر، ومكار، مراكش، الدليل الأزرق، ص ٨- حيث تقرير أن الكرومة المحلية تعادل الواحدة منها فى الانتاج، شجرة فاكهة.

سبتة وطنجة ،

وتعتبر منطقة جبل طارق ، حيث سبتة وطنجة ، اللتان تشملان منطقة المجاز أو العدو ، هي المنطقة الحيرية بالنسبة لتاريخ المغرب والأندلس على مرّ العصور .

وسبتة شهيد جزيرة يحيط بها البحر من الشرق والشمال (الجوف) والجنوب (القبلة) . وفي آخر المدينة بشرةها جبل كبير يسمى جبل الميناء ، تحيط به منطقة أعشاب وأشجار كثيفة ، من نوع شابة المتوسط الحليفة التي يمكن أن تعيش فيها الفردة ، كما هو الحال في جبل قرية بليونش القريبة ، والتي كانت تدير سبتة بالماء ، عن طريق قناة تحت الأرض (١٣٢) .

أما عن طنجة التي تندفع كشبه جزيرة نحو الأندلس ، فقد كانت المياه تأتي إليها في سيل عظيم جعل من النهر في صخور الجبال نهرا ، ومن المصب مرفأ للسفن (١٣٣) . وهكذا هيأت المنطقة لنمر الأعشاب والأشجار ، كما في سبتة ، وكما سمحت بالزراعة . وبالتقرب من طنجة كانت منطقة قلعة ابن جندوب ، لها جنات وأشجار كثيرة الزرع والضرع (١٣٤) .

تامسنا ،

أما عن تامسنا (بلاد برغواطية) المتاخمة لطنجة في اتجاه الجنوب والغرب فهي أشبه بهضبة الميزيتا الأيبيرية ، ولذلك اشتهرت بأعشابها وقطعان أغنامها حتى

(١٣٢) الاستبصار، ص ١٣٧-١٣٨، وانظر حسن الرزان، ص ٣١٧، حيث اسم سبتة عند الرومان سيفيتياس. وأما كانت عاصمة موريتانيا المتحضرة جدا، وانظر أيضا هـ ٣٥٣ حيث الكتلة الجبلية المجاورة (جبل المينا) كانت تسمى سبتم فراتريس (الإخوة السبعة).

(١٣٣) الاستبصار، ص ١٣٨ .

(١٣٤) الاستبصار، ص ١٩٠ .

عرفت أخيراً باسم الشاوية (١٣٥).

والهم أن منطقة المراعى فى تامسنا كانت أيضا أرضا زراعية من الطراز الأول. ^(١٣٥) ففى قرية أم الربيع التى أعطت اسمها للوادي الذى يحمل نفس الاسم ، كانت تجود فيها الحنطة ، التى كانت من الكثرة بحيث تباع بأرخص الأثمان ، إلى جانب منتجات الألبان الوفرة . هذا كما كانت تجود فى تامسنا زراعات البقول والقطاني والقطن والكمون ، وذلك فى المناطق الجنوبية ^(١٣٦) .

ومثل هذا يقال عن مدينة تطن والقرى الصغيرة والمتحضرة ، والتى كانت تفخر بخصبها الكثير . وحول أم الربيع كانت القرى الأخرى ، مثل انقال ، تزهر بزروعها ومواشيها وأغنامها (١٣٧).

أما نحن سلا القريبة من الرباط ، على مصب نهر أبى الرقراق (بورجرج) ، فأهلها يجمعون ما بين الزراعة وتربية الماشية ، إلى جانب ما فى منطقتها من الكروم والغلات والبساتين والحدائق . هذا ، كما يفهم من التبادل التجارى بين أشبيلية وسلا ، أن الأخيرة كانت بمثابة ميناء تصدير قمح أهراء تامسنا ، إلى جانب زهرها بكرومها وفواكهها. فقد كان « أهل أشبيلية يقصدونها بالنزيت الكثير ، وهو بضاعتهم ، ويتجهزون منها بالطعام (القمح) إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية ».

هذا ، كما كان يشارك سلا فى التصدير ، مرسى فضالة . فقد كانت المراكب

(١٣٥) انظر ابن خلدون، المقدمة (ط. التجارية ص ١٤٢) - حيث الشاوية من الزناتية : رعاة الشاة وعن تسمية تامسا بهضبة الميزيتا، انظر ما سبق، ص ٦٣ ، وقارن الإدريسي، نزهة المشتاق (ص ٢٣٦-٢٣٧) حيث النص على أن قبائل تامسنا أصحاب حرث (زراعة) ومواشى (مراعى) وجبال (أعشاب شبه صحراوية).

(١٣٦) انظر، نزهة المشتاق، ص ٢٣٧- حيث الإشارة إلى المسرح النباتى الطبيعى لمنطقة القرية، وذلك عبر النهر فى جانب السقع الأكثر ارتفاعا، حيث قبضة كبيرة من الطغاء، والأشجار، وكثير العليق، وهى : غابة كبيرة ملتفة، بها الأسد كثير، الذى ربما أضر بالمارة.

(١٣٧) نزهة المشتاق، ص ٢٣٧.

الاندلسية تحمل منه أوساق الطعام . من : الحنطة والشعير والبقول والحمص . ومثل هذا يقال عن ميناء آفا (١٣٨).

وقصر عبد الكريم - على بعد مرحلتين (٧٠ كم) من سلا - كان مدينة صغيرة بجري جنوبها وادي أولكس ، من أنهار المغرب المشهورة . وتوصف بأنها ذات مزارع وخصب (١٣٩) . ومدينة تاودا الاستراتيجية ، بالنسبة لمن يريد السيطرة على جبل شمار ، فتقع على وادي ورغة - واد سير - في قطر واسع ، كثير الزرع والضرع.

تازا :

منطقة تازا هي المنخفض أو المعبر التاريخي بين جهال أطلس ، الذي يعتبر طريق التجارة والغزوات بين المشرق والمغرب عبر الشمال الأفريقي . وعلى عهد الموحدين بنيت بهلاد تازا مدينة استراتيجية في المنطقة عرفت باسم «رباط تازا» . ووضع المدينة في سفح الجبل ، مشرفة على مسانطه ، بدل على سبتها العسكرية فعلاً.

والمهم أن الموضع المنخفض ، تحت سطح السفح كان يسمح للمياه بالنزول على المدينة ، في شكل جداول من المياه النقية العذبة . ويصف صاحب كتاب الاستبصار تلك المياه قائلاً «إنها تنصب إليهم من الجبال ، لا أعلم ببلاد المشرق والمغرب بلداً أخصب منها ، ولا أكثر فوائد» (١٤٠).

(١٣٨) نزهة المشتاق، ص ٢٤٠ .

(١٣٩) نزهة المشتاق، ص ٢٤٦ ، ولار الاستبصار، ص ١٨٩ - ١٩٠ - حيث تعرف المدينة أيضاً بقصر كتامة .

(١٤٠) الاستبصار، ص ١٨٦ - حيث النص أيضاً على أن مدينة الرباط (رباط تازا) تسمى أيضاً مكناسة تازا . وقدر الحسن الوزان، ص ٣٥٧ - ٣٦ - حيث تازا على عهده (قرن ١٦ م / ١٥) مدينة كبيرة، في موقع جغرافي جيد. فهي تقع على بعد ٥ (خمسة) أيام من الأطلس (من حيث تطلق المياه)، وعلى بعد ٢٥ ميلاً من المحيط، و ١٧ (سبعين) ميلاً من البحر المتوسط . أما النص على أنه يمر بها نهر من الأطلس (درن) يحترق المدينة والجامع الكبير فهو يعنى قيام رعاة، وإن كانت محدودة . والحقيقة أن الوزان لا يذكر إلا أن بتازا كروم العنب الأسود الذي لا يصنع منه حمرة .

مكناسة (الزيتون)

ويفهم من الادريسى أن مكناسة ليست مدينة واحدة محدودة الموقع ، إنما هي مجموعة مساكن أو مواطن قبائل مكناسة المختلفة (ما سبق ، ص ٧٢) . وأن مركز هذه «المدائن» هو المدينة التى تسمى «تاقورت» (١٤١) . فكان الأخيرة هي مدينة مكناسة حقيقة دون غيرها من المدائن . ويلاحظ الادريسى أن تاقورت ظلت «باقية على حالها لم يدركها كبير تغيير» ، بمعنى عدم تطور نظم الحكم والادارة والاقتصاد فى المنطقة التى ظلت ذات طابع ريفى . والمدينة التى كانت تقع على رهوة ، بجري فى شرقها نهر صغير ، عليه أرحاء ، بمعنى أن المنطقة كانت منتجة للقمح والشعير ، وهو ما يؤكد النص على أنه «يتصل بها عمارات وجنات وزروع» (١٤٢) . فعلى عهد المرابطين كان موضع بنى زياد ، على بعد ١/٤ (ربع) ميل من تاقورت ، يأتى فى الأهمية بعد المدينة المركزية مباشرة . أما موضع تاورة فكان على مستوى «مدينة متحضرة جامعة ، عامرة أسواقها كثيرة» . وكان «الماء يأتىها من جنوبها من نهر كبير ... يخترق جميع أزقتها وشارعها وأكثر دورها» - الأمر الذى يذكر بنظام الماء فى مدينة فاس.

وتظهر مواطن «بنى عطوش» أيضا كمأخذ بهلاد مكناسة الفنية ، فهى : ديار متصلة وعمارات ، وأشجار وغللات زيتون وتين ، وأعناب وفواكه (١٤٣) . والحقيقة أن مواطن قبيلة مكناسة (الرئيسية) التى عرفت «بنى برنوس» كانت أسفل منازل بنى عطوش ، وعلى نفس مجري الماء الأتى من هناك وهى منازل وديار بها مزارع وعمارات وكروم وشجر زيتون كثيرة ، والفواكه بها رخيصة .

هذا عن قبائل مكناسة الحضر ، أما عن قبائل الطواهر أو الأحياء المجاورة ،

(١٤١) نزعة المشتاق، ص ٢٢٤ .

(١٤٢) نزعة المشتاق ، ص ٢٢٤ .

(١٤٣) نزعة المشتاق، ص ٢٤٤-٢٤٥ .

فكان أشهرها موضع قبيلة صيفاوة ، إذ « هي من أخصب البقاع أرضا وأنهارها زروا ، وأكثرها خيرا » (١٤٤) .

ولا بأس أن يكون ازدهار مدائن مكناسة كان على حساب مدينة مغيلة الواقعة في الطريق من مدينة فاس إلى مكناس . فالادريسي ينص على أنها « كانت قبل هذا الوقت متحضرة ... في فحص أفيع كثير الأعشاب والخضر والنواوير والأشجار والشمار ، وهي الآن ، فيها : بقايا عمارات خرابات متصلة » ، وأن كانت المياه تخرق كل جانب فيها (١٤٥) .

ويؤكد هذا الافتراض ، وصف كتاب الاستبصار لمكناسة بعد مالا يزيد عن ٣٠ (ثلاثين) سنة ، حيث يقرر تطور « مكناسة » الادريسي إلى « مكناسة الزيتون » ، وأنها من نظر فاس إلى الغرب : ٤ (أربع) مدن متصلة ، وهي :

١- تاقروت : « المحلة » بمعنى المدينة المحضر ، « وهي محدثة البناء مشرفة على بطاح وبقاع مملوءة بفيضات الشمار ، وأكثرها الزيتون ، فسميت به »

٢- « مدينة عليها سور كبير وأبراج عظيمة » بمعنى أنها مدينة الحكم والإدارة ، حيث الحامية - وهي التي أصبحت تعرف اصطلاحا في العصر الموحدي « بالقصبة » . ويوضح النص أن المدينة كانت موضع رعاية الحكومة الموحدية ، التي أقامت فيها البحائر (جمع بحيرة) العظيمة (الصهاريج الكبيرة) من ماء النهر ، وأمرت بفرسها زيتونا وكروما . وهكذا يقرر صاحب الاستبصار ، بعد أن زارها : « فرأيتها أكثر زيت في جميع المغرب » .

٣- ويلي قصبة مكناسة السابقة ، مدينة بني بسيل ، من حيث أنها التالية في كثرة الزيت .

(١٤٤) نزعة المشتاق ، ص ٢٤٥ .

(١٤٥) نزعة المشتاق ، ص ٢٢٤ .

٤- وعلى ذلك مغيلة وجهاتها التي شملتها رعاية حكومة «الأمر العالي» على ما نظن ، فنهضت من كهوتها التي أشار إليها الإدريسي من قبل، وأصبحت ثالث مراكز إنتاج الزيت في المنطقة (١٤٦).

وهكذا استحققت مكناسة الزيتون تقدير صاحب الاستبصار الذي وصلها بأنها «من غر بلاد المغرب : أقطار واسعة ، وقرى عامرة ، تشقها الأنهار والمياه السائحة، وتطحن عليها الأرحبة» (١٤٧). ويمثل هذا القول بصنف صاحب الاستبصار المواضع الخصبة ما بين فاس وطنجة ، وهي : بلد جنبار ، حيث القرى العامرة في الجبل والسهل . وكرت التي في أعلى جبل يجرى في أصله نهر روات ، توصف بكثرة الخصب والخير ، ثم البصرة : وهي المدينة الكبيرة ، ذات النظر الواسع والزرع الكثيرة والضرع ، كما عرفت بكثرة الكتان والألبان ، فهي : «بصرة الألبان» (١٤٨).

فاس :

وأهم إنتاج منطقة فاس هو الحنطة التي كانت تطحنها الأرحاء التي كانت تدور بجريان وادي فاس بين حبيبي المدينة الشهيرين : القرويين والأندلس والتي كانت رخيصة الثمن ، كما كانت رخيصة الطحن (١٤٩) . هذا ، كما عرفت المدينة بكثرة الخصب والرخاء ، وكثرة البساتين والمزروعات والفواكه ، وخاصة عدوة القرويين التي اشتهرت بالأترج الجليل ، بينما اشتهرت عدوة الأندلسيين بالتفاح

(١٤٦) الاستبصار، ص ١٨٧ .

(١٤٧) الاستبصار، ص ١٨٨ .

(١٤٨) الاستبصار، ص ١٨٨-١٨٩ . وقارن الحسن الوزان، ص ٢١٩-٢٢٠- حيث النص على أن

مكناسة على بعد ٣٦ (ست وثلاثين) ميلاً من فاس، وأنها سهل بديع يمر به نهر هزيل، كما بها

مقادير لا تحصى من الزيتون.

(١٤٩) نزهة المشتاق، ص ٢٤٢- حيث فاس مدينتان بهما نهر كبير... عليه أرحاء- كبيرة تطحن

بها الحنطة بلا ثمن له خطر.

الأطرابلمسى (١٥٠).

وصفروى التى تعتبر من ضواحي فاس كانت بها المياه العذبة ، وكان أكثر أهلها أصحاب زروع كبيرة وفواكه وأعناب وماشية وأنعام. هذا ، كما اشتهرت بشجر اللوز الذى كان يحمل منها إلى مراكش وغيرها من البلاد . ومثل هذا يقال عن قلعة مهدي (بن توالى) التى كانت لها سوق وعمارات ومزارع وغلات ، إلى جانب الماشية من البقر والغنم (١٥١).

أما عن مغيلة القاط القريبة ، فقد عرفت بتخصصها فى تحفيف التين (التين المزيت) الذى كان يحمل إلى فاس وغيرها من البلاد (١٥٢).

مراكش واللبوس الأقصى

إذا كان البحث الحديث يحدّد من النبات المغربى فى البلاد المراكشية ما يتراوح بين ٣٥٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) و ٤٠٠ (أربعة آلاف) نوع ، تختلف وتتنوع تبعاً للارتفاع ، والتضاريس ، وطبيعة التربة ، ودرجة الرطوبة بصفة خاصة (١٥٣) ، فإن الإدرسى يكتفى بالإشارة إلى خيرات جبل درن ، فيجعل جنة البلاد ويستأنها حيث التركيز على فواكهه من : السفرجل والرمان العالية الجودة والرخيصة الثمن . وكذلك الاجاص والكشمش والمشمش ، من كل غريبة ، والأترج ، والقصب الحلو الذى يتهادى الناس به - دون بيع - لكثرتة . كذلك اشتهرت البلاد

(١٥٠) الاستبصار، ص ١٨٩، وانظر الحسن الوزان، ص ٢١٢ - حيث تحدّد ولاية فاس - من غرب أبى الرقراق شرقاً حتى نهر ايتاون، وشمالاً بينهما عند نهر سبور - وفيها وبرة الحبوب والشمار والماشية. هذا مع الإشارة إلى أن من كان يزرعها فى ذلك الوقت (١٦٩م / ١٠هـ) هم العرب الأشراف، مع الإشارة إلى أن رؤسا العرب هؤلاء كانوا يسكنون فى المداشر (المنيات أو القصور الريفية).

(١٥١) نزهة المشتاق، ص ٢٤٣.

(١٥٢) الاستبصار، ص ١٩٣.

(١٥٣) ويكار، مراكش، ص ٦٠.

بشجر الزيتون والخروب والمشهى ، إلى جانب شجر الهرجان (أرقان بالبربرية) الذي يستخرج منه كميات هائلة من الزيت الذي لا يستخدم فى الطعام والتطبيب والتجميل فقط ، بل - ومن كثرته - في تسريح القناديل (١٥٤).

أغصان

ولمنطقة حوز مراكش قصب السبق في مجال ذلك الفنى الزراعى ، فهى منطقة جبل كازن بالامتياز . فمدينة أغصان ، على بعد ١٢ (اثنى عشر) ميلا جنوب مراكش العاصمة ، تقع فى فحوص طيب التراب كثير النبات والأعشاب ، تخرق المياه يمينا وشمالا ، وتضطرد فى ساحانه ليلا ونهارا . وإلى جانب البساتين والأشجار المختلفة كانت الأرحاء تدور على النهر وهى تطحن الحنطة (١٥٥) .

الامر الذى يعنى أن منطقة حوز مراكش كانت ضمن أهرام المغرب ، مثلها مثل حوض وادى سبو ، نهر فاس.

وإذا كانت منطقة أغصان قد عرفت عصراً ذهبياً من الرخاء على عهد المرابطين بفضل التجارة مع بلاد السودان ، التى جعلت من أهلها طبقة عالية من كبار رجال المال ، الرأسماليين كما يقال الآن (١٥٦) . فإن الأمر تغير على عهد الموحدين حيث النص : «وأما الآن وقت تأليفنا هذا الكتاب ، فقد أتى على أكثر أموالهم ، وشبهت المصامدة ماكان بأيديهم من نعم الله . ولكنهم مع ذلك أملياء مياسير ، أغنياء لهم نخوة (١٥٧)» .

(١٥٤) نزعة المشتاق ، ص ٢٣٠-٢٣١ .

(١٥٥) نزعة المشتاق ، ص ٢٣١ .

(١٥٦) انظر نزعة المشتاق ، ص ٢٣٢-٢٣٣ - حيث لم يكن فى دولة المرابطين (المشم) أحد أكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً ، وحيث كانت على أبواب منازلهم علامات تدل على مفادير أموالهم.

مراكش :

أما منطقة مراكش (المدينة) التي لم يكن بها في العهد المرابطي إلا بستان واحد هو بستان أبي الفضل ، مولى أمير المسلمين ، فقد تطورت بفضل أعمال جلب المياه إليها من بعيد ، واستنباطه من باطن الأرض حتى زهت ببساتينها الكثيرة ، واتصلت بذلك عماراتها ، وحسن قطرها ومنظرها حتى أصبحت مراكش من أكبر مدن المغرب (١٥٨).

وعلى بعد ٣ (ثلاثة) أميال فقط من مراكش كان مجري نهر تانسيفت الذي ينبع من صيون ومياه تنبعث من جبل درن ، من ناحية أغصات ابلان ، والذي تميز ، برغم صفه ، بأنه دائم الجري ، وخاصة في الشتاء ، حيث فيضانه الكبير (١٥٩). وهو يصب فيه رافدان هامان ، هما : وادي أغصات وريكة ، ووادي نفيس ، إلى جانب أودية أخرى .. أما مصبه في رباط جوز (١٦٠). وعلى عهد الموحدين ازدهرت مدينة أغصات إلى جانب مراكش ، حتى أنها سميت مراكش الثانية (١٦٠م)

والملاحظ هنا أن تقرير الادريسي عام عن ماء منطقة مراكش ، وزيادة بساتينها دون تفصيل عن نتائج تلك البساتين أو العمارات ، باستثناء نبق قرية عفسيق على بعد ٣ (ثلاث) مراحل من مراكش ، في طريق الساحل إلى سلا (١٦١). هذا ، ويستشف من كتاب الاستبصار كيف تطورت مراكش على عهد الموحدين.

(١٥٧) نفس المصدر .

(١٥٨) نزهة المشتاق، ص ٢٣٣-٢٣٤ .

(١٥٩) نزهة المشتاق، ص ٢٣٥، وقارن الاستبصار، ص ٢٠٩- حيث منبع تنسيفت من بلاد دمنات

(١٦٠) الاستبصار ، ص ٢٠٩ .

(١٦٠م) (الحسن الوزان ، ص ١٥٨ - حيث القول وهي اليوم (في القرن الـ ١٦ م / ١٠ هـ) ماوى

الذئاب والثعالب والغربان).

(١٦١) نزهة المشتاق، ص ٢٣٦- حيث شجرة النبق الشوكية تسمى الدرة المثمرة .

فهو في موضع يصفها بشكل عام بأنها على بعد ٢٠ (عشرين) ميلا من جبل درن ، طيبة التربة ، عذبة الماء ، وإن ماء بساتينها من مياه ينشق بعضها ببعض (نظام الخطارات - ماسبق ، ص ٦٥) ، وأنها كثيرة الزرع والضرع ، تحريثها دكالة ، وجنتها نفيس ، وحولها البساتين والجنان إلى يسمونها البحائر ، وذلك قبل أن ينص على أن «مدينة مراكش اليوم (على عهده) من أعظم مدن الدنيا ، بهجة وجمالا ... ، وأنها أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناب وفواكه (١٦٢) .

أما قرية مكول (على مرحلة من أنفال) ، فرغم قلة الماء ، توجد بها زروع كثيرة ، ومواش وأنعام (١٦٣) . ومثل هذا يقال عن أرض دكالة ، قليلة الماء أيضا ، فكلها منازل وقرى ومناهل . وتتصل دكالة بمرسی ماست على مصب السوس ، حيث الزروع والمواشي الكثيرة (١٦٤) . ومدينة داي الصغيرة ، على بعد مرحلة من تادلة ، عرفت بأنها كثيرة العامر ، يزرع بأرضها القطن ، كما يزرع على مستوى أكبر من ذلك بتادلة ، من حيث كان يصدر إلى كل البلاد (١٦٥) .

السوس (الأقصى) :

توحي تسمية حوض وادي سبو (نهر فاس) ببلاد «السوس الأدنى» ، في مقابل تسمية حوض وادي سوس (نهر مدينتي تارودانت وإيجلى) بـ «السوس الأقصى» بأن كلمة السوس في اللغة البربرية تعني الأرض أي التربة الخصبة السوداء الزراعية ، مثل «أرض السواد» العراقية التي كان يضرب بها المثل في الخصب ، في أوائل الفتوح العربية الإسلامية (١٦٦) .

(١٦٢) الامتصار، ص ٢٠٩ .

(١٦٣) نزعة المشتاق، ص ٢٣٨ .

(١٦٤) نزعة المشتاق، ص ٢٤١ .

(١٦٥) نزعة المشتاق ، ص ٢٤١

(١٦٦) انظر عن السوس الأدنى والأقصى، ج ١ ص ٧٥ - ٧٦ والهوامش

هذا ومن الواضح أن مدينة تارودانت كانت كبرى مدن السوس (الأقصى) على عهد الإدريسي (في منتصف القرن الـ ٩ هـ / ١٢ م) ، وذلك ان اسم تارودانت يسبق كلمة السوس في العنوان الثنائي الذي يقدمه الإدريسي في شكل « تارودانت والسوس » (١٦٧) ، بينما يقتصر العنوان عند صاحب الاستبصار (بعد حوالي ٣٠ (ثلاثين سنة) على كلمة السوس وحدها ، ويتلو ذلك مدينتا تارودانت (على النهر) وإيجلى : قاعدة بلاد السوس (١٦٨).

وتارودانت والسوس عند الإدريسي : قرى كثيرة وعساراتها متصلة ، بها الفواكه والعنب والمشمش والتفاح ، وهو الأمر المقبول من حيث أن المنطقة منخفضة من أراضي جبال درن ، بالإضافة إلى شهرتها بانتاج قصب السكر الفريد النوع : « الذي ليس في قرار الأرض مثله » ، إذ يُستخرج منه ثوعان : هما « السكر السليماني ، والطيزاد » الفاخران (١٦٩) ، ورغم أن وصف صاحب الاستبصار لا يختلف كثيراً عن وصف الإدريسي ، فإنه يبرز أهمية نهر السوس (وهو وادي ماست) ، ويشير إلى أن جريه من القيلة (الجنوب) إلى البحر (الشمال) كجري نيل مصر ، كما أنه لا يهتق بين الفواكه وقصب السكر الذي يظهر مختلطاً بالفواكه والأعشاب ، دون تمييز ، كما عند الإدريسي (١٧٠).

وأرض الفواكه بالامتياز هي المنطقة الواقعة بين تارودانت ونورن (١٧١) . وإلى جانب الفواكه والقصب الحلو عرفت منطقة السوس الأقصى بأنها - مثل السوس الأدنى في وادي سبو - منطقة أهراء القمح . فمدينة نفيس ، وهي المدينة الصغيرة ، على رافد وادي ماست ، كانت تزدهر بما حولها من العمارات ، وكذلك

(١٦٧) نزعة المشتاق، ص ٢٢٧ .

(١٦٨) الاستبصار، ص ٢١١-٢١٢- حيث بلاد السوس، وتارودانت، وإيجلى .

(١٦٩) نزعة المشتاق، ص ٢٢٧ .

(١٧٠) الاستبصار، ص ٢١١ .

(١٧١) نزعة المشتاق، ص ٢٢٩ .

بأرضها الخصبة التي تجود فيها الخنطة أيضا الي جانب الفواكه (١٧٢). هذا كما عرفت منطقة سفوح جبل درن ، فيما بين تارودانت وأغصات وويكة ، بكثرة الخصب واتصال العمارات ، حيث كل طرف من الثمار وغرائب الأشجار ، والمياه المضطربة التي تجعل النبات أبداً مخضراً في كل الأوقات (١٧٣).

وفي أواخر القرن ال ٦ هـ / ١٢ م ، وحسب وصف الاستبصار ، كانت تارودانت - التي توصف بأنها قرية كبيرة جدا على نهر السوس (ماست) - وأكثر بلاد الله قصب السكر» حيث «معاصر السكر كثيرة» ، مع اشتهاها بتنوع سكر «الطبرزد» المذكور في كتب الطب (١٧٤). أما عن المنطقة الجنوبية من وادي سوس إلى نول (لمطة) وهي المنطقة شبه الصحراوية التي تنزل بها قبائل جزولة ولمطة الصنهاجية ، فهي عمارات متصلة (١٧٥) أما عن ايجلى التي كانت قاعدة بلاد السوس وقتئذ ، فهي مدينة كبيرة عريقة ، في سهل من الأرض على النهر الكبير (سوس) ، تشتهر بالساتين ، وخاصة جنات النخيل ، وقصب السكر . وهكذا كان التمر رخيصاً جداً بها ، حتى قيل إنه «ربما يبيع بها حمل التمر أقل من كراء الدابة ، من الجنان إلى السوق» . هذا كما قيل أن أكثر شرب أهلها ماء السكر (عصير القصب) . أما عن غسل السوس الذي «يفرق غسل جميع الأقطار» ، وذلك لشهرته في غسل النبيذ الفاخر ، بعد خلطه بالماء بنسبة ١ إلى ١٥ (كيلا من الماء) (١٧٦).

هذا ، وكانت المنطقة من ايجلى إلى مدينة تامدلت ، على مسافة ٦ (ست) مراحل (حوالي ٢٠٠ ك . م) ، عمارات متصلة ، وكذلك الأمر بالنسبة للمنطقة

(١٧٢) نزعة المشتاق، ص ٢٢٩ .

(١٧٣) نزعة المشتاق، ص ٢٢٩ .

(١٧٤) الاستبصار، ص ٢١١، وقارن الحسن الوزان، ص ١١٨- حيث تارودانت مدينة السوس : فوق المنطقة من طرف الأطلسي، وبها الكثير من القرى والمدامر.

(١٧٥) الاستبصار، ص ٢١٢. وانظر أيضا ص ٢١٣- حيث نول لمطة من بلاد السوس.

(١٧٦) الاستبصار، ص ٢١٢

ما بين تامدلت ودرعة ، على رأس وادى درعة ، وهى مسافة ٦ (ست) مراحل أيضا (١٧٧).

أما عن منطقة تمثلت قاعدة المصامدة والموحدين ، فقد عرف جديها بأنه موطن القواكه من التين والعنب ، ومن «الريبب الذى ينتقل عليه الملوك» إلى جانب الجوز واللوز (١٧٨).

الثروة الحيوانية :

الحيوانات الوحشية :

الأسود :

المعروف أن جبال أطلس تعرف فى اللغة البربرية باسم جبل «درن» فى المفرد ، و«ودرن» ادرارن فى الجمع ، بمعنى «جبل الجبال» أو «جبل زئير الأسود» التى كانت تعيش فى الجبل ، وخاصة فى منطقة الغابة العشبية ، حيث فرائس الأسود من الظباء والأماثل والماعز أو غيرها من الماشية الداجنة (١٧٩).

وبطبيعة الحال كثيراً ما كان سكان الجبال من المصامدة وغيرهم يواجهون تلك السباع فيدافعونها عن أنفسهم وعن حيواناتهم الداجنة مما درجوا عليه من الوسائل ، من حمل الحراپ ذات الأسنة الماضية والمصنوعة من قنوات شجر السدره ، يل وبالسكاكين والحناجر مع استخدام أكسيتهم التى كانوا يلقونها على أذرعتهم فكانها الدروع ، يتقون بها مخالب السباع وأنيابها . والمهم هنا هو أن الادرسي ينص على أن ذلك الصراع بين الانسان المعربى وبين الأسد أو السبع ، كثيراً ما كان

(١٧٧) الاستبصار، ص ٢١٣ .

(١٧٨) الإدرسي، ص ٢٣٠ .

(١٧٩) ويقدم لنا الإدرسي، ترجمة المشتاق، ص ٢٣٧ ، مثلاً عربياً عن مقالة الأسود التى كانت تصدر المارة فى طريق قرية أم الربيع، حيث غابها الطرقات . والأنشام وكثير العليق الملتفه، وحيث "الأسد كثير" .

ينتهي بهزيمة الوحش ، حتى أصبحت الأسود تخاف الناس وتخشى نكايتهم فيها (١٨٠) ، الأمر الذي انتهى باختفاء الأسود من الغابة فلم يعد لها وجود منذ مدة (١٨١) .

القردة ،

وعرب جبل درن أيضا القردة التي كانت تعيش فيه ، وخاصة في منطقة الجبل المطل على قرية بليونش ، القريبة من مدينة سلا ، كما يقع عليه « قصر مصردة » . وإذا كانت الرواية التقليدية تشير إلى أن موسى بن نصير شاهد تلك القردة أثناء الفتح فإن صاحب كتاب الاستبصار قد شاهدها في منطقة جبل فازاز ، وعابنها وهي « تشب من الأوزة إلى الأخرى » ، وهي في الجبل الأعلى « - وذلك في أواخر القرن السادس

(١٨٠) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٣٧، حيث النص : "وقد لقيت الأسود منهم هناك نكايات حتى إنها تخاف ضرهم، وتجنب طريقتهم، وربما هجمت على الضعفاء". وانظر المحسن الوزان، ص ٢١٦- حيث الإشارة إلى أن أسود الغابة كانت تهدد الماشية والبغال في منطقة المصردة . التي بناها أحد ملوك المرعدين، قرب مصب وأدى سور في المحيط، وانظر أيضا ص ٢١٩- من قرية تافية في جبل درن حيث تربى الأسد في الغابة. وحيث قبر ولي، من عهد عبد المؤمن أول الخلفاء المرعدين، كانت له كرامات ضد الأسود. وانظر الهامش، حيث اسم الولي : ابو عزة التوري بن عبد الله الجبريري المتوفى في أبريل ١١٧٧م/ ذو الحجة ٥٧٣هـ، ورواي خبره هو الولي ابو الحاج يوسف بن يحيى الشاذلي، الملقب بابن الزيات، وهو مؤلف كتاب "التشوق" الذي كتبه سنة ١٢٢٠م/ ٦١٧هـ. هذا مع الإشارة إلى أن أهل فاس كانوا يزورون هذا القبر بعد عبد الظفر، حيث يقصون في خيامهم، على بعد ١٢٠ ميلا من بلادهم فاس، لفترة من الوقت. هذا، ويشير المحسن الوزان نفسه إلى أنه كان يزور ذلك الضريح وقاء لنذر بعد عيادته من حادثة الأسود. وانظر أيضا ص ٢٩٥- حيث حلبة صراع الأسود والثيران والرجال المدججين بالحراب.

(١٨١) انظر ريكار، مراكش : الدليل الأزرق، ص ٨- حيث الإشارة إلى ندرة الفهد مع اختفاء الأسد.

الهجرى / ١٢ م (١٨٢)

الحقائب السامة والأفاعى المستأنسة :

وإذا كان للمقارب ذكر عند الادريسى فى منطقة أغصت غمر بعيد من مراکش العاصمة (١٨٣) ، كما هناك ذكر لها إلى جانب الافاعى والذئاب والشعالب والغربان (فى أغصت) فى نفس المنطقة عند الحسن الوزان (١٨٤) . فإن الأمر المستعرب هو مايسجله الوزان فى منطقة حبال الزمر المتاخمة من الغرب لسهل تادلة وجمال دادس من كثرة أعداد الأفاعى اللطيفة والأليفة التى تتجول فى الدار كالكلاب الصغيرة والقطط (١٨٥) ، الأمر الذى يذكر حالياً ، مما يشاهد زوار ساحة الفنا بمدينة مراکش من ألعاب الحواة اللطيفة بالأفاعى ، مما عايناه فى خريف سنة ١٩٨٨م.

النعام :

هذا ، كما عرف طائر النعام فى منطقة إيفيل غير بعيد من قرية أم الربيع ، وذلك فى فحص هناك فى أسفل الجبل ، قد انحشرت فيه ، وهى سارحة بالآلاف وكان يتم اصطياد النعام « طرداً » بالجلل فيقبضون منها جملاً كبيراً وصغراً . وكان يبيض النعام فى ذلك لفحص من الكشرة بحيث يحصل من هناك إلى كل البلاد (١٨٦) .

(١٨٢) الاستبصار، ص ١٣٨، ١٨٧، وانظر ريكار، مراکش، ص ٨- حيث الص على أن قرودة منطقة سلا هذه كانت من نوع "magot" التى يعيش فى الأماكن الرعرة، والكهوف الموحشة.

(١٨٣) نزهة المشتاق، ص ٢٣٢ .

(١٨٤) وصف إفريقية، ص ١٥٨ .

(١٨٥) وصف إفريقية، ص ٣٧٣ .

(١٨٦) نزهة المشتاق، ص ٢٣٨- حيث الص أيضا على أن طعامها وخيم يفسد المعدة، وأن =

الجراد:

وكان الجراد من الأطعمة المعروفة في كل من بلاد السوس ومدينة مراكش ، وكان يُطهى مقلواً ، كما كان يحفظ ويؤكل مخلوفاً ، وفي موسم صيده كان يدخل مدينة مراكش منه حوالي ٣٠ (ثلاثين) حملاً في اليوم ، تدفع عنها ضريبة السوق المعروفة بالقبالة ، مثلها مثل غيرها من البضائع الداخلة إلى سوق المدينة ، وذلك على عهد المرابطين ، وهي الضريبة التي ألغيت على عهد الموحدين (١٨٧).

تحل العسل:

والمعروف أن مناطق الجبال شهيرة بخلايا النحل البري ، وأشهر عسل بلاد المغرب هو عسل منطقة ايجلى عاصمة السوس (١٨٨).

اللمط:

أما عن الأمانل البرية المعروفة باسم «اللمط» ، والتي كان يتخذ من جلدها الدرق المشهور باللمط ، فكان موجوداً في منطقة نول الجنوبية على مشارف الصحراء ، وسبب كثرتها في المنطقة نسبت إليها قبيلة لمطة كما نسبت المدينة بدورها إلى القبيلة ، فصارت «نول لمطة» (١٨٩) .

السلاحف البرية الضخمة:

وفي الجنوب من مراكش ، في منطقة جزولة ولمطة ، شبه الصحرواية ، وفي

= لحم النعام من حيث القيمة الغذائية الطبية : "قبادرة باهسة" ، أما عن شحوم النعام فتقدم فوائده لجميع الأوجاع البدنية ، وهي تستخدم لعلاج الصمم بصفة خاصة ، تقطر في الأذن ، وانظر الحسن الوزان ، الترجمة ص ٧١ و ١٤٩ .

(١٨٧) نزهة المشتاق ، ص ٢٢٨ . ٢٣٥ .

(١٨٨) نزهة المشتاق ، ص ٢١٢ - حيث الكيل منه يلقى عليه ١٥ كبلا ليصبح نبيذاً .

(١٨٩) انظر ج ٤ ص ٦٩ - ٧٠ (من قبيلة لمطة) ، ص ٩٢ (عن حيوان اللمط) .

فحص قرية عفسيق - حيث أرض الشوك والنبق - توجد «السلحاف البرية التي تفوق سلحاف البحر كبرا وعظما». وأهل المنطقة يتخذون من جلودها دساتي (جمع دست : طسوت) للفسل ، «ومعاجن دقيق الحنطة» ، وماشاهه ذلك (١٩٠) .

الحيوانات الداجنة :

في بلاد الزراعة والحراث تقسم الحيوانات الداجنة إلى : دواب وماشية ، والدواب هي الحيوانات المخصصة للعمل في الحمل والنقل ، وهي : الحمار والبغل والحصان ، والتي يمكن أن تستخدم في فلاحه الأرض أيضا . أما الماشية فهي المخصصة للرعى وبالتالى من أجل تربية اللحم للطعام ، وأهمها : الماعز والضأن ثم البقر والأبل التي يمكن ان تستخدم في الزراعة وفي النقل أيضا - وخاصة الابل بالنسبة للصحراء .

والغنم أو الشاة كانت مصدر اللحم الأول من غير شك ، والذي نراه في هذا الصدد أن ما يقصده الكتاب برخص اللحم في المدن أو الاقاليم المختلفة إنما يقصد به لحم الشاة أو الضأن (١٩١) ، بمعنى كثرتها ، كما في متعلقة تامةنا التي تعرف بذلك الاسم نسبة إلى الشاة ، كما يقول ابن خلدون فهي الشاوية أيضا .

تربية الماعز وزيت الهرجان :

ومن المفهوم أيضا أن تكثر الماعز في بلاد المغرب ، وخاصة على سفوح الجبال حيث الأعشاب البرية ، وبعض النباتات الصغيرة التي يمكن للماعز وحدها أن تصل إليها وأن تكفى لقوتها .

وهكذا يفهم من وصف الإدريسي لمنطقة جبل درن (في مراكش والسنوس) ان الماعز كثيرة العدد وأنها ارتبطت في معاشها هناك على شجر الهرجان الذي يستخرج منه الزيت المعروف بذلك الاسم ، والذي كان يستخدم على نطاق واسع في (١٩٠) نزهة المشتاق ، ص ٢٣٦ ، وانظر ج ٤ ص ٩٤ و ٩٣ (عن السلحاف البحرية) .

(١٩١) انظر الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، وقارن الاستبصار ، ص ١٨٧ حيث النص على أن لحوم جبل فازاز أطيب اللحوم ، وكذلك أسنانها جميع سنن) .

الطعام ، وخاصة في قلى الاسفنج الذى كان يعذب طعمه فيه ، كما كان من كشرته يستخدم في تصريح القناديل.

والمهم هنا انه كانت للماعز علاقة باستخراج الزيت من بذور الهرجان. ففي شهر سبتمبر (شتنبر) كان يجمع الشمر « ويوضع بين يدى الماعز فتبتلعه بعد أن تأكل قشرته العليا ثم تلقيه بعد ، فيجمع ويغسل ويكسر ويدق له ، وتقصر فيخرج منه دهن كثير ، صافى اللون ، عجيب المنظر ، إلا أنه ليس يعذب الطعم ، فيه أدنى حرافة . فكأن الماعز كانت تساهم تلقائيا في اقتصاد انتاج الزيت ، وهى تسعد بخريف الهرجان الذى يقدم لها وجبات جيدة ، وهى مقبلة على فصل الشتاء الصعب (١٩١م).

هذا ولو أن صاحب الاستبصار يشير إلى طريقة اقتصادية أخرى لاستخراج دهن الهرجان أو زيتته في منطقة ايجلى بالمسوس ، وذلك بعد وصف دقيق لشجرة الهرجان التى تنبت فروعها من الأصل دون ساق ، وأنه يجمع ثمرها الشبيه بالأجاص ، المعروف بالعبلر ، ويترك حتى يذبل ثم يوضع في مقلاة فخار على النار حتى يستخرج دهنه . وطعمه يشبه طعم القمح المقلو (١٩٢).

والذى نراه أن تقنية استخراج زيت الهرجان الأصلية هى التسخين على النار في مقلاة الفخار ، قبل الكسر والدق ، وإن هذه هى الطريقة الاقتصادية حقا . أما طريقة نوى الهرجان الذى تلقي به الماعز بعد ابتلاعه أو أكل قشرته الخارجية ، فهى طريقة الانتاج الصغير ، وهو الانتاج المنزلى ، كما نرى.

هذا ، وتدل رواية أخرى لصاحب الاستبصار على أن مدينة مراکش كانت غنية بزيت الزيتون ، وأن انتاجها منه كان يكفى الاستهلاك المحلى ، الأمر الذى جعلها

(١٩١م) (انظر نزهة المشتاق ، ص ٢٣١- حيث وصف شجر الهرجان بأنه أشبه بشجر الأجاص ، وأن لها ثمرا يشبه العيون (البرقوق) في أول نباته ، قشرته العليا رقيقة خضراء ، لكنها في نهاية العقوصة والحموضة).

(١٩٢) الاستبصار ، ص ٢١٢- حيث الإشارة إلى لبعته الغذائية واستخداماته الطبية. فهذا الزيت جيد محمود الغذاء ، يسخن الكلى ، ويدبر البول.

تستغنى عن استعمال زيت الهرجان . بل أن مراکش فاقت مكتاسة الزيتون في انتاج الزيت الذى صار أرخص (١٩٣) وذلك بفضل الجيازات الموحدين ، وهو الأمر المقبول.

الجمال :

أما الجمال - سفينة الصحراء - فكان معروفًا بشكل دارج في البلاد المغربية ، حيث كان وسيلة نقل المتاجر ما بين بلاد الحضر المختلفة . وهكذا كانت المدن الكبرى ، مثل : فاس ومكناس وتازا ومراكش وأغصات وتارودانت تعرفه الإبل الواردة والصادرة ، حتى أصبح استخدام كلمة القوافل عند الكتاب مرادفًا لكلمة الإبل والجمال (١٩٤).

عجل البقر :

أما عن عجل البقر المراكشى ، فهو واحد من نوعين :

١- ذو القتب ، ويرجع أصلًا إلى جبال أطلس ، وهو داكن اللون ، أسود الأطراف.

٢- النوع الزاهرى ، وهو أكبر حجمًا من ذى القتب ، وأطرافه فاتحه اللون (١٩٥).

(١٩٣) الاستبصار ، ص ٢١٠ .

(١٩٤) انظر مرآة المشتاق ، ص ٢٣٢-٢٣٦- حيث المواشى والجمال والخيول العشاق في تامسنا ،

ص ٢٣٧- عن قرية انجمال في منطقة أم الربيع ، وهي : كشيرة المواشى والإبل والبقر ،

ص ٢٤٩- حيث تقصد القوافل إلى فاس ، وقارن الاستبصار ، ص ١٨٦ حيث قلعة زيت القرية

من فاس ، والى يوجد بها شجر الزيتون إذا أكلت الدواب ورقه ، من : حمار أو ثور أو جمل

مات ، إذ ان جامعهما من بيلان حقبة بن تافع ، فكأنها دهرة لأصحاب الدواب والمواشى لاتعاء

إتلاف شجر الزيتون في تلك المنطقة لمهركة . الخ. وعن انجمال انظر ج ٤ ص ٩٠ وما بعدها .

(١٩٥) ويكار ، مراكش ، الدليل الأزرق ، ص ٩ ، وانظر ج ٤ ص ٩٥- عن بقر إقليم الساحل بأنماطه

اشلالة.

الخيل : وعن الخيل تكون التفرقة بين الحصان المغربي الأصيل ، ذى اللحية ، وهو القسوى على العمل الشاق فى فلاحه الأرض (١٩٦) ، وحصان الركوب ، مطية الفرسان . والإدريسى وهو يشير إلى ما يتصف به أهل قرية أم الربيع من القبائل ، من غلبة الفروسية عليهم ، أما يشيد فى نفس الوقت بخيلهم العتيقة (١٩٧) ، وهو الأمر الذى يصف به صاحب الاستبصار خيل جبل فزاز المعروفة بالصبر والخدمة (١٩٨).

صيد البحر

لما كانت بلاد المغرب الأقصى بحرية بالامتياز ، كانت ثروتها السمكية سواء فى البحر المتوسط أو فى المحيط من الخيرات الكبيرة التى نعمت بها البلاد على مر العصور . وفى وادى سلا (هو ورجرج : أبو الرقراق) ينص الإدريسى على ما فيه من «أنواع السمك وضروب الحيتان» ، رخيصة السعر (١٩٩) . وعندما أقيمت القمطرة على النهر لم يرد العساكر على أيام الموحدين ، كان الناس يتصدون حولها أنواع السمك ، وخاصة نوع الشابل . ولا بأس أن كانت حركة المد والجزر تساعد الصيادين على تتبع الأسماك فى الماء (٢٠٠) .

أما عن نهر فاس (رافد وادى سبو) فقد كثرت فيه الأسماك من الشابل ، والبورى ، والقرب ، واللبيس والشولى ، وبلغت بعض أنواعها من كبر الحجم إلى حد أن الواحدة منها كانت ، وحدها تمثل حِمْلَ حمار (٢٠١) .

(١٩٦) ويكار، مراكش، ص ٨ .

(١٩٧) نزهة المشتاق، ص ٢٣٦ - حيث الإشارة إلى فروسية قبائل المنطقة من رتبة وتامنا

(١٩٨) الاستبصار، ص ١٨٧ ، وقارن الحسن الوزان، ص ٣٧٢ - حيث الخيل والحمر فى جبل بنى

واسين، ص ٣٧٣ ، حيث لدى أهل جبال الزيز كثير من الخيل والبغال والحمر .

(١٩٩) نزهة المشتاق، ص ٢٣٩ .

(٢٠٠) الاستبصار، ص ١٤٩ .

(٢٠١) الاستبصار، ص ١٨٤ - ١٨٥ - حيث الواحدة من البورى الكبير كان ثمنها ١٣ (ثلاثة

عشر) درهما . كما أن الواحدة من سمك اللبيس كانت تزيد أحيانا عن ٦٥ (خمسة وستين) وطلا

وينص صاحب الاستبصار على أن نوع الشولى كان ألذها - على أيامه -
« تصنع منه الألوان بأصناف البقل (بدل اللحم) فلا تشم له رائحة سمك (٢٠٢) ».

الثروات المعدنية :

عرفت بلاد المغرب بثرواتها من معدن النحاس الذى وجد فى أكثر من موضع .
ففى منطقة أشمات كان يوجد منه النحاس الأحمر والملون ، مما كان يصنع فى
المدينة ، وتحمل منه القوافل السائرة إلى بلاد السودان «القناطير المقنطرة» (٢٠٣) .
أما مدينة داي الواقعة أسفل رأس خارج من جبل درن ، على بعد مرحلة من تادلة ،
فكانت تزهر بمنجمها من «النحاس الخالص الذى لا مشيل فى المشرق والمغرب» .
وهو «نحاس حلو لونه إلى البيضاء أقرب، يتحمل التزويج ، ويدخل فى لحام الفضة ،
واذ طرق جاد ولم ينشخ مثل النحاس» (٢٠٤) ، الأمر الذى يدعو إلى الظن أن
الأمر يتعلق بمعدن آخر كالألمونيوم الشائع الاستعمال الآن فكأنه النحاس الأبيض.

أما فى منطقة السوس الأدنى التى اشتهرت بالنحاس الأصفر كما فى فاس
ووادى سبو ، وهو الذى يضاهى الذهب فى لونه الأخاذ ، فكان يتجهز بمصنوعاته
إلى بلاد السودان والمشرق ، وجميع الأفاق (٢٠٥) .

وبعد النحاس يأتى الحديد الذى كان يوجد فى أكثر من موضع كما فى المعدن

(٢٠٢) الاستبصار، ص ١٨٥ ، وقارن الحسن الوزان، ص ٣٢٦ - عن مدينة ترفغة فى بلاد الريف
حيث صيد السمك وحفظه عن طريق التمليح وقارن ريكار، مراكش، الدليل الأزرق،
ص ٩ - حيث شواطئ المحيط غنية بالسمك، من الأنواع الجيدة ، المتعددة، مثل : المرجان،
والبورى، والمحراش، وسمك موسى، والتولة، والسردين، وهى التى كانت تشد الصيادين من
أزمة بعيدة. أما القواقع فهى نادرة بينما يوجد "اللاتيويست والهومار" بكميات وفيرة على
شاطئ المحيط بين موحادور وأغادير.

(٢٠٣) نزهة المشتاق، ص ٢٣٢ .

(٢٠٤) نزهة المشتاق، ص ٢٤١ .

(٢٠٥) الاستبصار، ص ١٨٩ .

العوام ، قرب أبي الرقراق (بروج) (٢٠٦) ، وكما في مليلة وغساسة من شرق بلاد الريف (٢٠٧).

أما عن الملح فكان «يحفر عند» (في منطقة نول لمطة على تخوم الصحراء) كسانر المعادن» (٢٠٨).

مصامدة الجبال:

الحياة اليومية، والعادات والتقاليد:

تختلف دولة الموحدين المصمودية عن سابقتها ، دولة المرابطين الصنهاجية ، بشكل أساسي لا يتمثل في العرق والنسب، بل في أسلوب الحياة وشكل المجتمع . فالمصامدة الموحدون هم أهل الجبال البحرية المطيرة ، أرض الخصب والزرع والضرع ، بينما الصنهاجيون المرابطون هم أهل الصحراء ، بلاد الرمل والقحط والعطش التي لم تهي إلا بفضل الجمل : سفينة الصحراء. وتلخيص ذلك أن البلاد المراكشية هي بلاد القمح بالامتياز واللحوم الطرية ، أما صحراء صنهاجة فهي بلاد القديد (من لحم الجمل) دون خبز (٢٠٩).

وهكذا كانت طواحين القمح ، كما في قاس ووادي سبو ومكناس وأغمات وتارودانت والسموس ، ووفرة الخبز ورخص اللحوم ، هي رمز الخصب والنعاء . وهكذا كانت قاس مدينة حضرية غالية ، يتفنن أهلها في إعداد ألوان البقل بالسمنك

(٢٠٦) الحسن الوزان، ص ٢٠٩- حيث موضع المنجم حاليا في شمال خنيفرة .

(٢٠٧) الحسن الوزان، ص ٣٤٤، ٣٤٥ ، وقارن ويكار، مراكش، ص ٩- حيث الإشارة إلى أن التنقيب عن المعادن في العصر الروماني، أو عن المناجم باستثناء البهتاس والحديد، والنص على أن الحديد في المغرب من ٣ (ثلاث) درجات، وهي ٦٠٪، و ٥٣-٥٥٪، ومن ٦٠٪ إلى صفر، مع ذكر الجير والجص والاردوز في أطلس الوسطى بالإضافة إلى الرخام .

(٢٠٨) الاستبصار، ص ٢٦٣ .

(٢٠٩) انظر ج ٤، ص ٧٤ .

بدلاً من اللحم، الأمر الذي كان يخفى على الأكل (ماتسبيق ، ص ١٠٣).

والمهم من كل ذلك هو أن الجبال الرطبة هي : بلاد الشبغ والرى فى مقابل الصحراء : بلاد الجوع والعطش. ومع ذلك يشترك أهلها جميعاً فى صفة جامعة هي : القوة وشدة اليأس فى مواجهة مخاطر كل من الجبل البارد والصحراء المحرقة. إنها طبيعة الرجل المفترس بعامة ، وشخصية صناع الدول من البربر ، من : صنهاجة المرابطين الصحراويين أو مصمودة الموحديين أهل جبال السباع (هرون).

المصامدة ،

والتمردج البدائى للمصمودي رجل الجبل ، يتمثل بشكل خاص فى أهل السوس، مرطون محمد بن تومرت ، من البربر الخللص دما ولقة (٢١٠). والمصامدة سمر الألوان رجالاً ونساء ، وأن اتصفت نساؤهم بالجمال الفائق.

أما من حيث الطباع فالغالب عليهم الجفا . وغلظ الطبع وقلة الانقياد - وتمثل خشونتهم فى زهم الذى يتمثل فى كساء الصوف ، يلتف الرجل منهم به التفافاً (٢١١) - فيصبح جزءاً من جسده (كالفرو بالنسبة للحيوان) - ويؤكد ذلك «باحترام أوساطهم مأزر الصوف» المعروفة عندهم باسم «سفاقس» . ويضاف إلى ذلك ارسال الرجال لشعورهم كالنساء - كما كان الحال عند العرب قبل الاسلام وفى بدايته - يستوى فى ذلك المصامدة (ماتسبيق ، ص ٧٠) والغماريون (مايأتى ص ١٠٨). ويتمثل فى قلة الانقياد - مما يعنى الفردية والاستقلال الشخصى - فى أن

(٢١٠) انظر ماتسبيق، ص ٧٠ . ويكار، مراكش، الدليل الأزرق، ص ٤٢- حيث البربر ٣ (ثلاثة) أصناف، هي : مصمودة، وزناتة، وزناجة (صنهاجة). واللغة البربرية تبعاً لذلك ٣ (ثلاثة) أقسام، وهي : المجموعة الريفية زناتية الأصل، ومجموعة البرابر صنهاجية، ومجموعة الشلوح، وهم المدينون، وخاصة فى جبال أطلس العليا والوسطى والغربية والسوس والواحات، وموضع المصامدة فى المجموعة الأخيرة.

(٢١١) نزهة المشتاق، ص ٢٢٧ .

الرجل منهم «لا يعيش أبداً إلا وفي يده رمحان قصار العصى . طوال الأسنان ، رفاقها ، ويتخيفونها من أجود الحديد» (٢١٢) ..

هذا ، ولاندرى إن كانت شعورهم الكثيفة ، تكمل صورة الجفاء وغلظ الطبع ؛ وذلك أن لهم بشعورهم الكثيرة اهتماماً زائداً وصيانة لها . فهم يصبغونها في كل جمعة (أسبوع) بالحناء ، ويغسلونها في كل «جمعة» مرتين برفيق البيض والطين الأندلسي (٢١٣) ، فكانهم مخترعو أدوات غسيل الشعر الحديثة وتجميله . من الزيوت والصوابين والعطور ، مما يعرف حالياً باسم «الشامبو» - الأمر الذي بحسب لهم في مجال التحضر والمدنية . ومما يشار إليه في هذا المجال أن السائد عند نساء المصامدة ، أنهن يدهن رؤوسهن بزيت الهمرجان (ماسيق ، ص ٩٠) مع استخدام المشط «فتحسن شعورهن بذلك ، وتطول وتنكسر ، ويمسك الشعر على لونه من السواد» (٢١٤) .

أما عن قبائل تامسنا ، وهم من فروع مصمودة المعروفين ببرغواطة ، «فالغالب

(٢١٢) نزهة المشتاق، ص ٢٢٨، وقارن الحسن الوزان، ص ٣٧٤-٢٧٥- حيث النص على حمل الخرتين، والثلاث في مدينة غارسلون، وقارن ص ٢٦٧-٢٦٨- عن جبل سحاح بالجرائر، وسوق بني زندري- حيث ، وهم أهل خلاف وقيام بعضهم على بعض... ومن عراندتهم بن صغيرهم وكبيرهم لا يعيش من موضعه إلى موضع غيره إلا وهو شاكي السلاح بالسيف والرمح والدرقة اللطيفة. وأنظر المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٩٩-١٩٢- حيث حكاية ومزية عن البكري مذكورها به أهديت للإسكندر فربس ببعض بلاد المغرب لم تلد الخيل أسبق منها، لم يكن فيها عيب إلا أنها لم يسمع لها صهيل قط. فلما سئل الإسكندر في نظرائه بهجبال درن، وهي بلاد المصامدة وشربت تلك الامرس من مياهها، سهلت سهلة اصطفت، منه، الجبال فكتب الإسكندر إلى الحكيم (أرسطو) يحبره بذلك، فكتب إليه . إنها بلاد شر وقسوة فعجل بخروج منها . ويعلق عبد الواحد المراكشي على ذلك قائلاً : فهذا حال بلاد القرم، وأما خمة سفاك الدماء عليهم فقد شهدت أن منه أيام كوس بالسرور، ما قضيت منه العجب .

(٢١٣) نزهة المشتاق، ص ٢٢٨ .

(٢١٤) نزهة المشتاق، ص ٢٣١ .

عليهم الفروسية (٢١٥) ، بمعنى أن ببلادهم مراعى للخييل ، رغم ما ينص عليه الادريسي ، نفسه ، من أن تلك القبائل « أصحاب حرث ومراشى وجمال » دون ذكر للحصان أو الخيل .

أما عن أهالي نواحي قرية أم ربيع ، حيث الغيضة فيما وراء النهر (الوادي) أو الغابة ، فقد اشتهروا بالجسارة وقوة القلب حتى أنهم كانوا لا يهابون الأسد في تلك الغابة المتنفة ، بل إنهم كانوا يقاتلون بها بالكساء على أذرعهم والسكين في يد ، وفي الأخرى قناة شوك السدرة ، حتى أن الأسود أصبحت تخاف منهم وتتجنب طريقهم (٢١٦) .

هذا ، كما كان الحصان مستخدما في قرية ايفيل القريبة من أم الربيع ، في مطاردة النعام واصطيادها ، رغم أن الإدريسي لا يذكر الحصان أو الخيل بين « المراشى والأبل والبقر » في تلك النواحي (٢١٧) .

أهل فاس :

ورغم النص على أن أهل منطقة فاس برابر يتكلمون العربية ، وإن فاس حاضرة كبرى (٢١٨) ، وأن أهلها يهتمون بخوانجهم وميانيهم وآلاتهم ، فإن الادريسي يؤكد أن « في أهلها عرة ومنعة » (٢١٩) . أما صاحب الاستبصار - بعد ذلك بجيل تقريبا - فرغم وصفه لأهل فاس بأنهم في رشد عيش ورفاهة ، فإنه يسجل عليهم حرصهم على المكاسب ، الأمر الذي يؤدي إلى الشح والبخل ، ويخلص من ذلك بحكم عام جامع لكل المغاربة (البربر) ، وهو « أن نفوس أهل المغرب مجبولة

(٢١٥) نزهة المشتاق، ص ٢٣٧ .

(٢١٦) نزهة المشتاق، ص ٢٣٧ .

(٢١٧) نزهة المشتاق، ص ٢٣٨ .

(٢١٨) نزهة المشتاق، ص ٢٤٦ .

(٢١٩) نزهة المشتاق، ص ٢٤٢-٢٤٣ .

على الاستنصار (العصية) ، وفي ذلك قيل «الحقد مغربى» (٢٢٠).

القماريون

أما عن أهل جبل غمار ، وهم معدودون من المصامدة أيضاً مثل برغواطية ، فهم معروفون بعداوتهم للجيران وإثارتهم للفتنة والخروج على الولاة. وفي ذلك يذكر الادرسي أن مدينة تاودة القريبة من جبل غمار ، كانت بموقعها الاستراتيجي «أشبه بالثغر ، سدا مانعا من طغاة غمار ، العايشين بتلك النواحي ، المغيرين على جوانبها» (٢٢١).

وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن ما يروى عن الغماريين من المفاسد العقائدية أو الأخلاقية ، وخاصة مما يتعلق بحرية العلاقات النسائية ، ربما كان تركة الصراعات الأولى مع العرب أثناء فترة الفتوح ، فكانها أمور تاريخية سائدة. وفي مثل ذلك يقول صاحب الاستبصار أن بلد غمار جميل كبير ، وأن لدقماريين «كان فيما سلف شعور طوال يسدلونها كشعور النساء حتى دخل الإسلام بلادهم ، فلجأتهم الضرورة إلى التوغر في الجبال الشامخة فحلبوا رؤوسهم ، وورث ذلك الأبناء عن

(٢٢٠) الاستبصار، ص ١٨٢-١٨٣ .

(٢٢١) نزهة المشتاق، ص ٢٤٩- حيث النص أيضا على أن تاودا كانت قلعة مرايطة، وأن هذا أدى إلى انتقام المصامدة (الموحدين) منها، فغربوها، وقارن الحسن الوزان، ص ٣٢٦- حيث النص على أن الريف (جبل غمار) من مملكة فاس، وأن أهله شجعان، يشربون الخمر، وكسوتهم رديئة، وانظر أيضا ص ٣٥٨- حيث كانت قازا المدسة الثالثة في المملكة من حيث المكانة ولخصاره، ص ٣٦٠- حيث جبل الراس شمال تازة، وفيه قبيلة غسبة تملك الخيل، ولا تدفع ضريبة، فرجلها سريعو الفصب، والويل لمن يمحش بسانهم، ص ٣٧٣- حيث جبال اليز، وهي ١٥ خمسة عشر جبلا يرددة وحشة، شرق تادلة، بعضها قوم من زناته، مخيفون، أقرباء الشكيمة يلجسون ذراعة (كساء) على أجسادهم سباحرة، وفرقها رداء، ويقلعون سيقانهم بأقحشة مغلوفة تحل محل السراويل، ويتركون رؤوسهم حاسرة في كل الفصول، ولديهم الكثير من الخيل والبغال والحمير. وهم أكبر لصوص وقتلة في العالم.

الأبواب (٢٢٢).

المسكن :

مساكن البلاد الرطبة في سفوح الجبال وفي الهضاب والسهول حيث زراعة القمح من أجل الحبز ، وغراسة الزيتون ، وشجر الهرجان ، من أجل الأدام ، وتربية الحيران - وخاصة الماعز - من أجل اللحم - مع صيد البحر - ومنتجات الألبان ، وكانت مبنية في المقرب بالتراب المعروف بالطابية أو بالتراب المخلوط بالجص والكلس (الجير) ، والذي يصب بين ألواح الخشب بطريقة صب «البتون» (الكونكريت) ، فتكون الجدران التي تكتسب صلابة الحجر أو أشد مع مرور الوقت (٢٢٣).

أما عن تخطيط بناء المساكن أو الدور فهو التخطيط المربع الذي يعتبر تركبة العصر الروماني. فالمسكن يحيط به سور مربع ، وفي وسطه الصحن السماوي الذي تفتح عليه غرف الدار وحجراتها والمخازن فيمدها بالضوء ويجدد لها الهواء . ويكون متنفساً لأهل الدار. ومقر الشيخ أو الزعيم يعتبر قصراً حقيقياً أو قلعة حربية. تحقق لأهلها بما يحيط بها من الاتباع وأهل القرية الأمان . فالسور مرتفع، ذو نهاية مسننة تسمح باطلاق السهام من ورائها.

وعادة ماتنتهي الجدران برسومات رقيقة من الموروثات البربرية. وهي عادة ما تتكون من خطوط هندسية مستقيمة ومربعة مع أشكال هرمية متقابلة أو متراصة وأشكال عقود مقرنصة إلى جانب العناصر البارزة وهي حسنة التنقيد تعطى لتلك المباني التي تسمى ايقرم أو تيفرمت بالبربرية كما تسمى القصور، وهي التي تكون

(٢٢٢) الاستبصار، ص ١٩٣- رهنا لا بأس إلى الإشارة إلى أن ثوار المغاربة (البربر الأوائل الذين كانوا يعتقدون في مذهب الخوارج، قلدوا هؤلاء في خلق رؤوسهم ليتميزوا عن جيوش الخلافة التي كانت تحاربهم-ج ١ ص ٣٠٣ .

(٢٢٣) عن أسلوب بناء الطابية أنظر ابن خلدون، المقدمة، الباب ٥، الفصل ٢٥ (في صناعة البناء).

تجمعاتها خصصية شخصية (٢٢٤). وللقصر ٤ (أربعة) أبراج مربعة ، مسلوكة الشكل ، أكثر ارتفاعاً من الأسوار ، بها المزاغل التي يدافع منها عن الأسوار باطلاق السهام . والمداخل متعرجة يتوه فيها الداخل الغريب.

ونظام القرية أو المدينة الرسمية حيث قصر الزعيم أو الوالى ، ومعسكر الحامية ، تسمى « القصبة » بمعنى مركز الحكومة (أو المدينة الملكية) (٢٢٥).

وأهم النماذج التى تهتم هى التى يتحدث عنها الاديسى فى منطقة جنوب مراكش ، والتى يعتبر المثال اللامع لها مدينة تينمل التى كانت تتوسط حوالى ٧٠ (سبعين) حصناً ، معلقة فى الهراء فى قنن الجبل . والمعروف أن تينمل اكتسبت شهرتها بعد أن أصيبت مزاراً بعد دفن محمد بن تومرت مهدي الموحدين بها حيث عرفت باسم البيضا (٢٢٦).

(٢٢٤) انظر روم لاندو ، القصبات المراكشية ، الشكل المقابل ، ص ٤٨..... وقارن ريكار ، مراكش ، ص ٢٧ .

(٢٢٥) انظر روم لاندو (Rom Landou) ، القصبات فى جنوب مراكش (The kasbas of southern Morocco) ، ص ٢٦ ، ريكار ، مراكش ، الدليل الأورق ، ص ٢٧ .

(٢٢٦) نزعة المشاق ، ص ٢٢٩-٢٣٠ . وانظر الاستيعاب ، ص ٢٠٨ - "وهو (حدث لمهدى) فى مدينة البيضا . المعروفة بتينمل وعن اسم تينمل انظر تراس : معابد (مساجد) وقلاع (قصبات) موحدية ، بالفرنسية Sanctuaires et forteresses . Terrasse Almohades ، ص ٧-٨ وهـ ٢-٣ : وتينمل (تينمل) هو النطق الدارج لاسم المدينة وهناك أشكال أخرى عند المؤرخين ، مثل تمل وتتمل . والاسم مكون من كلمتين بربريتين ، الأولى : تين (tin) التى توجد كاسم مكان فى لهجة اشلوج ، وفى الصحراء فى شكل المؤنث والمذكر ، كما فى أسماء : تنشازارت ، وتمدوف ، وان-غار ، ياولان-زيمز ، وان-صلاح وغيرها . وتظهر كاسم اشارة ، والذي ربما يكون فيه الحرف الساكن الأخير "ن" حرف ربط ، وتكون الكلمة الثانية معبرة عن اللون الأبيض فى كل اللهجات البربرية ، ومنه الاشتقاق الشعبى "البيضا" الذى طبق على المسجد ، وهو المستخدم من قبل العلماء الأوربيين . ومع ذلك فالمعنى الأصلى ل : م . ل التى يستنبط منه أملا لا يمكن ألا تكون "بيضا" ، بل زاهى اللون مما يتفق أصلا مع "الأحمر" . وهذا المعنى يظهر فى اللهجات البربرية الأخرى ، وهو مازال مستعملا فى لهجة =

وإذا كانت القصة كمدينة ملكية في العاصمة مراكش أو الرباط أو أشبيلية قد أخذت شكلها النهائي في العصر الموحدى ، ، اعتبارا من القرن ١٢هـ / ١٢م، فإن عددا من الباحثين المحدثين يتفقون على أصلها المشرقى، وذلك للتشابه الواضح بين القصة المغربية والقصور اليمنية ذات البنايات المرتفعة والتي تظهر من بعيد أو في المصورات أشبه ماتكون بتاطحات السحاب، بفضل أبراجها المربعة العالية، المسلوقة الشكل. ويمكن أن يتمثل أول نماذج هذا النوع من الأبراج المسلوقة، فى مثذنة أو منارة جامع القيروان الذى يرجع بناؤها إلى القرن الثانى الهجرى ٨م وهذا لا يمنع بطبيعة الحال من أن يكون هذا الطراز من الابراج متأثرا بنظام القصر (Castrum) الرومانى أو البيزنطى (٢٢٧).

الأثاث والأدوات المنزلية،

وإذا كانت بقايا الترسبات القديمة قد عرفتنا ببناء القصور الملكية فى المغرب اعتباراً من عصر الموحدين، وأن القرى والبلدات الصغيرة المعروفة بالقصور، وواحات المغرب بشكل عام وواحات الجنوب المراكشى بوجه خاص، قد عرفتنا ببناء الدور المغربية (البربرية) التى لا تختلف عن مثيلتها العربية وخاصة فى بلاد اليمن ، فإن البقايا الأثرية والأدب التاريخي شعبية فى التعريف بأثاث تلك الدور فى القرن ١٢هـ / ١٢م، ولا بأس فى القول بأن الدور المغربية كانت فقيرة فى الأثاث بما يتفق وبساطة الثياب التى كانت فى كثير من الأحيان لاتشتمل على أكثر من الكساء الذى يلتف به حول الجسد أو القماش الذى يلف حول الأرجل بدلا من السروايل (ماسبق، ص ١٠٥).

« الطوارق، وهى القريبة من لهجة الشلح، وإن ظلت أكثر محافظة، الأمر الذى ربما يعنى أن تتمثل ربما كانت فى الأصل لاتعنى اسم البيضاء بل الأحمر القانى (الصارخ)، الأمر الذى يتفق مع لون صفور تتمثل والتي لا يوجد فيها اللون الأبيض. »
(٢٢٧) انظر روم لاندور، القصصيات فى جنوب مراكش، بالإنجليزية، ص ٢٧، وقارن للمؤلف، العمارة والفنون فى دولة الإسلام، الاسكندرية ، ص ٢٥٩ .

ويمكن أن نستدل على بساطة أثاث المنزل المغربي من وصف الحسن الوزان لأثاث بعض الفنادق في مدينة فاس، وقتما كانت فاس مملكة زاهية بخصائرها في ذلك الوقت من القرن الـ١٦م / ١٠هـ . فذلك النوع من الفندق ، وإن كان أشبه بملجأ للأرامل ومن لأهل له ، كان لا يقدم لمن ينزل فيه إلا الحصر فقط والغطاء ، فكان هذا كان مستوى فقراء الناس (٢٢٨).

والمهم أن الأدب التاريخي لا يعرفنا من الأدوات المنزلية التي كانت تستعمل في المناطق الريفية بمنطقة مراكش إلا بمقلاة الفخار التي كان يشوى فيها خبز الشعير بدون خميرة (٢٢٩) أو تسخن فيها بذور الهرجان لاستخراج الدهن أو الزيت منها (٢٣٠). وهكذا فإذا كان المعروف أن أدوات الطبخ في المدن كانت عبارة من النحاس (٢٣١)، فإن الأواني الفخارية كانت مستخدمة أيضا ، لخاصيتها في حفظ الحرارة وخاصة في الفصول الباردة . ولا بأس أن كانت بعض تلك الآلات من

(٢٢٨) وصف إفريقية، ص ٢٣٦-٢٣٧ حيث الإشارة إلى السرر والفرش التي لم تكن في ذلك النوع من الفنادق أو الملاهي والواضح أن فندق الأراميل هذا كان من نوع المواخير الساقطة، إذ يتبع الحسن الوزان ذلك الوصف بأن النزلاء هم حفالة بشرية، ذكور يكتسرون كالإناث، ويترنئون كالسناة تماما. وأن هذه الفنادق كانت مقصد الذين يحبون أكثر ضروب الحياة دناءة، من : الخمر والنساء الساقطات، وأنها كانت تدفع الإتاوة لنقيب المدينة وحاكمها. وهنا يعتذر الحسن الوزان عن إيراد هذه المعلومات الفاضحة قائلا: "ولولا القانون الذي يلزم الموزع نفسه به يدفعى لقول الحقيقة لكان باستطاعتي أن أغفل هذا الجزء من وصفي". والمهم بعد ذلك أن الحسن الوزان (ص ٢٣٨) يعرف بالفنادق الحقيقية، وهي القريبة من الجامع والتي لا ينزلها إلا التجار من طبقة سامية- وهي التي تحوى السرر والفرش من غير شك. (وقارن ص ١٠٩ - عن فط حياة الناس في مراكش في القرن الـ١٦م / ١٠هـ حيث الحصر الناعمة بدل المقاعد والفرش أما أغطية الصوف فكان قياسها من ١٠-٢٠ ذراع).

(٢٢٩) الحسن الوزان، ص ١٠٨. (مع الإشارة إلى العصيد والكسكى إلى جانب خبز الشعير بدون خميرة).

(٢٣٠) الاستبصار، ص ٢١٢ حيث طعم الهرجان كالقمح المقلو.

(٢٣١) نزهة المشتاق، ص ٢٣٢ حيث النحاس الأحمر .

الحديد (٢٣٢).

أما من غرائب طسوت الفسيل ومعاجن دقيق الخنطة فكانت تلك التي تتخذ من دَرَق أو جلود السلاحف البرية الضخمة، وذلك في فحص قرية عفسيق في بلاد جزولة (قزولة) غير بعيد من مراكش (٢٣٣). ومثل تلك المقاسيل والمعاجن كانت تتخذ من الخشب، مثلها مثل القصاع (جمع قصعة) التي كانت تستخدم لتقديم الطعام.

الزى :

ومن الواضح أن الزى المغربى الدارج كان كما هو العادة ، كساء الصوف الذى يلبس به على الجسم التفتافا (٢٣٤) حيث الكساء قطعة قماش صوفية يلفون بها أجسادهم بشكل وثيق - وقطعة تلتف حول الرأس ، مثله مثل الجرد عند أهل ليبيا (برقة وطرابلس وفزان) المحدثين ، وهو أشبه بالملاءة ، ومن الصوف الأبيض عادة ، ولكنه يرتدى ككسوة خارجية ، فكأنه «التوجا» عند الرومان.

وكان السروال معروفا عند أهل المدن ، بينما كان سكان الظواهر والأرياف الباردة ، كما فى الجبل مثلا ، يلفون سيقانهم بقطع القماش بدلا من السراويل (ماسبق ، ص ١٠٥ و ٢٢١) . كما كانت ثياب الصوف والمآزر ، والعمامة تحمل من أغصان إلى بلاد السودان (٢٣٥).

والى جانب الكساء الذى يمكن اعتباره لباس أهل البوادي والريف كان هناك البرنس (أو البرنوس) وهو الثوب الخارجى الذى يرتديه أهل الحواضر والقرى .

(٢٣٢) نزهة المشتاق ، ص ٢٣٢ حيث الحديد المصنوع.

(٢٣٣) نزهة المشتاق، ص ٢٣٦ .

(٢٣٤) نزهة المشتاق، ص ٢٢٧، وقارن الحسن الوزان، ص ١٠٨.

(٢٣٥) نزهة المشتاق، ص ٢٣٢ .

والذي اتخذ رمزاً لهرير البرانس من صنهاجة الحضرة أو مصمودة الجهل (٢٣٦).

ورغم ما هو معروف من أن الذين يلبسون البرنس حالياً في المغرب هم حفدة البتر على وجه الخصوص ، من حيث أن البرنس هو لباس الفرسان (٢٣٧) فإن نص الأدرسي الذي يقرر فيه أن القبيلة المكناسية التي كانت تقيم أسفل منازل بني عطوش - حيث المزارع والعمارات والكروم والكثير من شجر الزيتون والفواكه الرخيصة - كانت تسمى في منتصف القرن ١٦هـ / ١٢م «بنو برنوس» (٢٣٨) ، يرجع مقالة أن البرانس هم أهل الحضرة ، وأن البرنس كان من شارات المصامدة على عهد المرحدين.

المسراة :

من الواضح أن المرأة المصمودية كانت سافرة ، مثل المرأة الصنهاجية عند المرابطين ، فهذا ما يفهم من الروايات التي تعرف باهتمامها بشعرها الطويل الذي كان يظهر متكسراً (موجاً) من استخدام زيت الهرجان مع المشط ، محتفظاً بسواده الحالي (ماسبق، ص ١٠٢) .

ومن الواضح من النصوص المتناثرة عند الأدرسي أن المرأة المصمودية ، رغم سمريتها ، كانت تتمتع بجمال فائق ، كما كانت تحظى باهتمام زائد من قبل زوجها الذي كان غيورا مستعداً لارتكاب الحماقات مع من يحاول التقرب إليها (ص ١٠٦ هـ ٢١٢) وهي إلى جانب عنايتها بترتيب شعرها والحفاظ على شبابه ، وبالتالي العناية بنزها الذي كان لا يختلف كثيراً عن زى الرجل في الشكل ، وإن اختلف

(٢٣٦) انظر ج ١ (ط ٢٠٠٠) ص ٩٧ - ٩٨ - من البرنس عند الهرير ، والذي يمكن أن يكون له غطاء للرأس - حسب جورج مارسيد - لباس أهل الحاضرة ، أو بدون غطاء (أي أهدر ، فيكون لباس أهل الهادي من البتر.

(٢٣٧) ج ١ ص ٩٩ .

(٢٣٨) نزعة المشتاق ، ص ٢٤٥ .

بعضه في الرقة وفي الألوان ، كانت عاملة نشيطة تقوم بمختلف الصناعات (٢٣٩) من أعمال المنزل من الطبخ والغسل وإعداد الخبز ، إلى غير ذلك من أعمال إعداد الثياب والفرش ، من : الغزل والنسج والحياكة - وهي الأمور المتعارف عليها .

والمهم أنه رغم دخول البربر في الإسلام منذ بداية الفتوح ، اعتباراً من بداية القرن الثاني الهجري / ٨م ، فإن هذا لم يمنع المغاربة (البربر) من الحفاظ على بعض التقاليد القديمة ، مما يعبر عن المكانة السامية التي كانت تتمتع بها المرأة ، والتي تمثل فيما كان يعطيه لها الرجل من الحرية وغيرها من الحقوق . فعند قبائل غمارة المعدودة من قبائل المصامدة في بلاد الريف كانت عادة المواربة معروفة غير منكورة . فعند زواج الفتاة كان يأتي شباب الحي إلى دارها - لرفاقها إلى أهلها ، كما نرى . ولكنه تبعاً للعادة كان للشباب الحق في أن يواربها أي يحتفظون بها لديهم مدة تطول وتقتصر حسب جمالها . هذا مع الإشارة إلى أن الغماريين كانت لديهم عادة إيناس ضيوفهم بنسائهم ، إذ كانوا يرغبون في أن يأخذوا من الرجل القوى أو الشجاع نسلاً (٢٤٠) .

وإذا كانت مثل هذه الأمور يمكن أن تقع كأحداث فردية أو تروى على أنها من الغرائب والعجائب التي كانت معروفة قديماً لدى بعض الجماعات في بعض المواضع المتطرفة ، فإننا لا نستبعد أن تكون من الدعايات المغرضة التي ظهرت في ظل الإسلام . نتيجة لما كان يقوم بين القبائل من النزاعات والصراعات ، أو لما كان يقع من النزاع الشعبي بين العرب وغيرهم من أهل البلاد المفتوحة ، سواء من الفرس أو البربر (ج ١ ص ١٢١-١٢٢) .

السحر والطب :

هذا ، كما عُرِف عند الغماريين كلفهم بأعمال الرقى والسحر ومعرفة الغيب .

(٢٣٩) نزهة المشتاق، ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .

(٢٤٠) الاستبصار، ص ١٩٢ .

على أواخر القرن الـ ١٦ هـ / ١٢ م ، كان لأبناء وأحفاد أحد المشاهير من السحرة المهرة ، وهو أبو كسية (تصغير كساء) «مزية وحظوة على من سواهم من الناس في جبال مجسكة من بلاد غمارة» (٢٤١).

والظاهر أن أمثال هؤلاء السحرة كانوا يقومون «بشبه مايعرف حالياً بالتنويم المغناطيسي فيبرقدون الوسيط الذي يغشى عليه باليومين والثلاثة دون أن يتحرك . ثم يقوم ليأتى بالعجائب والغرائب «ممايكون في ذلك العام من خصب أو جذب أو فتنة أو هذنة وغير ذلك من الكوائن والأحداث» (٢٤٢).

الطب والسحر والتجربة ،

وأغلب الظن أن مثل هؤلاء السحرة كانوا يقومون بأعمال التطبيب والعلاج عن طريق الرقى ، وعن طريق الممارسة أيضا . فمن ذلك الاعتقاد في بركة منبع وادي سبو ، نهر مدينة فاس في التشخيص الطبي . فمنبع سبو كان في بلاد بني وارتين في أواخر القرن الـ ١٦ هـ / ١٢ م) ، وكان رأس العين في بئر غامض بهاب الدخول فيها . وكان للبربر المجاورين لها تجارب في معرفة ما إذا كان المريض ، مرضا مزمنيا عندهم ، يستريح من مرضه أو يموت . فكانوا يحملونه إلى تلك العين فيفطسونه فيها حتى يكاد يموت اختناقا بالغرق ، ثم يخرجونه ، «فإن خرج علي فحه دم فيستبشرون بحياته . وأن لم يخرج من فيه دم ايقنوا بهلاكه (٢٤٣) والظاهر أن الأمر هنا يتعلق بالأمراض الصدرية والجهاز التنفسي.

(٢٤١) الاستبصار، ص ١٩٢- حيث النص على أن أبا كسية كان يوهم مخالفيه بأذيتهم من طريق تحول كساءه الذي يلتحف به ، فكان يخيل إليهم كأن برقة تلوح من تحت كساءه ، فيصايرون في مالههم أو أبدانهم أو كليهما- وكان عقبه قد ورثوا تلك القدرة الخفية ، فتميزوا بها على سائر الناس.

(٢٤٢) الاستبصار، ص ١٩٢- حيث النص على أن «هذا عندهم مستفيض مشهور» .

(٢٤٣) الاستبصار، ص ١٨٦- حيث النص على أنه أمر متعارف عندهم لا ينكر .

الفصل الثانى

الحياة الثقافية فى المغرب والأندلس

فى مطلع القرن الـ١٦هـ / ١٢م

A S R

A S R

الحياة الثقافية في المغرب والأندلس

في مطلع القرن الـ١٢هـ/١٢م

لما كانت دعوة محمد بن تومرت التي قامت عليها دولة الموحدين حركة دينية ، مثلها مثل سابقتها الدولة المرابطية ، الأمر الذي دعا ابن خلدون - حسيما نرى - إلى استنباط نظرياته التي تقول بالأهمية البالغة للدين كقاعدة أساسية من قواعد بناء الدول الإسلامية لدى الشعوب الـوحشية (البدوية) كدولة العرب ولتسوية (المرابطية) ومصمودة الموحدية (١) ، وأن نادى بأن الأسر الحاكمة العربية ، عادة ماتكون أكثر اهتماما بأمور الدين من الأسر الأعجمية.

والمهم بالنسبة للدولة الموحدية أن مُنظرها: محمد بن تومرت ، وهو المغربي المصمودى أى البربري : لحما ودما ، تشقف ثقافة إسلامية عالية في كبريات المراكز العلمية بالمغرب والأندلس ثم أنه قام من الأندلس بالرحلة العلمية (البعثة) إلى المشرق : مصر والشام والحجاز وبغداد - حيث النظامية - والإسكندرية.

وعمدتنا في التعريف بالأحوال الثقافية في مطلع القرن السادس الهجري / ١٢م ، في الفترة التي تعادل رحلة ابن تومرت العلمية إلى المشرق وعودته إلى بلاده ، ما بين سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م وسنة ٥١٥هـ / ١١٢١م ، هو كتاب الصلة لابن بشكوال ، حيث وقع اختيارنا على ٣٠ (ثلاثين) ترجمة لبعض العلماء ، يمكن أن تفيدنا في الدراسة ، من حيث أن أصحابها كانوا من العلماء الذين عاشوا في تلك

(١) انظر المقدمة ، ط الحجازية بالقاهرة ، المجلد ٢٧ ، ص ١٥١ - حيث إن العرب لا يحصل لهم الملك ، لا بصيغة ديمية من تبسة ، أو ولاية ، أو أثر عظيم من الدين على الجملة . . . ، وص ١٥٨ - حيث إن الدعوة الدينية تزيد اندولة في أصلها قوة على قوتها العصبية . . . واعتبر ذلك أيضا في دولة لثوية ودولة الموحدين . (حيث أن) الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستنصار والاستماتة ، فلم يقف لهم شئ.

الفترة المحددة أو في جزء منها ، وهم يقومون بنشر علمهم بين الباحثين عنه من الطلاب في مدارس المغرب أو الأندلس خاصة.

ومن البحث في ذلك العدد المنتقى من تراجم العلماء المعاصرين لرحلة ابن تومرت العلمية ، نجد أن بلاد المغرب المرابطية ، وقتئذ ، كانت قليلة مراكز العلم ، حيث لا نجد ذكراً إلا لمدينة سبتة - المعبر الجنوبي إلى الأندلس حيث تظهر أسماء ٤ (أربعة) من العلماء ، بينما لا يأتي ذكر مدينة قاس إلا مرة واحدة ، مرتبطاً مع سبتة بشكل عابر (٢) ، ومثل هذا يقال عن مدينة مراكش (٣).

أما عن مدارس الأندلس فكانت تنصدها مدينة قرطبة بـ ١٤ (أربعة عشر) عالماً (٤) ، تليها أشبيلية بـ ٥ (خمسة) علماء (٥) والمرية بـ ٤ (أربعة) علماء (٦) ثم غرناطة بعالمين اثنين (٧) ، ثم تأتي مدن بلنسية (٨) ،

(٢) انظر صلة ابن بشكوال، رقم ١١٣١، ص ٥٠٩-٥١٠- عن ابن الربوطي الذي سكن قاس ثم سبتة.

(٣) انظر صلة ابن بشكوال رقم ٨٣٠، ص ٣٨- حيث ترجمة عبد الغالب الساملي الذي انتقل من سبتة إلى مراكش.

(٤) عن علماء قرطبة انظر صلة ابن بشكوال، التراجم رقم ٦٤٠، ٧٤٤، ٧٤٥، ٧٤٨، ٧٩٢، ٨٠٨، ٩٤٣، ١١٣٨، ١١٤٣، ١١٥٤، ١١٥٧، ١١٢٥، ١٤٠٣، ١٤٠٧.

(٥) انظر صلة ابن بشكوال، التراجم رقم ٩٤٣، ٩٦٨، ١١١٨، ١١٤١، ١١٨١.

(٦) عن المرية انظر صلة ابن بشكوال، التراجم رقم ٧٩٣، ٩١٣، ١١٤٦، ١٣٢٦.

(٧) عن غرناطة، انظر، صلة ابن بشكوال، رقم ٩٠٨، ٩١٢.

(٨) صلة ابن بشكوال، رقم ٨٢١ (عن ابن قريال المولود بوادي الحسجارة، والذي روي عن انطلمنكي بالمرية، وتوفي سنة ٥٠٢ هـ بلنسية، ورقم ١١٤ (عن محمد بن ظاهر، وأصله من مرسية).

ومالقة (٩) ، وشلب (١٠) ثم أربولة (١١) ، ويثمل كلا منها أستاذ واحد.

والذى يستدعى الانتباه أن كثيراً من العلماء كانوا من المهاجرين عن مواطنهم ، سواء للأخذ أو للمعطاء ، الأمر الذى كان يجعل من مراكز الأندلس العلمية مدرسة واحدة فى حقيقة الأمر ، وأهم ممثليها هم علماء قرطبة مدينة الجماعة ، العاصمة الثقافية الأندلسية للأندلس. وهنا لاتغيب طليطلة - رغم ضياعها منذ سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٥م ، فقد كانت ممثلة إلى جانب غيرها من المراكز العلمية الأندلسية ، فى مطلع القرن الـ ٦هـ / ١٢م ، ببعض القدامى من مشاهير الأساتذة المهاجرين فى قرطبة (١٢).

رحلة ابن تومرت ،

والأمر المستغرب أنه لا يوجد ذكر لرحلة محمد بن تومرت بين ما يذكره ابن بشكوال من رحلات الأندلسيين العلمية ، بل إنه لا يوجد ذكر أبداً لاسم ابن تومرت بين الطلبة الوافدين على مشاهير الأساتذة المشارقة ، أو الوافدين على المشرق من العلماء الأندلسيين والمغاربة ممن كانت تلتف حولهم حلقات الدرس فى فنون العلم المختلفة ، على طول طريق الحج الطويل عبر الإسكندرية ومصر والشام والعراق . الأمر الذى يعضى نوعاً من القموض حول الرحلة المهدية الموحدية . والحقيقة أن الشك يعيق بلقاء ابن تومرت بشيخ النظامية الكبير ، أبى حامد الغزالي أيضاً .

(٩) انظر صلة بن بشكوال رقم ١١١٨ (عن أحمد بن عبد الرحمن السرقطى الذى أقرى بحاضرة إشبيلية، وتوفى بمالقة سنة ٥١١ هـ / ١١١٧م).

(١٠) صلة ابن بشكوال ، رقم ١١٢٩ - حيث سمع بإشبيلية وأخذ بقرطبة.

(١١) عن أربولة (قرب مرسية) انظر صلة بن بشكوال ، رقم ١١٣٦ (عن الرعيسى . من تطيلة، وله رحلة، كما أخذ بالإسكندرية).

(١٢) صلة ابن بشكوال ٧٤٥ ، حيث عبد الرحمن بن يوسف الأمرى، ووفى ١١٥٧ ، حيث محمد بن أحمد بن اسماعيل - الطليطلى الذى سكن قرطبة.

وهكذا لا تبدأ الرحلة في الظهور كحقيقة تاريخية الا أثناء رحلة العودة عن طريق الإسكندرية ، وبالأذات في رحاب شيخ الإسكندرية الأندلسي المشهور وقتئذ ، وهو أبو بكر الطرطوشي ، صاحب كتاب «سراج الملوك» حيث كان ابن تومرت قد بدأ يمارس رسالته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو في طريق الذهاب إلى مجلس الطرطوشي ، قرب الباب الأخضر الغربي ، وفي طريق العودة حيث لقي في سبيل ذلك الكثير من العنت والأذى (١٣).

وهكذا كان لنا في نماذج الرحلة العلمية الأندلسية إلى المشرق ، وسير الشيوخ من العلماء الذين قاموا بها ثم مارسوا التعليم بعد ذلك ، ما يمكن أن يعطينا صورة للحياة العلمية والثقافية التي كانت لها آثارها في حياة ابن تومرت ، منذ اتخاذه طريق العودة إلى المغرب ، ومنذ نزوله بالإسكندرية على وجه الخصوص.

رحلة ابن تومرت العلمية في المغرب:

كان الشاب المصمودي محمد بن تومرت يناهز السادسة والعشرين من عمره ، وهو يفادر إيجليز : ببلدته ، سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م ، مفتتحاً مرحلة دراسته العالية خارج الوطن الصغير ، بلاد السوس . وكان من الطبيعي أن تكون وجهته مدينة مراكش العاصمة ، القريبة من البلاد ، وهو الأمر المقبول . فمراكش التي ناهزت الخمسين من العمر كانت وقتئذ حاضرة امبراطورية عظمى تمتد من السودان جنوباً إلى الأندلس شمالاً . وكان مركز الحكم فيها هو القصر الأميري المعروف بدار الحجر ، يتوسط القصبه التي تمثل المدينة الحكومية (الملكية) المحصنة ، في مقابل مدينة العامة من أفراد الشعب . وبطبيعة الحال فقد كان المسجد الجامع بالمدينة بمثابة المركز الثقافي الرئيسي في المدينة التي كانت قد بدأت تعج بالأندلسيين من رجال الحكم والحرس والدين والأدب والشعر ، من : الموظفين ككتاب في الديوان وفي القضاء وإمامة الصلاة والخلافة والوعظ ، إلى جانب الواقفين لإعلان الطاعة

والخضوع أو التهنئة والتماس التعطف والكرم.

وهكذا بدأت مراكش تتحول - إلى جانب صفتها الرسمية كمقر للحكومة المركزية - إلى مركز ثقافى متطور بفضل التأثيرات الأندلسية المتنامية مع مرور الوقت.

ويظهر تطور مراكش الثقافى والعلمى فى مطلع القرن الـ ١٦م ، فى صلة ابن بشكوال فى موضع واحد من تراجم العلماء المنتقاة التى أعتمدنا عليها. فأبو محمد عبد الغالب بن يوسف الساملى الذى أخذ العلم من القاضى أبى عبد الله بن شبرين وغيره ، كان عالما بالأصول والاعتقادات ، وهى العلوم التى اهتم بها محمد بن تومرت. والمهم أيضا أنه انتقل من الأندلس وسكن مدينة سبتة ، فكانه أصبح من عماد مدرسيها ، حيث شغل منصب الخطبة بها ثم انتقل بعد ذلك إلى مراكش العاصمة ، حيث توفى بها فى سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م ، أى فى نفس الوقت الذى كان ينهى فيه ابن تومرت رحلة العودة ، ويبدأ مرحلة الأعداد للدعوة المرحدة الرائعة (١٤).

ومن لهم ذكر فى مراكش من العلماء الاندلسيين الذين كانوا فى حاشية الأمير على بن يوسف بن تاشفين ، الفقيه : مالك بن وهيب ، الذى ادرك خطورة ما كان يدعو إليه محمد بن تومرت ، مما كان لا يدرك مناظروه من الفقهاء: فمالك بن وهيب ، كما يعرف به صاحب المعجب ، كان قد شارك فى جميع العلوم ، ولكنه كان لا يظهر إلا ما يتفق فى ذلك مع الايمان . فلقد رأى له عبد الواحد كتابا سمىه : قراصة الذهب ، ذكر فيه لثام الحرب فى الجاهلية ، وضم إليه ما يتعلق به من الآداب . هذا ، كما كان لمالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة ، فكان له فيها كتاب الثمرة لبطليموس فى الأحكام ، وكتاب المجسطى فى علم الهيئة ، وعليه حواش

(١٤) انظر ابن بشكوال، الصلة، رقم ٨٣٠، ص ٣٨٢- حيث النص على أن تلك المعلومة مستفادة من القاضى "أبو الفضل عياض"، السبى.



رحلة ابن قنبر

بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه أحمد الذهبي (١٥).

فاس :

أما عن فاس عاصمة المغرب الثقافية الأزلية ، فهي الأخرى لا تظهر في مجموعة تراجمنا المنتقاة من الصلة ، إلا في موضع واحد كما في مراكش . فمحمد بن علي بن محمد الطليطللي ، المعروف بابن الربوطي الذي كان أعشى ، سمع من عبد الرحمن بن سلمى ، ومن أبي الوليد الباجي ، ثم إنه خرج إلى العدو المغربية حيث سكن مدينة فاس ، وفيها ولي منصب الخطابة . وتوفي وهو يشغل منصب خطيب جامع سبتة في محرم سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م (١٦).

سبتة :

أما المركز الثقافي المغربي الثالث فكان مدينة سبتة ، باب الأندلس الجنوبي ، من حيث يبدأ الطريق إلى كل من فاس ومراكش . والمهم هنا هو أن سبتة تأتي في المركز الرابع بعد المربة في القائمة الانتقائية التي اخترناها للمراكز الثقافية في مطلع القرن الـ ١٦هـ / ١٢م ، فقد كان من حظ سبتة ٤ (أربعة) علماء ، هم :

١- عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم الكشامى ، المعروف بابن المجوز ، من أهل سبتة . وهو فقيه بالوراثة (ابن فقيه ابن فقيه ابن فقيه) ، وهو من جلة فقهاء سبتة . ومن المهم أنه «كان يميل إلى الحجة والنظر» - وهي الميزة النادرة - خصوصا في عصر فقهاء المالكية . والأمر المستغرب أن الرجل العقلائي ، هذا ، كان من كبار العبادة . فقد عرف عنه أنه كان يصلى الصبح بوضوء العتمة ،

(١٥) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ١٨٥ .

(١٦) ابن بشكوال، الصلة ورقم ١١٣١، ص ٩٠-٩١- حيث النص على أن تلك المعلومات مما أفاده بها القاضي أبو الفضل عباس .

بمعنى أنه كان يقوم طوال الليل في الصلاة ، لمدة ٣٠ (ثلاثين) سنة.

هذا ، كما أنه ولى قضاء الجزيرة الخضراء ثم سلا حيث توفي بعد سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م (١٧).

٢- عبد الغالب السالمي الذي انتقل من سبتة إلى مراكش (ما سبق ، ص ١١٩).

٣- محمد بن عمر بن قطري الزبيدي ، من أهل أشبيلية ، سمع بالأندلس ، ورحل إلى المشرق ، وسكن أشبيلية ثم انتقل إلى سبتة حيث توفي سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م (١٨).

٤- ابن الربوطي (١٨م) :

وهكذا تكون سبتة هي الممر الذي كان يندفع عبره تيار التأثير الأندلسي في المغرب ، فلا بأس إذن ان كانت أزهى المدن المغربية ثقافة في تلك الفترة الخاصة برحلة محمد بن تومرت العلمية.

رحلة ابن تومرت العلمية في الأندلس :

وأقرب غايات الرحلة العلمية الأندلسية الشرقية إلى رحلة محمد بن تومرت ، مهدى الموحدين ، من حيث التوقيت شكلا على الأقل ، هي التي قام بها أبو القاسم عيسى بن إبراهيم بن عبد ربه بن جهور القيسى ، عالم كل من قرطبة وأشبيلية (١٩). وأصل أبي القاسم من مدينة طليخيرة ثم أنه تحول إلى مدينة شريش

(١٧) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٧٥٥ ص ٣٤٨- حيث النص على رجوع النص إلى الفاضل عياض (أبو الفضل) في تلك الإضافة

(١٨) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٣ ص ٥٠٩

(١٨م) ما سبق ، ص ١١٦ و ٢ .

(١٩) الصلة، لابن بشكوال، رقم ٩٤٣، ص ٤٣٢

الساحلية. قبل أن تبدأ رحلته العلمية في الأندلس مبتدئا بقرطبة حيث روى الحديث على أبي علي الغساني ، وأبي عبد الله محمد بن فرج الفقيه ، وحازم بن محمد ، وذلك مع مطلع القرن السادس الهجري / ١٢ م.

أما عن رحلته المشرقية فقد بدأت بعد سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م في نفس تاريخ بداية رحلة ابن تومرت (مات سنة ١١٩٩). وكانت أهم أحداثها العلمية هو الدخول إلى بغداد ، عاصمة الخلافة العباسية ، ومقر النظامية : أشهر جامعة في عالم الاسلام وقتئذ. وهناك لقي جماعة من العلماء ، كما دخل في مناظرات مع عدد من الفقهاء . والمهم أنه التقى بكبار مشايخ العصر هنالك ، فأخذ عن أبي بكر محمد الحلواني ، وأبي بكر محمد بن طرخان ، والشاشي. وكان ممن لقيهم في بغداد أبو محمد القاسم بن علي الحريري البصري، صاحب المقامات ، فأخذها عنه ، إلى غير هؤلاء.

وهكذا عاد أبو القاسم بن جهور القيسي بعد الرحلة المشرقية إلى قرطبة ليحاضر طلبة العلم بها في معارفه المختلفة ، من: الأدب واللغة والشعر الذي كان يثقل عليه ، وأن كانت له مشاركة في الفقه والحديث ، وأصل الديانات ، وهي الأمور التي كان يهتم بها ابن تومرت من غير شك . هذا ، كما عرفه أيضا طلبة أشبيلية التي توفي فيها بعد ذلك في منتصف سنة ٥٢٧ هـ / أبريل ١١٣٣ م (٢٠).

أما عن كبار الأساتذة القرطبيين الذين كانت تزدهر بهم قرطبة وقتما كان ابن تومرت يدخل الأندلس ، فمنهم أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عقاب اللخمي (٤٣٣ - ٥٢٠ هـ / ١٠٤١ - ١١٢٥ م) ، الذي يعتبره ابن بشكوال آخر الشيوخ الجليلة الأكابر ببلاد الأندلس في علو الأسانيد وسعة الرواية (٢١).

(٢٠) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٩٤٣، ص ٤٣٣ .

(٢١) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٧٤٤، ص ٣٤٧ .

والحقيقة أن ابن عثاب كان في السابعة والستين من عمره ، وقتما كان ابن تومرت يدخل الأندلس ، بمعنى أنه كان من كبار الأساتذة ، ولكننا لا ندرى أن كان مثل ابن تومرت الذي كان في السادسة والعشرين من عمره كان له الحق في حضور مجلس مثل هذا الأستاذ الجليل ، إلا إذا جلس بعيداً عن الاضواء في آخر صفوف الحلقة.

وإذا كان قدامى الشيوخ ، مثل : أبي عمرو السفاقسي ، وأبي حفص الزهراوى ، وأبى عمر بن عبد البر قد أجازوا ابن عثاب في رواية علومهم الدينية ، فمن المهم بالنسبة لنا أن نشير إلى أنه أجاز له أيضاً مؤرخ الأندلس الشهير أبو مروان بن حيّان «كتاب الفصوص» لمساعد (الأندلسي) عن مؤلفه صاعد.

والهم أن ابن بشكوال يقيم ابن عثاب بأنه «كان حافظاً للقرآن ، عارفاً برواياته وطرقه ، واقفاً على كثير من تفسيره وغريبه مع حفظ واغفر من اللغة العربية ، وكتب بخطه علماً كثيراً ، وجمع كتاباً حفيلاً في الزهد والرقائق ، سماه : شفاء الصدور» . ومن المهم عن ابن عثاب بعد ذلك أو قبله أنه «كانت الرحلة في وقته إليه ، ومداور أصحاب الحديث عليه» ، وأنه «طال عمره وسمع منه الآباء والأبناء» (٢٢).

الطليطلى :

أما تلميذ ابن عثاب وورث علمه فهو عبد الرحمن بن عبد الله بن يوسف الأموى ، الطليطلى أصلاً ، والقرطبي سكناً ، وهو المعروف بـ «ابن عفيف» (٤٣٧- ٥٢١ هـ / ١٠٤٥-١١٢٧ م) ، والذي أجاز له ابن عثاب جميع ما رواه (٢٣).

وابن عفيف الذي سمع بيلده طليطلة من أبى قاسم بن محمد بن هلال ، قبل أن

(٢٢) ابن بشكوال، الصلة، ص ٣٤٢ .

(٢٣) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٧٤٥، ص ٣٤٢-وعفيف هو جده لوالدته.

يتنقل إلى قرطبة ، كان مختصا بالشهادة (تعديل الشهود لدى القاضي) ، قبل أن يتولى وظيفة صاحب الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة. وقيمه ابن بشكوال بكونه «شيخاً فاضلاً ، عفيفاً ، شهر بالخير والإصلاح قديماً (في طلبطة) وحديثاً (في قرطبة). والمهم بعد ذلك أو قبله أنه كان يعظ الناس في مسجده ، (قبل ولاية الصلاة بالمسجد الجامع) ، وكانت العامة تعظمه.

هذا ، كما كان الناس يسمعون منه ويروون عنه ، وكان ابن بشكوال ممن سمع عنه ، وإن قرر أن ابن عفيف «لم يكن بالضابط لما رواه» (٢٤).

ابن الجمان

أما آخر الفضلاء الذين كان يتحرك به في قرطبة حسب التقويم العام لابن بشكوال ، فهو أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد المعروف بابن الجمان (ت ٦ صفر ٥٢٢هـ / ١١ فبراير ١١٢٨م) ، صاحب الصلاة بالمسجد الجامع ، والذي روى عن أبي محمد عبد الله بن بشير المعافري وغيره ، وكتب بخطه علماً رواه . أما عن توصيفه العام ، فقد كان من أهل الخير والفضل والتواضع والصلاح والإقبال على ما يعينه ويريه من خالقه ، كما كان متقبضاً عن الناس خبر مختلط بهم (٢٥). والذي يفهم إلى جانب ذلك من أن جنازة ابن الجمان كانت في غاية الحفل ، هو أن الرجل كان من الأولياء الرهاتيين أكثر من كونه من الأساتذة العلمانيين.

وأما ابن حزمون : عبد العزيز بن عبد الله بن ، أحمد (٤٤٠- شعبان ٥٠٨هـ / ١٠٤٨- ٤ يوليئ ١١١٤م) فقد روى عن أبي حاتم بن محمد ، وأبي جعفر بن رزق النقيه ، وعن أبي عبد الله محمد بن فرج الفقيه ، كما أجاز له أبو العباس العذري. وكان فقيهاً مشاوراً في الأحكام بقرطبة ، كما تولي إمامة الصلاة بالمسجد

(٢٤) ابن بشكوال، الصلاة، ص ٣٤٤ .

(٢٥) ابن بشكوال ، الصلاة ، ص ٣٤٤ .

الجامع بقرطبة. والمهم أنه كان له باع طويل في المناظرة . حتى أنه كان يناظر أستاذه
أبا جعفر بن رزق ، كما ناظر الناس عليه في الفقه ، وانتفع به في معرفته وعلمه
(٢٦).

ومن سلالة الأمراء الأمويين بقرطبة يذكر أبو طالب عبد الجبار بن عبد الله بن
أحمد بن أصبغ .. ابن الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٤٥٠ - رمضان ٥١٦هـ/
١١٠٦ - نوفمبر ١١٢٢م). وله رواية عن أبي عبد الله محمد بن فرج الفقيه ، وأبي
جعفر بن رزق ، وأبي عبيد البكري (الجغرافي والمؤرخ المعروف) ، الأمر الذي سمح
له بأن يجمع كتاباً حفيلاً في التاريخ ، سماه بكتاب عيون الإمامة ونواظر السياسة
- فكانه في نظم الحكم الإسلامية - أجازة لابن بشكوال ، الذي نقل منه في بعض
مواضع من كتاب الصلة - مرجعنا هذا.

أما عن تقييم ابن بشكوال لعبد الجبار سليل الأمويين الأندلسيين ، فتتلخص في
أنه «كان من أهل المعرفة بالأدب واللغة العربية والشعر» . وأنه كان ذكياً نبهاً
(٢٧) - وهو في الختام المعبر عن ملكة الفكر والفتح العقلي.

ابن حمدين الكبير:

وكان من أعلام العلماء في مجموعتنا المنتقاة : أبو محمد علي بن عبد العزيز
بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة (٤٣٩-٢٦ محرم ٥٠٨هـ / ١٠٤٧ - ٤ يولييه
١١١٤م - أثناء وجود محمد بن تومرت في بغداد بالمشرق) ، والذي تفقه عن أبيه ،
وعن أبي عبد الله محمد بن عتاب ، كما أجاز له عمر بن عبد البر ، وأبو العباس
العذري مازويه . واشتهر ابن حمدين «بأنه كان من أهل التفقن في العلوم والافتتان
بها ومذاكرتها» . أما عن تقييم ابن بشكوال له كعالم ، فيصفه بأنه «كان حافظاً

(٢٦) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٧٩٢ ص ٣٦٥-٣٦٦ .

(٢٧) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٨٠٨ ص ٣٧٣ .

ذكيا قطنا ، أدبيا ، شاعرا لغويا ، أصوليا».

هذا . كما نجح في ولايته القضاء بقرطبة في شعبان سنة ٤٩٠هـ / يولييه ١٠٩٧م. إذ «تولاه بمساسة محسودة وسيرة نبهة» . ولما كان ابن حمدين من أهل الجزالة والصرامة والفضل والجلالة ، لما كان يشغل وظيفة قاضي الجماعة وقتما كان محمد بن تومرت في رحلته العلمية بالأندلس ، فإننا لانعرف إذا كان قد قدر لابن تومرت - الشاب الطالب - أن يلتقي به في بعض مجالسه العلمية أو أن يكون قد أخذ عنه بعض علمه مما أخذ عن الشيخ أو مما أجازوه له. والمهم ابن بشكوال حضر جنازته التي صلى عليه فيها ابنه صاحب الأحكام أبو القاسم أحمد (٢٨).

ابن سلمة :

ومن العلماء الأندلسيين المعاصرين للعقد الأول من القرن الـ ٥٦٠هـ / ١١٦٧م ، يذكر أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن سلمة ، من أهل قرطبة (٤٣٣-١٧ صفر ٥١١هـ / ١٠٤١-٢١ يولييه ١١١٧م). وروى أبو عامر بن سلمة عن أبي الحجاج الأعلم الأديب ، وقيد عنه ، كما أخذ عن أبي القاسم حاتم بن محمد الطرابلسي ، وأبي محمد علي بن أحمد بن حزم الحافظ ، وغيرهم. والمعروف عنه أنه كانت له عناية بالعلم (الحديث) وسماعه وجمعه ، كما كانت له معرفة بالأدب ، واللغة ، والخبر ، ومعاني الشعر.

أما عن تقييم ابن بشكوال له فإنه « كان ذا جلالة ونباهة وصيانة ، الأمر الذي يدعوه الي الافتخار بأنه » قد أخذ عنه بعض شيوخنا وجلة أصحابنا . والأمر المستغرب أنه رغم أن الرجل كان من أهل قرطبة الا أنه عندما توفي « حمل إلى اشبيلية فدفن بها » ، وفي ذلك يكتفي ابن بشكوال بالقول : « أخبرني بذلك ابنه أبو بكر - أكرمه الله (٢٩) - ربما لنذر نذره الرجل ، ووفاء له ابنه ! ».

(٢٨) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٣٨ ص ٥١٢ .

(٢٩) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٤٣، ص ٥١٣ .

ابن رشد الجدل

ونظير ابن حزمين في قضاء الجماعة بقرطبة ، هو : ابو الوليد محمد بن احمد بن أحمد بن رشد المالكي (الجد) (٤٥٠ - ذو القعدة ٥٢٠ هـ / ١٠٥٨ - ١٨ مارس ١١٢٧ م) ، الذي كانت له إمامة الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة أيضا. روي أبو الوليد بن رشد (الجد) عن الفقيه أبي حفص أحمد بن رزق ، وعن مروان بن سراج ، وأبي علي الفسائي ، كما أجاز له أبو العباس العذري مواراه.

واشتهر ابن رشد (الجد) بأنه «كان فقيها عالما ، حافظاً للفقه ، مقدما فيه علي جميع أهل عصره ، عارفا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه ... نافذا في علم الفرائض والأصول ، كما عرف بحسن الخلق ، وسهولة اللقاء ، وكثرة النفع لخاصته وأصحابه وجميل العشرة لهم ، والحفظ لعهدهم ، والبر بهم».

أما عن تقييم ابن بشكوال له ، «فكان من أهل الرياسة في العلم والبراعة ، والفهم مع الدين ، والفضل والوفار ، والحلم ، والسمت الحسن ، والهدى الصالح».

ومن أشاد بعلم القاضي ابن رشد وفضله ، الفقيه ابو مروان عبد الملك ابن مسرة ، رفيق ابن بشكوال في الدراسة . فقد قرر أن شيخهم القاضي أبا الوليد كان بصوم يوم الجمعة دائما في الحضر وفي السفر ، كما عدد من تواليفه : كتاب المقدمات لأوائل كتب المدونة ، وكتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل ، واختصار المبسوطة ، واختصار مشكل الآثار للطحاوي - إلى غير ذلك من تواليفه ، التي اسمع التلاميذ بعضها ، وأجاز لهم سائرها.

ورغم نجاحه في منصب قاضي الجماعة بقرطبة ، وسيره فيه «بأحسن سيرة وأقوم طريقة» إلا أن الأمر انتهى باستعفائه ، والانصراف إلى نشر كتبه وتوابعه ، وإن ظل ملجأ للناس وناصحا لهم في مهماتهم (٣٠).

(٣٠) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٥٤ ص ٥١٨، وقارن البيهقي. تاريخ قضاء الأندلس. نشر بروفسال ١٩٤٨، ص ٩٨-٩٩ .

ومن جلة علماء تلك الفترة التي نهتم بها ابن العَوَاد : أبو الوليد هشام بن أحمد بن سعيد القرطبي (٤٥٢- أحد صفر ٥٠٩ هـ / ١٠٦٠ - ٢٤ يولييه ١١١٥ م) .
تتلمذ ابن العَوَاد علي الفقيه أبي جعفر بن رزق واختص به ، وأبى مروان عبد الملك بن سراج ، وأبى علي الفسائي ، وغيرهم.

أبى العَوَاد :

وأشتهر ابن العَوَاد بأنه كان من جلة الفقهاء ، وكبارهم وعلمائهم ، وخيارهم .
وأنه كان حافظاً للرأى ، مقدماً فيه على جميع أصحابه - وهى ميزة نادرة ، كما نرى - استحق عليها التقدير والتميز . كما كان بصيراً بالفتيا ، عارفاً بعقد الشروط وعملها ، حسن العقد لها ، مع دين وفضل ، وورع ، وأنقباض عن السلطان . وفى مقابل ذلك كان له إقبال على ما يمينه ، ومراعاة على نشر العلم ونشه ، وجميل العشرة لتلاميذه والمختصين به . وإلى جانب سعة الخلق وحسن اللقاء كان محبباً إلى الناس ، حلماً ، طاهراً ، ليناً ، متواضعاً.

ويتمثل انقباض ابن العَوَاد عن السلطان فى امتناعه عن قبول وظيفة القضاء ، رغم دعوته إليها أكثر من مرة.

أما فى مجال نشر العلم فقد كان « يختلف إليه خلق كثير على سبيل العفقه عنده والمدارسة ، فنفع الله به كل من أخذ عنه » . وهكذا كانت جتازته حافلة بالمشاهدين وكان ابن بشكوال بين من حضرها (٣١) .

ابن حزم الابن :

ويأتى من القرطبيين بعد ذلك ولد الفقيه الشهير ابن حزم الاندلس . وهو أبو أسامة يعقوب بن علي بن أحمد بن حزم (٤٤٠- جمادى الأولى ٥٠٣ هـ / ١٠٤٨ -

(٣١) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١٣٢٥ ص ٥٩٣-٥٩٤ .

توفمبر ١١٠٩م) وابن حزم الابن هذا روي عن أبيه ، وعن أبي عمر بن عبد البر بالإجازة ، وعن أبي العباس العذري . ومذهب الظاهرية له أهمية خاصة عند محاولة تقييم مذهب التوحيد عند محمد بن تومرت ، كما أن له أهمية بالنسبة لتطور الأحوال المذهبية في الدولة الموحدية ، اعتباراً من عصر ثالث امرائها المنصور.

وفي تقييم يعقوب بن حزم يقول ابن بشكوال انه « كان من أهل النباهة والاستقامة » (٣٢).

ابن مغيث :

أما آخر القرطبيين الذين نعرض لهم ، فرغم تأخر تاريخ وفاته فإنه مقبول بسبب تاريخ ميلاده المبكر ، الذي يجعله في الثالثة والخمسين من عمره في مطلع سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦م . وأنه : يونس بن محمد بن مغيث (٤٤٧ - ٨ جمادى الآخرة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧م) ، من أهل قرطبة ، وشيخها المعظم ، الذي روى عن جده (مغيث) ، والقاضي ابن الحذاء ، ومحمد بن محمد بن بشير. وفي تقييمه يقول ابن بشكوال انه كان « قديم الطلب نهيه الهيت والحسب... عارفا بالنفا والإعراب ، كما كان راوياً للحكايات والأخبار... حافظاً لأخبار أهل بلده... بصيراً بالرجال وأيامهم ، وله معرفة بعلماء الأندلس وملوكها وسيرهم ، وأخبارهم». فكانه كان يميل إلى أخبار المحدثين وتاريخ قرطبة وأخبار الأندلس الثقافية والسياسية على العموم ، وأن كان التقرير دون إشارة إلى مؤلفاته في التاريخ الأندلسي، إن كانت له مؤلفات فيه (٣٣).

خصائص مدرسة قرطبية :

من هذا العرض يمكن تصنيف العلوم التي اشتغل بها القرطبيون من أهل العلم

(٣٢) ابن بشكوال، الصلاة، رقم ١٤٠٧ ص ٦٢٨ .

(٣٣) ابن بشكوال، الصلاة، رقم ١٤٠٣ ص ٦٢٧-٦٢٨ .

في مطلع القرن الـ ١٦ هـ / ١٢ م متدرجة نسبيا حسب النقاط على الوجه التالي:

- ١- الفقه ٦ نقاط
- ٢- رواية الحديث والفتوى على مذهب مالك ٥ نقاط
- ٣- الخبر وسير الرجال من أجل التعديل والتجريح بالمعنى التاريخي ٣ نقاط
- ٤- علوم القرآن ، من : تفسير وغريب ٣ نقاط
- ٥- اللغة العربية والإعراب ٣ نقاط
- ٦- الآداب ١ نقطة
- ٧- الشعر ومعانيه ١ نقطة
- ٨- عقد الشروط ١ نقطة
- ٩- الأصول ١ نقطة
- ١٠- الفرائض ١ نقطة
- ١١- الرأي ١ نقطة

والواضح من هذا العرض أن علوم الحديث والفقه والفتوى (على مذهب مالك) كان لها التفوق في مجال العلوم الدينية ، إلى جانب علوم الخبر ومعرفة الرجال والتاريخ التي كان لها ارتباطها بعلم الحديث ، ومنهج الجرح والتعديل (التاريخي).

أما علوم العربية فكانت دارجة أيضا لارتباطها بعلوم القرآن والحديث . بينما يأتي علم الأصول والاعتقاد إلى جانب منهج الرأي المضاد لمنهج النقل والتقليد ، في آخر القائمة ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لحصر سيادة الحديث (النقلي) وخاصة الفتوى على مذهب مالك.

وهنا لا يغيب عن الالهام ما سجله عبد الواحد المراكشي من أن كثيرا من العلماء ، ممن كانوا قرييين من السلطان ، كانوا يظهرون ما يتفق من علم الحديث والفقه على مذهب مالك ، ويخفون ما كانوا يعرفون من الفلسفة وأعمال الفكر - كنوع من التقية - كما كان يفعل مالك بن وهيب الذي قدر خطوره العلم الجديد ، المتمثل في مذهب الأشعرى ، الذي حملته ابن تومرت معه في عودته من المشرق (٣٤).

مدرسة اشبيلية :

وتأتى مدرسة اشبيلية فى أعقاب قرطبة ، وأقرب الإشبيليين إلى موضوعنا - زمنيا - هو ابن يربوع : أبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعيد (٤٤٤ - ٥٢٢هـ / ١٠٥٢ - ١١٢٨م) . وأصل الرجل من شنترين الغرب ، نشأ في اشبيلية ، وروى فيها عن أبى عبد الله محمد بن منظور ، وعن أبى محمد بن خزرج . كما سمع بقرطبة من أبى القاسم حاتم بن محمد ، وأبى علي الغساني - فكان الرجل فى تكوينه العلمى اشبيلى - قرطبي ، وهو الأمر المقبول بالنسبة للعاصمتين اللتين كانتا تتساهلان فى مجال العلم والثقافة كفرنسى رهان .

وهكذا كان ابن يربوع حافظا للحديث ، عارفا بأسماء رجاله ونقلته ، يبصر المعدلين والمجرحين . وكان أبو علي الغساني يعرف له حقه ويكرمه (٣٥) .

أما محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله المقرئ (ت ٥٠٠هـ / ١١٠٦م) ، وهو من أهل سرقسطة ، فقد أخذ القراءات عن الشيخ القاضى ، الإمام ، أبى بكر بن العربى . ثم انه انتقل إلى حاضرة اشبيلية حيث كان يقرئ الناس (٣٦) .

ويأتى بعد ذلك عياش بن الخلف بن عياش بن مخراش المقرئ (ت ٥١٠هـ /

١ (٣٤) المعجب، ص ١٨٥ .

٢ (٣٥) ابن بشكوال، الصلاة، رقم ٦٤٠، ص ٢٨٧-٢٨٨ .

٣ (٣٦) ابن بشكوال، الصلاة، رقم ١١١٨، ص ٥٠٢ .

١١١٦م) ، وهو البطليرسي الذي سكن اشبيلية . . ولقد روى القراءات عن أبي عبد الله المغامى المقرئ . وكان من نوابغ تلاميذه حتى أنه أصبح استاذ قراءة القرآن الأول باشبيلية (٣٧).

أما محمد بن عمر بن قطرى الزبيدي (ت ٥٠١هـ / ١١٠٧م) ، فهو اشبيلي قد بدأ سماع الحديث في بلده ثم أنه رحل إلى المشرق . ولما عاد درس في اشبيلية قبل أن ينتقل إلى سبتة حيث توفي (٣٨). وعرف أبو عبد الله محمد بن أبي العافية (ت ٥٠٩هـ / ١١١٥م) المعروف بالنحوي والمقرئ جميعها . لنبوغه في هذين العلمين . كما أنه شغل وظيفة الإمام بجامعة اشبيلية ولقد أخذ عن أبي الحجاج الأعلم ، الأديب وغيره . وأصبح من أهل المعرفة في الأدب واللغة أيضا . وكان الناس يأخذون عنه (٣٩).

أبو بكر بن العربي :

وآخر من تذكره من الاشباليين هو أبو بكر بن العربي : محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي (٢١ شعبان ٤٦٨ - ربيع الآخر ٥٤٣هـ / ١١ أبريل ١٠٧٦ - أغسطس ١١٤٨م) ، الذي يعتبر بحق ختام علماء الاندلس ، وآخر أنتمها وحفاظها .

وتتمثل أهمية ابن العربي في عدة نقاط ، أولها : أنه كان في الـ ١٧ (السابعة عشر) من عمره عندما بدأ رحلته العلمية إلى المشرق بصحبة والده في سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م ، أي قبل رحلة ابن تومرت بـ ١٥ (خمس عشرة) عاما . وأنه إذا كان قد بدأ الدراسة في الشام حسب رواية ابن بشكوال ، فإنه يكون قد سافر في

(٣٧) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٩٦٨ ص ٤٤٤ .

(٣٨) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٢١ ص ٥٠٦ .

(٣٩) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٤١ ص ٥١٢ .

البحر إلى هناك مباشرة ، حيث التقى بالشيخ أبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي ،
شيخ الاسكندرية بعد ذلك ، والذي أخذ عنه بها محمد بن تومرت فيما بعد .

أما عن العودة إلى أشبيلية وحده دون والده المتوفى ، فكانت في سنة ٤٩٣هـ /
١١٠٠م ، وعمره وقد استكمل تعليمه ٢٥ (خمسعة وعشرون) سنة ، وهو رقم
قياسي فيما نرى - بالنسبة للمبتدئين من علماء ذلك العصر .

أما عن تحصيله في المشرق فقد التقى بعدد من قدامى الأساتذة ، مثل: أبي
الحسين بن عبد الجبار الصيرفي ، والشريف: أبي الفوارس طراد ، وأبي بكر بن
طرخان ثم أبي بكر الشاشي وأبي حامد الطوسي (الغزالي) وغيرهم .

وفي موسم الحج من سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٦م ، سمع بحكة من أبي علي الحسين بن
علي الطبري ، وغيره . أما بمصر والاسكندرية فلا ذكر لأسماء من أخذ عنهم ابن
العربي من المحدثين بالرغم من أنه كتب عنهم ، كما يقول ابن بشكوال ، واستفاد
منهم وأعادهم . أما عن العلم الذي قدم به إلى بلده اشبيلية في سنة ٤٩٣هـ /
١١٠٠م «فهر علم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة بالمشرق» .

ومن تقييم أبي بكر بن العربي عند ابن بشكوال ، فقد «كان من أهل التفان في
العلوم والاستبحار فيها ، والجمع لها ، متقدما في المعارف كلها ، متكلما على
أنواعها ، نافذا في جميعها ، حريصا على أدائها ونشرها» .

وهو إلى جانب ذلك «ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها» . ويجمع إلى ذلك
كله آداب الأخلاق ، مع حسن المعاشرة ، ولين الكنف ، وكثرة الاحتمال ، وكرم
النفس ، وحسن العهد وثبات الود . ولقد شغل ابن العربي وظيفة قاضي اشبيلية
«فنفذ الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذه أحكامه» . وبعد أن صرف عن القضاء
- لشدته وصرامته كما نرى - «أقبل على نشر العلم وبشه» . وكان ابن بشكوال من
بين تلاميذه الذين قرأوا عليه وسمعوا منه بكل من اشبيلية وقرطبة ، كثيرا من

روايته وتأليفه (٤٠)

والمهم في رحلة ابن العربي العلمية بالشرق أنها تلتقى مع بعض ما قيل عن رحلة ابن تومرت الشرقية ، وما تمّ من لقاء بينه وبين الامام الغزالي وأبي بكر الطرطوشي ، الأمر الذي دعاه المقرئ إلى القول عن ابن العربي أنه « كان قد صاحب المهدي محمد بن تومرت بالشرق ، ولقى أبا بكر الطرطوشي » (٤١).

والحقيقة أن ذلك الأمر مشكوك فيه من عدة وجوه ، منها أن ميلاد ابن العربي سابق على ميلاد ابن تومرت بحوالي ٧ (سبع) سنوات ، الأمر الذي ترتب عليه أن رحلة ابن العربي بدأت في سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، وابن تومرت طفل في العاشرة من عمره (ما بعد ، ص ١٤٤) . ومنها أن عودة ابن العربي إلى اشبيلية حاملاً ما جمعه من علوم الشرق كان في سنة ٤٩٣ هـ / ١١٠٠ م . الأمر الذي يسمح بالقول بأن العلم الذي حصله ابن العربي إلى اشبيلية وقرطبة كان دارجاً أثناء بداية رحلة ابن تومرت في الأندلس ، سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م ، وبالتالي يسمح بالقول بأن ابن تومرت يمكن أن يكون قد تعرف على علم ابن العربي ، أو أن يكون ابن تومرت قد حضر بعض مجالسه ، وابن العربي وقتئذ في الـ ٢٣ (الثالثة والثلاثين) من عمره ، وأنه كان معترفاً باستاذيته بعد ٧ (سبع) سنوات من رجوعه من المشرق.

وبناء على ذلك يمكن أن تكون قصة المقرئ بشأن اللقاء بين ابن العربي وابن تومرت مقبولة ولكن في اشبيلية أو قرطبة ، وليس بعيداً ، مكاناً وزماناً ، في

(٤٠) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٨١ ص ٥٣١-٥٣٢، ولارن الشياهي، قضية الأندلس، ص ١٠٥-١٠٧.

(٤١) المقرئ، نفع الطبيب، ج ٢ ص ٢٧ . وانظر رحلة ابن العربي إلى بغداد ، وفي مجموعة المصادر الاندلسية، رقم ٢٠ لمحمد بن يحيى (ص ٢٩٠ عن التوقيع الخلافي ليوسف بن تاشفين وص ٢٩٩ : عن السزالي عن اللقاء بين الغزالي وابن تومرت).

بغداد حيث المدرسة النظامية وحجة الإسلام الفزالي (٤٢).

أما عن حضور ابن تومرت مجلس الطرطوشي بالاسكندرية بمسكنه في موضع مسجده الآن بشارع الباب الأخضر بحي الجمرك ، فهو موثق من قبل عهد الواحد المراكشي ، وابن خلكان (٤٣).

والذي نود الإشارة إليه هنا هو أن ابن العربي عمل على توحيد المدرستين القرطبية والاشبيلية في مدرسة رائدة يمكن وصلها بالأندلسية ، وخاصة بعد انتقال كثير من علم طلبطة مع علمائها اليها (ما بعد ، ص ١٤٥).

مدرسة المرية :

والمركز العلمي الأندلسي الثالث يتمثل في مدينة المرية ، وهي المدينة البحرية ذات المواصلات السهلة (عن طريق البحر) مع المغرب وشرق المتوسط ، ومصر والشام ، من حيث يكون الدخول إلى الحجاز وبغداد .

وفي ضوء التعديد الزمني بالنسبة لرحلة ابن تومرت يأتي أبو بكر عبد الباقي ابن محمد بن سعيد بن قُرْبَال (٤١٦ - رمضان ٥٠٢ هـ / ١٠٢٥ - إبريل ١١٠٩ م) ، وأصله من وادي الحجارة ، روى عن المنذر بن المنذر ، وأبي الوليد هشام بن أحمد الكنتاني ، وأبي عمر الطلمنكي ، وسكن في آخر عمره بالمرية قبل أن يتوفى بمدينة بلنسية ، أما عن تقييمه العلمي : «فكان نبيا ، ذكيا ، حافظا ،

(٤٢) انظر القرى، نقيح الطيب، ج ٢ ص ٢٧، هـ - حيث الاشارة التي يسجلها المحقق تعليقا على صحبة محمد بن تومرت لابن العربي، في الرحلة العلمية المشرقية، وحيث النص : " إن في هذا القول (الصحة)، نظرا" - مع إضافة نص الحلل الموشية الذي يقول : "وسئل ابن العربي هل لقي الإمام المهدي، وذلك في مجلس عبد المؤمن، فقال : لم ألقه وإنما سمعت به" (الحلل، ص ١٤٨).

(٤٣) المعجب، ص ١٧٩، ووفيات الأعيان، ج ٥ رقم ٦٨٨، ص ٤٦ .

أديبا شاهراً (٤٤).

ويأتى بعد ، ابن شبيب : أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الملك (٤٣٠ - شعبان ٥١٤ هـ / ١٠٣٨ - أكتوبر ١١٢٠ م). وهو من أهل المرية حقا ، سمع من أبي عمر بن عبد البر ، وروى عنه ، وعن أبي تمام القطيني ، المقرئ النحوي ، وعن أبي القاسم خلف بن إبراهيم المقرئ الطليطلي وغيرهم . هذا ، كما أقرأ الناس القرآن بجامع المرية (صانه الله) (٤٥) .

أما البلخي : أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن يوسف الخولاني (ت ٥١٥ هـ / ١١٢١ م) فهد من علماء المرية أصحاب الرحلة ، ولقد لقي جماعة من العلماء بالشام وغيرها من البلاد . ومن حدث عنهم أبو علي الحسن الأهوازي ، وأبو الفرج سهل بن بشر الاسفراييني ، وأبي الوحش شبيب بن مسلم ، وكذلك أبو حامد الطوسي (الغزالي) ، وغيرهم .

ويوصف البلخي بأنه «كان رجلاً صالحاً ، متقللاً من الدنيا ، مقبلاً على ما بعينه ، لم يزل طالب علم إلى أن مات» (٤٦) .

ويعتبر أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي (رمضان ٤٤١ - ١٦ جمادى الأولى ٥٣٢ هـ / يناير ١٠٥٠ - ٢ يناير ١١٣٧ م) من كبار علماء الأندلس ، فهد إن لم يكن صاحب رحلة إلى المشرق ، فهو معتبر - في رأينا - ممثلاً لعلوم الأندلس الإقليمية وثقافتها المحلية . وهو إذا كان قد توفي متأخراً بعض الشيء سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ م ، فإنه في مطلع سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م يناهز الستين من

(٤٤) ابن بشكوال، الصلاة، رقم ٨٢٢ ص ٣٧٩ .

(٤٥) ابن بشكوال، الصلاة، رقم ٧٩٣ ص ٣٦٦ - مع الإشارة إلى أن عبد الله القطان كان يشي عليه، كما كان يصحح سماعه من ابن عبد البر، وهو الأمر الذي كان ينكره البعض .

(٤٦) ابن بشكوال، الصلاة، رقم ١١٤٩ ص ٥١٦ .

العمر . وعن أساتذته ، فقد روى عن أبي العباس العذري كثيراً ، واختص به ، وسمع من القاضي أبي اسحق بن وردون ، والقاضي أبي بكر بن صاحب الأحباس ، وغيرهم .

هذا ، كما أجاز له أبو عمر بن عهـد البر ، وأبو الوليد الباجي ، ماكانا قد رواياه لابن بشكوال وزملائه .

وفي تقييم ابن بشكوال لأبي الحسن الجذامي ، قال : « كان من أهل العلم والمعرفة والذكاء والفهم ، وجميع في تفسير القرآن كتابها حسناً » . كما كان « له معرفة بأصول الدين » .

هذا ، وقد أخذ الناس عنه ، كما كتب لابن بشكوال وزملائه بإجازه ما رواه ، الأمر الذي يؤكد ما نراه من أن الرجل كان ممثلاً فعلاً لعلوم الأندلس وثقافتها في مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م (٤٧) .

مدرسة غرناطة ،

بعد ذلك تأتي غرناطة في المركز الرابع كمدرسة علمية مرموقة ، تبعاً للنخبة المنتقاة من علماء الأندلس الذين كان يمكن أن يكونوا ممن التقى بهم محمد بن تومرت ، وهو يقوم برحلته العلمية هناك .

ويعتبر أبو الحسن علي بن أحمد بن كرز الأنصاري (توفي بغرناطة في شهر رمضان سنة ٥١١ هـ / ديسمبر - يناير ١١٧ - ١١١٨ م) من أهل غرناطة ، من كبار الأساتذة المستلثين للثقافة الأندلسية في بداية القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م . فقد روى عن أبي القاسم المقرئ ، وأبي عبد الله الطرقي المقرئ ، وأبي محمد غانم المالقي ، وغيرهم . وكانت له عناية خاصة بالأقراء وسماع العلم (الحديث) من الشيوخ ،

وروايته عنهم. وفي ذلك يقيّم بأنه «كان ثقة فاضلاً» (٤٨).

أما ثانياً علماً، غرناطة في قائمتنا المنتقاة، فهو أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري (٤٤٤ - ١٣ من محرم ٥٢٨ هـ / ١٠٥٢ - ١٣ نوفمبر ١١٣٣)، من أهل غرناطة، درس بقرطبة فروى عن أبي علي الغساني، والقاسمي أبي الأصمغ بن سهل، ومحمد بن سابق الصقلي. وعن معارفه العلية «كان من أهل المعرفة بالأدب، واللغات والتقدم في القراءات، كما كانت له مشاركة في الحديث. أما عن تقييحه العلمي، فكان «من أهل الرواية والانتقان والدراسة. مع الدين والفضل»، وفي مجال نشر العلم: سمع الناس منه كثيراً، كما بحث لابن بشكوال باجازه خطية لما رآه (٤٩).

من المدن الأندلسية المختلفة:

ونأتى بعد ذلك ببعض نماذج من مشاهير المدن الأندلسية، من: مالقة وشلب وتظيلة ومرسية وتظيلة. أما عن طرطوشة فجعل مثلها شيخ الاسكندرية الشهير أبا بكر الطرطوشي.

مالقة:

ومثل مالقة هو محمد بن سليمان بن خليفة (٤١٧ - ٥٠٠ هـ / ١٠٢٦ - ١١٠٦ م)، ويعتبر من النماذج المعاصرة لبداية رحلة ابن تومرت، وإن كان يبلغ الـ ٨٤ (الرابعة والثمانين) عند وفاته في أول القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م. ولقد روى عن أبي عبد الله بن عثاب، والقاضي أبي الوليد الباجي. واستقصى ببلده مالقة،

(٤٨) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٩٠٨ ص ٤١٧.

(٤٩) ابن بشكوال، الصلة، رقم ٩١٢ ص ٤١٩ - حيث الإشارة إلى أن مصدر هذه المعلومات هو صهر الأنصاري: أبو عبد الله النميري زميله في الدراسة.

وسمع منه الناس كثيراً (٥٠)

شليبا ، أما عن مثل شلب ، فهو كبير المفتين بها : محمد بن أحمد بن مسعود (٤٤٠ - ذو الحجة ٥٠١ هـ / ١٠٤٨ - يولييه ١١٠٨ م) الذي يعتبر من النماذج الجيدة لمعاصرتة لرحلة محمد بن تومرت . فلقد سمع صحيح البخاري من أبي عبد الله بن منظور باشيبيلية وأخذ بقرطبة . وفي علمه : « كان حافظاً على مذهب مالك وأصحابه ، بصيراً بالفتيا ، عارفاً بالشروط وعلمها - وسمع الناس منه » .

وفي تقييمه : « كان جيد الفهم ، تغلب الدراية عليه عن الرواية ، وله كتاب في الوثائق لم يكمله » (٥١) .

تصليحة ، ومثل تطيلة هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعيد بن الخلف الرعيني (٤٤٦-٥٠٧ هـ / ١٠٥٤ - ١١١٣ م) ، الذي كانت له رحلة حج . فبعد سماعه بسرقسطة من القاضي أبي الوليد الباجي ، سمع بالاسكندرية من أبي الفتح السمرقندي وغيره ، وبمكة لقي أبا معشر الطبري ، وقرأ عليه القرآن بالروايات (المختلفة) . أما عن تقييمه « فكان ثقة خياراً » . وقد أخذ عنه بعض زملاء ابن بشكوال . وكانت وفاته بأربوطة غير بعيد من مرسية (٥٢) .

مرسية :

وعالم مرسية هو : أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر (ت ٥٠٧ هـ / ١١١٤ م) . روى عن أبي الوليد بن سيقل الذي أجاز له ما رواه عنه . وفي تقييمه قيل أنه كانت له عناية ودراية ، وقد أخذ عنه بعض زملاء ابن بشكوال . وتوفي

(٥٠) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٢٦ ص ٥٠٨ .

(٥١) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٢٩ ص ٥٠٩ .

(٥٢) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٣٦ ص ٥١١ .

ابن طاهر بيلنسية ، وسبق ميثا إلى بلده مرسية ، حيث دفن (٥٣).
طليطلة ، أما عن ممثل مدينة طليطلة ، فيظهر في قرطبة كممثل للبقية
الناقية من تراث المدينة التي سقطت منذ سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م.

والعالم الطليطلي أصلا ، هو : أبو عامر محمد بن أحمد بن اسماعيل ...
(٤٥٩ - ٥٢٣ هـ / ١٠٦٦ - ١١٢٨ م) . روى بيلده (طليطلة) عن أبي المطرف
عبد الرحمن بن سلمه ، وأبي المطرف عبد الرحمن بن أسد ، وأبي أحمد جعفر بن
عبد الله وأبي حفص بن كريب ، والقاضي محمد بن خلف بن السقاط ، والقاضي
أبي بكر البياسي ، ومرزوق بن فتح ، وأبي يعقوب بن حماد ، ومحمد بن محمد بن
جماهر ، وغيرهم.

هذا . كما أجاز له أبو بكر بن جماهر بن عبد الرحمن ، والقاضي أبو الوليد
الباجي ، وأبو العباس العذري . وهنا ينص ابن بشكوال على أنه رأى خط جميع من
تقدم من أصحاب الأجازات له من الشيوخ الا خط جماهر بن عبد الرحمن . وكان أبو
عامر معتنيا ببقاء الشيوخ ، جامعا للكتب والأصول ، وكانت عنده جملة كبيرة من
أصول علماء طليطلة وفوائدهم ، كما كان مهتما بذكر أخبارهم ... الأمر الذي جعله
مصدرا لاغنى عنه في معرفة التراث العلمي الطليطلي.

هذا ، ولقد سمع من أبي عامر بعض زملاء ابن بشكوال ، ولكن البعض منهم
ترك «التحدث عنه لأشياء اضطرب فيها من روايتها» وكان ابن بشكوال من أولئك
الذين شاهدوا (ذلك الاضطراب) وتأكدوا منه (٥٤).

طرطوشة : أبو بكر

وأخيرا يأتي ممثل طرطوشة الذي حضر مجلسه وسمع منه محمد بن ثومرت فعلا

(٥٣) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٤، ص ٥١٣ .

(٥٤) ابن بشكوال، الصلة، رقم ١١٥٧، ص ٥٢٠-٥٢١ .

، ولكن في الاسكندرية ، وهو في طريق العودة إلى بلاده بالمغرب الأقصى بعد حوالي ١٥ (خمسة عشر) عاما من سماع ابن العربي له (ما سبق ، ص ١٣٦)

والطرطوشي (السكندري) هو : أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان ابن أيوب الفهري ، المعروف بابن رندقة (ت شعبان ٥٢٠ هـ / أغسطس ١١٢٦ م). وعند دراسته تتلمذ على القاضي أبي الوليد الهاجي بمرسطة ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه (الحديث) ، وأجاز له (مارواه) ،

ورحل الطرطوشي بعد ذلك إلى المشرق - فيما كان يشبه البعثة العلمية الآن بالخارج - فحج ، ودخل بغداد والبصرة فتفتقه عند أبي بكر الشاشي ، وأبي أحمد الجرجاني ، وسمع بالبصرة أبا علي التستري . ثم أنه سكن الشام (دمشق) مدة ، ودرس بها .

وفي وصفه قيل : « كان إماما هاملا ، زاهدا ، ورعا ، دينيا ، متواضعا ، متقشفا ، متقللا من الدنيا ، راضيا منها باليسير » .

أما من تعظيم القاضي أبي بكر المعافري - أستاذ ابن بشكوال - له ، « فوصفه بالعلم والفضل والزهد في الدنيا والانهال على ما يمينه . وعرف الطرطوشي بالزهد والتقوى ، فقد كان يفضل العمل للأخرة على العمل للدنيا (٥٥)

والأمر المستغرب هو أن ابن بشكوال يَرُ مَرَّ الكرام على الفترة الحافلة من حياة الطرطوشي بالاسكندرية ، دون ذكر لارتباطها بالأحداث السياسية والثقافية في

(٥٥) - ابن بشكوال الصلة ، رقم ١١٥٣ ص ٥١٨ - حيث النص على أن من يعمل للأخرة يحصل له أمر الدنيا والأخرة ، وأنه كثيرا ما كان يشتد في ذلك .

إن لك عبادا فطنا

خلفوا الدنيا وخافوا الفتن

مكروا فيها فما علموا

أنهم لم يستغنوا

خلفوها فجاءوا ففسدوا

صالح الأعمال فيها فسدوا

مصر الفاطمية في مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، أو الإشارة إلى ما جعل الاسكندرية في عصر الطرطوشي مركزاً علمياً مرموقاً يتردد عليه المغاربة والأندلسيون في ثانيا رحلتهم إلى الحج التي صارت رحلة علمية بالنسبة لكثير منهم . ومنهم محمد بن تومرت الفقيه السوسى مؤلف العقيدة والمرشدة ، ومهدي المرحدين واضع اللبئات الأولى في الدولة المرينية ، وهو ما عرض له عبد الواحد المراكشى (٥٦) .

ويظهر من استقصاء مجموعة العلوم الدارجة في اشبيلية ومدن الأندلس الإقليمية الأخرى أن تلك المجموعة تشتمل قائمة لا تختلف كثيراً عن قائمة علوم قرطبة النوعية ، وإن اختلفت عنها نسبياً . فالحديث وما يلحق به من أسماء الرجال المعروضين لمنهج التعديل والتجريب ، له الغلبة بـ ٢٢ (ثنتين وعشرين) نقطة ، تملوه القراءات (القرآنية بـ ٩ (تسع) نقاط ثم اللغة والأدب والنحو والشعر بـ ٦ (ست) نقاط . وبدلاً من الرأي (والاستنباط) يظهر مصطلح جديد ، هو : الدراية (حيث : تغلب الدراية عليه عن الرواية) بـ ٣ (ثلاث) نقاط ، والفقه والفلسفة بنقطتين ، وأصول الدين بنقطة واحدة ، وكذلك الزهد أو التصوف بنقطة واحدة .

ومن هذا العرض لثقافتى قرطبة والأقاليم الأندلسية في مطلع القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م ، تتضح سيادة العلوم الدينية على غيرها من العلوم المدنية ، نظرية كانت أم تطبيقية . ومن بين علوم الدين كانت تسود علوم الفروع ممثلة في علوم الحديث والسنة أنشأ كان لها فضل في تقدم علوم الخبر وسير الرجال بمعنى التاريخ . وأمام سيادة العلوم التنقلية هذه تراجع استخدام العقل والرأي عند العلماء ، الأمر الذى كانت له ردة العكسية التى تتمثل في ظهور مبدأ «تغلب عليه الدراية عن الرواية» أو «له دراية وعناية» ، وهو المبدأ الذى بدأت تهب رياح على المغرب القادمة من العراق حيث نظامية بغداد ، وإمامها أبو حامد الطوسى (الغزالي) .

الذي أخذ على عاتقه إحياء علوم الدين ، ليس عن طريق العقل فقط ، بل بشئ من الروحانية التي تنفث فيه الحياة من جديد ، عن طريق التوفيق بين المذاهب المختلفة ، فكان كتابه «إحياء علوم الدين» . وفي مقابلته ظهر كتاب «سراج الملوك» للطرطوشي ، الذي وقع به هو الآخر رؤية الزهد في الدنيا لينفتح الطريق أمام الدنيا والآخرة (مسبق ص ١٤١) . وعن هذا السبيل انفتح الطريق أيضا أمام محمد بن تومرت ، في محاولة التوفيق بين المذاهب الإسلامية أو التلقيق ، فكان مذهبه المبتكر في «التوحيد» دعوة إلى رفع راية «التجديد» .

الرحلة المشرقية وعودة محمد بن تومرت إلى المغرب

إذا كانت معلوماتنا عن رحلة ابن تومرت العلمية في الأندلس لاتتعدى تحديد التاريخ ما بين سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م وسنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م ، إلى جانب أنه دخل قرطبة ، وأخذ عن أساتذتها العلم ، وأنه خرج من الأندلس نحو الشرق في إحدى السفن المقلعة من صيناء المرة - حيث أخذ العلم أيضا - نحو بلاد الشام (٥٧) . فإن معلوماتنا قليلة أيضا عن رحلته العلمية المشرقية ، كما أنها أيضا ليست أكيدة . ويكفي أن الرواية التي تقول إنه التقى بالفزالي في العراق . وفي نظامية بغداد على وجه الخصوص ، وأنه أخذ عليه العلم ، وتجاوز معه فيما ألم بكتابه «إحياء علوم الدين» من الرفض الذي بلغ إلى حد الحرق هي الأخرى لاشك في صحتها فقط ، بل مقطوع بغلطها تماما (٥٨) .

(٥٧) انظر البيهقي، ص ٢٩ و١- حيث تتلمذ بها وقرطبة على القاضي ابن حمدين (عن الرركشي وروى، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص ٣- حيث تأصيل الرواية بنسبتها إلى ابن وسنار، خدام المهدي من أهل الخمسين ، وترجيح سنة ١١٠٧/٥٠١م كبداية للرحلة على سنة ١١٠٦/٥٠٠م، والنص على أنه سار إلى الإسكندرية، وهو الأمر المفلوط من حيث إنه أخذ عن الطرطوشي بالإسكندرية في رحلة العودة، وليس في رحلة الذهاب (كما يأتي) .

(٥٨) انظر ما سبق من ابن العربي ورحلة إلى المشرق وأخذه عن الفزالي، ص ١٣٧ والهوامش، وعن حرق كتاب الإحياء بالأندلس، انظر ج ٤ ص ٤١٥ وما بعدها، وعن الحكايات القصصية =

بداية الرحلة الشرقية لطلب العلم :

إن غياب المعلومات عن رحلة محمد بن تومرت العلمية في الأندلس يعنى أن الرجل لم يمض طويلا وقت بالأندلس ، ولا بأس أن كانت رحلة الأندلس مجرد عبور أكثر منها إقامة استقرار . وأغلب الظن أنها لم تتعد تاريخيا سنتى ٥٠٠ هـ / ١١٠٦م - ٥٠١ هـ / ١١٠٧م لرحلة الأندلس ، والتي تشير بعض الروايات إلى أنه أخذ فيها على القاضي ابن حنبلين الاشبيلي ، بقرطبة (مات، ص ١٢٥). أما عن المحطة التالية التي قصدتها مركب المربة فالدارج أنها بلاد المشرق بشكل عام بدءاً ببلاد الشام ، وإن لم تحدد الميناء الذي نزل فيه ابن تومرت ، والذي ينبغي أن يكون من موانئ الجنوب ما بين صير وعسقلان وعكا ، بعيداً عن تهديدات الحروب الصليبية الناشئة وقتئذ (٥٩). أما عن الرواية التي تجعل نزوله في الاسكندرية

لا اجتماع ابن تومرت بالفزالي انظر عبد الواحد المراكشي، والمعجب، ص ١٧٨- حيث : وقيل إنه لقي أبا حامد الفزالي بالشام أيام تزعمه، فإله أعلم، ص ١٧٩- حيث وحكى أنه ذكر للفزالي ما فعل أمير المسلمين بكنبه التي وصلت إلى المغرب، من إحراقها وإفسادها، وابن تومرت حاضر في المجلس، فقال الفزالي حين يلقه ذلك : ليلذهبن عن قليل ملكك، وليقتلن ولده، وما أحسب المقولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا، فكان ابن تومرت يحدث نفسه أيضاً بالقيام عليهم، فقرأ طمعه، وكرّ واجعا إلى الاسكندرية، وقارن ابن القطان، وتظم الجسان، ص ١٦- حيث تطورت الرواية إلى حكاية تشيلية طريفة منسوبة إلى رجل صالح من أهل فاس، ومشهدا في حلقة الفزالي بالمدرسة النظامية ببغداد. وتبدأ بدخول رجل كثر اللحية على رأسه كرازي صول، وهو محتجب بكساء - وهي الملابس المغربية وقتئذ. ويسأل الفزالي الرجل بعد أن عرف أنه من أهل المغرب، إن كان قد دخل قرطبة، وعما إذا كان قد انتهى إليهم كتاب الإحياء ؟ ويخبره الرجل بعد وجوم وخجل وصمت : أن القوم مقلدون، ولم يعرفوا قدره، وأنهم رجعوا إلى سلطان العدو والأندلس في شأنه، وأنه ينبغي أن يحرق، فأمر بإحراقه. وتغير وجه أبي حامد الفزالي ومدّ يده للدعاء والطلبية يؤمنون، فقال في دعائه : اللهم سرق ماكنهم كما سرقه، وأذهب دولتهم كما أحرقره. وعندئذ يقوم أبو عبد الله السوسي (محمد بن تومرت)، فيقول : ادع الله أيها الامام ان يكون ذلك على يدي، وكررها مرات ثلاث حتى آمن الفزالي على طلبه.

(٥٩) انظر فيليب حتى، تاريخ العرب المطول، ج ٢ ص ٧٥٨-٧٥٩.

فهي تخلط ما بين طريق رحلة الذهاب ورحلة العودة (٦٠).

وفي الشام قرأ على الإمام أبي عبد الله الحضري (٦١) . ومن الشام (أول بلاد المشرق) سار ابن تومرت إلى مكة لقضاء فريضة الحج ، قبل أن يدخل العراق ، حسبما تنص على ذلك رواية البيهقي (٦٢) ، وهو الاستفتاح المبارك بالنسبة للشباب المتحمسين في عنفوان فتوته لتحصيل العلم (٦٣) . ومن مكة دخل العراق كما تشير غالبية الروايات ، صراحة أو ضمنا (٦٤) . وواضح أن المقصود بالعراق هي

(٦٠) انظر البيهقي، ص ٢٩- حيث : أخذ العلم بقرطبة ثم المرية، ومنها رحل إلى المشرق عن طريق البحر فحل بالاسكندرية، وقارن عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٧٨- حيث رحل إلى المشرق في شهر سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م في طلب العلم وانتهى إلى بغداد، ثم رواية أخرى عن لقائه الغزالي ببلاد الشام أيام تزدهد، ابن القطان، نظم الجمان، ص ٤- حيث ثم مشى من قرطبة إلى المرية فدخل منها في مركب إلى المشرق، ابن الأثير، ج ١ ص ٥٦٩ (سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م) - حيث : رحل ابن تومرت في شبيبته إلى المشرق في طلب العلم، ابن خلكان، الوفيات، ج ٥ ص ٤٦- حيث نفس رواية ابن الأثير عن الرحيل إلى المشرق في شبيبته طالبا العلم، قارن النويري، نهاية الأرب (أبو ضيف)، ص ٣٩٥، وابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٧٢- حيث رحل إلى المشرق في طلب العلم، وانظر الحلل المشية، ص ١٠٤- حيث : وجاهز فيها (٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) من مرسى المرية في مركب إلى الشام.

(٦١) الحلل المشية، ص ١٠٤ .

(٦٢) البيهقي ص ٢٩ .

(٦٣) انظر ابن القطان، ص ٥- حيث النص على أنه في عام ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م هاجده أهل التحليق من العارفين به - رضي - وباهوه ببعض سره.

(٦٤) البيهقي، ص ٢٩ (بعد أداء فريضة الحج)، عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٧٨ (حيث انتهى إلى بغداد) ، ابن الأثير، ج ١ ص ٥٦٩ (حيث النص على أنه رحل إلى المشرق، ولكن اجتماعه بالغزالي والطوطوش كان بالاسكندرية مع مفي اللقاء مع الغزالي ، ابن خلكان، ج ٥ ص ٤٦ (حيث انتهى إلى العراق، واجتمع بالغزالي والكيا الهراسي والطوطوش، وغيرهم ، النويري (أبو ضيف)، ص ٣٩٦ (حيث وصل في سمره إلى العراق واجتمع بالغزالي-وقيل لم يجتمع به)، روض القرطاس، ص ١٧٢ (حيث الرحلة إلى المشرق، ولقائه للغزالي وأخذ منه لمدة ٣ سنوات متوالية)، الحلل المشية، ص ١٠٤ (حيث قرأ ببغداد على الإمام الغزالي).

بغداد عاصمة الخلافة ، حيث لقي فخر الإسلام أبا بكر الشاشي (ت ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) فأخذ عليه شيئا من أصول الفقه ، وأصول الدين (٦٥) . هذا ، كما سمع هناك الحديث على الشيخ المبارك بن عبد الجبار ، ونظرانه من شيوخ المحدثين (٦٦) . أما عما يقال عن أخذه العلم عن الفزالي ، فمعلومات مغلوطة خاطئة أو أسطورية شعبيه مما سبقته الإشارة إليه (٦٧) . ومن الواضح أن تلك الروايات لم تظهر إلا بعد رحيل ابن تومرت إلى الشرق والعراق ، ابتداء من سنة ٥٠٣ هـ / ١١١٠ م ، حينما قام قاضي قرطبة ابن حمد بن بمقاطعة كتب الفزالي وخاصة الإحياء (٦٨) وهو الأمر الذي قد يفسر رواية صاحب كتاب روض القرطاس ، ابن أبي زرع ، التي تنص على أن ابن تومرت لقي الفزالي وأخذ عنه لمدة ٣ سنوات متوالية (٦٩) .

والحقيقة أن شيوخ رواية لقاء ابن تومرت بالفزالي ، رغم الشك فيها أو الرفض لها إطلاقا ، إنما يعبر عن هيمنة فكر الفزالي الجديد ، في إحياء علوم الدين ، الذي يناهض علم فقهاء المحدثين من النقلة والمقلدين ، والذي يدعو إلى رحابة التفسير

(٦٥) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٧٨، والهوامش حيث الإشارة إلى أن المقصود بأصول الدين هو علم الكلام-الذي يقصد به الدفاع عن الدين باستخدام الأساليب العقلية والمنطقية، كما يرى، وانظر محمد شاکر الکتبی هبون الترابی، ج ٢ ص ٢١- حيث يذكر في وقفات سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م، وينص على أن أبا بكر شاشي الأصل (من منطقة طشقند : مدينة الشاش أي عاصمتها)، خارق المولد، معروف بالمستظهری. وهو شافعي المذهب، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد في شعبان سنة ٥٠٤ هـ / فبراير ١١١١ م إلى حين وفاته.

(٦٦) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٧٨ .

(٦٧) انظر ابن الأثير، ج ١ ص ٥٦٩، حيث التعليق على لقاء الفزالي بالقول : والصحيح أنه لم يجمع به، وما سبق، ص ١٤٤ .

(٦٨) انظر ج ٤ ص ٤١٥ وما بعدها .

(٦٩) انظر الهامش السابق رقم ٦٤ ص ١٥٠، وربما كان الصحيح أن يقال إنه دأب على الدراسة المنتظمة في المدرسة النظامية لمدة ٣ سنوات على الشاشي فيما كان يتولى التدريس بالنظامية : ٥٠٤ هـ / ١١١١ م، ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م.

العقلي والتأويل ، كما الأشعرية ، مع الالتزام بالروحانية الزاهدة في الدنيا ، وبالتالي لم تشمل المذاهب والفرق الإسلامية تحت رايات المآخاة في الإسلام ، والروحانية في المعاملات ، وبالتالي الوجدانية في الفكر اللامصلحة أو التوحيد المجرد - رغم ما في الإحياء من الإغراق في الأصولية الظاهرية والحشوية (المادية) في عدد من المواضع (٧٠) .

عصر الفزالي :

والحقيقة ان بغداد ومدرستها النظامية الذائعة الصيت جعلتا من العراق أهم المراكز العلمية والثقافية في عالم الاسلام ، في الفترة المتأخرة من القرن الخامس الهجري ١١ م ، في المدة التي ولي فيها الفزالي التدريس بالنظامية وحتى وفاته في مطلع القرن السادس الهجري ١٢ م ، فكان تلك الفترة هي « عصر الفزالي (حجة الإسلام) » ، عصر ملكشاه (ملك الملوك) ، آخر عظماء سلاطين السلاجقة - آخر أمجاد بغداد على المستويين : السياسي والحضاري . ومرشدنا إلى ذلك هو كتاب عيون التواريخ لابن شاکر الكتبي ، بتاريخه السياسي ووقايته الحضارية . في الفترة التي تبدأ بموت الفزالي سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م وتنتهي بعد عدة سنوات . فالفترة تزخر بعلماء بغداد وبلاد العراق من كبار الأساتذة في مختلف فنون العلم من دينية وفكرية ، لاسيما علم الكلام ، أحد فروع الفلسفة الإسلامية أو العربية العامة ، وقاعدة المذهب الأشعري الذي بدأ في الانتشار الواسع من ذلك الوقت.

(٧٠) انظر للمؤلف تاريخ المغرب العربي، ج٤ ص٤١٦ وما بعده، وعن تقييم الإحياء، انظر ابن شاکر الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢ ص٤٠٤- حيث النص على أنه "قبل فيه أنه لو ذهبت كصب الإسلام وبقي الإحياء لأغنى عما ذهب"، ثم وأول ما دخل الإحياء، العرب أنكروا فقهه، وصنفوا عليه "الإملاء في الرد على الإحياء". هذا كما كان ابن الجوزي يقول : "وقد جمعت أغلاط الكتاب، وسميته : "إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء". وأنكروا عليه ما فيه من الأحاديث التي لم تصح، ومثل هذا يجوز في الترغيب والترهيب.

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن المذهب الأشعري يقوم على قواعد المذهب الشافعي من جهة وأصول علم الكلام الذي أصبح من قواعد علم أصول الدين من ناحية أخرى.

ولاشك أن أهم ما يميز عصر الغزالي في بغداد والعراق على أواخر القرن الخامس الهجري / ١١ م هي ظاهرة ثلاثي المذاهب ، وتفاعل المدارس العقلية والعقلية فيها يشبه عصر التنوير . والساذج التي يمكن أن نسترشد بها في تأكيد الظاهرة ، تتحلل في عدد من مشاهير العلماء الذين يمثلون هذا الاتجاه التنويري أو العقلاني.

فيألى جانب الشافعي (ت ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) الذي أخذ عنه ابن تومرت كان الشهرستاني ، صاحب الملل والنحل (أبو الفتح محمد بن أبي القاسم - ت ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م) ، المتكلم عل مذهب الأشعري والذي يوصف بأنه إمام بارع في الفقه والكلام (٧١).

والمهم تاريخيا في بقية الترجمة هو أن الشهرستاني دخل بغداد وأقام بها ٣ (ثلاث) سنين (نفس المصدر) ، الأمر الذي لا يمنع من تأثر ابن تومرت بعلمه وقتذاك (٧٢). أما الفراء (الحسين بن سعود - ت ٥١٠ هـ / ١١١٦ م) الفقيه الشافعي فكان إلى جانب روايته للحديث واشتغاله بالتفسير يمارس اتجاهات زهدية صوفية . منها أنه « كان يأكل الخبز البحت ثم صار يأكله بالزيت » (٧٣).

ومن أصحاب الاتجاهات الصرفية أيضا الموصلي الذي أقام ببغداد مدة مشغولا

(٧١) انظر محمد بن شاکر الکتبی، عیون التواریخ، ج ١٢ ص ٤٦- حيث يذكر عن الشهرستاني في وفیات سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م أنه برع في الفقه وقرأ الکلام علی أبي القاسم الأنصاري. وله من الکتب غیر الملل والنحل، کتاب "نهاية الإقدام فی علم الکلام" .

(٧٢) نفس المصدر .

(٧٣) ابن شاکر الکتبی، عیون التواریخ، ج ١٢ ص ٦٦، والهامش حيث تحدید لغاته فی السجوم

الزاهرة بسنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م .

بالحديث والفقه قبل أن يلى قضاء الموصل ، وهو : الشهرزورى النعموت المرتضى
(أبو محمد عبد الله بن القاسم - ت ٥١١ هـ / ١١١٧ م) ، وله شعر واثق يقول
فيه على طريقة المتصوفة:

لمعت نارهم وقد عسعس الليل وميل الحادى وحادى الليل
فأولتها وفكرى من البين عليل ، ونحط عيني كليل
وفؤادى ذاك الفؤاد المعنى وغرامى ذاك الغرام الدخيل (٧٤)

ومن أصحاب الاتجاهات الفكرية الفلسفية يذكر الأطرابلسى (نسبة الى طرابلس
الشام توفيق بن محمد - ت ٥١٠ هـ / ١١١٦ م) الذى كان يميل إلى مذهب
الأوائل ، الأمر الذى جعله موضع الاتهام بقلة الدين (٧٥)

ومن مثلى الاتجاهات العلمية العقلانية : الشاعر البغدادى ابن الهبارية (محمد
بن محمد الشريف العباسى - ت ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م) ، الذى قدم أصبهان على
ملكشاه والوزير نظام الملك (صاحب كتاب سياسة نامه : كتاب السياسة) ، فلم
يظفر من الزبارة بشئ ، فكتب بيتين من الشعر فى ذم العقل والفضل ، هما :

تجاهلت لما لم أر العقل نافعاً وأنكسرت لما كنت بالعالم ضائعاً
وما نفعى علم وعقلى وفطنى إذا بت صفر الكف والكيس جانبا (٧٦).

ومن مسائل الخلاف الصعبة بين أصحاب العقل وأصحاب النقل موضوع فناء
الجسم الانسانى بعد الموت ، وهل يكون البعث بالجسد أم بالروح والنفس ، وهى

(٧٤) ابن شاکر الکتبی، عیون التواریخ، ج ١٢ ص ٧٣-٧٤- حيث المرتضى هذا هو القاضى کمال
الدين بن الشهرزورى، وأنه کان ملیح الوعظ- والقصيدة فى ٧١ بيتاً.
(٧٥) ابن شاکر الکتبی، عیون التواریخ ج ١٢ ص ٦٧- حيث الإشارة إلى أنه ولد بطرابلس وسكن
دمشق.

(٧٦) ابن شاکر الکتبی، عیون التواریخ، ج ١٢ ص ٥٤، ٥٩ .

المسألة التي كانت تؤرق ابن أبي كديبة القيرواني (محمد بن عتيق بن أبي بكر - ت سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م) ، فرغم أن الرجل يوصف بالأشعري المتكلم ، بناء على تكوينه العلمي المتين على المستوى العقلي ، إذ درس الأصول بالقيروان على ابن حاتم صاحب ابن الباقلاني ، كما درس في العراق علم الكلام بالنظامية ، إلا أنه ظل صلباً في الاعتقاد . فهو لا يوافق على رأي أبي العلاء المعري الذي يقول فيه :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة ان يبكوا

نحطمنسا الأيام حتى كأننسا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ويرد عليه قائلا :

كذبت وبيت الله حلفه صادق سيبكنسا بعد النوى من له الملك

وترجع أجساما صحاحا سليمة تعارف في الفردوس ما عندنا شك (٧٧).

وآخر من تقدمه في هذا المقام هو شيخ الحنابلة ببغداد ، وهو : أبو الوفاء بن عقيل (على بن مقبل بن محمد - ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م - ٥١٣ هـ / ١١١٩ م) ، تلميذ القاضي أبي يعلى بن الفراء في الفقه ، والذي سمع الحديث الكثير ، وقرأ الأدب والفرائض والوعظ ، كما درس الأصول على أبي الوليد المعتزلي ، فترى أنه كان نموذجاً غريباً من الحنابلة المعروفين بتشددهم المذهبي ، فقد كان الرجل هذا « يجتمع بجميع العلماء من كل مذهب ، وربما لأمه بعض أصحابه فلا يلوي إليهم. (٧٨) ».

ونموذج ابن عقيل هذا يوضح أن ثقافة بغداد - ثقافة المدرسة النظامية - كانت قد وصلت إلى مرتبة العالية على جميع مستويات العقل والعقل ، وأنه كان بغداد - وقت رحلة ابن تومرت العلمية إلى المشرق والعراق - طبقة من العلماء المتميزين

(٧٧) ابن شاکر الکتبی، عیون التواریخ، ج ١٢ ص ٨٥-٨٦ .

(٧٨) ابن شاکر الکتبی، عیون التواریخ، ج ١٢ ص ٩٠ .

من كل المذاهب ، ترعى حقوق التقاليد المتوارثة ، ولا تنكر فضيلة العقل ، وسيلة الاستنارة ، وكل ذلك يمكن أن يقدم تفسيراً منطقياً مقبولاً لحركة الإحياء الدينى التى فجرها الغزالى وما يقابلها من حركة التجديد والتوحيد التى قام بها محمد بن تومرت - تلميذ الغزالى الروحى على الأقل - فى بلاد المغرب والأندلس (٧٩).

عودة محمد بن تومرت إلى المغرب ،

الأمرياء المعروف ، الناهى عن المنكر ،

لأبأس فى قبول التاريخ الذى يقدمه ابن أبى زرع للعودة إلى المغرب ، وهو : ربيع الأول من سنة ٥١٠ هـ / ١٤ يولييه ١١١٦ م (٨٠) وبذلك يكون محمد بن تومرت قد أقام حوالى ١٠ (عشر) سنوات فى بغداد عاصمة الخلافة ، لا يشير أحد من الكتاب عن وسيلة معاشه خلالها ، والتى ربما كانت من الأعباس الخيرية الموقوفة على الدارسين من الطلبة النظاميين أو غيرهم - على ما نظن . فالواضح أن تكوين محمد بن تومرت العلمى وتضلعه فى اللغة العربية والعلوم الإسلامية ما كان يسمح له بإجهاد نفسه فى الاشتغال بالأعمال اليومية الجارية .

وكما بدأ ، وهو فى الـ ٢٦ (السادسة والعشرين) من عمره رحلة العلم العراقية بالحج إلى مكة المكرمة ، كان من الطبيعى أن ينهى أيضاً تلك الرحلة ، وهو فى الـ ٣٦ (السادسة والثلاثين) من العمر بالحج إلى بيت الله الحرام ، فيكون ذلك مسك

(٧٩) تخارن فى ذلك ابن أبى زرع ، روى القرطاس ، ص ١٧٢ - حيث النص على أن الغزالى كان يقول لجلسائه . لا بد لهذا البربرى من دولة ، وأنه يظهر أمره بالمغرب الأقصى ، دلت عليه العلامات والآثار ... فنقل إليه (ابن تومرت) الخبر بعض الأصحاب ... فلم يزل يجتهد فى خدمة الشيخ وينتقرب إليه حتى أطلعه على العلم الذى عنده فيه ، فلما تحققت عنده الحال ستخار الله تعالى وعزم على الترحال .

(٨٠) روى القرطاس ، ص ١٧٣ ، ابن حلكان نقلاً عن تاريخ ابن القطي انه خرج من مصر فى آخر سنة ٥١١ هـ - وهو ما يتفق مع رواية أنه دخل المغرب سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م (انظر ص ١٥٩ التالية) .

الختام (٨١). باكتمال الرجولة وقام التكوين العلمى.

والظاهر أن أفكار الغزالي عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو الأمر الذى عالج به باستفاضة فى إحياء علوم الدين فى الجزء الثانى من الكتاب (فى ربيع العادات) (٨٢) والذي كان أصلاً من أصول الإيمان عند المعتزلة (٨٣) كانت قد استقرت فى ضمير ابن تومرت

مكة

ففى مكة ، بلد بيت الله الحرام ، وقبلة المصلين والحجاج ، بدأ الفقيه الناشئ ، الذى عرف بعدئذ بالسوسى (٨٤) ، نسبة إلى بلده ، يمارس وظيفة المحتسب ، أى الرقيب على الأخلاق العامة ، أهم وظائف الحسبة ، فى الشوارع والميادين . وهنا لا بأس من الأخذ برواية ابن خلكان فى أنه كان يظهر وقتئذ فى شكل الزهاد والعباد من حيث الورع والنسك والتقشف والاختشوشان ، كما « كان مقبلاً على العبادة ، لا يصحب من متاع الدنيا إلا عصا و « ركنوة » (قربة ماء صغيرة) ، وأنه كان « شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع ، لا يفتن فى أمر الله بغير إظهاره » . وأنه « كان يلتذ بذلك ويتحمل الأذى » . وهكذا كان من الطبيعى أن « ناله بمكة شئ من المكروه من أجل ذلك » . وهكذا خرج الفقيه الشاب مطروحاً من مكة إلى مصر (٨٥).

(٨١) ابن الأثير ج ١ ص ٥٦٩ - حيث النص على أنه حج وعاد إلى المغرب.
(٨٢) انظر إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٦٩ - حيث كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والذي ينقسم إلى ٣ (ثلاثة) أبواب ، وهى ١ - وجوب الأمر بالمعروف ، ٢ - فى أركان الأمر بالمعروف ، ٣ - المكدرات المألوفة فى العادة .

(٨٣) انظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ص ، - حيث أصول المعتزلة الخمسة ، من : التوحيد ، والوعد ، والرهيد ، والمنزلة بين المنزلتين ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٨٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢٧ - حيث النص على أنه عرف بهذا الاسم فى رحلة العودة وهو فى بجاية .

(٨٥) ابن خلكان ، ولبيات الأعيان ، ج ٥ ص ٤٦ .

وإذا كنا نفتقد المعلومات عن الطريق الذي سلكه من الحجاز إلى مصر ، فلا بأس أن يكون قد سار مع قافلة الحج المغربية التي كانت في طريق العودة إلى الوطن . (٨٦) .

مصر - الفسطاط :

والذي يفهم من رواية ابن خلكان أنه نزل بمصر (الفسطاط) ، وأنه بالغ في الإنكار على الناس ، الأمر الذي ترتب عليه زيادتهم في أذاه . وكان في ذلك ما كان من إزهاج للسلطات المصرية حتي صدرت الأوامر بطرده من البلاد ، فكان خروجه من مصر الي الاسكندرية في زى الفقهاء في آخر سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م - وهي المعلومة التي ينفرد بها ابن خلكان نقلا عن تاريخ ابن الفطى (٨٧) .

وهنا يمكن الإشارة إلى رواية محمد بن شاکر الکتبی . فی هیون التواریخ ، التي يمكن أن تكون مأخوذة من ابن خلكان ، حيث النص على أنه رأى بصعيد مصر أو بمصر الفسطاط أو القاهرة ، « سب الصحابة على بعض ساجد مكتوبا . فقال : هاهنا دار اسلام ، وأنشد :

ذرنی وأشیاء فی نفسی مخبأة لألهمن لها درعاً وجلباباً
والله لو ظفرت كفى بهفوتها ماكنت عن ضرب اعناق الوری آبی
حتى أظهر هذا الدين من لجس وأوجب الحق للسادات أحباباً

(٨٦) عن طريق رحلة الحاج المغربية، ارجع إلى رحلة العياشي، وإن كانت متأخرة (قرن ١١هـ/١٧م) على سبيل المثال حيث التفصيلات الدقيقة عن الطريق البري ومراحله المختلفة من الإسكندرية إلى مكة عبر القاهرة وسينا، وبعض جنوب الشام وغزة. انظر للمؤلف ماء الموائد للعياشي، الإسكندرية، ص ٣٦-٣٧ .

(٨٧) وفيات الاعيان ج ٥ ص ٢٢٦ . وانظر أيضا ص ٤٦ - وهذه المسألة ينص ابن خلكان على أنه كان إذا خاف البطش واليقاع الفعل به (أي الاذابة) خلط في كلامه، فينسب إلى الجنون (فيحلف عنه) وإن كان ذلك بمناسبة الطرد من مكة .

وأملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً، وأفتح للخيرات أبواباً (٨٨)

فكانه اتخذ قرار الأمر بالمعروف وهو في مصر العاصمة . وهذا لا يمنع من أن يكون قد اعتنق مبدأ الاعتقاد في الإمام المعصوم هناك أيضاً .

وهنا لا بأس في أن يكون قد اكتسب عدداً من الأصحاب في مصر ، مما يرد في كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب ، ولكن برونسسال يشكك في صحة أسمائهم (٨٩) .

الاسكندرية :

والرواية المقبولة لعبد الواحد المراكشي تنص على أن ابن تومرت قضى إقامته في الاسكندرية ، متردداً على شيخ المدينة الشهير وقتئذ : أبي بكر الطرطوشي ، صاحب كتاب سراج الملوك ، في مدرسته أو جامعته الذي اتخذ به باب الأخضر وقتئذ (شارع الباب الأخضر حالياً من منطقة الجسر) ، للأخذ عنه . وفي أثناء روحاته إلى مجلس الطرطوشي وغذواته ، كان يعرض للناس بعنف من أجل النهي عن المنكر والأمر بالمعروف ، ويلقى في سبيل ذلك الأذى (٩٠) ، الذي بلغ به إلى حد توقفه عن الذهاب إلى مجلس الاستاذ العلمي (٩١) . أما عن الرواية التي تشير إلى أن الطرطوشي عندما استشعر غياب الطالب المغربي السوسي عن حضور

(٨٨) عيون الأخبار، ج ١٢ ص ٩٠٧-٩٠٨ .

(٨٩) انظر ابن القطان، ص ١٥ .

(٩٠) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص ٣٨-حيث : فمن عصمته - رضي - من أهل الاسكندرية، أنه رأى بها منكر فقيرها، وأغلظ في أمرها، فقامت عليه العامة والفرها، فصاروا يقطعون به في طريقه إلى مجلس الطرطوشي، وقارن تاريخ مرحدى مجهول، نشر برونسسال، قطعة ١٢ ص ٣٥-حيث إضافة... ولم يخله من بأسهم على شريته وشحط داره أكثر من هذا .

(٩١) انظر عبد الواحد المراكشي، المعجب ص ١٧٩ - حيث النص على أنه كثر واجماً (من القاهرة) إلى الاسكندرية ، فأقام بها يخلف إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه وبرز له بها وقائع في معنى الأمر بالمعروف .

مجلسه سأل عنه واستدل على مكانه حيث زاره ولاطفه ، ولكنه لما علم بهزمه على العودة إلى بلاده (المغرب) حياه ، وودعه (٩٢) ، فهي لاتنقض رواية عبد الواحد المراكشي التي تنص على أن سلطات الاسكندرية ، عندما ضاقت بأعماله ذرعا استصدرت أمرا من والى الاسكندرية بطرده من المدينة (٩٣) .

ومن الواضح أنه في ذلك الوقت من مطلع القرن الهـ ٦ / ١٢ م كان طريق البحر إلى تونس وبلاد افريقية هو الطريق الدارج ، تفاديا لمعاناة الصحراء والمطش في بلاد برقة القفرة ، والتي كانت تمتد غربا إلى تخوم طرابلس . وهكذا كان على ابن تومرت أن يستقل السفينة من الاسكندرية مبحراً نحو الغرب . والمهم أن ملاقاه ابن تومرت خلال تجارب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة والقاهرة والاسكندرية من الأذى لم يشبط همته عن مواصلة الجهد فيما أخذه على عاتقه من تبديل الشر وإقرار الخير ، مما تعلمه في كتب العباد وخاصة إحياء الغزالي . فحجة الإسلام ينص على « أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هو القطب الأعظم في الدين ... وهو المهم الذي اهتمت الله له النبيين أجمعين ... ولو طوى بساطه والعمل به لتعطلت النبوة واطماحت الديانة ... » (٩٤) . كما ينص أيضا على أن من « لم يكن مكلفا (بالأمر بالمعروف) فله إنكار المنكر ، وله أن يريق الخمر ويكسر الملاحى ، وإذا فعل ذلك نال به ثوابا ، ولم يمكن لأحد منعه ، من حيث أنه ليس بمكلف » (٩٥) . وهكذا لم يكن من المستغرب أنه بمجرد أن ركب ابن تومرت

(٩٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٣٩، وقارن تاريخ موحدي مجهول، نشر برونسال، مقتطفات، قطعة ١٢ ص ٣٥- حيث قلنا فقد، الطرطوشي بحث منه حتى أعلم بمكانه فقصد اليه وقعد في مسجد الأخضر على ساحل البحر، فتراعى عليه وسأله عن سبب قيئته من مجلسه فعرقه بشأن أولئك الفرقاء، وأنه يريد الإياب إلى المغرب فودعه وانصرف.

(٩٣) المعجب، ص ١٧٩- حيث النص على أن أعماله "أفضت إلى أن نفاه متولى الإسكندرية".

(٩٤) إحياء علوم الدين، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج ٢ ص ٢٦٩.

(٩٥) إحياء علوم الدين، ج ٢ (الباب الثاني في أركان الأمر بالمعروف وشروطه)، ص ٢٧٤-بشرط الأول.

السفينة في ميناء الاسكندرية حتى بدأ في تغيير المنكر على أهلها «فألزمهم بإقامة الصلوات ، وقراءة أحزاب من القرآن العظيم» (٩٦).

وقدنا رواية عهد الواحد المراكشي بمعلومات طريفة عما كان ينزل بالأنبياء من البحارة والمخالفين من الركاب من عقوبات بحرية مناسبة . فعندما ضاق المستولون عن السفينة ذروعا بما كان يقوم به من الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر ، وخاصة إراقتهم للخمر وتكسيه لدنانها ، ألقيوه في البحر «فأقام» أكثر من نصف يوم يجرى في ماء السفينة لم يتصبه شيء . وإذا كانت بقية النص تلمح إلى شيء من الكرامة أو المعجزة التي أظهرها في جريه في البحر وراء السفينة (٩٧) ، فمن المنطقي أن يكون جريه في البحر مشدوداً بالحبل ، وليس سباحة.

وهذا بطبيعة الحال لا يقلل من صلابه محمد بن تومرت ، والاعتراف بقوة احتماله جسدياً وروحياً ، وفي النهاية لا بد أن يصنف ابن تومرت بين ذلك النوع من الرجال الذين لا تزيدهم الشدائد الا قوة عزم وصلابة.

(٩٦) انظر ابن الانبارج ، ص ٥٦٩-٥٧٠ ، ومثله : ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج ٥ ص ٤٦ ، النويري ، نهاية الارب ص ٣٩٦ ، وقارن عهد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٧٩- حيث فركب البحر ، فبلغني أنه استمر على عادته في السفينة ، وقارن تاريخ موحدي مجهول ، مقتطفات بروكسسال ، رقم ١٢ ص ٣٦- حيث يأخذ الخبر شكل قصة فلكورية حيث اراقه الخمر في السفينة فصاح عليه صاحبه وسبه ، ووضع يده فيه... ثم انه عندما شدد عليهم في الصلاة غضبوا وهموا بإلقائه في البحر من المركب لولا ان هاج البحر عليهم وكادوا يقرقون..... فتضرعوا وأعين فأمرهم بالصلاة حتى كشف الله ما بهم وجرت السفينة بريح طيبة.

(٩٧) المعجب ، ص ١٧٩- حيث فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعظم في صدرهم ، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من السفينة وقارن رواية ابن القطان المتقبة (نظم الجمان ، ص ٣٩)- حيث النص على أن أهل السفينة عندما غضبوا عليه هموا بإلقائه من المركب فقال عليهم البحر ، وكادوا يقرقون . وأقبلوا تحره متضرعين ذاعنين....

طرابلس:

أما عن ميناء الرسو الأول على شواطئ المغرب فرغم ميل عدد كبير من الروايات إلى أن نزول ابن تومرت من المركب كان في مدينة المهدية ، العاصمة الفاطمية ، فنحن نفضل الأخذ برواية البيهقي ، أقدم المصادر وأكثرها أصالة بالنسبة لأوليات ابن تومرت والتي يأخذ بها ابن خلدون . وهكذا تكون مدينة طرابلس (المغرب) أول مدينة مغربية ينزل فيها ابن تومرت في رحلة العودة المغربية. وإذا كانت رواية البيهقي التي بين أيدينا لا تقدم شيئاً عن نشاطه في طرابلس فإن رواية ابن خلدون تعرضنا من ذلك بما يفيد أن ابن تومرت أظهر هناك التكبر على العلماء ، وأخذ نفسه بتدريس العلم ، إلى جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطاع «حتى لقي بسبب ذلك أذيات في نفسه ، احتسبها من صالح عمله» (٩٨). وهي الأمور التي تنسجم مع نشاطه على طول طريق المغرب.

هذا ولا بأس أن كانت طرابلس محطة رسو للسفينة وهي في الطريق إلى المهدية. أول المدن التي كان لابن تومرت فيها حضور ملموس وذلك على عهد الأمير العزيز ابن يحيى بن قيس بن العزيز بن باديس (٩٩). وهنا لا بأس في أن النزول في عاصمة الفاطميين التقليدية بالمغرب الألفريقي ، يمكن أن يكون قد أوحى له أيضاً بأفكار حول الإمام المعصوم، كما يمكن أن يكون الحال قبل ذلك في القاهرة. ورغم ما أنكره هناك من سب الصحابة كتابة علي جدران المساجد (ما سبق ص ١٥٤ - ١٥٥) .

المهدية:

وفي المهدية نزل ابن تومرت في أحد المساجد (المعلقة) وليس معه إلا عصاه

(٩٨) العزيز، ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٩٩) ابن الأثير، ج ١٠ ص ٥٧٠ (سنة ٥١٤هـ) - حيث النص خطأ على أن الوصول إلى المهدية كان في عهد الأمير يحيى بن قيس سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م بدلاً من ١١١٠ هـ / ١١١٦ م. وقارن التبريزي نهاية الأريب، ص ٣٩٩ .

وقرعة الوضوء والشرب الصغيرة (الركوة) . وبدأ فى إلقاء الدروس والوعظ . وعندما سمع بذلك أهل البلد قصده للقراءة عليه . كل ذلك وهو يراقب الطريق من طاق بالجامع ويقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من تكسير آلات الموسيقى (الملاهى) وأوانى الخمر ، ويبلغ فى ذلك ، كما نرى ، كلما تكاثرت الناس عليه . وهنا تنبه الأمير العزيز بن يحيى الى خطورة الأمر فأحضره مع جماعة من الفقهاء ، وانتهت المناظرة فى حضرة الأمير الذى أعجب بابن تومرت ، واحترمه فسأله الدعاء (١٠٠) . والظاهر أن ابن تومرت خشي على نفسه من الإقامة فى المهديّة حسبما توحي رواية الحلل الموشية التي تنص على أن الأمير العزيز هم أن يأخذ (١٠١) فخرج منها لاجئاً الى رباط العباد بمدينة المنستير ، حيث أقام مدة مع الصالحين (١٠٢) .

تونس :

ومن المنستير التى لا ذكر لها فى البيدق ، خرج ابن تومرت إلى تونس (العاصمة) حيث تقدم رواية البيدق معذومات فريدة عن طلبة العلم الذين كانوا يحتشدون حوله فى مسجد المدينة بعد صلاة الجمعة . وهنا يظهر الفقيه السوسي صفات رجل الدولة المعتدل فى سياسته الدينية من حيث إظهار التسامح ، ويقول إقامة الصلاة على جنازة يهودى ، كان قد دخل فى الإسلام ، وإن كانت تحوم حوله

(١٠٠) ابن الأثير، ج ١٠ ص ٥٧ ، وقارن لسورى، نهاية الأرب، ص ٣٩٦ ، تاريخ موحى مجهول، مقتطفات بروفسال، رقم ١٢ ص ٣٦ - حيث : ومن غصته... نجاته من شره بن يحيى بن قميم، صاحب المهديّة، ونجاته من شره، بعد أن وجه إليه الفقيه الماررى فعاقبه ورفق به، وقال له: أخاف عليك عاديتك وعادية جندك، فخرج إلى المنستير .

(١٠١) الحلل الموشية، ص ١٠٦ - حيث تفيير المكر بالمهديّة على عهد الأمير العزيز بن الناصر (يحيى) الذى هم أن يأخذ .

(١٠٢) ابن الأثير، ج ١٠ ص ٥٧ (أحداث سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م) ، وقارن نفس الرواية فى التويرى، نهاية الأرب، ص ٣٩٧ ، وابن خلكان، وفیات ص ٤٦ ، ٤٧ - حيث الأمير يحيى بن قميم بن المعز بن باديس الصنهاجى سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م بدلا من ٥١٠هـ / ١١١٦م (على عهد العزيز) .

بعض الشكوك . فقد أم ابن تومرت صلاة الجنازة على اليهودى المسلم ، كما وثق العلماء الذين ترددوا فى ذلك وامتنعوا ، وعرقهم السنة حتى أنهم صاروا يأخذون عنه العلم (١٠٣) .

قسنطينة :

وهكذا نجح ابن تومرت فى تكوين مجموعة خاصة من التلاميذ الذين التصقوا به كأبنائه الروحيين . فهو عندما يخرج من تونس مشجها نحو قسنطينة كان يلتف حوله ٣ (ثلاثة) نفر من الطلبة ، هم : يوسف الدكالى ، والحاج عبد الرحمن ، ومؤلفنا البيدق (قطعة الشطرنج) : أبو بكر بن على الصنهاجى . وخرجت الجماعة فحمد المسير حتى وصلت إلى قسنطينة (الهراء) ، وكان أميرها يومئذ : سبع بن العزيز بن يحيى ، وقاضيا : قاسم بن عبد الرحمن . وهذه المعلومة التى ينفردها البيدق تقول أيضا أنه نزل وتلاميذه ، بطبيعة الحال ، على كل من الفقيه : عبد الرحمن الميلى ، ويحيى بن القاسم ، وعبد العزيز بن محمد .

وفى قسنطينة كان يقوم بتعليم الطلبة الذين يحضرون ، ويقف فى ميدان المدينة الكبير لارشاد المسئولين عن الأمن ، وتطبيق قواعد الشريعة على الخارجين على القانون ، من المحتسبة أو من يقوم مقامهم كنوع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد وجد أنهم يطبقون عقوبة الضرب بالسياط على «الحلال» الذى يدخل على الناس ليأخذ أموالهم ويقتلهم ، فعرفهم أن العقوبة الشرعية هى قطع اليد . ولكنهم عندما تساءلوا عما يفعلون اذن بعد ذلك ، عرقهم ان الضرب الذى انزلوه بهم يقوم مقام العقوبة الشرعية ، «لأنه لا يجوز جمع حدين فى ذنب واحد» ثم أنه طلب من السارق أن يعلن توبته ، فتاب بقلب صادق (١٠٤) .

(١٠٣) البيدق، ص ٢٩-٣٠ .

(١٠٤) البيدق، ص ٣٠-٣١ .

بجاية،

ومن قسنطينة خرج ابن تومرت بجماعته الصغيرة إلى بجاية ، أعظم مدن افريقية وقتئذ ، والحاضرة الحمادية الكبرى ، وذلك في سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، حسب تحديد ابن خلدون (١٠٥) ، ونزل هناك بمسجد الريحانة (١٠٦) حيث أقرأ أهل المدينة كتابها في علوم أصول الدين ، كما درّس الحديث (العلم) إلى جانب الوعظ ، الأمر الذي جعل الناس يجتمعون عليه (١٠٧) .

والمهم أنه أخذ ينتقد أهل المدينة المرفهة ، وينكر عليهم ثيابهم الناعمة من «الأقراق الزرارية» وعصائم الجاهلية التي تشبهها بعض النصوص بالتيجان (١٠٨) ، ولباس الفتوحات التي يلبسها الرجال ، ويقول لهم «لا تفتزنوا بزي النساء» لانه حرام » (١٠٩) وفي ذلك تقول رواية البيهقي أن ابن تومرت قال احترام فقهاء بجاية ، وتقديرهم وأنهم شرفوه بالزيارة في شهر رمضان ، ومنهم : محرز ، وإبراهيم الزيدوني ، وإبراهيم الميلي ، ويوسف الجزيري الجراوي ، وعبد الرحمن ابن الحاج

(١٠٥) المعبر، ج١ ص ١٧٢، وقسارن ابن القطان، ص ٢١- حيث وصل إلى بجاية في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م، وانظر ص ٢٢- حيث أنها وباط، وملاحة بالقرب من بجاية .

(١٠٦) البيهقي، ص ٣١ .

(١٠٧) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٧٩-١٨٠ .

(١٠٨) الاستبصار، ص ١٢٩- حيث القول بمناسبة ذكر مدنيه بجاية ؛ وكانت ملوك صنهاجة هائم شرب مذهب، يفلون في أثمانها، تساوى العمامة الـ ٥٠ دينار والـ ٦٠ (ستمائة) دينار أو يزيد، وكانوا يمسونها بأثمن صنعة فتأتى تيجاناً- وكان ببلادهم صنائع لذلك، يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزيد. وكانت لهم قروالب يمسونها الرؤوس، يمسون عليها تلك العمامات

(١٠٩) البيهقي، ص ٣٩، وقسارن تاريخ موحدي مجهول، مستطفيات بروفنسال، قطعة ١٧ ص ٣٦- حيث النص على أنه لما دخل بجاية لقي بها الصبيان في زي النساء بالضعائر وأخراس الزينة وشواشي الخنز، ولقي الأذال قد فتشوا بذلك. فعبر المسكر جهده، وأزال ذلك الرى مستطاعه.

الصنهاجي : القاضي (١١٠).

ومن الراضع أن محمد بن تومرت اضطر في بجاية إلى تغيير أسلوب أدائه في انكار المنكر . فبعد أن كان يركز على محاربة شرب الخمر بإراقتها وتكسير دنانها ، اضطره العاصمة الصنهاجية المرفهة بشبابها شبه المشتركة (بين الذكور والاناث) ، الأمر الذي أكدته له عادة عدم الفصل بين نصفي المجتمع من الرجال الملتزمين والنساء السافرات ، حسب عادة المجتمع الصنهاجي (١١١) ، فأخذ يوجه معارضته لهاتين الظاهرتين الأخبرتين أيضا . وحدث ذلك يوم الفطر عقب زيارة الفقهاء له في رمضان ، إذ وجد الرجال والنساء مختلطين يوم العيد في الشريعة ، وهي مصلى العيد خارج المدينة ، والتي كانت مجالاً للنشاط الاقتصادي الخاص باحتفالات المناسبة السعيدة ، « فدخل فيهم بالعصا يمينا وشمالا حتى بددهم » (١١٢).

وكان من الطبيعي أن يعترض عليه متولي المدينة : العزيز بن المنصور الحمادي على أساس أن السوق لا يعرفون مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأنه يخشى عليه من قيامهم ضده ، الأمر الذي قد يؤدي إلى هلاكهم مع الإشارة إلى أنه « لا يستوى حرّ كريم مع شيطان رجيم » (١١٣).

(١١٠) البندق، ص ٣١ .

(١١١) انظر ج ٤ ص ١٢٥ (عن النظام الأمري) ، وص ٧٧ (عن اللثام).

(١١٢) البندق، ص ٣١ ، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢ ، وانظر تاريخ موحدي مجهول، مقتطفات برفنسال، قطعة ١٢ ص ٣٦ - حيث : ثم حضر عبداً (في بجاية) فرأى فيه اختلاط الرجال بالنساء ، والعصبان المتزيين ، والمتكحلين ، ما لا يحل ، فزجرهم وغير ذلك عليهم ، فوقعت لأجل ذلك نفرة استغلال فيها الشر ، وسلب النساء حليهن ، وقام الهرج فسال العزيز عن ذلك فعرف بأنه لا سبب في ذلك الا الفقيه السوسي ، وكذلك كان يعرف بالمشرق.

(١١٣) البندق، ص ٣١ ، وقارن تاريخ موحدي مجهول، مقتطفات برفنسال، قطعة رقم ١٢ ص ٣٦ - حيث : ومن عصمته : منع العزيز بن المنصور بن علاء الناس بن حماد منه ، وقد غاضه وأغضبته ، وسلامته من عدوه ، وهو ملك بجاية.

والظاهر أن حاكم بجاية حاول أن يسترضيه عن طريق بناء مسجد له (١١٤) . ولكن الأمر انتهى باستصدار أمر بخروجه من المدينة ، على أساس أنه شخص غير مرغوب فيه (١١٥) . وذلك بعد أن اقيمت مناظرة بينه وبين طلبة (فقهاء) بجاية ، في موضوع جراته على الملوك ، محاولة اقناعه بالعدول عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - دون جدوى (١١٦) .

ملاحقة :

هكذا خرج ابن تومرت من بجاية إلى قرية مالاكة (١١٧) على بعد قرسغ (٣ أميال) منها ، وقد رفعت الضجة التي أثارها في بجاية من شأنه ، إذا انتشرت بين العامة فكرة أنه المسيح أو المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً ، كما توحى الروايات القصصية ، وخاصة بعد لقائه بعيد المؤمن بن علي خليفته ، وباني دولته .

والهم ان الخروج من بجاية إلى ضاحية ملالة حيث بنو درياغل الصنهاجيين

(١١٤) البيهقي، ص ٣٢ .

(١١٥) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٨٠ ، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ١٧٦ - حيث النص على أنه غير بجاية المنكم قدسعى به إلى العزيز، فأقر به فخرج، ونظر كذلك ص ٢٢٧

(١١٦) انظر تاريخ موحدي مجهول، مقتطفات بروكسسال، قطعة ١٢ ص ٣٧ - حيث الإشارة إلى أن الذي دبر اجتماع المناظرة هو الكاتب عمر بن فلقول الذي لافظه، وراوده على ترك ما هو بسبيله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١١٧) البيهقي، ص ٣٩ ، وقارن المعجب، ص ١٨٠ - حيث الخروج من بجاية إلى المغرب، وقارن، الفرطاس، ص ١٧٣ - حيث النزول في بجاية من قرية في حوز من اعوازا تعرف بملأكه فلقوى فيها عبد المؤمن... وقدم معه إلى المغرب الأقصى، وابن خلدون، المعبرج، ص ١٧٦ - حيث الخروج من بجاية إلى بني ريباكل من صنهاجة... فأجاروه، ونزل عليهم بملأكه .

الذين أقام بينهم يدرس العلم (١١٨) في مسجد أقاموه له (١١٩) ، عرف بعد ذلك باسمه (١٢٠) كانت له أهمية مزدوجة ، أولها : أنه شعر بالأمان من حيث إمكانية حمايته من طلب الدولة أو تهديدها له ، اذ أجاره بنو درياغل عندما طلبه العزيز « فمنعوه ، وقاتلوا دونه إلى أن رحل عنهم إلى المغرب » (١٢١) ، وثانيها : اكتسابه لاثنتين من أهم أعوانه ، هما : أبو محمد عبد الواحد بن عمر الذي كان يحمل اسما بربريا هو يريز بن (١٢٢) إلى جانب عبد المؤمن بن علي ، أملة في المستقبل .

والظاهر ان ابن تومرت عندما استشعر الاطمئنان بملائة رأى ان يوسع مجال إنكار المنكر بعيداً حتى أسوار بجاية . ووصل فعلاً إلى باب البعز حيث « أهرق هناك الخمر » وهو ينادي : « المؤمن ثمار ، والكافر خمار » . وهنا خرج إليه عبيد صبيح بن العزيز متولى ملائة ، ومنعوه بالقوة ، فعاد إلى مسجده (١٢٣) . أما عبد الواحد (يريز بن) بن عمر الذي سيعرف في المغرب بلقب الشرقي ، فكانت داره بجوار المسجد ، وهو الأمر الذي سهل له الانضمام إلى الطلبة وإقامة علاقات وثيقة مع ابن تومرت . وكانت العادة أن يخرج ابن تومرت وطلبعه في أوقات الراحة يجلسون للفقى إلى شجر الخروب ، ينظرون إلى الطريق ، قضاة للوقت - على ما نظن - ومنها للمنكر اذا ما تيسر . وعلى هذا الطريق قرب المسجد ، كان اللقاء

(١١٨) ابن خلدون، ج٦ ص ١٧٦ .

(١١٩) البديق، ص ٣٢ .

(١٢٠) المعجب، ص ١٨١ .

(١٢١) ابن خلدون، المعجب، ج٦ ص ١٧٦ (حيث بنو درياغل) وص ٢٢٧ حيث ابن تومرت.

(١٢٢) البديق، ص ٣٢ .

(١٢٣) البديق، ص ٣٢- حيث النص على أن عبيد ابن العزيز قالوا له من أهرق بالخمر ، فقال : الله ورسوله .

مع عبد المؤمن الذي خرج من بلدته تاجرة ، من منطقة تلمسان ، في الطريق إلى رحلة العلم المشرقية ، بصحبة عمه يعلو الذي كان يقصد الحج ، ووصلا إلى بجاية وملاثة (١٢٤).

عبد المؤمن شاباً :

وعبد المؤمن في ذلك الوقت كان فتى جميل الوجه ، رائع الجمال - كما تريد الرواية المنقبية وكان متوجها في صحبة عمه نحو المشرق ، ليعلمه العلم . فقصده به إلى ابن تومرت في بني در ياغل بملاثة ، وجلس معه . وهنا تبدأ قدرات ابن تومرت الفائقة في معرفة الأسرار وكشف حجب الغيب فكانه يبدأ مبكراً مرحلة جديدة تبشر بعالم الهداية والعصمة فهو يستطيع أن يعرف عن طريق « الاستشعار » ان عبد المؤمن من بلدة تاجرة ، من بلاد تلمسان (١٢٥) . وهو يستبشر بعبد المؤمن لما لقيه فيه من النجابة والنهضة ما تفرس فيه التقدم والقيام بالأمر (١٢٦) .

ويؤكد ابن تومرت الامتبشار بلقاء عبد المؤمن بالأحاديث (النبيهة) التي تشير

(١٢٤) انظر البهقي، ص ٣٢-٣٣- حيث تفصيلات عن رحلة عبد المؤمن، وضعت فيها بعد، بعد أن أقام الدولة بطبيعة الحال. وفي مراحل الطريق من متيجة إلى بني زلدوي، إلى جانب منامات تنبئ بالمستقبل الباهر. مثل : الصفحة التي يحملها على رأسه ويأكل كافة الناس منها، والفزول في مسجد الريحانة حيث كان ابن تومرت في بجاية، وسماع الناس هناك يقولون : سيروا بنا إلى الفقيه السوسي-عالم المشرق والمغرب، ورويا حباية الناس له، وطلب منه كتمان ذلك، وقارن عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٨٠- حيث كان ابن تومرت أوجده عصره في علم خط الرمل. وأنه وقع في المشرق على ملاحم من عمل المنجيين، وجفور (جمع جفر) من بعض خزائن خلفاء بني العباس، وأنه أوصله إلى ذلك كله حرط إعتنائه بهذا الشأن. وما كان يحدث به نفسه (عن الملك)، ص ١٨١- حيث أنه سمع عندهما نزل ملاكه وهو يقول : ملاكة ملاثة يكررها، ويتأمل أحرفها. وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم في موضع اسمه : ميم ولا مان- فكانه يقصد بتتمثل مهد قيام حركته .

(١٢٥) الحلل الموشية، ص ١٠٦ .

(١٢٦) ابن الاثير، ج ١، ص ٥٧. وقارن النويري، نهاية الأرب، ص ٣٩٧، وقارن عبد الواحد=

إلى نسبه وقت ظهوره - (١٢٧) وهكذا كان على ابن تومرت أن يصّر على بقاء عبد المؤمن طالبا بصحبته، إذ قال له : العلم الذى تطلبه بالشرق قد وجدته بالمغرب. وقرأ عليه « المهدى » كتابها يقول فيه لا يقوم الأمر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن به على سراج الموحدين (١٢٨) .

وهكذا فبعد إقامة عدة أشهر فى ملالة رحل عنها ابن تومرت، وفى صحبته عبد المؤمن بن على، وعبد الواحد الشرقى (برزيجن)، ومؤلفنا البيدق (أبو بكر بن على الصنهاجى، الذى كان عليه الإشراف على الفلوة (الفرس الصغيرة) الشهباء التى أعطتهم إياها واحل (أم عبد الواحد) بناء على طلب شفهي (ودعاء) من ابن تومرت (١٢٩).

نتيجة :

وخرجت القافلة الصغيرة نحو مدينة متيجة حيث كان النزول عند وجلين اكتسب الامام صداقتهما، هما : بجازرة بن محمد والفقير أبى زكريا (١٣٠). ومن متيجة حتى تلمسان آخر حدود المغرب الأوسط ، ينفرد البيدق بتحديد محطات الطريق المختلفة دون غيره من الكتاب.

= المراكشى، المعجب، ص ١٨١- حيث عرض ابن تومرت على عبد المؤمن ما هو خير من طلب العلم، وهو : إمارة المكر وإحياء العلم، وإخماد البدع، ص ١٨٢- حيث كان عبد المؤمن يعلم الصبيان بموضع فراره من بلاد متيجة... وروى الأكل مع أمير المسلمين، وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٧ ص ٤٨- حيث اطلاع ابن تومرت على علوم أهل البيت وعلى كتاب الجمل، وما رأى فيه من صفة نفسه يدعى الله فى بلد خروجه (ت ي ن م ل) وأن استقامة الأمر يكون على يدى رجل خروجه (ع ب د م و م ن)... وأوقع الله فى نفسه أنه القائم بأول الأمر، وأن أو أوانه قد أوف... الخ.

(١٢٧) التورى، نهاية الأرب، ص ٣٩٧- حيث هذا الذى بشر به رسول الله صلعم حين قال : إن الله لينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس (بنى سليم).

(١٢٨) الخلل الموشية، ص ١٠٦، وقارن ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ٢٢٧، والمعجب، ص ١٨١ .

(١٢٩) البيدق، ص ٢٧ .

(١٣٠) البيدق، ص ٣٧- حيث تفصيلات عن تلك السفارة منها : إصابة عبد المؤمن بالمشقة (التهاب ما بين الفخذين)، والأمر بنزول عبد الواحد عن الفلوة لعبد المؤمن مع وعده بخير الجرا- فيما بعد، من : «التصور المشيدة، والجوارى الزيتة والخيول المستوعة»

الأخماس :

فمن متبعة كان الخروج نحو الأخماس حيث وجدت الجماعة مسجداً مهدماً فأمر ابن تومرت بترميمه ، وكذلك الأمر عندما نزلوا بعد ذلك في «جساس إن ورمور» حيث عمروا مسجداً كان معطلاً (١٣١).

مليانة

ثم كانت متابعة المسير إلى مدينة مليانة (١٣٢).

وانشريس

ثم مدينة وانشريس والتي أعطت اسمها للجبل الشهير هناك، حيث التقوا بأبي محمد عبد الله بن محسن الونشريشي، الذي يلقب بالبشير .

تيتملت يزناسن

ومن هناك كان يسير الي تيتملت متاع بني يزناسن وهنا لا نجد ذكراً للمدينة المكونة من حروف (ت ي ن م ل) مما سبقت الإشارة إليه (ص ١٧٠ و ١٢٤) والاكتفاء بأمر ابن تومرت ببناء مسجد في بني يزناسن هؤلاء مع الإشارة إلى أنهم فرغ من فروع بني يزناسن في تونس (١٣٣).

شلف:

وتتميز منطقة وادي شلف بغناها بالزراعة والمراعى وتربية الأغنام ، وفي حاضرتها شلف (١٣٤) كان النزول على الفقيه أبي الربيع الذي أكرمهم غاية

(١٣١) البندق، ص ٣٧-٣٨ .

(١٣٢) انظر الاستبصار، ص ١٧١- حيث مدينة مليانة قريبة من مدينة أشير، وهي مشرفة على فحوص واسعة وفقرى كثيرة عامرة... وحولها القبائل الكثيرة من البربر.

(١٣٣) البندق، ص ٣٨ .

(١٣٤) انظر الاستبصار، ص ١٧١- حيث تلتحم فحوص مليانة وقراها العامرة، والتي يشقها نهر شلف الكبير، بمدينة شلف الأثرية الواقعة على النهر الذي أعطته اسمها "شلف"، وتوصف بأنها أثرية خراب، الأمر الذي قد يوحي بأن مليانة هي شلف الحديثة.

الإكرام، ونال حظ ابن تومرت بالدعاء الحسن.

البطحاء :

أما عن قبيل البطحاء ، قرب ملتقى وادي شلف برافده وادي مينا ، فقد قطع عليهم (الطريق) يوسف بن عبد العزيز (من رؤساء القبيل) ، وسلم عليهم ، ودعاهم بالأيمان المغلظة بالمسير معه . كما دعاهم إلى أن يرسلوا معه من يختار ضيافتهم من الخنم ، فسار معه هبد المؤمن - ابن المنطقة - فأحسن اختيار كهاش الضيافة لثلاثة أيام . ونظرا لكرم الرجل كتب إليه ابن تومرت دعاء بخلف يده ، وأضاف إلى ذلك خطاب ضمان (حرز من من جلد) يؤمن للرجل ولأبنائه من بعده حسن معاملة الدولة ، بمعنى الإغناء من الضرائب - كما نرى في تلك الرواية المنقوبة (١٣٥) .

تلمسان :

ومن منطقة وادي شلف كان المسير إلى تلمسان حيث نزلت الجماعة بضاحية أجادير (التي عرفت بعد ذلك بالعباد) (١٣٦).

وهناك قام بإنكار المنكر إذ «وجد عروسا تزف لبعيها ، وهي راكية على سرج واللهو والمنكر أمامها ، فكسر الدفوف واللهو (آلات الموسيقى) وشجر المنكر ، وأنزلها عن السرج» (١٣٧) دون ذكر لمعارضة السلطات المحلية ، الأمر الذي يعنى أن المسألة تتعلق بحادث فردي ، في ضاحية نائية بين أناس أمثيار . وهذا ما تفسره رواية عبد الواحد المراكشي التي تقول: «وكان قد وضع له في النفوس هيبة ، وفي

(١٣٥) البيدق، ص ٣٨-٣٩ حيث قال ابن تومرت وهو يعطي الرجل حرز الضمان الجلدي : «يا شيخ أمسك هذا عندك ويكون عند عتيق قوته خير لك ولهم، حتى يصل إلى هذا الموضع ملك وعساكر، فادفع البرامة من يدك ليد الملك، ولا تعطها أحدا غيره-على اعتبار أن ذلك الملك سيكون هبد المؤمن نفسه .

(١٣٦) البيدق، ص ٣٨، عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٨٢ .

(١٣٧) البيدق، ص ٣٨ .

الصدور عظمة» (١٣٨).

وهكذا كان ابن تومرت يستطيع أن يخرج أحد أصحابه من السجن ، اذ يصحب أحد أعوانه ، ويدق على باب المدينة ليفتح له البواب - وهو ما قد لا يفعله لتولى المدينة - وينادى على صاحبه السجن ويأمره بالخروج ليخرج أمام السجائين الذين أصيبوا بالشلل (١٣٩). وهذا ما يفسر الشغاف الطلبة حوله ، وهم يلتزمون بالذاكرة ، ويدرسون مالا يطبقون. ومعلومة البيدق هذه تصل منتهى الدقة عندما تسمى هؤلاء الطلبة ، ومنهم : أبو العباس الشريف ، ومحرز التونسي ، وعلى بن صاحب الصلاة وأخوه عثمان ، وابن جيل ، ويحيى الجزولى ، وعبد الرحمن الورشدي. وعلى الكومي ، وعبد الرحيم ، ومحمد المديوني (١٤٠). وفي مقابل هذه المعلومات الدقيقة ، يشير البيدق ، إلى المعلومات المستقبلية مثل نهاية تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين عند موضع الصخرتين أمام تلمسان ، وعبد المؤمن يحاصره ، على أنها من المعلومات التي كان يعرفها وقتئذ ابن تومرت ، مما قرأه في كتب الجفر (١٤١) حسبما ترى الرواية المجهية.

والظاهر أنه أثناء وجود ابن تومرت في تلمسان ، تولى التونسي (محمد بن يوسف) فقيه ومدرس العباد ، والذي كان من قبل استاذاً لعبد المؤمن ، لعرض

(١٣٨) المعجب، ص ١٨٢- حيث الإضافة إلى ذلك : "وكان شديد الصمت كثير الانقباض، اذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة" - فكانه قد أصيب بما يسمى الاكتئاب من قسوة التجارب .

(١٣٩) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٨٣-١٨٤ .

(١٤٠) البيدق، ص ٣٩ .

(١٤١) البيدق، ص ٣٩- حيث طلع المعصوم (ابن تومرت) بين الصخرتين (خارج تلمسان)... فقال : "بين أظهركم هنا طالب ينزل بمحلته هناك في المياه يسمع ضجيجها من هذا الموضع".

طلبتة على ابن تومرت أن يجلس مكانه للتدريس (١٤٢) ، وكان من الطبيعي ألا يقبل ابن تومرت وظيفة المدرس ، فقد كانت له وقتئذ آماله في مستقبل أرحب ومصير أعرض بكثير.

في وجدة :

وكان رجل ابن تومرت وجماعة طلبته الصغيرة من تلمسان إلى مدينة وجدة (وجدات) أول مدن المغرب الأقصى ، وعلى حدود الجزائر الغربية . وكان النزول في بعض المساجد المتطرفة كما جرت العادة . ويفهم من نص البيدق أنهم نزلوا في كنف واحد من أعيانها هو ابن صامفين ، تحت رعاية القاضي : محمد بن قارة . والظاهر أن سمعة الأمر بالمعروف كانت قد سبقته الي وجدة ، إذ « أتبل الفقهاء يهرعون نحو «الإمام المعصوم» (ابن تومرت) (١٤٣) للدراسة . فكان يبعثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤٤).

ومن الواضح أن إيقاع الرحلة كان يشتد بسرعة ابتداء من مرحلة تلمسان ، والظاهر أن ابن تومرت كان يستشعر الاقتراب من تحقيق هدفه في تغيير المنكر في قلب بلده ، فدخل في سباق مع الزمن ، كما يقال ، من أجل تحقيق هدفه النهائي في تغيير الدولة . ففي وجدة لاحظ « أن النساء يستقين والرجال يتوضئون » من نفس النبع ، فاعترض على هذا الاختلاط وعمل على مدّ ساقية وصهريج عند الجامع (١٤٥).

صاء :

وترك ابن تومرت وجدة وجداً في المسير بأصحابه نحو بلدة صاء (تاويرت

(١٤٢) ابن القطان ، ص ٢٢-٢٣ .

(١٤٣) البيدق ، ص ٤٠- حيث تعدد الفقهاء ، وهم : زيدان ، ويحيى البرناني ، ويوسف سمعون ، وعبد العزيز ابن يخلقتي .

(١٤٤) البيدق ، ص ٤٠ .

(١٤٥) البيدق ، ص ٤٠ .

اليوم)، وفيها وجد بائعات اللين يخرجن «مزيّنات محليات» - وإن اكتفى بقض البصر عنهن - والاحتجاج لدى الفقيه يحيى بن يصيلق (١٤٦) .

(١٤٦) البهقي، ص ٤٠- حيث قال للفقيه : كيف تتحرك النساء محليات كأنهن زفدن لبعولتهن، أما تتقون الله في تغيير المنكر... إنما يصنعون أفعال الجاهلية الأولى. وقرأ الآية : «لا يهدين زينتهن إلا ما ظهر منها» (سورة النور، الآية ٤١). وهي تذكرنا بأغنية شعبية كانت معروفة بحفلات أفراح الإسكندرية في الأحياء الشعبية، مثل حيتا، حى كرموز، وقت طفولتنا حوالى سنة ١٩٢٧. هذه الأغنية تدور في شكل حوار ثنائى (ديالوج) بين بائعة اللين الحليب الجسلة وأحد زبائن الصباح الباكر المتحمين-كما كانت عادة بيع الحليب وتقتل، مروراً على الهبوت، فالزبون يوجه لها كلمات الإعجاب بجمالها، والصبيبة تتحدث له عن شرفها وعلاقاتها، الأمر الذى ينتهى به نهاية سعيدة بقول كل من الطرفين الزواج من الآخر-والهدف هو خدمة الوطن، ونص الحوار الغنائى، حسبما أتذكره :

هى - لين حليب يهدى للحبيب، يروى القلب، صباح أبهى.

هو - يا بنت يا بائعة اللين وروى لبتك.

هى - لبتى حلو وبنى القشقة، الله عليه لو دكته.

هو - لو تسمى لبتى شقة-ادوقه يا حلو يا بطة

هى - يا راجل اعدل حرام عليك، اوهى كده رينا يهديك، أنا شريفه حره ونعيفة ونقى عفيفة، نفسى حليفه وحيات عتلك.

هو - أنا لما شفتك قوام عشقتك ما أقدر افارقك - ما أقدر افارقك ما يهدى.

هى - على شبرى دور وروح اصلهم ، واللى فى بالك أنا هشى منهم.

هو - أن كنت ترضى تتجوزينى ونعيش سوا يا نور هينى-أكرن محزون بانور العيون، اوهى يا روى نفوتينى .

هى - ترجع تاتى تقول : كاتى مانى.

هو - دانت حبك صحيح كوانى .

هى - وانت كمان حبك زمانى.

هو وهى معاً :قلوبنا جمعها ما بينى وبينك، وبالله يا نورا نعيشوا سوا - يا الله بينا ايدى فى ايدك - دائماً سوا نخدم بلادنا.

ولابأس ان يكون ذلك من تأثيرات المغرب فى المجتمع المصرى والسكندرى. وعن أداء تلك الأغنية فقد كان لكل من الشيخ أمين حسنين وسيد حسن (عن د. أحمد أبو زيد، في ندوة الاثنين بسبيل، عيدان سعد زغلول بالاسكندرية).

أجر سيف :

ومن وجدة وصاء إلى أجر سيف حيث تسمية من صادقهم هناك ، عن تفهيموا دعوته إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنهم ، الأخوان : خلى بن أبى حجارة الذي نزل ابن تومرت عنده وأخوه الحسن ، وهناك اعترض أيضا على تعذيب رجل عن طريق الصلْب ، فهدد المجتمعين للفرجة حوله ، وقال لهم : « إنما الصلْب للأموات وليس للأحياء . إن كان وجب عليه الموت لناقتلوه ثم اصلبوه » (١٤٧) . هذا ، كما احتج على ما أنزله الوزير بالعامية - عندما شكوا اليه - من غرامة ١٠٠٠ (ألف) مثقال بسبب قتل نعامه كانت له ، وذلك لدى متولى المدينة يحيى بن فانو (اخت على) حتى اعيد مال الغرامة إلى أصحابه (١٤٨) .

وفى الطريق من أجر سيف إلى فاس أشرف ابن تومرت ، كما نزل وصحبه على عدة مواضع ، منها : قرية أمليل ، ومدشر (منية) قلال - حيث قوبل إنكار سماع اللهو (الموسيقى) من جانبه بتهديد شديد من اللاهين ، جعل ابن تومرت يأمر فى التو واللحظة بتجهيز الدابة وسرعة المسير (١٤٩) - ومخاضة النساء ، ثم المقرمدة ، وعين الرقى (حيث كان الطلبة يهرعون اليه من كل جانب) قبل الوصول إلى فاس.

(١٤٧) البيهقي، ص ٤١- حيث اسمه عمر بن تاجر طاست، والحاج القلوروى، ومحمد بن تاسكورت، و دحمان بن متينة، وعلى بن محمد الزناتى، ويوسف المواسين.

(١٤٨) البيهقي، ص ٤١- وفى ذلك قيل إن ابن فانو هم يقتل الوزير، ولكن ابن تومرت عرّفه أنه ليس عليه قتل، وإنما عليه الأدب فقط.

(١٤٩) البيهقي، ص ٤٢- حيث ردّ أهل اللهو بعنف على رسولى ابن تومرت إليهم (الحاج الدكالى، والبيهقي) إذ قالوا لهما : "هكذا السيرة عندنا، ولم ينهوا... بل إنهم قالوا : معروفنا عندنا، ومعروفكم عندكم، سيروا رالا نقتل بكما وبقتيكم". فأمر ابن تومرت بتجهيز الدابة، وألقى عليها الكتب، والمسير عنهم قبل أن ينزل بهم البلاء.

فاس :

وفى فاس تنقل ابن تومرت بين ٣ (ثلاثة) مساجد ، أولها : مسجد ابن الغنام ،
والثانى : مسجد ابن الملجوم وأخيرا استقر فى مسجد طريانة «لأنه كان فى
الصومعة بيت ، وكان «المعصوم (ابن تومرت) يعمره ، ويقرى فيه العلم» ، وذلك
إلى أن دخلت سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م (١٥٠) . وكما هى العادة كانت شهرة ابن
تومرت قد سبقته إلى فاس ، وهكذا كان الطلبة هناك يهرعون اليه من كل مكان ،
ويقولون : «تعالوا بنا إلى الفقيه السوسى» (١٥١) .

وطبيعة الحال لم تسلم فاس ، أم مدن المغرب الأقصى المرفهة ، من انكار محمد
بن تومرت للمنكر . فذات يوم جمع ٧ (سبعة) من تلاميذه ، وعلى رأسهم عبد المؤمن
بن على ، وأمرهم بإحضار مقارح من فروع شجر التين غير المشمر ، وتقدم بهم إلى
زقاق بزقالة : شبه شارع محمد على بقاهرنا الحديثة (شارع الآلات الموسيقية :
اللهو) ، فقال لهم تفرقوا على الحوانيت ... حيث الدفوف والقرقر والمزامير والعيدان
والروط والأربية والكتيارات وجميع اللهو ، وقال : كسروا ما وجدتم من اللهو .
وطبيعة الحال لم يوافق المسئولون بفاس ومنطقة الغرب (١٥٢) . وجمع الوالى
الفقهاء ، وأحضر ابن تومرت معهم ، «فجزت له مناظرة كان له الشفوف فيها
والظهور» ، لأنه «وجد جوا خاليا ، وألقى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا
علم الفروع ، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على الوالى بإخراجه من البلد ، لئلا

(١٥٠) البيهقى ، ص ٤٢ ، ابن أبى زرع ، القرطاس ، ص ١٧٢ - حيث الإشارة إلى المسجد الأخير
(طريانة) والقرطاس فيه إلى سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م .

(١٥١) البيهقى ، ص ٤٢ - حيث النص على أسماء ١٥ (خمسة عشر) واحدا منهم : ابن الملجوم
وابن ديمس ، وابن الشكعة ، وابن بيضة ، والشريف ، وابن بسلوة ، وابن بركوقة ، وابن زكور ،
وابن الفرديس .. وهؤلاء كانوا ملازمين (لابن تومرت) يفتحهم ويغلقهم . هذا ، كما كان
يمشى ويتعلق الصغار به ، ويربده المباركة على رؤوسهم .

(١٥٢) البيهقى ، ص ٤٤ .

يفسد عقول العوام» (١٥٣) .

مكتناسة :

وهكذا كان على ابن تومرت ان يخرج من فاس إلى مكتناسة عبر حاضرة مغيلة ، حيث كان النزول عند يوسف بن محمد ، وعبد الرحمن بن جعفر (١٥٤) . ومن الواضح أن ما أثار ابن تومرت في منطقة مكتناسة هو تجمعات الرجال والنساء معا في الميادين والأسواق . لهذا ما شاهده تحت شجرة لوز في موضع الكدية البيضاء ، «فدخل فيهم وأصحابه ميمنة وميسرة فهددوهم يمينا وشمالا» (١٥٥) .

وكان النزول في مكتناسة في موضع السوق القديم بمسجد أبي قيم عبد المحسن بن عشرة . وكان طلبية مكتناسة يأتون للتعلم ، فكان يعرفهم ماكانوا يجهلون من أساليب الدراسة الحديثة في المشرق . ومع ذلك فما كان يمكن أن تطول إقامة ابن تومرت وجماعته بعاصمة الادارة المرفهة ، إذ خرج منها «بعد أيام ، وارتحل في ساعة سعد وسلامة» (١٥٦) . وكان الخروج من مكتناسة إلى سلا عبر بلدة : خميس فزارة ، حيث النزول عند عبد السلام بن عيشوش ، ووقوط بن ميمون . قبل الوصول إلى سلا في ساعة سعد وسلامة (١٥٧) ، الأمر الذي يعنى شروع التفاوض أو التشاور في السفر بالظواهر الفلكية ، من ساعات السعد وساعات النقص -

(١٥٣) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٨٤ .

(١٥٤) البيهقي، ص ٤٥ .

(١٥٥) البيهقي، ص ٤٥ ، وقارن ابن خلدون، المعبر، ج ٦ ص ٧٢٢- حيث النص على أنه تهي بمكتناسة عن المناكر لوقع به الشر من الفوفا . وأوجعه ضربا غير أنه يجعل الرحيل بعدها إلى مراكش دون سلا .

(١٥٦) البيهقي، ص ٤٥- حيث الإشارة إلى عدد من طلبية مكتناسة، منهم : أبو بكر بن جرزوز وأخوه أحمد ، وأحمد بن الزهوني وأخوه علي . ويكار بن اسماعيل، وغيرهم .

(١٥٧) البيهقي، ص ٤٥ .

رغم ظاهرة التدين الأصولية المبنية على مبدأ القضا - والقدور.

وكان النزول في صلا عند الفقيه أحمد بن عشرة ، وكان يأتيه عليه القوم لأخذ العلم ، ومنهم : الشيلير ، ومحمد الوقاصى ، وابن فيتو ، والقاضى حسون بن عشرة . وكان يطلب اليهم أن يأمرؤا الناس بالمعروف وينهؤهم عن المنكر . وأقام على ذلك بسلا أياماً عديدة قبل الخروج نحو مراكش (١٥٨).

أم الربيع

وكائ الطريق إلى مراكش عبر تابر ندوست ، وبلاد البربر الحقيقية التى لم تكن قد تعرّبت بعد. ففى ذلك الموضع سُرقت دابة الجماعة : قلوة رحيل (أم عبد الواحد الشرقى برزيجن) ، ذات البطن الأبيض ، التى كانوا يحملون عليها أسقاطهم ، وخاصة كتب ابن تومرت. سرقها عبيد يقال لهم أولاد تبرزوقت.

وعندما وصلوا إلى وادى أم الربيع (مو ربيع) ، اتضح لرفقاء ابن تومرت أن استاذهم كان يحسن الكلام باللغة البربرية (لغتهم الأولى) وهو ماكانوا يجهلونهُ من قبل - الأمر الذى يضى على ابن تومرت صفة الكتمان العميق - ويفسر كيف كان يمكن تدهير قصة الونشريسى ، وكيف كان يخفى علمه وثقافته، ويظهروها بالجهل والسذاجة إلى حين الحاجة إلى دوره كصاحب التمييز الذى يفرق بين أهل الجنة وأهل النار، مما يأتى فيما بعد (ص ٢٤٥). فعندما ارادت الجماعة عبور الجسر على نهر أم الربيع، منعوا من ذلك حتى يعطوا ضريبة العبور المقررة (الكرا - أو المكس). وهنا صاح ابن تومرت قائلاً لهم: « آوَمُورُن ملرلنن ان سوس آداوُن ناك » وهى الجملة التى تعنى: سنجتاز سبل سوس الببضاء ، كما أردف ذلك بقوله : « ألما السبيل للمسلمين وانتم تقطعونها ، وهذا غير جائز فى الشرع » . وقطعت الجماعة المسافة من وادى أم الربيع إلى مراكش (العاصمة) فى مرحلة واحدة دون إشارة من البيدق إلى محطات يعبرونها أو قرى ينزلون فيها (١٥٨) البيدق، ص ٤٦ .

(١٥٩) ، وهو الأمر المقبول بالنسبة لمرحلة واحدة.

مراكش :

وهكذا يكون ابن تومرت قد دخل مراكش يوم الجمعة خلال سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م ، وهو في زى الزهاد . وكان نزوله بمسجد صومعة الطوب ، في بعض أطراف المدينة ، كما جرت العادة على طول الطريق الطويل . ومن الواضح أن دخول مراكش ، دار مملكة علي بن يوسف ، كما يقول ابن الأثير (١٦٠) ، يمثل مرحلة حاسمة بالنسبة لدعوة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حيث أن ابن تومرت دخل هنا في مواجهة مباشرة مع الدولة المرابطية وعلى رأسها أمير المسلمين ، وهذا ما ينص عليه ابن الأثير حقا (١٦١) . فقد زاد أمر ابن تومرت بالمعروف أو على الأصح بالنكار المنكر ، إلى حد أنه عندما رأى أخت أمير المسلمين في موكبها ومعها الجوارى ، وهن سافرات كعادة الملتصين ، أنكر عليهن ذلك ، وضرب دوابهن حتى سقطت أخت الأمير عن دابتها (١٦٢) . وعندما علم علي بن يوسف بأمر ابن

(١٥٩) البهقي، ص ٤٦ .

(١٦٠) الكامل، ج ١٠، ص ٥٧ .

(١٦١) الكامل، ج ١٠، ص ٥٧ ، وقارن ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج ٥، ص ٤٥ ، وانظر ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٧٣- حيث النص على أنه دخل مراكش لعله أن أمره لا يظهر إلا منها .

(١٦٢) ابن الأثير، ج ١، ص ٥٧٠-٥٧١ ، وقارن النويري . نهاية الأريب، ص ٣٣٨- حيث "فراى فيها (مراكش) من المنكرات أكثر مما عاينته في طريقه، فزاد أمره بالمعروف، وكثر اتباعه، وحسنت ظنون الناس فيه ثم قصة أخت أمير المسلمين وجواربها، وضرب دوابهن، وقارن روض القرطاس، ص ١٧٤- حيث القول أنه كان يمشى في شوارع المدينة وأسواقها يأمر بالمعروف... ويريق الخمر، ويكسر آلات الطرب، من غير إذن أمير المسلمين ولا مؤامرة من أحد من القضاة والوزراء... فأمر أمير المسلمين بإحضاره، ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٢٢٧- حيث أغلظ على بن يوسف القول، وحيث رؤيته الصورة (اسم أخت أمير المسلمين) حاسرة قناعها، فربحها، فدخلت على أخيها باكبة لما حل بها من تقيعة.

تومرت أمر باحضاره إلى مجلسه بمسجده الجامع حسبما يفهم من رواية البيهقي .
ووجد ابن تومرت الأمير جالسا على غفارة ابن تيزمت (أحد المقربين من رجال
الحاشية) ، والوزراء واقفون . وعندما لفت رجال الحاشية انتباه ابن تومرت إلى أداء
التحية للأمير ، أبدى الفقيه السوسي ملاحظاته اللاسعة لعلي بن يوسف ، من :
أرتداء اللثام (الذي يعادل النقاب عند المرأة) ، كما أمره بالمعروف قائلا : «الخلافة
لله ، ليست لك يا علي» ، كما طلب ألا يجلس على الغفارة (من ثوب ابن
تيزمت) ، وكل ذلك قبل مناظرته للفقهاء الذين أحضروا للنسابة (١٦٣) .

أما عن المناظرة فيعرضها ابن أبي زرع بشكل عكسي مقبول يعبر عن الفارق
الكبير بين علم كل من أهل المغرب السلتي النقلي ، وأهل المشرق التقدمي منهجه
العقلي . وفي البداية أكثروا الكلام - حسب العادة - بشكل غير منظم دون طائل ،
وهنا طلب منهم ابن تومرت أن يقدموا من يمثلهم في تقديم حججهم ، وأن يلتزموا
بأدب أهل العلم ، بالتسليم عند شروط المناظرة . ولما كان جل من حضر من الفقهاء
المغاربة من أصحاب الحديث والفروع ، وليس فيهم معرفة بأصول الجدل ، كان من
الطبعي أن تقصر إجاباتهم عن المطلوب .

فمن طرق العلم وهل تنحصر ام لا تنحصر كانت إجابتهم انها تنحصر في
الكتاب والسنة والمعاني التي بنيت عليها . وكان تعليق ابن تومرت ان الإجابة
لا تذكر إلا واحدة من طرق العلم ، فلم تفهم مقالته .

وفي سؤال عن أصول الحق والباطل عادوا إلى نفس الجواب الأول .

(١٦٣) انظر البيهقي، ص ٤٧، وقارن ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج ٥ ص ٤٩ - حيث طالب ابن
تومرت أمير المسلمين علي يوسف بالأمر بالمعروف أثناء المناظرة، من القول عنه : إنه مغرور
بما تقولونه له، وتضرون به، مع علمكم أن الحجة عليه متوجهة. وهو يوجه الكلام لقاضي
المرية، قائلا ، فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع جهارا، وتشتى الخنازير بين المسلمين، وتؤخذ
أموال اليتامى.... الأمر الذي جعل الملك تنزف عيناه، ويطلق دما .

فلما رأى عجزهم عن فهم السؤال ، شرع لهم فى تبیین أصول الحق والباطل الأربعة ، وهى العلم والجهل والشك والظن . فالعلم أصل للهدى ، والشك والجهل والظن أصل للضلال.

ثم أخذ فى تبیین طرق العلم فبهرهم بطريق أنوار العلم ، وغلقت دونهم أبواب الفهم (١٦٤) .

واذ كانت الروایات تجمع على ان فقهاء مراكش عجزوا عن فهم مقالات ابن تومرت العقلانية التى وفد بها من المشرق ، فإنها استثنت رجلا واحدا منهم ، هو الأندلسى: مالك بن وهيب الذى كان قد شارك فى كل العلوم ، كما كان له تحقيق بكثير من اجزاء الفلسفة ، وان كان لا يظهر منها الا ما كان يتفق فى ذلك الزمان (١٦٥) . فلقد عرف ابن وهيب خطورة دعوة ابن تومرت ، وأنه طامع فى المملكة . بل والذى تنبأ أيضا ، كما تريد الرواية ، بدرهمه المركن (المربع) . وفى ذلك تقول الرواية : إن مالك بن وهيب نصح أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بإلقائه

(١٦٤) روض القرطاس، ص ١٧٥ ، وقارن البيهقي، ص ٤٧- حيث ذاکرهم "المعصوم" فافهمهم، عبد الواحد المراكشى المعجب، ص ١٨٤- حيث... وجمع له الفقهاء للمناظرة، فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول حاشا رجل من أهل الأندلس، ابن الأثير، ج ١ ص ٥٧٢- حيث ناظره الفقهاء، فلم يكن فيهم من يقوم له، التويرى، نهاية الارب، ص ٣٩٨- حيث فاحضره وأحضر الفقهاء لمناظرته، فأخذ يعظه ويذكره ويخوفه، فهكى أمير المسلمين، وأمر أن يناظره فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته، وانظر ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٢٧- حيث تفاوض الفقهاء فى شأنه... وكانوا ملتوا منه حسدا وحفيظة، لما كان ينتحل مذهب الأشعرى فى تأويل المتشابه، وينكر عليهم جمودهم على مذهب أهل السلطنة فى اقراره كما جا... فأغروا الأمير، فاحضره للمناظرة معهم، فكان له الفلج والظهور عليهم.

(١٦٥) عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ١٨٥

فى السجن (١٦٦) أو يقتله (١٦٧) أو يطرده (١٦٨) ، وهو الأمر الذى استقر
الأمير عليه ، بناء على نصيحة من بعض كبار رجال الدولة الذى ربما كان الوزير
بيتان ، الذى استهول خشية الدولة من مثل ذلك الرجل الصالح ، الضعيف ، كما
رأى أن من التناقض أن يهكى الأمير تأثرا من وعظ ابن تومرت ثم يأمر بحبسه فى
نفس الوقت ، الأمر الذى يقلل من هيبة الدولة (١٦٩) . وهكذا طرد ابن تومرت
من مراکش ، كما سبق له الطرد من غيرها من المدن .

ولا بأس أن كان خروج ابن تومرت من مراکش قد بدأ بالابتعاد عن أسوار المدينة
والإقامة لبعض الوقت فى الجبانة حيث نصب خيمة بين القبور - فهذا ما كان يفعله
كثير من العباد - وأنه ظل يقوم بالتدريس والوعظ حتى تكاثرت عليه الطلبة

(١٦٦) البيهقى، ص ٤٧- حيث قال له (للأمير) : "اجعل عليه كبلأى لا تسمع له طبلأ، هذه
صفة صاحب الدرهم المركن" .

(١٦٧) عبد الواحد المراكشى، المصجب، ص ١٨٥ ، ابن الأثير، ج ١ ص ٥٧٩ ، النويرى، نهاية
الأرب، ص ٣٩٨- حيث قال مالك بن وهيب، الذى يوصف بأنه أحد الوزراء، للامير : "إن هذا
لا يريد الأمر بالمعروف، إنما يريد إثارة فتنة والغلبة على بعض السواحى، فاقتله، وقلدنى دمة،
للم يفعل (الامير) ذلك" .

(١٦٨) نفس المراجع، وانظر عن طرده عن المدينة : ابن أبى زرع، روض القرطاس- حيث النص
على أنهم (الفقهاء) "كسوا عليه، وقالوا لأمير المسلمين على بن يوسف : هذا الرجل خارجى
مسعور، أحق، صاحب جدل ولسان، يضل جهال الناس، وإن بقى بالمدينة يفسد عقائد أهلها،
فأمره أمير المسلمين بالخروج من المدينة.

(١٦٩) انظر البيهقى، ص ٤٧- حيث : فأمر على ابن يوسف أبا بكر بن تيزمت أن يجعله إلى
السجن، فلم يرد الله تعالى، إذ قال بيتان بن عمر، وسير بن وريبل لعلى بن يوسف : يا
أمير المسلمين ماذا يقال عنك فى البلاد ؟ أتسجن رجلا يعرف الله، وهو أحرف أهل الأرض
بالله تعالى، فقمض على وخرج عنهم، فسار إليه بيتان بن عمر، وقال له : كيف تظلم رجلا
من علماء المسلمين...، أتركه فى ساطك بعلما، أو أتركه يسير فى بلادك، فقال له على بن
يوسف : مره أن يخرج من بلادنا" .

والناس.

وهنا تقول رواية القرطاس هذه أنه أعلم الخاصة بما يريد ، وأخذ في الطعن على المرابطين ويدعو إلى جهادهم حتى يبعث على بن يوسف إليه بلفظ القول ويتوعدده بالنكال والقتل (١٧٠) ، فكان ابتعاده عن دار أمير المسلمين.

أغمات :

وهكذا خرج ابن تومرت وتلاميذه إلى مدينة أغمات ان ويلان (١٧١) حيث النزول ضيوفا على «عشمان المعلم» لمدة ٣ (ثلاثة) أيام (١٧٢) . وكان الخروج بعد ذلك يوم الجمعة (الرابع) إلى أغمات وريكة ، حيث النزول في ضاحية امبيل ، وإقراء الطلبة بجامع وطاس بن يحيى بموضع من ناحية الغرب مما يلي الصحن.

والمهم أن جامع وطاس كان بمثابة مدرسة يقوم بالإقراء فيها معلم البلدة عبد الحق بن ابراهيم ، وكان من الطبيعي ألا يسمد المعلم القديم بالمعلم الاستاذ الوافد . والأهم بعد ذلك هو ما ترتبت عليه الخسومة بين معلم القرية والأمر بالمعروف من

(١٧٠) ابن أبي زرع، القرطاس، ص ١٧٥-١٧٦- حيث اتهم المرابطين بالتجسيم والكفر. وتابعه أكثر من ١٥٠ شخص حتى عزم الأمير على قتله فعلا، وبعث من يأتيه برأسه، لولا أن حصنه الله بأن حذره أحد تلاميذه بقراءة الآية التي تقول : يا موسى ان الملأ ياتمون بك ليقتلوك فأخرج إنى لك من الناصحين (سورة القصص ٢٨-آية ٢٠).

(١٧١) وأغمات مدينتان، هما أغمات ان ويلان التي تعرف أيضا بأغمات هيلانه، والأخرى : أغمات وريكة، بينهما مسافة ٨ (ثمانية) أميال. وأغمات وريكة ير إلى جوارها ويخترقها الوادي الذي يحمل نفس الاسم (وريكة)، وهو أحد روافد نهر تنسيفت الذي ير بالقرب من مدينة مراكش، وينتهي وبين تنفيس على المصب مرحلة واحدة-انظر الاستقصاء، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(١٧٢) البديق، ص ٤٩- حيث الإشارة إلى بعض العادات هناك من الولولة ٣ (ثلاث) مرات عند ولادة صبي، ومثلها في مناسبات الطهارة والزواج.

انقسام أهل البلدة إلى فرقتين متناقضتين ، تدعى كل منهما الايمان وترمى الأخرى بالكفر .

وبعد مناظرات غير مجددة ، رأى محمد بن تومرت الخروج من أغمات وريكة ، تاركا عصابة قوية يرأسها اسماعيل بن ايجيج أحد طلبته الأقوياء المخلصين (١٧٣) .

وكان الخروج من العاصمة مراكش في اتجاه تينمل بلدة جبل درن الحصينة بداية تخوم بلاد السوس (مسبق ، ص ٤٧) عبر عدد من المحطات الجبلية ، وأولها : أبجلوان (جلاوة) . وفي ذلك الموضع (جلاوة) كانت المفاجأة غير السارة حيث كان هناك رسول من قبل أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين يطلب تسليمه . وبسرعة أخطر محمد بن تومرت تلميذ أغمات الصديق : اسماعيل بن ايجيج ، الذي طلب منه الانتظار إلى أن يلحقه بمائتي محارب يحملون الدرق . من بنى عمه : فكان هذا يعنى تحول الاستاذ وفريقه من الطلبة إلى قوة عسكرية تستطيع الدفاع عن نفسها ، فكانها دويلة صغيرة في حالة حركة ، حريصة على استقلالها الذي تحقق على طول الطريق إلى تينمل ، وهو الأمر الذي تأكد بعقد الأحلاف مع القبائل على طول ذلك الطريق ، مع بناء المساجد (١٧٤) .

(١٧٣) البندق، ص ٤٩- حيث الإشارة إلى طالب آخر من أهل أغمات هو : سليمان بن البقال، مع الإشارة إلى أن الخروج من أغمات كان بعد أن أفهم المختصم بالعلوم.

(١٧٤) البندق، ص ٥٠- حيث المراحل التالية على طريق تينمل، وهي : أبسمناي متاع هزوجة، وتيفرا متاع آيمسقبوا-حيث بنى مسجدا ثم أنسا متاع وريكة، وأرقط حيث بنا، مسجد جديد أطلق عليه اسم نييتيتين حيث مكث إلى نهاية الشتاء، ليخرج بعد ذلك إلى تيفنوت متاع منشاة، و(سوق) الأحد متاع أفليل (حيث النزول في دار عمر أينسي : فاسكان بن يحيى)، وتيفنوت متاع ايزكار، و (سوق) الجمعة متاع آمزين (حيث وعظ أهلها واستمالوا لها)، وتادارات أخيار (عند دار أبي صالح عيد الخليم بن عبد السلام : من أهل خسين، حيث بنى مسجدا)، وبنى وأوزجيت (حيث وعظ واستمال أهلها) وتونيفتين، وأيزاه-تاكت متاع جد ميرة، آخر محطة بعد تينمل، ومن المهم الإشارة هنا إلى رواية ابن خلدون (الموجع ص ٢٢٨) حيث الإشارة إلى تأمر وإلى السوس مع المصاعدة إذ يقول النص : "وداخل هامل السوس" .

وهكذا يكون المهم في رحلة مراكش تينمل هذه ، أن جماعة الطلبة والأساذ
أصبحوا يمثلون نواة قوة عسكرية تحقق لهم الدفاع عن النفس وتضمن لهم الحرية
والاستقلال ، الأمر الذي توجب عليه الوعي بالواجبات إزاء أفراد الشعب والمجتمع ،
فكان حلول الترغيب بالوعظ محل إنكار المنكر والترهيب ، وأخيرا أتى بناء
المساحد في القرى الجبلية ما بين أغمات وتينمل يمثل عملا نظاميا من أعمال
الجماعة والدولة ، ألا وهو وقف العنف واللجوء إلى الدخول الفسيح في الاسلام ،
فكان تلك الرحلة حملة جديدة لعقبة بن نافع من أجل نشر الاسلام في المغرب
الأقصى .

والظاهر ان ابن تومرت لم ير الاطمئنان إلى الإقامة في تينمل التي تقول
الروايات السابقة في بداية الرحلة في افريقية والمغرب الاوسط ، أنها كانت تشغل
باله منذ التقى بمهد المؤمن ، أي بداية التفكير الجدى في تغيير الدولة المرابطية ،
فقرر أن يواصل رحلة البعد عن أن تطاله الدولة ، إلى مدينة إيجليز ، في سفح
الجبل المعروف بهذا الاسم الأخير . فكانت تلك الرحلة بمثابة تمهيد لتلقى دعوة ابن
تومرت الجديدة : دعوة التوحيد .

الطريق إلى إيجليز هرجة :

ومراحل الرحلة من تينمل إلى إيجليز ، هي : آين ماغوس ، وصوذه ، وتاكوش
ان ينسران ، وآن جنفيس (الذين وعظهم واستمالوا له) . وعندما وصل إلى بني
محسود ، أرسل إليهم يطلب الدخول إلى بلادهم فامتنعوا من إجابته ، فسار إلى بني
واجاس (وقاص) ، وبعدها تالطوش ان يمضغفال حيث كان النزول على ساحل
المحيط في موضع ايسجينا . ومن موضع تينمنتين أرسل إلى بني محسود يطلب
اليهم الدخول في الدعوة حتى تلتئم الصفوف ، ولما امتنعوا رأى أن يحالف بني
« وهو أبو محمد اللاتوني بعض سرعة في قتله ، وتذرهم اخوانهم فنقلوه إلى معقل أشباعهم .
وقتلوا من داخل في أمرهم .

وأجاس لقتالهم ، وهندئذ مالوا إلى الطاعة .

وأقام ابن تومرت مع طلبته وقوته الدارعة من بني ايجيج مدة ٣ (ثلاثة) اشهر في تامد غوست متاع أمركياتن (المحطة التالية) وبني فيها داراً ومخزناً وجناناً . وهناك كان ابن تومرت يجلس على صخرة علي باب الدار ، والجماعة تحيط به للمذاكرة والوعظ والارشاد (١٧٥) ، فكان الصخرة هي الجذع الذي كان يحنّ لجلوس النبي مستنداً إليه ، والذي تحول مع مرور الوقت إلى المنبر في المسجد الجامع.

وكان الخروج من تامدغوست إلى تازكغانغ ، بعدها تامازيرت متاع بني لماس قبل الوصول إلى ايجليز (ايجلى) بلد ابن تومرت (١٧٦) ، عاصمة بلاد السوس أو إحدى كهرينات عواصمها وقتئذ ، حيث نزل في داره في بعض نواحيها ، وذلك عام ٥١٤ هـ / ١١٢٠م (١٧٧). هذا ويضفهم من رواية ابن الأثير ان ابن تومرت

(١٧٥) المبيدق، ص ٥١.

(١٧٦) عن ايجلى، الاستبصار، ص ٢١٢-لأهذه بلاد السوس، وانظر الهامش ٢ حيث القراءة في ياقوت، مهجم البلدان (ايجلى)، وفي الدمشقي (ايجلى)، وفي مرآة الاطلاع (ايجلى).

(١٧٧) المبيدق، ص ٥١، وقارن ابن الأثير، ج ١٠ ص ٧١-حيث هجرتة إلى السوس سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠م، ونهاية الأرب، ص ٣٩٨، وابن القطان نظم الجمان، حيث هجرة الإمام إلى ايجليز (ايجلى) في سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١م والمقصود بذلك أنه يبيع إماماً معصوماً في السنة التالية لوصوله حسبما نرى، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٢٧-حيث النص على أنه عندما خرج من أغمات دعا اسماعيل بن ايكيلك (ايجيج) من أصحابه، وهو في اتحاد قومه، وخرج به في اتجاه جبال المصامدة، فلحق أولاً بمسغيرة ثم بهتتانة، ولقيه من أشياخهم عمر بن يحيى بن محمد بن واتودين بن علي، وهو أبو حفص ويعرف بهتته ببني فاصكات، كما يقال لهتتانة بلسانهم هتتي (فهو عمر هتتي)، وأخيراً لجأ إلى ايكينيين من بلاد هرغه فنزل على قومه، وذلك سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١-١١٢٢م، وبني رابطة للمعبادة واجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المروءة في التوحيد باللسان البربري، فشاغ امره في محبته.

عندما استقر في السوس في تلك السنة تسامح به أهل النواحي ، فوفدوا عليه ، فكان يعظهم ، ويذكر شرائع الإسلام ، وماحدث من الظلم والفساد ، وأنه أظهر ماكان يضره من تفسير الدولة فنادى «بعدم وجوب طاعة دولة من هذا الدول لاتباعهم الباطل» (١٧٨).

تنظيم الأصحاب ، وباط ابن تومرت في ايجليز :

والمهم أنه أثناء تلك الفترة نجح ابن تومرت في تحويل جماعته إلى ما يمكن أن يشبه برياط ابن ياسين الذي قامت على أساسه دولة المرابطين من بني تاشفين (١٧٩) . وكان لابن تومرت أسلوبه الناجح في اختيار الأتباع ، فلقد فرق من يثق بسياسته من تلاميذه على البلاد القاصية والدانية ، يدعوون إلى بيعته ، ويشتهون عند الناس إمامته ، ويزعجون محبته ، فقصده اليه الناس من كل مكان يتبركون برؤيته (١٨٠) . وهكذا كان يستدنى كل من أتاه ، «ويعرض عليه ما في نفسه من الخروج على الملك فإن أجابه أضافه إلى خواصه» . هذا ، كما «كان يستميل الأحداث وذوي الغرة» (١٨١) . والمرجع في ذلك رواية كل من ابن الأثير وابن القطان . فرواية ابن الأثير تنص على أن ابن تومرت اتخذ لجماعته مسجدا خارج المدينة حيث كان يقضى معظم يومه حتى صلاة العشاء الآخرة ، كما جعل زينا خاصا ، هو لبس القصير من الثياب القليلة الثمن . فكان الجساعة تحولت إلى تنظيم

(١٧٨) ابن الأثير، ج. ١ ص ٥٧١ .

(١٧٩) ج ١ ص ١٨٣ وما بعدها .

(١٨٠) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٧٦-١٧٧ .

(١٨١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٥١-حيث النص أيضا على أنه «كان ذوو العقل والعلم وأهل من أهاليهم ينفرونهم ويحذرونهم من اتباعه» . فكان لا يتم له مع ذلك حال-يعنى أن العمل لم يكن هينا في إنشاء الرباط، وأنه تطلب جهدا وعرقا . وما كان يفرق طاقة غير ابن تومرت من البشر .

عسكري مما عرف حاليا باسم «الميليشيا» ، كما تنص على انه نهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض (١٨٢) . اما ابن القطان فيشير إلى الأسلوب التربوي -الحديثي إذا جاز التعبير - والذي نظم به ابن تومرت جماعته ، حيث القول : إنه كان يعظهم في كل وقت ويذكرهم ، ومن ثم كانت عقوبة من يتخلف عن الاجتماع أن يؤدب بالضرب والتثقيف ، فإن تمادى في الغياب عن حضور المجلس قتل . وكل من لم يحفظ حظه من القرآن أو ما استحدثه ابن تومرت من الدعاء ، عُرِضَ ضربه بالسياط .

وكل من لا يلتزم بما هو مفروض عليه في نظام الجماعة كانت عقوبته الضرب بالسوط في المرة بعد المرة ، فإن ظهر منه عناد أو ترك امتثال الأوامر قتل .

وهكذا شدد ابن تومرت في المعاملة ، وضبط أمرهم فيها فانضبط . وأقاموا على ذلك مدة يتسامع الناس تقلب أحوالهم فيها (١٨٣) . وبعد مضي سنة هادر الأعمال التأسيسية لقيام دولته بأن بشر بظهور المهدي ، وأخذ في إنشاء المؤسسات والمجالس ، إلى جانب إعداد الدستور الممثل في مذهب التوحيد (١٨٤) . وحسب رواية ابن القطان ، فإن مرحلة التأسيس في إيجليز استمرت ٣ سنوات (من ٥١٤ هـ

(١٨٢) الكامل لابن الأثير، ج ١ ص ٢٧٢ .

(١٨٣) نظم الجمان، ص ٢٩ ، وقارن ابن أبي زرع، روض القرطاس، ١٧٧- حيث قصد الناس إليه من كل مكان يهابونه، وسمى من دخل طاعته وبأيعه . بالموحدين، وعلمهم التوحيد باللسان البهري، وجعل لهم من الأعشار والأحزاب والسور، قال لهم : من لا يحفظ هذا التوحيد فليس يؤمن، وإنما هو كافر لا يجرز إمامته، ولا تؤكل ذبيحته، فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز، لأنه وجدهم قوم جهلة، لا يعرفون شيئا من أمور الدنيا ولا من أمور الدين، فاستهواهم بكيدهم وغلبلهم بهذوية لفظه ولسانه وصكره، حتى كانوا لا يذكرون غيره... يستغيثون به في شأنهم، ويتركون بذكره على موائدهم..

(١٨٤) انظر ابن الأثير، ج ١ ص ٥٧١

/ ١١٢٠ م - ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م) ، كان يدرس فيها العلم ، ويهاجر اليه الأعوان المتحمسون (السعداء) فيشقونهم بمبادئه في الدين والسياسة ونظم الحكم والاجتماع . هذا ، كما كان على اتصال مستمر بالقبائل المختلفة في ايجليز والسوس ، ويعقد معهم الأحلاف والمعاهدات (١٨٥) .

ومن الواضح ان الظروف كانت مواتية لابن تومرت لكي يضع حجر الأساس لدولة التوحيد المقبلة . فالأمور في الاندلس كانت تسير على غير ما يروم أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاسفين . ففرطية كانت قد ثارت على المرابطين ، وأخرجتهم من حرمها في سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م (١٨٦) ، الأمر الذي أجبر الأمير على الرحيل لإقرار الأوضاع بنفسه هناك ، وكانت فرصة انتهزها محمد بن تومرت ، لهوطد أساس دولته الوليدة .

(١٨٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣ .

(١٨٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٣ ، والحلل الموشية ، ص ١٠٢ .

A S R

الفصل الثالث
شهاب الدين

A S R

A S R

محمد بن تومرت إماما معصوما

دخول الفار

وكانت البداية عند ابن تومرت هي التشبه بالنبي في محاولة لإعادة الدورة الإسلامية التي كان قد مضى على بدايتها خمسة قرون ، إلى مسارها الصحيح ، بدلاً من قبول فكرة التجدد الإسلامية عند رأس كل مائة عام ، أو مقولة إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، يعني أن المسألة هنا تتعلق بالتجديد الشامل وليس بتعديل المسار في الطريق القمام المستقيم فقط . وهكذا دخل ابن تومرت في مرحلة أشبه بمرحلة التحنن الأولى عند النبي ، فبعد أيام يسيرة من وصوله إلى داره وسط أهله وعشيرته من قبيلة هرغة ، دخل الفار في جبل إيجليز حيث تسابق بعض كبار الأنباغ في تكريمه وتجبده . فبينما قدم باللقن برونوس لجلوس الاستاذ القائد ، رأى اسماعيل بن إيجيج الذي صار بمثابة المستشار العسكري لابن تومرت أن تشرف «الإمام المعصوم» لا يكون بالجلوس على البرنوس ، فنخلع كساءه ، وهو يقول : النور لا يكون الا على النور ، وفرشه لجلوس «المعصوم» بدلاً من الجلوس على البرنوس (برنوس باللقن) (١) : كناية عن بهاض الكساء ، خلاف البرنوس المخطط عادة - كما نرى.

(١) الجديدي، ص ٥٢- حيث : "بقى أياما يسيرة ثم دخل الفار، وفرش له باللقن "البرنوس" فلما رآه إسماعيل إيجيجي قد فرش للأمام المعصوم، قال له : "يا أخى كيف تفرش البرنوس لنور العلم، النور لا يكون إلا على النور، فإزال من عليه كساء وفرشها، وقال : أفعد أنت أحق بها مني، فإن الله أمرنا بإكرامك، رضى الله عنك، وانظر المعجب لعبد الواحد المراكشي، ص ١٨٧- حيث النص على أن ابن تومرت "أمر رجلا منهم ممن استصلح عقولهم بطلب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل، وجعل يذكر لهم المهدي ويشوق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي، ونسبه، وعشه، أدعى ذلك لنفسه، وقال : أنا محمد بن عبد الله... ورفع نسبه إلى النبي صلعم، وصرح بدعوة العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي، وقارن ابن-

القوات المسلحة : أولى المنظمات:

ومن الواضح أن الإقامة في الوطن قبل الانتقال إلى تينمل ، هي فترة التأسيس للحركة الموحدة التي بدأت بالتنظير لرأس الدولة المثالية المنتظرة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والذي ينبغي أن يكون في الفكر الإسلامي ، الإمام المعصوم . وأول ما فكر فيه الإمام المعصوم ، هو العناية بالقوات المسلحة ، قاعدة الدولة - وعصبيتها - التي ينبغي عليها قيامها ، فهي قوة الدفاع والردع التي تحقق للدولة كيانها المستقل ، وهكذا كان أول قرار يتخذه ابن تومرت في ايجليز متاع هرفة هو بناء «ساراك» أي حظيرة للخيل باللغة البربرية ، والتعريض على اقتناء أعداد من الخيل على قدر سعة ما يهنيه الراغب من الخطائر (٢) . وإلى جانب القوة الحربية كان ابن تومرت يدرك أن الكرم من صفات الأمير الأساسية ، وهكذا فقد أمر بعمل أساس (طعام المآدب العامة باللسان البربري) ، وكان الملح الذي يعطى للطعام مذاقه المستساغ من حمل يديه هو - وتناول الطعام بعد من الموائيق التي تربط بين الناس بشكل لا ينفصم - كالخبز والملح ، والخبز واللبن ، مما هو متعارف عليه.

والهم ان البسطاء من قبيلة هرفة بجيل درن كانوا يظنون أن إسامهم المعصوم فوق مستوى البشر ، فهو لا يأكل ولا يشرب ، ولكنه وضع لهم أن الأمر ليس كذلك. وأنه يأكل مثلهم ويشرب ، وإن نصحبهم بالترزام الأدب في تناول الطعام - وهو الأمر

= خلدون، ج ٦ ص ٢٢٨- حيث الإشارة إلى أن المهدي لقب قبل البيعة بالإمام ثم لقب بالمهدي بعد تمامها. وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص ٣٨ وما بعدها- حيث العصمة بمعنى در- الخطر عن المعصوم، مثل عصمته من أهل الاسكندرية، ومن أهل المركب هاك إلى غير ذلك من الأخطار التي واجهها على طول الطريق إلى المغرب والتي عصمه الله منها، وقارن تاريخ موحدي مجهول، نشر بروكسسال، مقتطفات، قطعة ١٢ ص ٣٥- حيث نفس رواية ابن القطان.

(٢) البهقي، ص ٥٢- حيث النص على عمل حظيرة عامة كبيرة للخيل التي تصل إليهم. وإن من عمل مذودا أخذ فرساً ومن عمل مذودين أخذ فرسين، ومن كذبنا حسيبه الله.

الذى ينتبه عليه الغزالي في إحياء علوم الدين (٣).

ومن المهم الإشارة هنا إلى اختلاف الكتاب حول مدى الإقامة في ابجليز هرغة وطنه . وهي الفترة التي يمكن قياسها بالفترة المكية من العصر النبوي ، في مقابل فترة تبتملل التي تقاس عندئذ بالفترة المدنية ، حيث كانت البيعة بها لابن تومرت «تحت شجرة الخروب» (٤) والحقيقة انه اذا كانت رواية البيدق قد أهملت طول فترة الإقامة في ابجليز هرغة ، فابن القبطان ينص على أنها طالت لمدة ٣ (ثلاث) سنوات (٥) بينما يحددها ابن الاثير بشكل دقيق بمدة سنة واحدة (٦) ، وهو الأمر المقبول من حيث أن الدارج بين الكتاب هو أن بيعة القبائل لابن تومرت إماما معصوما كانت في سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م (٧) ، وان هذا الحدث فاصل بالنسبة للحركة الموحدية حيث بداية الصراع الجدي ضد المرابطين، الأمر الذي كان يتطلب الأمن والأمان في تبتملل : قاعدة النضال والمطالبة .

(٣) انظر البيدق، ص٥٢- حيث النص على أن ابن تومرت بعد عمل الملح قال : "هذا عهد الله وعهدي الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة. كما أنه قال للناس وهو يقرص بيده ذراع كبش ويقطعه في فمه : أنا أكل كما يأكل الناس وأشرب كما يشرب الناس، وأنا من بني آدم يلزموني ما يلزمهم، ثم قال كلوا كما يأكل السهون، وقارن عبد الواحد المرانسي، المعجب، ص١٨٧- حيث لم يسطر يد فباعوه على ذلك (انه المهدي) ، وقال ابايعكم على ما بايع عليه أصحاب الرسول (صلعم). وعن أدب أكل الطعام عند الغزالي، انظر إحياء علوم الدين، كتاب آداب الأكل، ج٢ ص٩ .

(٤) البيدق، ص٥٢ .

(٥) نظم الجمان، ص٢٢- حيث وأقام الإمام بجيل آنغوليز ٣ أعوام...

(٦) الكامل، ج١٠ ص٥٧١ .

(٧) وانظر النويري، نهاية الأرب، ص٣٩٨- حيث وصوله إلى جبال السوس في ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م، وإقامته هناك لمدة سنة واحدة، وقارن ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٧٦- حيث الوصول إلى تبتملل في شوال ٥١٤ هـ / يناير ١١٢١ م، وانهم أقاموا معه يتبتملل إلى شهر رمضان سنة ٥١٥ هـ / ١٧ نوفمبر ١١٢١ م .

أهل العشرة (آيت عشرة) :

وترتبط بيعة «شجرة الخروب» بقيام أول المجالس التأسيسية «آيت عشرة» أو «جماعة العشرة» المكون من صحابة ابن تومرت العشرة الأولين السابقين في التوحيد . وكانت البيعة ببسط اليد ، وقوله : أبايكم على ما يبيع به أصحاب رسول الله صلعم - فكأنهم يقومون مقام العشرة المبشرين بالجنة - وهم :

١- عهد المؤمن بن علي (الخليفة الذي تنتسب إليه الدولة المؤمنية : دولة بني عهد المؤمن).

٢- أبو ابراهيم اسماعيل ايجيج (الهزرجي).

٣- أبو حفص عمر بن علي أصناج (الصنهاجي).

٤- عهد الواحد الشرقي.

٥- عهد الله بن محسن الونشريش (البشير).

٦- أبو موسى الصردى .

٧- أبو بكر بن علي الصنهاجي (البندق : مؤلف أخبار المهدي).

٨- أبو محمد وسنار .

٩- عهد الله أعلان .

١٠- أشغال (٨).

(٨) البندق، ص ٥٣- حيث يأتي بعدهم : ١١- بورك ايسميين ، ١٢- ميمون الصفي، ١٣- ميمون الكبير، ١٤- يحيى المسمع، ١٥- عهد السلام أغييني، ١٦- مسلم الحناوي، ١٧- مكران، ١٨- صلول بن ابراهيم وأولاده ثم سائر الموحدين، وقارن روض القرطاس، ص ١٧٦، حيث النص على أن أول من يابعه أصحاب العشرة، وأنه في الغد ١٦ رمضان/١٨ نوفمبر خرج إلى مسجد تينمل وأصحابه العشرة متقلدين سيولهم، وخطبهم

أهل الخمسين (آيت خمسين) :

إن اضطراب المعلومات الخاصة بالعشرة ، مما رأيناه فى النصوص السابقة من استطراد البيدق فى عدد العشرة إلى ١٨ (ثمانية عشر) فرداً مع ارداف ذلك بـ «سائر الموحدين» ، واكتفاء ابن خلدون بذكر ٨ (ثمانية) رجال من قبيلتين فقط ،

= الناس وأعلمهم أنه الإمام المهدي المنتظر الذى يلا الأرض عدلاً وقسطاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً ، وبما يبعه كافة أهل تبينمل ومن جاورهم من الناس ، وقارن ابن الأثير ج ١ ص ٥٧١ - حيث قام إليه عشرة رجال أحدهم عبد المؤمن ، فقالوا : لا يوجد هذا (صفات المهدي) إلا إليك ، وأنت المهدي ، فبايعوه على ذلك ، وقارن ، الخلل المشوية ، ص ١٠٧ - ١٠٨ حيث تبعه (ابن تومرت) بالسوس الأقصى كثير من البربر فى رمضان ٥١٥هـ / نوفمبر ١١٢١م - حيث قام خطبها فقال الحمد لله ، الفعالي لما يريد ، القاضى بما يشاءه ، لا راد لأمره ، وصلى الله على محمد المبشر بالإمام المهدي الذى يلا الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ... مكانه المغرب الأقصى ، وزمانه آخر الزمان ، والاسم الاسم ، والنسب النسب ، والفعل الفعل . قال الامام أبو يحيى بن اليسع : لما فرغ من كلامه هذا بأمره عشرة رجال من اتباعه بينهم عبد المؤمن ، فبايعوه على ما بايع به الصحابة رسول الله ، وأن تكون يداً واحدة على القتال والدفاع ، فبايعه أصحابه العشرة تحت شجرة غروب ، وتتابع البرابر بعد ذلك فى المبايعة ، أما قائمة العشرة هنا فهي مضطربة لا يصح فيها من الأسماء العشرة إلا ثلاثة فقط ، وهم : عبد المؤمن ، وعمر ازناق (أصناج) والبشير . وقارن ابن خلدون ج ١ ص ٢٢٨ - حيث الإشارة إلى دعوة المصامدة إلى بيعته على التوحيد ، دون سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م ، فتقدم إليها رجالها من العشرة وغيرهم . وأن تكون جماعة العشرة كان على مستوى القبائل كالآتي :

١- أبو حفص عمر بن يحيى .

٢- أبو يحيى يگيت (ابيجيت) .

٣- برنس بن وانودين .

٤- ابن يسمود .

ومن تبينمل : ٥- أبو حفص عمر بن على الصنهاجى (أصناج) .

٦- محمد بن سليمان .

هما : هنتاة و(أهل) تينمل ، واردة ذلك بذكر قبيلتي جدميرة وجنفيسة يمكن أن
يعنى أنه كان هناك مزج بين العشرة السابقين وبين مجلس الخمسين : يمثل القبائل
المختلفة . فكان العشرة هم مجلس الحكم (المصغر) من معاوني الإمام . بينما يكون
الخمسون مجلس النواب الشامل : نواب القبائل - قبائل إقليم السوس من مصمودة
وغيرها من الأحلاف.

ويرجع الفضل إلى ابن صاحب الصلاة الذي نقله ابن القطان في الحفاظ لنا ،
على البيانات التفصيلية عن جماعة الخمسين هذه ، الذين يمثلون ٦ (ست) قبائل
مصمودية ، هي :

(١) هرشة (قبيلة ابن قومرت ويمثلها ٦ (ستة) رجال ، وهم :

- ١- أبو مروان عبد الملك بن يحيى .
- ٢- أبو زيد عبد الرحمن بن سليمان .
- ٣- اسحق (ولم أجد اسم أبيه) .
- ٤- أبو زكريا يحيى بن بومور .
- ٥- يعزى بن مخلوف .
- ٦- أبو زيد عبد الرحمن بن داود (٩) .

= ٧- عمرو بن تافرا تكين (؟ اسم تركي ؟) .

٨- عبد الله بن تلويات : راهب قبيلة هرشة .

فدخلوا في أمره كلهم ، ثم دخل فيه جدميرة (جدميرة) وجنفيسة (جنفيسة) . والذي نلاحظه هنا
أن الرواية ناقصة ، مضطربة ، وأن هناك حاجة ملحة لتحقيق نصوص ابن خلدون . والذي نراه أن
الأمر ربما يتعلق هنا بممثلي القبائل من أهل الخمسين وليس بالعشرة من السابقين الأولين .

(٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٣٠ .

(٢) أهل قينممل (مدينة المعصوم) ويمثلهم ١٤ (أربعة عشر) رجلاً ،
وهم :

٧- أبو عمران موسى بن سليمان القاضي (صهر عبد المؤمن) .

٨- أبو عبد الرحمن .

٩- سواجات بنى يحيى .

١٠- أبو بكر بن يزمان .

١١- أبو محمد عبد العزيزى (لا أدري ابن من) .

١٢- علي بن يامصل .

١٣- الحاج موسى .

١٤- يحيى الموات .

١٥- عبد الله بن ينسالك .

١٦- القاسم بن محمد .

١٧- يوسف بن مخلوف .

١٨- أبو علي يونس (١٠) .

(٣) هنتاة : ويمثلهم ٣ (ثلاثة) ، وهم :

١٩- أبو يعقوب يوسف بن وانرد بن .

٢٠- دارد بن عاصم .

(١٠) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٣١- حيث ١٢ فقط

٢١- أبو محمد بن وجلان.

(٤) جدميوه ، ويمثلهم رجالان ، هما :

٢٢- أبو محمد بعيش.

٢٣- أبو حرب (١١).

(٥) جنفيسة ، ويمثلهم ٤ (أربعة) رجال ، وهم :

٢٤- أبو اسماعيل.

٢٥- أبو زيد عبد الرحمن بن زجر.

٢٦- عبد الله بن الحاج .

٢٧. أبو سعيد بخلف بن الحسين.

(٦) هسكورة ، ويمثلهم ٢ (ثلاثة) رجال ، وهم :

٢٨- اسحق بن يونس.

٢٩- عبد الله بن عبيد الله.

٣٠- أبو عبد الله بن أبي بكر (بن بندوس).

(٧) القبانل ، ويمثلهم رجل واحد ، وهو :

٣١- عبد الرحمن بن بنومر.

(٨) صنهاجة ، ويمثلهم ٢ (ثلاثة) رجال ، وهم :

٣٢- أبو محمد الجرراي.

٣٣- يحيى بن وستار.

٣٤- اسحق بن محمد.

(٩) ومن القرىاء ٥ (خمسة) رجال ، وهم :

٣٥- ابو يعقوب اللطى.

٣٦- ابو زكريا يحيى الدعى.

٣٧- عبد الله بن يوسف الزناتى .

٣٨- سليمان الجزولى.

٣٩- ابراهيم بن جامع (١٢).

ولاحظ ابن القطان أن مصدره : ابن صاحب الصلاة. لم يحد من أهل الحسين إلا زهاء ٤٠ (أربعين) رجلا ، ولكنى أن يكون منهم من يُعَلِّمُ ابن صاحب الصلاة من مستشاري ابن ترمز (أهل المشورة) الذين ربما كانوا منتقلين من أهل الحسين ، وهم ٧ (سبعة) نفر موزعين على القبائل كالآتى :

٤٠- ابو سليمان (من هرغة).

٤١- ابو الحسين (من اهل تينمل).

٤٢- ابو وزغيع بن ياموهل بن يابوجان (تينمل) .

٤٣- ابو داهريغور يوركن (من أهل تينمل).

٤٤- قطران بن ماغليقة (من هنتاة) .

٤٥- ابو محمد سكانه (من مزاة، من هنتاة).

(١٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٣٢ .

٤٦- أبو عمران موسى بن واجهدين (من مزاته، من هتاتة) (١٣).

ويكاد ابن صاحب الصلاة يأخذ بفكرة تداخل مجالس العشرة (آيت عشرة) والخمسين (آيت خمسين) ، وما ينص عليه بعض الكتاب من وجود مجلس للسميعين (آيت سبعين) عندما بعد رجال أهل الدار الذين كانوا في خدمة ابن تومرت في داره ليلاً ونهاراً ، من أهل الخمسين الذي يعدون من أصحاب الإمام المعصوم ، وهم ٥ (خمسة) نفر كالاتي :

٤٧- عبد الواحد بن عمر

٤٨- أبو محمد وسنار بن محمد

٤٩- أبو محمد عبد العزيز

٥٠- أبو موسى هيسى

٥١- عبد الكريم أنغو (١٤)

ووصول عدد المقربين من محمد بن تومرت إلى مايقرب الخمسين ، وإذا أضفنا إلى هؤلاء ٨ (ثمانية) أسماء لرجال يضيفهم البيدق إلى أهل العشرة (ماسبق ص ١٩٢ و ٨) فإن ذلك يعنى ، مع حسابان من تكون أسماؤهم قد سقطت منها عن طريق الذاكرة أو أثناء النقل التحريري ، ان مجالس السبعين (آيت سبعين) كان المجلس العام للدولة الموحدة والذي يلتئم فيه المجالسان الآخران تدريجياً وإلى أعلى على حسب تخصص كل من أهل الخمسين وأهل العشرة ، فكأنه الجمعية الصومية لممثلى نواب الدولة الموحدة ، بحيث يكون أهل الخمسين هم الجمعية العادية ، ويكون أهل العشرة هم المجلس الأعلى أو المجلس المصغر أو الخاص بالنظر فى شئون الدولة العليا أو الاستثنائية ، كما هو الحال بالنسبة لمجالس الوزراء المصغرة أو

(١٣) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٣٣ .

(١٤) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٣٣ .

اللدجان العليا المتخصصة في وقتنا الراهن .

والمهم أن ابن تومرت لم يحج بالشحن المعنوي في أن يربط بين تلك الطبقات من الناس الذين لا تجمعهم قبيلة واحدة ، فقد كان يقول لهم : « ما على وجد الأرض من يؤمن إيمانكم ، وانتم العصاة المعنيون بقوله صلعم : لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرة على الحق ... حتى يأتي أمر الله ، وانتم الذين ينتج الله بكم فارس والروم ، ويقتل الدجال ، ومنكم الأمير الذي يصلي بميسى بن مريم ، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة (١٥) »

دستور الدولة المصمودية الناشئة

مذهب التوحيد :

إلى جانب التنظيم العسكري والإداري الذي كانت عناصره تنشأ وتتطور بشكل طبيعي ، على مدار الزمن ، كان دستور الدولة المتمثل في تنظيم مذهب التوحيد التومرتي الذي تركز عليه قواعدنا التشريعية وبالتالي إدارتها التنفيذية ، وهو الأمر الذي انصرف إلى إعداده محمد بن تومرت منذ استقر في بلاده في رباط خرقة ، والذي انتهى بإعلانه مهدياً معصوماً ، وفي ذلك ألف محمد بن تومرت عمليتين هامتين ، هما العقيدة والمرشدة ، والأولى نظرية مجردة في الإلهيات ، والثانية ترتيب للأمور العملية من شئون الحياة مما يعرف بالمعاملات ويضمنها الشئون التطبيقية في العبادات ، وغير ذلك من شئون الخصوم الأعداء من المرابطين - وهي تعرف جميعاً باسم « أعز ما يطلب » وهي بداية افتتاحية الكتاب .

والحقيقة أن « أعز ما يطلب » يعتبر المؤلف الرئيسي لابن تومرت ، وهو يعطى فكرة عن العلوم التي كان يشتغل بها أهل المشرق ، وخاصة في خراسان والعراق حيث كانت المدارس وأعمال العمالة من رجال القرن الخامس الهجري / ١١ م .

فالمؤردى (قاضى قضاء بغداد ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) هو صاحب الأحكام السلطانية ، وأدب الدنيا والدين ، والفزالي صاحب إحياء علوم الدين (ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) ، إلى جانب الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك ، صاحب المدرسة النظامية (ت ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م) ومؤلف واحد من أهم كتب النظم الإسلامية ، وهو كتاب سياسة نامه ، وأبى بكر الطرطوشى (الفقيه المالكي ، شيخ الاسكندرية وأستاذ ابن تومرت توفى ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) وصاحب كتاب سراج الملوك، هم الذين وضعوا القواعد الرئيسية للفكر السياسى والنظم الإدارية فى عالم الإسلام . والحقيقة ان رباعى المشايخ الذى صقل ابن تومرت خلال رحلته العلمية المشرقية - مباشرة أو غير مباشرة، وهم : الكيا الهراسى (الأصولي الكبير - ت ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م - تلميذ أبى المعالى الجوينى : المتكلم الأصولي) وأبو بكر الشاشي (الفقيه الصدر - ت ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م) إلى جانب الفزالي وأبى بكر الطرطوشى، يجعل من ابن تومرت امتداداً طبيعياً للثقافة المشرقية فى قلب بلاد المغرب.

والذى يلتفت النظر هو ان تلك المدرسة المشرقية : البغدادية الخراسانية كانت تتميز باتجاهاتها العقلانية الواضحة ، حيث كان رجالها إما من المتكلمين أو ممن درسوا عليهم من أبناء المذاهب الأخرى - غالبية كانت أم معتدلة.

هذا الاتجاه الكلامي أو العقلاني يظهر فى مؤلف ابن تومرت «أعز ما يطلب» سواء فى الشكل أو المضمون . فمن حيث الشكل يعتبر «أعز ما يطلب» كتاباً تعليمياً فى منهج المتكلمين (فلاسفة الإسلام) ، الأمر الذى كشف عنه ابن تومرت أثناء مناظراته مع خصومه المغاربة الذين كانوا لا يعرفون أساليب الجدل المنطقى الذى تعلمه هو - بمقربة من غير شك - فى المشرق . وهكذا كان عليه أن يعرّف بالمنهج الدراسى قبل أن يعرض لموضوع الدرس:

فالعلم هو الذى يستعين به الطالب على فتح ما انغلق وكشف ما التبس . وهكذا يكون تعريف العلم بأنه : نور القلب تتميز به الحقائق والخصائص . وهكذا يسجل المنهج العلمى الذى حاول أن يعرف مناظرته به فى مراكز العاصمة (ما سبق

ص ١٨٢ و هـ ١٦٣ . فهو يسأل عن طرق العلم التي تنحصر في ٣ (ثلاثة) :
الحسن والعقل والسمع ، وكل واحد منها ينقسم بدوره على ٣ (ثلاثة) . فالحسن :
متصل ومنفصل ، وما يجده الإنسان في نفسه ، والعقل : واجب وجائز ومستحيل ،
والسمع يكون بالكتاب والسنة والإجماع (١٦) .

أما عن منهج تحصيل الفقه في السنة فيكون به ٥ (خمس) أوجه تتمثل في
معرفة الآتي :

١- كهيئة الأخذ عن الرسول.

٢- اللغة.

٣- ما يتعلق بالمتن.

(١٦) أعز ما يطلب، ص ٣٠، وقارن ابن القطان، ص ١٢٨، حيث شروط العلم ٩ (تسعة)، هي :
الفراغ العام، والبصيرة النيرة، والسيرة الحسنة، والهمة العالية، والصبر الحديدي، والاقتداء
بالإمام الناصح، واتباع السبيل الواضح، والتأدب بأداب أهله، وألا يبتغى منه سوى وجه الله
تعالى. أما هن طالب العلم فعليه أن يقدم ٤ (أربعة) أشياء، هي : الرغبة إلى الله في الهداية
إلى الحق، السريرة الحسنة، يقتنع بها علمه الله، وأن يعلم أن الباب مفتوح لسائر العباد،
والأشياء لا تصح إلا بتقديم ٤ (أربعة)، وهي : الحذر، والاحتياط، والاشفاق، والإخلاص. أما
عن التواطع عن العلم فهي ٤ (أربعة)، وهي : الحوادث الطارئة، اشتغال النفس، وعدم
الكفاف، وصغابة الناس.

أما عن آداب الصمبة، فهي ٨ (ثمانية) : المسالمة، المسامحة، المساعدة، الناصحة، المؤازرة
المواصلة، المحافظة، المكارمة. وقارن الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص ٧٥-٧٧- حيث العلم
شرف لا قدر له... وأصل العلم الرغبة، وثمرته السعادة، قارن محمد عبيد، رسالة التوحيد،
ص ٢٤- حيث تقسيم العلوم إلى ٣ (ثلاثة) أقسام : ممكن (لذاته) وواجب (لذاته) ومستحيل
لذاته، ص ٣٢- حيث العلم من الصفات الوجودية التي تعد كمالاً في الوجود. ص ٥٨- حيث
من يطلب العلم لأنه شهرة العقل ويسمى المعارف بأسمائها حتى القول بأن الحكمة شامية، ومن
يراعى أن ذلك دين يعتمد به واعتقاد بشئون الإله عظيم-يحسن لزوم الأدب فيه .

٤- الصحيح والسقيم .

٥- معرفة الاستنباط والتأويل (١٧).

وهو يستخدم المصطلحات الكلامية الفنية ، كما يعرف بالمسلطات:

ففى أصول الحق والباطل يعرف بأن العلم أصل الهدى ، والجهل والشك والظن أصول للضلال ، وهى الأمور التى لا تنكر من حيث أنها مقطوع بصحتها كما دلت عليه الأدلة العقلية والبراهين السمعية . وفى ذلك : فالأصل لا تتناقض فروعه ، ولا يكون أصلا لما نقيضه أصل له . فالمعنى الواحد مستحيل كونه أصلا للنقيضين (١٨) .

وعلى نفس النسق : لا منزلة بين الحق والباطل ، ولا ثالث بين المهتدي والضال . هذا ، كما يكون التواتر طريقا إلى العلم ، والآحاد ليست بطريق إلى العلم ، ويكون التواتر هو الأصل والآحاد الفرع (١٩) ، أما الأحكام فهى (خمس) : واجب ، محظور ، مكروه ، مندوب ، ومباح (٢٠) . أما الكلام فيكون فى : العموم ، والخصوص والمطلق ، والمقيد ، والمجمل ، والمفسر ، والناتج ، والمنسوخ ، والحقيقة والمجاز (٢١) .

(١٧) أعز ما يطلب ، ص ٣٢ .

(١٨) أعز ما يطلب ، ص ٣٣ ، وانظر روبرت برونشفيج R. Brunschvig ، دراسات إسلامية (بالفرنسية) ، باريس ، ١٩٧٦ ، ص ٢٨١- عن محمد بن تومرت حيث محاولة معرفة مصادر أفكار ابن تومرت الأولية (ص ٢٨٢) ، وحيث : "الظن يقف ضد علم اليقين أو الحق... وان الظن لا يقضى عن الحق شيئا (ص ٢٨٥) ، وحيث : "الظن ضد العلم أى ضد القطعى والمقطوع به" (ص ٢٨٦) .

(١٩) أعز ما يطلب ، ص ٤١ .

(٢٠) أعز ما يطلب ، ص ٤٢ .

(٢١) أعز ما يطلب ، ص ١٧٣ .

أما عن التعريف الفلسفي لله أو الذات الإلهية : فالموجود المطلق هو القديم الأزلي ، الذي استحال عليه القيود والخواص ، المختص بإطلاق الوجود من غير تقييد (٢٢) . وكل ذلك يعتبر تمهيداً لتعريف العقيدة .

العقيدة : التوحيد :

والأمر المستغرب في العقيدة ان ابن تومرت ألفها لأبناء وطنه - مصامدة بلاد السوس - بلغتهم المحلية البربرية التي أظهر حذقه لها منذ الوصول إلى بلدة أم الربيع في طريق العودة (مسبق ، ص ١٨٠) . وإذا كان الإسلام هو دين التوحيد الأنهى ووحدة الأمة الإسلامية ، فإن مذهب التوحيد كما هو معروف ، معتزلي أصلاً ، إذ يمثل أول مبادئ المعتزلة الخمسة ، وهي : التوحيد ، والعدل والاحسان ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٣) . والتوحيد عند المعتزلة هو التوحيد المطلق الذي لا شبهة فيه من التجسيم . ففكرة التوحيد عندهم ترمي التي تصور (ذات) الله تصوراً روحياً صرفاً ، مجرداً من كل مادية أو تشبيه أو تجسيم ، وذلك عن طريق انكار الصفات (٢٤) .

فالتوحيد عند المعتزلة يعني أن الله عز وجل لا كالأشياء ، وأنه ليس بجسم ولا عرض ، ولا عنصر ، ولا جزء ، ولا جوهر ، بل هو الخالق للجسم والعرض ... وأن شيئاً من الخواص لا يدركه في الدنيا ولا في الآخرة ، وأنه لا يحصره مكان ولا يحويه

(٢٢) أهر ما يطلب ، ص ١٨٦ .

(٢٣) المسعودي مروج الذهب ، وانظر للمؤلف : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والاندلس ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٣ ، ص ٢١ .

(٢٤) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٨٨ - حيث وكان (ابن تومرت) على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل إلا في اثبات الصفات ، فإنه وافق المعتزلة في نفيها ، وفي مسائل قليلة غيرها ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٢٧ - حيث النص على ابن تومرت كان يقوم بتدريس الفقه والكلام وكان له في طريقة الأشعرية إمامة ، وهو الذي أدخلها (الأشعرية) إلى المغرب .

الأقطار ، بل هو الذى لم يزل ولا زمان ولا مكان ، ولا نهاية ولا حد ، وأنه الخالق للأشياء (٢٥).

وبمثل هذا وأكثر منه نادى محمد بن تومرت فى « أعز ما يطلب » فى توحيد البارى ، سبحانه ، لا إله الا الذى دلت عليه الموجودات ، وشهدت عليه المخلوقات بأنه : جل وعلا وجب له الوجود على الإطلاق ، من غير تقييد ، ولا تخصيص بزمان ولا مكان ، ولا جهة ، ولا حد ولا حبس ، ولا حدود ، ولا شكل ولا مقدار ، ولا هيئة ولا حال.

أول لا يتقيد بالقلبية ، آخر لا يتقيد بالبعدية ، أحد لا يتقيد بالأينية ، صمد لا يتقيد بالكيفية ، عزيز لا يتقيد بالمثلية.

لا تحده الأذهان ، ولا تصوره الأوهام ، ولا تلحقه الأفكار ، ولا تكيفه العقول. لا يتصف بالتحيز والانتقال ، ولا يتصف بالتغير والزوال ، ولا يتصف بالجهل والاضطراب.

له الاسماء الحسنى ، واحد فى أزليته ، ليس معه شئ غيره. لا موجود سواء ، لا أرض ولا سما ، ولا ماء ، ولا هوا ، ولا خلاء ، ولا ملأ ، ولا نور ، ولا كلام ، ولا ليل ولا نهار ، ولا أنيس ولا حسيس. لا يرجو ثوابا ، ولا يخاف عقابا (٢٦).

(٢٥) المسعودى ، مروج الذهب ، وانظر للمؤلف : محمد بن تومرت وحركة التجديد فى المغرب والأندلس ، ص ٢٢ .

(٢٦) محمد بن تومرت ، أعز ما يطلب ، الجزائر ١٩٨٥ ، ص ٢٢٥ ، وقارن التوحيد عند محمد عبده رسالة التوحيد ، ص ٢٣ - حيث النص : "والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفرق فى القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، وانتقل من أقرى أركانها ، وما وراء ذلك فترعات شياطين ، وشهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل مملعه قاض عليه -

المُرشدة :

أما عن المُرشدة التي يُقصد بها تنظيم المعاملات الدينية بمعنى التطبيقات العملية في العقائد ، فتظهر وثيقة الصلة بالتروحيد . فهي تبدأ بـ « اعلم أرشدنا الله وإياك إنه يجب على كل مكلف ان يعلم ان الله عز وجل واحد في ملكه ، خلق العالم بأسره ، العلوى والسفلى والعرش والكرسى والسموات والأرض ، موجود قبل الخلق، ليس له قبل ولا بعد ، ولا فوق ولا تحت ، ولا يمين وشمال ، ولا أمام ولا خلف ، ولا كل ولا بعض » (٢٧) ، فكانها جزء من التوحيد ، الأمر الذي يعنى ان التوحيد هو الأصل . وان المعاملات هي الفروع - كما يقال اصطلاحاً (٢٨) .

الإمامة :

وهكذا تأتي الإمامة وكأنها أول منظمة في المعاملات الدينية من حيث كونها

= في صوابه وخطئه .

والغاية .. معرفة الله بصفاته ... مع تنزيهه عما يستحيل أتصافه به ... والتصديق برسالة على وجه اليقين ... اعتماداً على الدليل لا استرسالاً مع التقليد ... إن التقليد كما يكون مع الحق يكون في الباطل، وكما يكون في النالج يكون في الضار ... " وأنظر للمؤلف محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٣ . ص ٢١-٢٤ .

(٢٧) أعز ما يطلب، ص ٢٦- حيث يستمر النص : لا يتخصص في الذهن، ولا يتمثل في العين، لا يتصور في الوجود، ولا يتكيف في العقل، ولا تلحقه الأوهام والأفكار، ليس كمثل شئ، وهو السميع البصير، ليس معه مدير في الخلق، ولا شريك في الملك، حي قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، أعاط بكل شئ علماً، وأحصى كل شئ عدداً ...، وله الأسماء الحسنى، لا دافع لما قضى، ولا مانع لما أعطى ... ليس عليه حق ولا عليه حكم، فكل نعمة منه فضل، وكل نعمة عنده عدل، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لا يقال متى كان؟، وقارن الجليل المُرشدية، ص ١١٧- حيث قال كاتب هذا، مما اثبتته في بعض توالييفه : اعلم أرشدنا الله، وإياك أنه يجب على كل مكلف ... إلخ، ص ١١٨- حيث ومن دعائه : اللهم اعنا على طاعتك .

(٢٨) أعز ما يطلب، ص ٨٣ .

بديلة للخلافة أو إمامة المؤمنين بطبيعة الحال ، وان جعلها من أصول الاعتقاد . فهدم
يبدأها بالنص على « وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة ، وهى ركن من أركان
الدين ، وعمدة من عمدة الشريعة ، ولا يصح قيام الحق فى الدنيا الا بوجود اعتقاد
الإمامة فى كل زمان من الأزمان ، إلى أن تقوم الساعة .

ما من زمان الا وفيه إمام لله قائم بالحق فى أرضه . من : آدم إلى نوح . ومن
بعده إلى إبراهيم : « انى جاعل للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ، قال : لا ينال
عهدى الظالمين » (٢٩) .

ولا يكون الإمام المعصوما من الباطل ، ... ومن الضلال ، لأن الضلال لا يهدم
الضلال ، ولأن الفساد لا يهدم الفساد . لا بد أن يكون الإمام معصوما من هذه الفتن ،
.... ومن الجور لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبتها . وان يكون معصوما من البدع لأن
المتبدع لا يهدم البدع بل يثبتها . وان يكون معصوما من الكذب ... والجهل ...
والباطل (٣٠) فلا يدفع الشئ الا بضده . وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم ،
لأن الظالم لا يهدم الظلم ... فبذلك لا يناله عهد الله (٣١) .

وبعد عرض تاريخى يبدأ من « عيسى الذى بعثه الله نبياً إماماً ، يقوم بالحق
(حيث) لا بد من العمود الذى قامت به السماوات والأرض فى سائر الأزمان فى
الدنيا ، وهو الإمام متى زال العمود خرب السقف من فوقه » ... إلى « محمد
المصطفى : إمام المتقين ... فدانوا له ... واعتقدوا أن المسارعة إلى مرضاته
مسارعة إلى مرضاة الله ... ثم كان أبو بكر إماماً بعده ، خليفة على عباد الله ...
قال إمام هو المتبوع ... إليه تؤدى الحقوق ، وبه تضرب الرقاب ، وبه ترفع الحدود ،
وبه يساق كل حق وبه ينفذ كل حكم ... وبعد ٣٠ (ثلاثين) سنة (عصر

(٢٩) سورة البقرة آية ٢ .

(٣٠) أعز ما يطلب ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٣١) أعز ما يطلب ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

الراشدين) بدت بعد ذلك أفراق وأهراء ، ونزاع واختلاف ، وقلوب منكرة وشح مطاع ، وهوى متبع ، وأعجاب كل ذي رأى برأيه حيث صار زخرف الدنيا ديناً ، والجهل علماً والباطل حقاً ، والمنكر معروفاً ، والجور عدلاً ... فجاء المهدي في زمان الغيبة...

من تلك النصوص عن المهدي يمكن أن نفهم أولاً أن ابن تومرت لم يأخذ الفكرة الشعبية أخذاً حرفياً بل أنه طورها تاريخياً بحيث تتفق مع الفكر السني الذي كان عليه أهل المغرب والأندلس . فالعصاة التي عرفها ابن تومرت أثناء رحلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو في طريق عودته إلى المغرب كانت عصته مما كان يتهدده من الأخطار ، من إذابة كل من أهل الأسكندرية وأهل السفينة وأمير بجاية ، وختاماً بتهديد على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ، له بالسجن بل والقتل . فهذا ما يفهم من رواية البيهقي منذ الخروج من ملالة وحتى نهاية الرحلة ، حيث لقب «المعصوم» في الخلاص من خطر للدخول في مجال خطر جديد (٣٢).

والأمر الثاني أنه اعتبر الأنبياء من إبراهيم إلى محمد أنسة ، بالاضافة إلى عهد الخلفاء الراشدين الذي اعتبره الكتاب استمراراً للعصر النبوي ، حيث تتحول الخلافة بعده إلى ملك عضود . فكان النبوة تمثل المهذية والعصمة . وكان العصر النبوي والراشدي هو عصر سيادة الفضيلة ، وما تلاهما : عصر المروق عن قواعد الإسلام الصحيح ، وخاصة آخرها : عهد المرابطين الذين يصفهم ابن تومرت بالمجسمين في مقابل أصحابه من الموحدين ، والذين رأى أن جهادهم أولى من جهاد الكفار (٣٣).

(٣٢) البيهقي، ص ٣٧، ٣٩، ٤٠ الخ .

(٣٣) انظر أعز ما يطلب، ص ٢٣٢-٢٣٥ حيث النص على أنه بعد ٣٠ (ثلاثين) سنة بدت بعد ذلك أفراق وأهراء... فثبتت أصول الباطل حتى ارتفعت فروعه، فجاء المهدي في زمان العربة مع تكين العكس، الذي عكست فيه الأمور وقلبت الحقائق وبذلت الأحكام، وخصص الله بما فيه من معاني الهداية ووعده قلب الأمور في عاداتها... ونقلها إلى الحق بإذن الله حتى تنتظم الأمور على سنة الهدى... حتى يلاها عدلاً كما ملئت قبلها ظلماً وجوراً. فهذا ما وعد الله

وآخر فصول «أعز ما يطلب» تتمثل في القواعد التي بنى عليها علوم الدين والدنيا ، وفيها :

١- الرسل حق وأنه لا يفرق بينهم ، وأن كتب الله حق ، وأنه لا يفرق بينها (٣٤).

٢- معرفة أصحاب الفتن : الرؤوس الجهلة والملوك الفجرة ، والدجاجلة الطغاة.

٣- معرفة أصول الفتن : الافتراق وعدم الاجتماع والاختلاف وعدم الاتفاق .

وفي النهاية يأتي باب في بيان طوائف المبطلين من الملحمين والمجسسين (المرابطين) وعلاماتهم خمسة وهي أنهم : الخفأة ، العرأة ، العالة ، الرعاة ، جاهلون بأمر الله ، وصفاتهم سبعة ، هي أنهم : يأتون آخر الزمان ، ملوك ، يتطاولون في البنيان ، يلدون مع الإماء ، يستكثرون الجواوى ، صم ، بكم.

وبعد ذلك تأتي مجموعة من الأحاديث النبوية ، المرووعة من غير شك ، في علاماتهم (٣٥) ، فكأنها عودة إلى ظهور المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

فصل المقال في مذهب التوحيد التومرتي :

وهكذا تتمثل العناصر الرئيسية في مذهب التوحيد لاهن تومرت حسب التسلسل

= تعالى للمهدي ، وعد الحق الذي لا يخلفه... سنته سنة الله ورسوله وأمره أمر الله ورسوله ، وطاعته طاعة الله ورسوله ، وقارن العرض التاريخي الذي عبد الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد ، ص-١٣ وما بعدها- حيث وظيفة الرسل. ص١٥٢- حيث : الدين الذي جاء به محمد ووعاءه منه صحابته وجري العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف في التأويل -ميل مع التشيع. ص١٦٦- حيث ترقى الأديان بترقى الإنسان ، وكمالها بالإسلام.

(٣٤) أعز ما يطلب، ص٢٣٧ .

(٣٥) أعز ما يطلب، ص٢٤٧-٢٤٤ .

التاريخي ، كما نرى ، في الآتي :

مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو العنصر الخامس والأخير في الإسلام والإيمان لدى المعتزلة ، ومن تطبيقه نشأت فكرة عصمة الحاكم أو الإمام الذي يقع عليه التنفيذ للأحكام المعروفة عند الشيعة ، وهو الأمر المقبول من حيث أن القرآن دستور الإسلام الديني والديني يتناول موضوعات روحية أو حياتية متباينة قد تظهر أحيانا متعارضة حسبها هو معروف في الآيات البيّنات والآخر المتشابهات ، الأمر الذي يتطلب العلم والحكمة والعقل في تطبيق العدالة . وهكذا يمكن أن يتطلب الأمر من ولي الأمر ، المشرف على تنفيذ الأوامر والنواهي ، أن يكون متدينا بنوع من التميز الذي يصل فعلا إلى مرتبة العصمة من الخطأ - الأمر الذي يتلافى الخلاف والفرقة بل والتقابل أحيانا بين أصحاب الآراء المختلفة .

هذا ومن الواضح تاريخيا أن العصمة التومرتية مرتت بمرحلتين ، الأولى تمثل العصمة من الخطر - خطر الأعداء والخصوم الذي تعرض له ابن تومرت أثناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريق عودته من الاسكندرية إلى بلده ، والثانية : العصمة من الخطأ التي تعنى الحاكم المطلق أو المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما والذي يخضع له جميع الموحدين ، ويعترفون بعذالته ، كما الأنبياء وخاتمهم محمد المصطفى (٣٦) الذي ينبغي أن ينسب إليه المهدي المعصوم - وهي الفكرة الأساسية في التشيع . « فهذا ما وعد الله تعالى للمهدي ، وعد الحق الذي لا يخلفه ، وطاعته صافية نقية ، ولم ير مثل طاعته لاقبل ولا بعد ، ولاند له في العوي ... سنته : سنة الله ورسوله ، وأمره : أمر الله ورسوله ، وطاعته : طاعة الله ورسوله » - وهو ما حطه ابن تومرت بيده في دستور دولة التوحيد وبالفتن البربرية والعربية (٣٧) .

(٣٦) أعز ما يطلب ، ص ٢٣٦ .

(٣٧) انظر ، أعز ما يطلب ، ص ٢٣٤-٢٣٥ .

وهكذا يبدأ مذهب التوحيد وكأنه محاولة من جانب المنظر المغربي المصمودي للتوفيق بين المذاهب الإسلامية الدارجة وقتئذ في عالم الإسلام ، وهي المحاولة التي كان قد رفع لواءها حجة الإسلام ، الإمام الغزالي ، ممثلاً في مصنفه الذائع الصيت : « إحياء علوم الدين » . فقد وجد الغزالي أن معاناة الإسلام - ديننا ودولة - تتمثل في تفرقه إلى : سنة وشيعة وفلاسفة متكلمين ومتصوفة زهاد . وهو عندما سار في التجربة الصوفية إنما كان في حقيقة الأمر يتملص من مسئوليته في محاولة رأب الصدع بين الفرق الإسلامية المتناحرة ، وإعادة الوحدة إلى إسلام الطوائف ، وهو الأمر الذي رأى ابن تومرت أن يأخذه على عاتقه ، بتناداته بالوحدة ، وتأييده لمذهب « التوحيد » توحيد المعتزلة المطلق - الذي استفاد منه مذهب الأشعرية - مع الربط بإسلام السلفية من طبقة عصر النبوة والراشدين - الأمر الذي يعنى الالتزام بعدم الخروج عن قواعد الإسلام الأصولي الأول ! وهو الأمر الصعب المنال ! (٣٨) .

فهو في الوقت الذي ينادى بتوحيد المعتزلة المبني على مبدأ التأويل الذي أخذ به مذهب الأشعرية الذائع الانتشار وقتئذ في المشرق ، فكأنه توجه عقلائى بالنسبة لمن يأخذ به من أهل السنة ، وخاصة من الحنفية والشافعية (٣٩) - يرفض مبدأ المنزلة

(٣٨) الأمر الذي يذكر بما يقوله الشيخ محمد عبده في نهاية رسالته من أنه "ربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرّة في قضايا الدين، وكأن أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصرة أن تغد إلى ما أودعه من معارف وأحكام - رسالة التوحيد، ص ١٢٨ .

(٣٩) انظر فتح الله خليف (مقدمة) التوحيد للماتريدي، ص ٧٧ (مقدمة) - حيث النص : "يقول طاش كبرى زادة : ثم اعلم أن رنس أهل السنة والجماعة في علم الكلام رجلان، أحدهما حمى والآخر شافعى. الخطى : الماتريدي (إمام الهدى - ت ٣٣٢هـ / ٩٤٤م) ، والشافعى : شيخ السنة ورئيس الجماعة، إمام المتكلمين : أبو الحسن الأشعري البصري (ت ٣٣٠هـ / ٩٤١م) . ص ١ - حيث مذهب كل من الماتريدي والأشعري : مذهب وسط بين الموحدين والعقلانيين من المعتزلة، وأنهما يلتقيان في إثبات صفات الله وفي كلامه الأزلى، وفي جواز رؤيته... وأن لله علماً لا كالعلوم ، وقدرة لا كالتقدرة، وسمعاً لا كالأسماع، وبصراً لا كالبصائر. وص ١٩م - في كلام الله قال الأشعري : القرآن كلام الله قديم ، أما الحروف فهي مخلوقة مبتدعة. فكأن ذلك موقف الوسط بين السنة بمعناها الظاهري، وبين الكلام والفلسفة بمعناها الباطني .

بين المنزلةين المعتزلي على أساس أن الأصل لا تتناقض فروعه ، ولا يكون أصلاً لما نقيضه أصل له (٤٠). وبناء على ذلك : «لا منزلة بين الحق والباطل ، ولا ثالث بين المهتدي والضال (٤١) وهو في الوقت الذي يقول فيه بنفى التشبيه كالمعتزلة من حيث أن وجود الخالق سبحانه على الإطلاق ، يقول : «للعقول حدٌ تقف عنده لاتتمدها : فكل ما سبق قضاؤه وقدره واجب لامحالة ظهوره» (٤٢)، كما يقول عندما يعرض لأسماء الله تعالى : «ما ورد من الشرع في الرؤية يجب التصديق به» ، فكانه يأخذ بمقالة أن : «العقل ليس له في الشرع مجال» (٤٣)، فكانه يحاول التوفيق أو التلفيق بين الآراء المتناقضة في سبيل تحقيق التوحيد - وهو الأمر الصعب أو العسر الهضم.

حرب دعاية عنيفة ضد المالكية المرابضية

بداية حرب المطاوعة

خلال الفترة من سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م حيث كانت بيعة محمد بن تومرت إماماً معصوماً وحتى سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م حيث كانت القلة إلى تينملل كان الرجل ينشئ مذهبه في التوحيد ، والذي يهدف إلى لمّ شمل ما تفرق من المذاهب التي عرفها عالم الإسلام منذ بدايته في العصر النبوي - الراشدي ، وحتى مطلع القرن السادس الهجري / ١٢ م على المستوى العقائدي الديني ، ما بين أفكار أهل الظاهر والباطن ، وما بين هذين الاتجاهين من أفكار المحايدين من المعتزلة أو الخوارج ، وعلى المستوى الحمياتي الدنيوي ما بين الأخذين بحظهم من الحياة الدنيسا ، والهاربي

(٤٠) أعز ما يطلب، ص ٣٢ .

(٤١) أعز ما يطلب، ص ٣٦ .

(٤٢) أعز ما يطلب، ص ٢١٦ .

(٤٣) قارن محمد عبده، رسالة التوحيد، ص ٥-٦ حيث "وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو للعقل :نتائجه ومقدماته. فكان جل ما في علوم الكلام . تأويل وتفسير

من مفاتنها من أهل الآخرة ، وما بين موقف أهل الوسط : الأخذين من الدنيا كأنهم يحيون أبداً ، والعاملين بنفس القدر من أجل الآخرة كأنهم يموتون غداً . وهى - كما نرى - المبادئ التى يعرفها فى « أعز ما يطلب » بأنها ذات أصول متناقضة لا تؤدى إلا إلى فروع متناقضة بطبيعة الحال.

والمهم أن ابن تومرت ألزم أهل بلاده من البربر الجباليين - الذين كانوا إلى عهد قريب يجهلون مبادئ الإسلام الأولية - بتوحيد المطلق الذى جعله أصلاً لكل الأفكار الدينية المختلفة ، كما سماهم « بالمؤمنين » قبل أن يسميهم « بالموحدين » ، دون غيرهم من المسلمين (٤٤) - الأمر الذى يذكر بتجربة أبى عبد الله الشيعى مؤسس الدولة الفاطمية فى بلاد أفريقية ، فى أواخر القرن الثالث الهجرى وبداية الرابع / ٩-١٠م - قبل ٢٠٠ (مائتى) عام (٤٥).

والمهم أن هذا النظام الدينى الجديد كان يسير جنبا إلى جنب مع النظام السياسى - العسكرى الذى نشره ابن تومرت بين أصحابه فى قبيلة هرثة وغيرها من القبائل الخليفة ، مما سبقت الإشارة إليه من اتخاذ ابن تومرت لقب الإمام المعصوم ، وتكوين مجلس العشرة ، والخمسين ، والسبعين ثم ترتيب القبائل حسب القرابة من الإمام والأولوية فى الدخول فى الدعوة ، فكانها السابقة فى الإسلام (ماتى) ، ص (١٩٨). وعن هذا الطريق أصبح الموحدون فى المجتمع المغربى المتجدد هم المسلمين

(٤٤) انظر أعز ما يطلب، ص ٢٧١- حيث باب فى أن التوحيد يهدم ما كان قبله من الكفر والأثام، وباب فى وجوب العلم بالتوحيد وتقديمه على العبادة واعتماد العبادة على المعرفة- وما فى هذا المعنى من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وانظر عبد الواحد المراكشى، المعجب، ص ١٨٨- حيث طبقات الموحدين الذين لا يجمعهم قبيلة واحدة، وكان يقول لهم، ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم، وانتم العصاة المعنيون بقوله صلعم : لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرة على الحق، لا يضرمهم من حولهم حتى يأتى أمر الله، وانتم الذين يفتح الله بكم قافس والروم... ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة.

(٤٥) انظر ج ٢ ص ٥٥٧ .

حقاً ، الذين يقع على عاتقهم جهاد غير الموحدين من المسلمين ، وإلزامهم بالدخول في حظيرة التوحيد .

وهذا ما يظهر فعلاً في كتاب ابن تومرت : « أعزما يطلب » ، حيث تنتهي كل من العقيدة والمرشدة بأبواب في أعداء الإسلام ، أعداء التوحيد ، كما كان الحال بالنسبة للتمهيد لقيام دولة الفاطميين في إفريقية والقيروان . فهؤلاء هم أصحاب الفتن من المرابطين المثلثين الذين يوصفون بالمبطلين والمجسمين - والزواجنة رداً على تلقيبهم للموحدين بالخوارج (٤٦) ، كما يوصفون بالرعاة الجهلة الذين يتناولون في الهتان - ما يعبر عن نهاية الزمان !

والمهم أيضاً أن ابن تومرت لم يكتف بتلك الدهاية العنيفة ضد المرابطين في دروسه للأصحاب والتلاميذ الذين قسمهم إلى طلبة (كبار) وحفاظ (صغار) ، أو للوافدين عليه من شيوخ القبائل وأعيان البلاد ، بل إنه كان يوجه الكتب في أنحاء البلاد لحمل الدهاية المعادية للمرابطين .

ويحتفظ لنا البيهقي بنسخة رسالة بعث بها المهدي إلى أهل التوحيد واستخدمها عبد المؤمن بعده في استمرار الدعاية ضد المرابطين (٤٧) وفي تلك الرسالة التي تعتبر نموذجاً للرسائل الموحدية الرسمية الأولى ، من حيث : البدء بالبسملة والتصلة ثم تحديد جماعة المرسل إليهم ، وهم أهل التوحيد ثم السلام . وتأتي بعد ذلك الحمدلة والتصلة والتوصية بالتقوى . وتشيد الرسالة بعد ذلك بقيام أهل التوحيد بنصرة الحق والاجتهاد في إحياء السنة ، وإخماد الباطل والضلال . وبالتالي إحياء

(٤٦) الحلل الموشة ، ص ١١١ ، والهامش - حيث الزرجان طائر أسود اللون أبيض الريش لأنهم بيض الثياب ، سود القارب ، كما سماهم بالحشم لاستخدامهم اللثام ، كما فعل الساء .

(٤٧) انظر أعز ما يطلب ، ص ٥٧ ، وقارن ابن القطان ، ص ٨٤ - حيث وكتب كتبه إلى جزولة ولطة وتشكيسة ، بدعوتهم إلى الطاعة ، وقد تقدمت نسخة كتابه في السنة قبل هذه (٥١١٢/هـ - ١١١٢م) ، وانظر الهامش حيث " يبدو أنها سقطت في بعض النسخ " .

الدين (٤٨).

أما الخصوم من المراطيين فهم المجسمة المفسدون ، والكفرة المثلثون ، الذين سعوا في هدم الدين وإماتة السنة ، واستعباد الخلق ، والاعتداء على الناس بأخذ الأموال وخراب الديار . وهم الذين يجمعون الحرام ويتمتعون بالسحت حتى اعتادوا الاسراف والتبذير في اللذيذ من الطعام والرفيق من الثياب ، والخييل المسومة ، وغير ذلك من أباطيلهم ، وجورهم وفسادهم في الأرض (٤٩) . وهم أعداء كل من تاب وأناب ، واشتغل بتعليمهم فرائض الله ، فهم ينسبونهم إلى الضلال والبدعة ، ويهينونه ويمذبونه على دينه .

فهم لذلك الكفرة الطغاة كالجبابرة والفراعنة الذين يعذبون الناس على الحق ، ويقربون المجسم والناجر ، والمخمور ، وقاطع الطرق ، ويكرمونهم (٥٠) .

وهكذا لا يفتتن بهم إلا أبناء حزب الشيطان وجنوده من أبناء الدنيا المذهبيين ، والبرابر المفسدين ، والملبسون من الطلبة (الفقهاء) المكارين ، وغيرهم من أولياء الشياطين ، وأعوان الكفرة المثلثين . والملبسون من الطلبة الذين تسموا بالعلم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وتزينوا بالفقه هم أشد الطوائف ، من حيث تعلقهم

(٤٨) أعز ما يطلب، ص ٢٥٧-٢٥٨ .

(٤٩) أعز ما يطلب، ص ٢٥٩-٢٦١ .

(٥٠) أعز ما يطلب، ص ٢٦١-٢٦٢ ولقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٦-حيث حديث :صنفان من أهل النار، لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات لا يدخلن الجنة-إلى جانب رواية لنفس الحديث بشكل آخر، ص ٤٨-حيث : "يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الكفار وليجدوا فيكم غلظة" (التوبة/١٢٣) والحديث : "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني: ماله ونفسه إلا بحقه، وقول أبي بكر: والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، وقول الإمام (المهدي المعصوم): فكل من منع فريضة من فرائض الله عز وجل لحق على المسلمين جهاده... فكيف من منع الإيمان والدين والسنة؟

بالكفرة (المجسمين) ، وتصوبهم لضلالهم ، وإيهامهم أنهم على الحق (٥١).

ولم يقابل ذلك تردّد الرسالة ، بل وتدخل ما نسبته المراءيون إلى محمد بن تومرت بهدف تبغيض الحق عند العوام - من قولهم : هذا رجل يكفر المسلمين ، ويمتنع من الصلاة على أهل القبلة . ويقول : أن من تاب لا يلزمه قضاء الصلاة والصيام وغير ذلك من العبادات . ويرد المطلق ثلاثاً إلى زوجها ، وينشر المناكر والفساد في الأرض ، والاعتداء على الناس في أديانهم وأنفسهم وأقوالهم .

وهو يتهمهم بالاعتداء على الناس ، ويعتبر ذلك أدنى أباطيلهم التي يستحقون بأن يجاهدوا عليه جهاد فرض ، وليس جهاد تكليف (٥٢) . وبناء على ما تقدم فإن من قُتل من المجسمين في تلك الحرب الدينية فهو في النار ، ومن قُتل من الموحدين فهو في الجنة شهيد - فكانها عودة إلى بداية ظهور الإسلام في بلاد العرب ، أو قيام دولة الفاطميين في المغرب .

والرسالة تحث الموحدين في النهاية على تحسين نياتهم ، وتعددهم بالنصر ، وتحرضهم على حسن الجهاد ، وتصفهم بأنهم «حزب الله» الغالبون.

وأخيراً يصف عبد المؤمن كلام المهدي بأنه نور وضياء ، ورحمة وشفاء لما في الصدور (٥٣) . وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن الرسالة الكافية في براهين الإمام

(٥١) أعز ما يطلب، ص ٢٩٢. الأمر الذي يظهر فيه أثر الغزالي، وقارن ، ابن القطان، نظم الجمان، ص ٤٤-٤٥- حيث وحذر-رضي-عن الملبسين الذين يتسلطونهم بقيادهم إلى باطلهم وأموالهم... وحذر من أعوانهم الذين باعوا دينهم... خسروا الدنيا والآخرة، ملعونين على لسان الرسول...، ص ٤٧- حيث وطاعتهم حرام لأنهم كفار ومنافقون، ويتبعون الهوى ومفسدون وجاهلون.

(٥٢) أعز ما يطلب، ص ٢٦٣-٢٦٤. وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص ٤٧- حيث النص : وحارلوا (المراءيون) تبدل الكلام بالزور والبهتان، وتقولوا علينا ما لم نقل تهجينا للحق عند العوام، ونسوا ذلك كله إليه.

(٥٣) أعز ما يطلب، ص ٤٦٤-٤٦٥ .

المهدي - رضى - عقلا ونقلا ، والتي خاطب بها أبو عبد الرحمن بن طاهر (من رؤساء مرسية) الخليفة الأول : عبد المؤمن ابن علي ، وثبت فيها أمر الإمام المهدي - رضى - بالدليل والبرهان ، على طريقة المنازعة بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء عقلا ونقلا ، وتحوى تلك الرسالة الكلام فى المدينة الفاضلة فى مقابل المدن الضالة الجاهلية (٥٤) ، والتي تنتهى بالقول : وإذا نحن تأملنا فى أفعال المهدي - رضى - فى خاصة نفسه وجدناها فضائل بالذات خالية ، وإذا تأملنا تدبيره للناس وجدناه كله منحور السعادة الحقيقية ، فهو عارف بضرورة المهنة الملكية ، وبالفضائل العملية.

وبعد إشارة إلى تعليق ابن تومرت على تواليف الفزالى يقول فيه : «إن ذلك الرجل قرع الباب ولم يفتح ، أو ولم يؤذن له أو ولم يلج» بأتى النص على أن تواليف المهدي ابن تومرت تشهد له بأنه «عارف بالفضائل الفكرية والفضائل الخلقية» «وهذا هو الإمام الأول الذى يستحق ان يكون ملك المسورة الكونية» (٥٥) وهكذا كانت هذه الدعاية الاعلامية مقدمة طبيعية للحرب بين المرابطين ودولة الموحدين الناشئة فيما يعرف بحرب المطالبة أي نزال تقرير المصير بالنسبة لكل من الطرفين المتصارعين ، فكانها بداية قيام دولة المصامدة الموحدين.

(٥٤) ابن القطان، نظم الجمان، ص. ٥٠-٥١ .

(٥٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص. ٥٠-٥١ حيث النص على أن درجته ارتفعت عن ان يكون خادما لشئ من الأجزاء المربطة، بل مديراً للكل حتى يحصل للناس السعادة الحقيقية .

الفصل الرابع قيام الدولة الموحدية

A S R

A S R

محمد بن تومرت مالكا لا يخطيء

A S R

محمد بن تومرت ملكا لا يخطئ

ذو سب محمد بن تومرت وأسرته:

محمد بن تومرت ينتسب إلى قبيلة هرغبة ، إحدى قبائل المصامدة (مفردها مصودة) من بربر البرانس الحضري (١) ، القاطنين بجبال درن ، بمنطقة بلاد السوس (الأقصى) ، والحافظين على تقاليدهم المغربية العريقة وبضمنها اللهجة البربرية (مسبق ، ص ٧٧ وما بعدها) . وهكذا يقال إن محمداً هو اسم بن تومرت العربي ، أما اسمه البربري الأول فهو «أسفو» بمعنى الضياء . وإذا كانت الرواية العربية تقول: إن ذلك الاسم هو لقب لمحمد لأنه كان يكثر من إيقاد السراج في المسجد من أجل القراءة والدرس منذ الصغر ، فالصحيح أن «أسفو» (ضياء) هو اسمه القومي ، تماما ، كما هو الحال بالنسبة لاسم أبيه «تومرت» (Tou Mart) وهو الاسم البربري الذي يعني «أنت حبيبتي» والذي كانت تناديه به أمه ، التي جانب اسمه العربي «عبد الله» (٢) . واستخدام اسمين للشخص الواحد أمر مقبول بالنسبة للمجتمعات العرقية التي احتفظت بتوجهاتها القومية في ظل الإسلام ، وأهم النماذج

(١) عن قبائل المصامدة، انظر الخريطة ص ٧٧ ، وقارن ابن خلدون، ج٦ ص ٢٢٥- حيث شجرة نسب مصامدة جبال درن ومبدأها ليوطنات ومسطاف، وأصاء ثم مجموعتان من القبائل، هما : وازكيت، ومكسية، ووريكة، ووكراكة (رجراجة)، وهزيمة، ودكالة، وصوال، وهرغة (قبيلة ابن تومرت) ، وهناتة، وتينملل، وكدميرة (جدميرة) ، وهزجة ثم ركن.

(٢) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص ٣٤-٣٥ (حيث لقب تومرت) ، ص ٣٧ (عن لقب أسفو الذي كان يلقب به في صفوه في المكتب) ، وقارن ابن خلدون، ج٦ ص ٢٢٥ (حيث أبوه ، عبد الله تومرت) ، ص ٢٢٦ (حيث كان يسمى أسفوه، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج القناديل بالمساجد للازمته) وقارن تاريخ موحدى مجهول في كتاب مقتطفات من المؤرخين العرب المراكشيين، نشر بروغسسال، القطعة ص ٣٤-٣٥- حيث «وكان يلقب في صفوه. وهو يقرأ في المكتب "أسفو" ومعنى أسفو بالبربرية الضياء. للآزمة إيقاد القنديل في المسجد للقراءة والصلاة» - حيث يتضح أن النص المجهول هذا هو لابن القطان أصلاً.

توجد عند الترك ، مثل : طغرل (النسر) : محمد ، وابن أخيه جفري : داود من أوائل السلاجقة .

ومن الواضح أن التركيز على الاسم العربي لابن تومرت ، وهو : محمد بن عبد الله لا يبدأ بشكل ملح الا مع إتخاذه لقب الإمام المعصوم : المهدي المعلوم ، حيث كان الهدف ربط نسبه العربي بالنسب النبوي الشريف ، عن طريق نسبته إلى الفرع الحسنی العلوي عن طريق الادارسة المغاربة (٣) . فكان قبيلة ابن تومرت ، وهي هرغة ، عربية أصلا (ماسبق ، أعلاه) أو أنها رغم تبهرها ظلت محتفظة بأنسابها

(٣) انظر هذا الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٨٧- حيث فلما استوثق منهم (أصحابه) دعاهم إلى القيام معه... وجعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات ، فلما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ، ونسبه وبعثته ، ادعى ذلك لنفسه ، وقال : أنا محمد بن عبد الله ، ورفع نسبه إلى النبي صلعم ، وصرح بدعوة العصمة لنفسه وأنه المهدي المعصوم . وانظر ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٣٤- اختلاف في النسب ، حيث ٣ (ثلاثة) سلاسل ، هي :

١- محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن تام بن هذنان بن سليمان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن هطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضهم . هذا ، كما نسب إلى :... هذنان بن صفوان بن جاد .

٢- محمد بن عبد الله بن وجلهين بامصل بن حمزة بن عيسى بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن أبي طالب-رضهم . وانظر ص ٣٦-٣٧- حيث النص : وقد وقفت (ابن القطان) على نسخة صك كتبه-رضه- للفقير القاضي علي بن أبي الحسن الجذامي ، أوله ، بعد البسلة والصلاة : "أقول وأنا محمد بن تومرت ، وأنا مهدي آخر الزمان ، تاريخه شهر رمضان المبارك عام ٥١١ هـ / يناير ١١١٨ م ، وقارن تاريخ موحدى مجهول ، مقتطفات ، نشر بروفسال ، القطعة ١٢ ص ٣٤- الأمر الذي يشكك في صحة الرواية ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٥- حيث الاسم :

١- محمد بن عبد الله بن وجلهين بامصال بن حمزة بن تيطاوين بن عيسى

٢- محمد بن تومرت بن تيطاوين بن سادلا بن مقبجقون بن القلدين بن خالد . =

العربية وتوجهاتها الإسلامية .

أما عن والده محمد بن تومرت فهي من بني يوسف بن مسكاته ، فهم أخواله ، من موضع أصروان بسجج ، من بلاد السوس (الاقصى) . أما عن مسقط رأسه ، فهو موضع نومكران من الجبل ، حيث لا توجد مياه جارية أو مستقرة قرب دارهم ، بل كان شربهم من ماء المطر (٤) . والراجح أن مولده كان في سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م (٥) .

= ٣- وزعم كثير من المؤرخين أن نسبه في أهل البيت، وأنه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن هذيل بن سليمان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد، من ولد : سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أخى إدريس الأكبر. الواقع نسب الكثير من يهقه في المصاعدة وأهل السوس، واقترب ولده في المغرب. قال : فمن ولده كل طالبى بالسوس، وقيل : بل هم من قرابة إدريس اللاتين به إلى المغرب... ويرد ابن خلدون ذلك قائلا : وعلى الأمرين، فإن نسبه الطالبى وقع في هرغة، من قبائل المصاعدة، وسخت هروقه فيهم، فالتحم بمصبيتهم، فلبس جلدتهم، وانتسب بسبهم، وصارلى هددهم وذلك لكى يتفق النسب الشريف للمهدي وما تقول به الأحاديث المسوبة إلى النبى والنسب تنضح الصنعة في كثير منها، وهنا لا بأس من الإشارة إلى ملاحظة دسلان De Slane في ترجمته لابن خلدون إلى الفرنسية (ج ١ ص ١٦٢ هـ ١٣)، والنسب تقول : "إن ابن خلدون كان يمكنه بسهولة إثبات وضع (اصطناع) هذا النسب لولا أنه كان يعمل لدى الحفصيين الذين يتصدهبون بذهب ابن تومرت، كما أنه قدم كتابه إلى السلطان أبى المباس الحفصى. وقارن ابن أبى زرع، ورض القرطاس، ص ١٧٢- حيث الإشارة إلى رواية ابن مطروح التى تشكل فى أن يكون ابن تومرت من هرغة، وإمكانية أن يكون أصلا من جنثيسة.

(٤) ابن القطان، ص ٧٤، الحلل المشوية، ص ١١٤، وقارن تاريخ موحدى مجهول، مقتطفات، نشر بروفنسال، القطع رقم ١٢ ص ٣٥، حيث وأمه - رضه - من بني يوسف من مسكاته من أهل السوس من موضع أصلوان بسجج، وينو يوسف هم أخوال الإمام المهدي (كتابها لابن القطان).

(٥) ابن الأثير، ج ١ ص ٥٧٨، على أساس أنه توفي سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م وله من العمر ما بين

أما عن نشأته فكان من أسرة متعيسة ، إذ عرف أبوه عبد الله إلى جانب اسم تومرت (اسم الدلع الدارج) بلقب أمغار الذى يعنى « الشيخ » ، فكانه كان رئيس قريته « وأصروا أن يسحق » الأمر الذى كان يسمح للأسرة المحافظة على وشائجها العربية الإسلامية ، ولابنه الفتى الصغير محمد - أسفر بالتردد على مسجد القرية بل وعلى ملازمة المسجد للقراءة والدريس حتى فسر اسمه « أسفر » (الضياء أو النور) بعد ظهوره من غير شك ، بأنه كان لقباً يعبر عن مداومة القراءة على ضوء القنديل. وأخيراً سمحت حياتهم المتيسرة بذهابهم فى رحلة العلم (أو البعث) والدراسة المشرقية والحج (٦).

صفاته :

وعن صفة محمد بن تومرت شاباً ، فقد كان ربعة (٧) ، يميل إلى عظم الهامة (٧ م) مفلج الشنابا ، خفيف العارضين (قليل اللحية) ، فى خنصر إحدى يديه شبه الخاتم من اللحم (٨) . هذا ، كما عرف بأنه جهورى الصوت (ما سبق ، ص ١٨٠) ، وأنه حصور لا يأتى النساء ، ليست له صبرة ولا شهوة (٩).

= ٥١ و ٥٥ سنة ، وقارن ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ٥٣ - حيث ولادته فى عاشوراء سنة ٤٨٥ هـ / ٢١ فبراير ١٠٩٤ م وهو التاريخ المعروف كما نرى ، وانظر ابن القطان ، ص ٧٤ ، الخلل الموشية ، ص ١١٤

(٦) ما سبق ، ص ١١٩ وقارن تاريخ موحدي مجهول ، نشر بروفنسال ، قطعة ١٢ ص ٣٥ - حيث رواية قصصية (ملكورية) تقول : "وكانت أمه (المهدي بن تومرت) قد عشت ، فلما خطبها أبوه وكان فقيراً رغبوا فى معاهرته ، فلما ولد الإمام المهدي اجتمع عند أبيه وأمه هدايا كثيرة ، فكان ذلك سبباً لفتاء والد الإمام المهدي " (والنص يرجع لابن القطان) .

(٧) ابن خلكان ، ج ٥ ص ٥٣ ، وقارن ابن شاكر الكشي ، عيون التواريخ ، ج ١٢ ص ١١٤ .

(٧ م) (ما سبق ، ص ٤ - ١٧٣)

(٨) ابن القطان ، ص ٣٨ ، وانظر تاريخ موحدي مجهول ، نشر بروفنسال ، قطعة ١٢ ص ٣٥ حيث نفس النص .

(٩) ابن القطان ، ص ٣٨ ، وانظر تاريخ موحدي مجهول ، نشر بروفنسال ، قطعة ١٢ ص ٣٥ (نفس =

وفى أخلاقه عرف بأنه شجاع ، كريم ، مصمم على الحق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم (١٠) . هذا ، وإن عرف عنه عدم التهور ، والتماس الحيلة وقت الوقوع فى مأزق ، مثلما كان يتظاهر به من الجنون عندما يحدق به الخطر ، فينجو حسب مبدأ : ليس علي المرض حرج (ماسبق ، ص) . وهذا لم يمنع من اعتبار عصمته كرامة من كرامات خصه الله بها (١١) .

أفراد الأسرة :

أما عن بقية أفراد الأسرة فكان له ٣ (ثلاثة) إخوة ، هم : عيسى ، وعبد العزيز (الأب) ، وأحمد الكفيف ، كما كانت له أخت شقيقة هي زينب ، وأخرى (الأب) (١٢) .

= النص) ، وقارن عبد الواحد المراكشى ، ص ١٨٩ - حيث أهابت من الشعر ألقاها رجل من أهل الجزائر على قبر بن تومرت يحضر من الخليفة الثاني (أبو يعقوب يوسف) والموحدين ، أولها :

سلام على قبر الامام المجدد	سلالة خير العالمين محمد
وشبهه فى خلقه لم فى اسمه	وفى اسم أبيه والقضاء المسدود

(١٠) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٣٨ . تاريخ موحدى مجهول ، نشر بروفنسال ، قطعة ١٢ ص ٣٥ (نفس النص)

(١١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٣٨ ، وماسبق ، ص . وعلى الجملة يقول ابن خلكر (وفيات الأعيان ج ٥ ص ٥٣) نقلا عن صاحب "المغرب فى أخبار المغرب" :
آثاره تنبئك عن أخباره حتى كأنك بالعبان تراه

قدم فى الثرى وهمة فى الثريا ، ونفس ترى إراقة ما - الحياة دون إراقة ما - المحيا ..

كان قوته من عسل أخت له : وشبهاً فى كل يوم بقليل سمن أو زيت ، ولم ينقل من هذا حين كثرت الدنيا ... وعندما مالت نفوس أصحابه إلى الغنيمة أحرق ما غنموه .

(١٢) ابن القطان ، ص ٧٤

حرب المطاولة ، الصراع ضد المرابطين

هكذا يكون محمد بن تومرت قد خرج من دارهم في «نومكران» من بلد السوس (الأقصى) ، وهو في حوالي الـ ٢٦ (السادسة والعشرين) من عمره طالبا للعلم ، لكي يعود من رحلته الطويلة بعد حوالي ١٥ (خمس عشرة) عاما -وهو في بداية العقد الخامس- وهو محتسب شعبي : أمر بالمعروف ناه عن المنكر ، لكي يتوَّج بمروءة تلاميذه ومريديه مهديا معصوما ، أي ملكا مثاليا لا يتهدده الخطر ، ولا ينتابه الخطأ أو الخطئ : صاحب الرأي الصائب دائما بفضل توجيه العناية الإلهية أو المحتمية القدريّة.

وكانت أولى مهماته ، هي إدارة الحرب المعلنة - مع إعلان المهديّة والعصبة - على دولة المرابطين التي أصبحت في نظر دعوة التوحيد : دولة أهل الكفر من الخشوية المجسمين ، والزباجنة المنافقين.

وترتيب حرب المطاولة هذه من الأمور الصعبة - في ظل الحالة السيئة التي وصلتنا عليها المصادر . فصاحب الحلل المرشبة يحتفظ لنا بقطع ثمينة من المصادر التي لم تصل إلينا في غيره ، والتي تجعل - بشئ من المبالغة ، كما نرى - للموحدين ٤٠ (أربعين) هزيمة على المرابطين . وإذا كانت بقية النص تشير إلى أنه كان للمهدي ٤ (أربع) غزوات قام بها بنفسه (١٣) ، فإن تلك المعلومة لا تتفق مع رواية البيهقي - أهم وثائق عهد بن تومرت . والحقيقة أن أخبار البيهقي تخلوا تماما من تحديد التواريخ على طول الصراع الذي يستمر (٩ تسع) سنوات - إلى وفاة محمد بن تومرت سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م . والمهم في ترتيبها في ٩ (تسع) غزوات بعدد سنين الولاية ، كما نرى أن تكون نوعا من التجدد بالنسبة لغزوات النبي (١٤) . أما ابن القطان فيجعل السنوات التسع علامة من علامات حياة المهدي

(١٣) الحلل المرشبة، ص ١١٤ .

(١٤) انظر البيهقي، ص ٥٣ وما بعدها.

المعصوم (١٥) ، وإنه قضى ٣ (ثلاث) سنوات منها في إيجليز (في رباط هرغة) والسنوات الـ ٦ (ست) الأخرى في رباط تينملل (١٦). وفي إطار هذا التحديد العام يمكن التركيز على عدد من الأعمال الحربية والأحداث السياسية ، ومحاولة تحديد تواريخها بشكل مقبول . وفيما بين ذلك تجوز الإشارة إلى ما وقع من أحداث هنا وهناك بشكل عام.

المواجهات الأولى في إيجليز، مواصلة حرب الدعاية :

يقدم لنا ابن القطان روايتين لبدأ القليعة رسميا بين حركة التوحيد المصمودية وبين دولة صنهاجة المرابطية . الأولى منهما لابن الراعي ، وتجعل ذلك في أغصان قبل الوصول إلى إيجليز ، عقب المناظرة التي كانت الغلبة فيها لابن تومرت إذ « لما أخذ الله الحق وأبطل الباطل ... خلع الإمام المهدي مباحة هلي بن يوسف من أعناق تابعيه وأصحابه ، وأعلن الجميع بخلعه ».

والحقيقة أن نهاية تلك الرواية بالنص على أنه « كان بعضهم يتبرح به في المساجد » يجعلنا نضع ذلك العمل ضمن حرب الدعاية - سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م - التي سبقت الإشارة إليها (ص ٢١٧ وما بعدها) .

مقاومة هرغة :

أما الرواية الثانية التي يقدمها البسح في أخبار سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م (١٧)

(١٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٦١- حيث المقدر لحياة المهدي ٥ أو ٧ أو ٩ سنوات.

(١٦) نظم الجمان، ص ٧٥، وقارن ابن أبي زرع، ووض القرطاس، ص ١٧٨- حيث النص على أن ابن تومرت نزل بهجل كليز (إيجليز) قرب المدينة، وأقام به ٣ أهوام يباكر جيوش لخرقة بالقتال، ويرأوهم في كل يوم من سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م - ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م.

(١٧) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٩، ٣٣. والهامش عن البسح الذي توفي بمصر سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م، وله كتاب : « المغرب في محاسن أهل المغرب » .

فهى تحدد القطيعة باهتداء إعلام الإمام المعصوم بإعلان أمره العزيز ومهاجرة الناس له ، وهو ما حدث ابتداء من سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م حيث بدايات العمليات الحربية بين الطرفين . فعندما بلغت أخبار إمامة ابن تومرت إلى أسماع « أمير المسلمين » على بن يوسف أرسل إلى الموحدين جيشا ضخما . وهنا وقفت هرقة - قبيلة ابن تومرت - تحت قيادة زعيمها ابن توقيان وقفة رجل واحد ، وقررت الدفاع عن زعيمها الروحى الجديد: المهدي المعصوم . بل وقرروا لقاء الجيش المرابطى الذى سار إليهم بقيادة والى السوس: أبى بكر بن وريل اللمتونى . حال وصوله عند سفح الجبل - الأمر الذى كان يطلق ابن تومرت - كما نجحوا فى تحقيق النصر عن طريق الكمائن ، وأخذ أسلاب خصومهم العللى المنهزمين (١٨).

حدث هذا فى الوقت الذى كانت تسرى فيه الأحوال بالأندلس بعد نزول كارثة كتندة فى السنة السابقة (٥١٤ هـ / ١١٢١ م) وما والاها من ثورة قرطبة فى نفس السنة، الأمر الذى تطلب من الأمير على بن يوسف هجوره الرابع إلى الأندلس فى السنة التالية (٥١٥ هـ / ١١٢١ م) (١٩) .

وثارا من هرقة ، أوقعت إحدى سرايا المرابطية بقيادة على بن تايشا اللمتونى ببعض بنى وأرتاتك من أنفاذ هرقة الذين كانوا قد خرجوا المفزود ، عن طريق الكمائن ، ونجحوا فى القبض على ١٠٠ (مائة) رجل منهم . حصلوا إلى سجن تيمونين بالسوس.

وكان من بين الأسرى الموحدين ، أحد جماعة العشرة . وهو :أبو الحسن يوجوت بن وجاج . واتباع على بن تايشا ذلك بمحاولة مفاجأة موضع المهدي السابق فى الملت إن ورغن ، ولكن المرهدين أخذوا حذرهم هناك ، فخرجت عليهم كمائن هرقة ،

(١٨) النورى، نهاية الأرب، ص٣٩٨-٣٩٩، الحلل الموشية، ص١١٠.

(١٩) انظر ج ٤ ص ٣٠٤، وعبد الله عتاق، المرابطون والموحدون، ج ١ ص ٨٢، ١٠٣.

وقتل أكثرهم وأخلوا أكثر خيلهم وسلاحهم فكانت أول غنيسة للموحدين فيها الخيل (٢٠).

وكانت مجمل خسائر هرغة في هاتين الغزوتين الأوليين ٣٥ (خمسة وثلاثين) رجلاً (٢١). أما عن خسارة المرابطين الذين كانوا تحت قيادة بينتان بن عمر في أول غزوة لابن تومرت ، وهى غزوة تاودزت ، فتمثلت فى مقتل الزعيم الجنفيسي ودسكاين الذى صلبه الإمام على الرأس (منكسا - كما كان الحال بالنسبة للقديس بطرس فى روما) (٢٢).

وكانت نتيجة هذا الظفر المبكر - بطبيعة الحال- أن «قوى ظنهم بصدق المهدي.... فاقبلت إليه أمواج القبائل من الجبال شرقاً وغرباً» (٢٣).

وانتقاماً من هرغة كان على أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين أن يسيّر جيشاً فى السنة التالية ٥١٦ هـ / ١١٢٢م - التى تقابل سنة الغزاة الثانية من غزوات ابن تومرت - كما ترى - بقيادة أخيه لأبيه ، وهو: ابر اسحق ابراهيم بن تيفشت ، الذى عبر من السوس إلى قلعة ايجليز بهرغة ، من جهة الشرق. وتقول رواية ابن القطان ، أن الإمام خرج إليهم فى جملة من رجال الحصن ، وأنه وجه البعض منهم للقتال بينما عقد للآخرين مجلساً للوعظ ، أشبه ما يكون بهيئة التدريب المعنوى ، فكان إذا جاء جريح نشطه ورغبه فى الشهادة . هذا ، كما كان

(٢٠) ابن القطان، ص ٨١-٨٢، وقارن روض القرطاس، ص ١٧٨-حيث النص فى "غزواته وحرره (ابن تومرت) " أن "ركب أكثر جيشه على خيل المرابطين التى غنموها".

(٢١) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٨١-٨٢ .

(٢٢) انظر البيهقي، ص ٥٣-٥٤-حيث كانت هزيمة المرابطين هرباً دون قتال، مصداقاً للأية التى تقول : "ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قريباً عزيزاً (سورة الأحزاب، الآية ٢٢٤).

(٢٣) التومرى، نهاية الأرب ص ٣٣٩. الحلل الموشية، ص ١١٠.

يطلب من رجاله ألا ينظروا إلى أعدائهم (أعداء الله) من المرابطين وعددهم فيعظموا في أعينهم بل يطلب إليهم أن ينظروا إلى ما معهم من الخيل والسلاح الذي « هر هدية من الله إليهم » . والمهم أنه رغم ضعف تسليح الموحدين ، الذين كانوا لا درع لهم ، فإن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين ، الأمر الذي شاع في جميع البلاد ، فهيب أمر ابن تومرت ، وكثر المهاجرون إليه « ، حتى قيل « أنه لم يبق قبيل من قبائل جبل المصامدة الا وقد هاجر إليه » - وهو الأمر المبالغ فيه من غير شك (٢٤) .

فالحقيقة أن القبائل من المصامدة وغيرهم كانت قد انشطرت في ولائها ما بين المرابطين حيث وقفت إلى جانبهم قبائل : دكالة ، وهسكورة وهزميرة ورجرجة وحاجة وصوة (٢٥) ، بينما استجاب لدعوة ابن تومرت ودخل في زمرة التوحيد ، من قبائل صنهاجة المرابطية أصلا : جزولة ، ولطة ، وهنكيسة وبني ميهز ودرعة وصنهاجة القبيلة ، وهسكورة القبيلة (٢٦) ، أما عن هنتاتة فكانت تتأرجح ما بين الدخول في التوحيد والحفاظ على الاستقلال . فكان النضال كان قد بلغ الذروة فيما بين مهادين قتال الحرب الساخنة ودعاية الحرب الباردة ، وكان الأمر اختلط على قبائل المنطقة من مصمودية موحدة وصنهاجية مرابطية بوصولها إلى مفترق الطرق أو بداية المناهضة التي لا تتضح فيها الرقعة.

ويظهر ذلك في صعوبة ترتيب الأحداث . فابن القطان يجعل حملة ابن تيفشت السابقة وكأنها الغزوة الثانية لابن تومرت بينما الأمر مختلف عن ذلك في رواية البيهقي ذات الطابع المنقبي . فجيش المرابطين كان يقوده ٤ (أربعة) من كبار القواد ، هم : سليمان بن يجلد ، وابن أبي فراس ، وعبد الرحمن : قاضي السوس ثم يانو .

(٢٤) اسطر ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٨٤ ، الشويرى ، نهاية الأرب ص ٣٩٨ ، الملل المشوية ، ص ١١٠ .

(٢٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٨٤ .

(٢٦) ابن القطان ، ص ٨٤ - ٨٥ .

وكما سبق القول كان على ابن تومرت أن يرفع من معنويات الرجال ، الأمر الذى يمكن أن يعدل من رجحان كفة تسليح المرابطين . وهكذا قال ابن تومرت لأصحابه: « لا تجزئوا فانكم تقبلون منهم الهدية » . وإذا كانت الهدية التى قبلوها فى المرة السابقة تمثلت فى الخيل والسلاح ، فإنها اختلفت هذه المرة من حيث تمثلها فى الرعب الذى يلقيه الله فى قلوبهم ويردهم ، فكانها المعونة الروحية قبل النجدة المادية ، الأمر الذى يعنى نجاح الدعاية الموحدية فى كسر قلوب خصومها المرابطين (٢٧).

غزوة تالات إن يميزك

وهكذا اشتملت السنة الثالثة من غزوات المهدي (٥١٧ هـ / ١١٢٣) فى ايجلير هرغة وقبل الانتقال إلى تبينمل ، على عدد متنوع من الأحداث التى يقدمها كل من البيدق وابن القطان إلى جانب نقول الحلل الموشية . فإلى جانب العمليات الحربية كانت الدعاية السلمية والمفاوضات تسير متوازية من أجل الوصول إلى حل يمكن أن يرضى الطرفين .

فقبل قيام ابن تومرت إلى غزوته الثالثة هذه إلى موضع « تالات إن يميزك (يميزج) وصلتته بعض كتب الأمير على بن يوسف ، تطلب حقن دماء المسلمين ، كما نرى . ورد لهم الجواب ، وهو يقضى بطبيعة الحال ، بالدخول فى دعوته والإذعان لأمره . وكان على ابن تومرت أن يحتل بعض الوقت للانفراد والتأمل فيما كان يهيمه.

(٢٧) البيدق، ص ٥٤ - حيث استخدم ابن تومرت فى قتال المجسمين الشارات المنطوقة من : ذكر الله ، وقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم هذا كما أنه عندما التقى الجمعان كبر المعصوم فيهم ، وقال لنا : الله ينصركم عليهم ، ثم قبض قبضة من تراب اقتداً بفعل السب يوم الهجرة ورمأها فى وجوههم فانهزموا وتركوا الخيل والبغال والدمم (الخيام) والسلاح ، وانقلبوا خاسرين.

وعندما خرج من عزلته المزعقة أخبر ابن تومرت أهل مشورته عن هدر أحد شيوخ القبائل ، وهو عبد العزيز بن باجرمان ، وذلك بالتآمر مع المرابطين على اغتياله نظير رشوة مقدارها ٢٠٠ (مائتي) دينار. وترتب على ذلك أن أمر سرية من رجاله بمقاجة عبد العزيز وقتله والائتيان بالكتابين المتبادلين في هذا الشأن . وتمت العملية بنجاح كما خطط لها (٢٨).

وكان من الطبيعي أن يثار المرابطون لقتل عميلهم فساروا إلى ايجليز . وكما هي العادة طمأن المهدي رجاله ، ورفع من روحهم المعنوية الأمر الذي انتهى بارتداد المرابطين «بفيلهم» ، لم ينالوا خيراً» (٢٩).

وإزاء اخفاق القوات المرابطية المتكرر أمام قوات الموحدين الناهضة ، قرر الأمير علي بن يوسف بن تاشفين ضرب الحصار على ايجليز في منطقة قبائل هرغة ، فلعل الحصر والجوع يفعل بالمصامدة في درن مالم يفعله السيف والقتل . وعهد على بذلك إلى أحد الأندلسيين المتمرسين بحروب الحصار في الأندلس ، بل ويقطع الطريق أيضاً ، ويلقب بالفلاكى ، الذي أقام قلاعاً في منافذ الجبل ، ومنع الموحدين من النزول إلى السهل . وبذلك الاجراء قتت القطيعة بين الحكومة المرابطية وجبل هرغة ، إذ : «تمنع من أهل الجبل كل من أطاع الإمام المهدي - رضه - من أداء كل ما كانوا يؤدونه لعلي بن يوسف» (٣٠).

وكان من الطبيعي ان يلح علي بن يوسف بالحرب مع الحصار لكسر مقاومة المصامدة . وتخص روايات الخليل الموشية على عدد من الانتصارات التي حققها الموحدون على المرابطين ، كما فعلوا بحسبك «سير بن مزدي اللعتوني وهزموه»

(٢٨) البديق، ص ٥٥- حيث تم صلب عبد العزيز بعد قتله، كما أتى بالكتابين اللذين يدياناه من تحت رأسه (مخدته).

(٢٩) البديق، ص ٥٥.

(٣٠) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٨٥-٨٦.

(٣١). كما انهزم أبو الطاهر تميم آخر أمير المسلمين نحو جبل كيك ، الأمر الذي شجع الموحدين على الانتقال من الدفاع إلى الهجوم ، فتابعوا خصومهم المرابطين «حتى قبلى جبل وريكة» بقبلى أغمات . كما نجح الموحدون فى تمزيق جيش مرابطى آخر ، كان قد أتى على عجل بقيادة القائد بطى بن اسماعيل اللمتونى الذى قيل أنه قتل فى المعركة ، كما قتل كثيرون من رجاله من أهل أغمات وغيرهم (٣٢).

النتقلة إلى تينملل ، وحرب الدفاع ،

والهم أن ابن تومرت تعلم ، رغم الانتصارات الجيدة التى حققتها قواته على المرابطين ، أن الانتصارات فى الحرب المكشوفة ليست مضمونة على كل حال ، وخاصة أن الدولة المرابطية بدأت تواجه جماعة الموحدين بفترات كانت تزداد فى ضخامتها باضطراب مع مرور الوقت ، ورأى أنه من الأفضل للموحدين قبول دعوة اللجوء إلى منطقة تينملل الحصينة (٣٣) حيث تم التحالف مع قبيلة هنتاتة القرية. وهكذا كانت النقلة من ايجليز هرغة إلى تينملل بمثابة بداية مرحلة جديدة ، يمكن أن تقابل مرحلة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة ، الأمر الذى يقابله مع قيام الدولة الفاطمية بأفريقية التونسية تنقل أبى عبد الله الشيعى (الداعية) ما بين ايجيكان : «دار الهجرة» ومعسكر تازروت فى منطقة القبائل بالجزائر (٣٤).

(٣١) الحلل الموشية ، ص ١٩٠ .

(٣٢) انظر الحلل الموشية ، ص ١١٢ . وأغلب الظن أن بطى قتل فى باب أغمات (ص ٢٥٩).

(٣٣) من حصانة تينمل انظر الحلل الموشية ، ص ١١٣- حيث النص على أنه لا يدخلها الفارس إلا من شرقها أو غربها ، وأن الطريق إليها من مراكش أوسع ما فيه أن يمشى الفارس وحده . وأضيف أن يتول عن قومه خوفاً من سقوطه ، وكذلك فى شرقها إلى الحافات تحت رأكبها وفوقه ، وقبها مواضع مصنوعة من الخشب ، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد مسافة يوم على هذه الصفة ، والرواية متفولة عن ابن القطان ، الذى أخذها عن اليسع (انظر نظم الجمان ، ص ٩٥).

(٣٤) انظر ج ٢ ص ٥٥٥-٥٥٦.



جامع تَنْمَلْ بلاطة المحراب من باسٲ وٲراس

**ما بين جهاد المرابطين - حريا أو غندرا - وتطهير الموحدين ، التمييز ،
تحرير قينمل (قيتمل) ،**

روئسفال جديدة في جبل دن (٥١٨ هـ / ١١٢٤ م)

وكانت أول أعمال ابن تومرت في منطقة تينمل هو سد الثغرات الموجودة في
حوائط الجبل على طول الحافات في شرق البلدة وغربها (٣٥) ثم بناء قلعة حصينة
في أعلى الجبل ، والتي تشرف على السفح ، إلى جانب المسجد الذي بنى خارج
المدينة (٣٦) ربما كملحق للرباط.

وفي تينمل ألب ابن تومرت أهل المنطقة على المرابطين ومعاليتهم الفرنج الذين
كانوا يحضرون سنويا إلى الجبل لجمع الضرائب ، فيقيمون في بيوت الناس هناك
خلال الموسم ويتصرفون في الديار ومن فيها من الحريم وكأنهم أربابها ، الأمر الذي
يظهر واضحا في صفة شعور أطفالهم وذرقة عيونهم . ولنجح المهدي ابن تومرت
فعلا في سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م في تدبير مؤامرة تخلص فيها أهل تينمل من
الضيوف الماليك غير المرغوب فيهم ، غندرا . وتوقع ابن تومرت أن يكون رد الأمير
على بن يوسف بن تاشفين سريعا وقويا . فعلا سارت العساكر المرابطية إلى جبل
تينمل على قدر ما تسمح به ظروف المكان الشديدة الوعورة ، ولكن المراسد التي
بشها ابن تومرت ، والتجذات التي أتته من الخلفاء المصامدة المجاورين ، استقبلت
خيل المهاجمين بوابل من الحجارة ردتهم على أعقابهم - فكانها معركة روتسفال
جديدة في جبل دن (بدلا من جبل البرتات : البراتس) - الأمر الذي أوغم الأمير

(٣٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٩٥ - حيث النص على أن ابن تومرت وأدار على المدينة
سورا أحاط بوجهتها ، الخلل الموشية، ص ١١٢.

(٣٦) ابن الأثير، ج ١ ص ٥٧٢، ولدارن ابن القطان، ص ٩٥ - حيث القول : «ويني (ابن
تومرت) على رأس الجبل سورا، وأقره في قبته حصنا يكشف ، ورا - الجبل».

على بن يوسف على الكف عن محاولة إخضاعهم في التو والحين (٣٧).

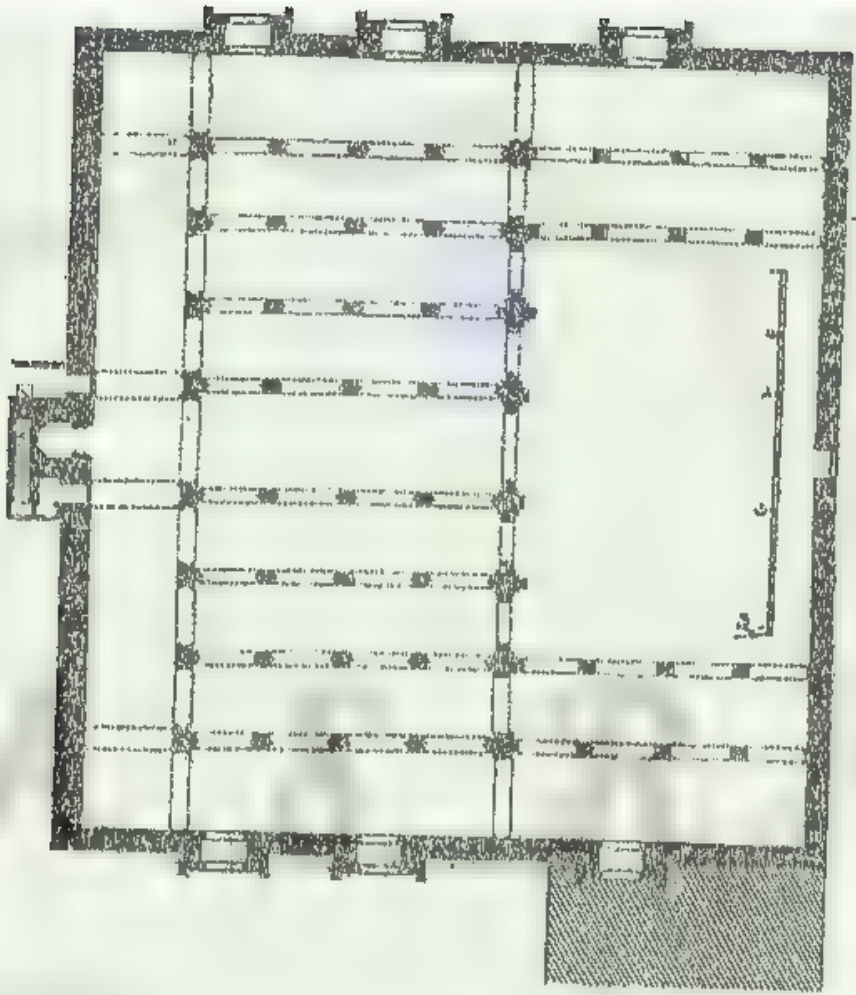
وبتحرير تينمل من النفوذ المرابطي أصبحت البلدة «مدينة مفتوحة» بين يدي ابن تومرت. ولما كان عليه أن يتأكد من إخلاص أهلها له ، تطلب الأمر اتباع سياسة ميكيافيلية ، كما يقال ، تجعل الهدف مبرراً للواسطة ، فلا تمتنع من استخدام الغدر والخيانة ، في سبيل تحقيق الغرض . وهكذا قضى على القوة الضاربة من المسلحين في قبيلة هزيمة الموالية للمرابطين بالهيلة ، وتبع ذلك الغدر بأهل البلد في مذبحة تبالغ الرواية - من غير شك - عندما تقول أنه راح ضحيتها (خمسة عشر) ألفاً من أهل البلد ، كما تم تقسيم المساكن والأرض على الموحدين (٣٨).

التمييز أو التطهير ٥١٩هـ / ١١٢٥م

وكان تحطيم المعارضين أو المخالفين في تينمل وما حولها فرصة انتهزها ابن تومرت لإعادة ترتيب قواته ، والتخلص من بشك في سلوكه أو ولائه من أتباعه ، فكانت عملية العرض التي تمت في سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م والتي عرفت باسم «التمييز» ، والتي عهد بها إلى أبي محمد عبد الواحد البشير - وهو الوشرشي - صاحب ابن تومرت المقرب . ويفهم من الرواية أن «عملية التمييز هي نوع من عمليات التطهير المعروفة والتي تهدف إلى تنقية الأتباع أو الأنصار من العناصر المعادية أو المخالفة ، فلا يبقى من الأعداء إلا المخلصون حقاً ، المؤمنون بسلامة الحركة وصدق نواياها في عملية الإصلاح الجادة فعلاً إلى خير جماعة الموحدين . وكان كثير من هؤلاء الشباب الأحداث ، وذوي الثروة ، الذين كانوا يتعرضون لضغوط المعارضين ، من جانب : «ذوي العقل والعلم والحلم من أهاليهم (الذين)

(٣٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٥١-٥٢- حيث النص على أنه لما «وصل الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانبي الوادي مثل المطر من أول النهار إلى آخره».

(٣٨) ابن الأثير، ج ١ ص ٥٧٢-٥٧٣، وقارن حنان، المرابطون والموحدون، ج ١ ص ١٨٢ .



مخطیط جامع تَأمَل (عن تراس ویاست)

ينهونهم ويحلزونهم من أتباعه (ابن تومرت) ، فكانوا من الأسباب المعروفة لمسيرة حركة التوحيد (٣٩).

ولا بأس إن كانت تلك المعارضة لجهرة ابن تومرت في حشد شباب الفتوة في منظمة التوحيد، ولجأها في تغيير قلوب البعض منهم، السبب في ظهور تلك القصة الشعبية التي جعل عملية العرض والتميز أشبه ما تكون بمزامرة رخيصة بدلا من عملية تقويم شريفة . فتلک الرواية القصصية تنسب إلى ابن تومرت، وكأنه كان يدبر لذلك الأمر منذ ما كان بالجزائر عندما انضم إليه كل من الونشريشي (ابو محمد عبد الله البشير) وعبد المؤمن بن علي الكومي (مات في ص ٢ - ١٧١).

لما الونشريشي كان يظهر منذ البداية ، بين أصحاب ابن تومرت ، وكأنه رجل مهتز الشخصية لا يحسن إحكام التصرف أو الحديث ، وبالتالي لم يكن له دراية بشئ من العلم أو الدين ، فكانه «أبله القرية» أو «مضحك الجماعة» . ولجأ ، وعندما قرر ابن تومرت القيام بعملية التطهير ، انتقلت أحوال الرجل ، وظهر ما كان يخفيه قسداً من العلم والحلم والعقل والكياسة ، الأمر الذي سعت به الجماعة نوعاً من الكرامة أو المعجزة ، التي تسمح للرجل «الآية» بمعرفة المخبرين من الناس من أشرارهم ، بل والذي تصل معرفته الدينية أو إلهامه الإلهي إلى التمييز بين أهل الجنة وأهل جهنم ، الأمر الذي ينسب عليه إزوال عقوبة الموت بالأشعار لتعجيل بهم إلى النار - بأيدي ذوبهم وأقاربهم - فلا يبقى في جنة التوحيد الأرضية إلا الأخيار (٤٠).

(٣٩) انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥ ص ٥٦.

(٤٠) ابن الأثير، ج ١٠ ص ٥٧٣-٥٧٤- حيث النص على أن "أبا محمد عبد الله الونشريشي كأنه معتوه والمهدي مقتره". وإن كان "يشغل بالعلم سراً، أتى وهو حسن الشباب، وقال إن ملكاً أتاه ففصل قلبه، وعلمه القرآن والحوط" - فكانها إحدى معجزات النبي. "لمبكي المهدي وقال : ففتحناك" - الأمر الذي أثار عجب الناس واستعظامهم. وقارن الشويري، نهاية الأرب، ص ٤٠-٤٠١، وقارن رواية البيهقي، ص ٥٨-٥٩- حيث اضطراب النص والخلط بين الغزوة التاسعة لابن تومرت إلى موضع : "أسد روم" وبين تمييز الونشريشي الذي سبقته



جامع تنمل
دعامة داخلية من الطوب (مواجهة للصحن)

وإذا انتقلنا من القصص الروائي إلى أرض الواقع نجد أن ابن تومرت كان بمنحلقا في تنقية جماعته الناهضة مما يشوبها من الطفيليات . وهكذا كانت عملية التخلص من المشكوك في نواياهم بالنسبة للجماعة ، مطلبها واقعيًا على المستوى الداخلي من حيث الحفاظ على نسيج جماعة التوحيد سليما من كل عيب ، كما كان ردعا لمن تحدثه نفسه بالخروج على الجماعة . هذا ، كما كان ذلك التطهير تقريرا للجماعة ماديا ومعنويا ، في مقابل ما كان يعده أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من تجهيز الجيوش المرابطة لمقابلات حاسمة تهدف إلى إعادة التوازن إلى كفة ميزان الدولة المائل سلبا في صراع المصير.

ومن الواضح أن التمييز أصبح وكأنه بعض النظم العسكرية الدارجة لدى ابن تومرت على طول فترة الصراع مع المرابطين التي استمرت طوال الـ ٦ (ست) سنوات التي قضاها ابن تومرت في تينمليل، ما بين سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م عند ابن القطان (٤١) وسنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م وعند البيدق (ما سبق اعلاه) ، قبل غزوة البحيرة - فهذا ما يستخلص من الاختلاف في تحديد سنوات التمييز، وتواتره بشكل غير منتظم عندهما وعند غيرهما من الكتاب .

«الاشارة إليه (ص) ، وحيث القول ان ذلك التمييز استمر لمدة ٤٠ (اربعين) يوما ، حيث راح كثير من الضحايا من خمس قبائل ، وعلى رأسها هنتاتة أهم حلفاء المصامدة ، وكذلك جدميرة . والتمييز هنا يظهر في النص المضطرب - وكأنه مقدمة لمعركة البحيرة بقيادة البشير التي انتهت حصار ٤٠ (اربعين) يوما لمدينة مراكش من قبل المرابطين ، وقارن ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ص ٥٢ - حيث إظهار فضائل الونشري (البشير) دفعة واحدة .

(٤١) نظم الجمان ، ص ١٠٢ ، وقارن ابن الأثير ، ج ١ ص ٥٧٤ - حيث النص على أن عدد القتلى بلغ ٧٠ (سبعين) ألفا كناية عن الكثرة التي لا تكون دفعة واحدة بل في مرات متكررة إلى جانب النص على أنه (ابن تومرت) أمر شيوخ القبائل بالأمر بالمعروف ، وكتابة أسماء من يخشون من أهل الفساد لينظر في أمرهم ، ففعلوا أكثر من مرة .

تواتر الصراع في قيتمل ضد المراهطين :

هكذا قويت جماعة الموحدين بعد التمييز (الكبير: سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م)، وازدادت صلابتها، وهذا ما يفسر بدء عمليات الحرب المنظمة ضد المراهطين إلى جانب عمليات الدعاية السلمية بين قبائل الجبل، والتي لم تعد تقتنى بالدفاع والمداورة، بل انطلقت في كثير من الأماكن نحو المواجهة والهجوم. والمقصود بذلك تلك الغزوات التسع التي يخصصها البيدق لابن تومرت، والتي سبق خروج ثلاثة منها في ايجليز (ما سبق، ص ٢٣٦) وبقيت ست منها لتينمل، والتي كانت موجهة نحو الخصوم أو المنافقين من القبائل في المواطن القريبة، أو المتجهة بعيدا نحو الحضرة مراكش : نهاية المطاف والهدف الأخير.

ولا بأس من التركيز هنا مرة أخرى على الدور الكبير الذي قام به ابن تومرت شخصياً، ليس في الإعداد للحرب والتحريض على حسن القتال فقط، بل وبالمشاركة في الحرب بنفسه أيضاً. فهو في غزوات ايجليز الثلاث كان يشجع الرجال ويرفع من معنوياتهم ويظمئن أصدانهم الموحدين ويدهوهم إلى عدم الهزاع والفرع (ما سبق، ص ٢٤٠ وما بعدها).

غزوة ماسينا :

أما عن غزوات المهدي بعد العقلة إلى تينمل، فتتشمل في الغزوة الرابعة (سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٤ م) التي وقعت في منطقة "تيزي إن ما ست" إلى حيث خرج ابن تومرت، وتوصف وكأنها حملة حربية منظمة من جانب الموحدين. فلقد اشترك في تلك الغزوة ٥ (خمس) قبائل رئيسية، إلى جانب قبائل أخرى. ربما كانت قوتها وحدة عسكرية على غط أهل تينمل. فقد كان لكل قبيلة علمها أوشارنها المميزة التي أعطيت لها من قبل ابن تومرت نفسه. فقبيلة جدميو التي كان يقودها عبيد المؤمن رفعت علمها الأبيض فكان الأبيض رمز القيادة العليا، ورفعت خرقة بيضاء أبي ابراهيم العلم الأصفر. بينما كان علم جتفيسة بقيادة عبد الله بن ملويه (أو

ملويات) أحمر اللون. أما العلمان الرابع والخامس لكل من أهل ينتمل بقيادة باللقن، وهتاتاه بقيادة عمر آبنتى فلا ذكر للموئيهما وكذلك الأمر بالنسبة لبقية القبائل على ترتيبها إن لم تكن قد كوت فرقة أخرى . على سقى أهل تنمل، كما نرى (٤٢).

وهنا يمكن القول أنه ليس من الضروري أن يكون الشعار مختلفا من حيث اللون، بل يمكن أن يكون اختلافه من حيث الشكل ، كأن يكون عمامة أو غفارة، أو غيرها من قطع الثياب (٤٣).

وكان الجيش المراهطى المتوجه نحوالموحدين بقيادة القائدين . يانو وألدى بن موسى. والظاهر أنه كان من المقرر أن تسير القوات الموحدة لمجادرة العدو عند سفح الجبل ، ولكن ابن تومرت خشى من اختلال صفوف القبائل المصمودية اثناء النزول فى الطريق الرصرة الأمر الذى قد يستغله المراهطون لصالحهم، كما تقضى سلامة الحس فأصدر امره بعدم الهبوط إلى الوطاء ، فقال لأصحابه : " اتركهوهم يصعدون اليكم". وهكذا اتاحت الفرصة للموحدين بأخذ أعدائهم بمجرد الصعود ، قبل أن يستردوا أنفاسهم من مشقة التسلق ، ولجأوا فى هزيمتهم.

ومن الواضح أن إحكام التخطيط للغزوة الرابعة من قبل الإمام، وما أحرزته قوات قبائل مصمودة من النصر، رفع معنويات الموحدين، وجراً محمد بن تومرت على المجازفة فى الغزوة الخامسة (سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥ م) بالهجوم بدلا من الدفاع (٤٤)

(٤٢) البيدق، ص ٥٥-٥٦.

(٤٣) انظر ابن القطان، نظم الجسان، ص ١٢٨- حيث نلص على أنه لما ملأت رايات لمسومة الفصوص مختلفة الألوان، قال لهم (المهدي) . لا تهولكم هذه الحرق، وارفعوا انتم ما لديكم من الثياب، على قريب تصير لكم كل هذه العلامات . فرفعوا أزورهم وأكسبتهم وأرديتهم ونحو ذلك، وقارن أحمد مصطفى الصفور، الرايات والألوية الإسلامية، القاهرة ١٩٩٦

(٤٤) البيدق، ص ٥٦

وقعة أنسا ،

ومن الواضح أن الحكومة المرابطية أرادت الانتقام لايقاع المصامدة الموحدين بقواتها على "تيزي إن ما ست" ، فسيرت جيشا كثر العدد ، خرج من مراکش بقيادة عمر بن ديان في الطريق إلى جبال المصامدة. وهنا رأى ابن تومرت أن يبادر بالهجوم ، فسار على رأس قواته نحو الجيش المرابطي ، فكان اللقاء بين القوتين في منطقة "أنسا إن عيادين" ، وكان القتال شديداً بين الطرفين. والظاهر أن عدد المرابطين في هذه المرة كان الضرب في موضع القلب بحيث راية القيادة التي كان يقف تحتها ابن تومرت ، وكانت الهجمة المرابطية من القوة بحيث أدت فعلاً إلى سقوط ابن تومرت مع راية القيادة - على ما نظن - الأمر الذي أثار انتباه المحيطين به ، الذين أقبلوا عليه حتى قام من كهوته ، وبذلك أنقذ الموقف. ورغم أن "المجسمين" انهزموا ، كما تقول الرواية ، فإن الشطر الأول منها ، الذي يقول "اعلم يا أخى أن الله قدر الحق" يفسر ما كان الأمر من هزيمة أولية للموحدين ، أراد الله أن يمتحنهم بها ؛

والظاهر أن تبادل النصر والهزيمة بين الموحدين والمرابطين في الغزوتين الرابعة والخامسة ، كان يعنى ثوما من توازن القوى الذي يحقق "المطالبة" فعلاً بمعنى المفايضة والمناظرة ، وهذا الأمر يظهر بوضوح في الغزوة السادسة (سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م) (٤٥) .

خزوة قسنوت ،

والتي تعرف بخزاة قسنوت ، نسبة إلى موضع اللقاء في قلب بلاد هرة. فالجيش المرابطي قدم تحت قيادة القائد أبي بكر بن وريل اللاتوني ، على رأس قوات من أهل السوس . وخرج ابن تومرت في إثرهم ، وكانت له الجرأة على أن تكون قواته هي البادئة بالهجوم. وكان القتال الذي يوصف بالشدة سجالاتاً. وفي ذلك يقول

البندق : إن المرابطين لما وأوا صالا يطبقونه افترق النظام ، ورجع كل واحد لمرضعه" (٤٦) .

والحقيقة أن الافتراق دون مواصلة الصراع في تيفنوت تعنى التكافؤ بين الطرفين، الأمر الذي كان يبشر، بطبيعة الحال، بهيمنة متوقعة لقوى الموحيدين المتصاعدة (في ملكتهم تينمل).

غزوة هسكورة:

أصلهم

وتعتبر غزوة هسكورة السابقة (سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م) (٤٧) قرينة للغزوتين السابقتين (الـ ٥ والـ ٦) من حيث نتيجة الحرب السحابة^١ وواضح من ترتيب القبائل المصمودة الموحدية في الغزوة الرابعة (سنة ٥١٩هـ - ١١٢م) (ص ٢٣٥) أن هسكورة لم تكن وقتئذ في صفوف ابن تومرت، فهي إذن لم تكن قد حدثت بعد، الأمر الذي دعا إلى المسير إليها لانتزاعها من صفوف المرابطين، وإدخالها في حظيرة التوحيد. وكان اللقاء بين ابن تومرت وقوات هسكورة في موضع «أزليم» (أصليم) حيث اشتد وطيس القتال الذي شارك فيه ابن تومرت مشاركة شخصية حتى أصابته الجراح. وتظهر الرواية صورة طريقة لابن تومرت وهو يصطحب في

(٤٦) البندق، ص ٥٦. وبالتأمل في رواية البندق يمكن أن تنسب هذه الغزوة التي قادها أبو بكر اللمعتوني إلى فترة بداية الصراع مع هرغة سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م، في أجهليز، وهو الأمر الذي ترجعه أيضا رواية ابن القطان التي تنص على أن ابن تومرت تأهب لتلك الحملة بحفر جباب الماء في بلاد هرغة لحسبها لحصار قد يطول. كما أن رواية ابن القطان يظهر فيها نجاح الدعوة الموحدية بين قبائل الجبل وقتئذ، فقد كانت متآزرة فيما بينها مع ابن تومرت، مثل قبائل هرغة وسكانه وسجستانة وأهل تينمل إلى جانب المتطوعة من أهل جبال السوس وورن، مثل : جدمية الجبل وهزيمة الجبل، وحنفيسة الجبل، وغيرهم، ممن كان قد أتى بهم الداعية : عمير بن محمد بن يملوك وأصوانه من الموحيدين (نظم الجمان، ص ٨٦-٨٧). وهذا لا يمنع بطبيعة الحال من تكرار بعض الوقائع في نفس المواضع أكثر من مرة خلال حرب المطاردة العنيدة هذه (حاسب، ٢٣٥ - ٢٣٦).

(٤٧) البندق، ص ٥٧.

المعركة بغلطة تموشق التي كان يمسك بها مؤلفنا البيديق (أبو بكر علي الصنهاجي)، كما كان يتبعه حامل الدرق والرماح، وهو يخلف بن أمسجير (٤٨). وسار التابعان بالإمام المجرىح الي مركز القيادة (المنزل أو المحلة) من أجل التضميد والتقاط الأنفاس.

وهكذا يمكن القول فعلاً أن كفة هسكورة كانت الراجعة في تلك المعركة (٤٩). ورغم قول البيديق : «ورجعنا للقتال حتي أخذ الله الذين ظلموا، ونصر الله المهدي وطانفته»، فإن قوله بعد ذلك : «فلما برز المعصوم خطبنا ووعظنا ، وقال : الحق عندنا وفرعه في توندوت»، «عولوا علي الغزو انشاء الله» (٥٠)، يؤيد ما ترجمه.

غزوة تازاجورت :

هذا ، وبدل صدم فتح «تازاجورت» في الغزو الثامنة (٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م) حيث قول البيديق : «فتحها الله» - رغم كونها بلا سور أي بلا تحصين - علي أن الحرب ظلت سجالا في هذه الفترة من ذروة حرب المطاولة. والظاهر أن الهدف من الغزوة لم يكن فعلاً فتح المدينة، بل طرد أحد الاشقياء (الشوار) الذي يقال له : دمام ، منها . وأهم نتائج تلك الغزوة تتلخص فيما يقول البيديق من أنهم (الموحدين) أخذوا عبيداً من تازاجورت وأعطاهم المعصوم لميمون الكبير - رئيس فرقة السودان - وقال له : هؤلاء إخوتك. فكانه ضمهم الي عبيد (سودان) غزوة أزليم (هسكورة) العسكرية - كما كان الحال عند المرابطين - وهي الجماعة التي أطلق علي أفرادها إسم : « عبيد المخزن (الدولة) »

وهكذا كانت غزوة تازاجورت مجرد قضاء علي شغب أحد الشوار في بعض

(٤٨) والنص علي الدرق، والرماح هنا تعني ان ابن تومرت كان يرمى بالرماح القصيرة (الشباب)، كما كانت عادة المغاربة الجبلين، وليس بالقوس والبل مثل الصحراويين .

(٤٩) انظر عبد الله عنان، المرابطون والمرحدين، ج١ ص ١٨٠ .

(٥٠) البيديق، ص ٥٧ .

التي تاتى، وبناء على ذلك فلم يقدّم ابن تومرت في تينمل عند عودته إليها إلا أياماً قليلة .

شذوذة آسدرم متاع الفزي :

ثم أنه أمر الخروج للفرقة التاسعة والأخيرة (سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م)، وهي التي توجهت الى موضع «آسدرم متاع الفزي» (٥١). الأمر الذي قد يعني بداية وصول الجنس التركي الى بلاد دزن والسوس، الى جانب أجناس السودان الغربي الذين كونوا «عبيد المخزن». وفي هذه المناسبة تقول الرواية ان ابن تومرت أمر بتلقيب المرابطين «بالمجسمين» في مقابل تلقيبهم للموحدين «بالحوارج» وهي المعلومة غير الصحيحة، إذ أن استخدام لقب «المجسمين» يرجع على أقل تقدير الى الفترة ما بين سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م وسنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م - حيث كان ابن تومرت يقيم في رباط هرغة ويعكف على ترتيب مذهبه الذي إتخذ التوحيد المطلق أصلاً له في مقابل ما يمكن أن يكون تشبيهاً (أو تحسباً) عند أهل السنة الحشوية الذين لا يأخذون بالتأويل . وكانت وقتئذ معارك الدعاية الاعلامية تسير جنباً الى جنب مع المناوشات والمعارك الحربية. وهذا لا يمنع من صحة الرواية التي تنسب الى بعض فقهائها المالكية لتلقيب المهدي بعد المناظرة معه بمراكش . بأنه : «خارجي مسعور» أي قبل سنة ٥١٥ هـ سنة ١١٢١ م (٥٢) .

ومهم أن التضال الشديد في «آسدرم إن الفزي» كان سجالاً، الأمر الذي دعا الطرفين إلى الانسحاب من أرض المعركة. وواضح من النص المضطرب للبيدق هنا أن المسيرة إلى آسدرم إن الفزي» ربما كانت بعض مراحل معركة البحيرة، آخر المعارك

(٥١) البيدق، ص ٥٧-٥٨ .

(٥٢) ابن أبي زرع، ووض القرطاس، ص ١٧٥ حيث قال الفقهائي - أمير المسلمين بعد المناظرة التي تمت بين ابن تومرت وفقهائها مراكش : "هذا رجل خارجي مسعور، وأحقق. صاحب جدل ولسان يضلل جهال الناس..." .

الكبرى التي خسرها الموحدين أمام المرابطين علي عهد محمد بن تومرت، وإن جعلها البندق غزاة خاصة بالبشير، تمييزاً لها عن بقية الغزوات التسع الخاصة بابن تومرت. هذا، ولا بأس أن كان عرض التمييز - المعهود وهو التطهير - قد أجري قبل الاعداد لحملة حصار مراكش الذي انتهى بموقعة البحيرة (٥٣) .

أيام البحيرة ووفاة محمد بن تومرت

حدثان فاصلان في تاريخ الدولة الموحدية الناشئة

واضح من النصوص المضطربة أن الصراع بين المرابطين والموحدين كان يتصاعد علي طول السنين التسع التي تمثل قيادة المهدي المعصوم، حيث كانت الدولة المرابطية تحشد قواها، ليس من المغرب فقط، بل ومن الأندلس أيضاً وجزائر ميورقة، رغم سوء الأحوال هناك، الأمر الذي كان يضعف الجبهة الأندلسية لصالح الخصوم من أمراء الممالك النصرانية، وكذلك الطموحين من أمراء الأندلس، الراغبين في عودة زمام الأمور في بلادهم إلي أيديهم بصرف النظر عن طريق ذلك أو عن هوية من يكون التحالف معه، من : المصاعدة المغاربة الموحدين أو الجيران الأسبان المسيحيين.

سوء الأحوال في الأندلس : هزيمة قليبيرة :

ففي سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩م السابقة علي سنة البحيرة ووفاة محمد بن تومرت، كان موقف المرابطين يسوء في كل من المغرب والأندلس أمام تهديدات ابن ردمير : الفرنسي الأول ملك أراجون. فبعد خروجه الكارثة في بلاد المسلمين سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م أنت الأبناء قتري بالإعلان عن عزمه تكرار ما سبق أن فعله، مرة أخرى.

(٥٣) ابن القطان، ص ١١٤ - حيث اخبر الموحدين والتمييز الذي قتل فيه المناظرين بهونا، بينما كان تمييز تينمل عقب الحركة إلى البحيرة حيث كان ابن تومرت في توديع الموحدين وتشجيعهم...

وإذا كانت الحكومة المرابطية - رغم ما كانت تعانيه في المغرب من مواجهة الموحدين - قد رأت أن تقوم بلاد المغرب بتقديم المعونة الحربية عيناً إلى الأندلس، ممثلة في لرق السودان التي وقع عبء تجهيزها على عدد من المدن المغربية، مثل فاس (٥٤)، فإن القوات المرابطية بقيادة ابن مجور (الحاج بالبربرية) لقيت هزيمة مروعة في وقعة قلييرة (Cuillera) قرب جزيرة شكرة، الأمر الذي ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة لضعف معنويات القوات المرابطية. وذلك عندما وجهت إلى القواد المنوزمين ملاحظات لاسعة من قبل الوزير ابن أبي الحصال الذي أفضح القول في رسالته التقريرية إليهم، الأمر الذي اعتبره الأمير علي بن يوسف بن تاشفين إهانة للدولة يستحق عليها الوزير النكبة، وكذلك الأمر بالنسبة لأخيه الكاتب (٥٥). وهي الأمور التي كانت تمهد لفشل المرابطين في صراعهم البائن ضد الموحدين.

محاولة سد منافذ الجبل في تينمل

والمهم أن الأمور كانت تصعد إلى ذروة الأزمة، عندما قررت حكومة علي بن يوسف القيام بعمل حاسم في محاولة لاتقاء تهديدات الموحدين المتكررة مع توالي الأيام، وذلك بسد منافذ الجبال في منطقة تينمل (٥٦). الأمر الذي أدى به ابن تومرت إلى اتخاذ الإجراءات المناسبة لذلك الحصار. وقعلاً دعا المهدي إلى حشد الرجال من قبائل المصامدة، وكان عليه أن يعهد بتنفيذ خطة الحرب إلى البشير بدلاً منه شخصياً، حيث كان قد دخل في مرحلة مرضه الأخير.

(٥٤) ابن القطان، ص ١٠٩-١١١، حيث وقع على أهل فاس اعداد ٣٠٠ (ملاسمائة) غلام من سودانهم سبوا إلى مرسية بالأندلس.

(٥٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١١٠-١١١.

(٥٦) انظر الحلل الموشية، ص ١١٣- حيث الإشارة إلى الاستعانة ببعض المغامر بن (الفتاك) من الأندلس، وأن كانت الإشارة إلى أن الفتاك الأندلسي الفلكي كان يعمل في خدمة المرابطين بعد ذلك في سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م- انظر الهامش ص.

التمييز:

وكان علي البشير أن يبدأ الغزو بعملية العرض والتمييز التي تهدف إلى التخلص من الإخوة الأعداء أي المنافقين، قبل البدء بفك السدود المضروبة علي منافذ الجبل، في مواضع تاغزرت ومن ثم المسير بالتحيل إلى «مش اكمارجيران تنداين» حيث حقق النصر علي العسكر المراهطي بقيادة عمر بن يملوك الذي قتل، ومن ثم عادت الحملة إلى تاغزرت بما غنمته من خيل المنهزمين (٥٧) .

مقدمات أيام البحيرة هياج باب أغمات (الدباغين) :

والذي يلهم من رواية ابن القطان أن الحرب كانت سجالاً في أوائل أيام البحيرة، فكان من جملة الأيام الأولى لمعارك البحيرة ذلك اللقاء بين الموحدين وقيم بن يوسف بن تاشفين وهو في الطريق إلى أيجليز. ومن الواضح أن المعركة انتهت بانسحاب قيم. ولكنه عندما وفدت عليه المعونات من الأموال والسلاح نجح في تحقيق انتصار مؤقت للمراهطين.

والظاهر أن الأمير علي بن يوسف الذي كان يراقب الموقف جنوباً خارج باب أغمات (الدباغين حالياً)، أراد أن ينتهز الفرصة ويحول ذلك الانتصار المؤقت لقراته خارج أسوار مراکش إلى هزيمة تامة للموحدين، فسمح لأهل السوق هناك بالخروج لمشاركة العسكر النظامي في كسر الموحدين. ولكنه عندما اتضح له أن أهل السوق قد خرجوا بغير سلاح، أمرهم بالرجوع إلى داخل المدينة لتزود بالسلاح، فكانت عودتهم تلك أشبه بالهزيمة. وكانت فرصة انتهزتها بعض كسان الموحدين التي كانت تتناوب القتال بقيادة كل من عبد المؤمن بن علي (الخليفة) وأبي حفص عمر بن علي اصناج، وأبي عمران بن موسى بن قاط الجدميوي، فاندفعت تطارد

(٥٧) البهقي، ص ٥٩، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص ١١٤-١١٥ حيث كان تمييز الموحدين وقتل المنافقين في أخبار سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م، وكذلك تمييز أهل تينمل عقب المسير إلى البحيرة حيث كان الإمام المهدي في وداعهم.

المنهزمين الذين مات كثير منهم محشورين في الأبواب، كما قتل في تلك المعركة حوالي ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) أسود من عبيد المخزن، ولم ينج الأمير علي بن يوسف نفسه، من الموت إلا هروباً من باب آخر، هو باب المخزن. وكان تمام هزيمة المرابطين بهزيمة يكو (أبو بكر) بن علي، ومقتل بطي بن اسماعيل، بقبيله باب أشمات، وذلك علي يدي البشير الذي يذكر اسمه في شكل المسيح الذي بشر بهزيمة الأعداء - فكان مراكش أصبحت فريسة سهلة بين أيدي الموحدين. (٥٨).

والظاهر أن ذلك الانتصار السهل فتح آفاقاً واسعة أمام ابن تومرت الذي كان يعاني من المرض، فقرر أن يكون هو البادئ بالعمل السريع والحاسم لإنهاء الصراع إلي مصلحة أهل التوحيد. وفعلماً بدأ في حشد قبائل المصامدة في الجبل في أشمات، فلما بلغ حشده ٤٠.٠٠٠ (أربعين ألفاً) اطمأن إلي قوة جانبه، وامكانية تنفيذ خطته الطموحة في حصار مراكش العاصمة، والاستيلاء عليها، وبالتالي القضاء علي دولة علي بن يوسف بن تاشفين في عقر دارها دفعة واحدة (٥٨م) كالسكنة القلبية، فكانت بداية أيام معركة البحيرة (بحيرة الرقات) الكبرى.

(٥٨) ابن القطان، نظم الجحمان، ص ١١٥-١١٨. وقسارن، ابن أبي زرع، ووض القرطاس، ص ١٧٧ - حيث اضطراب المعلومات، بين بداية الصراع في أيجليز هرقة، وحرب مراكش بقيادة البشير، وحيث الجيش المرابطي في أشمات كان بقيادة الأحول الذي قتل في القتال - الأمر الذي قد يعني خطأ ما بين حرب الموحدين والمرابطين، والحرب بين الأغالبة والفاطميين في المغربية قبل أكثر من قرنين (انظر ج ٢ ص ٥٦٢)، وانظر القرطاس أيضاً ص ١٧٩، حيث النص علي التمييز قبل المسير إلي قتال مراكش وجهاد من بها من المرابطين بقيادة كل من عبد المؤمن (علي الصلاة) وأبو محمد البشير (لقيادة العسكر). ولما وصلوا إلي أشمات تلقاهم بها الأمير أبو بكر بن علي بن يوسف في جيوش عظيمة، من : لتونة وصهاجة والحشم وغيرهم. وأنه دارت حروب عظيمة بينهم مدة ٨ (ثمانية) أيام، انتهت بهزيمة أبي بكر ولتونة، وتبعهم الموحدين يقتلونهم في كل فج إلي أن ادخلوهم مدينة مراكش، وسدوا الأبواب، وبعد أن حاصروهم ٣ (ثلاثة) أيام ارتحلوا إلي تينعل : في وجب ٥٢٤هـ - يوتيه - يولييه ١١٣٠م. وأن المهدي خرج للقاء الموحدين، وعزلهم بما يكون من النصر والفتح، كما أعلمهم أنه يموت في تلك السنة، فبكوا وأسفوا.

(٥٨ م) الحلل المشوية، ص ١١٤.



مراکش - باب أجناو (منظر عام)

أيام البحيرة ١

والمفهوم من روايات كل من البيدق وابن القطان وصاحب الحلل الموشية أن حصار الموحدين لمراكش استمر لمدة ٤٠ (أربعين) يوماً، دارت خلالها عدة أيام أو وقائع (٥٩) .

وواضح من النقل المضطربة للمصادر الرئيسية الثلاثة - إلي جانب روض الفرطاس - أن الصراع الذي دار حول مراكش خلال ٤٠ (أربعين) يوماً (٦٠) تقرر مصيره في يومين فقط أو معركتين كبيرتين، أولاهما هزيمة منكرة كان يمكن أن تؤدي بالحركة الموحدية وتصبح معركة فاصلة في تاريخ المغرب المرابطي - الموحي. والثانية كانت رلاً للمهزيمة، حولتها إلى حرب سجال، وهو الأمر الذي كان ينبغي أن يلقي عليه الضوء حتى تتضح حقائق الأمور، ولا يصبح قيام الدولة الموحدية بعد هزيمة البحيرة القاتلة، وكأنه خطأ تاريخي أو معجزة من المعجزات.

ففي أول الممارك الكبيرة التي فرضها الموحدون الذين كانوا في ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) رجل ما بين مارس وأرجل، على المرابطين انهزم هؤلاء الأخيرون رغم تفوقهم في الكثرة العددية، ولا يصح تفسير ذلك إلا بتدني معنويات القوات المرابطية التي

(٥٩) انظر البيدق، ص ٥٨- حيث النص المضطرب الذي يتكلم عن ٤٠ يوماً ثم خلالها تمهيز البشر، ومات فيها من الناس ٥ (خمسة) قبائل بموضع "أيجران وسنان"، و"إسنادان أندوه ناين"، كما مات من هتاتاته أنغزه، ومات ابن ماعروص بموضع "أيجر ناين كوريت متاع آمادن" و"جدميوه متاع تاكوشين"، ص ٥٩- حيث : "ونزلنا البحيرة وبقينا بها ٤٠ (أربعين) يوماً"، وقارن ابن القطان، ص ١١٨- حيث : "تقادم الحصار على مراكش مدة ٤٠ (أربعين) يوماً، يقاثلونهم في كل يوم أشد قتال، والواحد من الموحدين يحمل على العشرة.... وسيدنا الخليفة (عبد المؤمن) بتقديمهم لبسالته، ويهزم الأبطال، والسعد يقدمه، والنصر يخدمه....، وقارن الحلل الموشية، ص ١١٤- حيث النص على أنه توالى فيها القتال والهرائم وأعراس للطيور وولاتهم.

(٦٠) انظر ابن القطان، ص ١٢٥.

استهلكت أن محاصر في عقر دارها من جموع المصامدة - أتباع الأُمس
القريب (٦١).

وتصف الرواية المنازلات اليومية بين الفئتين : فرادي (أبطالاً) وجماعات،
وكيف تبادل الطرفان النصر والهزيمة، وكيف كان المجاهدون من الرجال من كلي
الطائفتين يذهبون في نهاية الأمر : أعراساً للطيور الجارحة ، وولائم للسباع
الجامعة. (٦٢).

وهنا يفهم من رواية الحلل الموشية أن الاستعانة بالخبرات الأندلسية في حرب
الروم بالأندلس كان لها أثرها في تقويم ميزان القتال لصالح المرابطين. فعندما قدم
الزعيم الأندلسي المعروف بابن هَمشك بكتيبته الصغيرة المكونة من ٤٠٠
(اربعمائة) رجل، منهم ١٠٠ (مائة) فارس و ٣٠٠ من الغزاة الرماة نجحت أفانيته
الحربية في الحرب بالرماح القصيرة - علي طريقة الرمي بالنشاب، كما نرى - في
النكابة الموحدين، حيث قتلوا منهم حوالي ٣٠٠ (ثلاثة مائة) رجل، ادخلت رؤوسهم
إلى المدينة (٦٣) . هذا، كما أورد، أمير المسلمين علي بن يوسف، القائد بن
همشك، فخر أبي اسحق، بحسبك علي رأسه أبو محمد بن وانودين، فكان النصر
للمرابطين علي الموحدين (٦٤).

(٦١) تبارن البهدي، ص ٥٩- حيث الخروج إلى البحيرة من طريق مكناز في ١٥ (خمسة
عشر) يوما، واجتمع فيها ٣٠٠ (ثلاثة آلاف) رجل منهم ٣٠٠ (ثلاثمائة) فارس، يوم الأربعاء
من شهر ابريل (الأمر الذي يدل ان الرواية اندلسية أصلاً) وكان الاقلاع منها يوم الخميس إلى
أرض البحيرة، حيث كان الرماط طول أيام الحرب الأربعين، وانظر ابن الاثير،
ج ١٠ ص ٥٧٤-٥٧٥ حيث الموحدون ٤٠٠٠ (اربعمون ألف) ورجل، الحلل الموشية،
ص ١١٤- حيث الموحدون ٤٠٠٠ (اربعمون ألفا) والمرابطون ١٠٠٠٠ (مائة ألف) دخلوا المدينة
على أسوأ حال، ومات منهم بالسيف والازدحام على أبوابها خلق كثير، وهي الرواية المبالغ
فيها من غير شك- والتي يمكن أن تذكر بموقعة زحام باب أنعمات في مراكز العاصمة.

(٦٢) الحلل الموشية، ص ١١٤.

(٦٣) الحلل الموشية، ص ١١٤.

(٦٤) الحلل الموشية، ص ١١٤.

وهكذا كانت الأمدادات تأتي إلى كل من الطرفين لتعويض خسائر المفقودين في القتال، وتزيد في عدد المحاربين من الجانبين. فمن جانب المرابطين أقبلت العساكر نحو مراكش تحت قيادة أبي بكر الجوهري، فدخل المدينة بعساكره هسكورة (المصمودية) التي لم تكن قد وُحِّدت بعد (٦٥) ، كما دخل البلد أيضاً يحيى بن ساقطن بعسكر صنهاجة. أما عن ياسين ابن فيلو، فعندما أتى بعسكره فإنه أبي دخول المدينة، واتخذ الجانب الغربي من أرض البحيرة - قبالة باب الدهاقين - موقعاً لرجائه (٦٦) ، فكانه كان مستعداً للنضال في أي وقت من جانبه أو من جانب الموحدين. الأمر الذي كان يعني إن المعركة الكبيرة وشيكة الوقوع. أما عن جانب الموحدين فكانوا قد تلقوا مدد أهل أغمات إيلان (هيلات) (٦٧) .

يوم بحيرة الرقائيق : هزيمة الموحدين

السبت، ٢ جمادي الأولى ٥٢٤هـ / ١٣ أبريل سنة ١١٣٠م

وهكذا لم يقبل الصباح حتى تم اللقاء الذي يقول فيه البيدق : « فقاتلناهم قتالاً شديداً، وكان معنا أهل إيلان عن بكرة أبيهم، وهزمونا بالعشي »، وفر الموحدون بعد أن تركوا أعداداً كبيرة منهم في أرض المعركة (٦٨). وكان من الطبيعي أن نفتقد تفصيلات الصراع في الجانب الموحد المهزوم - وهو الأمر الطبيعي - كما نفتقدها

(٦٥) البيدق، ص ٥٩.

(٦٦) البيدق، ص ٦٠.

(٦٧) البيدق، ص ٦٠، وقارن ابن القطان، نظم الجمان، ص ١١٨-١١٩ حيث استوفد على بن يوسف العسكر من جميع لاقطار، من الاندلس وجزائر البحر (ميورقة)، ووصول وانودين بعسكر سبلماسة الذي المدينة من باب الدهاقين، بينما رفض غيرهم من عسكر القبيلة الدخول إلى المدينة بل ضربوا خيامهم (أخيبتهم) خارج باب الدهاقين (أغمات) بدءاً لطلب الحرب. وهكذا بات المعسكران : الموحد والمرابطي، على سروجهم، في شكل التعبية، وبدأوا الصراع مكرين.

(٦٨) البيدق، ص ٦٠.

بما يحسن به مواجهته، من الصمود، فرح عبد المؤمن، كما فرحت جماعة الموحدين . ولا شك أنها كانت فرصة لكى يعيد عبد المؤمن تنظيم الرجال، والثبات فى موقفه للقاء القوات التى كان قد سيرها على بن يوسف، لتضع نهاية لمقاومة الموحدين.

يوم البحيرة الثانى : وقعة حومة أغمات، والحرب سجال ،

وفى حومة أغمات أدركت القوات المرابطية التى سارت جنبا إلى جنب فى ٤ (أربعة) جيوش يقودها كل من : (أبو بكر) سير بن وازيل، ومسعود بن ورتيغ فى زناته، ويحيى بن سير، ويحيى بن كانجان، قوات عبد المؤمن، من : أهل أغمات هيلانة، ومن عاد إليه من مصامدة قبائل : هنغاة وجنيفسة ومزاتة، الأمر الذى مكّنه من مواجهة المرابطين.

وهنا تقول رواية ابن القطان التى تنسب إلى الخليفة عبد المؤمن، أنه عندما ضيقت القوات المرابطية عليه (عبد المؤمن) ونفائيا من كان معه من قوات الموحدين، اضطر بعد مشاورة زميله عبد الله ابن ملوية (ملويات)، إلى اتخاذ موقف تكتيكي يجمع مابين الدفاع والهجوم، اذ اتفق على تقسيم القوات الموحدة إلى قسمين ينتشران على جانبيه العدو ميمنة وميسرة، يقود عبد المؤمن الميمنة ليضرب بها فى مجنبه العدو اليمنى، بينما تكون قيادة القسم الآخر إلى عبد الله بن يعلى بن ملوية، وعليه الضرب فى مجنبه المرابطين اليسرى . وكانت تلك الخطوة الجريئة حقا مفاجأة للمرابطين الذى انهزموا فى التو والحين نحو أبواب مراكش (٧٤).

أما رواية البيدق، شاهد العيان، فتقول : «اجتمعنا وتقاتلنا معهم بموضع يقال له : أبجر متاع إن كوربيت، فلما رأوا منا مالا يطبقون، رجعوا إلى مراكش ونحن

لتينممل» (٧٥) . وذلك في سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م .

وفي تينممل اتخذ محمد بن تومرت المريضي الاجراءات المناسبة لتأمين قاعدته تينممل من هجوم محتمل يقوم به المرابطون . فأقام هناك برجاً سماه «برج تيطاف» . أى : برج الحرس ، جعل فيه طبلاً عهد به من أجل انذار الجماعة وقت الخطر ، إلى رجل من مقربيه ، وهو : عبد السلام آغيتى .

و ذات ليلة دق الطبل ، وأخذ من في المدينة حذره من العسكر وغيرهم ، ولكن سرعان ما هدأت النفوس عندما أعلن عبد السلام أن الطبل قلت من يده عن غير قصد ، فكانت بشرى طيبة لابن تومرت لكى يعمل على رأب الصدع الذي أحدثته نكسة البهيرة (٧٦) .

توابع البهيرة :

وهكذا سير ابن تومرت رسله يدعون القبائل إلى الاستعداد للعرض والتصييز استئنائاً لمواصلة النضال (٧٧) .

التمييز الأخير :

وتم التمييز ابتداء بقبيلة الإمام : هرغة ، نظراً لغياب طلبة جنفيسة الذين ميزوا بعد اعتذارهم من سماع النداء ، الأمر الذى أثار يملوك بن على المكنى بعمر أحناج . فما كان من محمد بن تومرت إلا أن أمر بإعادة التمييز ، كما عمل على استرضاء

(٧٥) انظر البيهقي ، ص ٦١ ، وقارن ابن القطان الذي ينقل هذا النص مع بعض التغيير - نظم الجمان ، ص ١٢١ - وفيه على لفترة بعد البهيرة ، وهم ٤ (أربع) جيوش ، ويقدمها ٤ (أربعة) من صناديدهم . اقتتلوا بموضع «أيمهران بني تركريت» فلما رأوا (المجسمون) حالاً يطبقون رجعوا إلى مراکش ، ورجع الموحدون إلى تينممل . هذا في حياة الإمام المهدي .

(٧٦) انظر البيهقي ، ص ٦١ .

(٧٧) البيهقي ، ص ٦١ .

عمر أصناج بأن أمر بأن تجوز فرسته بعد جواز قبيلة المعصوم، فكان عمر أصناج قد أصبح الرجل الثاني في الجماعة بدلاً من البشير الذي افتقد في وقعة البحيرة، والذي قيل إن عبد المؤمن دفنه سرّاً (مأسبق، ص ٢٦١). وأكد ابن تومرت ذلك بكتاب رسمي خط فيه : «محمد بن عبد الله ثم عمر أصناج» وبذلك صار هذا الأخير مميزاً برسم أهل تينملل (٧٨). وكان ذلك التمييز، وهذا الترسيم لعمر أصناج آخر أعمال ابن تومرت الرسمية.

الغيبية والوفاة،

وبعد ذلك كانت غيبة المهدي في دارهم لمدة ٣ (ثلاثة) شهور. وبدأت تلك الغيبة بأن دعا إلى اجتماع المرحدين حيث وعظهم، وقال لهم : «أنا مسافر عنكم سفيراً بعيداً». وعندما خرج الناس بالبكاء وطلبوا صحبته إلى المشرق إن كان يريد ذلك، قال لهم : ليس هذا يسافر مسافره منكم أحد، إنما هو لي وحدي. ثم دخل (الدار) ولم يره أحد أبداً*.

وحضر معه غيبته كل من : عبد المؤمن بن علي (الخليفة)، وأبو إبراهيم (إسماعيل إهيج) وعمر أصناج، ووسنار ثم اخته (المهدي) : أخت عبد العزيز وعيسى. وبعد هذا كانت أوامر المهدي تعلن على الملأ بمعرفة أبي محمد وسنار (٧٩)

وهناك رواية في البيهقي تقول إن ابن تومرت قدم وصيته لأصحابه، وتبين من

(٧٨) البيهقي، ص ٦١ - ٦٢. وقارن ابن القطان، ص ١٢٣ - حيث النص علي أنه بعد التمييز قام محمد بن تومرت وكتب اسم عمر بن علي أصناج بعد اسمه، وجعل رسمه بعد رسمه «ثم مشي سائر المرحدين، وعاد عمر مع أهل تينملل».

* البيهقي، ص ٦٢.

(٧٩) البيهقي، ص ٦٢ - ٦٣ - حيث كان يخرج ويقول : «بأمركم المعصوم أن تفعلوا كذا وكذا فكنا نفعله».

تلك الوصية وكان المهدي كان قد غير من أفكاره العقلانية المتعلقة بالتوحيد وأصبح قدريا يؤمن بقضاء الله المحتوم الذي، لاسمجد عنه إلى درجة أنه تهاهم عن طلب الرزق، بل وعن سؤال الله حتى أنه نهى عن التوكل، حيث قال : « إن التوكل في الحقيقة هو الشك، وعندما سئل فما الحيلة؟ قال لهم : ترك الحيلة والتسليم إلى ما قسمه الله ».

والذي ينهم من نهاية هذا الحوار بين المهدي وأصحابه في فترة الغيبة، أنه أوصاهم بما أوصى به النبي صحابته الأقرين، فقال :

« ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا، ألا قد بلغت، ألا قد بلغت » الأقدم بلغت (٨٠) .

أما عن وفاة محمد بن تومرت فالدأرج أنها كانت في شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ / أغسطس ١١٣٠ م. (٨١)

(٨٠) البيهقي ، ص ٦٤ .

(٨١) انظر البيهقي ، ص ٦٤ ، ابن الاثير ج ١ - ص ٥٢٧ ، أما زواية ابن خلدون التي تجعل وفاته سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ، فتصير عن رأي من قالوا أن غيبة محمد بن تومرت استمرت لمدة ٣ (ثلاث) سنوات - انظر البيهقي ق ، ص ٦٤ والهاشمي الخاص بوفاة المهدي.

A S R

الفصل الخامس
سراج الموحدين

A S R

عبد المؤمن بن علي، خليفة الأمام المعصوم

(٥٢٤هـ / ١١٣٠م - ٥٥٨هـ / ١١٩٢م)

إذا كان المهدي بن تومرت هو المنظر لحركة الموحدين المصمودية التي تلت حركة المرابطين الصنهاجية في بلاد المغرب والأندلس، فإن عبد المؤمن بن علي الكومي، الخليفة الطيحي لابن تومرت، هو صاحب الفضل في تطبيق مبادئ التوحيد والوحدة التي انتهت بتكوين دولة : إمبراطورية عظمى، تمتد شرقاً إلى البلاد الليبية وغرباً إلى السوس الأقصى وموريتانيا جنوباً وبلاد الأندلس شمالاً . وهكذا حق للمكتتاب المعاصرين أن يطلقوا على ابن تومرت لقب «شهاب الدين»، وعلى عبد المؤمن «سراج الموحدين»، ولهم الحق في ذلك . فاللقب الأول لاهوتي ديني بينما الثاني مدني دنيوي .

والحقيقة أن التفرقة ما بين الاتجاهين : الديني والدنيوي لا يعني أن محمد بن تومرت كان منظرًا فقط، إذ الواضح مما سبق أنه لم يكتف في تنظيره بتغيير الدولة المرابطية بناء على ما كان يرمى به المرابطين من التجسيم والكفر، بل أنه كان يدعو أيضاً إلى التوحيد والوحدة بين المسلمين بالدعوة إلى التغيير السياسي في كل عالم الإسلام، بناء على مشاهدته في رحلته الشرقية من الخروج على قواعد العدل : أساس الملك، وقيامه بتغيير المنكر الذي هو أصلاً من اختصاصات ولي الأمر - كما هو معروف في النظم الإسلامية. ولما كان ابن تومرت قد قام بتغيير المنكر بدءاً من طريق العودة في مكة ومن ثم في مصر العاصمة والإسكندرية (الثغر)، فإن هذا يعني أن الرجل لم يكن يعترف في قرارة نفسه بعصر الطوائف أو نظام الدويلات الذي كان سائداً وقتئذ، وأنه كان يؤمن بالتوحيد على المستوى الديني، والوحدة الدينية على المستوى السياسي.

والخلاصة هي أن عبد المؤمن بصفته خليفة المهدي ابن تومرت تعنى أنه ثاني اثنين، بمعنى : الصاحب للأمر والصدیق المكمل للدعوة على المستويين الديني

والسياسي، فهو من هذا الوجه قرين أبي بكر الذي رفض أن يمنع عنه من فريضة الزكاة التي تأتي بعد الصلاة، ولا «خطام بهير».

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن عبد المؤمن إذا كان قد ظهر في بداية اتصاله بابن تومرت في ملالة بمظهر التلميذ المثالي والصديق الولي - دون غيره من طلبية ابن تومرت أو صحابته، فإن الأمر لم يكن كذلك في نهاية عهد الإمام المهدي، إذا ظهر لعبد المؤمن منافسان علي مركز الرجل الثاني بعد الإمام، هما : البشير : أبو محمد عبد الله الونشريشي، صاحب التمييز وشهيد البحيرة، ومن بعده : عمر أصناج الذي ميّزه المهدي عن أصحابه بعد هزيمة البحيرة، فكتب اسمه بعد اسمه، ورسمه بعد رسمه (مسبق، ص ٢٦٥) . ولا بأس أن أراد المهدي بذلك أن يكون أبو حفص عمر بن علي أصناج بمثابة المستشار العسكري لعبد المؤمن، والشخص الثاني له أيضا في تلك الفترة المرحلة من أواخر أيامه، وهو الأمر المقبول أيضا، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين كانوا يرون أن عهد المهدي ابن تومرت إنما هو في الحقيقة تجديد للعهد النبوي الشريف، فيصبح عبد المؤمن والبشير وعمر أصناج بمثابة الثلاثة النخبة من بين المبشرين بالجنة من صحابة الرسول العشرة : أبي بكر - وعمر، وأبي عبيدة، وأصحاب السقيفة المرشحين للخلافة النبوية في المدينة.

والمهم من كل ذلك أن ما قام به عبد المؤمن من الصمود أمام هزيمة البحيرة، بل ومحاجته في إجهاض ما كان يضمه المرابطون من انتهاز الفرصة للقضاء على فلول المنهزمين من مصمودة وحلفائها، أثبت أن عبد المؤمن كان مؤهلا لخلافة المهدي ليس كطالب أو فقيه، بل وكفائد عسكري موهوب بكل صفات القيادة : من الجرأة وقوة القلب والذكاء، والتخطيط الاستراتيجي العام، والتكتيكي الخاص في قلب المعركة . وهذه الصفات هي التي كانت - كما نرى - السبب في ظهور المقولة المنسوبة إلى ابن تومرت بعد هزيمة البحيرة والتي تعني : ما بقي عبد المؤمن - ولو وحده دون غيره من العشرة الذين انتقد نصفهم - فإن الأمر باق، وأن انتصار الدعوة الموحدية على يديه، حتمية تاريخية، وبالتالي دولتها المؤتمية المظفرة التي قيل إنها باقية بنورها

أهد الدهر.

وهكذا كان عبد المؤمن فى نظر معاصريه من الموحدين هو المرشح الوحيد لخلافة المهدي دون منازع من بعيد أو من قريب حتى لو كان من إخوة الإمام : آل بيت ابن تومرت.

شخصية عبد المؤمن :

تختلف الروايات فى تحديد تاريخ مولد عبد المؤمن بن على، فاما كما اختلفت فى تحديد مولد محمد بن تومرت . وإذا كان الاختلاف حول تقييم الشخصيات التاريخية الكبيرة أمرا مقبولا تبعا لمقدار اختلاف المؤيدين والمعارضين، فإن الاختلاف فى التحديد الزمنى أى التاريخى، وهو الأمر الذى لا هوية له لا يفسر الا بعدم الاستقرار السياسى فى الفترات التالية حيث تحاول كل دولة طارئة التخلص من تراث سابقتها، فتعمل على طمسه، الأمر الذى ينتهى باضطراب التاريخ العام، ويضمنه التاريخ الخاص، من : شخصى أو محلى.

تختلف الروايات فيما يتعلق ببلاد عبد المؤمن . فعبد الواحد المراكشى يحددها بابين سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م وسنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م (١) وابن القطان لا يعرف مولده بل يقرر عصره عند وفاته بـ ٦٣ - ٦٤ سنة، بمعنى أن مولده كان فى سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠١ م، وهو التاريخ الوسط الذى نقبله على أساس أن يكون لقاء عبد المؤمن بالمهدي فى ملالة حوالى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م وعمره حوالى ٢٠ (عشرين) سنة، وهو فى مقتبل الشباب، ويكون عند ولايته فى الـ ٣٥ (الخامسة والثلاثين)، فى عنقوان رجولته، قريبا من عمر صلاح الدين الذى كان فى الـ ٣٦ (السادسة والثلاثين) وهو يسترجع بيت المقدس، كما ينص على ذلك لوى هالفن(*)،

(١) المعجب، ص ٢٣٩.

*مجموعة شعوب وحضارات Louis Halphen, Peuples et Civilisations.

ج ٦ ص ٢١٥ (ط ٢٠ مارس ١٩٤٠).

ولمى الوقت الذى نفتقد فيه التاريخ الصحيح لمولد عبد المؤمن، يعوضنا مؤرخوه بمعلومات قصصية طريفة، الغرض منها الإشادة بمؤسس أسرة بنى عبد المؤمن التى سادت الدولة الموحدية، التى عرفت أيضا بالدولة المؤمنية، وأن كان فى ذلك أيضا تلميح إلى مذهب التوحيد.

فكما يحكى عنه صبياً أن سحابة من النحل الأسود هبطت عليه وهو نائم، الأمر الذى أثار رعب أبيه ووالدته، ولكنه بعد أن طار النحل بعيداً وجدا الصبي صحيحاً معافى. وعندما سارت والدته مع أبيه لتروى القصة إلى «الزاجر»: متنبئ القرية، قال الرجل: أن تلك «الغريبة» تعنى أن عبد المؤمن الطفل سيكون له شأن ويجمع على طاعته أهل المغرب (٢). وهكذا كان على الطبيعة بحكم القدر أن تساند عبد المؤمن فى عمله العسكرى، وهو يهد قواعد دولته، فمن كراماته فى هذا المجال: تضرب وادى سلا (فى منطقة رباط الفتح) لكى تعبر عساكره دون قنطرة ولاقارب - وذلك بخرق العادة، حيث إن الموضع مرفأ للسفن الكبار (٣).

وهكذا اختلطت الاسطورة بالحقيقة فى تاريخ عبد المؤمن: سراج الموحدين، كما هو الحال بالنسبة لتاريخ المهدي ابن تومرت: شهاب الدين، وهذا شأن عظماء الرجال وخاصة فى عصور الاضمحلال التى تأتى بعد العهود المجيدة، حيث لا يكون للناس من ملجأ لمواجهة الواقع المر إلا بأحلام اليقظة الوردية - وهذا من عبر التاريخ التى لا ينبغي أن تغيب عن أذهان الباحثين - وخاصة فى عصرنا: عصر العقل والرأى بعد الأسطورة والنقل (٤).

(٢) ابن خلكان، الوفيات، ج ٣ رقم ٤٠٨ ص ٢٣٧.

(٣) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٤٧. هذا إلى جانب ما يقرر ابن القطان من فضائل عبد المؤمن وكراماته الأخرى، مثل: قصة التاجر السكندرى الذى أسلفه عبد المؤمن ١٥ درهماً فى قاس فأعاد التاجر القرض لعبد المؤمن وهو خليفة بعد استئصال المبلغ الصغير ٣٠ (ثلاثين) سنة. وقد بلغ مقدار ١٠٠٠ (ألف) دينار - نظم الجمان، ص ١٤٨.

(٤) وإذا كان مثل هذا القصص - الذى أحاط أيضا بسيرة محمد بن تومرت - يعتبر من -

نسبه :

المعروف عن عبد المؤمن بن علي أنه ينتسب إلى قبيلة كومية، من قبائل صنهاجة المغرب الأوسط، من قرية تاجرة من ناحية سيف البحر بأر شجول (ارشجول) وتلمسان. ولكنه لما كانت كومية قد صارت على عهد عبد المؤمن واحدة من قبائل الموحديين في بلاد المصامدة، لم يكن من المستغرب أن يتخذ نسباً عربياً، كما حدث بالنسبة لقبيلة المهدي ابن تومرت، التي صارت من قبائل الأدارسة الشرفاء حتى تصبح الإمامة والعصمة أمراً طبيعياً لمحمد بن عبد الله : أسفور بن تومرت.

وهكذا نسج الكتاب لقبيلة كومية هي الأخرى أو لفرع بنى عاهد : عشرة عبد المؤمن خاصة نسباً عربياً، فصاروا يدورهم من جذم قيس عيلان، العرب المستعربة أصلاً. وبذلك أصبح لعبد المؤمن نسبان، أحدهما بربري يرجعه ابن خلدون، إلى نسبة صطفورة (الاسم القديم لقبيلة كومية) : ماني بن مصدور بن مريس بن يعوط (٥)، والآخر : عربي قيسي عدنانى (٦). ومع مرور الوقت اختلط النسبان : البربري والعربي لعبد المؤمن، حتى التبس الأمر على ابن أبي زرع، صاحب القرطاس، الذي أخذ بفكرة الأصل العربي لعبد المؤمن، ثم يستدرك قائلاً : « والذي

طالحكيات الشعبية، فهي مقبولة من الناحية التاريخية، من حيث هي تكريم معنوي للشخصيات التاريخية الكبيرة، ومن حيث إنها لا تغتر شيئاً بالأحداث التاريخية - ومثل هذا ما يقوله صاحب السيرة الحلبية عن مثل تلك الروايات التي تصبح كالهالآت النورانية بالنسبة للسيرة النبوية ج ٩ ص ٢-٣ - حيث بيت شعر الزينى العراقي، الذي يقول :

وليعلم الطالب أن السيراً
تجميع ما صح وما قد أنكرنا

هذا إلى جانب ما يقوله أحمد بن حنبل : إذا رويما في الحلال والحرام شددنا، وإذا رويما في الفضائل ونحوها تساهلنا ...

(٥) العبر، ج ٦، ص ١٧٦.

(٦) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ١٩٧ - حيث النص على أنه كومي. ثم القول إنه كان يقول إذا ذكر كومية : لست منهم، وإنما نحن من قيس عيلان من مضر بن معد ابن عدنان ولكومية علينا حق الولاية بينهم، والمنشأ فيهم، وهم الأخوال.

ثبت أنه رجل زناني الأصل، من كومية هنين من تاجرة (٧)

صفاته الشخصية :

أما عن صفات عبد المؤمن الجسمية، فالمعروف أنه كان شاباً حسن الوجه رائع الجمال، وهو في مطلع شبابه بلالة حيث اللقاء مع المهدي، حاد الذكاء، محباً للعلم والتعلم (٨). أما في عتقوان شبابه فهو فارس الفرسان يقفز على صهوة جواده الأخضر، واسع أخايد الأرض والوديان، ويرفع معنويات المهزيمين من الرجال حتى حققوا التوازن مع العدو المنتصر (ماتسبي، ص ٢٦٠). أما في سنوات كهولته وشبهخوخته فتصفه رواية عبد الواحد المراكشي وابن خلكان أنه : ممتلئ الجسم، معتدل القامة، طويل الجذع، أبيض البشرة، تشوبه حمرة، مضئ الوجه، في خده خال، أشهل العينين، كث اللحية، واضح بياض الأسنان، شأن الكفين (عظيمهما). جهوري الصوت، فصيح الألفاظ.

(٧) روض القرطاس، ص ١٨٧-، حيث نسب عبد المؤمن، منقولا من خط حليده عبد الواحد، وهو : أبو محمد عبد المؤمن بن علي ابن علي بن مروان بن ورزيغ بن مصطفى بن مادغيس بن معد بن عدنان.. فهو زناني الأصل- وكان والده "علي" فخاراً يحمل التואفخ (المجامر)، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ١٢٦- حيث القول عن كومية إنهم ربما كانوا رطط عبد المؤمن... حيث نسبه : "عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن علي بن مروان بن نصير بن علي بن عامر بن الأسر بن يونس بن عبد الله بن يحيى بن ورزيغ بن مصطفى". وذلك كما نسبه مؤرخو الموحدين إلى مصطفى، ثم يقولون مصطفى بن يقور بن مطاع بن هودج بن قيس بن عيلان بن مضر. وهنا ينسب ابن خلدون علي أن بعضهم يذكر : "أن في خط أبي عبد الواحد المخلوع بن يوسف بن عبد المؤمن ما يدل على أنه مصنوع، إذ الأسماء ليست بأسماء البربر، وإني هي كما تراها كلها (١) عربية، والقوم كانوا من البرابرة معروفون بينهم.

(٨) انظر ما سبق، ص ١٧٠- وفي ذلك تنص الرواية على أن ابن تومرت أدرك منذ الوهلة الأولى أن الشاب الكومي هو المؤهل لإتمام برنامجه الإصلاحى- انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص ٤٧- حيث النص على أن "من كراماته - رضه - انجاز الدعوة النبوية للطائفة المهديّة، ففتح الأرض..

ولم يكن من الغريب إذن أن يكون محبباً إلى النفوس، لا يراه أحد إلا أحبه بديهية (٩).

أخلاقه وقضائيه :

أما عن أهم صفات عبد المؤمن الأخلاقية - كما تظهر في ترجمته عند ابن القطان، وإن اختلطت الحقيقية التاريخية فيها بالقصة الرمزية أو التعبيرية - فتتمثل في صفة الإخلاص، ومن ثم رد الجميل، إلى كل من أحسن إليه، قبل فترة الخلافة وخاصة أيام كان طالباً مجهولاً. وتظهر هذه الصفة أيضاً وكأنها من الكرامات بصفتها خليفة الإمام التي ضمنت بالتالي بقاء الأمر في عقبه الكرام إلى قيام الساعة - بحول الله تعالى (١٠). فأتناه فتح بجاية سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م لا يفوته إكرام أبناء الرجل الذي كان يعطيه الطعام قرضاً حسناً، وهو فقراء الطلبة في صحبة المهدي (سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م)، ويكتب لهم ظهيراً (سجلاً) بتعيينهم حكماً فوق قومهم (١١). وهو يكافئ المرأة التي أهدته عتراً عند عودته من بعض الغزوات، كما يحسن إلى فقراء طلبة المحضر ويقرضهم المال من أجل التجارة والاستغناء بالربح (١٢).

وهكذا تنتهي أخلاق عبد المؤمن في نظم الجمان لابن القطان بالكرامات والغرائب، مما ينسب للمهدي أو يتصل به مثل خبر أبي عبد الله اللخمي الذي يقول

(٩) المصنف، ص ١٩٧ - وهي ذلك بسبب إلى ابن تومرت أنه كان عندما يرى عبد المؤمن يشهد البيتين الآتين :

تكاملت قبك أخلاق خصصت بها	فكلنا بك مسرور ومغبط
والمن ضاحكة والكف مانحة	والصدر منشرح، والوجه مبسط

وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، رقم ٤٠٨، ص ٢٢٧.

(١٠) نظم الجمان، ص ١٣٣.

(١١) انظر ابن القطان، ص ١٣٧.

(١٢) نظم الجمان، ص ١٣٧-١٣٨.

فيه : « لا يقوم بالحق بعد هذه القرون (الأربعة الهجرية / قبل العاشر الميلادي) إلا المهدي (ابن تومرت) والرجل القائم بأمره، ومن يليه من الخلفاء بعده - رضهم (١٣) - هذا إلى جانب ما سبقت الإشارة إليه من تبشير المهدي بلقائه (في ملالة)، والحجازه « للعود النبوية للطائفة المهدية بفتح الأرض، وتدويخ الطول منها والعرض، فما أم بئداً الافتتاح، ولا سعى سعيّاً إلا أحمدته واستنجدته، تنجزاً لصديق الوعود » (١٤).

أسرته :

لا نعرف الكثير عن أسرة عبد المؤمن، من : عدد الزوجات وأسمائهن، والعائلات أو القبائل التي كن منتسبات إليها . والمعروف بشئ من التفصيل هو عدد أولاده الذكور الذين بلغوا ١٦ (ستة عشر) نفراً، منهم شقيقان فقط، وهما دون مراعاة حق الأسن، علي مانظن : يوسف (أبو يعقوب - خليفته) وعمر (أبو حفص) (١٥)، أما عن البنات فلا يذكر له منهن إلا اثنتان، هما : صفية وعائشة (١٦) . والأولى كانت زوجة لشيخ الموحدين أبي حفص عمر الهنتاتي والثانية كانت زوجة القاضي

(١٣) انظر ابن القطان، ص ١٤٢، وتنبؤ ابن عبد ربه في أرجوزته بظهور عبد المؤمن، انظر نظم الجمان، ١٤٣-١٤٥ - حيث العردة إلى ذكر وفاة المهدي، والقول :

ويرجع الأمر إلى هذنان لماجد ما قد خص هيلان

وب الفتوح صاحب الملاهم وقائع الأعراب والأعاجم

وحيث الإشارة أيضاً إلى أن أرجوزة ابن الخطاط، وما ذكره عبد الملك بن حبيب - في تاريخه الكبير - مما يرجع أصلاً إلى أعمال بعض كتاب الموحدين.

(١٤) ابن القطان، ص ١٤٧.

(١٥) انظر المعجب، ص ١٩٨ - حيث أسماؤهم : محمد (أكبرهم وولي عهده المخلوع)، وعلي

وعمر ويوسف وعثمان وسليمان ويحيى واسماعيل والحسن والحسين وعبد الله وعبد الرحمن

وعيسى وموسى وإبراهيم ويعقوب، وقارن ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٢١٢-٢١٣،

حيث أبناء عبد المؤمن ١٧ (سبعة عشر) ولداً بزيادة : أحمد وداود، ونقصان موسى.

(١٦) ابن القطان، ص ١٧٣، روض القرطاس، ص ٧٠٣.

الضريير أبي عمران موسى التينمللى من أهل الخمسين، والذي تزوج عبد المؤمن من ابنته زينب : أم ولده يوسف (خليفته) وأبى حفص عمر (شقيقه) (١٧).

وهكذا ينص ابن القطان في نظم الجمان على عناية عهد المؤمن بهنيه، إذ كان يحسن تأديبهم دينيا وعسكريا، فقد كان يدرّسهم في الدين ويشتد عليهم فيه، كما كان يحرص على تدريبهم في مجالات الرمي بالسهم والعموم وركوب الخيل، والتدرب عليها مع الموحدين. هذا، كما كان يأخذهم بحضور الصلوات الخمس في الجماعة، والمشاركة في قراءة الحزب من القرآن إثر الصلاة، كما كان يطلب منهم الحضور مع المؤذنين في الأسحار على ارتقاب الفجر.

هذا، وعندما ولي أولاده علي النبلاء كان يبعث معهم من أشيخ الموحدين ورجالهم العقلاء الأفاضل بمثابة الوزراء والمستشارين في قيامهم بأعباء الحكم والإدارة (١٨).

أسلوب حكمه، وفيما يتعلق بأسلوب حكمه، فقد كان يستعين بأصحاب الحكمة والرأى من الكتاب والوزراء الذين اتقنوا العمل في ديوان الانشاء، والذين كانت لهم مساهماتهم في إثراء الحياة الأدبية في البلاد، وإعلاء شأن ديوان الشعر الذي عالج شتى الموضوعات في المناسبات المختلفة.

ومن الوزراء والكتاب والقضاة والطلبة المشاهير في تلك المجالات يأتي ذكر الوزراء : أبى جعفر أحمد بن عطية وأخيه أبى محمد عطية بن عطية (١٩)، وعبد السلام الكومي، وأدرّيس بن جامع (٢٠) والكتاب : ميمون الهوارى (القرطبي)، وأبو الحسن بن عياش (اليايرى)، وأبو على الحسن الأشعري، وأخيل بن أدرّيس

(١٧) ابن القطان، ص ١٧٥.

(١٨) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٣٢.

(١٩) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٧٣، المعجب، ص ١٩٨ - ٢٠٠، وقارن، روض

القرطاس، ص ٢٠٥.

(٢٠) ابن القطان، ص ١٧٤، وقارن، روض القرطاس، ص ٢٠٥، والمعجب، ص ١٩٨.

(الرندي) (٢١) ومن الطلبة : الخطيب أبو الحسن (الاشبيلي) والخطيب أبو محمد بن جبل، وأبو بكر ميمون (القرطبي) (٢٢) ومن قضاته موسى بن سهل التينطلي، وحجاج بن يوسف وابن ميمون القرطبي (٢٣).

وهكذا حق لعبد المؤمن بن علي أن يكون صنوا لاستاذ المهدي ابن تومرت فتختلط الحقيقة في سيرته بالأسطورة، وتلك شيمة عظماء الرجال.

عبد المؤمن خليفة ابن تومرت

لأبأس من اعتبار الفترة الأولى من ولاية عبد المؤمن، خلال فترة كتمان وفاة ابن تومرت حفاظا على كيان دولة الموحدين الوليدة، أشبه ماتركن بفترات الحكم في غيبة الإمام عند الشيعة، من إمامية اثنا عشرية أو اسماعيلية سبعية، كما كان الحال مع أبي عبد الله الشيعي الذي أرسى قواعد الدولة الفاطمية في المغرب، بمنطقه القبائل بالجزائر بالمغرب الأوسط، قبل الكشف عن شخصية عبيد الله المهدي، أول الخلفاء الفاطميين (ج ٢ ص ٥٤٦ وما بعدها).

والحقيقة أن تحديد ابن القطان لتاريخ وفاة ابن تومرت في يوم الاثنين ١ من رمضان سنة ٥٢٤ هـ / ١٠ أغسطس ١١٣٠ م (٢٤) أمر مقبول من حيث أنه من المتفق عليه بين معظم الكتاب أن وفاة المهدي الموحدي كانت فعلا في سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م وإن تردد ابن خلدون فأضاف إلى ذلك سنة ٥٢٢ هـ / ١٠٢٨ م (٢٥) ومن ثم خروجه من مآزق التضاد التاريخي بالقول بأن فترة ما بين التاريخين، هي

(٢١) ابن القطان، ص ١٧٦-١٧٧، وقارن روض القرطاس، ص ٢٠٥.

(٢٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٧٨.

(٢٣) روض القرطاس، ص ٢٠٥، وقارن المعجب، ص ٢٠٠.

(٢٤) نظم الجمان، ص ١٢٦.

(٢٥) انظر المعبر، ج ٦ ص ١٨٩- حيث النص على أن المهدي هلك سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م، ثم

المروءة في ص ٢٢٩ إلى القول أنه هلك في سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م.

فترة المستر أو الكتمان (٢٦)، والتي يمكن أن تعادل فترة الغيبة - عند الشيعة - قبل الرجعة . والحقيقة أن ابن خلدون يشكك في صحة زعم ذلك الكتمان الذي استمر طوال ٣ (ثلاث) سنين، «كما زعموا» (٢٧)، الأمر الذي جعلنا نأخذ بأنه من الأرجح أن تكون فترة الكتمان هذه، ٣ (ثلاثة) شهور بدلاً من ثلاث سنين، كما سبق (٢٨) .

والمهم أنه منذ اعتكاف ابن تومرت ومن ثم وفاته سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م، لم يعد هناك من منافس لعبد المؤمن الذي انفرد بالسلطة على أساس وصية الإمام التي تعني ولاية العهد بالنص له والتعيين (٢٩). وإلى جانب الوصية تشير بعض النصوص إلى أن ابن تومرت كان قد عهد لعبد المؤمن بإمامة الناس في الصلاة

(٢٦) العبر، ج٦ ص ٢٢٩

(٢٧) العبر، ج٦ ص ٢٢٩، هذا ويلفد ابن خلدون (ج٦ ص ١٢٧) برواية تقول أن عبد المؤمن كتب موت ابن تومرت حتى صرح الشيخ أبو حصص أمير هناتة وكبير المصاعدة لمصاهرته. وأمضى عهد الامام فيه وللمستعرب من العصبية بين المصاعدة.

(٢٨) ص ٢٦٤ . والحقيقة أن فترة الغيبة قد تزداد عهد غير ابن خلدون من الكتاب إلى ٥ (خمس) سنوات (النويري، نهاية الأرب، ص ٤٠٥ - حيث عودة عبد المؤمن إلى تيسل وإقامته بتأليف القلوب، ويحسن إلى الناس إلى سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م، أو ٦ (ست)، ابن القفطان، ص ٢٠٧ و٢ - حيث الإعلان بموت الإمام المهدي سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤).

(٢٩) انظر ابن خلدون، العبر ج٦ ص ٢٢٩ - حيث : لما هلك المهدي وقد عهد من بعده لكبير صحابته : عبد المؤمن بن علي الكومي كتموا موته... حتى إذا استحكم أمرهم... فأظهروا للناس صوت المهدي وعهد له صاحبه، ويتأكد هذا الأمر برواية يحيى بن يحمور الذي قال : أن المهدي كان يقول في دعائه إثر صلواته :... "اللهم بارك في صاحب الأفضل"، وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣ ص ٢٣٨ (عبد المؤمن) - حيث النص على أن ابن تومرت "كان أبداً يتفرس فيه النجاة، وينشد إذا أبصره:

تقابلت فيه أوصاف خصصت بها فكنا بك مسرور ومفتبط

السن ضاحكة والكف مائحة والنفس واسعة والوجه منبسط

وانظر ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٨٤ - حيث النص : "وُزعم بنو عبد المؤمن أن المهدي استخلفه بعده".

(٣٠) فكان ابن تومرت كان يعيد بذلك سيرة النبي عندما عهد في مرضه إلى أبي بكر بإمامة الناس في الصلاة . وفي ذلك قال الناس عن أبي بكر بعد وفاة النبي :
ارتضاء النبي لديننا أفلا نرتضاء لديننا ! .

البيعة :

وهكذا ، واقتداء بما كان يجري في الوصول إلى منصب الخلافة ، وحسبما هو متعارف عليه في كتب النظم الإسلامية المعتبرة كالأحكام السلطانية للماوردي ، اختلط مبدأ الوراثة أو التعيين المتمثل في الوصية أو العهد بمبدأ الاختيار أو الانتخاب المتمثل في البيعة - المعروف الآن «بالاستفتاء» - والتي تنقسم بدورها إلى بيعتين ، أولاهما : بيعة الخاصة من أهل الاختيار ، والثانية : بيعة العامة من سائر طبقات الناس .

بيعة عبد المؤمن الخاصة :

وبيعة الخاصة هي التي تعني موافقة أهل الحل والعقد من طبقة الأعيان على المرشح (من بينهم) لشغل منصب الإمارة من حيث الأهلية والكفاية . وفي حالة الموحدين إذا كان المتعارف عليه لدى الكتاب أن جماعة العشرة من أصحاب ابن تومرت أو من كان قد تبقى منهم بعد موقعة البحيرة (٣١) ، وهم أشبه بصحابة النبي العشرة المبشرين الجنة ، فالذي نراه أن الظروف كانت قد تغيرت في جماعة الموحدين عما كانت عليه سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م عند مبايعة المهدي ، وأنه ينبغي أن ينضم إلى هيئة الاختيار الأولية هذه في حالة عبد المؤمن ، من يوجد من : أيت

(٣٠) روض القرطاس ، ص ١٨٤ .

(٣١) انظر البيهقي ، ص ٧٠ - حيث الإشارة . إلى نصف جماعة العشرة (أى خمسة) ، وهم : أبو إبراهيم (إساعيل بن إبيج) ، وعمر اصناج (أبو حفص الهنتاتي) ، وعبد الرحمن بن زجوة ، ومحمد بن محمد ، إلى جانب عبد المؤمن المرشح للخلافة ، وقارن المعجب ، ص ١٩٤ - حيث عمر لؤناج وهو أيتي ، وعبد الله بن سليمان .

خمسین وأیت سبعین فی العاصمة، بل ومشایخ طلیعة الحضرة والحفاظ - وذلك ان تلك المنظمات كانت قد أخذت شكلها المستقر منذ إعلان عصمة الإمام. (٣٢)
هذا . ولما كان أعضاء بیعة الخاصة هؤلاء، ممن یوجدون حول الإمام أو الأمير عادة، فإن بیعة الخاصة لم تكن تستغرق أكثر من یوم أو بعض یوم.

وفی بیعة عبد المؤمن الخاصة هذه، قام الشیخ أبو حفص (عمر بن یحیی بن علی الهنتاتی) بالدور الرئیس فی المجاز تلك البیعة (٣٣) بموافقة من كان قد بقى علی قید الحیاة من أهل (ایت) العشرة . هذا، وینص ابن ابی زرع علی تنافس القبائل علی ان یكون المرشح من رجالها كان الدافع الأول لاختیار عبد المؤمن الذی كان غریبا بینهم، لیست له عصبیة منهم (٣٤).

وإذا اختلطت الاسطورة هنا فی رواية ابن ابی زرع بالحقیقة التاريخية، حیث القول أن عبد المؤمن عمد إلى تخویف جماعة أهل الاختیار وترهیبهم من من أجل اختیاره عن طریق اصطحاب شبل أسد مدرب یربض بین یدیه، وبهصب بذیلہ، وإطلاق طائر متکلم وهو ینادی بالنصر والتمکین للخليفة عبد المؤمن أمير المسلمين

(٣٢) وهذا فیما یظهر عند البدیق (ص ٧٠) فی القول انه عندما انعقد مجلس البیعة حال (عبد المؤمن) بین الرجال والنساء وعظ الناس وذكرهم بیعة المهدي، ومن ثم وعظ کل من : ابو ابراهیم، وعمر اسناج، وابن زجو ومحمد بن محمد، قبل ان یماموه (عبد المؤمن). - هذا، وان أخذت تلك البیعة شكل بیعة العامة التي استمرت ٣ (ثلاثة) أيام - وهذا لا ینع ان تكون بیعة العامة قد تبعث مباشرة بیعة الخاصة، وهو الأمر المقبول فی ذلك الوقت المخرج، من بداية الدولة الموحدة.

(٣٣) ابن خلدون، المعبر، ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٣٤) انظر روضی القرطاس، ص ١٨٤ - حیث النص علی مباہمة العشرة مع تشرف کل واحد منهم إلى الخلافة بعده (المهدي) وكانوا من قبائل شتى.... کل قبيلة أحبت ان یكون الخليفة منها.... فتنافسوا.... واجتمع العشرة وآسروا بینهم وخافوا النفاق.... فانفقوا علی خلافة عبد المؤمن لكونه غریبا لیس منهم إلى جانب میل المهدي إليه.

(٣٥). ومثل ذلك مما يورده ابن القطان من ان وجوده السعيد كان منتظراً (٣٦). فكانه المهدي الثاني، أو ما يقوله بعد ذلك مما يلحق بذكره قيل وجوده، مثل : وجوه اسمه منقوشاً في لوح رخام أثرى في بعض أديره القدس حيث كان اسم المهدي منقوشاً في السطر السادس، واسم عبد المؤمن في السطر السابع (٣٧). ولا بأس أن يشير ذلك إلى تمكّن عبد المؤمن فيما بعد من الملك، عندما استقر له الأمر، حيث كان «شديد الملوكة، كأنه كان ورثها كابراً عن كابر» (٣٨). والحقيقة أن قصة عبد المؤمن والأسد والطائر المتكلم كانت موضوع قصيدة أنشدها كاتب عبد المؤمن، وهو الحسن بن عبد الله الأشيري (مؤرخ عبد المؤمن المصوفي سنة ٥٦٩ هـ / ٧٣ - ١١٧٤ م)، وفيها يقول :

أنس الشبل ابتهاجا بالأسد ورأي شبه أبيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكسم فقضاً حثكم لما ولد

فكان عبد المؤمن (المتوفى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م) كان في ذلك الوقت يبارى بملكه ملك كسرى فارس قديماً، وما عرفناه عن نجاشي الحبشة حديثاً (٣٩). ويؤيد ذلك ما يروى عن إعجاب وزير عبد المؤمن الشهير : أبو جعفر أحمد بن عطية بأحد

(٣٥) روض القرطاس، ص ١٨٥-١٨٥.

(٣٦) نظم الجمان، ص ١٤٩.

(٣٧) نظم الجمان، ص ١٤٩-والرأي أن ذلك ربما يتعلق ببعض كتب شيعة حورت في هذا الموضوع، وتارن ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣ وقم ٤٠٨ (عبد المؤمن) ص ٢٣٩ - حيث اعتبره ابن تومرت "مغلاب الدول" حسبما عرقه في كتاب الجفر الذي يحوى التاريخ المستقبلي للأمة (ص ٢٤٠).

(٣٨) هبذ الواحد المراكش، والمصحب، ص ٢٠٩.

(٣٩) تلك المعلومة الأخيرة عرفناها من صديقنا القديم الأستاذ حسين هيسوي، أمين جامعة الاسكندرية الأسبق، بعد عودته من الحبشة حيث عمل لبعض الوقت مستشاراً ثقافياً، وذلك في ندوة «ديليس» بميدان سعد زغلول والتي كان يرأسها صاحبنا محمد خليل : عميد تجارة الاسكندرية الأسبق - لهما الرحمة.

بساتين عبد المؤمن، والقبة التي كان يجلس فيها الأمير، ووصفه ذلك « بالمنظر الحسن »، ورد عبد المؤمن على وزيره الذائع الصيت بأن صحبه يوم عرض الجيش، حيث وقف متأثراً وهو يقول لوزيره: "هكذا يكون المنظر الحسن لا تمارك وأشجارك". ويشعر الوزير المحنك بأنه لا يطاول أميره في الدراية بأصول الحكم وقواعد بناء الدول، ويخجل مما بدر منه يوم البستان والقبة (٤٠).

والمهم أنه بعد أن تمت بيعة عبد المؤمن الخاصة كخليفة للمهدي ابن تومرت، قام بخطب في المجتمعين، فحمد الله، وصلى على النبي، وترضى عن الصحابة والإمام المهدي وترحم عليه، وأعلمهم بموته ونعاه لهم (٤١)، الأمر الذي يذكر بخطبة ولاية أبي بكر الصديق، خليفة النبي. ومن المهم ملاحظة أن رواية ابن أبي زرع تحدد تاريخ تلك البيعة الخاصة بعبد المؤمن هذه بيوم الخميس ١٤ رمضان سنة ٥٢٤هـ/ ٣١ أغسطس ١١٣١م (٤٢)، وكأنها بيعة عامة على الملأ، الأمر الذي يرجح ما أخذنا به من أنها كانت يوم إعلان نبأ وفاة ابن تومرت - بعد فترة الكتمان التي لا تزيد على ٣ (ثلاثة) أشهر، كما يقضى حسن الظن وسلامة الحس (٤٣).

بيعة العامة:

وعن بيعة العامة فكانت تتمثل في رجال القبائل، وخاصة من الجند الموزقة المسجلة أسماؤهم في الديوان (ديوان الجند)، من: الفرسان والرجالة، حسب تسلسل قبائلهم المتعارف عليه (مسبق ص ١٩٨). وبالنسبة للمتطوعة والمجاهدين في سبيل الله، فكان إعلانهم الطاعة للأمير يستغرق حوالي ٣ (ثلاثة) أيام، إذ كانت

(٤٠) انظر عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٤١) روض القرطاس، ص ١٨٤-١٨٥.

(٤٢) روض القرطاس، ص ١٨٦.

(٤٣) قارن ابن أبي زرع نفس ص ١٨٦- حيث يجعل بيعة العامة بعد ذلك في يوم الخميس ٢١ ربيع الأول من سنة ٥٢٦هـ/ ٩ فبراير سنة ١١٣٢م- بعد وفاة ابن تومرت بسنتين إذ الفارق الزمني بين التاريخين لا يزيد كثيراً عن سنة ونصف سنة الأمر الذي يشكك فعلاً في حقيقة الغيبة أو الكتمان من الناحية الزمنية على الأقل وانظر ص ٢٦٥.

وقودهم تتوالى على العاصمة من سائر أرجاء الدولة، وخاصة بلاد السوس. ولا بأس أن كان توافدهم من أجل العرض (التمييز) بهذه المناسبة.

وفى مناسبات البيعة هذه وغيرها من مناسبات الاحتفالات الرسمية كان الشعراء، يتقدمون المحتفلين، وهم يلقون قصائدهم فى المديح، ويلقون الاستحسان قولاً وإحسان عملاً. وفى أحد تلك الاحتفالات ألقى الشاعر أبو الحسن الأشيرى قصيدته التى ذكر فيها قصة عبد المؤمن والأسد الذى كان يطمئن إلى جواره، والظاهر المعكلم الذى كان يشارك الشعراء فى الدعوة إلى تجديد الولاية لعبد المؤمن، مما سبقت إليه الإشارة (ص ٢٨١)

ويتنام بيعة الخاصة (الموسعة) فى الشهور الأخيرة من سنة ٥٢٤ هـ يكون عبد المؤمن بن على قد اطمأن الى أن خلافته لمحمد بن تومرت قد خلصت له، ولكن هذا لم يكن يعنى أن الطريق قد أصبح ممهداً لكى يمارس سلطاته دون منازع، والحقيقة أن الأمر كان يتطلب جهوداً مستمرة لكى يعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبل موقعة البحيرة ووفاء الإمام، وذلك على مستوى الجماعة، حيث لم تكن البيعة وحدها كافية للقضاء على أطماع المنافسين، وعلى مستوى الدولة الناشئة التى افتقدت قوى الربط بين قبائل مصمودة، عصب جماعة الموحدين.

عبد المؤمن وتهديد بلاد المصامدة بالسوس الأقصى

واقضاء على طموحات المنافسين

الواضح من رواية البيدق التى ينقصها التحديد التاريخي، أى وضع الأحداث فى مواضعها الزمنية الصحيحة، الأمر الذى يضمن التسلسل التاريخي بمعنى تفاعل الأحداث فى شكل مقدمات ونتائج لا يعتورها التقديم والتأخير، أن أول المهام التى وقعت على كاهل الخليفة عبد المؤمن يتلخص فى تهديد بلاد المصامدة بالسوس، مهد حركة التوحيد، وإعادة الوحدة إلى القبائل المصمودية التى كانت شرختها هزيمة

البحيرة، ومن ثم غيبة الإمام المعصوم : مهدي الموحدين.

فرواية البيهقي التي بين أيدينا تسجل - قبل مبعثة عبد المؤمن، أي في فترة الكتمان - ٣ (ثلاث) غزوات قام بها ٣ (ثلاثة) قواد من أيت (أهل) العشرة، وهي:

١- غزاة همر أصناج بموضع بهزان الاينات (سنة ٢٢٥هـ/١١٣١م)، وفيها قتل قائد المرابطين : ابراهيم بن تاغياشت (٤٤).

٢- غزاة عبد الرحمن بن زجور (زقو) بتاسغيموت (أوائل سنة ٥٢٦ هـ/ أواخر ١١٣١م)، والتي شارك فيها البيهقي، حيث يقول : وكسرنا ميمون بن ياسين رئيس القرية، وإذا كانت الرواية تضيف إلى ذلك أن الموحدين قلعوا باب المدينة وحملوه معهم إلى تينمل حيث ركب في السور موضع باب الفخارين (٤٥)، فإن الفضل يرجع إلى رواية ابن القطان في إضافة معلومات طريفة عن الموضع الذي يعتبر حصنا حصينا فوق الجبل، وله باب من حديد، وأنه كان في حراسة جماعة من قبيلة هزرجة. ويذكر للموحدين هنا استخدام الحيلة في الاتفاق مع أفراد الحرس الليلي الذين عرفوهم بكيفية فتح الباب، بل ومكنوهم من إحراقه، الأمر الذي يعني أن الباب كان من الخشب المصنوع بالحديد. ولجج الموحدون في مفاجأة قائد الحصن أبي بكر بن زروال وقتله مع طائفة من الرجاله المشتمين. وهاد رجال الحملة إلى تينمل وهم يحملون صفائح حديد باب تاسغيموت، والتي ركب في باب تينمل - شرفها الله - الذي عرف بعد ذلك بباب الفخارين (٤٦).

(٤٤) البيهقي، ص ٦٦-٦٧، وقارن: ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٠٦- حيث مقتل ابن تاغياشت في أخبار الموحدين سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م مع الإشارة إلى الاختلاف في سيقان قتله وقارن غزوة ابراهيم بن تياغياشت الأولى في حرب المطاولة على أيام المهدي سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م (ص ٢٢٢)

(٤٥) البيهقي، ص ٦٦

(٤٦) ابن القطان، نظم الجمان، ص ١٩٤- حيث وإلى الحصن (ابن وصال) والتعديل إلى زروال من البيهقي حيث الاسم (وزروال) - استناداً إلى اسم رئيس الجزائر الحالي (السابق).

٣- غزوة عبد المؤمن الثانية (بعد تاسفيوت)، وهي لقبائل جزولة المرابطية في مواطنها الجنوبية (قرب نول لطة) حيث كان الوصول إلى عاصمتها الكست قبل العودة إلى تينمل، حيث كان استدعاء القبائل لعقد المجلس (أكرو) الذي حضرته النساء مع الرجال وإن تم الفصل بينهم - وذلك لأخذ البيعة - (٤٧).

مناجزة الثوار بعد الكتمان وإعلان الخلافة :

إذا كان عبد المؤمن يحمل عند البيدق، خلال غزواته الاستطلاعية السابقة، لقب أمير المؤمنين، فهذا ليس ذريعة للقول أنه كان قد بوع بخلافة ابن تومرت، بعد استدعاء المجلس للبيعة، فهذا عند البيدق وغيره من كتاب الموحدين : الخلافة وأمير المؤمنين في كل وقت ومكان، قبل البيعة وبعدها، على حد سواء. وبهذه الصفة خرج إلى تازا جورت حيث كسر بها بدر بن ولجوط، رئيس المنطقة، وعاد من هناك إلى تينمل بالمغانم والأسلاب.

ثورة عبد الله بن ملوية :

إذا اعتبرت الحملات السابقة حملات تأديبية ضد الخارجين على جماعة الموحدين بتينمل بعد البهيرة وإعلان الخلافة، فإن الثورة التي قام بها عبد الله بن ملوية تعتبر انشقاقاً خطيراً في الدعوة الموحدية. في أول عهد عبد المؤمن بالخلافة. فعبد

(٤٧) البيدق، ص ٦٩-٧٠- والذي يسترعي الانتباه هنا هو أن رواية حمزو جزولة في ذلك الوقت المبكر قبل البيعة يبدأ بالنص على أنها أول غزوة تقابل فيها الخلافة مع تاشفين والتشوير (الذي ربما يكون البرهتير) بمعنى أن ذلك الذي حدث غير غزوة جزولة المذكورة هنا، وأنه يوضع مع أحداث المظردات الأخيرة مع تاشفين. وفيما يتعلق بلقب التشوير فليس من ألقاب البرهتير، والمعروف أنه كان لقباً للقائد محمد (المعروف بالتشوير) الذي كان والياً للتمسان وقت حصارها سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م- انظر هوشي ميراند (Huici Miranda)، التاريخ السياسي لامبراطورية الموحدين (بالاسبانية) ج ١ ص ١١٨- حيث الإشارة إلى عبر ابن خلدون، وطرطاس ابن أبي نزع.

الله بن ملوية، كما رأيناه سابقا (ص ٢٦١)، كان مهندس عظيمة رده . وتصحيح هزيمة البحيرة إلى جانب عبد المؤمن : أسل رأب الصدع وجبر الكسر في تلك الفترة الحرجة.

ولمى ذلك تقول الراوية أنه بعد أن خرج عبد المؤمن من تينمل إلى تازاجورت أنتهز ابن ملوية الفرصة ليعلم العصيان، "ويرتد" عن دعوة الموحدين، ويهبط من علياء الموحدين في قنن الجبال إلى وطاء المجسمين أسفل السفح بمراكش، معلنا الدخول في خدمة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين. وكانت فرصة انتهزها أمير المرابطيين ليحقق نصراً قد يكون حاسماً على الموحدين، فأرسل ابن ملوية في حملة إلى موطن قبيلة جنفيسة في موضع تامدغور، من حيث يأخذ المعونة ويصعد من هناك إلى تينمل فيهدمها (على رؤوس من فيها). وبطبيعة الحال لم تكن المهمة سهلة، فقد أخفق ابن ملوية في استمالة سيد جنفيسة : عبد الله بن وسيدرن الذي أخذ عليه الحنث بيمين الطاعة للمهدي بن تومرت، بل وانتهى الأمر بقتل ابن ملوية على يدي الشيخ ابي سعيد يخلف بن الحسن اتينن وغللامه. وحملت الجثة إلى تينمل حيث صلبت، الأمر الذي أدى إلى رضا عبد المؤمن عن جنفيسة (٤٨)، اثر عودته من تازاجورت.

تازاجورت :

أما عن حملة تازاجورت التي قام بها عبد المؤمن في سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م، حسب تاريخ ابن القطان ، فهي تعنى المسير إلى قاعدة بلاد درعة في سفوح جبال أطلس الصحراوية الجنوبية الغربية. ويتضح من رواية نظم الجمان أن حرب درعة كانت ثأرية، عرف فيها القتل وسفك دماء أهل المنطقة الذين كانوا مترددين ما بين الدخول في ظل الطاعة والخروج إلى حرّ المعصية. وهكذا ضربت عنق والي الحصن : يحيى بن مريم (الزرجاني)، كما قتل في المجزرة ٢٠,٠٠٠ (عشرين ألفاً) من

شيعة التجسيم، حسبما تبالغ الرواية، كما نرى. هذا، كما أسرت صيمونة بنت الوزير؛ بينتان (إبتان) بن عمر (٤٩).

حجلاوة وهزرجة وهسكورة وحنوب قادلا،

هذا، كما فتحت بنفس سنة ٥٢٦هـ / ١١٣٢م منطقة حجلاوة بمعرفة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي، كما فتح حصن هزرجة على يدي عبد المؤمن الذي دخله عنوة، وأحرقه، وقتل الناجين من أهله. وكان هذا الانتقام من هزرجة نارا لما كانوا أقدموا عليه من قتل: أبي محمد عطية صاحب المهدي وعجوزته (زوجه) يوم العيد، فكان فداؤه قتل ٣٠٠ (ثلاثمائة) رجل منهم، قبل العودة إلى تينمل. وإذا كانت أعمال العنف وسفك الدماء هذه قد كسرت شوكة أعداء الموحدين الذين خضع منهم من تلك السنة (٥٢٦هـ / ١١٣٢م) قبائل هزرجة وهسكورة، فإن ذلك الخضوع كان مؤقتاً، إذا لم يلبثوا أن يرتدوا مرة أخرى (٥٠).

وهكذا لم يكن وقوف رئيس جنديسة إلى جانب عبد المؤمن يعني خضوع بقية أفخاذ القبيلة وحلفائها لسلطان تينمل، إذ كان على "الخليفة" بعد أن قسم الغنائم التي أتى بها من تازاجورت، أن يخرج بمسحبة حلفائه الجدد من صنهاجة إلى جبل الذين وحدوا في التو والحين، بعد أن ولى عليهم: علي بن ناصر (٥١)، وسار بجوس بهم خلال الديار.

وكان هدف عبد المؤمن التالي هو مواصلة التقدم نحو الشمال الشرقي إلى منطقة جنوب تدلا، فبعد الهبوط إلى سهوح موضع تاجورت كان الاقبال منها بالغنائم.

(٤٩) نظم الجيمان، ص ١٩٥ - حيث النص على الاحتفاظ بصمونة في الجبل حتى أفنك بها من

كان في تلمسان من رجال الموحدين (سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢ م).

(٥٠) نظم الجيمان، ص ١٩٦.

(٥١) البليدق، ص ٧١، وقارن ابن القطن، ص ٢٦٠، الذي يجعل توحيد صهاجة من

٥٢٦هـ / ١١٣٥م.

والوغل في شرق تملو (أمالالو) نحو قرية داي التي هرب صاحبها على بن ساقطرا، وترك ما فيها غنيمة للموحدين، وعندما طالب رؤساء صنهاجة برد أسراهم ولأنهم كلهم موحدون، أجابهم عبد المؤمن، فردّ الأسرى والسبايات حاشا واحدة أعجبتهم فتزوجها، وهي التي أولدها أبنة السيد / أبي سعيد (٥٢) .

وفي تازيجات كان اللقاء بين يحيى بن ساقطرا أخى على صاحب داي، وكان الظفر للموحدين الذين أعطوا ما غنموا من خيل يحيى إلى حلفائهم الصنهاجيين (٥٣) .

وفي موضع وأما كان اللقاء بين يحيى بن ساقطرا مرة ثانية وكان معتصماً بالقلعة. وكانت الحرب سجالاً، وتابع الموحدون المسير نحو آزو (جنوب فاس) حيث هرب على بن ساقطرا، فدخلوها بدون قتال. وهناك بنى عبد المؤمن بإحدى السيدات وهي التي أنجبت له أبنة عبد الله - وهو زواج تحالف سياسى مع سادة المنطقة، من بنى ساقطرا، كما نرى (٥٤) .

بداية المطاولة : حرب تقدير المصير المباشرة :

وابتداء من حوليات سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م عند ابن القطان بتطور شكل الصراع، وهو ما نجد بعض أصوله أيضا عند البيهقي (٥٥)، بين الموحدين والمرابطين في منطقة السوس من نزاع للسيطرة على الأرض وإخضاع لمن يسكنها من القبائل، إلى صراع مباشر بين قوات كل من الطرفين، فكانها البداية الحقيقية لحرب المطاولة : حرب تقدير المصير .

(٥٢) البيهقي، ص ٧٥-٧٦ .

(٥٣) نفس المصدر .

(٥٤) انظر البيهقي، ص ٧٦ .

(٥٥) انظر ابن القطان، ص ٢٠٩- حيث الاعلان بشكل غير متوقع بموت الامام المهدي، ومن ثم بالبيعة لسيدنا ومولانا الخليفة الامام أمير المؤمنين... فدفع العطا - وسمع الضياء... وتبلغ الحق... وعلت السنة. وأنظر ٢٠٩- حيث الاشارة الى غم في النص، والنقل في هذا الموضع عن البيهقي .

فصنذ ذلك الوقت صارت حصون الفلاكي للموحدين الذين كانت « تنمو أحوالهم في كل يوم، وتزيد عساكرهم ورجالهم، كما زاد فيهم صنهاجة الجبل، وهسكورة الجبل، ودخلوا تارودانت، وايجلى، من السوس الأقصى » (٥٦).

وكان على الخليفة عبد المؤمن أن يقوم بحملة تأديبية أخرى في نفس تلك السنة (٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م) ضد بني ييغز « إيفز » من قبائل هنتانة، بسبب غدرهم بالداعية الموحدي أبي محمد عبد العزيز الغيفاني، أحد أصحاب المهدي ابن تومرت، وقتله . وكان اللقاء رائعا في موضع اشغشد من الهلالة الهنتانية وذلك ان بني ييغز لجأوا إلى تكتيك طالما عرفه البدو من الجمالة منذ قديم الزمان علي أيام الرومان والوندال، كما كان يستخدمه ملوك صنهاجة الصحراء من الماشمين (ج ٣ ص ٣٠٣، ١١٨). فعندما حطت محلة الموحدين « أخذ بنو ييغز حزم الخطب ووطوها على ظهور الجمال وأضرموا فيها النار ليلا، وأطلقوها في المحلة، فنفر الناس، وصارت بنو ييغز إثر جمالهم حتى وصلوا إلى خباء سيدنا ومولانا الخليفة - رضى - وجللوا بالرماح ». والظاهر أن الموحدين كانوا على دراية بمثل هذه الأساليب الحربية التي تعتمد على الخداع والغدر معا فقابلوها بمثلها . فقد كان عبد المؤمن « أخفى موضع مبيته احتياطا، فسلمه الله تعالى ». وكانت ملحمة عظيمة إستغرقت أكثر من شهر، رجع بعدها الخليفة إلى تينملل (٥٧).

(٥٦) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢١٠-٢١٢- حيث تورد رواية ابن الراعي قص رسالة عبد المؤمن التي يذكر فيها كيفية «فتح السوس من أوله إلى آخره، ومن طوقه إلى أسفله، ومن حواليه، من : هنكيسة وجزولة، ومن ثم اللجوة إلى تيوتوين"، إلى جانب "اقتحام العليج الاعرج (البربر) بنفسه في طريق إيفيران يطوف في حال غفلة من الموحدين.... فقاتلهم بمن معه حاربين إلى تيوتوين"، وهناك "تسامع يد يتيمة أهل السوس، فكان هر معبودهم ومتبهمهم فاتكلوا عليه ونسوا بهم واعتبروا بقدمه فرجعوا إلى أوطانهم ... وكيف نزل الموحدين في وسط تارودانت ... وحرقوها، وأطلقوا النار في القصب الكثيف (قصب السكر) وارتفع الدخان في الهواء.... وبذلك انكسر قلب البربر مع عجز العليج، واستمرت الهزيمة عليهم، والحمد لله الذي انتقم منهم" .

(٥٧) ابن القطان، ص ٢١٣-٢١٤ .

هذا، وكان بنو ييغز هدف غزوة ثالثة قام بها عبد المؤمن في سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م، لولا أن تدخل إخوانهم المجاورون فأنذروهم ونصحوهم «فانقادوا وأذعنوا ووجدوا»، وأحسنوا استقباله عندما قدم إليهم من تيممل - الأمر الذي يعتبر علامة منيرة في صلاح وتوحيد بلاد السوس، بتوحيد ذلك الفرع الهام من قبائل هنتاتة.

تعاظم حرب تقصير المصير:

واعتباراً من سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م عند ابن القطان، وسنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧ م التالية حسب رواية اليسع (٥٨)، يتطور شكل الصراع من نزاع للسيطرة على الأرض في بلاد السوس واخضاع القبائل، إلى نوع من الصراع المباشر بين قوات الطرفين المتحاربين أصلاً - أي المرابطين والموحدين - فكانها بداية النهاية، وإن استمرت لبعض الوقت.

لقد هبط عبد المؤمن من قنّة الجبل إلى موضع مسكروطن، وخرج له سير بن علي بن يوسف، ولي العهد المرابطي، وانتهى اللقاء بانتصار الموحدين الذين خرجوا من الوقعة بشئ عظيم من أموال المرابطين. ومنذئذ «صار عبد المؤمن متعلقاً بالجهال، بطاول في حروبه، فإذا رأى ضالته وثب عليها وثوب الليث» (٥٩).

فكانت بداية الاستيلاء على أراضي المرابطين خارج السوس، قطعة وراء أخرى، مع الاتجاه نحو الشرق شيئاً فشيئاً إلى تدرومة وتاجرة مسقط رأس عبد المؤمن في تلمسان، بلد اليدء والمنشأ التي كانت تناديه - كما سنرى.

تدادلا:

وحسب ابن صاحب الصلاة، الذي يعتبر أن فترة الكتمان تنتهي في سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م والتي تبدأ ببدايتها خلافة عبد المؤمن، تكون غزوة تادلا (شمال شرق

(٥٨) انظر ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢٥ - حيث سنة ٥٣٠ هـ / الحولية.

(٥٩) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢٥.

مراكش) هي أول غزوات عبد المؤمن ، وهو خليفة للمهدي ، وأمير للمؤمنين من الموحدين (٦٠) . وبذلك تكون الغزوة الفارقة حقيقة بين حرب النضال من أجل تحرير بلاد السوس، أرض الوطن المصمودى . وبين النضال من أجل تحرير الوطن الأكبر من أيدي صنهاجة الصحراء ليكون قاعدة لتأسيس إمبراطورية، هي عبد المؤمن الموحدية .

أما عن تفصيلات تلك الغزوة، فتبدأ بتمييز الجيوش وعرضها في العاصمة تينمل، ومن ثم بتقسيم الأرزاق التي تعرف «بالبركة» على المجاهدين من أصناف العساكر من مرتزقة ومتطوعة . وبعد ذلك يعقد مجلس الحرب مع شيوخ الموحدين، حيث يكون التشاور في أفضل الأماكن التي يحسن أن تتمدد فيها الدعوة خارج بلاد السوس - ويتم الاتفاق على أن تكون منطقة تادلا هي أول الأهداف.

ووصل الموحدون مع إشراقة الفجر فجأة، فقتلوا وسبوا وأمتلأت أيديهم بالمغانم والأسلاب، كما فرّ العسكر المرابطى تاركاً قائده ليسقط بأيدي الموحدين فتكون نهايته القتل بأيديهم (٦١).

جبل غيباته:

وفي سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م التالية كانت حملة عبد المؤمن ضد زناتة في جبل غيباته . فقد خرج من تينمل متوجهاً إلى جبل غيباته حيث نزل بعساكره من

(٦٠) نظم الجمان، ص ٢٢٦ .

(٦١) ابن القفطان، نظم الجمان، ص ٢٢٦-٢٢٧ وما يؤسف له أننا لا نعرف اسم القائد المرابطى الذى سقط في بعض خروم الأصل المخطوط. وقارن هريش، التاريخ السياسى لدولة الموحدين (بالاسبانية)، ج ١ ص ١١٤ - حيث اقترح ان المقصود بتدلا ليس قصة تادلا في شمال شرق مراكش. بل على العكس من ذلك يقصد بها المنطقة في جنوب شرق مراكش، وهي بالتحديد منطقة : تاسفيموت وهرجة ومسكورة على مسافة ١٥ (خمس عشرة) كم . وهو في ذلك يستند الى رواية البيان لابن عذارى (الموحدون) التي تجعل تادلا عاصمة لمسكورة شمال الأطلس، حسب حولية سنة ٦٣١ هـ / اوائل سنة ١٢٣٤ م .

الموحدين. وكان على أمير المسلمين علي بن يوسف أن يعجل بإرسال حملة مرابطية بقيادة ابنه وولي عهده الأمير سير الذي نزل بموضع كرائدة (جراندة) بمقرية من المقرمة عند وادي أبي حلوا. وهناك لحقت بولده نجدة من جنود عسكر الغرب بقيادة الأمير عبد الله بن يحيى بن أبي بكر بن تيفلويت الذي نزل قريبا من سير علي بعد أميال. وإذا كان نص ابن القطان يشير إلى أن حشود زناتة من الفرسان الذين بلغوا أكثر من ٥٠٠٠ (خمسة آلاف) خيال وقفوا إلى جانب المرابطين تحت قيادة الأمير يحيى بن فانو (٦٢)، فإنه يتبع ذلك بما يفيد أن زناتة لم تكن مجمعة على الوقوف إلى جانب المرابطين. فعند الاحتفال بحشد فرسان زناتة كان الزعيم زيري بن ماخوخ يوحد، ويعلن انضمامه إلى جانب عهد المؤمن، ومن الواضح أن زيري بن ماخوخ كان منشقا وحده على جماعة شيوخ زناتة، وذلك أنه طلب من عهد المؤمن أن يده بعسكر من لذه «تظهر به خدمته من عساكر الغرب». وقدم الخليفة للزعيم الزناتى الموحد «ابن ماخوخ» حصنة من عساكر الموحدين عليها أحد أشياخهم، تمكن بها من هزيمة خصومه من بنى جلدته الزناتية، فقتل منهم وسبى وسلب واكتسحهم حتى أعلى الجبل.

وأثناء ذلك توفي يحيى بن فانو - قائد عساكر تلمسان - مصابا بمرض ألم به، فأسرع سير بن علي بإرسال ولده محمد بن يحيى بن فانو ليهبط محله ويتدارك جموع زناتة قبل أن يتفرقوا، فكان الأمر كذلك. فقد نجح محمد (ابن فانو) في لم شمل عسكر أبيه ونزل بهم على مقرية من وجدة (٦٣).

خاتمة:

وكانت الإقامة بهجبل غياتة مدة شهرين والحرب سجالا على طريقة المطاولة بالكراديس أى الفرق العسكرية. وأثناء الصراع أتت أخبار الجواسيس إلى سير بن

(٦٢) نظم الجمان، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٦٣) نظم الجمان، ص ٢٣٠-٢٣١ حيث النص على أن طلائع عسكر ابن فانو الحفيد كانت على معشر قلال.

على تعرفه بأن عبد المؤمن يضمّر المسير لغزو غمارة ، فقرر أن يشغله عن ذلك باستمرار الصراع في جبل غبابة ، بشكل متصل وبأسلوب متواتر ، عن طريق رصد ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) فارس يقسمون أنفسهم إلى جماعتين ، كل واحدة من ٢٠٠٠ (ألفي) فارس، تقاتل الموحدين بشكل متواصل لمدة أسبوع لتحل محلها الجماعة الأخرى، وهكذا بالتناوب . ومن جانبه عمل عبد المؤمن على تشييط همم أبناء جلدته من الزناتية، فجعل زيري بن مازوخ يرأسل إخوانه الزناتية على أن يدبروا الهزيمة يوم اللقاء . ونمّض التدبير عن صدير زيري بن مازوخ في حصّة مختارة من الرجال من جبل غبابة إلى محلة محمد بن يحيى بن قانور، وأن يضرّوا فيهم . ونجحت الخطة بانتصار الموحدين، وهزيمة عسكر محمد بن يحيى قائد المرابطين. (٦٤)

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن تردى الأوضاع العسكرية في المغرب بالنسبة للحكومة مراکش، دفع أمير المسلمين على بن يوسف إلى أن يستدعى ابنه تاشفين من الأندلس حيث كان قد أظهر كثافة عالية في حروب المسلمين ضد الممالك الإسبانية المسيحية، وكذلك ضد القواد الأندلسيين من المسلمين المتغلبين (الانفصاليين).

وبالعودة إلى مراکش في ربيع سنة ٥٣٣ هـ / نوفمبر ١١٣٨ م، صار تاشفين وليا للعهد، محل أخيه سير الذي فشل في حرب المطاولة، ووقع على عاتقه عبء مواصلة النضال ضد الموحدين أصحاب النعم الصاعد في ذلك الحين (٦٥).

حاجة

وفي جمادى الأولى سنة ٥٣٣ هـ / يناير ١١٣٩ م كان اللقاء الأول بين الخليفة عبد المؤمن بن علي وبين الأمير تاشفين (٦٦) ولي العهد والقائد العام للقوات (٦٤) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٣٢ .

(٦٥) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٣٢، وعن ولاية تاشفين للعهد في ظروف عامضة ومحاولة تعيين اسمعق أخيه الصغير في ظروف غير واضحة، قبل إقرار ولاية العهد لتاشفين، انظر هوش، الموحدون (بالإسبانية) ج ١ ص ١١٩ .

(٦٦) ابن عذاري، الموحدون، هوش، تطران، ١٩٦٣، ص ١١ .

المرابطة، وتحت إمرته القائد الاسباني الأصل المعروف باسم اليرتير، وذلك بيلد بنى ملول، من منانة الفحص، حيث هبط الموحدون للقاء خصومهم في تاجلوط من بلاد حاحة. وكان الصراع من أجل السيطرة على بنى ملول متواترا ما بين المرابطين والموحدين، حيث وُجدوا وارتدوا ٣ (ثلاث) مرات حتى ذلك الحين. وفي هذه المرة أقام عبد المؤمن مدة ٣٣ (ثلاثة وثلاثين) يوما «يضرب عليهم ويقتلهم قتلا ذريعا في وعمرهم العظيم» (٦٧).

وبعد جمع المغانم والأسلاب من خيرات البلاد، «من: الحلى والشباب والعسل والزبيب والطعام (القمح) والحناء، وغير ذلك مما في تلك الحومات»، سار عبد المؤمن بقواته المظفرة إلى مواطن قبيلتي بنى وجدان وبنى سوار من منانة الجبل، حلفاء الموحدين الذين كان قد انتقم منهم أبو بكر بن علي بن تاشفين - بسبب توحيدهم - وذلك في بلدتهم كاستلف، من بلاد منانة (٦٨).

ومن بنى سوار (من منانة الجبل) سار عبد المؤمن إلى أجر فرجان، وتبعه تاشفين الذي حاول أن يقطع عليه الطريق إلى جبل مزورج حيث حلفاؤه الذين لحقوا به رغم ذلك، وهم يمدونه بدروع الدرق والرماح. وتم اللقاء بين الطرفين في موضع أجر فرجان، وكانت الهزيمة على تاشفين الذي فر إلى جهة الميزتالوت، تاركا محلاته وأخبيته وفيها السلاح وأحمال الثياب والبغال والعيبد والخيوان، بعد أن فشل مدد جزولة في الوصول إليه من مراكش في الوقت المناسب. وكان قام الهزيمة بعد فشل المدد في استنقاذ الغنيمة بفضل كمائن الموحدين التي خرجت عليهم، إلى جانب

(٦٧) انظر البيهقي، ص ٧١-٧٣ - حيث غارة تاجلوط متاع حاحة حيث النص على أنه رغم القتال الشديد، فإن الموحدين لم يفتسروا الا بتدأ احمر اللون، وهي غنيمة رمزية، رغم القول ان تاشفين «رجع الى مراكش خاسرا، والابرتهر مجروحا خاسرا»، مع الاشارة (ص ٧٣) الى انه كان هناك لقاء ثاب بين الخليفة واليرتير بموضع آسميص (متاع جدمبوة)، وقاون ابن القطان. نظم الجمان، ص ٢٤١.

(٦٨) انظر نظم الجمان، ص ٢٤١.

ماقابلهم في الطريق من الأوهار والخنادق (٦٩) وبذلك ظل جيل جنتيسة محافظاً على استقلالة، معتزاً بتوحيده (٧٠).

وتعرضت جزولة إلى كمائن الموحدين بقيادة الشيخ ابي حفص عمر أصناج، والتي قتلتهم واستولت على ٣٠٠ (ثلاثة آلاف) فارس منهم، قسمت على الموحدين، فلم يكن أمامهم بعدئذ إلا الإنابة والدخول نهائياً في التوحيد (٧١).

المطاردة

ومنذ سنة ٥٣٥ هـ / ٤١ - ١١٤٠م أخذت الحرب ضد المرابطين شكل مطاردات مثيرة بين عبد المؤمن والمرابطين بقيادة البربر، فلقد نجح الأخير في منع الموحدين من الاستيلاء على موضع تيتلين الذي كان على شفى الوقوع بين يدي عبد المؤمن بل وطارد الموحدين إلى موقع أمسكروطان، ولم يكف عن متابعتهم إلا بعد أن حصن عبد المؤمن، الموقع، وبناء بالطين والحجر والشطب. وعندئذ كانت فرصة انتهازها الموحدون ليقوموا بجولة خلال السوس في الوطاء، حيث أخضعوا القبائل في أبرمناد ميمون، وتاسلوت، وتارودانت ثم تصمونين وانتهت تلك الجولة بعودة الفلاكي إلى التوحيد (وكان قد ارتد سنة ٥٢٦ هـ / ٣٢ - ١١٣١م). وعادت الحملة من جولة السوس هذه إلى تينمل بالغانم (*).

(٦٩) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٤١-٢٤٢- حيث تنظم الكمائن بضرب الطيول، ونشل جزولة في الاستحواذ على الغنيمة بل وقتلهم عن آخرهم، وأخذ دوابهم وأسلحتهم.

(٧٠) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٤٢- حيث الإشارة إلى محاولة عبد المؤمن سدّ مضائق الجبل على تاشفين الذي قرأ هائلاً نحو مراكش.

(٧١) نظم الجمان، ص ٢٤٢-٢٤٣، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هريس)، ص ١١- حيث الصراع مع تاشفين وجزولة ثم توحيد جزولة مع الإشارة إلى أن عاكر جزولة كانوا جملة وافرة من رجال تاشفين، وأن الحرب كانت في مضائق ورجال لا يكاد الفارس يتصرف فيها بقتال، وأن الموحدين نجحوا في اعتراض جزولة في طريق العودة بين الأوعار، فهزمهم واستأنفوا خيلهم ونسأهم إلى تينمل، الأمر الذي دعا أشباخ جزولة إلى الدخول في طاعة الموحدين، فكتب لهم (عبد المؤمن) بذلك "ظهيراً حسناً" حسب تعبير عصر ابن عذارى.

* البديق، ص ٧٣ - ٧٤.

والذى يفهم من الرواية أن عبد المؤمن كان حريصا فى تلك الجولة على أخذ النساء والتحفظ عليهن فى موضع يتامون ليكن موضوعا للمساومة مثل كبار الرجال فيما بعد، الأمر الذى دفع اليريرتر إلى مهاجمة غيغاية، من بطون هنتاتة، حيث حمل النساء وفى جملةهن حواء زوجة يعزى بن مخلوف (٧٢). الأمر الذى أعطي الصراع شكل الحرب الكلية، فكان الأمر كان قد بلغ حد الذروة - حسبما نرى .

وسرعان ما كانت السبايا من النساء الحرات موضوعا للمفاوضات بين عبد المؤمن والأمير على بن يوسف والتي انتهت بنوع من تبادل السبايا الأسيرات، وإن وضع من الرواية أن بطلتى تلك العملية هما : حواء زوجة بكر بن مخلوف وتاما كونت ابنة الوزير المرابطى بيتان المرابطى التى تجعلها رواية البيدق السبب المباشر فى إطلاق سبايا الموحدين من المرابطيات لما كان يكتنه عبد المؤمن لوالدها بيتان من الإعراف بالجميل لموقفه السمع من المهدي براكش (٧٣).

ومن نوايع غزوة حاحة سنة ٥٣٥ هـ / ٤١ - ١١٤٠ م استئناف الطرمين المطاردة فيما بينهما . وقد خرج عبد المؤمن من تينمل بعد أن قدم عليها نائبا عنه صهره : أبو عمران موسى بن سليمان القاضى (٧٤)، وسار شمالا بشرق إلى موضع أشبار، فما كان من تاشفين إلا أن خرج إليه . وظل الطرفان يتبادلان المواقع ما بين أشبار، وتاساوت، ودمنات، وتللى إلى أن نزل تاشفين موضع كدية، فخرج إليه الشيخ أبو

(٧٢) البيدق، ص ٧٤ وهـ٧، وقارن ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، الهامش السابق (اعلاه).
(٧٣) البيدق، ص ٧٤- حيث رواية قصصية تسبب الى تاماكونت ابنة بيتان التدخل لدى عبد المؤمن وتذكيره بموقف والدها الطبيب من ابن ثومرت والذى كان السبب فى إطلاقه بدلا من سجنه أو قتله (ما سبق، ص ١٨٤). وتستمر الرسالة فى القول بأن علي بن يوسف عندما وصله نبأ إطلاق سراح النساء المرابطيات أطلق من جانبها العفائبات وعلى رأسهن زوجة يعزى بن مخلوف، وهو الأمر الذى تعتبره رواية البيدق رواة على مكرمة أمير المؤمنين عبد المؤمن الذى قال بالمناسبة : "اعمالنا ردت اليها".

(٧٤) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١٢ .

حفص عمر آتتعى بالرجاللة دون خبل . وتم اللقاء فى تلك المنطقة الوعة التى لاىسطلع الخبال أن ىناور بها فى بسىط تىزى . وكانت الحرب سجالاً إلى أن انفضّ الجمعان - كما ترى (٧٥) .

هازار : والتشكبل اللىلىل للعلسكر :

بالاسلىلا على أزرو عىل منابى كل من وادى أم الرىبع (مورىبع) ووادى بورجرى (أبو الرقراق) شمال شرق تادلا تكون برابات المغرب من أقصاء إلى أوسطه قد انفتحت أمام قواى المولىلن المظفرة . وهكذا كان على الخلىفة عبد المؤمن أن يعىل رسم خفطه الحربىة حسبما تقضى مطلبلات الموقف فكانت إعاءة تقسىم العساكر المولىلدة إلى ٣ (ثلاثة) جىوش . هى : ١- الجىش الرىسى الأول بقىادة عبد المؤمن . ٢- الجىش الثانى بقىادة عبد الرحمن بن زجر . وقواىة الأساسىة من بنى كانون . ٣- الجىش الثالث بقىادة بىطاف . وقواىة من كل من بنى (آبى) سدرات . وبنى آمرسال . وأهل (بنى) علوىة . والظاهر أن خطة تقسىم الجىوش المولىلدة هله لم تأت بما كان برجى منها فعاءت إلى التجمىع كلها تحت قىادة عبد المؤمن . الذى راجع التشكبل النهائى كله . وأخرج الأشىاخ من كبار السن - كما نرى - وقور ترحىلهم إلى تىنمل بحجة القىام بىزارة ضرىح الإمام . وظهر سخط عىل المؤمن على أشىاخ الجىش والعسكر من أنه أمرهم بالمسبر وهدم إلى العاصمة . الأمر الذى أزعجهم فرجوه ألا ىتركهم لقمة سائغة « للمجسمن » . فبعث معهم الأمناء (الذىن ىحرسونهم) حى وصلوا وزاروا" (٧٦) . ولا بأس . أن كان عبد المؤمن قد اسىقر . فى ذلك الوقت بالجبلىال البالغة الارتفاع المجاورة لجهة فاس والمعروفة بكراندة (جراندة) . بىنما كان تاشفىن بالبساىط لا ىجد من البرابر من

(٧٥) البىلق . ص ٧٥- حىث النص : "فهزما الفنة الباغىة . فأهد الله الذىن آمنوا على هدمهم

فأصبروا طاهرىن" (سورة الصف- الآية ١٤ .

(٧٦) البىلق . ص ٧٦ .

يدخله ولا من يستعين به (٧٧).

ويفضل ذلك التنظيم الذي شمل كلا من التكتيك العسكرى والاستراتيجية فيما يشبه التمييز، بالنسبة للقيادات على الأقل، وخذ أهل فااز ونزلوا من القلعة (قلعة مهدى) بينما كان تاشفين وقائده اليرتير (الأبرتير) بفاس مترصين . وعندما خرج عسكر فاس ومكناسة في محاولة لتقويم الأوضاع فى القلعة، وقع الخلاف بينهم وخرجوا هاربين، وأخذ عسكر فاس طريق الجبل فتجا مع قائده يحيى بن محمد بينما لحق الموحدون بجيش مكناسة، وهو في طريق العودة إلى بلده بقيادة ابن ويجوط، وهزموه وأخذوا منه «غنيمة ما رأى الراؤن مثلها» (٧٨).

وهكذا انفتحت أبواب المغرب الأقصى أمام عبد المؤمن الذى لم يجد مقاومة تذكر فى مسيرته إلى تيزوفت (متاع بيلورن) وتاسفرت (٧٩) إلى وادى زيز مروض يحيى بن محمد . وهناك خرج إلى الموحدين من سجلماسة أبو بكر بن صارة. وبعد اللقاء معه فى مروض واطوب تم الاتفاق بين الطرفين على التحالف وحسن الجوار. وعاد الموحدون والسجلماسيون إلى أوطانهم مسالمين (٨٠).

(٧٧) ابن عذارى، الموحدون (هوى) ص ١٢ .

(٧٨) البندق، ص ٧٧ .

(٧٩) البندق، ص ٧٧-التي هرب رئيسها ميمون بن صاري، وخذ بنو أبى غزوان، كما وشدت

لبيلة سلم بن حمامة، وآيت (بنو) على وسكور ومنكور .

(٨٠) البندق، ص ٧٧ .

غياطة هي أطلس الوسطى :

بوصول الموحدين إلى وادي زيز من بلاد درعة يكون عبد المؤمن قد أخضع أو تحالف مع قبائل المناطق المحيطة بالسوس الأقصى إلى حاحة غربا، ووادي درعة جنوبا، وتافللت (سجلماسة) شرقا، فلم يبق أمامه إلا المغرب الحقيقي في الشمال حيث كان التمدد الموحدى قد وصل إلى ضواحي فاس. وهكذا كان الهبوط من جبال تنسل نحو المغرب والتزول بنوليس والمسير نحو تاجررت (متاع بنى وابوط) . وهناك كان على عبد الرحمن بن زجر (زقو) أن يسير في المحرم من سنة ٥٣٦ هـ / أغسطس سنة ١١٤١ لهاجم صفروى : ضاحية فاس الجنوبية، يوم الاحتفال بموسم عاشوراء، ولكنى يلحق بالقوات الرئيسية بقيادة الخليفة في موضع الفلاج . وعندئذ خرج تاشفين من فاس إلى جبل العرض حيث قهر العساكر، ومن هناك بعث البرتير إلى الفلاج حيث التقى برئيسها يحيى أغوال فهزمه وقتله، وحمل رأسه إلى فاس . وعندئذ غادر الموحدون إلى موضع بنى مكنود بينما سار البرتير بهذائهم نحو المقرمة (بشرقي فاس).

ومن المقرمة كان المسير إلى غياطة، وقام تاشفين بهذائهم إلى النواظر، وذلك في شتاء (جمادى ١ - جمادى ٢) سنة ٥٣٦ هـ / ديسمبر - يناير ١١٤٢ م، حيث كان هبوب الرياح العاصفة لمدة ٥ (خمسين) يوما دون انقطاع مع سقوط الأمطار التي أجبرت الوديان . وهكذا قاض وادي فاس و«أكل» باب السلسلة، كما «فتفت» جزيرة مليلة (٨١) .

وفي ذلك الوقت كان عبد المؤمن في موضع غفرا بجبل غياطة بأطلس الوسطى، (٨١) البديق، ص ٧٨ - حيث وأكل البحر (أيضا) طنجة حتى الجامع، وأكل وادي سبو مع وادي درعة أخمية لمطة، وهذا كله في شتاء سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤٢ م، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٠ - حيث سار عبد المؤمن إلى غياطة، وبطرية وافتتحها ثم سار إلى ملوية وبلاد زناته، وبعث إليهم عساكر الموحدين بقيادة يوسف بن وانودي، ومن ثم المسير إلى تلمسان وكان واليها «ابو بكر بن مزدي» ثم المسير إلى أمرا - بني ومانو.... وبلاد بنى عبد الواد وبنى باجوى.... وأمدتهم عساكر لقوتة ومعهم البرتير.

بينما كان تاشفين في الوطاء تحت الموحدين في موضع النواظر، والعسكران يقاسيان جميعاً من شدة البرد والغلاء . فسطل الشعير لزوم علف الخيل بلغ عند الموحدين ٣ (ثلاث) دنانير، بينما عز الحطاب عند المرابطين فبلغ سعر الرطل منه ديناراً من شدة البرد، حتى أن امرأة بعثت لتاشفين بطبق لطيف ظن أنه فاكهة فإذا به فحم فسرو به (٨٢) . وعندما أقبل الربيع «فتح الله بالغيث والخيرات» .

حملة جبال الريف إلى تخوم المقرب الأوسط

وهكذا، وعند تحسن الأحوال الجوية بدأت المطاردة من جديد بين كل من عبد المؤمن من ناحية وتاشفين وبصحبته اليرتير من الناحية الأخرى، وكل على حدة حسب استراتيجية المرابطين التي كانت تهدف إلى الاحاطة بقوات الموحدين فيما يعرف ب«طابق الكعاشة» ، الأمر الذي نجحوا فيه بعض الأحيان.

فلقد خرج عبد المؤمن بقواته من جبل غياته إلى موضع «لكاي» حيث استقر لبعض الوقت قبل المسير إلى الوجهة واللقاء برئيسها بدر بن الجوط ، وبالمقابل غادر تاشفين هو الآخر محلته وهو يتابع خطوات عبد المؤمن، ونزل في الوطاء تحت المعسكر الموحدى في موضع الجوزات (متاع بنى ليلى) (٨٣) ، بينما سار اليرتير

(٨٤) الجيدى، ص ٧٨ - وقارن ابن عذارى، الموحدين (هوى)، ص ١٢ - حيث ، ونزل عبد المؤمن بحصن بالموضع المذكور (كرانده : جرانده) شهيراً دون حطب أو لحم حتى حرقوا أوتاد أخبيتهم وخشب أخبيتهم. والمطر مع ذلك مستصحب دائم، مع القول عن ابن صاحب الصلاة : «ان امرأة بعثت لتاشفين بطبق كبير عليه بنية (منديل) ظن انه فاكهة وإذا فيه فحم فسرو به. وقارن روض الترقاس، ص ١٨٧ - حيث : ثم ارتحل عبد المؤمن الى جبل شمارة فارتحل تاشفين في إثره، فزول بهادى تهلبط بزاء عين القديع، في فصل الشتاء. فأقام بذلك المنزل شهرين حتى أحرق أهل محلته أوتاد أخبيتهم ورماحهم، وهدموا بيوتهم وأخبيتهم (ثم ارتحل عبد المؤمن الى جهة تلمسان، وارتحل تاشفين بطرى المراحل....) .

(٨٣) نفس المصدر، وقارن ابن الاثير، ج ١ ص ٥٧٩ - حيث النص : وأطاعت عبد المؤمن قبيلة بعد قبيلة، وان الرحلة بحذات الجبل استمرت من سنة ٥٣٥هـ / ١١٤١م، وان المناوشات كانت مستمرة الى ان وصل الى تلمسان سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م .

إلى مواطن بني سليمان في الأرض العالية، وبذلك أحاط المرابطون بهم وكادوا يطبقون عليهم، ولولا نجاح عهد المؤمن في استمالة بعض زعماء المنطقة الذين وجدوا إلى جانبه، وهو الزعيم الصنهاجي مفتاح بن عمر الذي سمح للموحدين بالنزول عندهم وبذلك تفادى الحصار.

«تكتيك الكماشة» : فن إدارة المعركة،

والظاهر أن تاشفين كان يعتمد خطة التطويق (بالكماشة) التي تهدف إلى أن يقوم الروبرتير بدفع الموحدون من أعلى الجبل نحو السفح، ومن ثم إلى الوطاء. حيث يكون الإطباق عليهم من كل من جانبي البربرير الذي يلاحق من أعلى من الخلف، وتاشفين الذي يستقبل النازلين وهم يلهثون بالسهام وستان الرماح وأنصال السيوف. فلقد عاد تاشفين إلى النزول تحت الموحدون في أرض صنهاجة غُدْر، وعندما أقبلوا من صنهاجة غُدْر إلى تازغُدْرَا (متاع لجاية) سار تاشفين والروبرتير معا إلى بني تاودا حيث نزلوا بحيث كان وادي متاع ورغة (من ووافد نهر سبو) بينهما، وهناك عاد المرابطون إلى الإعداد للحركة «الكماشة» من جديد. فلقد استعرض البربرير رجاله استعدادا للخروج جريدا نحو الموحدون في تازغُدْرَا، حيث دار بين الجانبين قتال شديد طوال يومين وليلتين، وتعرض فيه الطرفان لكثير من الخسائر في الرجال، وانتهى سجالا بمطاردات عن بعد تنقل فيها الروبرتير ما بين بني تاودا وبين بني مزجلده، وبينهما نزل الموحدون في موضع تاغزوت (إن بتقطت) من منطقة وادود ثم في موضع أيكَي من منطقة ايلالة (متاع الميزان) حيث استقروا لمدة ١٢ (اثني عشر) يوما. وهنا عادت جريدة البربرير إلى جيش تاشفين، وسار الاثنان معا إلى تهليط تحت قصر عبد الكريم (القصر الكبير وهو قصر مصودة القديم) ما بين العرايش وسلا (٨٤).

والظاهر أن الموحدون عانوا فعلا من تكتيك حرب الكماشة الذي مارسه ولي العهد المرابطي بفضل مهارة قائده القرطبي، وحسن تحريكه السريع لرجاله. يستشف ذلك من رواية البيهقي التي تقول إن الأمر تطلب تدخل القائد الكبير الشيخ عمر

أصناج : أحد العشرة، إلى جانب عبد المؤمن رغم أن الرجل كان يعاني ذروة مرضه الذي مات فيه . ولقد خرج عمر أصناج مريضا ، فأخذ بيد عبد المؤمن الذي يأمر بأن تضرب له خيمة (قبطون) ، ويرفض المريض الكبير أن يجلس في الظل بينما المرحدون في الشمس، وبذلك يضرب لهم المثل في أن أول صفات الجندى المجاهد هي التحلى بالصلابة والمقدرة على مواجهة الصعاب، ومعاناة مرارة الكفاح.

وهكذا كان عمر أصناج - سمي عمر الفاروق - يخطب الموحدين الجاهدين من المصامدة واقفا إلى جانب عبد المؤمن وهو يسنده بيده اليمنى بينما الشيخ أبو إبراهيم يسنده بيده اليسرى . وكانت وصية وداع رائحة، تذكر بوصية الإمام المهدي ابن تومرت، والتي طالت الموحدون يستمعون إليها من وقت الضحى إلى وقت الظهيرة.

وكان موضوع الخطبة الوصية : أمر المجاهدين الموحدين بالطاعة للخليفة : خليفة الإمام المعصوم، الواجب الطاعة على الكافة . ومع نهاية النهار وقدوم الليل توفي أبو حفص عمر بن علي أصناج، أحد دعائم حركة ابن تومرت العشرة، بعد أن وعظ الموحدين الذين وعوا الدرس (٨٥).

وبعد دفن عمر الصنهاجي (أصناج) إلى جانب جدار يقف شاهدا على ضريحه، وعندما سارت الحملة، ترك بالمنحلة الشيخ أبو يحيى بن بكير بن الجبر مع جماعة بنى سعيد، حفاظا على كرامة ضريح شيخ صنهاجة الموحّد - خشية أن يعرض له الخصوم، كما نرى، بسوء . ومنذ ذلك الحين قوى الجيش الموحدى السائح في جبال الريف متتحفا نحو المغرب الأوسط بمساندة قطائع الاسطول التي كان يقودها ابن ميمون.

وهكذا تحولت الحملة إلى نزهة عسكرية جال عبد المؤمن فيها بمواضع بنى منصور ويكساس حيث وحد بنو ناله وبنو زياد، ومن ثم بأسست سار حيث دخل في الطاعة

أولاد حيان (متاع تهزيان)، ونحو أزكترا، كما دخلت في الطاعة سوق الغلثاء، (متاع بر عريف)، بلد عبد الله بن يحياتن، والقلمة (متاع باديس)، كما وحد أهل الطارقين والمخلفة. أما عن قبائل كزناية (متاع تيزغت) الستة فقد دخل في مذهب التوحيد ٣ (ثلاث) منها وبقي ٣ (ثلاث) في طاعة المرابطين (٨٦).

وهنا خاف المرابطون من أن يتهدد الخطر مدينة السوس الأدنى : فأس، فأقلع إليها كل من تاشفين والبرتير وجاسوا خلال منطقتها حيث بنو سليمان والموحدون في إثرهم إلى أن تم اللقاء بين الطرفين في موضع كزناية (متاع تيزغت)، ولكن المرابطين انسحبوا دون قتال (خاسرين). وعندما هبط الموحدون إلى موضع لمزة أخذهم الهراء والمطرمة ٨ (ثمانية) أيام حتى كادت تهلك دوابهم في الوحل والطين، الأمر الذي دعا عبد المؤمن إلى تسمية تلك الحملة بغزوة الطين (تاغزون ان والظ) (٨٧).

توحيد إبراهيم أخى عبد المؤمن ومقتله :

وكان على الموحدين أن يستقروا بسبب سوء الأحوال الجوية في جبال قمش آمان حيث اتخذ الرجال منازلهم حسبما ارتأوا. وهنا جاء إبراهيم أخو عبد المؤمن معلنا لأخيه الطاعة ودخوله في حزب التوحيد. فكانت فرصة انتهزها الخليفة ليهر بأفراد أسرته وقومه، فأعطاه الخيل والعبيد والجنان، وأنزله في موضع القائد : محمد بن أبي بكر بن بجيت. والظاهر أن إبراهيم بالغ في الاستفادة من إعزاز أخيه الخليفة له، الأمر الذي أثار الزعيم ابن بجيت إلى درجة عدم مراعاة حرمة أخوة الخليفة، فتجراً على قتل إبراهيم، ربما لحداثة دخوله في التوحيد - كما نرى.

وفي ذلك تقول الرواية : فغضب الخليفة لقتل أخيه، وقال : «ويقتل ابن بجيت به» الأمر الذي لم يستسيغه كبار شيوخ الموحدين، وأغلب الظن أن المسألة سويت

(٨٦) البيهقي، أخبار المهدي ابن تومرت، ص ٨٠.

(٨٧) البيهقي، ص ٨٠.

بذائع الذبة (٨٨).

وكانت تلك الحادثة الخطيرة سببا في ظهور تعديل مهم في نظام حشد المسكر الموحدى، وذلك أنه صدر أمر الخليفة : «بقسمة المروس بالينود : كل قبيلة يتدها»^{*} وهو الخير الذي انفرد به البيدق^{*}.

التحالف مع قبائل المغرب الأوسط عن طريق المصاهرة :

ومن ذلك الوقت، وبعد أن دخل عهد الرحمن بن زجو إلى مدينة مليانة عشرة، بدأت القوات الموحدية تطرق أبواب المغرب الأوسط . فلقد تم اللحاق بآبن زجو في سوق الخميس بامتليلى، وجمعت المغانم والسبايا، وكان عنهن ١٠٠ (مائة) بكر من أهل المنطقة اللاتي أعلن أنهن من المسلمين، فقام عبد المؤمن بتقسيمهن على كبار رجال الموحدين، على أن يتزوجوهن . ومن المهم ماثشير إليه راية البيدق، من أنه بقيت - بعد التقسيم - فتاتان لامعتان، هما : فاطمة بنت يوسف الزناتية، والأخري ابنة ماكسين بن المعز صاحب مليلة. وواضح من ذلك أنهما ابنتا خارج التقسيم لشرفهما، ولطموح بعض الزعماء في أن يعزوا شرف الزواج من إحداهما وبالتالي التحالف مع قبيلة كل منهما . ولهذا رأى عبد المؤمن رمي القرعة عليهما بينه وبين الشيخ آبن إبراهيم (إسماعيل بن إبيحيج) الذي كانت من نصيبه فاطمة بنت يوسف بينما ألت بفت ماكسين إلى الخليفة عبد المؤمن . فكانت أمّا لولديه : الأمير إبراهيم والأمير إسماعيل . وكانت مناسبة احتفل فيها بموضع المهديّة (متاع ابن مليح) بعمل مأدبة طعام (أسماس) تليق بمقام الخليفة والزعيم الموحدى الكبير. (٨٩).

(٨٨) نظر البيدق، سيرة المهدي آبن تومرت، ص ٨١- حيث النص : «فقام له (عبد المؤمن) أبو حفص (عمر الهنتات) وآبو الحسن يوحوت بن أجاج. وقال له (عبد المؤمن) : «الم يفل المهدي أن أهل الجماعة وصيحاتهم وعييدهم كل من في الدنيا» فصمت عند ذلك الخليفة^١»
* وعن المروس انظر دوزي، ملحق القوايم العربية (بالفرنسية) ص ٥٨٠ - ٥٨١، حيث .
الفل مرسى بمعنى عالج أو عارس، وحيث مرسى وأمراس بمعنى جبال، وحيث المروسى في النهاية تعنى دوان العطاء ، فكان الأمر يتعلق بتنظيم العطاء في فرق الجيش، كلا حسب درجتها.
(٨٩) البيدق، ص ٨١ .

وعقب ذلك كان الرحيل إلى أغيال (متاع بنى يزناسن) الذين فضلوا الهرب على الدخول في حزب التوحيد ، ومن هناك كان الذهاب إلى ندرومة ، نقطة الحدود بين المغربين : الأقصى والأوسط ، من حيث كان الدخول إلى بلاد كومية - قبيلة أمير المؤمنين عبد المؤمن - التي وُحِّدَت في التو واللحظة . ومن هناك كان المسير إلى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن ، حيث كان التمييز (العرض) استعداداً للمسيرة التالية (٩٠).

حملة تلمسان ، ونهاية الدولة المرابطية:

وفي تاجرا تم استعراض (تمييز) حشود الموحدين ، وسَير عبد المؤمن منها ٤ (أربع) جرائد (طواير) ، هي :

١- عسكر محمد بن زُجُو الذي اتجه نحو الساحل ، ومن هناك عرجَ على وهران وعاد بالمغانم والأسلاب.

٢- عسكر بقيادة الشيخ أبي إبراهيم اسماعيل بن أبيحيج وسار إلى وبسغد (بنى وانون) ورجع منها بالغنائم (٩١).

٣- وبقيهم من النص المضطرب في هذا الموضع أن العسكر الثالث كان بقيادة يوسف (بن وانودين) الذي خرج لمهاجمة قبائل مديونة تاينزا في منطقة تلمسان وأنه خرج إلى لقائه القائدان المرابطيان : أبو بكر بن الجوهري اللمتوني ، ومحمد بن يحيى بن فائو، ولكن يوسف نجح في مهاجمتهما في موضع «خندق الحمراء» الذي يعرف برأدى الزيتون وقتلها معا (٩٢).

(٩٠) البندق ، ص ٨١ .

(٩١) البندق، ص ٨٧ .

(٩٢) البندق، ص ٨٢ ولادون ابن الأثير، ج ١، ص ٥٧٥- حيث أرسل عبد المؤمن جيشاً إلى وجره (هدلا من ندرومة) من أعمال تلمسان بقيادة أبي عبد الله محمد بن زكو (زجو) من آيت خمسين التقى بهم متولى تلمسان : احمد بن يحيى بن فائو، فهزمهم جيش عبد المؤمن في موضع "خندق الجمر"، وقتل محمد بن يحيى وكثير من أصحابه.

٤- ووضح من النص المضطرب أن عبد المؤمن أرسل جيشاً حليفاً رابعاً من عساكر زناتة الذين كانوا في معبة الزعيم : زيري بن مازوخ الذي وحد ودخل في طاعة عبد المؤمن فأرسله في مهمة إلى جبل غياتة (في أطلس الوسطى) ففقدته بنو مكدود ، فقتلوه ومثلوا به ، فقطعوا رأسه ويديه وحملوها إلى فاس حيث علقوها في باب السلسلة (٩٣) والواضح أن المغرور هنا ، أحد قواد زيري بن مازوخ أو أحد أبنائه. وذلك أن زيري سرف يقتل في غزوة تالية (ما يأتي ص ٣١٠).

ورحل عبد المؤمن إلى جبل تاجرة ووجه عمر الهنتاتي على رأس جيش إلى وهران لمهاجمتها بفتة . وكان من الطبيعي أن يضم عبد المؤمن قبيلته كومية في تاجرة إلى جانبهم ، ولكنه انتقم من أولئك الذين وقفوا منهم إلى جانب المرابطين ، وطلبوا منهم أن يؤدوا من المال مثلما سبق أن أداء زعيمهم أبو طاشور إلى محمد بن قانو وإلى تلمسان. وعندما رأى منهم عدم الرضا ردهم بشدة فأمر بالقبض على ١٠ (عشرة) من أشياخهم ، وأنزل بهم عقوبة الإعدام ، ولم يستثن منهم إلا واحداً فقط شغعت فيه النساء من أهله (٩٤).

ومن أرض كومية رحل الموحدون إلى موضع تيفسرت ، من حيث خرجت جريدة (عسكر) بقيادة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي والقائد يصلاسن بن المعز إلى موضع العيون من أرض قبيلة صاء وأصابوا الغنائم ، وأنعموا ذلك بالتجول خلال مواطن ٤ (أربع) قبائل ، قبل أن يعودوا إلى المحلة محملين بالمغانم والأسلاب (٩٥) . وبذلك سيطر عبد المؤمن على منطقة تلمسان فلم يبق إلا الاستيلاء على المدينة نفسها وعلى قريبتها وهران القريبة غربا ، ولكنه كان عليه أن يحرك فاس بعيداً في السوس الأدنى لبعض الوقت حيث كانت ملجأ مؤقتاً وملذاً لأهل الشتات من الأعداء ولن يدوم طويلاً.

(٩٣) انظر البديق، ص ٨٢- حيث وقعت زيري بن مازوخ قبل حملة يوسف (بن وانودين) ،

٣- حيث رأى بروفنسال تأخير الغدر بما خوخ عن حملة يوسف.

(٩٤) البديق، ص ٨٢- حيث أن أبا طاشور قتل المرابطون بعد دفع المال. وأن الرجل الذي أغفى

هذه من الكوميين اسمه ابن أبو كنون (جنون).

(٩٥) البديق، ص ٨٢- والقبائل هي : بنو بيشين، وبنو مئوس، وبنو وودرسن، وبنو سكتن.

بداية النهاية بالنسبة للدولة المرابطية

خلال تلك الحرب الطويلة بين المرابطين والموحدين بدأ من ولاية عبيد المؤمن ، والتي شاركت فيها القبائل المختلفة من مصمودة ولمتونة وزناتة وحتى قبيلة عبيد المؤمن كومية في منطقة تلمسان حيث كانت القبائل تنتقل خلالها من جانب إلى آخر ما بين التوحيد المهدى والردة عنه . وبطبيعة الحال كانت تلك الحروب المتصلة تهلك الجيلاد والعباد في الدولة المرابطية المترنحة ما بين ضربات الأعداء وخيانة الأصدقاء ، وغدر الأهل والأقرباء الأمر الذي أدى إلى تردى الأحوال وسوء المآل . وفي ذلك يقول ابن عذارى :.....«ومدة هذه الحركة (الحملة) الطويلة الأعوام اتصلت الحروب ببلاد أهل الشام ، وغلت الأسعار بمراكش فصار ربح الدقيق مثقال (دينار) حشوى ذهبي . وتولاهما الجذب وقلت المجابى (الضرائب) بهذه الفتن ، وكشرت اللوازم على الرعايا بالمعدوتين (المغرب والأندلس) . وألح العدو النصراني بالضربات على جميع جهات الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب ، وشغلها بحرب الشاترين ، واستولى الروم (نصارى الأندلس) في هذا الوقت على كثير من البلاد والحصون ، وكثير من الثغر» (٩٦)

تاشفين أميراً وقائداً عاماً ممارساً

ووسط هذه الظروف السيئة أتت وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين في رجب سنة ٥٣٧ هـ / ٢٧ يناير ١١٤٣ م ليزيد الطين بلة . فبعد أن كان ابنه تاشفين مسئولاً عن الحرب وقيادة الجيوش أصبح بعد أن آلت إليه الإمارة مسئولاً عن مصير الدولة في تلك الفترة الحرجة.

المتنة بين لتونة ومسوفة :

وأول المشاكل التي واجهت تاشفين تتمثل في تصدع بناء الدولة بقيام الوحشة بين قبيلتي لتونة : عصبية الدولة ، ومسوفة : سندها الأول ، الأمر الذي أدى إلى دخول كثير من كبار زعماء مسوفة في طاعة عبد المؤمن ، مثل : يحيى بن تاكفت ، وراز بن محمد ثم يحيى ابن عمهما المعروف بالحجار ، صاحب تلمسان السابق الذي وصل إلى عبد المؤمن «بجميع إخوانه ورجاله فزاد الخلل في أمر تاشفين» (٩٧).

وهكذا قامت الفتنة بين لتونة ومسوفة حتى قام يحيى بن تاكفت المسوفي بالإغارة على بعض المواطن في تلمسان ، فخرج إليه محمد بن زجو (زقو) اللتوني فقتله وأبنته ، «واحترز رأسيهما ، ووجه بهما إلى تاشفين فأمر بحملهما إلى سجلماسة حيث كانت أخت يحيى المذكور ، فقالت : إن كان لنا رجال فسيأخذون بشارنا - إن شاء الله . وعندما بلغ هذا الكلام عبد المؤمن : الحليف الجديد للمسوفيين «فانتصر لها ، ووافقها على رأس تاشفين ، فكان ذلك كذلك» ، كما تقول رواية ابن عذاري عند حصار فاس (٩٨).

توحيد زناتة :

والمعروف أنه عندما توفي على بن يوسف بن تاشفين كانت القوات الموحدة منتشرة في ٣ (ثلاثة) مواطن ، هي : جبل غياته (في أطلس الوسطى) وجبال الريف حيث مواطن قبائل بطوية ومليلة وغمارة . وكان القسم الثالث تحت قيادة ٣ (ثلاثة) قواد ، هم : يوسف بن وانودين وعبد الرحمن بن زجو (زقو) ، وابن يومور . وكان عليهم التوجه نحو تلمسان عبر جبل مديونة ، وخرج إلى هؤلاء الأخيرين وإلى تلمسان القائد المرابطي : محمد بن يحيى بن فاتو وأنهى اللقاء بهزيمة ابن فاتو ومقتله بينما تفرقت قواته نحو بلادها . وكان من نتيجة هذا النصر الموحدي أن دخلت

(٩٧) ابن عذاري ، الموحدون (هش)، ص ١٣ ونفس الرواية عن ابن بجير في ص ١٤.

(٩٨) المقرب ، الموحدون (هش)، ص ١٣.

جماعات زناته فى طاعة عبد المؤمن وعلى رأسهم بنو ومانو، وغيرهم من سكان بلاد الريف، مثل : بنى ماخوخ، ويوسف ابن يدر، فوجههم عبد المؤمن مع القائد بن ابن يرمور وابن زجو إلى بلادهم، فكان دخول كل قبائل زناته فى حظيرة التوحيد(٩٩).

وهنا بعث تاشفين قائده اليرتير على رأس قواته من الروم (الأندلسيين) والمرابطين (الصنهاجيين)، ولكن الخبر لم يخف على جواسيس الموحدين الذين أسرعوا فى غلب الليل لمجدة لبني ومانو الذين كانوا متحصنين بأحد جبالهم، تاركين موضعهم الذى نزل به اللمتونيون، فهدموه وأحرقوه. ولم يكتف المرابطون بذلك بل انهم طلعوا على خصومهم بالجبل فى يوم عاصف، فكانت قرصة انتهزها بنو ومانو فهبطوا عليهم مع حلفائهم من زناته وهزموهم (١٠٠).

وتشجع الموحدون بعد ذلك النصر فساروا بقيادة يوسف بن وانودين وعبد الرحمن بن زجو وابن يرمور ومعهم بنو ومانو، مغيرين فى بلاد بنى عبد الواد، وبنى يلومى، وهم يقتلون الأعداء، ويجمعون المغنم التى وجهوا بها إلى عبد المؤمن (فى منطقة تلمسان). ولم يكن من المستغرب ألا تفر مغنم بنى عبد الواد وبنى يلومى بسلام إلى أرض زناته دون أن تشير نهم هؤلاء الأخيرين، رغم محالفهم الظاهر مع الموحدين. فقد خرج الزناتيون على المغنم فأخذوها، وقتلوا من بنى ومانو الذين كانوا يحملونها ومن غيرهم ٦٠٠ (ستمائة) رجل، فبهم الزعيم الزناتى ابو بكر ماخوخ (من بنى ومانو)، بينما لجأ ابن وانودين إلى جبل هناك واعتصم به مع الموحدين، هذا ورحل عسكر اللمتونيين إلى موضع منداس (بلد بنى يلومى من زناته)، حيث اجتمعت عليهم قبائل بنى يلومى برحائلهم مع زعيمهم حمامة بن مظهر وغيرهم من زناته : بنى ينجاسن، وبنى وسيفن، وبنى توجين، وكانوا دون رحائل معهم (١٠١).

(٩٩) ابن عذارى، الموحدون (هروى)، ص ١٤.

(١٠٠) ابن عذارى، الموحدون (هروى)، ص ١٤.

(١٠١) ابن عذارى، الموحدون (هروى)، ص ١٤.

وعندما بلغ خبر مقتل بنى ومانو، وصل عبد المؤمن إلى جهة تلمسان، فنزل هناك بين الصخرتين. وعندئذ وصله بنو ومانو، وأقنع معهم إلى سيرت حيث اجتمع عليه جميع بنى ومانو ومعهم الزعيم الزناتى تاشفين بن ماخوخ. وفى تلك المحلة انضمت إلى قواته عساكر كل من : ابن زهرو وابن يومور. وفى تلك المحلة وصل عبد المؤمن هدية بنى ومانو فصرفها عليهم ثم رحل إلى بلاد بنى يلومى الزناتية (١٠٢).

ولما تحقق أمير المسلمين تاشفين من تجميع القوات الموحدية فى بلاد بنى يلومى، دخل تلمسان حيث جند فيها عسكرياً بعثه إلى عبد المؤمن وهو فى موضع سداس وهنا قرر عبد المؤمن المسير إلى محلة البربرير وأن يكون البدء بقتال رجاله من الجنود والحشود، حتى يجهض خطه فى الإحاطة بالقوات الموحدية، كما كان يحدث فى السابق. على ما نرى. وبعد قتال دام ٤ (أربعة) أيام نجح عبدالمؤمن فى الإحاطة بمحلة البربرير ومن كان معهم من زناتة بنى يلومى وغيرهم. وكانت الغنائم التى حصل عليها الموحدون من مواشى زناتة كبيرة، تبالغ الروايات فى تقديرها بنحو ٣٠ (ثلاثين) ألفاً من العنم، و١٢ (اثنى عشر) ألفاً من البقر، الأمر الذى سمح للبربرير باللاحاق بالقوات الموحدية، وباستنقاذ معظم الغنائم. ومن الواضح أن عبدالمؤمن كان قد عهد إلى قومه من كومية باستصحاب تلك الغنائم التى حصل عليها الموحدون فى بلادهم. يظهر ذلك فيما حدث من مقتل ٤٠٠ (أربعمائة) رجل من الكوميين، وهم يدافعون بشراسة عما كان بين أيديهم من الخيرات.

والمهم أن العسكري المربطى عاد إلى تلمسان بالماشية الزناتية، وهناك اجتمع بالأصبر تاشفين (١٠٣).

وتحضر اجتماع تاشفين بقائده الرومى الفذ، عن كتابة الرسائل إلى مختلف البلاد طلباً لإرسال العساكر إلى تلمسان (إلى القصبة) حيث كان من الواضح أن اللقاء بين حشود كل من الطرفين سيكون ذا أهمية بالغة لتقرير مصير حرب المطاولة التى دامت حوالى ٧ (سبع سنوات) منذ سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م. وفجلاً وصلت

(١٠٢) ابن حنّار، الموحدين (هريش)، ص ١٠.

(١٠٣) ابن حنّار، الموحدين (هريش)، ص ١٥.

العساكر المرابطية من أقصى البلاد ، ليس من سجلماسة فى أقصى الجنوب فقط ، بل من بلاد بنى زيرى الصنهاجيين فى أقصى الشرق ، من حيث وفد عسكر بجاية بقيادة بقاءة طاهر بن كياب من قواد بنى حماد ، وكذلك من الأندلس من حيث وفد ابراهيم بن تاشفين بعسكره فولاه أبوه عهده ، وكانت الأحوال فى الأندلس تزداد مع مرور الوقت ، سوءاً .

وقبما يتعلق بالعسكر الصنهاجى الوائد من بجاية تقول رواية أبى على الحسن الأشيرى ، إنهم لقوا هزيمة قاسية على أيدى الموحدين ، فى ضاحية العباد من مدينة تلمسان ، ولحقوا بهم من الصغرتين حتى باب المدينة (١٠٤) . وأنتهى الأمر بأن اتصل القائد الحمادى ابن كياب بعبد المؤمن وأعلن التوحيد مع الوعد بالمساعدة على فتح بجاية وبلاد الزيريين فى بجاية والمهدية (١٠٥) .

هذا ، وتشير الرواية إلى أن ابراهيم بن تاشفين كان التقى مع والده عقب وفاة جده الأمير على بن يوسف ، وذلك فى موضع كرائدة (جرائدة) جنوب قاس ، وحينئذ أرسله والده إلى قرطبة ليستكمل دراسته فى الأندلس ، ثم إنه بعد أن تأزمت الأحوال وبلغ الصراع مع الموحدين ذروته هذه ، استدعاه تاشفين إلى تلمسان فى آخر سنة ٥٣٨ هـ / يونية ١١٤٤ م . وكان وصول ابراهيم بن تاشفين من بلاد الأندلس وقتما كان أبوه يستعرض (يميز) العساكر والحشود والجنود والوفود ، فكان عرضاً عظيماً "أعجب الناس من كثرة عددهم واحتفالهم بالزينة" - وكان

(١٠٤) ابن عذارى، الموحدون (هوى)، ص ١٣.

(١٠٥) البليدق، ص ١٤، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٠ - حيث النص على : "ونزل تاشفين اصطلفص... ووصل جند صنهاجة من قبل يحيى بن الحرير صاحب بجاية بنظر طاهر بن كياب من قواده، أمدوا به تاشفين وقومه لعصيته الصنهاجية، وفى يوم وصوله أشرف على معسكر الموحدين. وكان يدل بأقوام قدرها بلمتونة، وأميرهم يتعهدهم لمناجزة الموحدين، وقال : إنما جئتمكم أؤمتكم من صاحبكم عبد الزمن هذا، وأرجع الى قومى. فامتعض تاشفين لكلمته، وأذن له فى المناجزة، فعمل على القوم. فركبوا وصمموا للقائه فكان آخر العهد به وبعسكره.

ميدان العرض يمتد من باب القرماديين بتلمسان إلى جهة سفح الجبل (١٠٦).

وهنا يرجع الفضل إلى صاحب الحلل الموشية في اتصال ما انقطع من رواية ابن عذارى عن عملية العرض المرابطي الكبير ، والذي يعتبره « آخر جيش احتفل فيه المرابطون » (١٠٧) ، وذلك بفضل ما نقله من رواية إيسع التي تبين أن الموحديين قاتلوا الحشد المرابطي الكبير في آخر عروضه (تميزه) بهفظة تكشيفية دفاعية تقضي بتنظيم العساكر في الأرض المنبسطة في شكل مربع تتوالى في صفوفه المربعة : الرجال « بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ووراءهم أصحاب الدرق والحرا ب صفا ثانيا من ورائهم ، ووراءهم أصحاب المخابي فيها (الحجارة صفا ثالثا) ، ووراءهم الرماة بقوس الرجل (صفا رابعا) ، وفي وسط «المربعة» الجبل.

فكانت خيل المرابطين لا تستطيع اختراق تلك الصفوف الدفاعية المانعة ، فإذا انسحبت تخرج لمطاردتها خيل الموحديين « من طرق تركوها ، وفُرج أعدها ، فتصيب من أصابت ، فإذا كُرت عليهم دخلوا في غابة القنى ».

هذا ، ويقول إيسع إن تلك المعركة تعرف اليوم مendas (انظر اعلاه ، ص ٣١١) ، وأنه فقد فيه من جيوش المرابطين ما لا يحصى . وفي ذلك اليوم ظهر أمر

(١٠٦) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٥، وقارن الحلل الموشية، ص ١٣١-حيث رواية الكاتب ابن على الحسن الأشرى وحيث وصول عدد ابن حماد الصنهاجي من بجاية، وعسكر سجلماسة، ووصل من الاتدلس ابنه الأمير ابراهيم (ابو اسحق) فولاد ابوه عهده، وذلك في سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، وكان عسكره من الروم نحو ٤٠٠ (أربعة آلاف) فارس، واجتمعت عليه العساكر المذكورة بتلمسان. وأمر بعرض الجيوش.... والتسميز.... وعجب الناس من كثرة عددهم وعددهم، وخصالهم بالزينة .. واصطفقت العساكر من باب القرماديين.... وكان آخر جيش احتفل فيه المرابطون، وحسب ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣١-فبأنه بعد وصول الأمير ابراهيم من الاتدلس وتوليته العهد، أرسله والده تاشفين إلى مراكش في جماعة من لمخنة، وبعث معه أبا جعفر أحمد بن عطية، كاتباً، بينما سار هو في سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م إلى وهران.

(١٠٧) الحلل الموشية، ص ١٣١.

عهد المؤمن بن علي وكثر جمعه (١٠٨).

مقتل الريزقيير

ومع مطلع سنة ٥٣٩ هـ / يونيو ١١٤٤م افتقد تاشفين سنده الأكبر في حرب المطاولة ، وهو قائده الريزقيير ، قائد فرقة الروم ومن يساندها من عسكر الحشود ، في بعض المواقع مع الموحدين . وما يؤسف له أن النصوص الخاصة بذلك الحدث غير واضحة ، الأمر الذي يعنى أن الأصول الأولى التي نقل عنها المتأخرون كانت معيبة . وهذا ما يظهر بشكل واضح في نص البيدق الذي وصل إلينا ، وكذلك الأمر بالنسبة لنص ابن صاحب الصلاة الذي ينقل عنه ابن عذارى وغيره .

والذي يفهم من رواية البيدق وابن عذارى هو أن الريزقيير راح وسط دوامة النزاعات بين قبائل المرابطين ، من : مسوفة وصنهاجة وجزولة . ففي سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤م كان تاشفين يواجه خروج قبائل جزولة التي شذرت بالمرابطين في تلك الظروف الصعبة التي كان يواجهها الأمير تاشفين . فإثناء الصراع في منطقة

(١٠٨) انظر الحلل المشية، الدار البيضاء، ص ١٣٢- ولو ان الرواية تنهى ذلك بأنه كان من أعظم ما تأمده به عهد المؤمن على المرابطين فإهم أهل الاندلس عليهم لكونهم أغلوا من حسانها وأسلبتها. وهنا لابد من الإشارة الى ان تكتيك حرب المربع هذا معروف عند الطرطوشي (ت. ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) في كتابه سراج الملوك على أنه من أساليب حرب الاندلس- دار صادر- بيروت- ط- بيروت، ١٩٩٥- ص. ٤٢-٤٢١- حيث النص : "وأما صفة اللقاء وهو أحسن ترتيب رأبناه في بلادنا، وهو أرجى تدبير فعمله في لقاء عدو، ان تقدم الرجالة بالدق الكامل والرمح الطول والمزاريق المسنونة النافذة، فيصفوا صفوفهم ويركروا رماحهم خلف ظهورهم في الأرض، وكل رجل منهم قد القم الأرض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون التي تفرق سهامهم الدروع، والتخيل خلف الرماة. فإذا حملت الروم على المسلمين لم تزحزح الرجالة عن هياتها، ولا يقم رجل منهم على قدميه، فإذا حملت الروم على المسلمين لم تزحزح الرجالة عن هياتها، ولا يقم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو وشقتهم الرماة بالنشاب والرجالة بالمزاريق، وصدور الرماح تتلقاهم، فأخذوا بمنة ومرة، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة، فتقاتل منهم ما شاء الله تعالى.

تلصسان ، وخلال إختلاط الأمور ما بين انتقام عهد المؤمن من قبيلة كومية في المنطقة ، مما سبقت الإشارة إليه (ص ٣٠٨) ، وخروج قبائل المرابطين على لمتونة ، كان المرحدون ينقضون على من بقى من الجند إلى جانب تاشفين ، من القبائل في منطقة العيون (متاح ص ٥٠) ، ويستولون على مواشيهم ويسوقونها إلى محللتهم .

والظاهر أن عبد المؤمن أراد أن يطمئن إلى صحة توحيد جزولة ، وهى القبيلة المرابضية الكبيرة ، فأمرهم بالمسير إلى قتال المرتير وفرقة «الأجنبية» ، فساروا إلى موضع بكيرس ، فى منطقة استراتيجية تشرف على بعض الخنادق أو الأخاديد ، وتبعهم عبد المؤمن ونزل عليهم يوم خميس في موقع يشرف عليهم . وفى نهار الجمعة أصبح المرتير وهو يسير إليهم ، وينزل على الجهة الأخرى من الأخدود الذى يعرف بآيفرت.

وعندما عرف المرتير معلة أخوة الأمس جزولة وعرف من درايته بأحوالهم أنهم مغبون يعملون لحسابهم الخاص ، أعلن خاشيته أنه لا يستطيع أن يحدد مافا يعملون ؟ فهم إما أن يأخذه ليعلموه إلى عهد المؤمن أو أن يفعلوا العكس فيأخذون عهد المؤمن ليعلموه إياه.

ولكن الذى حدث هو أن المرتير انهزم أمام الإخوة الأعداء من الجزوليين ، وتنحى بعيدا عنهم إلى بعض الطريق . ومن الواضح أن المرتير كان يضمّر استخدام الكهد للجزوليين ، فكتب إلى عبد المؤمن كتابا ينصحه فيه بقوله له : «اقتلهم قاتلهم الله ، غدروا بأخوتهم فكيف لا يغدرونك» . وكان على عبد المؤمن أن يعمل بملك النصيحة المكيافيلية ويتخلص من الأعداء من حلفائه الجدد . المشكوك فى صحة نواياهم ، تماما كما فعل ابن تومرت بأهل تينملل عقب استقراره بالمدينة (مسبق ، ص ٢٤٠).

وهكذا عقد عبد المؤمن لجزولة «المجلس» (أكرو) يعظهم فيه ، فسألهم إن كانوا قد وُحِدوا حقا ، وطلب إليهم أن يسوقوا إليه أسلحتهم وأولادهم .

وإزاء تردددهم رأى أن يستخدم الخيلة معهم ، إذ جعل رجال حرسه الأسود (عبيد المخزن) يستدعون الرجال لحضور مجلس الرعظ ، وعندئذ فرقوا بينهم وبين بنيهم

وأسلحتهم ، وكان ضرب الطبل الذي أصدره عيد المؤمن ، إشارة القضاء عليهم قتلاً باستثناء الصغار ، كما سبقت غنائمهم (مواشيهم) (١٠٩).

وعند وصول الخبر إلى الريترير ، لم يظهر أسفه على قتل جزولة بأيدي الموحدين ، ولكنه ويتفكيره الوصولي أسف على أن تؤول غنيمة جزولة إلى مصمودة ، وفكر في استرجاعها إلى أهلها . ورغم ماتقوله الرواية من أن الريترير طلب من تاشفين أن يسير معه بقواته لاستنقاذ الغنائم ، فإن تاشفين لم يشارك في المطاردة . بل وقع عبئها على القائد الرومي «وفرقتة الأجنبية» عبر موضع العيون (إن آيت - بنو - ووتباد) ثم موضع (تالوط أن تيفرت) . وكان اللقاء بين الطرفين على الغنيمة نفسها ، التي عادة ماتكون في حراسة ساقة الجيش أى مؤخرته . ومن وصف البيدق الدقيق لمعركة الغنائم هذه ، يتضح أن هزيمة الريترير كانت ساحقة - ربما لتغلب تاشفين أو تباطئه في المشاركة في تلك العملية المحدودة الهدف . وهكذا «حارب الريترير على تلك الغنيمة وعليها مات ، ولم يسلم من عسكره إلا ٦ (سته) نفر : ٣ (ثلاثة) من الروم و ٣ (ثلاثة) من بنى وانار» - حسبما تبالغ الرواية الموحدة - من غير شك (١١٠)

مصرع تاشفين ما بين تلمسان ووهران

بمخضوع القبائل في منطقة تلمسان لعبد المؤمن ، من كومية بخاصة وزناتة بعامة

(١٠٩) البيدق، ص ٨٢-٨٤ .

(١١٠) البيدق، ص ٨٤-٨٥ - حيث الناجين من الروم ، شرين ، وغشتون بطريان ، ومن بنى وانار : على بن الخنوس ، ويخلف بن الأسطير ، ويخلف المكوطر ، وكان ذلك في عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م . وقارن ابن عذارى ، الموحدون (هريش) ، ص ١٦ - حيث رواية ابن صاحب الصلاة الموحدي المخرومة ، وحيث الخلط مع مثل تاشفين (فتردى في حافة عظيمة ، ووجدوا تاشفين على تلك الصخرة) ، ورواية ابن بجير المرابطية ، وقارن ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ص ٢٣١ - حيث ... وكان تاشفين بحث من قبل ذلك قائد على الروم الريترير ، في عسكر ضخم ، كما قلنا ، لأغار على بنى ستم وزناتة الذين كانوا في مصيغهم (الأصل : مصيغهم) ورجع بالغنائم فأعرضه الموحدين من عسكر عبد المؤمن فقتلوه ، وقتل الريترير .

ووقوف كل من القوات الموحدية والمرابطية أمام مدينة تلمسان نفسها منذ المحرم سنة ٥٣٩ هـ / يوليو ١١٤٤ (١١١) كانت أحوال تاشفين تزداد سوءاً مع استمرار الصراع ، وخاصة بعد افتقاده لقائده الرومي البربري ، فكان عليه أن يعيد تقييم الموقف ليرى أنه لاجدوي من حرب المطاولة والمطاردة ، وأنه من الأفضل أن يلجأ إلى حرب الحصار - الأقل كلفة وخطراً.

ومع أن تلمسان كانت مدينة حصينة يسهل الدفاع عنها ، إلا أن تاشفين فضل عليها مدينة وهران - على بعد ٣ (ثلاثة) مراحل إلى الغرب - وذلك لوقوعها على البحر مباشرة (عكس تلمسان الداخلية بعض الشيء) ، كما أنها تقابل مدينة المرية من شرق الأندلس ، والتي كانت تدها بأنواع الميرة والغذاء (١١٢) . والأهم من ذلك أن المرية كانت قاعدة الأسطول المرابطي الذي كان يمكنه أن يحضر بسهولة لإنقاذ الأمير تاشفين - إذا ما تفاقمت الأحوال . وأغلب الظن أن هذه كانت الفكرة الرئيسية في اللجوء إلى وهران ؛ بدلاً من الصراع في ساحة تلمسان. هذا ، وإلى جانب أنه كان لتاشفين على ساحل البحر بوهراة قصر صغير محصن ، لا بأس أن يكون قد بنى أثناء حرب تلمسان التي استغرقت عدة أشهر - احتياطاً للجواز إلى الأندلس عند الضرورة (١١٣) . ولا بأس أن كان ذلك ما يفسر انتقال عبد المؤمن

(١١١) تلمسان كانت قريب هذا الوقت من عهد الادريسي تتكون من مدينتين : السفلى هي تلمسان والعليا هي تاجراوت ويفصل بينهما سور . وجبل تاجرث يعرف بالصخرتين . ومنه يتصدر وادها (نهرها) الذي يمر في شرق المدينة ، وعليه أرواء كثيرة ، وتعتبر تلمسان ثالثة مدن المغرب بعد أغمات وغاس - نزهة المشتاق ، القاهرة ١٩٩٤ ، ج ١ ص ٢٤٨ .

(١١٢) الادريسي ، ج ١ ص ٥٢ .

(١١٣) انظر الملل الموشية ، ص ١٣٢-١٣٣ - حيث النص على أن تاشفين كان قد بنى بقرية من وهران على شاطئ البحر قصراً ، حصنه واتخذ ملجأ ، وأوعز لقائد أسطوله بالمرية : ابي عبد الله بن ميمون أن يجهز له ١٠ (عشرة) أبقان غزوية تكون يرمى هذا الحصن ، معدة لحادث يحدث عليه ، وإن أجمأت ضرورة إلى الجواز إلى الأندلس جاز ، وانظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣١ - حيث رحيل تاشفين إلى وهران سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م وإقامته عليها لمدة شهر « ينتظر قائد أسطوله محمد بن ميمون ، إلى أن وصله من المرية ١٠ (عشرة) أساطيل فارسي قريباً من معسكره » .

من جهة تلمسان إلى وهران حيث نزل بالجبل المطل عليها ، الأمر الذي أدى إلى أن يتبعه تاشفين بمحلته إلى خارج المدينة « وكانوا يحاربون كل يوم ، ودام ذلك بينهم شهوراً كثيرة » (١١٤).

والظاهر أنه عندما آيس تاشفين من المطردات التي طالت إلى ما يناهز الخمس سنوات ، « لم يستقر فيها ببلد ، ولا اجتمع بوالد ولا ولد » استحسن اللجوء إلى قصره المحصن بساحل وهران (١١٥) وهكذا عندما عاد أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي مع الحلفاء من بنى ومانو الزناتيين ، من حملتهم في بلاد بنى توجين ، زحفوا إلى جهة وهران ، واستقروا في الجبل المطل عليها ، الأمر الذي أثار الذعر في معسكر تاشفين خارج الحصن ، والذي خشي الفرار من الموقع خوفاً من الكمين (١١٦). وهنا لجأ الموحدون إلى الخداع ، فتوجهوا إلى عين الماء الذي يشرب منه أهل وهران أسفل الجبل ، فسقوا دوابهم ، ورجعوا دفعة واحدة صوب معسكر تاشفين حتى وصلوا إلى خيائه بازاء الحصن ، فاندفع إلى الداخل وبصحبه ابن مزدلى ، والى تلمسان ، والقائد بشير الرومي (١١٧).

وتقدم رواية ابن مجير (المرابطة) تفصيلات مؤثرة عن نهاية الأمير تاشفين. فيبعد قتل عسكره في محله لجأ الناجون منهم إلى سور وهران تاركين ما كان بأيديهم من « النوافل » غنيمة سهلة بين أيدي الموحدين الذين رأوا أن ينتهوا في يومهم هذا من أمر تاشفين ، فاستخدموا الخطب الذي كان في محله في إحراق

(١١٤) الخلل المشية، ص ١٣٣.

(١١٥) الخلل المشية، ص ١٣٣.

(١١٦) ابن عذاري، الموحدون، ص ١٦- حيث زحف عبد المؤمن من تلمسان، وفي مقدمته الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى، وبنو مانو من زناته، فقصد إلى بلاد بنى يلومي، وبنى عبد الواد، وبنى يوسف، وبنى توجين، واثخنوا فيهم حتى دخلوا في دعرتهم، وقدم على عبد المؤمن رؤسائهم. وكان منهم سيد الناس ابن أمير الناس : شيخ بنى يلومي، فعلقاهم بالقبول، وسار بهم في جموع الموحدين إلى وهران فلقعوا لثرتهم بمسكرهم فقتلهم..... وقارن ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١.

(١١٧) ابن عذاري، الموحدون (هـ.ش)، ص ١٦.

أبواب الحصن الذى ظل يشتعل حتى وقت العتمة. وحينئذ أيقن تاشفين بالهلاك فانتهاز فرصة ظلام الليل ، واندفع فى صحبة ٣ (ثلاثة) من الأصحاب المقربين ، على فرسه الريحانة السريعة العدو . ولجج الأمير الفارس فعلا فى اجتياز سياج النيران . أما عن أصحابه فقد أحرقت لحية العليج (الرومى) بشير ، وكذلك عرف فرسه وذيله ، بينما سقط صندل الفتى فى النار وصار فحمة ، وأما ثالثهم : ابن مزدلى فدخل بين الأموات حول الحصن ، ثم تسلل خفية حتى لحق بسور وهران ، مبهوث العقل ، قبل أن يموت بعد ٣ (ثلاثة) أيام (١١٨).

وسار تاشفين يتبعه بشير الرومى مع انحدار الوادى نحو البحر حيث الأرحاء التى كانت تطحن القمح ، وعندما اعترضهم أصحاب الرحي اندفعوا مسرعين فنجوا بشير ، وزلقت رجل ريحانة ، فرس تاشفين ، وستطعت فى حافة عظيمة ، فاندق عنق الفرس ، ومات تاشفين صريعا فوق الصخور ، وذلك فى ليلة ٢٧ من شعبان سنة ٥٣٩ هـ / ٢٤ فبراير ١١٤٥ م . وفى الصباح عشر الموحدون على جثة الأمير تاشفين ميتا لا إصاصة فيه ، فقطع رأسه وسير به إلى تينمل ، بينما صليت جثته على باب حصنه (١١٩).

ولأبأس أن كانت نهاية الأمير تاشفين الأليمة موضوع قصص حزنى مؤثر ، يختلط فيه التاريخ أحيانا بالقصص الفلكلورى (الشعبى) . من ذلك ما رواه الكاتب الأشيرى عن مأساة الحريق فى الحصن الملجأ ، حيث القول : إنه لما آيس تاشفين من الحياة لما جلبه الموحدون من الحطب وأشعالهم النيران من كل جانب ، فكان يأخذ ذخائره وأثوابه ويرمى بها فى النار بيده ، وودع أصحابه ، وأفتحهم

(١١٨) ابن عذارى، المرحدون (هروى)، ص ١٦، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣١- حيث : نجأ تاشفين إلى رابية هناك، فأحرقوا بها، واضرموا النيران حولها حتى غشيهم الليل، فخرج تاشفين من الحصن وركب على فرسه فتروى من بعض حافات الجبل وهلك فى ٢٧ رمضان ٥٣٩ هـ / ٢٤ فبراير ١١٤٥ م. ويعد رأسه إلى تينمل.

(١١٩) ابن عذارى، المرحدون (هروى)، ص ١٦-١٧- حيث الإشارة إلى أن من تحصنوا فى دار تاشفين التى سموها حصنا، والذين بلغ عددهم ٣٠٠ (ثلاثمائة) رجل، من: حشم، وحشد، وزوم، فقد قتلوا أجمعين إلا ٧ (سبعة) : منهم أبنا مزدلى، وإلى تلسان، الذين وحدوا.

الخروج على النار من بابه فوجدوه صبيحة تلك الليلة ميتا لم يوجد فيه أثر طعنة ولا ضربة (١٢٠).

ما بين الحقيقة والأسطورة:

أما عن القصة الفلكلورية الموجودة في البيدق ، فهي تدل على اختلاط التاريخ بالحكايات عبر الزمن ، وكذلك بسبب سوء حفظ المخطوطات واختلاط أوراقها ، وإعادة ترتيبها بشكل غير منهجي. ويظهر ذلك فيما نحن بصدده من نهاية تاشفين. عندما يبدأ الحدث التاريخي جديا باقلاع الموحديين من تيفسرت والنزول بين الصخرتين ، بينما كان تاشفين في سطيفسيف محلته ، « وكان بيننا القتال في كل يوم ، مدة من شهرين » ، ثم تأتي الأسطورة فجأة في طلوع الأسد متاع تاشفين ، « فهرب إلينا بسلسلته ، ويات عندنا ، وعشاء الخليفة ، وقال للموحديين : البشارة ... فلما أصبح رجع الأسد إلى مولاه » . وبعد هذا تأتي الإشارة إلى قصة الأسد الذي كان في مجلس البيعة ، ومقاله الكاتب الأشيرى في ذلك من القول.

فرح الشبل ابتهاجا بالأسد ورأى شبه أبيه فقصد (أنظر فيما سبق ، ص ١ - ٢٨٠) . ومن ثم ترجع القصة التاريخية بين القتال في تلمسان مع صنهاجة بقيادة ابن ميمون بن المنتصر ، حيث انتصر الموحدون ، وتبعوا البصنهاجيين من بين الصخرتين إلى باب المدينة ، وانتهى الأمر بتوحيد ابن ميمون ... ووعده بأن يكون من قواد عبد المؤمن في فتح الشرق الصنهاجي (١٢١) .

هذا . وإن كان المرابطون بقيادة كل من تاشفين وأنجمار وابن وانجي (عبد الله بن أبي بكر) وتيتيلا قد نجحوا في هزيمة ابن زجو في جبل ينوك عندما بعثه عبد المؤمن جديدا للموحديين ، ثم اتهم انجمار إلى وهران . وكان على أبي حفص عمر الهنتاتي أن يتبع أثرهم في ٨٠٠ (ثمانين) ساقة (فرقة) من الموحديين والزنايين ، فينزل تاشفين مع انجمار بوهران ، وينزل ابن انجي في جبل صلب الكلب ، بينما (١٢٠) ابن عذاري ، الموحدون (هوي)، ص ١٧ . (١٢١) البيدق ، ص ٨٩ .

ينزل تيتيلا بالمدينة . أما الشيخ أبو حفص فنزل في إثرهم على عين وهران . وفي صبيحة اليوم التالي هرب الحجار إلى الصحراء ، وابن ونجى إلى المغرب ، وتركوا تاشفين وحده مع تيتيلا . وعندما أحاط أبو حفص بتاشفين وحصره ، وأطلق النار في باب الحصن ، فخرج عند ذلك تاشفين راكبا على فرسه ورحانة ووقع في عسكر أبي حفص ، وهو هارب يريد البحر ليدخل القطائع ، فبينما هو سائر إذا بحافة فتركته فرسه في تلك الحافة ، ومات .

فلما كان الصباح وجده الموحدون ميتا في تلك الحافة ، وتحت فرسه ، فأخذوا فرسه (فكانها لم تمت) ، وقطعوا رأسه وبعثوا بها إلى أمير المؤمنين فصبّره ووجهه إلى تينمل بشرى لأبي يعقوب يوسف بن سليمان ، ووسنار بن عبد الله ، وأبو عمران موسى بن الحسن ، ومحمد بومور .

وانتهى الأمر بقتل تيتيلا وغيره من أصحاب تاشفين ، لم يسلم منهم إلا واحد فقط ، اسمه : سيد الملوك بن يزد عسّيت السدراتي ، «وبه افتدت فندة بنت علي وابنتها من قاس ، من عقد الصحراوي» (١٢٢) .

ومن ذلك رواية عبد الواحد المراكشي التي نقوله : إن تاشفين خرج من تلمسان قاصدا وهران ، فحاصره الموحدون ، فلما اشتد عليه الحصار خرج راكبا فرسا شهيا ، وعليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ... (١٢٣) . أما رواية ووض القرطاس (ص ١٨٨) فتقول إنه لما اشتد الأمر على تاشفين خرج وجمع من جسده من وهران بالليل ليضرب في محلة عبد المؤمن ، وكانت ليلة مظلمة ، فتردى به فرسه من شاهق الجبل ، فأصبح ميتا بساحل البحر

وأخيرا فهناك الرواية المتعاطفة مع الأمير المرابطي ، والتي تقول إن مصرعه كان بعد خروجه من رباط العباد الذي كان في ربة مظلة على البحر بظاهر وهران والذي سار إليه الأمير التعس ليهتارك - في وقت شدته - بحضور ختمة القرآن بمناسبة

(١٢٢) البديق، ص ٨٨ (والصحرادي هو : يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين) .

(١٢٣) المعجب، ص ٢٠٢ .

ليلة ٢٧ من شعبان المباركة ، وإن الاحاطة به كانت من قبل أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وهو فى داخل الرباط المقدس ، من حيث خرج ليلقى مصرعه فى إحدى حافات الجبل ، كما هو متعارف عليه فى جميع الروايات (١٢٤).

فتح وهران وتلمسان :

وهران : مأساة تليق بمصرع الأمير

بعد مقتل تاشفين وتبدد رجاله انتهت حرب المطاردة وبدأت حرب الحصار لتصفية جيوب المقاومة المرابطية فى عواصم البلاد المغربية الرئيسية ، وكانت وهران حيث نهاية تاشفين أول تلك المواقع بطبيعة الحال . فلقد لجأ الناجون من المقربين من القيادة المرابطية إلى حصن وهران ، لكنهم يعانون متاعب الحصار مدة شهرين ، وقد انقطع عنهم الماء حتى عطشوا وطلبوا الأمان من الموحدين ، فلم يجيبوهم إلى الأمان إلا على حكم الأمير عيد المزمين . وامتنع المحاصرون رغم ماكانوا يكابدونه من قلة الماء والعطش لمدة شهر ثالث ، ثم أنهم قبلوا الاستسلام بدون قيد أو شرط لكنهم بنجوا من الهلاك عطشا ، ولكنهم استؤصلوا بالسيف (١٢٥).

(١٢٤) ابن الأثير، ج-١، ص ٥٨٠- إلى جانب رواية الاحاطة بالحصن (القصص).
(١٢٥) ابن عذارى، الموحدين (هوى)، ص ١٧- حيث الإشارة إلى رواية الكاتب الأشيرى التى ينقلها عن شاهد العيان الحسن الطراز الذى حضر الحصار بوهران، حيث كان العطش ينتهى بموت ال ٣ (ثلاثين) وال ٤٠ (اربعين) من النساء والرجال فى اليوم الواحد، مع النص على أنه عندما سمع للناس بالفرج فأنهم انظروا على الماء حتى مات بعضهم. والأخطر من ذلك أن الأوامر صدرت من عيد المؤمن- "قبحه الله"- بقتلهم، فاستؤصلوا عن آخرهم. ومثل هذا ما تشير إليه رواية ابن بجير المرابطية أيضا (نفس المرجع)، من أن معظم المحاصرين فى وهران ماتوا عطشا إلى أن خرجوا على حكم البرابر الدين يسمون الموحدين، فقتلهم أجمعين، كبارا وصغارا، بعد ٣ أشهر (الأصل أيام) من قتل تاشفين- وذلك يوم عيد الفطر سنة ٥٣٩هـ/ ٢٧ مارس ١١٤٥م (فى الأصل ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م). وقارن عيد الواحد المراكشى، المعجب، ص ٢٠٣- حيث وفاة تاشفين سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، وروض القرطاس، ص ١٨٧- حيث "فتح عيد المؤمن وهران وتلمسان فى ٢٧ من رمضان سنة ٥٣٩هـ/ فى ٢ مارس سنة ١١٤٥م- نقلًا عن ابن صاحب الصلاة، وقارن ابن حلدون، ج ٦ ص ٢٣١- حيث : ولجأ أهل العسكر إلى وهران وانحصروا مع أهلها حتى جهدهم العطش، ونزلوا جميعا على حكم عيد المؤمن بعيد الفطر سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م.

فتح تلمسان ،

بعد مقتل تاشفين أمام ساحل وهران في ٢٧ شعبان ٥٣٩ هـ / ٢٠ مارس ١١٤٥م جزع من كان بتلمسان من اللمتونين ، وخرجوا من المدينة ، وكذلك الأمر بالنسبة لتاجررت ، فلم يبق فيها إلا العامة والحضر والسوقة . وأمام تحلى المرابطين عن الدفاع عن المدينة التي أصبحت مفتوحة أمام الموحدين ، خرج وفد من أعيان أهلها ، بقدر عددهم بنحو ٦٠ (ستين) رجلا للقاء السيد : أبى محمد عبد الله بن عبد المؤمن يعلنون الطاعة ويتديرون فيه ما يكون من شأن تلمسان . وفي الطريق التقى الزعيم يصلاتن الزناتي ، حليف عبد المؤمن ، بذلك الوفد التلمساني عند وادي تافنا ، فلم يتردد في الإيقاع بهم وقتلهم عن آخرهم في التو والحين . وكان لخبر مقاتل أهل تلمسان رنين خوف وقزع عند عبد المؤمن نفسه ، «لأن يصلاتن كان تحت طاعته بجماعته وجماعته» (١٢٦).

والأمر المستغرب أن سوء الظن في عبد المؤمن تأكد عندما وصل إلى حوز تلمسان في ٣٠ رمضان سنة ٥٣٩ هـ / ٢٢ أبريل ١١٤٥ م ، بعد ٣٣ (ثلاثة وثلاثين) يوما من مصرع تاشفين ، وذلك أنه نفذ حكم الله (الإعدام) في التمساء من أهل ضاحية تاجررت ، وذلك في ثانی أيام عيد الفطر (٢ شوال / ٢٤ أبريل) - الأمر الذي يؤيد ما عرف عن المؤمن من الاستهانة بالدماء . ونقول رواية الأشيري بعد ذلك ، إن الموحدین دخلوا الضاحية (تاجررت) ، «فرتبوا سورها . وقسموا دورها» بينما فرّ يحيى بن الصحراوية الذي كان خارجها إلى فاس ، في الوقت

(١٢٦) ابن عذاري، الموحدون (هريش)، ص ١٨- حيث النص على أنهم قتلوا أجمعين ولم يبق إلا اثنان- فزاد خوفهم، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣١- حيث : وبلغ خبر مقتل تاشفين إلى تلمسان مع ثلث لمتونة، وفيهم : أبو بكر بن ولوط، وسير بن حاج، وعلى بن ملو في آخرين، ففر معهم من كان من لمتونة. وقدم عبد المؤمن فقتل من وجد يتكررت (تاجررت) بعد أن كانوا بعثوا ٦٠ (ستين) من وجوههم فلقبهم يصلاتن من مشيخة بنى عبد الواد وقتلهم أجمعين.

الذى وافاهم فتح سجلماسة والقلعة وغيرهما (١٢٧).

هذا عن تاجرت الضاحية أما عن المدينة تلمسان الأصلية التى كان على ولايتها الفقيه عثمان ، والتى عرفت بحصانتها ، فتطلب الأمر نصب الأبراج عليها ، وضربها بالمجانيق، والهجوم على أسوارها بالمدببات . ومع كل ذلك صمدت المدينة ضد الحصار لمدة تقرب من العام قضى منها عبد المؤمن مدة ٧ (سبعة) أشهر قبل أن يغادر إلى قاس - بعد أن جعل مكانه على الحصار سليمان بن وانودين الهنتاتى - وذلك فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠ هـ / نوفمبر ١١٤٥ م . وإذا كانت الرواية تقرر أن الأمر انتهى بعد تلك المعاناة بضجر أهلها الذى ن ادخلوا الموحدين إليها دون علم الفقيه عثمان فإن القصة امتنعت من فيها من خاف على نفسه (١٢٨) . والمهم أن أهل تلمسان لقوا عقوبة قاسية مثل أهل وهران ، فقتل أكثرهم ، وسببت الذرية والحريم ، ونهبت الأموال . وفى ذلك قبيل إن عدد القتلى فيها بلغ ١٠٠.٠٠٠ (مائة ألف) قتيل ، الأمر الذى استوجب أن تنتهى الرواية بالنص : «وقيل أن عبد المؤمن هو الذى حصر تلمسان» - فكانه الخليفة السفاح (١٢٩).

(١٢٧) ابن عذارى الموحدون (هريشى) ، ص ١٨ ، أما عن رواية ابن بجير المرابطية (نفس الصفحة) ، فهى نفس أيضا على أنه لما قرب عبد المؤمن من تلمسان، خرج اليه الطلبة والأعيان والصبيان بالالواح (الأصل : والالواح والصبيان) يرغبون العفو عنهم، فجردهم الموحدون من أثوابهم (فكانتهم الهلالية من العرب فى أفريقيا)، وقارن ابن الاثير، ج ١٠ ص ٥٨٠-٥٨١ - حيث أنه بعد (دخول وهران بالسيف) صار عبد المؤمن الى تلمسان، فدخل تاجروت وقتل أكثرهم وهرب منها يحيى بن الصحراوية، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣١ - حيث : ولما وصل عبد المؤمن الى تلمسان، استباح أهل تاكرت، لما كان أكثرهم من الحشم ، وعفا عن أهل تلمسان ورحل عنها بعد ٧ (سبع) أشهر من فتحها، وولى عليها سليمان بن وانودين، وقيل : يوسف بن وانودين فى رواية أخرى يقول : ثم اعتزم الرحيل الى المغرب، فتركه ابراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان.

(١٢٨) ابن عذارى، الموحدون (هريشى) ، ص ١٨-١٩ .

(١٢٩) ابن الاثير، ج ١ ص ٥٨٢ ، وقارن روض القرطاس، ص ١٨٨ - حيث : ودخل عبد المؤمن وهران عنوة فى المحرم سنة ٥٤٠ هـ / يونيو ١١٤٥ م، وفى صفر التالى دخل تلمسان، وفرعها لثلاثة الى أكدير (أجادير) : الأجزاء السفلى (السور) - فى مقابل الأحياء التى اسمها المرابطون، وتسمى تاجرت (يعنى الحصن أو القصة)

فتح منطقة السوس الأدنى فاس ومكناسة وسلا وسبتة وطنجة

فاس :

كان حصار تلمسان وسقوط وهران ومن ثم هروب الزعيم المرابطي الصحراوي إلى فاس سببا مباشرا في توجيه أنظار عبد المؤمن إلى مدينة الأدارسة والعاصمة السياسية والدينية التقليدية لبلاد المغرب الأقصى قبل ظهور مراكش التي أعطت اسمها للبلاد كما القيروان بالنسبة لأفريقية التونسية.

ومن المهم الإشارة بادئ ذي بدء إلى أن الاستيلاء على فاس العاصمة الإقليمية لم يكن من الأمور السهلة ، وأنه تطلب أعمالا عسكرية جانبية مساعدة ضد البلاد المحيطة بفاس أو التابعة لها بحكم الموقع الجغرافي والتاريخ السياسي والحضاري ، مثل : مكناسة (الزيتون) القريبة في الغرب ، وسلا على فم بورجرج (أبو الرقراق) أو طنجة وسبتة على طرفي المجاز (إلى الأندلس).

وكان من الطبيعي أن يقع على عاتق عبد المؤمن نفسه أن يقود حصار فاس بقواته الرئيسية وإن يحكمه مع الاستفادة من الظروف الطبيعية الخاصة بالمدينة التي كانت تنقسم مثل تلمسان إلى مدينتين أوحيتين (عدوتين) ، هما عدوة القرويين وعدوة الأندلس ، واللذان ينصل بينهما وادي فاس (رافد وادي سبو) ويحيط بكل منهما سور حصين.

فبعد رحيل عبد المؤمن عن تلمسان في ربيع الأول سنة ٥٣٩ هـ / أغسطس-سبتمبر ١١٤٤م اجتمعت حوله الوفود والحشود من كل مكان ، وسار الجميع نحو مدينة فاس . ولكي يتعرف على أحوال المدينة أرسل جريدة من الخيل والرجال لاستكشاف ماكان أعمده واليها يحيى الصحراوي للمقاومة والدفاع . وعندما صعدت جريدة الاستكشاف إلى الجبل ليلاً ، خرج إليها عسكر من المرابطين في نحو ١٥٠٠ (الف وخمسمائة) رجل ، فما كان من جماعة الاستكشاف إلا العودة على

أعقابهم إلى عبد المؤمن في محلته بـ «عقبة البقر» ، وقد ملأت قواته خارج المحلة في السهل والوعر.

وعندئذ بدأ عبد المؤمن بعرض عساكره الذين بلغوا ٨٠ (ثمانين) فرقة (ساقة) علي عدد القبائل ، على رؤوس كل جماعة منها بنودها الخاصة ، وجازوا وادي فاس وحدة وراء أخرى ، وذلك أمام ناظري الصحراوي قائد فاس وبوالها الذي كان واقفا بجبل العرض ، يراقب جموع الموحدين وينردهم (١٣٠).

وهكذا نزل عبد المؤمن بجموعه من «عقبة البقر» إلى جبل العرض ، حيث ارتفعت رايته المنصورة ، وحيث بدأت أعمال تهديد الدروب الآمنة باستخدام الأشجار والألواح ، لتحرك الرجال حول المحلة دون مخاطر الطريق الوعر ، واتقاء لما قد يعده العدو من الكمائن ، أو المفاجآت التي قد تعرض للعسكر من خارج فاس.

حصار مكناسة :

ومن باب الاحتياط أيضا كان على عبد المؤمن أن يرسل عسكرا استكشافيا إلى مكناسة القريبة . وكان من الطبيعي أن تكون مقاومة المرابطين قوية في آخر ملاجئهم في قلب المغرب الأقصى (بلاد السوس الأدنى) . ولعلنا كان قد خرج من مكناسة عسكر مرابطي بقيادة القائد ولجوط اللمتوني الذي نجح في هزيمة العسكر الموحيدي . وكان هذا النصر المرابطي سببا في تحول مكناسة إلى مركز مقاومة يعمل له الحساب . فلقد تضخمت قوات مكناسة التي كانت تحوي نحو ٣ (ثلاثة) آلاف

(١٣٠) ابن عذاري، الموحدون (هويشي)، ص ١٩، ولزهد من التفاصيل انظر البيهقي،

ص ٨٨-٩١، حيث توحيد وحدة ومواجهة الموحدين لعدد من الثوار المحليين، مثل : ثائر أجريسيف الذي خرج اليه يصلاتن بن العز، واستقبال القائد ابو بكر يحيى بن الجير لعبد المؤمن عند وصوله من تلمسان وتقديم وحدات من عسكره اليه بحيث أصبحت القوات الموحيدي منقسمة بين الخليفة وابن الجير الذي كان له نشاطه في اعمال الاستكشاف الى جانب أعمال الحصار مع عبد المؤمن، قارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٩- حيث يقصد عبد المؤمن فاس سنة ٥٢٩ هـ / ١١٤٤ م، وقد تحصن بها يحيى الصحراوي من قبل تاشفين بتلمسان، ونزلهم عبد المؤمن، وبعث عسكرا لحصار مكناسة .

فارس «من الحشم والروم وغيرهم» ، وعين انضاف إليهم من الخلق ، من : القبائل القريبة منها ، وبذلك تطلب الموقف مسير عبد المؤمن بقواته الرئيسية لمحجده لعسكره ، بعد أن ترك على حصار فاس قائده أبا بكر يحيى بن الجبر مع جماعة من الموحدين يصحبهم الشيخ أبو ابراهيم (اسماعيل ايجيج) وغيره (١٣١).

وهكذا وصل عبد المؤمن إلى مكناسة واجتهد في ضرب الحصار عليها (١٣٢). وفي حصار مكناسة يقتبس صاحب الحلل الموشية نصا مهما يقول فيه : ان عبد المؤمن كان قد أرسل ٦ (ستة) آلاف فارس من رقانة؛ ومكلاهم وزناتة وكزنابة الي محاصرة مكناسة فبنوا عليها سورا ، وحلروا أمامه حقيرا ، وكان أهلها في سجن لايقدرن على الخروج منها شرقا ولاغربا .. وتركوا فيه أبوابا يدخلون منها لقتال أهل البلد ، وكانت الحال على ذلك عندما غادر مكناسة إلى سلا(*) وعندما أطمأن إلى السيطرة على الموقف في المنطقة ، أمرأباحفص عمر بن يحيى الهنتاتي بالعودة إلى فاس لمعاونة أبي ابراهيم (اسماعيل بن ايجيج) في إحكام الحصار عليها.

سقوط فاس :

وتعزو رواية البيهقي والتي يلخصها ابن عذاري سقوط فاس بين أيدي الموحدين إلى مقام من النزاع بين واليها (يحيى) الصحراوي ، والمشرف على جباية المال فيها : الجياني ، بسبب حاجة الصحراوي المتزايدة إلى الأموال ، الأمر الذي دعا الجياني (أبو محمد عبد الله بن خيار) إلى مكاتبة القائد الموحي أبي بكر يحيى بن الجبر وترغيبه في أن يملكه من البلد ، حيث كانت مقامحيها تبث لديه. وبعد ليلة

(١٣١) بن عذاري، الموحدون (هريشي). ص ١٩ ولزبد من التفاصيل أنظر البيهقي، ص ٩٠-٩١ حيث النص على ان جماعة الاستطلاع (تيطاف بالهريشة) التي ارسلها عبد المؤمن الى مكناسة تعرضت لهجوم من قبل قطعة من العسكر المرابطي بقيادة يثربن وجرط الذي قتل الرجال الثمانية الذي يكونون جماعة الاستكشاف الذين يهددهم البيهقي. الأمر الذي أثار عبد المؤمن الذي غضب غضبا شديداً ، وميز الموحدين في يوم جمعة وخرج الى مكناسة بعسكره من المعلة بالليل.

(١٣٢) ابن عذاري، الموحدين (هريشي). ص ١٩ .

* الحلل الموشية ، ص ١٣٦ .

عرس انشغل بها الصحراوي عن المدينة، لم يشعر إلا رجال الموحدون على السور فكسر قفل باب الفتوح وخرج منه (١٣٣) ، بمعنى أن فاس سقطت بين أيدي الموحدين وكأنها مدينة مفتوحة دون قتال. وعلى العكس من ذلك فإن الرواية التي يقدمها ابن أبي زرع تقرر العكس من ذلك تماماً ، وهو الأمر المقبول فعلاً . فحسب رواية القرطاس هذه كان سقوط فاس على يد عبد المؤمن - الذي رجع من حصار مكناسة بصحبة أبي إبراهيم (إسماعيل ابن إبيج) . وحينما وجد صعوبة اقتحام المدينة الحصينة بالقوة العسكرية رأى لتحقيق ذلك أن يحسن استخدام المظاهر الطبيعية في المنطقة . فبعد الحصار الشديد قطع عبد المؤمن النهر الذي كان يدخل عبر قنوات صغيرة، إلى كل بيوت المدينة ويمبرها بالماء الجاري، وذلك بواسطة استخدام «الألواح والخشب والبناء حتى انحصر الماء فوقها في الوطاء . فوصل إلى مركزه ، ثم خرقه (عبد المؤمن) فهبط الماء عليهم ، دفعة واحدة ، فهدم سورها . وهدم من دورها ما يزيد على ٢٠٠٠ (الفى) دار ، وهلك به خلق كثير» (١٣٤).

(١٣٣) ابن عذاري ، الموحدون (هوشى)، ص ١٩ ، وانظر أيضاً ص ٢٠ - حيث رواية ابن صاحب الصلاة التي تقول أن الصحراوي كان تعرس بأمرأة من قبيلة لى ١٢ ذى القعدة / ٨ ماية نبت إليه الجياني ببطعام وشراب ليشغله به تلك الليلة . فلما كان صبيحة اليوم المذكور أدخل (الجياني) الموحدون المدينة، ودارن البندق، ص ٩١-٩٢ حيث التفاصيل الشاملة والمرهقة ، من أصيلة وموضوعة مما أصيب إلى أخبار المهدي بن تومرت على مر الزمن. والنموذج لذلك تفصيلات كسر قفل باب الفتوح- حيث "وقال الصحراوي لعبده خرز : افتح لنا الباب فأخذ خرز الشاطر متاع الحياء، فضرب به رزة العمود وطبرها، وفتح الباب، وخرج الصحراوي وهبط إلى سبر هاربا هو وعسر بنتان، ويحيى بن سبر، وكدال بن موسى... ودخلوا آمروجو ومحضروا قيه، ولم يدخل الصحراوي معهم، ومضى هاربا إلى الأندلس.

(١٣٤) روض القرطاس، ص ١٨٩ ، وقارن الحلل الحوشية، ص ١٣٦- حيث صعوبة الحصار قبل اطلاق الطوفان على المدينة وتهديم السور، ومن ثم ترميم السور. الأمر الذي أطال الحصار، وجعل الجياني يعرض المعاونة لى فتح المدينة نظير الأمان، وقارن ابن خلدون، ج ٩ ص ٢٣١-٢٣٢- حيث المعسكر المحاصر لفاس بقيادة كل من الشيخين : أبي حفص، وأبي إبراهيم من العشرة.

وهذه الرواية موجودة ضمن نصوص البيدق المتنوعة . هذا ، ويفهم منها أن الفتح جاء على مرحلتين : الأولى ، وتتمثل في قطع النهر ثم إطلاق الماء المتجمع فيه دفعة واحدة فألحق بالمدينة ما ألحق من الأضرار ، ولكن بعض نصوص البيدق تقرر أن الصحراوي ، فرج برجاله ولجج في إصلاح ما تهدم من السور ، وأن ذلك حدث قبل مسير عبد المؤمن إلى مكناسة ، فهذه مرحلة أولى صمدت فيها المدينة لمعصر . وان الفتح الحقيقي هو الذي تم بالحيلة نتيجة اختلاف صاحب المدينة الصحراوي والمشرع على جباية المال بها : الجبائي (١٣٥) .

هذا ، ولابأس أن يكون ذلك الفتح التدميري ، متزامنا مع قضية الاختلاف بين الراي الصحراوي وبين المشرع الجبائي على جباية الاموال . وأوجه صرفها ، الأمر الذي أدى إلى تأمين أهل المدينة ، واستثناء من كان بها من اللمتوين المرابطين الذين « لم يرضا لهم أمان ، وقتلهم (عبد المؤمن) قتلة كفر » .

كما أمر بالسور فهدم فيه ثلثات كثيرة لمسافات طويلة ، وقال : « إنا لا نحتاج إلى سور ، وإنما الأسوار سيوفنا ومعدنا » (١٣٦) ، وذلك تعبيراً عن أن الدولة الموحدية الناشئة كانت في طور البداوة ، وهي في طريقها إلى التمدن والحضارة (١٣٧) - حسب نظرية ابن خلدون في قيام الدول وزوالها بعد الوصول إلى ذروة الحضارة المؤقتة بعبارة الفساد .

هكذا يكون الموحدون قد استولوا على فاس بالعمل العسكري - المدني إلى جانب العمل العسكري الاستخباري (الجاوسي) بعد ٧ (سبعة) أشهر من الحصار . وقتما كان عبد المؤمن محاصراً لمكناسة ، وذلك في ١٣ من شهر ذي القعدة من سنة ٥٤٠ هـ / ماية ١١٤٦ ، ووصل عبد المؤمن على جناح السرعة إلى فاس ، وبعد ٤

(١٣٥) البيدق، ص ٩٠-٩١ .

(١٣٦) اروض القرطاس، ص ١٨٩ .

(١٣٧) انظر اروض القرطاس، ص ١٨٩- حيث : " فلم تزل مدينة فاس لاسور لها حتى باء حبيده المنصور ومن بعده الناصر " . وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٢- حيث حصار المدينة لمدة ٧ أشهر ثم داخلهم ابن الجبائي فسرب البلد وأدخل الموحدون ليلاً .

(أربعة) أيام رحل عنها بعد أن عهد بولايتها إلى اسحاق بن جامع ، مع استمرار مشرقها عبد الله بن خيار الجباني (على الضرائب) (١٣٨) .

خضوع سيبة :

وفي تلك الأيام الأخيرة من سنة ٥٤٠ / ١١٤٥ م ، وصلت كتب أهل سيبة بالسمع والطاعة ، والدخول في التوحيد : حزب الجماعة (١٣٩) . كما « وصل إلى عبد المؤمن الزعيم المرابطي : يحيى بن اسحاق المعروف بالتحجار (انكمار) في جملة من إخوانه ، وكلهم ملثمين ثم أزالوه (اللاثام) بظاهر مدينة فاس ، وصاروا في زى الموحدين (١٤٠) - الأمر الذي يعنى استكمال التوحيد شكلا في نفس الوقت . هذا ، كما كان من بين الواقدين على عبد المؤمن في فاس من المرابطين ، الوزير عمر بينتان الذي كان قد فر من خدمة أمير المسلمين الجديد « اسحق بن علي » من مراكش ، والذي كان قد حل في ظروف مضطربة مناقسا الأمير : أبي اسحق ابراهيم بن تاشفين الصبي الصغير ، رغم انه كان قد ارتد قبل دخوله فاس . وكان العفو عنه بناء على ما كان من وصية ابن تومرت على ذرية بينتان (وزير علي بن يوسف بن تاشفين) سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م - بعد المناظرة بين الامام وفقهاء ، مراكش (مسبق ، ص ١٨٤ و ١٦٩) .

(١٣٨) ابن عذاري. الموحدين، ص ٧٠، وقارن البيهقي، ص ٩٧- حيث ترك عبد المؤمن في فاس ، محمد بن يحيى الجندوبى بدلاً من ابن الجامع. وقارن ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢- حيث فلما فتح تلمسان (ابن جامع) ارتحل الى عبد المؤمن، وهو محاصر فاس، فاعترضه في طريقه المنحصب بن عمر أمير بني مرين ونالوا منه، فكتب عبد المؤمن الى يوسف بن وانودين عامل تلمسان أن يجهز اليهم العسكر، فبعثها في صحبة عبد الحق بن منقاد شيخ بني عبد الواد، فأوقعوا بني مرين وقتل المنحصب أميرهم .

(١٣٩) ابن عذاري، الموحدين (هريش)، ص ٧٠، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٢- حيث النص على انه لما ارتحل عبد المؤمن من فاس الى مراكش في طريقه بيه أهل سيبة، فولى عليهم : يوسف بن مشلوف من مشيخة هنتافة.

(١٤٠) نفس المصدر السابق.

استسلام سلا :

بعد ترتيب عبد المؤمن أمور فاس ، واطمئنأته إلى حصار مكناسة ، وخضوع سبتة ، أصبح الطريق ممهداً للمسير إلى مراكش ، أول أهداف الموحدين منذ بدأ الصراع بينها وبين تينملل - مهد ابن تومرت - وكانت أولى محطات الطريق إلى مدينة مراكش هي مدينة سلا (ضاحية الرباط ، العاصمة الحالية) (١٤١). وعند وصول عبد المؤمن بقواته إلى سلا امتنع أهلها - بسبب حصانة مدينتهم وخاصة من جهة البحر ، ولكن الظروف كانت مواتية من حيث انحسار البحر وقتل الأمر الذي مكن العساكر من أن يعبروه بأكملهم ، دفعة واحدة . ولذلك تمكن الموحدون من الاستيلاء عليها من ساعتهم ، وقبل أن يأخذوا راحتهم وذلك في ٧ من ذي الحجة سنة ٥٤٠ هـ ٢٢ مايه ١١٤٦ م (١٤٢). هذا ، وتفسر رواية ابن بجير المرابطية التي يوردها ابن عذري ، بعد ذلك ، أن الذي ساعد على سهولة فتح سلا بهذا الشكل ، ماكان من الاتصالات السرية بين الموحدين وبين رجل يسمى ببورك - أغلب الظن أنه كان من حراس السور - هو وولديه : محمد وعلي . وفي ذلك تقول الرواية إن الرجل وولديه « أرسلوا إلى الموحدين فوصلوهم ليلاً ، ووضعوا السلالم على السور ، وقتلوا الحراس ، ودخلوا المدينة ، ووجدوا فيها أناسا وهرب آخرون في حلق الوادي (فم النهر) فرجع عليهم (مد) البحر فغرقوا » (١٤٣).

(١٤١) انظر الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٣٨-٢٣٩- حيث تسمى سلا الجديدة (في مقابل شالة القديمة) . وهي على الضفة البحر الملح ، منبوعة من جانب البحر.... وهي حسة حصينة في ارض رمل ، ولها اسواق نافقة وتجاراته ، ودخل وخرج.... ومر ساها مكشوف ، ولما توسى المراكب بها في الوادي.... وتجاوز المراكب على فمه بدليل (مرشد).... وهذا الوادي يدخله المد والجزر في كل يوم مرتين.... فإذا كان المد دخلت المراكب به الى داخل الوادي ، وكذلك تخرج في وقت خروجها.

(١٤٢) ابن عذري ، الموحدون (هوي)، ص ٢٠ . وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٢ ، حيث النص "على انه لما مر عبد المؤمن على سلا ، فافتتحها بعد مواقع قليلة ، ونزل فيها بدار ابن عشرة .

(١٤٣) البيان المغرب ، الموحدون (هوي)، ص ٢١ .

وهكذا نال أهل سلا الأمان والأمن . وكذلك الأمر بالنسبة لحامية الرباط (القصبة) ، ونزل عبد المؤمن في دار (رئيس المدينة) ابن عشرة ، حيث أقام ٤ (أربعة) أيام ، وذلك أنه خرج في غدوة عيد الأضحى في ١١ ذي الحجة / ٢٦ مايو في طريقه إلى اخضاع مراكش العاصمة (١٤٤) .

طنجة وسبتة ،

لما تم فتح فاس هرب واليها يحيى الصحراوي في قطعة من عسكره يبلغ تعدادها ٣٠٠ (ثلاثمائة) رجل ، دخل بهم مدينة طنجة ، وأقاموا بها حوالي ٥ (خمسة) أشهر «في أسوأ حال من الضيق والغلاء» . وفي طنجة - قاعدة الأسطول - تم الاجتماع بين الصحراوي ورجاله وبين أمير البحر: علي بن عيسى ، الذي وصل إلى طنجة بالقطائع المرابطية من مرسى بادس (الجزائري) . وتم الاتفاق على أنه من الأفضل للصحراوي ورجاله أن يغادروا العدو الأفريقية إلى الأندلس ليدخل في خدمة يحيى بن غانية - صاحب دانية وميورقة وغرب الأندلس - على أمل المرابطين في إسبانيا دولتهم في الأندلس ، إن قدر لها الزوال من المغرب ، وإن انتهى الأمر بغدر قائد الأسطول بالصحراوي وجماعته ، وقذف بهم إلى مرسى شريش (١٤٥) - حيث كان للصحراوي نشاطه بعد ذلك في الأندلس (وفي المغرب) .

وكرد فعل على ماحدث من جانب قائد الأسطول ، سار من كان قد بقى من أصحاب الصحراوي وغيرهم من المرابطين في المنطقة إلى (قصر) مصمودة حيث القائد ابن الجبر ، ومن هناك زحفوا على طنجة حيث تم قتل القاضي إلى جانب بعض أنصاره من أهل المدينة .

وكان لمقتل قاضي طنجة صدى حزني شديد في مدينة سبتة - التي كانت قد

(١٤٤) ابن عذاري ، المرحلون (هوشي) ، ص - ٢ .

(١٤٥) ابن عذاري ، المرحلون (هوشي) ، ص ٢١ ، وقارن البيهقي ، ص ٩٢ - حيث "خالف الصحراوي الالتجاء إلى حصن أمرجو مع عمر بن يبتان ويحيى بن سيرة ، وأنه مضى هاربا إلى الأندلس ، بينما قبض أصحابه هؤلاء وقتلوا بأستثناء ابن يبتان مسجما نهى المهدي عن قتل أولاده .

خضعت للموحدين - إذ وصل إليها وصرخ صارخ أن والبيهم عزم على قتل قاضيهم: الإمام العالم ، أبو الفضل عياض - رحمه - فقتلوا والبيهم الموحدي : يوسف بن مخلوف التيمملي الذي كان عينه عبد المؤمن من قبل فتح سلا (١٤٦).

الطريق (عبرت أمسنا) إلى مراكش

ونهاية أبو اسحق إبراهيم بن تاشفين آخر المرابطين

وهكذا ، وفي هذا الوقت الذي كان عبد المؤمن يهْدُن فيه السوس الأدنى وما يتاخذه من شمال بلاد الريف البحرية ، كان قد أرسل في نفس الوقت جيشا بقيادة أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي لغزو برغواطة في اقليمهم تامسنا ، من حيث عاد بالمغنايم الكثيرة التي قسمت على الموحدين . ومن الواضح أن غزو تامسنا كان تمهيدا لفتح مراكش العاصمة الذي كان قد آن أوانه على يدي كل من الخليفة عبد المؤمن ، وأبي حفص الهنتاتي ، واللذين كان بينهما لقاء عاجل والناس علي ظهور الحمل (١٤٧).

فقد كان علي الهنتاتي أن يواصل المسيرة كمقدمة بالعساكر ، على عجل نحو مراكش ، يتبعه الخليفة بالقوة الرئيسية من الموحدين . والظاهر أن معنويات العسكر المرابطي كانت قد تددت بعد ما لقيته من الهزائم المتواترة ، في كل مكان ، إلى الخضمض . ويظهر ذلك في الرواية التي تقول إنه عندما خرجت قوات لتوتية كبيرة الحجم لمواجهة قوات أبي حفص الهنتاتي المتقدمة : «قذف الله الرعب في قلوبهم ، وفروا لآلئهم بسورهم ، بعد ما قتل منهم خلق كثير».

(١٤٦) ابن عسار، الموحدين (هوى)، ص ٢١.

(١٤٧) أنظر ابن عسار، الموحدين، ص ٢١-٢٢، قارن البيهقي، ص ٩٢-في رواية مختلفة قبل السير نحو مراكش عن طريق دكالة التي كان يَحْشَى أن يعيق محصلوها من التمتع على تمكين مراكش من مواجهة حصارها من جانب الموحدين. وفي ذلك نقول الرواية أن صنهاجة نصحت عبد المؤمن قائلة له: "بادر زرع دكالة : لا يدخل مراكش أو لا تأخذها أبداً". فكان ذلك سببا في أن غير طريقه إلى مراكش واتخذ طريق بلاد تادلا ودكالة الذين وعدوا ودخلوا في الطاعة.

أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين،

وليلى اسحق بن على

وهنا، وقبل الدخول فى تفاصيل سقوط العاصمة مراکش، يحسن البدء بمحاولة حل مشكلة القيادة المرابطية وقتئذ، وهل كانت لأبى اسحق ابراهيم بن تاشفين أم لا «اسحق بن على بن يوسف»، عمه الصبي الصغير. فرغم وضوح ولاية العهد لـ «أبى اسحق ابراهيم بن تاشفين» (مسبق، ص ٣١٢)، فإن غالبية الروايات التى تتناول سقوط مراکش، وعلى رأسها بيان ابن عذارى عن الموحدىن، تجعل أميرها الصغير هو: «اسحق» بن على وليلى «أبو اسحق ابراهيم» بن تاشفين. ولا بأس أن تكون قد قامت معارضة علنية أو صامتة لولاية «أبى اسحق» ابراهيم، بسبب الظروف الصعبة التى كانت تمر بها الدولة المرابطية، ولكنه لا توجد فى الواقع أصداء فى مصادرنا، لمثل هذا الحدث بين أحداث الأيام الأخيرة لمدينة مراکش المرابطية.

والحقيقة أنه إذا كانت رواية البيدق، وهى المصدر المعاصر والمعتمد بالنسبة لغيره من مصادر تلك الفترة المتأخرة بعض الشيء أو كثيراً، والتى توجد بين أيدينا فى شكل مضطرب من غير شك، تنص على أن أمير مراکش كان وقت سقوطها هو «اسحق» بن على، فإن ذلك لا يعنى صحة هذا الخبر الذى لا ينسجم مع خبر ولاية العهد للأمير «أبى اسحق» ابراهيم بن تاشفين، ومن ثم إمارته لمراكش العاصمة المحتضرة.

والحقيقة أنه يرجع الفضل لرواية صاحب الحلل الموشية التى ترجع إلى القرن الـ ٨ هـ / ١٤ م، فى تصحيح هذا الخطأ الذى وقع فيه المحدثون من نسخ كتاب البيدق، وكذلك القسم الخاص بالموحدىن من البيان المغرب لابن عذارى الذى انتهى الأمر بنشره أكثر من مرة بمعرفة هريش ميراندا (١٤٨).

(١٤٨) النشرة الأولى تحت عنوان تاريخ ابن بسلام بالعربية أو تاريخ مجهول : مخطوط كل من مدريد وكوبنهاجن Amonimo de Madridy Copenhagen نشر فى حريات المعهد العام والتفنى ببلنسية، نص عربى، تحقيق وترجمة هـ. هريش (ميراندا) - بلنسية (١٩١٧).

فالنسخة التي بين أيدينا من الحلل الموشية والتي تنقل عن البيدق وكذلك ابن خلدون تجعل من أبي اسحق ابراهيم بن تاشفين آخر الأمراء المرابطين في مراكش (١٤٩) ، وبطبيعة الحال لا يسعنا الا أن نأخذ بصحة تلك الروايات . أما عن تفسير تحول اسم ابراهيم في الرواية الخاطئة والدارجة - بفضل ابن عذارى ، كما نرى - فيرجع أصلاً إلى أن كنية ابراهيم ، كما هو واضح في رواية البيدق الأصلية عند صاحب الحلل الموشية وهي «أبو اسحق» ، والخطأ بين الاسم والكنية يعتبر من الأخطاء الشائعة.

وهكذا يكون آخر أمراء المرابطين ، الذي قتله الموحدون ، هو : أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين (وليس اسحق بن علي كما يرى معظم المؤرخين من الكتاب) . وبناء على ذلك تكون أخبار خروج قبيلة لطة من فحوص مراكش لحماية المدينة قد صدرت باسم الأمير أبي اسحق ابراهيم ، ولكن الموحدين تتبعوهم فادركوهم ، وقتلوهم قتلاً ذريعاً وغنموا لهم من الجمال عدداً كبيراً ، قدر به ٨٠٠.٠٠٠ (ثمانين ألفاً) حسب رواية الأشيري التي ينقلها ابن عذارى - دون تعليق على تلك المبالغة . وهو الأمر الذي استقبله والي فاس ومشرقيها : أبو محمد عبد الله الجياني بالفرح ، وهذا ما

(١٤٩) انظر الحلل الموشية، ص ١٣٨ - حيث : قال البيدق : وأمر عبد المؤمن بحمل السلام للسور... فتسددوا الأسوار، ودخلوا البلد بالسيف، وأمتنع الأمير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين مع المرابطين، وحمله (ص ١٣٩) الاغيان بداحل القصبة المعروفة بقصر الحجر، وهو حصن حصين، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣١ - حيث : "وتراث هذه الوقائع (الهزائم) على تاشفين فاجتمع الرحلة الى وهران " . "وبعث ابنه ابراهيم، ولي عهده ، الى مراكش في جماعة من لشتونة، وبعث كاتبه معه أحمد بن عطية...". وانظر أيضا ص ٢٣٢ (عن حصار مراكش) : "وأقاموا على مراكش ٧ أشهر، وأميرهم اسحق بن علي بن يوسف (وليس أبو اسحق ابراهيم السابق) وباهوه صبيّاً صغيراً، عند بلوغ خير أبيه (١) - والمهم هنا ان الكلمات الأخيرة تشكل في صحة الخبر، إذ الواضح ان المقصود هو : "ابن تاشفين ، أبو اسحق ابراهيم" .

عبر عنه شعرا ، فى بعض رسائله الرسمية إلى عبد المؤمن (١٥٠).

وانتهت المسيرة نحو مراكش المدينة بنزول عبد المؤمن فى جبل المنطقة المعروف بإيجليز ، حيث ضرب قبيته الحمراء ، وأقيمت حولها الخيام فاضحت المحلة أشبه بالمدينة ، وخاصة بعد بناء الجامع والمنصة العالية (المنظرة) التى كان يشرف منها على عساكره ، وكذلك على الخصوم فى مدينة مراكش (١٥١) . ومن هناك كان يشرف على حصار العاصمة منذ أول المحرم سنة ٥٤١ هـ / ١٣ يونيو ١١٤٦ م ، وذلك لمدة ٩ (تسعة) أشهر إلى شوال/مارس. وخلال الحصار وفدت العساكر على عبد المؤمن من قبائل المغرب ، ومن رجال الأندلس ، مثل : أبو الغمر بن عزون، الشائر بمدينة شريش (١٥٢) - الأمر الذى كان يضعف الجبهة الأندلسية من غير

(١٥٠) ابن عذارى، المرحدون (هريش)، ص ٢١-٢٢- حيث مطلع قصيدة والى فاس :

أضأت لنا الأيام واتصل النجج
وكانت اجابة عبد المؤمن على ذلك :

هو الفتح لا يجلو غرائبه الشرح
أصاب بسى التجسيم من بأسه ترح
أتقنا به البشرى على حين غفلة
بهلك قوم كان وعدهم القبح

وقارن البيدق، ص ٩٢- حيث خرج أهل مراكش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م لقتالهم، وان القتال استمر ٤ (اربعة) أيام، وكان يخرج اليها اسحق بن بينتان، ومحمد بن حوا، ومحمد بن باتكالا، وهم سلاطينهم الظاهريون، وكان اسحق صاحب الولاية، وهو صبي صغير.... وخرجوا اليها فى اليوم الـ ٥ (خامس)، وهزماهم حتى باب الشريعة، ومات منهم خلق عظيم، فلما رأوا ذلك خمدوا فى المدينة....

(١٥١) ابن عذارى، المرحدون (هريش)، ص ٢٢، وقارن النبري، ص ٤١- حيث نزل (عبد المؤمن) بازائها (مراكش) سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م. وضرب خيامه فى غربها على جبل صغير (إيجليز)، وبني عليه مدينة له ولعسكره، وجامعا، وجعل لنفسه بناء عاليا يشرف منه على المدينة، ويرى أحوالها وأحوال المقاتلين. وأقام عديها ١١ (أحد عشر) شهرا، والقتال مستمر، فاشتد الجوع على أهله، وقارن الخلل المرشبة، ص ١٣٧- حيث معسكر عبد المؤمن فى جبل إيجليز الذى أصبح كالمدينة بما يحويه، من : المسجد والصومعة الطويلة، وما يدور حوله من منازل القبائل المختلفة.

(١٥٢) ابن عذارى، المرحدون (هريش)، ص ٢٢ .

شك . أما عن اللصتونيين بداخل مراکش فكان أميرهم الصبي الصغير : أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين . وتحت إمرته عدد من كبارهم وبقية أحشادهم ، وفيهم نحو من ٥٥٠٠ (خمسة آلاف وخمسمائة) من الفرسان ، وكثرة لا تحصى من الرجالة . وإذا كانت الرواية تبالغ في أعداد المرابطين ، فإنها تبالغ أيضا عندما تقول عن الأمير العبي : إنه كان «بأمرهم بالخروج لحرب النازلين عليهم» (١٥٣).

يوم الكمان:

وعندما تهرأ المرابطون وزحفوا حتى اقتربوا من محلة الموحدين قرب الظهيرة في بعض أيام شهر شوال سنة ٥٤١ هـ/مارس ١١٤٦ م ، خرجت عليهم كمان الموحدين فانهزموا في التو والحين نحو باب دكالة يتبعهم الموحدون الذين «أخذوا من خيلهم نحو ٣٠٠٠ (ثلاثة آلاف) فرس ، وقتلوا من فرسانهم ورجالهم العدد الكبير» - حيث رواية ابن صاحب الصلاة ، كما ينقلها ابن عذاري (١٥٤).

(١٥٣) ابن عذاري، الموحدون (هوش)، ص ٢٢ .

(١٥٤) البيان، الموحدون، ص ٢٢ ، وقارن الحلل الموشية، ص ١٣٧- حيث وصف القتال بأنه عندما زحف المرابطون نحو محلة عبد المؤمن التي صارت مدينة عامرة، كان عبد المؤمن يقبم بالمنظرة ينصر أحوالهم، فانهزم لهم الموحدون يجرؤنهم إلى الكمان، ولما وصلوا إلى مقربة من المدينة (المجليز) أمر (عبد المؤمن) بضرب الطبول، وخرجت الكمان، فمات في ذلك اليوم من أهل مراکش ما لا يحصى، واتبع السيف سائرهم إلى الأبواب، فقتل بعضهم بعضا بالازدحام، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٢- حيث على أنه "ك طال الحصار وجهدهم الجوع (أي المرابطين)، برزوا إلى مدافعة الموحدين فانهزموا وتتبعهم الموحدون بالقتل، وقتل عامة المؤمنين. وقارن النويري، ص ٤١-٤١١- حيث النص على جلوس عبد المؤمن على المنظرة يشاهد القتال، فتقدم أصحابه ثم انهزموا وتبعهم أهل مراکش حتى جاوزوا الكمين، ووصلوا إلى مدينة عبد المؤمن، وهدموا أكثر سورها، فلما ضرب الطبل وخرج الكمين عليهم، عطف الموحدون فقتلوا المؤمنين كيف شاؤوا، وقتل الهزيمة فمات في ازدحام الأبواب خلق كثير.

أحوال الحصار:

ويقشل المرابطين في فك الحصار عن مراكش ، ومع مرور الأيام ، كانت الأحوال في داخل المدينة تزداد سوءاً ، إلى أن بلغت مأساة المدينة ذروتها بعد مرور ٩ (تسعة) أشهر ، إذ هلك المحاصرون فيها جوعاً ، وضاقوا حتى « أكلوا الجيف ، وأكل أهل السجن بعضهم بعضاً » ، وعدمت الحيوانات ، وعدمت الخنطة (الطعام) تماماً . وفي ذلك تقول الرواية المرابطية المنقولة عن أبي عبد الله بن أبي عبيدة كاتب الأمير أبي اسحق ابراهيم بن تاشفين ، « لمعجزت عساكر اللمتونيين عن الدفاع والإمتناع ، لضعف العدد والعدة ، وكثرة الضيق » - الأمر الذي أدى إلى ان تفتح المدينة أبوابها عما قريب (١٥٥) .

وهكذا كان على الأمير (أبو اسحق ابراهيم) ان ينجز في جملته وأعوان قومه ، إلى القصة حتى نزل على حكم الموحدين (١٥٦) .

يوم الفتح :

وفي مقابل الرواية المرابطية السابقة (أعلاه) تقول نظيرتها الموحدية أنه في اليوم الـ ١٨ (ثامن عشر) من شهر شوال ٥٤١ هـ / ٢٤ ابريل ١١٤٧ م ، أمر عبد المؤمن بالذنو من المدينة « فأخذوا حواليتها ، ووقعوا السلاجم إلى السور ، وطمعوا عليها ، فدخلوا المدينة عنوة من باب ابلان (أغمات هيلانة) ، وقتلوا جميع

(١٥٥) ابن علقاري، الموحدين، ص ٢٢- حيث الإشارة الي ان سقوط مراكش كان في يوم الـ ١٨ (ثامن عشر) من الشهر العاشر للحصار، وانظر ابن خلدون، ج ٩ ص ٢٣٧- حيث "ولها (اسحق) في جملته وأعيان قومه الى القصة حتى نزلوا على حكم الموحدين"، وقارن التبري، ص ٤١-٤١١- حيث تنسب رواية أخرى فضل فتح مراكش الى أحد أعيان المرابطين، وهو : عبد الله بن أبي بكر الذي عُرف عبد المؤمن بعورة البلد، وضعف من فيه، وقوى طعمه فيهم (المرابطين)، فنصب المجانيق والابراج، وقنيت الاقوات فأكلوا دوابهم، ومات من العامة فيه بالجوع ما يزيد على ١٠.٠٠٠ (مائة الف) انسان، فحاف البلد من جشهم. هذا الى جانب الرواية التي تقول أن الفرنج اعوان المرابطين ، في مراكش هم الذين فتحوا لعبد المؤمن باب أغمات.

(١٥٦) ابن خلدون، ج ٩ ص، ٢٣٢ .

من ادركوا من اللخثونيين «وانحصر أميرهم ابو اسحق (ابراهيم) مع بعض أشياخهم، ومنهم : سير بن الحاج ، وسير بن يينتان وغيرهما ، بداخل القسبة المهروقة بدار الحجر» .

وتم انهيار المراهطين بسقوط مراكش ، فى نفس ذلك اليوم ، كما نزل من كان بالقسبة مستسلمين دون قيد أو شرط: «على حكم الأمير (عبد المؤمن) والموحدين» (١٥٧) . وبعد التمييز (العرض) قتل البعض : «بحضور الأجل» . واستحي البعض : « بإرادة الله » . وكان من بين السالمين من القتل أولاد (الوزير) يينتان

(١٥٧) ابن عذارى، الموحدون (هــبـى)، ص ٢٣-٢٤ . وقارن رواية البيهقي الموحدة حقيقة، والتي يقتبسها ابن عذارى، حيث بعض التفاصيل الدقيقة عن طريقة اجتياح مراكش. فقد أمر عبد المؤمن بصل السلام للسور، وقسمها على القبائل، فدخلت هنتاته وتينل من جهة باب دكالة (فكانهما يثلان الكتلة الرئيسية من الموحدين) . ودخلت صنهاجة وعبيد المخزن من باب الدباغين، ودخلت هكسورة مع القبائل من جهة باب يينتان، فدخلوا البلد بالسيف، وبقي القتال على قصر الحجر من بكرة الى وقت الزوال. وقارن البيهقي، ص ٩٤- حيث : وبقيت المدينة لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج، واستكمل الخليفة السلاطيم للأسوار، وقسمها على القبائل، فسار الناس لقتالهم، فدخلها الموحدون : فدخل هنتاته وأهل تينل من باب دكالة....، وقارن البيهقي، ص ٩٦-٩٧ حيث النص على ان مراكش بقيت لم يدخلها داخل ولم يخرج منها خارج ٣ (ثلاثة) أيام. وان الموحدين امتنعوا ان يسكنوها لولا ان افشى الفتحاء بتطهيرها بتعديل بقعة مساجدها.... باستثناء جامع على بن يوسف الذى هدم. هذا، كما ارسل (عبد المؤمن) الامناء الى المدينة مع الوزير (١) فكانوا يضمون السبي للمحرر (بيت المال) وما كان من الخيل والنقش والسلاح.... وابتيع النساء.... ورجع كل شئ الى المخزن. وحشد دخل الخليفة البلد، وقسم ارضها بالمروس للموحدين فسكنوها أشهراً، ابن عذارى، الموحدون ، ص ٢٤ .

أما عن أهم أعمال البطولة المراهطية في فتح مراكش فتتمثل فيما قامت به فاسينت عمر بن يينتان أمام القصر (القسبة : دار الحجر) التي لم تستسلم الا بعد موتها (أمام عتباته) فكانت ذلك اليوم (يوم فاتر) تقاتل الموحدين، وهو في هيئة رجل. وكان الموحدون يمجبون من قتالها، ومن شدة ما اعطاها الله من السجاعة، وهي بكر ... فلما ماتت حينئذ دخل القصر . «ولم يعرف الموحدون : هل هي امرأة أم لا حتي ماتت» .

«لأنه كان قد قال خيراً في المهدي ، فأوصى عليه ، وعلى بنيه خيراً» (١٥٨).

أما عن الأمير أبو اسحق ابراهيم البائس ، فقد وجد مستخفياً في كدس قمع في إحدى غرف دار الحجير ، فسيق إلى ايجليز حيث محلة عبد المؤمن والقبة الحمراء فاشفق عليه ، كما تقول الرواية الموحدية ، وحنّ لصغر سنه (١٦ عاماً) ، بل وهم ان يعفو عنه ، ويأمر بسجنه لولا أن بعض أشياخ الموحدين (وخاصة أبو الحسن بن واجاج) عزموا عليه في قتله ، فضرىوا رقبته - رحمه الله تعالى (١٥٩).

(١٥٨) ابن عذارى، الموحدون، ص ٢٣، وقارن أيضاً رواية ابن صاحب الصلاة في الحلل الموشية (ص ١٤٣) - حيث قال ابن صاحب الصلاة : ولما تم لعبد المؤمن فتح مراكش، ودخلها، وجع منها الى محلته، وجعل الأما - على أبراها مدة شهرين "يجمعون مالها ويقسمون ديارها". ويبيع عيال مراكش وأولادهم، يبيع العبيد إلا زينب بنت علي بن يوسف، فاحترمت عن البيع لمكان زوجها الأمير يحيى بن اسحق المسوفي، المعروف بوزنمار، لكونه ترك قبيلته، ودخل دهوة عبد المؤمن، فاحترمت داره من الضرر.

(١٥٩) انظر ابن عذارى، الموحدون، ص ٢٣ - ولزيد من التفصيل أنظر البيدق، ص ٩٤ - حيث "فلما دخل القصر، وحملوا من السلاطين الى آيجليز، وقتل أولئك السلاطين، ثم يبق منهم إلا أبو بكر بن تيزمت، "أبو اسحق (ابراهيم)" ، وغلالة طلحة. وكان "أبو اسحق" يتصرع للخليفة، ويقول له : يا أمير المؤمنين، مالي من الرأي شي، فيقول له طلحة : "أصمت عنا، هل رأيت ملكاً يتضرع لملك مثله؟ فقال أمير المؤمنين لأبي الحسن (ابن واجاج) : اترك هؤلاء الصبيان، ما الذي تعمل بهم؟ فصاح أبو الحسن، وقال في صبحته "ويوا ويوا الموحدين، ارتد علينا عبد المؤمن، يريد ان يربى علي فروخ السجوعة"، فقام الخليفة مغضباً واتهمه الموحدون إلا أبا الحسن والشيوخ أبا حفص... فأخذ أبو الحسن "أبا الحسن ابراهيم" وضرب عنقه ثم جذبوا طلحة ليقتلوه... فضرىوا بخنجره أبا الحسن وقتله. وقارن ابن عذارى، الموحدون، ص ٢٤ - حيث نفس رواية البيدق بأسلوب ابن عذارى مع إضافة قصة أبي بكر بن تيزمت وكيف غدر برجال عبد المؤمن ال ١٢ (اثنا عشر) الذين ساروا الى داره ليتسلموا ما كان في داره من الكنوز حسبما أوهمهم ومن ثم قتلهم، ولو انه يمكن ان تكون القصة أسطورية، ولا بأس ان تكون مرابطية أصلاً، وقارن الحلل الموشية، ص ١٣٩ - حيث رفيق الأمير أبي اسحق ابراهيم الزعيم المرابطي سير بن الحاج بدلا من الخادم طلحة، وتقول الرواية ان سير تفل في وجه الأمير أبي اسحق، وقال له : "اترغب الى أبيك، أو مشفق عليك، اصير صبر الرجال" - وقتل ابراهيم وكل من أخرج معه، وقارن رواية ابن خلدون، ج ٦ ص ١٨٩ - حيث القول بعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف : "ثم يبيع بمراكش ابنة ابراهيم وألقوه مضطعا، عاجزا، مضطعا، ويبيع عمه اسحق بن علي بن يوسف بن تاشفين". والذي نراه انه لما كان اسحق بن علي هو الآخر ضعيفا، فإن ذلك يشكك في مسألة خلع ابراهيم أصلاً.

وهكذا «باد آخر امراء الدولة اللمتونية إذ استبيحت مراکش ، وقتل من وجد منهم فيها لمدة ٣ (ثلاثة) أيام » . وهنا تنسب الرواية فضل العفو عن بقي منهم إلى عبد المؤمن «الذى اشتراهم من الموحدين ، واعتقهم ومنّ عليهم وأطلقهم» . وإن «استولى على ذخائر تاشفين ، وجمع أمراء لتونة - مما يقصر عن شرحه اللسان ، ولا يتأتى عليه وصف متبين البيان» (١٦٠) .

وبذلك تكون أسرة أمير المسلمين : يوسف بن تاشفين قد استؤصلت تماما مع قتل أبي اسحق ابراهيم بن تاشفين . أما عن مراکش العاصمة التى بقيت مدينة محرمة على الموحدين لمدة ٣ (ثلاثة) أيام «لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج» بناء على مقولة المهدي ابن تومرت فى وحب تطهيرها - الأمر الذى يذكر بفتح مكة (المكرمة) سنة ٨ هـ / ٦٣٠ م (وتطهيرها من الأصنام) ، مع الفارق - وهو ما وجد له تأويل فى «بناء المساجد الجديدة ، وتجديد القديمة» (١٦١) . الأمر الذى كان يعنى رسم برنامج تخطيط عمرانى مستقبلى للمدينة كعاصمة الموحدين العتيدة - الأمر الذى سيستغرق طوال عمر الأسرة الموحدية الجديدة - أسرة بني عبد المؤمن .

(١٦٠) ابن عذارى، الموحدون، ص ٢٣، وقارن رواية ابن الأثيرى التالية، والمرايطية الطابع أيضا (ص ٢٣) - حيث أنه تم فى صدر محاصرة مراکش ثم فتح أشمات، وأن قوات الأمير ٣٠٠ اسحق (بدلا من اسحق) اغتروا فى أنفسهم عندما خرجوا مع أهل مراکش للاقاة الموحدين، الأمر الذى انتهى بهزيمتهم وأخذ ٨٠٠ (ثمانمائة) من حبلهم، وأن أهل مراکش ذلوا لذلك، وانقروا بالهلالك، وهو ما أدى إلى فتح المدينة فى ١٧ من شوال سنة ٥٤١ هـ / ٢٣ ابريل ١١٤٧ م .

(١٦١) ابن عذارى، الموحدون (هريش)، ص ٢٥، وقارن أيضا (نفس الصفحة) رواية ابن صاحب الصلاة التى تقول : لما فتح مراکش ودخلها عبد المؤمن، رجع الى محلته وجعل الأمناء على أبوابها مدة شهرين اثنين، فاجتمع فيها مالها، ثم قسم ديارها على الموحدين .

A S R

الفصل السادس

عبد المؤمن بن علي أميراً للمؤمنين
من الموحدين

A S R

عبد المؤمن بن علي أمير المؤمنين من الموحدين ورود الفعل المباشرة لسقوط إمارة المسلمين من المرابطين

بعد الاستيلاء على مراكش العاصمة ، والتخلص من آخر أمراء أسرة بني يوسف بن تاشفين ، أصعاب المغرب من السوس الأدنى حتى وهران وتلمسان شرقاً ، وحتى بلاد السوس الأقصى غرباً ، أصبحت الدولة الموحدية مجاورة عن طريق الشواطئ الساحلية لكل من الأندلس فيما وراء العدو المغربية ، حيث بقايا المرابطين ومن وراءهم من أمراء الدويلات الإسبانية المسيحية ، كما أصبحت مجاورة من جهة الشرق لبلاد إفريقية الزيرية والحمادية والتي كانت تقدم ماتقدر عليه من العون لبني عمومتها صنهاجة الصحراء الملثمين ، رغم كونها مهددة في ذلك الوقت من قبل جيرانها الفرنج النورمنديين في صقلية وقلورية (كلاهما في جنوب إيطاليا) .

وهكذا كان علي عبد المؤمن بصفته أميراً للمؤمنين في أمبراطورية الغرب الاسلامي أن يواجه كلاً من الخطرين المتمثلين في حرب الاسترداد النورمندية الصقلية التي كانت قد أنهت استرداد جزيرة صقلية في أواخر القرن الخامس الهجري / ١١ م ، وبدأت تتطلع إلى السواحل الافريقية الاسلامية حيث جعلت من بعضها محميات نورمندية ، مع مطلع القرن السادس الهجري / ١٢ م ، في الوقت الذي كانت تظهر فيه دولة الموحدين ، بينما كانت حرب الاسترداد الاسبانية تتمدد جنوباً إلى إقليم جنوب الأندلس حيث أشرفت ثغورها وقلاعها على العواصم الاسلامية ، كما في قرطبة في الوسط ، وفي غربها بطليوس والأشبونة ، وفي شرقها مرسية والمرية .

وماهر أنكى وأمر فوق ذلك يتمثل في ثلاثة الأتافي . وهي الانتفاضة الخطيرة التي انتابت بلاد السوس المصنودية ضد الدولة الموحدية ، فكأنها صحوة الموت بالنسبة لدولة المرابطين اللمتونية ، وإن ظهرت كصدى لقيام دولة الإمام المعصوم ، محمد بن تومرت : الإمام المعلوم . هذه الانتفاضة هي المعروفة في تاريخ دولة

الموحدين الناشئة بثورة الماسي (أو الماستي).

انتفاضة الماسي ،

وتعتبر حركة الماسي (أو الماستي) هذه من حيث كونها أول ثورة تواجه عبد المؤمن بعد إعلانه أميراً للمؤمنين دون منافس ، أشبه ما تكون بثورة عبد الله بن ملوية ، أحد جماعة العشرة ، ورفيق عبد المؤمن في تقويم هزيمة البحيرة سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م (مأسقب ، ص ٢٦٢) . وهكذا يكون وجه الشبه بين ثورة ٥٢٤ هـ وانتفاضة سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م بعد سقوط مراكش ، أن كلا منهما كانت كرد فعل يمثل عقبة في طريق زعامة عبد المؤمن بن علي الكومي ، أولاً كزعيم لجماعة الموحدين أو كخليفة للسعدي ، وثانياً كملك أو خليفة : مؤسس لأسرة بني عبد المؤمن الموحدية ، وهي «الدولة المؤمنية».

والماسي صاحب الانتفاضة الأولى ضد عبد المؤمن ، هو : محمد بن عبد الله بن هود ، الذي كان قصاراً يعمل في تبييض الملابس الجديدة أو المنسوجات (من كتانية أو قطنية بالشب أو بتراب القرن) ، وذلك بمهنة سلا ، في حلق وادي بورجرج (أبو الرقراق بساحل بحر سلا) . أما والده فكان ذكلاً في السوق يبيع الكنانيش وهي في الاصطلاح المغربي تعني الكراس أو الكتيب ، وخاصة ذلك الذي كان يحوي سير الأساتذة والعلمين ، وهو نوع من تاريخ سير الرجال من الأعلام (١) ، الأمر الذي

(١) انظر ابن عذاري، الموحدون (هريش)، ص ٢٦، وقارن روض القرطاس، ص ١٦٠ - حيث النص على أن والده كان ذكلاً للكنانيش (فهارس الرجال جمع قهرسة - الكباش حسبما هو دارج عند الكتاب، حديثاً، وإن كان الاسم يطلق أصلاً على الكتيب الذي يحوي مجموعة ملاحظات عن فضائل الأجراس السماوية، أو أعضاء الجسم الإنساني وكيفية علاجها عند المرض، قبل أن ينتهي إلى كتيب أو كتاب يحوي : مجموعة تدرج فيها قواعد وفوائد للاستخدام الشخصي - انظر ملحق القواميس العربية لدوزي، ج ٢ ص ٤٩٤) . وانظر المدخل الموشمية، ص ١٤٦، وانظر ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٢ - عن ثورة الماسي حيث النص على أن الرجل (الماسي) كان من ناحية السوس، وأنه «ثائر من سوق سلا، يعرف بمحمد بن عبد الله بن هود، ويلقب بالهادي. وأنه ظهر في رباط ماسة، فاقبل إليه الشراذم من كل جانب، وانصرفت إليه وجوهه

يعني أن الرجل - الذي يصفه البيدق بالخياط - لم يكن سوقيا عاميا ، بل كان على دراية بالثقافة الاسلامية ، أول موضوعات العلم في ذلك الحين.

أما عن لقب الماسي فيرجع إلى انتسابه إلى رباط ماسة (ماسة) في أقصى بلاد السوس الأقصى ، وهو أصلا رباط عبد الله بن ياسين الذي نشأت في أحضانه الدعوة المرابطية (٢) ، كما نرى . وهكذا يكون محمد بن عبد الله قد استقر في رباط ماسة في غرة شعبان سنة ٥٤١ هـ / ٦ مارس ١١٤٧ م ، في تلك الفترة المضطربة من نهاية حرب المطاولة المرابطية الموحدية (٣) ومع مرور الوقت حمل لقب الماسي (أو الماساتي البربري) نسبة إلى الرباط الشهير (٤).

ومع أن مؤرخي حركة الماسي ضد عبد المؤمن بن علي لم يبينوا طبيعة دعوته الدينية أو السياسية ، فإن الواضح من اسمه : محمد بن عبد الله (الذي ربما كان أصلا عمر بن الخياط) (٥) ، ومن لقب الهادي ، أن الرجل كان يصل حركته بدعوة ابن تومرت فكانتها دعوة موحدية أصولية ، مبنية على مبدأ الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم مع تعديل في وصف المهدي إلى الهادي ، وهو الأمر الذي يعطى للدعوة الجديدة شكلاً إيجابياً فعالاً من حيث يكون الإمام الجديد هو الذي يدعو

= الأغمار من أهل الأفاق وقارن البيدق، ص ٩٧- حيث النص على أن اسم الناصر هو عمر بن الخياط، الذي كان يلقب باسم بربري "بيويكندي" تماماً كما كان والد محمد بن تومرت : عبد الله يعرف أيضاً بالاسم البربري "تومرت بمعنى محبوب" .

(٢) انظر ج ٤ ص ١٨٧ .

(٣) ابن عذاري، الموحدون (هروشي) ، ص ٢٦ ، وقارن روض القرطاس، ص ١٩- حيث الاستقرار في الرباط سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م.

(٤) هذا هو الشكل الدارج لاسم الناصر ابن هود عند الكتاب العرب، على أساس أن التاء المربوطة "ة" تنطق في شكل هاء، فيصبح الاسم اللقب هو "الماسي"، أما الماساتي فكما يستخدمها هروشي، تاريخ الامبراطورية الموحدية، ج ١ ص ١٤٧- حيث كتابة الاسم بالحروف اللاتينية في شكل El-massati ، على أساس أن التاء في الاسم البربري تاء مفتوحة (ت)، وليست مربوطة كما تكتب في العربية : رباط ماسة.

(٥) البيدق، ص ٩٧.

إلى الهدى والصواب ، والمعروف تاريخيا أن ظهور لقب الهادى كان على عهد آل البيت من العباسيين ، وكان الخليفة الهادى (الابن) هو الذى ورث خلافة المهدي (الأب) - وربما كان الفارق بين الهداية والمهدية معادلا للفارق بين عاملى الإيجاب فى المعنى مقابل السلب.

بدأ ابن هود الماسى قائدا مشاركا لعبد المؤمن من قواد الموحدين ، فى حصار مراکش سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، ثم إنه لم يلبث أن خرج عليه بعد سقوط المدينة ونهاية الأسرة اليوسيفية التشفينية ، فكأنه ارتد عن التوحيد ، قاما كما فعل ابن ملوية أو (ملويات) عقب بيعة عبد المؤمن كخليفة للمهدي ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ (مات ، ص ٢٨٥) ، وأغلب الظن أن الرجل لم يكن له أفكار مذهبية جديدة ، بل أنه اكتفى بالتمسك بالأصولية الموحدية ، متبعا عبد المؤمن بالارتداد عن الدعوة المهدية التومرتية ، كما فعل أبو الحسن بن وجاج عندما قتل الأمير الصبى أبا اسحق ابراهيم بن تاشفين ، وهو يتهم عبد المؤمن بالردة عندما فكر فى العفو عن الأمير المايطى الصغير ، والاكتفاء بسجنه بدلا من القتل (مات ، ص ٣٤٠ و ١٥٩).

ولابأس فى أن يكون اتخاذ الماسى للقب الهادى بدلا من الهدى تعبيرا عن الإيجابية والفاعلية فى العمل بالهداية على هكس ما يمكن أن يكون من سلبية فى المهدية والعصبة فهذا ما يفسر نجاح الماسى فى نشر دعوته الهداية ضد الموحدية المهدية ، وكذلك الأمر بالنسبة لدخول الكثير من قبائل بلاد السوس فى الدعوة الهداية المضادة ، فكأنها حركة ردة جديدة ، كذلك التى عرفتها الجماعة الإسلامية بعد وفاة النبى - فكان الماسى مسيلحة الجديد.

وهنا لا بأس أن تكون قبائل السوس قد ناءت تحت وطأة النظام الموحدى الشديد ، سواء فيما يتعلق بالواجبات الدينية ، من : عملية ملموسة أو روحية مجردة .

وفى نجاح دعوة الماسى يقول ابن عذارى إنه عندما استقر فى رباط ماسة وبدأ دعوته ، «أقبل الناس المغتربون به من كل مكان وقبيل إليه» ، وأنهم «اجتمعوا

بشقائوتهم عليه اجتماعا طار له الذكر في الأفاق ، وتحدثت به الرفاق ، وكثروا عنده ، واستندوا له ، فقامت بدعوته جموع لا تحصى ، أبادهم سيف الحق ، وسبق لهم الحثف بغاية السبق » . وهو يضيف قائلا : « وأتته دعوته الكاذبة الغارة في جميع العذوة حتى لم يبق منها إلا مراكش وفاس ، وارتدت سائر البلاد » (٦) .

وإذا كان ابن عذارى يحدد تاريخ الصراع ضد الماسي بالأشهر الأخيرة من سنة ٥٤١ هـ / مارس-مايه ١١٤٧ م ، بينما يضعها ابن أبي زرع في شهور سنة ٥٤٢ هـ / فبراير-أبريل ١١٤٨ م فالراجح أن الصراع الكبير الذي شغل قبائل السوس (الاقصى) وتامسنا وغيرها من حاحة الذين ارتدوا بعد توحيدهم ، وجراحة وهزيمة وهسكورة الرطاء (السهل) ، مع دكالة مع بنى ورياغل (٧) كان من الطبيعي أن يستغرق كل سنة ٥٤١ هـ / ٧-١١٤٦ م ، وبالتالي معظم سنة ٥٤٢ هـ / ٨-١١٤٧ م .

ولما كان مهد الثورة هي العذوة الافريقية في منطقة سلا ، كان من الطبيعي أن تشمل الثورة أهل سبتة ، وأهل طنجة ، بل وتعداها إلى المرية في أدنى الشرق من بلاد الأندلس (٨) . وتطلب الأمر إرسال ٣ (ثلاث) حملات للقضاء على الثوار : أولاها قام بها ضد «عدو الله» أبو زكريا بن يحيى المعروف بالنجار ، الذي سار إلى معقل «الشقي: الدعى الماسي» في رباط ماسة ، ولكنه لقي منه هزيمة قاسية ، «ورجع إلى الخليفة خاسرا» (٩) .

(٦) ابن عذارى، الموحدون (هوش)، ص ٢٦، وقارن روض القرطاس، ص ١٩-حيث و"علب على بلاد تامسنا (مهد برغراطة المتهمين بالتحراف العتيقة) ، وأكثر بلاد المصاعدة، وأنه "بابه جميع القبائل حتى لم يبق تحت طاعة عبد المؤمن إلا مراكش"، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٢-حيث : "وأخذ بدعوته أهل سجلماسة ودرعة، وقبائل دكالة، وجراحة (في الأصل : ركراسة)، وقبائل تامسنا وطوارة. وقُشت ضلالتة في جميع المغرب»

(٧) ابن عذارى، ص ٢٦، وقارن البيهقي، ص ٩٧ .

(٨) انظر البيهقي، ص ٩٧ .

(٩) البيهقي، ص ٩٧، ابن عذارى، الموحدون، ص ٩٧، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٢-حيث : وقُشت ضلالتة في جميع المغرب فسبّر إليه عبد المؤمن عسكرا من الموحدين لنظر يحيى انكمار (النجار) اللمتونى، النازع إليه من إبالة ناشقين بن على، ولقى هذا الثائر الماسي، ورجع مهزوما إلى عبد المؤمن .

وهكذا كان على عبد المؤمن أن يوجه إلى المرتدين «سيف الله المسلول» : الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى الذى خرج يشيعة عبد المؤمن فى أول ذى القعدة سنة ٥٤٢ هـ / ٢٣ مارس ١١٤٨ م حتى تسيفت. وحسب رواية الهمدق التفصيلية، خرج الشيخ أبو حفص بالمسكر ومشى إلى هزيمة وهزمهم وبدد شملهم ، ومضى إلى جزولة حيث هزم الماسى ، وقتله وساقه على بغل ، حيث صلب على باب الشريعة فى مراكش العاصمة (١٠).

وبعد القضاء على الثائر تطلب الأمر أن يقوم الشيخ أبو حفص بحملة أخرى يقضى فيها على بقايا الثوار من هسكورة فى موطنهم بـ «أمان ملولتين» حيث هزمهم «وساق غنائمهم ، وبنايتهم، قبهن توندوت، فلم يبعن» (١١).

أما عن تفصيلات القتال ، فيقرر بشأنها ابن عذارى ، أنه خرج أشياخ الموحدين مصاحبين لأبى حفص ، مع طائفة من الروم (مسيحيير الأندلس - لأول مرة) ، والرماة ، وغيرهم من الأجناد ، الذين كانوا «استعدوا لحاية الاستعداد» (١٢).

والذى يفهم من رواية القرطاس أن حروبا شديدة وقعت بين الطرفين خارج تامنا (بلد برغواطة) ، وإن حدد ابن عذارى أن الحملة النهائية كانت موجهة إلى الثائر فى عقر داره فى رباط ماسة ، حيث كانت نهايته فى ١٦ من ذى الحجة من سنة ٥٤١ هـ / ٢٠ مايو ١١٤٧ م. ومن الواضح أن كثرة الفرسان هى التى قررت مصير

(١٠) اخبار المهندي بن تومرت، ص ٩٧- حيث الثائر الذى يعرف عنده باسم عمر الخياط، على أساس أن والده القصار كان اصلا خيطا ، وقارن روض القرطاس، ص ١٩٠- حيث التاريخ الدقيق، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٢- حيث فسّح (عبد المؤمن) الشيخ أبا حفص عمر بن يحيى وأشياخ الموحدين ، فاحتفل فى الاستعداد ، فنهضوا لرابطة ماسة، وبرز اليهم الثائر فى نحو ٦٠٠٠ (ستين ألفا) من الرجال، ٧٠٠ (سبع مائة) فارس فهزمهم الموحدون، وقتل داعيتهم فى المعركة مع كثرة اتباعه، فى ذى الحجة سنة ٥٤١ هـ / ٤ مايو ١١٤٧ م.

(١١) الهمدق، ٩٨ .

(١٢) ابن عذارى، الموحدون، ص ٢٦، وقارن روض القرطاس، ص ١٩٠- حيث صحبهم عبد المؤمن حتى تسيفت ثم وأدهم ودعاهم.

المعركة في صالح الموحدين (١٣). وهنا تنص رواية روض القرطاس على أن مقتل الداعي كان بيد أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاتي الذي أعطى لقب «سيف الله» السلولى - فكانه يعيد سيرة خالد بن الوليد.

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن الحملة ضد الداعي الماسى كانت تحوى بين رجالها الكاتب الجليل ووزير عبد المؤمن الخطير : أبو جعفر بن عطية ، كاتب الأمير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين ، والذي كان مستخفيا بين فريق الرماة (١٤) .

حرب الموحدين من برغواطة في قاسنا

رغم مقتل الدعى الماسى (الهادى) في أواخر سنة ٥٤١ هـ / مارس ١١٤٧ م فإن توابع ثورته ظلت باقية في كل بلاد المغرب الأمر الذى يجعل مقالة : «أن الثائر استولى على كل بلاد المغرب حتى لم يبق تحت إمرة عبد المؤمن من البلاد سوى مراكش وفاس» - ماسقت الإشارة إليه - أمراً مقبولا . ويظهر ذلك في المعلومات التفصيلية والمرهقة التى يجمعها البيدق عن ردود الفعل الواسعة لتلك الثورة في

(١٣) انظر ابن عذارى، الموحدون، ص ٢٦- حيث النص على أن الجيش الموجه الى رباط ساسة كان يتكون من ٦.٠٠٠ (سنة آلاف) فارس، و ٦.٠٠٠ (سنة آلاف) من الرجالة، بينما كانت جموع الثائر تحوى ٧٠٠ فارس فقط الى جانب ٦٠.٠٠٠ (ستين ألفا) من الرجالة، كما عند ابن خلدون في الهامش أهله فكانه اخذ عن ابن عذارى .

(١٤) ابن عذارى، الموحدون، ص ٢٦- حيث اسم الامير المرابطى : اسحق بن على فالقتضى الأمر التنويه، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٦-٢٣٣- حيث وكتب الشيخ ابو حفص بالفتح لعبد المؤمن من إنشاء أبي حفص بن عطية الشهير الذكر، كان أبوه أحمد كاتبا لعلى بن يوسف بن تاشفين، وابنه تاشفين وتحصل في قبضة الموحدين لعفا عنه عبد المؤمن ولما نزل على فأس اعتزم ابو حفص هذا الفرار، فقبض عليه في طريقه، واعتذر فلم يقبل عذره، وقتل . وكان ابنه احمد كاتبا «لا اسحق بن على» مراكش فشملة عفو السلطان فبسن عمله من ذلك النفل، وخرج في حملة الشيخ أبي حفص في وجهته هذه.

وطابه للكتاب في ذلك فأجابه، واستحسن كتابه عبد المؤمن لما وقف عليه، فاستكتبه أولا ثم ارتفع عنده مكانة فاستوزره، وبعد في الدولة صيته ، وقاد المعسكر وجمع الأموال وبذلها، ونال الرتبة، ونكبه الخليفة سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م، وقتله بحسبه حسبما هو مشهور.

أقاليم المغرب المختلفة ، وسكانها من القبائل المتنوعة في طول البلاد وعرضها .
والذي يشير الانتباه هنا هو أن البيهقي لا يعرف ثورة «ابن هود» الماسي بهذا الاسم ،
بل يعطيها اسماً آخر هو : ثورة عمر بن الحياط - على خلاف بقية الكتاب ، وإن
كان لقب ابن الحياط يتفق إلى حد ما مع وصفه بأنه كان قصاراً ، يقصر الثياب أى
يبهضها قبل خياطتها ، حسبما كانت تقضى أصول الصنعة - مما سبقت الإشارة
إليه (ص ٣٤٦).

فلقد تطلب الأمر مسير الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى إلى برغواطة ، ولكنه
عندما انتهى معهم هزمه (١٥) ، وأخذوا كل ما كان في محلته حتى أنه هبط إلى
تادلا بعد أن ترك بعض أولاده وعريمه بين أيدي الثوار (انظر مايتانى ، ص ٣٥٧).
وهناك جدد عسكريه ومشى إلى مكناسة ، وضرب عليها الحصار . وفي ذلك الوقت
من أوائل سنة ٥٤٢ هـ / يونية ١١٤٧ عاد الصحراوي بعد أن هرب من الأندلس
إلى العنوة ، حيث راسله أهل سبتة فوفد عليهم ، وتولى أمرهم (١٦).

وثبع على بن عيسى صاحب أسطول الأندلس ، والذي كان قد وحّد ، يحيى ابن
أبى بكر الصحراوي ، وانتهت المطاردة بمحاصرة سبتة بالقطنع . ورأى قائد
(١٥) البيهقي، ص ٩٨، وقارن ابن خلدون، الذي يلخص رواية البيهقي وأحيانا يضيف إليها، أنه
كما نرى (ج ٦ ص ٢٣٣) حيث النص على أن هزيمة أبى حفص أمام برغواطة تعتبر الغزوة الثالثة
إذ تسبقها غزوتان أولاهما إلى جبال درن حيث الابقاع بنغيس وهيلاته ودخولهما في الطاعة،
والثانية كانت إلى هسكورة حيث أوقع بهم وانتزع مغانلهم وحصونهم ومن ثم الهرض إلى
سجلماسة التي تم الاستيلاء عليها. أما هزيمة برغواطة فكانت نتيجتها أن اضطرت نار
الفتنة بالمغرب.

(١٦) البيهقي، ص ٩٨-٩٩، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٣- حيث مزيد من المعلومات عن
انتفاض أهل سبتة الذين أخرجوا يوسف ابن مخلوف التينمللى (واليهيم)، وقتلوه ومن كان
معه من المرحدين. هذا إلى أضافه "وأجاز القاضي عياض البحر إلى يحيى بن عاتبة المسرفى
الوالى بالأندلس، فلقيه وطلب منه واليا إلى سبتة، لبعث معه يحيى ابن أبى بكر الصحراوي
الذى كان يفاش منذ منازل عهد المؤمن لها. وذكر أنه (الصحراوي) لحق بطنجة، فأجاز البحر
إلى الأندلس، وخلق يابن غائيه بقرطبة وصار في جملته. وبعثه ابن غائيه إلى سبتة مع
القاضي عياض، كما ذكرنا .

الأسطول أن يستخدم الحيلة في تهديد سبعة عن طريق امتناع الأمير المرباطي بالدخول في طاعة الموحدين ، كما فعل هو نفسه ، وعهد بأن يحمله إلى الخليفة عبد المؤمن . وكانت فرصة انتهازها الصحراوي للشار من قائد الأسطول الإنتهازي . فعندما هبط على بن عيسى من الغراب الذي كان فيه للقاء يحيى الصحراوي ورأى ملامح الغدر في وجه هذا الأخير ، حاول العودة إلى مركز قيادته في الغراب الذي كان فيه ، ولكن الصحراوي ، الفارس العتيد ، « رمى عليه حصانه فضربه بالنصل بين كتفيه حتى نفذ » . وقام غلام الصحراوي وأخذ أمير البحر القتييل وجّره إلى داخل سبعة ، فصلبه الصحراوي في برج المدينة » (١٧) .

وكانت فرصة انتهازها الصحراوي للاستيلاء على منطقة المبحاز ، فكانه يعمل على سد الطريق أمام الموحدين إلى الأندلس ، فخرج من سبعة إلى طنجة التي عهد بها إلى يحيى بن تعيشت ، ثم إنه رجع إلى سلا حيث كان والد الماسي (الحياط) . ولما رأى الصحراوي أن أهل سلا على غير وفاق مع والد الماسي ، أخذه بسهولة وضرب عنقه ، ورماه في البحر ، كما ألزم قبيلة فنزارة التي كانت في طاعة الشائر بدفع الخراج (الغني) .

ومن سلا خرج يحيى الصحراوي يريد برغواطية الذين كانوا قد استجابوا إلى الشائر الماسي ، فأحسنوا استقباله وزادوا في إكرامه . وانتهى الأمر بالتحالف بين الطرفين ، وتقرر الخروج إلى بلد دكالة ، حيث اجتمع البراغواطيون على الصحراوي ، ومعهم أهل دكالة ، واتخذوه أميراً لهم . وهكذا أصبحت دكالة مركزاً لمركبة إحياء مرابطية بقورها الصحراوي . وهناك جاءت قبائل رجرجة ، وحاجة « واجتمعوا حوله » (١٨) .

وهنا ، وعندما سمع عبد المؤمن (الخليفة) بما يحدث في دكالة بعث إليهم القائد (١٧) البندق ، ص ٩٨-٩٩ .

(١٨) البندق ، ص ٩٩ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٣- حيث « وقام (الصحراوي) بأمرها بسببه . ووصل يده بالقبائل الكائنة بطاعة الموحدين ، من : برغواطية ودكالة على حين هزمتهم للموحدين ، كما ذكرنا ولحق بهم من مكانه بسبعة .

المحتك يصلان - على طريق تادلا ، تالماغت - إلى سلا ، فدخلها بالسيف . ومن ثم خرج منها بعد أن ترك على ولايتها : موسى بن زيري الهنتاتي . ومشى يصلان إلى بنى ورياغل حيث هزم رئيسهم أبا الحسن (الورياعلى) وساق غنائمهم إلى أبي حفص الهنتاتي بمكناسة فوزعها على الموحدين .

ومن سلا سار إلى الهبط ثم إلى طنجة التي دخلها بالسيف (١٩) . ومن هناك سار إلى سبتة ، وضرب عليها الحصار ، ولكنه لم يتمكن من أخذها فرجع عنها . والظاهر أن ذلك حدث بعد أن تم الاتفاق على دخول ابن عباس فقيه سبتة ورئيسها في طاعة الموحدين ، وكذلك توحيد أهل المدينة . وبصح هذا الفرض بعدما نزل سبتة عبد الله بن سليمان مع حفاظه من شباب الطلبة ، بأمر عبد المؤمن . هذا ، كما رجع يصلان إلى مكناسة .

وبعد تهديد برغواطة في تامسنا وإقرار الأمور في السوس الأدنى (فاس ومكناسة) والعدوة (سبتة وطنجة) ، رجع يصلان إلى مكناسة ، وكانت مسيرة الجميع وعلى رأسهم الخليفة عبد المؤمن والشيخ الكبير أبو حفص عمر الهنتاتي إلى العاصمة مراكش* .

وإذا كانت الرواية تنص على أن عبد المؤمن أرسل من مراكش الرسائل والكتب إلى كل البلاد ، الأمر الذي يعنى أنه كان يخبر الموحدين والطلبة والحفاظ والأعيان من أهل البلاد بما تحقق من النصر على الخوارج المرتدين ، من : الماسي وحلفائه البرغواطيين (٢٠) ، بمعنى إعلان تهديد البلاد وسيادة الأمن والاستقرار فإن الأمر

(١٩) البيهقي ، ص ٩٩ .

* (البيهقي ، ص ٩٩ - ١٠٠) .

(٢٠) انظر مجموع رسائل مرجعية من إنشاء كتاب الدولة الموحدية ، اصدار ١ . ليفي بروفنسال . رباط الفتح ، سنة ١٩٤١ ص ١ - الرسالة الأولى ، من إنشاء الكاتب إبي جعفر أحمد بن عطية ، من أمير المؤمنين (عبد المؤمن) إلى الطلبة الذين يسبته - حيث الرسالة الصادرة من حضرة مراكش تنص على العودة المظفرة . "بعد ، كمال الفوزة المباركة وتماحها ، وإطفاء نار الفتنة بهرد الهدنة وسلامها ، والصاق أثوف الكفرة المرتدين برغامها فطوبى لمن حضر في سبيل الله فاحضر... فهي الفتح التي ظهر بها من آيات المهدي -رضه- العجب المجاب" =

لم يكن كذلك . وذلك أن الردود على ما أرسل من الكتب والرسائل إلى مختلف الأفاق لم تكن إلا ونمود العساكر مع قوادهم من كل فج وحذب . فكان الأمر كان يعنى التخطيط لحملة عامة كبرى هدفها القضاء على شأفة الثوار والخصوم والمنحرفين عن الدعوة ، فى كل ربوع الدولة المؤمنية وبشكل نهائى.

الحشد الكبير وعملية التهديد الشاملة:

هكذا وصلت العساكر تترى من كل مكان:

- فمن الشرق جاء يوسف بن وانودين بالعسكر من الرجال وسلاطينهم من كبار القواد ، ووصل إلى فاس حيث ألم به المرض الذى أدى إلى وفاته ، وهو فى الطريق إلى القلعة (قلعة مهدى بن توالا) ، وحل محله فى القيادة تاشفين بن ماجوج
- ومن الغرب جاء العسكر تحت قيادة : عبد الله بن خيار الجبائى ،
- وكان يقود عسكر زناتة : عبد الله بن شريف من سلاطين زازة ،
- وكان يقود عسكر غمارة : عبد الله بن سليمان ،
- وكانت قيادة عسكر صنهاجة لكل من : أبى بكر (بحسى) من الجبير ، وأبى بدير بن مصال ،
- أما عسكر جراوة فكان قائده : عبد الله بن داود ، كما كان حافظهم : عمر بن ميمون.

وهكذا اجتمعت عساكر البلاد من الشرق والغرب ، ومن كل القبائل من مختلف العروق ، تحت قيادة الخليفة عبد المؤمن بن على الذى سار بهم من مراكش قاصدا بلاد دكالة حيث اعتصم عدوه اللدود ، من بقايا امراء المرابطين ، وهو : بحسى الصحراوي الذى كان ينزل فى منطقة آبقروزل ، حيث تم اللقاء بين الموحيدين وبقايا

= مع الدعوة إلى التوبة، والتزود بالتقوى والمواظبة على تغيير المنكر

وقارن الدراسة الدبلوماسية والتحليل والتعليق (مكتبة لاروز، ١٩٤٢، ص ٢١ حث تاريخ الرسالة سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، واقترح أن موضوعها يحبى الصحراوي، وأهل سبتة وقاضيه عياض الذى حرصهم على الموحيدين.

المرابطين وأعوانهم من الانتهازيين . وبطبيعة الحال لم تكن قبائل دكالة تستطيع أن تواجه الجيوش الموحدة الضخمة حتى لو كانت دكالة بقيادة يحيى الصحراوي الفارس المرموق . فلقد قرَّ زعماء دكالة مع الصحراوي إلى بلاد السوس (٢١) .

وهنا تأتي رواية الحلل الموشية (٢٢) لتضيف معلومات تفصيلية طريفة عن تهديد دكالة بمعرفة عبد المؤمن . فلقد انحازت قوات دكالة إلى منطقة ساحل السوس في نحو ٢٠.٠٠٠ (عشرين ألف) فارس و ٢٠٠.٠٠٠ (مائتي ألف) راجل . وسار إليهم عبد المؤمن بقواته التي توصف بحق بأنها أمم لا تحصى من الخيل والرجالة والرماة . وهنا توجد إشارة يفهم منها أن المبادرة لم تكن تأتي من جانب زعماء دكالة ، بل من الزعيم المرابطي يحيى الصحراوي : « فقد كان أهل دكالة لأرأى عندهم » .

والمهم أن عبد المؤمن - الذي يظهر يظهر القائد العسكري الممارس - التف حول الدكاليين « بمجيئه من ناحية أخرى غير الناحية التي اعتقدوها ، فانحل نظامهم وقُل جصهم » . وهكذا اضطروا إلى اللجوء إلى سيف البحر « فقتل أكثرهم في الماء » - نتيجة لمد البحر المحيط ، على ما نرى . وكانت كارثة بالنسبة لأهل دكالة ، إذ أخذت إبلهم ولحمتهم وأموالهم وسبى أولادهم ، وانتهى البيع فيهم إلى بيع المرأة بدرهم ، والغلام بنصف درهم (٢٣) ، الأمر الذي زاد من عظم الكارثة .

والمهم أن عبد المؤمن - وهو يحطم مقاومة دكالة - كان يرسل القائد بصلاسن في إثر يحيى الصحراوي الذي فر ، مع من تبقى من حلفائه - نحو أرض قبيلة رجرجة . ونجح بصلاسن في تهديد شمل رجرجة الذين دخلوا غصبا في التوحيد ،

(٢١) البيهقي، ص ١٠١، وقارن ابن خلدون، ج ٦ - ص ٢٣٣ - حيث : « وخرج إليهم عبد المؤمن بن علي سنة ٥٤٧ هـ / ١١٤٧ - ٨ م فدوَّخ بلادهم ، واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة ، وتبرَّروا من يحيى الصحراوي ولقنونة ، ورجع إلى مراكش لـ (سنة) أشهر من غروجه .

(٢٢) الحلل الموشية في الاخبار المراكشية، ص ١٤٧ .

(٢٣) الحلل الموشية، ص ١٤٧ .

بينما مضى ابن الصحرواية هاربا إلى فيا في بحار الرمل بالصحراء (٢٤) .

وهكذا كان عبد المؤمن يستطيع أن يقضى على كل عناصر المقاومة والمعارضة للموحدين ، في بداية هذه . وبذلك خضعت برغواطة في بلادها ، وخرجت بعثات المشرفين من جامعي الضرائب إلى تامسنا ، ومنهم : أبوسعيد يخلف ، وعبد الله ابن قاطمة ، « قدموا حتى سألوا مروتهم (مروتهم : صدقاتهم) وزكاتهم » . كما عادوا من تامسنا أيضا بما كان البرغواطيون قد أخذوه من أبي حفص - في حملته الحاسرة هناك (مما سبق ، ص ٣٥٢) من : « السلاح والأخبية (كما) ساقوا ولده وجاريته » (٢٥) . هذا كما قضى الموحدون في تلك الأثناء على ما قام في تامسنا - الثانية أهد الدهر - من ثورتى كل من : بومزكيد في جماعة يقال لهم بنو (آيت) برزيجن الذين أخذت غنائمهم من العبيد ، ويروكان المعروف أيضا باسمه العربي : هلال الأصلع ، والذي يدد آله من بنى (آيت) عفيف ، فكسروا شوكتهم .

وبذلك نجح حشد عبد المؤمن الكبير في تحقيق ما كان يصبو إليه الخليفة من تحطيم مقاومة القبائل المغربية التي كانت حريصة على استقلالها ، محافظة على فرديتها ، وبذلك « استقامت له الدنيا ، بعون الله » كما يقول البيهقي (٢٦) ويكون يحيى الصحراوي قد تم بتوحيده العفو عنه . وبذلك يكون قد تم صلاح المغرب بدخول أهل سبتة في الطاعة التي قبلت منهم ، وكذلك الأمر بالنسبة لأهل سلا ، وإن أمر عبد المؤمن بهدم سورهم (٢٧) .

وبذلك تكون سنة ٥٤٣ هـ / ٩ - ١١٤٨ م التي دارت فيها معظم هذه الأحداث ، هي سنة توطيد حكم عبد المؤمن في بلاد المغرب ، عهد الدولة الموحدية ، دولة بنى عبد المؤمن .

(٢٤) البيهقي ، ص ١٠٩ .

(٢٥) البيهقي ، ص ١٠٩ .

(٢٦) أخبار المهدى ، ص ١٠٩ .

(٢٧) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٣ .

الاعتراف نظام جديد للتمييز بعد التهدين

رغم مايقوله البيدق من أن الدنيا استقامت لعبد المؤمن بعد عملية التهدين الشاملة في كل بلاد المغرب الأقصى، من: برغواطة تامسنا حتى دكالة والسوس الأقصى، فإن الظروف اضطرت عبد المؤمن إلى أن يستمر في فرض «السلام الموحدي» عن طريق التهريب والترغيب معا بفضل تطويره لنظام «التمييز» الذي استخدم لاستئصال المنحرفين، من الخارجيين على دعوة العصمة المهدية التومرتية، من: المرابطين الملتزمين أو اهوائهم من أصحاب الأهداف العرقية السياسية أو الأغراض الأثنية.

أما عن الشرارة التي ألهبت نار الفتنة من جديد فقد بدأت في بلاد السوس الأدنى، في مكناسة وقاس، حيث الوالي أبو بكر يحيى بن عبد الله الجبائي، الذي أرسل كتابا إلى الخليفة عبد المؤمن يخبره أن أهل مكناسة اعتدوا على جماعة الفحاميين في جبلهم وقتلهم، وإن الأمر كان من الخطورة بحيث أنه اضطر إلى محاصرة مدينة قاس خشية استفحال الفتنة. وهنا عقد عبد المؤمن «المجلس» (مجلس المشايخ أو مجلس الشورى)، ووعظ شيوخ الموحدين، وطلب فتاواهم في أمر الثوار أو المنحرفين من أهل التخليط الذين شبه الواحد منهم «بالشارب الذي يمنع اللبن والماء»، عن غيره (من الظالمين)، وحصل على موافقتهم على أخذ القصاص، على قاعدة: النفس بالنفس والعين بالعين.

والمهم هنا هو أن عبد المؤمن غير في هذه المرة من طبيعة ملاحقة الثوار من المعارضين. فعلى عهد ابن تومرت كانوا يعاملون أيام «التمييز» على أنهم خارجون عن الدين، ومن المقبول معاملتهم كأهل النار من الكفار ممن يستباح دماؤهم، أما الآن بعد انتشار التوحيد بين الناس، رأى أن يعامل المعارضون على أنهم من «أهل التخليط» * فكانهم من «الفاسين» الذين لا يميزون بين الحق

* (البيدق، ص ١٠٢)

والباطل.

وبناء على ذلك كان يكفي لتطهير هؤلاء « المنافقين الجدد » من دنس الباطل مجرد اعتراف الجماعة بما وقع فيه بعض أفرادها من التخليط ، وأنه يمكن أن يعفى عن المعترفين منهم بالخطأ ، فلا يؤخذ بعقوبة الكفر إلا المعاندون من الخطائين . وبناء على ذلك كانت عملية الاعتراف تتم بالتطهر والتطهير حسب مقتضى الحال ، على أيدي جماعة الموحدين ، بمعنى أنهم يطهرون أنفسهم في الحقيقة بالاعتراف سلباً أو بالسيف إيجاباً .

وهنا يقدم لنا البيدق بيانات تفصيلية مذهلة عن الجرائد (الفرق العسكرية) التي وجهت إلى مختلف النواحي والقبائل ، والقواد الذين ساروا على رؤوسها ، وعدد القتلى في كل موقع من ضحايا التخليط ، الأمر الذي يجعل من كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ، أشبه ما يكون بذكرات شخصية ، من نوع الأخبار التي لا تترك صغيرة أو كبيرة من شاردة وواردة إلا أحصتها ، في ذلك الصراع العجيب الذي قامت به جماعة الموحدين تحت قيادة عبد المؤمن الذي نجح في الموازنة بين سياسة الترهيب والترغيب ، حيث كان يحكم السيف بثابة التحكم الإلهي ، من حيث هو الفصيل والحكم - الأمر الذي يذكر سياسة الخليفة السفاح أول خلفاء العباسيين ، المبنية على مقولته لقائد جيوشه ، أبي مسلم الخرساني : « اجعل سوطك السيف ، وسجنك القهر » . وهكذا ، يقول البيدق بعد أن انقضى المجلس ، « دخل الخليفة وكتب الجرائد (الرسائل) لهم بالوعظ والاعتراف ، وقسمها لأشباه الموحدين ، وأمرهم بالسيف » (٢٨)

ونحاول هنا أن نعطي صورة بانورامية للحملات العسكرية ، ووجهات مسيراتها ، وانجازاتها الحربية والسياسية. فعدد الحملات ٢٢ (اثنان وعشرون) حملة ، قادها ٢٢ (اثنان وعشرون) قائدا أساسيا ، ينفرد بعضهم بالقيادة (٢٩) ، وعادة ما يكون

(٢٨) أخبار المهدي ابن تومرت، ص ١٠٧ .

(٢٩) كما في الحملات : ٩.٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ وعادة ما يكون من زعماء =

له قائد مساعد ، كما هو الدارج (٣٠) وفي بعض الحالات النادرة كان هناك أكثر من ٤ (أربعة) قواد وذلك عندما تكون وجهة الحملة أكثر من منطقة (٣١) فتتفرع إلى أكثر من جريدة أو حسبما يتطلب الأمر ، من حجم القوة العسكرية ، وعدد ماتضمنه من القبائل.

وهكذا تتوالى الحملات مع الإشارة إلى أهم منجزاتها ، وخاصة بما يتعلق بقتل أهل التخليط (من المنافقين) ، وتحديد عدد من قتل منهم في كل معركة ، وهي الأعداد التي تراوحت ما بين ١٥٠ قتيلاً في حرب قبيلتي لجاعة وغيفرت ، وبين ١٢.٠٠٠ قتيل في حملة الرباط ، منهم ٦٠٠٠ قتيل من قبيلتي صاريود ، ومنى مكدود في الطامير ، منهم ٦٠٠٠ قتيل في منطقة ما وراء السوق من المقرمة (في منطقة فاس) .

وهكذا يمكن تخطيط الجدول التالي لتلك الحملات كالاتي :

- ١- جريدة رباط هزمرة ، بقيادة كل من أبوب بن أجدم ، ويحيى بن جهروط ، وعدد القتلى ٥٠٠ رجل
- ٢- جريدة وجراجة (في أصاكا إن كمات) ، بقيادة كل من : محمد بن مصكاد ، وعبد الله بن مالات ، وعدد القتلى ٨٠٠ رجل
- ٣- جريدة حاحة (في منطقة ايجلي ببلد السوس) ، بقيادة صهر أبي سعيد مع عمران بن مناد ، وعدد القتلى ٦٠٠ رجل
- ٤- جريدة إلى آهنكست ، بقيادة ومصال بن ودّرع ، وأبي عمران بن موسى بن

= مشايخ الموحدين ، أو من الزعماء المنتفذين في البلد الذي تسير إليه الحملة .

(٣٠) ويظهر ذلك في الحملات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ .

(٣١) كما في المسلة رقم ٦ إلى مسكورة حيث كان اللقاء في موضعين ، والحملة رقم ٧ إلى تادالا حيث كان على قائد الحملة عمر بن ميمون أن يقوم بالحملة رقم ٨ إلى تيفسرت ، ومن ثم يعود إلى تادالا .

وميان ، وعده القتلى ٦٠٠ رجل

٥- جريدة إلى جزولة ، بقيادة موسى بن عيسى ، والحسن بن سليمان واللقاء
في موضع تاعجيزت ، والقتلى من هشتيكة ٣٠٠ رجل

٦- جريدة إلى هسكورة ، بقيادة سليمان بن ميمون ، وعلي بن يحيى ، وكلمات
ابن عثمان ، وعبد الله بن يومر ، واللقاء في موضعين خارج المحلات حيث ٨٠٠
قتيل ، وداخل المحلات ١٧٠٠ قتيل وعده القتلى ٢٥٠٠ رجل

٧- جريدة إلى تادلا ، بقيادة عمر بن ميمون ، وعبد الله بن داود وآخرين في
موضع نظير وعده القتلى ٥٠٠ رجل

٨- عسكري جتله بقيادة عمر بن ميمون ، وخرج لتأزفت بن تملوان بموضع
تيفسرت ، فقتلهم وساق غنائمهم ونساءهم إلى تادلا (حملة جانبية للقائد السابق).

٩- عسكري ، خرج بقيادة أبي بكر (يحيى) بن الجهر إلى تادلا ،

وقتل من صنهاجة وجراوة بموضع العمري ١٠٠٠ رجل

١٠- عسكري ، بقيادة آج أتيجي ، خرج إلى القلعة (متاع مهدي بن تروالا)
باعترافهم وقاتل من زناتة وفازاز ٦٠٠ رجل

١١- جريدة إلى الرباط (سلا) ، بقيادة أبي سعيد بخلف أتيجي ومحمد ابن
يحيى الجدميوي وكان اللقاء في ٣ (ثلاث مواضع ، هي : المطامير ، ووراء سوق
المقردة حيث قتل ٦٠٠٠ رجل في كل من الموضعين ، بالإضافة إلى ٨٠٠ رجل
قتلهم القائد المعاون : محمد بن يحيى داخل الرباط ، وتفسر المذبحة بأنها ثأر لقتل
زيري بن ماخلوخ (ما سبق ، ص ٣٠٧ ، وعده القتلى ١٢,٨٠٠ رجل

١٢- جريدة إلى فمارة ، بقيادة أبي محمد عبد الله بن سليمان ، ويحيى
توكروزين ، وكان اللقاء في موضعين : يتطاوين حيث قتل ٨٠٠ رجل ، وفي سوق
الثلاثاء (متاع نزون أطواست) ، حيث قتل ١٠٠ رجل وعده القتلى ٩٠٠ رجل

١٣- جريدة إلى الغرب (إلى نظر فاس ومكناسة) ، بقيادة يوسف بن سليمان وعبد الله بن خيار الجباني ، حيث قتل ٣٠٠ رجل ، إلى جانب ٢٠٠ رجل في مكلانة ، وفي فاس قتل ٨٠ (ثمانين) من المؤنثين وأهل السوق فيكون

عدد القتلى ٥٨٠ رجل

١٤- جريدة إلى تامسنا ، بقيادة عبد الله بن فاطمة اللمتوني ، وأبي تونارت ، وتم اللقاء في موضع نبط إن واكرارت ، وفرحيل متاع برغواطة ،

وعدد القتلى ٦٠٠ رجل

١٥- جريدة إلى دكالة ، بقيادة اسحق بن عمر الهنتاني - حيث النص على أن القائد كان شقيعا بهم ، وعدد القتلى ٦٠٠ رجل

١٦- جريدة إلى هيلانة (أغمات) ، بقيادة الحسن بن المعلم ، وعلى بن بخلف ، واللقاء في موضع مغطاسة ، وعدد القتلى ٨٠٠ رجل

١٧- جريدة إلى وريكة (أغمات) ، بقيادة زكريا بن مسعد الوريكي ، وتم اللقاء في موضعين : وريكة وهزجة وقتل في كل منهما ٢٥٠ رجلاً

وعدد القتلى ٥٠٠ رجل

١٨- جريدة لجاجة ، بقيادة يحيى بن سحنون ، وعبد الكريم الفيغاني ، حيث تم اللقاء في موضعين : لجاجة وغيفرت ، وعدد القتلى ١٥٠ رجلاً

١٩- جريدة إلى درعة ، بقيادة يحيى الدرعي ، وعبد الصمد بن تادرات ، وتم اللقاء في والديزيجن ، وعدد القتلى ٦٠٠ رجل

٢٠- جريدة إلى سجلماصة ، بقيادة عبد الله بن وطيب ، وهنا تقول الرواية ان ابن وطيب جمع الناس وأراد قتلهم ، وأنهم لجؤا من هذا العقاب الجماعي بموت القائد فجأة ، وانصرف الناس إلى أوطانهم (٣٢)

(٣٢) البهقي، ص ١٠٤- حيث اسندت وفاة القائد إلى دعاء عاهد اسمه بولغات.

٢١- جريدة، بقيادة محمد بن أبي بكر بن توندوت ، حيث قال لهم الخليفة :

أصلح بلادك يا أبا عبد الله فقتل منهم ١٠٠٠ وجل (٣٣)

ومن هذا العرض لحملات الاعتراف التي جاوزت العشرين حملة جاوز عدد من أعظم فيها ٢٥٠,٠٠٠ (خمسة وعشرين ألفا) في سنة واحدة هي سنة ٥٤٣ هـ / ٩ - ١١٤٨ م ، كما يؤكد البيهقي.

ومن هذا العرض الغريب يتضح الآتي :

١- على المستوى الإقليمي :

غطت تلك الحملات العسكرية كل بلاد المغرب الأقصى ابتداء من غمارة في السوس الأدنى حيث فاس ومكناسة حتى السوس الأقصى حيث مراكش القاعدة وأغمات في جنوبها ، وحتى بلاد جزولة على أطراف الصحراء البحرية ، وكذلك سجلماسة ودرعة ، وهي بلاد المغرب الحقيقية ، حيث انتشار المصاعدة - عصب الدولة المؤمنية - في معظم تلك الجهات ، فلا يغيب عن التهدين (التسليم) والاعتراف (التوحيد والتمييز) إلا المنطقة الشرقية في تلمسان ووهران (غرب المغرب الأوسط).

٢- على مستوى القيادة العسكرية :

يلاحظ أن القادة كانوا عادة من أهل البلاد المقصودة ، الأمر الذي يمنع - كما نرى - أن ينظر إلى الجريدة أو الحملة العسكرية على أنها نوع من الغزو الأجنبي ، بل على أنها مجرد تصفية حساب بين أبناء الخلة الواحدة ، والمبنية على وابطتى الدم والوطن . أما موضوع الخلاف فهو مجرد تباين في الرأي فيما يتعلق بأمور الدين والعقيدة ، مما يتراوح بين النقاء (الإيمان) والتخليط (النفاق) - وإن ارتبط الخلاف بجباية الأموال أو دفع الضريبة ، التي عادة ما ينظر إليها الأحرار من سكان

البادية أو الجبال على أنها نوع من الغرامة أو الاتاة التي تنقص من شأن دافعها ، وهو الأمر الذي تنمحي حساسيته عندما يكون القائد الجابي من نفس البلدة والعرق .

وهكذا كان قائدا الحملة الأولى (ابن أحمم وابن جبروط يضمنان إلى رجال حملتهما (رباطهم) عسكرياً من هزيمة ، الأمر الذي سمح بقتل ٥٠٠ (خمسمائة) من أهل التخليط منهم . ومثل هذا كان قائدا حملة رجراجة (الثانية) : ابن مصكاد وابن مالات من شيوخ تلك القبيلة . وكذلك الأمر بالنسبة لقائد الحملتين ال ٦ (السادسة) وال ٧ (السابعة) : عمر بن ميمون ، فهو يسير إلى تادلا أولا وبعد أن يقتل فيها ٥٠٠ رجل ، يخرج منها إلى موضع تيفسرت ، ويسوق غنائمهم ونساءهم إلى تادلا - الأمر الذي يعنى استقرار التوحيد تادلا بمجرد نهاية حملة «الاعتراف» بها . وإذا كان الأمر قد تطلب حملة ثانية إلى تادلا يقودها أبو بكر (يحيى) بن الجير (أحد اخباري دولة الموحدين) ، فهو يؤدب صنهاجة وجرادة هنا ، كما يتشفع عند الخليفة في نساء تيفسرت فلم يهن في تادلا (٣٤) .

أما أعظم الحاسائر في عملية الاعتراف فتمثلت في الجريدة ال ١١ (الحادية عشرة) إلى الرباط ، والتي قتل فيها ١٢,٠٠٠ (اثنا عشر ألفا) من قبيلتي صابو و بني مكدود ، إلى جانب ٨٠٠ (ثمانمائة) رجل داخل الرباط نفسها . وبذلك كانت حربا ثأرية أكثر منها اعترازا أو تمهيدا لأهل التخليط . وفي ذلك قال القائد أبو سعيد يخلف آتيجي للمنكوبين : هذا جزاؤكم الذي قتلتكم زيري بن صاخوخ الذي بعث إليكم الخليفة - رضى - (٣٥) . وفي مقابل ذلك كان عمر الهنتاتي شقيقا بذكالة رغم أنه قتل منهم ٦٠٠ (ستمائة) رجل (٣٦) ويتمثل استخدام الدين في تطبيق سياسة «الاعتراف» هذه في اختيار زكريا ابن مسعود البريكي لقادة الحملة ال ١٧ (السابعة عشر) إلى وريكة ، واختيار قائد الحملة ال ١٩ (التاسعة عشر) : يحيى الدرعى للمسير إلى ورعة .

(٣٤) البديق، ص ١٠٤ .

(٣٥) البديق، ص ١٠٣ .

(٣٦) البديق، ص ١٠٤ .

٢- على مستوى السياسة الدينية والأخلاقية :

يستشف من وصف المخالفين في عملية «الاعتراف» بأهل التخليط أنهم لم يكونوا معاندين للدولة والمذهب التوحيد مثلهم مثل سابقهم من أهل «التمييز» أو «المرتدين» . فالتخليط هنا يكاد يعادل عدم فهم العقيدة . كما ينبغي أن يكون فهمها ، وهم من هذا الوجه يعتبرون كالمناققين ، على افتراض سوء النية . وهؤلاء قضى عليهم «بالاعتراف» من قبل ذويهم على الأقل كما كان الحال في التمييز (مسبق ، ص ٥ - ٢٤٣) .

والى جانب المخالفين من أهل التخليط كان الخليفة عبد المؤمن يتحرى الكشف عن أشباههم من المنحرفين أخلاقيا من المخنثين (المزئنين) وأصحابهم من السوقة العاهشين . وهذا ما يظهر في الحملة الـ ١٣ (الثالثة عشر) في منطقة الغرب ، في نظر كل من قاس ومكناسة ، حيث قتل ٨٠ (ثمانون) من المزئنين والسوقة إلى جانب من قتلوا على يدى القائد يوسف بن سليمان ، وصاحب فاس : عبد الله بن خبار الجياني (٣٧) . فكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان من مبادئ سياسة الخليفة عبد المؤمن ، كما كان على عهد الإمام المهدي ابن تومرت .

ف هكذا كانت مبادئ التمييز ، ومن ثم الاعتراف أشبه ماتكون بقواعد محاكم التفتيش الموحدة التي يبحث فيها عن الزنادقة المنحرفين - الأمر الذي يذكر بحارية الخليفة العباس المهدي للزندقة والزنادقة ، وإقامته محكمة خاصة بهم ، بعد أكثر من قرن من ظهور حركة الزنادقة من المناققين الأول في دولة الاسلام (٣٨) .

(٣٧) وعن عجائب القيائح ، التي خلّدت في أهل قاس انظر الاستبصار ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

حيث هجاء «أبو بكر» أبيكي لأهل قاس يتعريض من الزاهد «أبو الحسن» بن حرزم ، مثل :

وأيت جنان عدن في منامي وهور العين في أسني لباس

فقلت بما أحصل بعض هنا فقال اذا هجرت لأهل قاس

فدع عنك الصلاح وكل بر فهجرهم يؤمن كل بئس

(٣٨) انظر أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ص ١٤١ - حيث : إذن قام المهدي بعمليتين نحو الزنادقة ، إنشاء

إداره للبحث عنهم ومحاكمتهم ، وإنشاء هيئة علمية لتاخرتهم ، وتأليف الكتب لرد عليهم .

وهكذا يختم البيدق إحصائيته عن عملية الاعتراف هذه ، بحمد الله الذي «هدأ البلاد للموحدين ، وأعانهم على الحق ، ونصرهم ، فأقاموا الدين ، ولم يفرقوا فيه ، وتمهدت الدنيا وأزال الله ما كان فيها من التخليط» (٣٩)

وبذلك تمت عملية الاعتراف التي تعنى التهديد تحت مظلة «السلام الموحدي» في ربوع المغرب الأقصى ، وتمهدت الأحوال لنشر ذلك السلام لبقية أطراف المغرب الشرقية ، في بلاد افريقية الزيرية حيث الصراع مع النورمنديين الصقليين قبل التوجه نحو المدوة وبلاد الأندلس.

الخريطة السياسية- الاجتماعية لافريقية الزيرية- الحمادية

في النصف الأول من القرن ١٢م

كانت البلاد الافريقية ، اعتباراً من برقة وطرابلس شرقاً وحتى التوغول الشرقية لتلمسان ووهران ، على حدود المغرب الأقصى ، تعاني من النتائج السلبية لهجرة قبائل بني هلال وبني سليم المجازية أصلاً ثم المصرية إقامة ، منذ منتصف القرن الخامس الهجري / ١١م ، الأمر الذي أدى إلى قلب الأوضاع السياسية والاجتماعية في تلك البلاد رأساً على عقب (انظر ج ٣ ص ٤١٧ وما بعدها).

فمن وجهة النظر السياسية أدى مجيء الهلالية إلى افريقية إلى ضعف كل من الدولتين الصنهاجيتين : الزيرية والحمادية ، بل واتخاذ الحماديين عاصمة جديدة غير القلعة ، وهي مدينة بجاية البحرية تماماً ، كما كان الحال بالنسبة للمهدية الزيرية.

ومع توجه الهلالية نحو الغرب كان يزداد ضعف الزيريين والحماديين ، الأمر الذي انتهى بسيادة نوع من نظام أمراء الطوائف من صنهاجية وعربية في كل الشمال الافريقي في شرق المغرب الأقصى . والحقيقة أن المغرب الأقصى بدأ يأخذ زمام المبادرة سياسياً واجتماعياً ، منذ ظهور مدينة مراكش عاصمة الجنوب ، مقابل

(٣٩) البيدق، أخبار المهدي ابن تومرت، ص ١٠٤ .

فاس عاصمة الشمال ، والقيروان عاصمة افريقية التونسية ، وقرطبة واشبيلية ومن ثم غرناطة في العدو الأندلسية.

وأدت الظروف الطبيعية الصعبة في خطوة ثالثة لكي تزيد من قساوة الأزمة التي كانت تمر بها بلاد المغرب الشرقية ، وذلك بتواتر سنوات الجفاف والقحط في افريقية ، الأمر الذي كان يسمح لدولة الفرنج النورمندية ، الناشئة في كل من جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، لكي توجه أطباعها نحو السواحل الافريقية ، وبحول الكثير من المدن والمراكز العمرانية هناك إلى ما يمكن أن يسمى بالنظام الاستعماري المبكر . وترتب على هذا الأمر أنه كلما كانت تسوء الأحوال في الشمال الافريقي الشرقي ، كانت تزداد مسئوليات الدولة الموحدة الناشئة ، وذلك منذ مطلع القرن الـ ١٢ هـ / ١٢ م وحتى استقرار ملك عبد المؤمن بن علي حوالي منتصف ذلك القرن ، كما سوف نرى.

وهكذا إذا نظرنا إلى خريطة المغرب الإفريقي في العقود الأولى من ظهور دولة الموحدين ، نجد الأوضاع السياسية - الاجتماعية كالتالي:

إن المدن الإفريقية التي مرّ بها محمد بن تومرت في رحلة عودته من المشرق ، في العقد الثاني من القرن الـ ١٢ هـ / ١٢ م ، من طرابلس وحتى تلمسان ، كانت أشبه ما تكون بدويلات من المدن المستقلة القديمة ، من حيث كان يطرد محمد بن تومرت من الواحدة ، منها إلى الأخرى الأمر الذي يذكر بتقسيم الفارابي لمثل هذه المدن إلى مدن فاضلة لكل منها رئيس مثالي يشبه بالخليفة - أو رئيس الجماعة الذي يعمل من أجل سيادة الخير والعدل ، وإلى مدن جاهلة لا يعمل الرئيس فيها إلا من أجل تحقيق الأغراض الأنانية الباطلة ، من : احتجاج المال أو القوة أو السلطة والاستبداد (٤٠) . وفي ضوء هذه الأفكار كان ابن تومرت يعمل على إقرار المعروف وإزالة المنكر في المدن التي مرّ بها ، في : طرابلس والمهدية وتونس وقسنطينة وبجاية وإلى تلمسان.

(٤٠) الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة .



مغربيّة وجنوبي إيطاليا ولاد أفريقيّة

وباستثناء تلمسان وشقيقتها وهران على تخوم المغرب الأقصى واللّتين كانتا قد خضعتا لعبد المؤمن منذ مقتل تاشفين بن علي بن يوسف سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م ، كانت بقية العواصم الإفريقية التي مربها ابن تومرت (٥١١ هـ / ١١١٧ م - ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م) - إلى جانب غيرها - قد وقعت بين يرائن النورمنديين في صقلية أو على وشك الوقوع ، كما كان الحال بالنسبة للمهدية العاصمة الزيرية أو بجاية العاصمة الحمادية : أعظم المراكز الحضارية في بلاد أفريقية وقتئذ ، الأمر الذي كان يعنى نهاية النهاية ، ليس بالنسبة للدولة الحمادية فقط ، بل وخطراً داهماً على مستقبل الشمال الإفريقي ، مقارنة بما كان يحدث في جزيرة صقلية : الأخت الصغرى للأندلس.

والحقيقة هنا ، كما كانت في الأندلس ، هي أن آلة الخصومة والعداء - الطبيعية بين ملوك الطوائف كانت عاملاً مساعداً على زيادة الضعف في العواصم الإسلامية المتناحرة ، كما كانت مشجعة للخصوم من الملوك الإسبان على مواصلة حرب الاسترداد ، واسترجاع المزيد من الأراضي الإسلامية . هذا ، كما شجعت ملوك صقلية النورمنديين ، على القيام بنوع من الاستعمار - إن لم يكن من الاسترداد - في سواحل المغرب ، وإن بدأت باخضاع الأراضي الإسلامية مع السماح لأهلها بالبقاء فيها تحت سلطانهم . فكانه نوع من الاستعمار الحديث الذي يهدف إلى السيطرة والاستغلال بدلاً من الاستيطان - والاستثناء هنا يؤيد القاعدة.

هذا ، ولقد كان توطن العرب الهلالية في البرادى على حواف البلاد الزراعية عاملاً مساعداً من عوامل الاضطراب وعدم الاستقرار بالنسبة لمن سواهم في الأطراف الأخرى من المسلمين، ومن غيرهم من الفرنج الأوروبيين في البحر المتوسط.

الموقف منذ العقد الأول من القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م

والملاحظة الهامة في سياسة الزيريين في البحر المتوسط خلال العقد الأول من القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م على عهد يحيى بن تميم ، أن العلاقات بين الزيريين والحماةيين كانت جيدة ، وإن العلاقات بين الدولتين وبين صقلية كانت حسنة هي الأخرى . هذا ، كما كان أسطول المهديّة وقتئذ نشيطا وهو يجوب البحر المتوسط في غارات بعيدة حتى أقاليم البروفانس واللامجدوك (جنوب فرنسا) ، وأنه كان يرغب الروم والجنوبيين والصرب (في بحر الادرياتيك) على دفع الجزية ، كما كان في بعض الأحيان يهاجم سواحل إيطاليا في ساليرنو ونابولي (٤١).

أما عن السياسة الداخلية والإدارة المحلية فكانت مستقرة وإن عانت بعض الشيء من عدم الاستقرار بين أفراد الأسرة الحاكمة . ففي نفس ذلك العقد الأول من عهد يحيى بن تميم ، حدثت محاولة اغتيال للأمير نفسه من قبل بعض أخوته الذين نعتوا بأنهم من طلبة المصامدة أو من المدعين بطلب علم الكيمياء من الأندلسيين ، وأنه كان من المشاركين في المؤامرة فعلا أحد أبناء يحيى وهو أبو الفتح الذي كانت عقريته وزوجته بلالة بنت عمه القاسم بن تميم ، السجن ويصحبتهما ابنهما الصغير، وذلك قبل طردهما إلى مصر على عهد الخليفة الأمر ، بعد وفاة يحيى .

والحقيقة أن ولاية كل من صفاقس وسوسة كانت وقتئذ لأبناء يحيى حيث عهد بحكم الأولى إلى أبي الفتح بن يحيى ، فشارت به ، ومن ثم آلت إلى أخيه على ، رلى العهد ، بينما آلت ولاية سوسة إلى أخيهما الثالث عيسى (٤٢) .

(٤١) هـ - ر. أدريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين : (La Berberie orientale sous les Zirides) ص ٣٠٨-٣٠٩ - حيث الإشارة إلى ابن الأثير وابن عذاري ؛ سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م - حيث غزو بلاد الروم ، سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٢ م ووصول أسطول المهديّة بسبب كثير من بلاد الروم ، في ربيع الآخر سنة ٥٠٨ هـ / سبتمبر سنة ١١١٤ م ، حيث هجوم الروم على ميغورقة واسترجاع على بن يوسف بن تاشفين تلك الجزيرة منهم .

(٤٢) هـ - ر. أدريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين ، ص ٣٠٩-٣١٤ - حيث الاغتيال حسب كل من ابن شداد وابن عذاري وأبي الصلت - وعن أبناء يحيى الذين يصلون =

وفي العقد التالي كانت أحوال إفريقية أكثر تعقيدا ، إذ بدأت العلاقات تسوء . بعض الشيء بين أبناء العمومة الزيريين والحماديين . وكانت فرصة أحسن استغلالها روجار الثاني ملك صقلية . والمهم من كل ذلك أن محمد بن تومرت ، وهو يمر ببلاد الساحل الإفریقی اعتباراً من طرابلس ، ومرورا بالمهدية وتونس وبجاية لا يشير إلى أصدقاء الأحداث السياسية بين الزيريين وبعضهم والبعض الآخر ، ولا إلى التنافس بينهم وبين الصقليين أو حتى مع العرب . وربما يعنى ذلك أن الرجل كان مشغولا تماما بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي كان قد بدأها بشكل جدى من القاهرة والإسكندرية التي لقي من أهلها بعض العنت - ابتداء من مطلع ذلك العقد الثاني من القرن الـ ٦ هـ / ١٢ م .

ففى سنة ٥١٠ هـ / ١١١٧ م كان على بن يحيى صاحب المهدية يخضع جزيرة جربة ، وعلى على شيوخها إيقاف أعمال القرصنة ، كما كان يخضع صاحب تونس : أحمد بن عبد العزيز بن خراسان (٤٣) .

ولى سنة ٥١١ هـ / ١١١٨ م التالية ، وأثناء النزاع بين رافع صاحب قابس وعلى بن يحيى صاحب المهدية بشأن حق امتلاك المراكب التجارية . وتدخل روجار (الصقلی) فى ذلك النزاع . بما يعنى التوفيق إلى جانب حرية التجارة ، وحق رافع فى بناء مركبه التجارى الكبير. هذا ، إلى جانب مطالبة روجار سنة ٥١٢ هـ / ١١١٩ م التالية بأموال كانت موقفة بالمهدية ، الأمر الذى ماطل فيه على بن يحيى بسبب سوء الأحوال المالية ، مما كان سببا فى الوحشة بين على وروجار الذى « أوسع شراً ، وحاول بعد ذلك مكرراً » (٤٤) الأمر الذى جعل روجار الثانى يرسل أسطولاً = عددا إلى ٣٠ (ثلاثين) ولدا و ٢٠ (عشرين) ابنه ، انظر ص ٣١٥ . وانظر أيضا ابن عذارى - سنة ٨ ١١١٤ هـ / ١١١٤ م - حيث ولاية على بن يحيى لمدينة سفاقس ، وعيسى بن يحيى لمدينة سوسة ، وسنة ٩ ١١١٥ هـ / ١١١٥ م - حيث محاولة اغتيال يحيى على أيدي المدعين بعلم الكيمياء من طلبة المصامدة ، واتهام الفتح بن يحيى بالمشاركة فى المؤامرة . (٤٣) ابن عذارى . ط. بروت ، ج ٢ ص ٤٤١ - سنة ١١١٧ هـ / ١١١٧ م - حيث بحث قسيم بن يحيى الأسطول إلى جربة ، فعاصروها إلى أن أمر أهلها بالطاعة ونزلوا على حكمه . (٤٤) ابن عذارى . ص. بروت ، ج ٢ ص ٤٤٣ .

إلى المهدي مهديا، مما شجع الحماديين في القلعة على التدخل في شئون أمير المهديّة.

هكذا ، كان العزيز الحمادي يحاصر في سنة ٥١٤ هـ / ١١٢١ م جزيرة حربة بأسطوله ، كما كان يحاصر تونس ويخضع أميرها أحمد بن عبد العزيز بن خراسان إلى أصحاب القلعة بعد أن كان قد دخل في طاعة الزيريين سنة ٥١٠ / ١١١٧ م ، مما سبقت الإشارة إليه (٤٥). كل هذه الأحداث لانجبد لها صدى في رحلة ابن تومرت المعاصرة لتلك الأحداث ، وذلك في الوقت الذي كان يلتقي فيه بملالة حوالى سنة ٥١٣ هـ / ١١٩٠ م بعبد المؤمن بن علي ، قبيل الوصول إلى مراكش العاصمة في السنة التالية (٥١٤ هـ / ١١٢٠ م) (٤٦).

أما عن الوحشة مع روجار الثاني (الجار) الصقلي فقد بدأت بوادرها على عهد الأمير علي بن يحيى (٥٠٩-٥١٥ هـ / ١١١٥-١١٢١ م) بسبب السفينة التي أنشأها رافع بن مكن صاحب قابس ومن ثم انفجرت بشكل مكشوف على عهد الحسن بن علي (٥١٥-٥٤٣ هـ / ١١٢١-١١٤٨ م) الذي حرّض أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين على أمير صقلية روجار الثاني ، فسير أسطوله المراهبلى سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م بقيادة قائده أبي عبد الله علي بن ميمون ، فهاجم عدداً من حصون الصقلي (روجار) ومنها حصن نيقوطرة بـكلابريا (قلورية بجنوب إيطاليا) ، وعدد منها بالمسي الكثير (٤٧) . وزادت الوحشة بين الحسن وروجار الثاني عندما سَير هذا الأخير أسطوله في ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٥١٧ هـ / ٢٢ يولييه

(٤٥) انظر هـ-ر. ادريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين، ص ٣٧٤ .

(٤٦) انظر هـ-ر. ادريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين، ص ٣٣٣. و١٧٥ هـ-حيث كان ابن تومرت في ملالة سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩ م حسبما يقرر هوشى في لتاريخ السياسى لامبراطورية الموحديين (هوشى ج ١ ص ٤٤٣).

(٤٧) انظر رحلة البحاسى، ص ٣٣٤-٣٣٥، وقارن ابن عذارى، ط.بيروت، ج ٢ ص ٤٤٤-حيث افتتح نيقوطرة، من عمل روجار، صاحب صقلية "وسى نساها وأطفالها وقتل شيوخها، وسلب جمع ما وجدته فيها". وانظر ميشيل أمارى، تاريخ المسلمين في صقلية، ج ٣ ص ٣٨٥:

(Michele Amari, Storia dei MuauImani di Sicilia)

وقارن هـ-ر. ادريس، بلاد المغرب الشرقية على عهد الزيريين (بالفرنسية)، ص ٣٣٤ .

١١٢٣م إلى المهديّة بقيادة عبد الرحمن النصراني الوزير ومساعدته جورجي الأنطاكي (٤٨).

أما عن العمليات الحربية التي قام بها الفاتحان الصقليان في المهديّة فقد تلخّصت في الرسو بجزيرة الأحاسي في اليوم الأول ثم الطواف بالمهديّة لاستطلاع دفاعاتها في اليوم الثاني ، أما في اليوم الثالث فقد تمكّنوا بفضل معونة بعض العرب من الاستيلاء على قصر الديّاس . أما في اليوم الرابع فقد نجح المسلمون في مهاجمة جزيرة الأحاسي وحقّقوا النصر على الصقليين الذي انسحبوا منها إلى مراتبهم ، بعد أن تركوا بعض خيولهم وعددهم هذا . كما نجح المسلمون في إحكام الحصار على قصر الديّاس حتى أخرجوا من كان فيه في ١ جمادى الثاني / ٢٧ يوليّه ، وعددهم ١٠٠ (مائة رجل) وقتلهم (٤٩).

والظاهر أن الحسن أمير المهديّة كان يحرض أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين على غزو بلاد روجار بأسطوله للتخفيف من ضغوطه على المهديّة . وهكذا عندما قام الأسطول المرابطي ذات مرة بمهاجمة بعض السواحل النورمنديّة - ربما دون طلب من أمير المهديّة ، كما يقول التجاني - اعتبر روجار ذلك تحريضاً من جانب الحسن ، الأمر الذي كان يزيد في الوحشة بينهما ، ويغسر في نفس الوقت أنه ١٠١٤م تم الصلح بينهما كما: الصقلي يضمن له القدر (٥٠) . وهذا ما يمكن أن يكون

(٤٨) عن أنشدن جورجي بن ميخائيل الأنطاكي من خدمته في: "قيم بين أشعة" ص ١٠٠. حكمة روجار الثاني الصقلي، انظر رحلة التجاني، ص ٣٣٢ - حيث نجح روجار (لجار) في ضم الأنطاكي إلى جانبه "فأرسل إليه مراكباً أخذته سراً من المهديّة مع أهله وولده، وهم في زى البحارة، إلى صقلية، وهناك دخلوا في خدمته معاونين لعبد الرحمن النصراني صاحب الأشغال هناك في الجبايات، "فصنعوا وأظهروا". وذلك قبل أن يصل جورجي (جرجير) إلى قيادة الأسطول، بل والوزارة.

(٤٩) رحلة التجاني ص ٣٣٦ وانظر ابن عذاري، ط. بيروت، ج ٢ ص ٤١٤، حيث الرصول إلى جزيرة الأحاسي في اليوم الأول، ووصل ٢٣ شبّها في اليوم الثاني، وتكّن العرب في اليوم الثالث من كشف الروم الذين قتلوا خيلهم وطلبوا الأمان، فلم تساعد العرب على ذلك فقتلوا عن آخرهم. مع رواية ابن أبي الصلت عن بعض الطوائف، (٥٠) لرحلة التجاني، ص ٣٣٩ .

تفسيرا مقبولا أيضا لسوء التفاهم بين الحسن وبين ابن عمه الحمادي يحيى بن العزيز.

وهنا لا بأس من الإشارة إلى رواية ابن خلدون التي تنص على أنه بعد ذلك الوعدة إلى ، في سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ، كان الحماديون يخضعون لسلطانهم أمير تونس الرابع من بني حراسان ، وهو أبو علي أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الحق (أول أمراء بني حراسان في تونس) ، بل ويخرجونه من تونس على يد الوزير (الحمادي مطرف بن علي بن حمران) ، وقتله في بجاية في سنة ٥٢٣ هـ . وكان ذلك يعني تنحية تونس (سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٨ م) إلى يد الحماديين الذي يستمر إلى غير نكبة ابن المهدية (سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) حيث كان واليها معد بن المنصور الذي كان قد استأسد عليه أهل تونس (٥١١).

الصراع بين المهدية وبجاية:

وهكذا ، وفي الوقت الذي كانت قد بدأت فيه حرب المطالبة في المغرب الأقصى ، وفي بلاد السوس وماحواليها ، بين عبد المؤمن وبين قبائل لغونة وحلفائهم ، كانت مدينة المهدية عاصمة آخر الزيريين : الحسن بن تيمس (٥١٥-٥٢٣ هـ / ١١٢٤-١١٤٨ م) تولد في سنة ٥٢٣ هـ / ١١٣٤ م في تونس حيث حسكر يحيى بن العزيز ، صاحب بيت (٥٢٣) ، وبمقره من العرب خصوم ميمون بن زياد (الرياحي) - أي الحسن ، ومن بعض مشايخ المهدية نفسها (٥٣) ، كما

(٥١) ابن خلدون، المعبر، ج ٥، ص ٢٠٠، ح ٢٠٠، حراسان في تونس، انظر ماس كوتر، العلاقات والتجارة مع افريقية، بالفرنسية : (Relations et Commerce del'Afrique, par le Comte : Mas Latrie, Paris, 1889)

(٥٢) يحيى بن العزيز بن المنصور (٥١٨-٥٤٧ هـ / ١١٢٧-١١٤٧ م) - انظر إسماعيل العربي، دولة بني غسان، الجزائر ١٩٥٠، ص ١٧ - حيث كان يحيى مثالا للأمراء الذين يرون الحكم مجرد وسيلة لإرضاء شهواتهم.

(٥٣) ابن الأثير، ج ١، ص ٢١-٢٢ - حيث دفع العرب رهائنهم ليحيى، كما وصلته كتب =

تدخل ملك صقلية : روجار الثانى ، بصفته حليفا للحسن : أمير المهديّة ، فبعث
لجدة بحرية من ٢٠ (عشرين) قطعة أحاطت بمراكب بهجاية ، كما أتى العرب
الهالكية بقيادة ميمون بن زياد ، ليعدلوا ميزان النزاع إلى جانب أمير المهديّة ، وأن
أنهت رواية ابن الأثير ذلك النزاع بالقول : «وأقام روجار الفرنجى مظهراً للحسن أنه
مهاده وموافقه ، وهو مع ذلك يعتر الشوانى ، ويكثر عددها» (٥٤).

جزيرة جربة ،

هذا ، ولا شك أن أعمال القرصنة وقطع الطريق التي كان يقوم بها أهل جزيرة
جربة ، المواجهة لمدينة قابس ، كانت من الأسباب التي تدرع بها روجار الثانى
الصقلى لزيادة قطع أسطوله ، الأمر الذي مهد له الهيمنة على السواحل الإفريقية
المواجهة لبلاد . فبعد اشتراكه فى فك الحصار عن المهديّة كان عليه أن يستولى
على جزيرة جربة التي وصف أهلها بأنهم : «طفوا فلا يدخلون تحت سلطان ، فهم
مفسدون يقطعون الطريق» (٥٥) ، وهذا ولو أن روجار الثانى كان يعرف كيف
يهادن المسلمين ويكتسب رضاهم - رغم أطماعه - فقد أعطي الأمان للجريين
المنهزمين ، وهلك أسراهم وسبيهم ، وحرّهم - الأمر الذى يدعو إلى عجب ابن
الأثير ، الذى يختم الرواية بقوله : والله أعلم بذلك (٥٦).

= بعض مشايخ المهديّة. أما عن قائد ذلك العسكر فكان أحد الفقهاء من أصحاب يحيى ، وهو
مطرف بن حمدون ، وأنه فى الوقت الذى كان فيه عسكر يحيى يستعدون لاستلام المهديّة ، ظهر
عليهم أهلها فجأة بفضل شجاعة أميرهم الحسن الذى خرج بنفسه من باب الشاطئ رافعا
سيفه ، وهو يعلن عن نفسه ، الأمر الذى كان له تأثيره النفسى على المهاجمين الذين انهزموا
أمامه فى القرو والحين.

(٥٤) ابن الأثير ، ج ١٩ ص ٣٢.

(٥٥) ابن الأثير ، ج ١٩ ص ٣٢ - حيث النص على نزول جمع من الفرنج فى أسطول كبير من
مشهورى فرسان الفرنج ، وأن القتال الشدید انتهى بنهزام أهل جربة ، وملك الفرنج الجزيرة
وقسموا أموالها وسبوا نساءها وأطفالها.

(٥٦) ابن الأثير ، ج ١٩ ص ٣٢ .

بين القاهرة والمهدية وبيلرم ،

أما عن العلاقات الطيبة بين المسلمين في المشرق وإخوانهم مسلمي المغرب ، فكانت مرفوضة من جانب الملك روجار الثاني الصقلي . ففي سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١م عندما يعرف عن طريق مخبراته أن مركبا سارت من مصر على أواخر أيام الدولة الفاطمية ، وتحمل هدية إلى الأمير الحسن بن علي ، أمير المهدية التي كانت في حكم التابعة للقاهرة رغم استقلالها الفعلي ، يسير أسطول له لأخذ المركب ومصادرة الهدية . ورغم أن ذلك يعتبر غدرا بالحسن - رغم ما كان يربطه ببيلرم من معاهدات هدنة وسلام - فإن هذا الأخير كان لا يستطيع إلا الرضوخ للأمر الواقع . فهو يرسل إلى الملك الصقلي ، ويطلب تجديد الهدنة « لأجل حمل الغلات من صقلية إلى إفريقية ، لأن الغلاء كان فيها شديدا والموت كثيرا » (٥٧) .

طرابلس (الغرب) ،

وكما أنزل روجار العقربة بجزيرة جربة بسبب القرصنة وقطع الطريق سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤م ، كان يعاقب بالمثل مدينة طرابلس (الغرب) التي كانت تحت حكم بني مطروح ، وبموافقة ضمنية من صاحب المهدية ، الخليف ، إذ حصرها في أواخر سنة ٥٣٧ هـ / يولييه ١١٤٣م ، بالأسطول لأن أهلها لم يدخلوا في طاعة الأمير الحسن بن علي ، بل ظلوا مشائين له ، مستقلين عن دولته : « قد قدموا عليهم من بني مطروح مشايخ يديرون أمرهم » .

والمهم أن مدينة القراصنة المجاهدين ، لم تستطع دفع المهاجمين الذين اعتلوا أسوارها بفضل الكلايب ، كما أن النجدة التي أتت من عرب الضواحي المجاورين لم تستطع مواجهة الأسطول الصقلي ، إذ : « انهموا هزيمة فاحشة ، وقتل منهم خلق كثير ومحرق الباقيون بالأسطول » ، وانتهى الأمر بنهب أهل البلد وكذلك العرب (٥٨) .

(٥٧) ابن الأثير، ج ١١ ص ٩٠ .

(٥٨) ابن الأثير، ج ١١ ص ٩١ ، وقارن التجاني، ص ٢٤١ - حيث النص على أنه بعد انتقال =

جيجل :

ورجع الفرنج الصقليون بالأسلحة والأثقال والدواب إلى صقلية لكي يجددوا أسلحتهم ، ويعودوا إلى المغرب من جديد ليهاجموا مدينة جيجل في شرق بجاية . على الرأس الشرقى للخليج بين المدينتين . ولم يتمكن أهل البلد الضائع في سفوح الساحل الجزائري من مواجهة الصقليين فهربوا من بلدهم إلى البراري والجبال . ودخل الفرنج النورمنديون البلد «وسبوا من أدركوا منها ، وهدموها ، وأحرقوا القصر الذي بناه يحيى بن العزيزين حماد للنزهة ثم عادوا» (٥٩) .

الموقف من مقاومة الهيمنة الصقلية الفرنجية :

واضح من هذه الحملات أن ملك صقلية كان يرى أنه صاحب البحر بالامتياز ، وأن العديد من المدن المغربية الساحلية وقفت من تلك الهيمنة موقف المعارضة بالدجوء إلى قطع الطريق في البحر أو القرصنة ، وأنهم كانوا يقعون تحت طائلة العقاب بالأسطول الصقلي ، على أساس أنهم خارجون على سلطانه أو سلطان تابعه الأمير الزييري أو الحمادي . وهكذا كانت مدينة برشك هدفا للأسطول الصقلي الذي فتحها في سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥-٥ م ، وقام الصقليون بقتل أهلها وسبأ حريمها اللاتي عرضن للبيع على المسلمين في صقلية - وذلك في نفس السنة التي كان يتوفى فيها الأمير تاشفين (٦٠) .

وفي سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥-٦ م التالية ، كانت جزائر قرقنة (Pantelleria) ،

«المبيدين إلى مصر استولى بنو خزرون على طرابلس، ولم تنزل بأيدي الزناتيين إلى سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥-٦ م. وأنه بسبب المجاعة وخلاف أهل طرابلس لمجعت حملة روجار الثاني التي قادها جورجى الانطاكي، وان هذا الأخير أبقى فيها جنده من المسلمين والصقليين، وولى على البلد شيخه : أبا يحيى بن مطروح التميمي، وجعل قاضيهم رجلا منهم يعرف بأبي الحجاج يوسف بن زيري، وهو صاحب التأليف المعروف "بالكافي في الوثائق".

(٥٩) ابن الأثير، ج ١١ ص ٩٢.

(٦٠) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٠٢.

في مواجهة رأس بونته هدفا لغارة ردمية : تدميرية . فلقد سار إليها الأسطول الصقلي « ففتحوها وقتلوا رجالها ، وسبوا حريمهم » . وعندما أرسل الأمير الحسن بن علي إلى الملك الصقلي روجار الثاني يذكره بما بينهم من العهود ، اعتذر بأن أولئك المهاجمين لم يكونوا من رعيته الخاضعين لحكمه (٦١) ، فكأنه كانت قد نظمت في الجانب النورمندی الصقلي شبكة قرصنة أهلية تعمل لحسابها الخاص ، فكأنها قوات معونة ، إلى جانب منظمة الأسطول الصقلي الحكومي الرسمية.

غزو طرابلس (المغرب) :

ويظهر من سيناريو الأحداث التالية أن العمليات الحربية الصقلية السابقة كانت مجرد ردود فعل غير منظمة لأعمال المقاومة المغربية الأهلية ضد الهيمنة البحرية الصقلية . ولكنه ابتداء من سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م تبدأ سياسة صقلية جديدة إزاء المغرب ، تقضي بفرض الهيمنة بشكل مباشر على سواحل المغرب . وكان البدء بأقصى تلك المواطن الشرقية بالنسبة لصقلية ، وهي مدينة طرابلس (المغرب) التي كانت أشبه ماتكون بمدينة - دولة أو بجمهورية مستقلة بتعبير آخر.

فمن مطلع العقد الخامس من القرن السادس في سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، ولما كانت الدولة المرابطية تنهار نهائيا بسقوط مراكش العاصمة ، كان روجار الثاني ، ملك صقلية ، يفتتح مقاومة القرصنة المغربية بسياسة هيمنة صريحة على سواحل المغرب ، وإن اختلفت عن سياسة الاستيطان الاستعماري المباشر ، التي تعادل حرب الاسترداد في الأندلس ، وأن اختلفت عنها من حيث كونها توسعا فيما وراء البحار.

ففي يوم ٣ من المحرم من تلك السنة ١٥ يونيو ١١٤٦ | شهد روجار الثاني اضطرابات تسود مدينة طرابلس ، وأرسل الأسطول يحاصر المدينة بحرا وبراً . وأثناء انشغال حكام المدينة من شيوخ بني مطروح بفتنة أثارها أحد زعماء الملاحين الذي كان عائداً من الحج مع جماعة من أهله في المدينة ، انتهر الفرنج الصقليون (٦١) ابن الأثير، ج ١٩ ص ١٠٦ .

الفرصة ، ونصبوا السلالم على سور المدينة ، وصعدوا إلى أعلاه وبذلك سقطت المدينة التي أعطت أسماها للمنطقة الغربية من البلاد الليبية ، عنوة بين أيدي الفرنج الصقليين . وبذلك ثاروا لما كان ينزله بهم غزاة البحر من الطرابلسيين ، فسفكروا الدماء ، وسبوا النساء (٦٢) .

ولكنه تبعا لسياسة التهديد والتهدة التي كان يتبعها روجار (رجار : لجار) إزاء المسلمين - حتى نال التعظيم والتبجيل من الأدرسي ، صاحب نزهة المشتاق - نودي بالأمان بعد الفتح ، فرجع القارون . واستمر الصقليون يحكمون المدينة حكما مباشرا لمدة ٦ (ستة أشهر) ، انتهت بإقرار نظام الحكم غير المباشر ، عن طريق استخدام حكممة محلية ، يرأسها عدد من زعماء المدينة ، تشكلت في مجلس من الشيوخ من بني مطروح ، ومن جماعة الخباج آل الملم ، بعد أن أعطي المستولون الجدد الرهائن الذين سير بهم بحرا إلى صقلية . والحقيقة أن ذلك كان لفترة تجريبية لم تدم طويلا ، قبل عودة الرهائن إلى مدينتهم . فلقد عهد بالحكم بعدئذ إلى واحد من بني مطروح يحامه ، وكان عليه أن يقدم رهائنه دون غيره .

والمهم أنه كما كان الحال في المكنع الجديد أيضا ، أن ألزم روجار أهل صقاية والروم بالسفر إلى طرابلس لتقوية العلاقات الاقتصادية العادية بين البلدين ، الأمر الذي أدى إلى سرعة الإعمار وصلاح الأحوال (٦٣) .

والمهم أيضا أن فرض السيادة الصقلية على تراب طرابلس كان موافقا لبداية إقرار عبد المؤمن للنفوذ الموحد بالأندلس (٦٤) . فكأنه كان هناك سباق في إقرار سياسة متوازنة بين القوتين : التوهمدية القرطبية في صقلية ، والوحدة المؤمنية في المغرب الأقصى من أجل اقتطاع أطراف الأقاليم المتاخمة لبلاد كل منهما .

(٦٢) ابن الأثير، ج ١ ص ٨١ ، وقارن عيين التواريخ، لابن شاذي الكتبي، ج ٢ ص ٤٠٧ .

(٦٣) ابن الأثير، ج ١ ص ١٠٨-١٠٩ .

(٦٤) ابن الأثير، ج ١ ص ١١٥-١١٦ حيث امتيلا - عبد المؤمن على جزيرة الأندلس

(سنة ١١٤٦/٥٤١) .

قابس محمية صقلية :

فى هذه الظروف كانت مدينة قابس المستقلة (٦٥) القريبة من جزيرة جربة ، فى قم خليج قابس ، تدخل فى طاعة الفرنج الصقليين ، ولكنها لاتبث أن تتخلص من نير الاحتلال (٦٦) . ففى سنة ٥٤٢هـ / ٨-١١٤٧م توفى أمير قابس التى كانت مستقلة تحت حكم أميرها رشيد (بن رافع بن جامع) الذى كانت تربطه بعرب بنى قرة رابطة الحلف والمصاهرة . فقام بالحكم مكانه مولاة يوسف بصفته المشرف على القصر الأميرى . والظاهر أن المولى يوسف طمع فى حكم الولاية ، فطرد الابن الأكبر

(٦٥) أول من استقل بقابس-حسب رواية ابن خلدون-على عهد المعز بن باديس (ج٣ص١٩٥) هم جماعة من الصنهاجيين ، من بنى محمد ، هم الاخوة الثلاث : المعز بن محمد ثم ابراهيم ومن بعدهما أخوها : ماضى بن محمد الذى تخلص منه أهل المدينة بالقتل لسره سيرته ، وذلك على عهد قيس بن المعز بن باديس (ت ٥٠١هـ / ٧ - ١١٠٦ ج٣ص٤٧٧) . فكان قابس كانت تحت حكم بنى محمد الصنهاجيين متتعة بما يشبه الاستقلال بالحكم الذاتى تحت هيمنة الزيريين .

ويقتل ماضى بن محمد آل حكم قابس من الصنهاجيين إلى جماعة عرب بنى جامع من الدهمانيين : أحد فروع بنى رباح . وكان أول من وليها منهم : بكر بن كامل بن جامع الذى استبد بالصنهاجية ، بل واستقل عن الزيريين ، حيث نازل المهديّة إلى جانب أحد أفراد الأسرة الزيرية : مغانى بن قيس بن المعز-ابن خلدون ، المعز ، ج٦ص١٦٦ .

(٦٦) وبعد بكر بن كامل قام بأمر قابس (الهامش السابق) رافع بن مكن الذى استفحل بها ملكه . وفى سنة ٥٤١هـ / ٧-١١٤٦م ، عندما داهم أسطول صقلية قابس فر رافع بن مكن بن جامع إلى بنى جلدة الدهمانيين من بنى رباح إلى القيروان التى آلت إليه بعد أن انقسم شيوخ بنى دهمان البلاد وعينوا له القيروان ، وأمكنوه منها ، ومن ثم سالم السلطان الزيرى ، وارتفعت بينهما الفتنة .

والمهم أن أمر رافع استفحل حتى تسب إليه اختطاط "بحر العروسين" ، معنى الماجل الكبير بالقيروان ، والذى يتعته التجانى بأنه من مصانع (خزانات الماء) الملك ، وحيث يوجد نقش على أحد أبوابه (فتحاته) يرجع إلى سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦ باسم "الأمير الشهم رافع بن أمير الأمراء . مكن بن جامع (رحلة التجانى ، ص ٩٥ ، ابن خلدون ، ج٦ص١٦٦ ، وقارن ابن الأثير فى المتن) . وبعد رافع ولى ابنه رشيد بن نافع بن جامع (ابن خلدون ، ج٦ص١٦٦ ، وقارن التجانى ، ص ٩٥-حيث الاسم : رافع بن كامل بن جامع . وابن الأثير فى المتن) الذى بلغ ملك بنى جامع الذروة أيامه بقابس ، فهو الذى بنى قصر العروسين ، كما ضرب السكة الرشدية .

لرشيد ، وهو : معمر ، وأعلن ولاية الابن الأصغر ، وهو محمد ، تحت وصايته . ولا تدرى أن كان في الأمر مؤامرة حريم من مؤامرات البلاط التي كانت معهودة في قصور تلك العصور ، والتي كانت تعج بالحريم والفلماني . وفي ذلك تقول الرواية أن المولى يوسف « تعرض لحرم سيده - والعهد على ناقله - ومنهن امرأة من بنى قرة ، شكت إلى أخوتها فأتوا لأخذها ، فرفض (يوسف) ، وقال « حرمة مولاي » (٦٧) .

وتطور الأمر إلى استنجد معمر بن رشيد وأصهار والده بنى قرة بالأمير الحسن بن على صاحب المهديّة ، وبإعلان يوسف طاعته لملك صقلية الذي أرسل إليه الخلة ، كما كان الحال بالنسبة لبنى مطروح في طرابلس . ولكن الكلمة الأخيرة في هذا النزاع كانت لأهل قايس بسبب الذين انحازوا إلى جانب الحسن ، وسلموا المدينة إلى عسكره . وهنا أخذ يوسف أسيراً ، ومثّل به كخائن لأمانة سيده . وولى معمر قايس مكان أخيه الصغير محمد (٦٨) .

الشدة العظمى وفتح المهديّة :

والمهم بعد ذلك أن أخا يوسف وولده قصدوا ملك صقلية ووجار ، فكانت تلك الواقعة سببا في فتح المهديّة نفسها في السنة التالية .

كما سبق يتضح أن ووجار الثانى ، ملك صقلية كان يوالى ضعفه على أمارات الطوائف في السواحل الأفريقية التي كانت تذهن بطبيعة الحال إلى هيمنته خلال سنوات العقد الرابع من القرن السادس الهجرى / ١٢ م ، بينما كان كل من عبد

(٦٧) انظر ابن الأثير ، ج ١١ ص ١٢٠-١٢١ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٦ حيث لا يعرف هنا مؤامرة حريم البلاط التي قتل صلب رواية ابن الأثير ، فهو يكتفى بالإشارة إلى ولاية محمد بن رشيد بعد ذلك ، وقلبة مولاه يوسف عليه ، ثم استبداده بملك قايس بعد طرد محمد . ويقتضى يوسف بإعلان الطاعة لروجر ملك صقلية ، وثورة أهل قايس ، الأمر الذى انتهى بتدخل الملك الصقلى الذى حاصر المدينة التى كان بها آخر بنى جامع ، وهو مذاق بن رشيد (بن كامل) ، وهو الذى قرع عن قايس ، وسلمها للموحدين قبل أن يلحق بعهد المزمع .

(٦٨) ابن الأثير ، ج ١١ ص ١٢٠-١٢١ .

المؤمن، وعلى بن يوسف مشغولين بحرب المطاولة التي انتهت بسقوط دولة لتونة المرابطية. وكانت فرصة انفراد فيها الملك الصقلي بامارات الطوائف الإفريقية، مما تقدمت الإشارة إليه. وإلى جانب مأساة الحروب المحلية هذه في إفريقية، وتطلع الجميع إلى الاستعانة بالسيد القرطبي القابع فيما وراء البحر في بلرم بصقلية، أنت الظروف المحلية الصعبة، من: الجذب والقحط والوباء خلال السنوات الأخيرة من ذلك العقد الرابع، بل واضطرار أعداد من أهل إفريقية إلى الهجرة إلى صقلية بحثا عن الطعام (٦٩) لتزيد الطين بلة.

وكان من الطبيعي أن تؤدي كل تلك الظروف السيئة من سياسية واجتماعية - وخاصة مشكلة رشيد في قبايس سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م - إلى سقوط المهدية عاصمة الدولة الزيرية، ولكن بين أيدي النورمانيين من الفرنج الصقليين، هذه المرة. أما عن تأخير سقوط الدولة الزيرية إلى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، فكان فضلا من روجار الثاني الذي وقى للحسن صاحب المهدية بمدة السنتين اللتين كانتا تكملان فترة الهدنة والسلم بينهما، فكان المهدية سقطت كما تسقط الشجرة الناضجة بيدي من كان ينتظرها تحت الشجرة - وذلك في نهاية شدة الغلاء والقحط سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م.

مسير الأسطول الصقلي إلى المهدية:

فأمام تلك الشدة العظمى وما كان يترتب عليها من ضعف المهدية وبلاطها الذي بلغ الذروة، انتهز الملك روجار الفرصة: «فعمّر حوالي ٢٥٠ سفينة مملوءة بالرجال والسلاح والأقوات». وسار الأسطول بقيادة جورجى الانطاكى نحو المهدية. وعندما

(٦٩) انظر ابن الأثير، ج ١١ ص ١٢١ - حيث أدى الغلاء المتواصل في إفريقية بدءا من سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م وحتى ٥٤٣هـ / ١١٤٨م إلى "أن يأكل الناس بعضهم بعضا، وقصد أهل البوادي المدن من الجوع فأغلقها أهلها دونهم، وتبعه وباء وموت كثير.... فمضت البلاد.... وسار كثير منهم إلى صقلية في طلب القوت، وقارن رحلة التجاني، ص ٣٤١ - حيث النص بمناسبة الفتح الصقلي للمهدية أن الغلاء المتوالى كان أصعب أكثر جند الحسن وأهلك خيلهم..

وصل إلى جزيرة قوصرة - بين المهديّة وصقلية - أخذ أحد المراكب القادمة من المهديّة ، واستخدم ما فيها من الحمام الزاجل لإرسال إشارة تقريرية تدل على أن الاسطول الصقلّي «المخدول» كان في طريقه إلى حرب الباسيليوس (Basileus) قيصر الروم ، في عقر داره بالقسطنطينية (٧٠).

وكان قصد قائد الاسطول الصقلّي ان يصل إلى المهديّة بفترة «وفى وقت السحر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها» صياحاً . ولكنه لما عوّقت الأحوال الجوية - بسبب ركود الرياح - تلك المفاجأة ، إذ رآهم أهل المهديّة وهم يتقدمون بالمقاذيف ، رأى جورجي أن يتذرع بالمجنّ : «طالباً بشأّر محمد بن رشيد - أمير قابس الصغير المخلوع - وأنه يحترم الهدنة ، ولا يطلب إلا المساعدة العسكرية من المهديّة».

موقف الحسن : المهديّة مدينة مفتوحة ،

وعندئذ جمع الحسن مجلس شورته من القضاة والأعيان . ومع أن النقاش انتهى إلى ضرورة الدفاع ضد العدو بفضل حصانة البلد ، فإن الأمير كان له رأى آخر هدفه «سلامة المسلمين ...» وإن الرأى أن يخرج بالأهل والولد ، وترك البلد ، ومن رأى أن يفعل ذلك ، فليبادر معناً . وهكذا خرج الناس على وجوههم ، ومن الناس من اختفى عند النصارى ، ولم يكنائس . كل ذلك قبل أن يتمكن الاسطول الذي منعه الرياح من الرسو إلا بعد ثلثي النهار ، حتى خرج كل من أراد الخروج.

(٧٠) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٢٥-١٢٦ ، وقارن رحلة السجاني ، ص ٣٤٠-٣٤١- حيث تقدمت الغزوة الصقلية للمهديّة تتمثل في سوء العلاقة بين صاحب بحاية وصاحب المهديّة ، الأمر الذي دفع الحمادي إلى أن يبعث اسطولاً لحصار المهديّة بحراً وجيشاً يحاصرها براً ، الأمر الذي دعا الحسن بن علي إلى أن يستمد لجار (روجار) الذي أمده بأسطوله الصقلّي أما عن مقدمات الأعمال الحربية بين روجار والحسن فتتمثلت في أخذ الاسطول الصقلّي بعض المراكب الراسية في المهديّة بأسمائها إلى صقلية ، وبصنعها المركب الذي كان أعده الحسن يذخائر منوكة للحافظ العبيدي في مصر .

أما عن عملية غزو المهديّة فقد تمت سنة ٥٤٣ هـ حيث طلع جورجي (جرجير) عني المهديّة بهـ ٣٠ (ثلاثمائة) مركباً للفرنج بحجة طلب عسكر لمساعدة ابن رشيد بقابس وأن جورجي (بن منبج) خادعهم (أهل المهديّة) بأنهم جاءوا مدداً له (للحسن بن علي).

وهكذا دخل الفرنج البلد «بغير مانع ولا دافع» ودخل جورجي القصر «فوجده على حاله ... وفيه جماعة من حظايه ... وختم على الخزائن» . وكانت نهاية آل زيري (٧١) ..

والمهم أن عاصمة عبيد الله المهدي «نهبت مقدار ساعتين ، ونودي بالأمان فخرج من كان مستخفياً» . وفي نهاية اليوم الثاني أرسل جورجي إلى من قرب من العرب فاستقبلهم وأحسن إليهم ، وأعطاهم المال الجزيل . ومن ثم أرسل الأمان إلى من خرج من أهل المهديّة ، «وبعث إليهم الدواب يحملون عليها الأطفال والنساء ، وكانوا قد أشفروا على الهلاك جوعاً» . «ولم تمض جمعة حتى رجع أكثر أهل البلد» .

أما الأمير الحسن فسار بأهله وولده وخواصه قاصداً الزعيم الرياحي محرز بن زياد بالمعلقة (٧٢) . وأقام الحسن لدى الزعيم العربي عدة شهور ، وهو كاره لذلك . وأخيراً فكر في المسير إلى مصر محرراً ولكنه خشى الأسطول الصقلي . وتقول الرواية إنه عزم على المسير إلى عبد المؤمن ، ولكن ابن عمه يحيى بن العزيز الحمادي لم يسمح له بذلك بل سيره إلى مدينة الجزائر (جزائر بن مرغناني) حيث بقي هناك وأولاده - تحت التعطف - إلى أن ملك عبد المؤمن بن علي بجاية في سنة ٥٤٧هـ /

(٧١) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٢٧ - حيث تعداد الزيريين ٩ (تسعة) ملوك، ومدة إقامتهم من سنة ٣٣٥ - ٥٤٣هـ / ٩٤٦ - ١١٤٨م، تعادل ٢٠٨ سنة، وانظر رحلة الشجاني، ص ٣٤١ - حيث قرر الحسن ترك المدينة، ووصول الأسطول الصقلي بعد أن وافته الروح فوجدوا المهديّة خالية، وان روجر (جنار) أمن الفارين من المهديّة فعادوا وفرق عليهم الطعام والمال، فأغتنط الناس بالمهديّة لما رأوا من هذا التصاري.

وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ١٦٢ - حيث النص على أن الحسن كان قد توجه صريخاً لمحرز بن زياد الفنادعي، صاحب ابن خراسان : صاحب تونس، فلم يجد صريخاً (محالها) عند المهديّة... ورحل واتبعه الناس، ودخل العدو المدينة يملكوها دون دفاع. ووجد جورجي القصر على ما هو لم يرفع الحسن إلا ما خلف... فأمن الناس وأبقاهم تحت إبالته ورد الفارين إلى أماكنهم.

(٧٢) انظر كتاب الاستبصار، ص ١٢٢ - حيث المعلقة "أحد قصور المعلقة". وينازره من أقرب ما يكون من البقاء، مفرط العظم والعلو.

١١٥٢م (٧٣).

سقوط مدن الساحل:

وكان أخذ المهدية نذيرا بسقوط بقية مدن الساحل ، مثل سفاقس ، بعد مقاومة دامت أسبوعا بفضل من أتاها من العرب . ولكن الأمر انتهى في ٢٣ من صفر سنة ٥٤٣ هـ / ١٥ يولييه ١١٤٨م بأسر من تبقى من الرجال وسمى الحريم ثم نودي بالأمان.

أما عن سوسة (ميناء القيروان) فقد استسلمت بعد خروج علي بن الحسن إلى أبيه بالجزائر. فلما خرج بالناس دخل الفرنج المدينة دون قتال ، وبعد ذلك وصلت كتب ووجار لجميع أهل إفريقية بالأمان والمواعيد المحسنة.

كل ذلك والنجاح مصاحب للأسطول الصقلي وقائده جورجي الذي لم يلق مقاومة

(٧٣) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٢٧-١٢٨ وقارن رحلة الشجاني، ص ٢٤١-٢٤٣ حيث قرر الحسن الذهاب إلى مصر ثم رأى المسير إلى عبد المؤمن، فانفذ كبار ولده يحيى ويحيى وعابا إلى ابن عمه يحيى بن العزيز الذي أرسل أخاه قائد بن العزيز لاستقبال الحسن، والعدل به عن بهجة إلى الجزائر، ففعل... ونزلوا في مكان لا يليق بهم.

وقارن أبو خلدون، ج ٦ ص ١٦٢- حيث "أن الحسن بن علي (يحيى أصلا) لحق بالعرب من رباح وكبيرهم محمد بن زياد الفادعي، صاحب المعلقة (القلعة أصلا في رأس بونة) فلم يجد لديهم موقعا، وأراد الرحيل إلى مصر (للمحافظ : عبد المجيد).

فأرصد له جرجي، وأرسل إلى المغرب، وأجاز إلى بونة، وبها التحارث بن منصور وأخوه العزيز ثم توجه إلى قسنطينة وبها سيع بن العزيز أخو يحيى صاحب بهجة، فبعث إليه من أجازته إلى الجزائر (جزائر بني مؤغثاي)، ونزل على ابن العزيز (سيع) فأحسن نزله، وجاوره إلى أن شجع المؤيدون الجزائر سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م... فخرج إلى عبد المؤمن فلقاه تكروما وقبولا، ولحق به، وصحبته إلى إفريقية في غزواته الأولى (ثم الثانية سنة ٥٧(٥)هـ)، فنال المهدية وحاصرها أشهرًا ثم اقتصرها سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م وأسكن بها الحسن، وأقطع... وأقام هناك ٨(ثمان) سنوات إلى أن استدعاه يوسف ابن عبد المؤمن سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٧م إلى مراكش. فهلك وهو الطريق في تامستا.

عنيدة إلا في قلعة اقلبيبة الحصينة، في شبه جزيرة بونة (قرب المعلقة) التي اجتمع إليها العرب وهزموا الفرنج الذين قتل منهم خلق كثير، فعاد المهزمون منهم إلى المهديّة.

أما عن مدينة مليانة فلا نعرف إلا أن الموحدين استعادوها قريب ذلك الوقت في سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م (٧٤).

وبذلك صار للفرنج الصقليين ما بين طرابلس (الغرب) وتونس، ومن المغرب إلى ما دون القيروان - والله أعلم (٧٥).

وفي ختام هذا العرض المثير للتوسع الصقلي النورمندي خلال العقود الأربعة من النصف الأول للقرن السادس الهجري / ١٢م، يعرض ابن الأثير للعلاقات العدائية التي كانت سائدة وقتئذ بين فرنج صقلية وروم القسطنطينية، وكأنها خاتمة لتفسير الظروف الوحيدة التي كانت مساندة للجانب الإفريقي بأطرافه المختلفة، في صراع ضد الهيمنة الصقلية. ويترتب ذلك على أنه كانت بين صاحب صقلية وملك الروم حروب دامت عدة سنين. «فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين، ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد إفريقية» (٧٦).

وإذا كانت رواية ابن الأثير تشير بعد ذلك إلى أن مات رجار لروحاني من الظفر كان بفضل قائده ووزيره جورجى بن ميخائيل الانطاكي الذي توفي في سنة (٧٤) روض القرطاس، ص ١٩١.

(٧٥) ابن الأثير، ج ١١ ص ١١٨-١١٩ وقارن رحلة التجاني، ص ٣٠: عن سوسة، حيث «العرب في سوسة استقرت آخرًا تحت ملك جهارة بن كامل بن سرحان بن إيس العييني، ومن يده أخذها الصاري حين أخذوا المهديّة من يد الحس». وص ٧٤-عن صفاقس، حيث «استيلاء روجار (لجار) عليها سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م - وأخذ الرهائي، ص ٢٤٢، عن طرابلس (الغرب) - حيث بقيت ١٢ (اثنا عشرة سنة) تحت حكم النصارى إلى وصول الموحدين إفريقية.

(٧٦) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٤٥ - حيث الإشارة إلى أن القتال بين الصقليين والروم كان برا وبحرا، وأن الظفر عادة ما كان لصاحب صقلية حتى إن أسطوله وصل في بعض السنين إلى مدينة القسطنطينية، ودخل فم الميناء ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالثياب.

٥٤٦هـ / ١١٥١م وكانت وفاته سبها في هدوء الأحوال ، وتنفس المسلمون في إفريقية الصعداء (٧٧). فهنا لا بأس من الإشارة إلى أنه في تلك السنة التي مات فيها جورجى الانطاكي (سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م) كان الروم البيزنطيون يستولون على مدينة عسقلان (جنوب الشام) بعد أن عجزت الحامية عن الدفاع عنها ، وطلبت الأمان (٧٨). والذي نراه انه ينبغي الإشارة أيضا إلى أن النهضة المغربية ، وخاصة على المستوى السياسى والعسكرى - إلى جانب الحضارى كانت من الأسباب الرئيسية لإعادة التوازن إلى كفتي الميزان في البلاد الافريقية بعد اختلالها ، وكذلك الأمر بالنسبة للأحوال المختلة في الأندلس ، وهذا مالا يغيب عن فطنة ابن الأثير بطبيعة الحال . ويبدأ ذلك التحول في ميزان القوى بين الصقليين والموحدين بغزو مدينة بجاية ، وإنهاء حكم بنى حماد الزيريين.

فتح بجاية سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م

بدأ عبد المؤمن في تنفيذ الوعد الذي كان قد قطعه على نفسه سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م لأهل إفريقية عند سقوط المهدية بأن ينصرهم «ولو بعد حين» (ماياتى ، ص ٤٠١). والحقيقة أن رواية فتح بجاية تعبر عن الظروف الحرجة التي كانت تمر بها دولة الخليفة عبد المؤمن في ذلك الوقت من سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م ، وذلك عقب فترة «الاعتراف» والتهديد في بلاد المغرب . والواقع أن الحشد العسكرى الكبير قد بدأ في سلا في اواخر سنة ٥٤٦هـ / مارس ١١٥٢م ، ومن حيث كان الخروج بعد خمسة أشهر ، في شهر صفر سنة ٥٤٧هـ / مايو ١١٥٢م (٧٩) .

(٧٧) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٤٥- هذا مع الإشارة إلى أن جورجى الانطاكي أُلْتُت به عدة أمراض، منها البواسير والحصى، ومات في سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م فسكنت الغمة، واستراح الناس من شره ولسادته، ولم يكن لصاحب صقلية من يفي مقامه بعده .

(٧٨) انظر ابن شاکر الكتنبى، عيون التاريخ، ج ١٢ ص ٤٤٤-حولية سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م.

(٧٩) انظر النويرى، ابو صيف، ص ٤١٥ ، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٥- حيث النص على ان سبب فتح عبد المؤمن لإفريقية هو اختلال الأمراء واستطالة العرب عليها بالعث والفساد =

بناء رباط الفتح :

وهنا كانت بداية العمل فى إنشاء مدينة رباط الفتح ، وإجراء الماء من عين غبولة إلى هناك ، ثم حفر أساسات المدينة والقصر أو القسبة ، الأمر الذى تم خلال الأشهر الخمسة (٨٠) . وأثناء إنجاز تلك الأعمال الإنشائية فى رباط سلا الجديد (رباط الفتح) كانت حشود العساكر تغد على سلا ، الأمر الذى دعا إلى الظن أن العمليات العسكرية المنتظرة كانت ستوجه إلى الأندلس . وفي ذلك يقول البيهقي : « وترك (عبد المؤمن) على أشغالها (سلا) عبد الحق بن إبراهيم بن جامع ، فمشينا ... وقال الناس « لير الأندلس يسير » (٨١) . وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن هذه المقولة أدت إلى الربط بين بناء رباط الفتح (الرباط العاصمة) وفتح الأندلس على أيدي الموحدين ، وهذا ليس بصحيح من وجهة النظر العسكرية من حيث أن سلا ترتبط استراتيجيا مع بلد برغواطة (وبلادها تامسنا) حقيقة ، بينما تعتبر سبتة ، من حيث هى شاطئ المجاز والعبور ، الرباط الحقيقي للأندلس .

والمهم أنه سرعان ما اتضح أن المقصود بالعملية العسكرية الكبرى المنطلقة من سلا هى مدينة بجاية : العاصمة الحمادية ، المهددة ، من جانب روجار الصقلي . فقد صدرت الأوامر بمنع الناس من السفر على الطرق المؤدية إلى المغرب الأوسط ، براً وبحراً ، وهى المسالك الموصلة ما بين سلا ومكناسة وقاس وتلمسان . « وشدّد (عبد المؤمن) فى ذلك ، وجعل أمناً على الطرق لئلا يسلكها أحد ، حتى أنه أنزل عقوبة

= حيث حاصروا القيروان ، كما قام الوثيس الرياحى المرداسى (العريس) بدخول بجاية وملكها سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م ، فاجتمع عبد المؤمن الرحلة إلى غزو إفريقية بعد استشارة الشيخ أبى حفص ، وأبى إبراهيم وغيرهما من الشيوخ نوافقوا ، فخرج من مراكش سنة ٥٤٦هـ . وسار إلى سبتة حيث اطمأن على أحوال الأندلس ، قبل السير إلى بجاية ، وفى الطريق دخل الجزائر على حين غفلة ، فخرج له الحسن بن على صاحب المهدية فصحبه - بمعنى أن ذلك كان مقدمة فتح بجاية سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م .

(٨٠) البيهقي . ص ٤٨ . وقارن التويرى ، أبو ضيف ، ص ٤١٥ ، حيث انتص على جمع العساكر فى سبتة وليس فى سلا كما هو الحال عند البيهقي وابن الأثير . وهو ما أخذنا به .

(٨١) البيهقي ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، وقارن ابن الأثير ، ج ١١ ص ١٥٨ .



الرباط - باب الوداية - أسوار المدينة القديمة

القتل ببعض العبيد من الخاصة عندما قال له : « كذا يفعل أمير المؤمنين في بجاية -
إن شاء الله » (٨٢).

وفي ضوء هذه الإجراءات الاحترازية تم الخروج من سلا إلى سبتة دون أن يعلم
أحد الطريق الذي سلكه الجيش ، وكان الخروج من سبتة في صفر سنة ٥٤٧ هـ /
مايه ١١٥٢ م ، مع الخوص على سلوك طريق ليس من المعهود سلوكها ، مع الإسراع
في السير ، وطوى المراحل طياً ، وتلقى الامدادات في المنازل والمحطات على طول
الطريق ، حتى لم يشعر أهل بجاية إلا وعبد المؤمن في أصقالها (٨٣).

وكانت مفاجأة أذهلت الأمير يحيى بن العزيز ، آخر الحماديين ، والذي كان
مولعاً بالصيد واللهو (الموسيقى) والنساء ، فترك صاحمته ولجأ إلى قسنطينة
(قسنطينة الهواء) (٨٤)، بينما هرب أخوؤه الحارث وعبد الله إلى صقلية بحرًا .
وكان من الطبيعي أن ينهزم أهل بجاية دون قتال ، أمام مقدمة عبد المؤمن التي
كانت تزيد على ٢٠.٠٠٠ (عشرين ألف) فارس . وهكذا دخلت المقدمة إلى المدينة
دون مقاومة ، قبل يومين من وصول عبد المؤمن خلفها . والمهم أن يحيى صاحب
بجاية نزل إلى عبد المؤمن وبذلك دخلت جميع بلاد بني حماد في طاعة الموحدين
ولابأس من الإشارة هنا إلى أنه عندما استسلمت مدينة الجزائر حيث كان الحسن بن
على ، صاحب المهديّة ، قدم الحماديون هناك الحسن على أنفسهم . وساروا إلى عبد
المؤمن الذي أمنهم (٨٥). وتعليقا على ذلك يذكر ابن الأثير : « وكان يحيى قد فرح

(٨٢) البيهقي، ص ١٠٦، وقارن ابن الأثير، ج ١١ ص ١٥٨ - حيث النص : « فأرسل وقطع السابلة
من بلاد المغرب برأ وبحرًا ».

(٨٣) البيهقي، ص ١٠٦، ابن الأثير، ج ١١ ص ١٥٨، السويعي، ص ٤١٥، وقارن ابن خلدون،
ج ٦ ص ٣٦ - حيث الإشارة إلى اعتراض صنهاجة للجيش الموحد في موضع أم العلو لهمزهم،
وأنه صبح بجاية لدخلها.

(٨٤) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٥٩، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ١٣٦ - حيث : « وركب يحيى بن العزيز
البحر في أسطولين كان أعدهما لذلك، واحتمل فيهما ذخائره وأمواله ولحق بقسنطينة إلى أن
نزل بعد ذلك على أمان عبد المؤمن، واستقر بمراكش تحت الحماية والعناية إلى أن هلك.

(٨٥) ابن خلدون، ج ٦ ص ١٧٧، وحيث النص على أنه خلال ذلك دخل الموحدون القلعة عنوة كما
نزل يحيى بن العزيز لعبد المؤمن عن قسنطينة، وأن عبد المؤمن نقله إلى مراكش.

لما أخذت بلاد إفريقية من الحسن بن علي (آخر الزيريين) فرحاً ظهر عليه سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م فكان يذمه ويذكر معايبه . والمهم أن عبد المؤمن أرسل يحيى بن عبد العزيز إلى بلاد المغرب حيث أقام بها . وأجرى عليه شيئاً كثيراً (٨٦)

ومن المهم الإشارة إلى أنه لما فتح عبد المؤمن بجاية لم يتعرض إلى مال أهلها ولا غيره ، وسبب ذلك أن بنى حمدون (من الوزر ، والقواد) استأمنوا فوفى لهم بأمانة (٨٧).

ردود الفعل لسقوط بجاية بني حماد :

ثورة قبائل صنهاجة :

ورغم استسلام الأسرة الحمادية للأمر الواقع أمام سطوة عبد المؤمن وألته الحربية القوية ، فإنه كان من الطبيعي أن يكون لسقوط الدولة الحمادية صدى مناسب لدى قبائل صنهاجة المغرب الأوسط ، عصبية تلك الدولة ، تماماً ، كما كان رد فعل صنهاجة المغرب الأقصى ، عصبية لمثونة من الملتجئين ، سبباً في القيام بعملیات « الاعتراف » والتعيز عقب سقوط مراکش ، مما سبقت الإشارة إليه (ص ٣٥٥).

(٨٦) ابن الأثير، ج ١ ص ١٥٩، وقارن النويري، ص ٤١٦، والبيدق، ص ١٠٧- حيث النص على توحيد أهل بجاية، كما وعد القائد ميمون بن حمدون، وتنزل عبد المؤمن فيها، هذا، كما يورده البيدق رواية رمزية (أسطورة الظاهع) تقول : أن عبد المؤمن دارى وصوله إلى بجاية حول روة كان فيها قبر الكاهن الجاهلى سطيج، وعندما سئل عبد المؤمن عن ذلك، قال : « أن هذا العابد قال : ازيلونى عن هذا القبر لثلاث تدوسنى خيل عبد المؤمن بن علي الكومى - فكانه قدر مقدر من الأزل »، وقارن رحلة الشجاني، ص ٣٤٣- حيث وصول عبد المؤمن إلى المغرب الأوسط وأحله ملبانة والجزائر. وترب عبد المؤمن الحسن واستصحيه معه. وأن الحسن هو الذى أغرأه -تكمية في ابن عمه الحمادى- بأحد بجاية فاستولى عليها بعد أن هزم صنهاجة في جبل بنى زلدوي (وص ٣٤٤- حيث وفر يحيى بن العزيز وكان يروم التوجه إلى برقة ثم بغداد. ولكنه سار إلى قسنطينة، وبها ابن عمه (الأصل أخوه) ثم دخل في إيالة الموحدين، فانزل مع ابن عمه الحسن).

(٨٧) ابن الأثير، ج ١ ص ١٥٩، وقارن النويري، ص ٤١٥.

وكان قائد الحركة الصنهاجية المضادة للموحدين فى بجاية وأعمالها ، رجلا من بنى زلدى إحدى بطون صنهاجة ، يعرف بأبى قصبة ، نجح هذا الرجل فى انتهاز فرصة وجود الخليفة عبد المؤمن فى خاصة من رجال الحاشية وأفراد الحرس الأميري (عبيد المخزن) ، وأعلن التمرد على واقع الحال الحمادى ، ونجح فى لم شمل عدد من القبائل الخليفة لصنهاجة إلى جانب بنى جلدته من بنى زلدى ، مثل : كتامة ولواتة وغيرها . والظاهر أن الأمر كن مفاجأة لعبد المؤمن الذى خاف من انتكاسة تصيب طاعة بنى حماد وأنصارهم من القبائل ، ورأى أن يعمل على الرفع من معنويات رجاله المحيطين به فى بجاية ، من : رجالة ، ومن متطوعة «السوقة» من غير رجال الجيش النظامى . فبعد أن نظم رجاله هؤلاء ، قال : «اعطونى القناة (الرمح) بيدي» ، فكانه سيكون على رأس هؤلاء المقاتلين . والحقيقة أنه «كان لم يسسكها (القناة) منذ عام البحيرة» ، أى منذ خلافته لابن تومرت ، سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م ، منذ أكثر من ٢٠ (عشرين) سنة (٨٨).

وإذا كانت رواية البيدق تشيد بالخليفة البطل ، وتنسب إليه فضل الخروج بجماعته من متطوعة السوقة لقتال الثوار ، فإن رواية ابن الأثير تعتبر أكثر قبولا من حيث الواقعية . فهى تنص على أن «عبد المؤمن أرسل إلى الثوار جيشا كثيرا ، تحت قيادة أبى سعيد يخلف ، وهو من «أهل الخمسين» ، وإن اللقاء بين الفريقين تم فى عرض الجبل ، شرقي بجاية ، وانتهى القتال بهزيمة أبى قصبة ، ومقتل أكثر رجاله . وبذلك نهبت أموالهم ، وسبيت نساؤهم وذرايرهم (٨٩).

سقوط قلعة بنى حماد ،

أما عن مدينة القلعة (قلعة بنى حماد) العاصمة الحمادية القديمة ، فهناك خلاف بين كل من روائى ابن الأثير التى تجعل من القلعة مدينة مفتوحة يدخلها الموحدون دون قتال ، وبين الرواية التى يقدمها ابن خلدون والتى تجعل من فتح القلعة مذبحة

(٨٨) البيدق، ص ١٠٨. وقاؤن ابن الاثير، ج ١١ ص ١٦٠، والنويرى، ص ٤١٦ .

(٨٩) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٦٠، وقاؤن النويرى، ص ٤١٦ .

كبرى لاتتم إلا ضد مدينة عنيدة في عدائها للموحدين ، فلا تستحق بعد المعاناة في فتحها إلا القتل والإحراق والتدمير.

فرواية ابن خلدون تقول إن عبد المؤمن سبر ابنه (أبا محمد) عبد الله إلى القلعة ، وكان بها أخو الأمير يحيى وهو : جوسن بن العزيز في جموع صنهاجة فافتتحها في معركة دامية قتل فيها الأمير جوسن ، كما استلهم من كان بها من صنهاجة ، وإن النار أضرمت في مساكنها وإن القتال أسفر عن موت ١٨.٠٠٠ (ثمانية عشر ألف) رجل ، وإن المنتصرين حصلوا من الغنائم والسبي الشئ الكثير (٩٠).

أما عن رواية ابن الأثير فيفهم منها أن سقوط القلعة كان نتيجة طبيعة لهزيمة صنهاجة وكسر شوكتها ، إذ تابع الموحدون المسير إليها في الداخل في قننه الجبل الشاهق جنوب بجاية ، وأنهم استولوا عليها دون قتال . فلقد هرب أهلها أمام العسكر الموحدى في رؤوس الجبال ، وأخذ جميع ما فيها من مال وغيره ، وحمل (المال) إلى عبد المؤمن في بجاية فقسمة بين الرجال (٩١).

والحقيقة إنه يمكن التوفيق بين الروایتين المتباينتين على أساس أن المعركة الدامية التي يصفها ابن خلدون كانت خارج القلعة ضد قبائل صنهاجة، الأمر الذي جعل القلعة بعد ذلك مدينة مفتوحة حقا بفعل بها المنتصرون ما أرادوا ولو لبعض الوقت، كما كان بسمع العرب - دائما - بين المتحاربين.

وقد عرف عرب إفريقية ضد الوجود الموحدى «بالمغرب» :

وإلى جانب معارضة قبائل صنهاجة وكنامة - عصبية الخلافة الفاطمية ، ومن ثم نوابها الزيريين - للوجود الموحدى في إفريقية الحمادية ، كان من الطبيعي وبالقياص، أن لايرضى العرب الهلالية و ومن انضاف اليهم من الاشيخ وعدى ورياح وزغبة وغيرهم ، عن الهيمنة الموحدية على بلادهم .

(٩٠) المعبر، ج٦ ص ٢٣٦ .

(٩١) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٦٦ ، وقارن النورى، ص ٤١٦ .

وفى ذلك تقول رواية ابن الاثير ، فى حولية سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣ م ، أنه « لما ملك عبد المؤمن بلاد بنى حماد ، اجتمعوا من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب وقالوا : إن جاورنا عبد المؤمن أجلنا من المغرب ، والرأى إخراجهم من البلاد قبل أن يتمكن » . وفى ظل هذا الشعاع تحالف أولئك العرب «على التعاون والتضافر ، وإن لا يخون بعضهم بعضا وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال » ، فى حرب كلية ، مما يعرف عند العرب بـ « قتال الحرير » .

وانتهز ملك صقلية روجار الفرصة ليستغل ذلك الوضع لصالحه ، فاتصل بأمراء العرب ، وهم : محرز بن زياد ، وجبارة بن كامل ، وحسن بن تغلب ، وعيسى بن حسن ، وغيرهم ، يعرضهم على حرب عبد المؤمن ، بل ويعرض عليهم معونة عسكرية من ٥٠٠ (خمسة آلاف) فارس من رجال الفرنج النورمنديين ، على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن . وهنا ظهرت الشهامة العربية في الرفض مع توجيه الشكر على أساس أنهم لا يستطيعون قبول العون من غير المسلمين .

يوم سطيف :

وبطبيعة الحال كان عبد المؤمن ، الذي رحل من بجاية إلى المغرب ، على دراية بما يدبر له في الخفاء ، وبناء على ذلك أعد جيشا من ٣٠.٠٠٠ (ثلاثين ألف) فارس ، بقيادة كل من عبد الله بن عمر الهنتاتي ، وسعد الله بن يحيى ، واستعد العرب بدورهم وخرجوا إلى لقاء الموحدين في أعداد لا تحصى .

وكانت خطة الجيش الموحدى المنظم ألا يدخل مع العرب فى حرب على طراز الكر والفر التى يتقنونها ، بل عمل الموحدون على استجراهم خلفهم وكأنهم منهزمون ، وظل العرب يتبعونهم الى أن وصلوا الى أرض سطيف المحصورة بين الجبال ، ومن ثم حملوا عليهم حملة فجائية وهم على غير أهبة ، وذلك فى غرة صفر سنة

٥٤٨هـ / ٢٨ أبريل ١١٥٣ م . واقتتل الطرفان أشد القتال وأعظمه ، وانجالت المعركة عن انهزام العرب هزيمة فاحشة ، وانتصار الموحدين نصرة مبينة . وهكذا «ترك العرب جميع مالههم ، من : أهل ومال وأثاث ونعم ، فأخذ الموحدون جميع ذلك» (٩٢) .

وقسم عبد المؤمن جميع الأموال على عسكره ، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط ، وركل بهم من الخدم الخصبان من يخدمهم ، ويقوم بحوائجهم .

وفى مراکش أنزلهم في المساكن الفسيحة ، وأجري عليهم النفقات الواسعة . ومن ثم أمر ابنه أبا عبد الله محمد أن يكتب أمراء العرب ، ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة وأمرهم أن يحضروا ليسلمهم إليهم ... وأنه قد بذل لهم الأمان والكرامة . فحلا سارع أمراء العرب إلى المسير إلى مراکش . وهناك أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم ، وأحسن إليهم ، وأعطاهم الأموال الجزيلة ، وأقاموا عنده .

(٩٢) ابن الأثير، ج ١٩ ص ١٨٥-١٨٦- حيث الرواية في شكل مضطرب ان قيادة الجيش الموحدى كانت إلى أبي سعيد يخلف إلى جانب عبد العزيز وعيسى أخوى المهدي (أولاد أمغار) . وقارن الهمدني، ص ١٠٨- حيث الخلط بين حرب صنهاجة السابقة وحرب سطيف هذه- وحيث القول : "... وهزم (عبد المؤمن) أبا قسبة، ومات بتوزلوى، ونصر الله الخليفة عليهم، ... وأمضى الخليفة والموحدون إلى مراکش بالغنائم والعرييات والجمال، فرحين مسرورين، وبعد فترة من قتل يصلاح، يعود إلى غنائم العرب وسببها ، ورد ذلك السبى لأصحابه، وقارن ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٣٦- حيث فلما بلغ الخبر عرب إفريقية (سلوط القلعة) تأمروا على الدفاع عن ملكهم بعيسى بن العزيز، ورحلوا إلى سطيف. وزحف إليهم (عبد الله) بن عبد المؤمن الذى كان قد قفل إلى المغرب، وبلغ متيجة، فأرسل المدد لأبيه عبد الله، وتم اللقاء فى سطيف وانقضت جموع العرب واستأصموا، وسبيت نساؤهم واكتسحت أموالهم وأسر أبنائهم، ووقد عليه (عبد المؤمن) كبرا العرب من إفريقية طائعين فوصلهم، ورجعوا .

ولاية محمد بن عبد المؤمن العهد :

وكانت فرصة استعان (فيها) بهم على ولاية ابنه محمد للعهد سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م (٩٣) .

غزو بونة ووفاة روجار الثاني :

أما آخر الأعمال الحربية التي قام بها روجار الثاني ، ملك صقلية ، فتح إفريقية بعد قضاء عهد المؤمن على مملكة بنى حماد ، فهو غزو أسطول صقلية مدينة بونة (عناة حاليا ، في منتصف المسافة ما بين بجاية وبنزرت) ، وذلك في رجب سنة ٥٤٨هـ / سبتمبر ١١٥٣ م. ولما كان جورجي الانطاكي قد توفى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م ، فإن قيادة الأسطول كانت قد آلت إلى مولى روجار : فيليب المهدوي.

والمهم أنه تم حصر المدينة بمعاونة العرب ، هذه المرة . ورغم أن المهدوي قتل ما كان في المدينة ، وسبى أهلها ، وأقام بها ١٠ (عشرة) أيام عاد بعدها إلى المهديّة ، إلا أن رفقة بجماعة من العلماء والصالحين في بونة أدى إلى اتهامه بالردة عن المسيحية واعتناق الإسلام ، الأمر الذي انتهى بأن قبض عليه روجار الثاني ، وقدمه إلى محكمة التفتيش حيث اتهم بأنه لا يصوم مع الملك ، وأنه مسلم . وانهقد مجمع الملك من الأساقفة والقسوس والفرسان ، وأصدر الحكم بالحرق على فيليب المهدوي ، فأحرق في شهر رمضان / ديسمبر.

وكانت تلك علامة غير مبشرة بالنسبة لمستقبل المسلمين في صقلية ، الأمر الذي زاد تفاقمها بوفاة الملك روجار الثاني ، في العشر الأول من شهر ذي الحجة سنة ٥٤٨هـ / فبراير ١١٥٤م وكانت وفاته بمرض الخوانيق ، وله من العمر ما يناهز الـ ٨٠ (الثمانين) عاما ، فطال بذلك عهده إلى ٦٠ (ستين) عاما (٩٤) .

(٩٣) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٨٦، وقارن النويري، ص ٤١٨، ص ٤١٩ - حيث تفصيلات عن كيفية طلب العرب تولية العهد للأمير محمد (أبو عبد الله).

(٩٤) ابن الأثير، ج ١١ ص ١٨٧.

غليوم (غليالم بن روجار) ملكا ،

وملك بعد روجار الشائى ابنه غليالم (غليوم) الأول الذى يوصف بأنه كان: « فاسد التدبير ، سئ التصوير ، وإنه استوزر مايو البرصانى ، فأساء ، بدوره) التدبير ، واختلفت عليه حصون جزيرة صقلية وبلاد قلاورية (كلايريا فى جنوب ايطاليا) ، وتعدى الأمر إلى إفريقية » ، كذلك (٩٥).

ومن المهم هنا الإشارة إلى أن سفاهة غليوم بن روجار قد بلغت في بداية عهده إلى مد شروره حتى مصر الفاطمية التي حل نفوذه محلها في إفريقية، فكانت مدينة تيس، وهي المركز الاقتصادي المصري الهام في ذلك الوقت، في ساحل دمياط، هدفا لغارة قرصانية قام بها الأسطول الصقلي، بهت خلالها المدينة(٩٦). حدث ذلك في الوقت الذي كانت تقوم فيه القوات البيزنطية بتهديد بلاد الشام الفاطمية ، الأمر الذي يشكك بعض الشئ في مقالة ابن الأثير التي تقرر أن الخلاف بين الصقليين والروم بالقسطنطينة كان رحمة من الله بالمسلمين (ما سبق ص ٣٧٧).

التمهيد لاسترجاع المهديّة ،

جربة وقرقنة وصفاقس ،

والمهم أنه منذ سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م ، وعلى عهد غليوم بن روجار ، بدأت بلاد السواحل الإفريقية تنفض عن كاهلها عبء الهيمنة الصقلية الفرنجية ، وبدأ ذلك بعصيان أهل جزيرتى جربة وقرقنة (Pantelleria) (٩٧) ، والذي نراه هو أن تدخل عبد المؤمن في إفريقية ، وبسط نفوذ الموحدين على بقايا مملكة الحمايين كان من الأسباب الرئيسية التي أحييت حركة المقاومة في تلك المناطق ضد الفرنج الصقليين . وفي إقليم الساحل كانت صفاقس أول المدن التي خالفت على ملك صقلية الجديد ،

(٩٥) ابن الأثير، ج ١ ص ١٨٧ .

(٩٦) ابن الأثير، ج ١ ص ١٩٠ .

(٩٧) ابن الأثير، ج ١ ص ٢١٣ .

وذلك بفضل عمر بن أبي الحسن الفرّاني ، وخاصة بفضل والده الفقيه الصالح : أبي الحسن الذي ولاه روجار الثاني نيابة ، حكم صفاقس.

فقد اعتذر أبو الحسن بضغفه عن الحكم في صفاقس ، وورّش ابنه عمر بدلا منه ، وسار هو إلى صقلية رهينة لضمان الطاعة للملك الصقلي ، كما جرت العادة في المدن الإفريقية الخاضعة لمملكة صقلية . والمهم أنه عند خروج أبي الحسن إلى صقلية أخذ يحرض ابنه على الثورة ، ويعلمنه بألا يشغل نفسه بسلامته حيث أنه « مسرّ قارب أجله » . فعلا عندما رتب أسلوب الخلاص من الحامية الفرنجية ، على الأسوار وفي المساكن في البلدة ، وسأله أصحابه عن مصير « سيده الشيخ » ، قال الابن : « إذا قتل الشيخ بألوف من الأعداء فما مات » .

وتم ذلك التدبير ليلاً ، « فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم (الأمر الذي يذكرنا بمذبحة المصاليك على يدي كل من محمد بن تومرت بتينمل ، ومن بعد محمد على باشا في قلعة القاهرة) ، وذلك في أول سنة ٥٥١هـ / ٢٥ فبراير ١١٥٦م (٩٨) » .

طرابلس وقابس وبونّة :

وبعد صفاقس أتى تحرير طرابلس (الغرف) تالياً بفصل تدبير النائب عليها : أبي يحيى بن مطروح التميمي (٩٩) . ففي سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، بعد ١٢ (اثني عشر) عاماً من وقوع العاصمة الليبية وقتلت تحت حكم النورمان الصقليين ، قام ابن مطروح بتدبير الثورة الرائعة ضد خيالة العدو بحاصة ، حيث نصبت لها

(٩٨) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٣ . ولزيد من التفاصيل انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٨ - ١٦٩ - عن الصراع بين صاحب صفاقس : حموي قليل (البرغواطى) وصراعه مع قسم من المعز الذي غلب على صاحب صفاقس سنة ٥٤٩ هـ / ١١٠٠ - ٩٩ م . وبعد الإشارة إلى غلبة الناصري على المهديّة سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م ، تأتي قصة عمر وابيه أبي الحسن الذي قتله الناصري في صقلية سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م ، عقوبة لثورة صفاقس .

(٩٩) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٠٤ .

الأفخاخ ، من: إقامة الخشب والأناشيط فى الطرق لمنعها من الجرى . وذلك خلص حكم البلد لىحى بن مطروح . وعندما وصل عبد المؤمن إلى المهديّة وصل إليه وفد طرابلس وفيهم ابن مطروح فقدمه عبد المؤمن . وذلك ظل يحكم المدينة الى عهد ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (١٠٠) ومن ثم أتى تحرير قابس على يدى محمد بن رشيد (ما سبق ص ٣٨٠) .

أما تحرير بونة - آخر مستعمرات روجار الصقلى - فقد تمّ على أيدي عسكر عبد المؤمن الذين كان وصولهم إلى بجاية بمثابة شرارة التحرير فى البلاد الاقريقية من نهر الهمنة الصقلية .

وهكذا . ملك عبد المؤمن بتحرير بونة ، جميع بلاد إفريقية باستثناء المهديّة مع سوسة : ميناء القيروان (١٠١) ، فكان الدور عليها فى التحرير .

محاولة تحرير زويلة :

يرجع الفضل فى بداية تحرير المهديّة من نظام الحماية النورمندية الصقلية إلى :

(١٠٠) رحلة التجانى ، ص ٢٤٢-٢٤٣- حيث انتهى أمر ابن مطروح بالتوجه إلى الحج لعجزه . فسّرّحه السيد : أبو زيد بن السيد : ابي حفص صاحب العمل ، فصار إلى الإسكندرية . وفى ذلك بسجل التجانى من محاولة القاضى الفاضل البيساقى "فى شهر رجب سنة ٥٨٩هـ / يوليو - أغسطس ١١٩٣م وصل الإسكندرية فى البحر شيخ طرابلس أبو يعقوب بن مطروح ، وهو شيخ كبير قد أضر وعجز عن الحركة . ولابن مطروح هذا ، بعد ذلك ، شعر طريقه يقارن فيه بين بعض أطراف مدينة طرابلس (الغرب) وبين بعض أطراف القاهرة ، حيث يقول :

لوقفسة بين سباب البحر ضاحية أو بسباب همسورة أو مولف الغنم
أشهى إلى النفس من كسر الخليج ومن دير الزجاج وشاطئ بركة الخدم (ص ٢٤٥) .

الأمر الذى يذكرنا بما قاله بعض مدروا . الجامعة الليبية فى بنغازى عندما كنا نعمل بها سنة ١٩٦٠ - وهو يقارن بين خبرات ليبيا وخبرات مصر (مثال) : " يوجد فى النهر ما لا يوجد فى البحر " .

(١٠١) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٧٠٤ .

عمر بن أبى الحسن محرر صفاقس ، إذ أرسل فى سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م إلى أهل زويلة : صاحبة المهديّة ، يحرضهم على الثوب على من فيها ، معهم ، من النصارى - ففعلوا ذلك . وبالتالي قدم عرب البلاد « إلى زويلة ، فأعانوا أهلها على من فى المهديّة من الفرنج ، وقطعوا الميرة عن المهديّة »

وعندما بلغ الملك غليوم بن روجار ما حدث فى كل من صفاقس وزويلة ، طلب من أبى الحسن : والد عمر أن يكتب إلى ابنه عمر « بنهاء عن ذلك ، ويخبره العاقبة » فردّ عليه الشيخ الصالح بأن « من قدم على هذا (العمل) لا يرجع (عنه) بكتاب » . وعندما أرسل الملك العسلى رسولا من قبله يتهدد عمر ، ما كان من هذا الأخير إلا أن أقام فى حضرة الرسول : « جنازة تذكارية » لوالده : الشيخ أبى الحسن ، الذى كان مصيره الصّلب حياً فى معتقله بصقلية ، بأمر الملك غليوم (٢ - ١) .

الإقدام على تحرير المهديّة :

والهم أن محاولة تحرير زويلة المضاحية التى بدأ بها صاحب صفاقس : عمر بن أبى الحسن القرمانى ، قد تحولت إلى حركة تحرير للمهديّة : العاصمة الفاطمية التليدة . فقد تكاثر جمع الثوار بوفود العرب القادمين من أنحاء البلاد ، وكذلك أهل صفاقس المتحررين من النير النورمندى ، وحصر الجميع المهديّة أشد حصر ، ومنعوا عنها الامدادات الغذائية التى كان اعتصام المحاصرين على نفاذها ليهتم لهم الفتح ، وهذا ما لم يقدروا أن يكون .

فلقد أسرع الملك غليوم فارسى إلى المهديّة ٢٠ (عشرين) شينياً محملة بالرجال والأقوات والسلاح ، وتمّ لهم انقاذ الموقف الخرج بدخولهم إلى المدينة . وهنا لجأ

(١٠٢) ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٠٤ - حيث النص على أن عمر قال لرسول الملك : " هذا أبى قد دفنته ، وقد جلست للمزاء به ، فاصنعوا به ما أردتم " ، أما عن الشيخ المصنوب " فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات " ، وقارن رحلة التجانى، ص ٧٥ - حيث وصف عمر بن أبى الحسن " بالمختصر " بمعنى الأمير ، وحيث أمر غلبالم (غليوم) بشتق والده (أبى الحسن) بوادى عباس .

الصقليون الفرنج إلى أسلوب طالما عرفوه في التعامل مع عرب إقريقية ، ألا وهو شراء حياتهم عن طريق المال . وفعلًا انهزم العرب عند اللقاء بين الطرفين ، وبقي أهل صفاقس وحدهم إلى جانب أهل زويلة . ولكنه عندما أحاط بهم الفرنج بظاهر البلد ، انهزم أهل صفاقس بدورهم ، وركبوا في البحر ولجوا إلى بلدهم القريبة . وكان من الطبيعي ألا يتمكن أهل زويلة من الصمود ، وهم في أغلبهم من السوق أي المعارين غير المحترفين ، فانهزموا فعلاً أمام حملات الفرنج النورمنديين إلى ماتحت السور ، حيث « قتل أكثرهم ، ولم ينج إلا القليل ففرقوا ، ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن » . هذا ، كما « هرب من كان بزويلة من الخدم والصبيان والشيوخ في البر ، ولم يعرجوا على شيء من أموالهم » .

وبذلك دخل الفرنج إلى المهديّة ، فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال ، واستقروا بها - وبقي الحال على هذا المنوال إلى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠م حيث « أخذها منهم عبد المؤمن » (١٠٣) .

استرداد المهديّة :

الاعداد للحملة :

كان عبد المؤمن قد وعد المستنصرين به من أهل المهديّة ، بعدما دخلها الفرنج الصقليون سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨م بأنه سوف ينصرهم « ولو بعد حين » ومع أن الرواية تضيف إلى ذلك أنه أكرم الواقدين عليه من المهديّة ، « وأطلق لهم ٢٠٠ ألفي دينار ثم أنه أمر بعمل الروايا والقرب والحياض وما يحتاج إليه العسكر في السفر ، فكانه كان قد بدأ يعدّ العدّة لفتح المهديّة منذ ذلك الوقت المبكر . انتظارا لذلك « الحين » (القريب) الذي وعدهم به (١٠٤) . والحقيقة إن تلك الاستعدادات ، كما يظهر من الرواية الحولية ، لا تبدأ إلا في سنة ٥٥٤ هـ / ١١٥٩م ، حيث

(١٠٣) ابن الأثير، ج ١٩ ص ٢٠٥.

(١٠٤) ابن الأثير، ج ١٩ ص ٢٤٩، والنويري، ص ٤٢٩.

العنوان: ملك عبد المؤمن المهدية من الفرنج وملكه جميع إفريقيا» بمعنى أن الاستعدادات العسكرية لم تبدأ إلا بعد ١١ (أحد عشر) عاما من زيارة وفد المهزومين بالمهدية سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م . وإلى جانب الاستعدادات الحربية تقول الرواية إنه (عبد المؤمن) «كتب إلى جميع نوابه في المغرب ، وكان قد ملك إلى قريب تونس» بحفظ جميع مايتحصل عليه من الغلات ، وأن يترك في سبيله ويخزن» .

هذا إلى جانب الأمر بحفر الآبار في الطرق ففعلوا . وهنا ليس من المقبول أن تكون كل تلك الاستعدادات قد حدثت في نفس سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م (الحولية) ، إنما قبل ذلك بسنتين أي في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م ، حيث تقول الرواية الخاصة بجمع الغلات إن ذلك كان على مدى ٣ (ثلاث) سنوات ، وإنها (الغلات) نقلت إلى المنازل (في المواقع الاستراتيجية المحددة عسكريا) ، وتم الحفاظ عليها بالتطمين عليها ، «فصارت كأنها التلال» (١٠٥) .

وهكذا ، وفي شهر صفر من مطلع سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م كانت الاعدادات للحملة الكبرى (التي وعد بها لاستنقاذ المهدية سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م قد تمت بشكل لم يشهده تاريخ الحروب في دول الإسلام من قبل ، الأمر الذي يجعل من عبد المؤمن بن علي بخاصة ، والدولة الموحدة بعامّة طرازاً فريداً من الأمراء والدول المستجدة ، ليس على النطاق السياسي - الديني فقط ، بل وعلى المستوى التنظيمي - الاجتماعي - العسكري ، على قدر معرفتنا بتاريخ الإسلام في المشرق والمغرب .

بدء العمليات الحربية ،

سارت القوات الموحدة من مراكز العاصمة ، في الشهر المفضل لحملات عبد المؤمن العسكرية ، وهو : شهر صفر . وكانت الوجهة هي بلاد إفريقيا ، وأغلب الظن

(١٠٥) ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٤١ ، ولارن النويري، ص ٤٢١ .

أن الرواية لا تبالي - بعدما رأيناه من المعدات والتجهيزات الحربية - عندما تقول إن حجم القوات في تلك الحملة بلغ أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ (مائتي ألف) مقاتل، نصفهم من الجند النظامي المسجل في دفاتر (ديوان) الجيش ، بمن فيهم من الأتباع (من الخدم والحشم) ، ومثلهم من السوقة (العامة) من المتطوعة أو الجند المعاون (شبه الاحتياط) . وسارت تلك القوات في نظام عسكري دقيق ، مستمد من عقيدة التوحيد التي تجعل من أتباعها إخوة أحياء منظمين.

« لقد كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة » ، كما تريد الرواية ، « وكانوا إذا نزلوا صلوا جميعهم مع إمام واحد بتكبير واحدة لا يتخلف لهم أحد كائناً من كان » ، فكان إمام الصلاة هو القائد الأعلى للجيش ، وكان التكبير الواحدة هي المعبرة عن وحدة جماعة التوحيد . وفي سفرته هذه ، كان عبد المزمع يتقدم بين يديه صاحب المهدي السابق الذي كان يقيم بالجزائر ، وهو الأمير الحسن بن علي ، كمرشد سياسي ناصح ودليل سياحي مضمون (١٠٦).

تونس

وفي ٢٤ من جمادى الآخر / ١٤ يولييه وصل الجيش المهول إلى تونس التي كان أمير طانفتها أحمد بن خراسان (الأخير) (١٠٧) والذي كان قد نصبه أهل تونس ، بعدما ضعف واليها الحمادي الأمير معد بن المنصور ، فاستأسد عليه أهل تونس واستبدوا به منذ سقوط بجاية بين أيدي الموحدين سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢ م . وهكذا يكون الخراساني الأخير هو أحمد بن علي بن أحمد (الرابع - ماسبق ، ص ٣٧٤) الذي رحله الموحدون إلى مراكش بأهله وولده ، ولكنه هلك في الطريق ، حسب رواية

(١٠٦) ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٤٢. وقارن النويري، ص ٤٢١. وقارن رحلة التجسانى،

ص ٣٤٦ - حيث جيش عبد المؤمن يمتد أميالاً لا تؤثر فيه شيئاً - كلهم يصلون الصلوات الخمس

بتكبير واحدة، وراء إمام واحد.

(١٠٧) ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٤٢.

ابن خلدون (١٠٨) . وبعد وصول الجيش أقبل الأسطول الموحدى فى ٧٠ (سبعين) من المراكب الحربية المختلفة مابين : شينى ، وطريدة ، وشلندى . ورفضت المدينة المستقلة نداء الطاعة الذى وجه إلى أهلها ، بل وامتنعوا وواجهوا قتال الموحدين الشديد لفترة من الوقت حتى ظهر عليهم الإجهاد ، فلم يبق إلا أخذها ، لولا ثورة الرياح العاصفة التى منعت من دخول الأسطول إليها (١٠٩) .

وبعد معاناة القتال غير المتاكفى لآخر النهار ، رأى أهل تونس أن يبعثوا وفداً يمثلهم ، من ١٧ (سبعة عشر) رجلاً من الأعيان لمفاوضة عبد المؤمن على الأمن ، فأجابهم على الأمن فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم فقط دون غيرهم . أما من عداهم من الناس فلهم الأمن فى أنفسهم وأهليهم ، على أن يقاسمهم فى أموالهم وأموالهم نصفين - مثلما كان يحدث من قبل (ص ٣٣٩ و ١٥٧) . هذا ، كما تم الاتفاق على أن يخرج صاحب المدينة : أحمد بن خراسان ، بعد أن يسلم البلد ، مع ضمان منع العسكر الموحدى من الدخول عليه (١١٠) .

(١٠٨) العبر . ج ١ ص ١٦٥ .

(١٠٩) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٤٢ ، وقارن النويرى ، ص ٤٢٢ . وانظر ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٧٩ . حيث المسير إلى تونس (بعد قابس) ونهرام من كن فى جوانبها من العرب الذين قتلوا واستؤصلوا حسبما تقدم من الشرح فى الرسالة الموحدية الخاصة بوصف هذا الفتح . وقارن رحلة التجانى ، ص ٣٤٧ - حيث أسطول عبد المؤمن الذى يتكون من ٧٠ (سبعين) مركباً يقودها عدد من القواد ، من أشهرهم : محمد بن عبد العزيز بن ميمون ، من البيت المشهور فى قيادة البحر ، وابن الخراط ، وأبو الحسن الشاطبى وعمرهم ، وانظر أيضاً ص ٣٤٥ - حيث : ضرب عبد المؤمن الحصار على تونس فى ١٠ جمادى الأولى من السنة المذكورة (٥٥٤هـ / ١١٥٩م) وكان أهلها سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م قد فعلوا فيه الاعتدال .

(١١٠) ابن الأثير ، ج ١ ص ٢٤٢ . والنويرى ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ . وقارن رحلة التجاسى ، ص ٣٤٥ - حيث خرج إلى عبد المؤمن أشياخ تونس ، وطلبوا السلم ، ومنهم : بنو عبد السيد ، واند عفا عنهم ، واشترط مشاطرتهم فى رباعهم (ديارهم) وأموالهم كلها للمحزن (للديوان الحكومى) ما عدا هلبوس رقابهم ، وترك بتونس عبد السلام الكومى .

وعهد عيد المؤمن إلى أبنائه - مثلما حدث من قبل - ليقاسموا الناس على أموالهم . وتطلبت هذه العمليات الإقامة على المدينة ٣ (ثلاثة) أيام.

أما عن أهل الذمة من اليهود والنصارى فقد عُرض عليهم الدخول في الاسلام : «فمن أسلم سلم ، ومن امتنع قتل» . وهكذا « أقام أهل تونس (في ديارهم) بأجرة تؤخذ منهم عن نصف مساكنهم » (١١١).

المهدية :

وبعد أن استقرت الأمور في تونس سار عيد المؤمن بجيوشه نحو المهدية ، والأسطول يحاذيه في البحر ، فوصل إليها في ١٨ رجب (سنة ٥٥٤ هـ / ٥ أكتوبر ١١٥٨ م) . وكان حينئذ في المهدية أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان ، وقد أخذوا زويلة ، صاحبة المهدية البرية ، بعد فشل استرجاعها على أيدي أهل صفاقس والعرب (ص ٣٩٩).

وأمام الأسطول البحري والحشد الموحدى البرى رأى النورمنديون عدم جدوى المقاومة في زويلة التي نزلت فيها قوات عهد المؤمن البرية دون مقاومة ، والتي

(١١١) ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٤٢ ، وقارن السويرى، ص ٤٢٢-٤٢٣ ، وقارن السيدى، ص ١١٥ - حيث خرج الخليفة إلى المهدية، وبرز على تونس بوزا عظيمًا، وكان وزيره عبد السلام الكومى، ووخد أهل تونس، وقارن ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ١٧٦ - حيث النص على استبداد الوزير عبد السلام الكومى بجميع الخانات والأموال وتنقل ما شاء، واذك بقرائته ووزارته غاية الادلال... فتنسب إليه احتجاج الأموال ، وقارن رحلة التجانى، ص ٣٤٦ - حيث ارتحل عبد المؤمن من تونس بعد ٣ (ثلاثة) أيام إلى المهدية، مع الإشارة بعد ذلك إلى أن مرجعه هو تاريخ أبى شداد، حيث : مقدمة العسكر ١٢٠٠ (اثنى عشر ألف) رجل قد كلفوا بحفر الأنهار في الطريق، واستخراج المياه، فكانوا يمتدنون قبله بيومين، يهيئون الغلات وأحواض المياه، ص ٣٤٧ - حيث : وعرض عيد المؤمن الإسلام على من يتونس من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم، ومن امتنع قتل.

«امتلات بالعساكر والسوق ، قصارت مدينة معمورة فى ساعة» ، بل كما عمرت ضواحيها بالعساكر الذين لم يكن لهم موضع بداخلها (١١٢) . وهكذا كانت الجيوش المنظمة مصدر خير ورخاء للبلاد التى تدخلها ، بصرف النظر عما يترتب على القتال من شرور وفساد .

وفى إطار مقولة : رُبُّ ضارة نافعة هذه ، انضافت إلى عساكر عبد المؤمن حشود من بربر صنهاجة (الزيريين) ، وعرب إفريقية الهلاليين ، وكانت حشود هؤلاء الوافدين الجدد ، تتزايد مع مرور الوقت ، واشتراكهم فى قتال المهديّة ، التى كانت وكأنها تقول : هل من مزيد ؟ إذ كانت «لا تؤثر فيها حصانتها وقوة سورها ، وضيق موضع القتال عليها (برأ) ؛ لأن البحر دائر بأكثرها» (١١٣) .

«وفى أثناء النزال كانت الأعداء من الفرنج ينتهزون الفرص فيخرج الشجعان منهم إلى أطراف العسكر الموحدى ، فتنال منه وتعود سريعا» ، الأمر الذى أدّى إلى أن يأمر عبد المؤمن ببناء سور من غرب المدينة (من ناحية البر وباسى المدينة) «فمنعهم من الخروج ، وأحاط الأسطول بها فى البحر» (١١٤) .

ولكى يباشر عبد المؤمن حسن القتال ، ويعرف خبايا الموضع ، ركب فى شبلى ومعه الحسن بن على «صاحب المهديّة السابق» ، وطاف بالمدينة البحرية العجيبة بامتدادها كزند فى البحر ، «فهاه ما رأى من حصانتها» ، ورأى أنها لا تفتح الا بالمطاوله (١١٥) .

(١١٢) ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٤٣ ، وقارن النويرى، ص ٤٢٢ ، وابن عذارى ، الموحدون، ص ٣٩ ، وقارن رحلة التجانى، ص ٣٤٧ - حيث توجه عبد المؤمن (من تونس) إلى المهديّة ووصله إلى هناك فى ١٢ رجب / أكتوبر والنزول على زويله .

(١١٣) ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٤٣ ، وقارن النويرى، ص ٤٢٢ .

(١١٤) المصدر السابق، وقارن رحلة التجانى، ص ٣٤٨ .

(١١٥) انظر ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٤٣ - حيث النص على ان عبد المؤمن قال للحسن : «كيف نزلت عن هذا الحصن ؟ فقال الحسن : لقلة من يوثق به، وعدم القوة، وحكم القدر» ، فقال له (عبد المؤمن) : «صدقت» ، وقارن رحلة التجانى، ص ٣٤٨ .

وهكذا عاد عهد المؤمن من الجولة الاستطلاعية الاستراتيجية ، ليأمر «بجمع الغلات والأقوات وترك القتال» ، فصارت الأقوات في المعسكر كالجبلين : أحدهما من الحنطة للطعام ، والآخر من الشعير للعلف.

صفافس ، طرابلس ، نفوسة ،

وقامدى الحصار الذى وحدث خلاله مالم تكن قد أطاعت الموحدين من المدن الإفريقية ، مثل : صفافس التى كانت قد خرجت على ملك صقلية من قبل (ص ٣٨٣) ، وكذلك الأمر بالنسبة لطرابلس حيث بنو مطروح (ص ٣٧٦) ، وجبال نفوسة (جنوب طرابلس) . وبذلك تصبح معظم بلاد إفريقية فى الطاعة.

قابس ،

أما عن قابس، الخارجة على الطاعة أبداً (ص ٣٨٠) ، فقد فتحت بالسيف بمعرفة السيد أبو محمد عبد الله بن عبد المؤمن الذى سيره والده ففتح بعض البلاد التالية.

قصة ،

وأما قصة : عاصمة بلاد البليد التى كانت ثائرة أبداً ، منذ التياث ملك آل باديس الزيريين بالقيروان ، فكانت وقتئذ تحت حكم الأمير يحيى بن المعتز ، آخر ملوك بنى الرند (١١٦) ، فلم يتردد أهلها فى المبادرة بطاعة عبد المؤمن ، حيث

(١١٦) انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ١٦٥-١٦٦- حيث رأس الأسرة القفصية المعتيدة هو : عبد الله بن محمد بن الرند ، الذى استقل سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م ، والذي وفد عليه انشعراء ، وكان معظما لأهل الدين ، واستمرت إمارته إلى حين وفاته سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م . وولى بعده ابنه أبو عمر المعتز الذى حسنت سيرته . ولما كان المعتز قد عمر طويلا فإنه عهد بالحكم إلى حفيده : يحيى بن تميم (الذى قولى فى حياة والده) فاستبد بعده ، وانفرد بالحكومة . وبقي فى الإمارة هو وجده إلى أن فتحت المدينة على عهد عبد المؤمن سنة ٥٥٤هـ / ١٠٥٩م . وتم نقل الأسرة إلى بجاية حيث تولى المعتز (الأعمى) سنة ٥٥٩هـ / ١٠٥٦م ، وله من العمر نحو إلى مائة عام وأكثر ، ومات بعد حاقده (الأمير يحيى).

قصده أعيانها برئاسة صاحبها (١١٧) .

وبعد الفتح عهد عبد المؤمن بولاية قفصة إلى : نعمان بن عبد الحق الهنتاتي الذي بقى في الولاية لعدة سنوات ، قبل أن يعزل به عمران بن موسى الصنهاجي (١١٨) .

هذا ، وإلى جانب استخلاص قفصة من أيدي بني الرند (في الأصل بني الورد) يأتي استخلاص ورغة من بني بركسن ، وطهرية من ابن هلال ، وجيل زغوان من بني حماد بن خليفة ثم مدينة الأربع من يد من ملكها من العرب (١١٩) .

التدخل الصقلي :

والهم أنه في يوم ٢٢ شعبان ، بعد ٣٤ يوما من الوصول إلى المهديّة جاء .

(١١٧) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٤٤ - حيث كانت طاعة قفصة دون قتال تشهر الخواطر لدى القدامى من (حرس) الموحدين . فقد أشبهه الأمر على عبد المؤمن في صحة طاعتها ، لأن المهدي كان يقول : « يقطع أشجارها وهدم سورها » وقارن الرسالة الموحدية رقم ٢٠ ، ص ١٠٤-١٠٥ حيث النزول بفتانها والإحاطة بالمدينة ونصب المجانيق التي هدمت أسوارهم أو ديارهم وص ١٠٨ - حيث ردم الخندق واقتحام الستارة ودخولها عنوة . ومن أجل التأكد من صحة طاعة قفصة أرسل عبد المؤمن طائفة من أصحابه . ولقد أكد صحة الأمر ما مدحه به أحد شعرائها ، بقصيدة تبدأ بذلك البيت الذي أثار نشرة عبد المؤمن :

ماهر عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

لقد طلب عبد المؤمن من الشاعر أن يكتفى بذلك البيت ، ووصله (على شبر عادة عبد المؤمن) به ١٠٠٠ (العب) ديتار ، وقارن الشوبري ، ص ٤٢٣ ، وأنظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٧ - حيث افتتاح المهديّة سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م صلحا مع البصري من أهل صقلية ، ومن ثم استنقذ عبد المؤمن جميع البلاد الساحلية ، مثل : صفاقس وطرابلس من أيدي العدو ، ثم استخلاص قابس - أثناء حصار المهديّة - من أيدي بني كامل المتفلقين عليها ، من دهمان . بعض بطون رياح .

(١١٨) ابن خلدون ص ١٦٦ - حيث نعمان بن عبد الحق المنتاتي هذا من الهنتاتي .

(١١٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٧ .

اسطول ملك صقلية في ١٥٠ (مائة وخمسين) شينياً (من المراكب الكبيرة) غير الطرائد (١٢٠).

وكان قدومه إلى المهديّة إثر غارة قام بها على جزيرة يابسة (Ibiza) من جزر ميورقة (البليار) ، ومعهم السبي والأسرى . وعندما قاربوا المهديّة حطوا أشرعتهم ليدخلوا الميناء ، فكانت مفاجأة لهم أن خرج إليهم أسطول عبد المؤمن ، كما ركب العسكر الموحدى البحرى ، ووقفوا جميعهم على جانب البحر . وهنا أسقط في يد الفرنج بسبب ما رأوه من كثرة العساكر ، ودب الرعب في قلوبهم بينما كان عبد المؤمن يدعو ، وهو يبرِّغ وجهه على الأرض ياكيا ، بالنصر لجند الله (١٢١).

، والمهم أن الاسطولين اقتتلا في البحر ، وانهزمت شوانى الفرنج ، وأعادوا أشرعتهم للفرار والموحدون يتبعونهم ، بل ونجحوا في أخذ ٧ (سبعة) شوان منهم . هذا ، وتقول الرواية ، أنه لو كان مع المسلمين قلع (أشرعة) لأخذوا أكثر الشوانى الصقلية ، «فكان أمراً عجيبياً ، وفتحاً قريباً» (١٢٢).

ومع أن الفرنج بالمهديّة ينسوا من الشجدة ، فإنهم صبروا على الحصار مدة ٦ (ستة) أشهر ، إلى آخر ذى الحجة سنة ٥٥٤هـ / ١٤ ديسمبر ١١٥٩م ، وهندئذ نزل

(١٢٠) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٤٤ ، وقارن رحلة التجانى ، ص ٣٤٨ - حيث عدد المراكب ٥٠ (خمسين) بدلاً من ١٥٠ (مائة وخمسين).

(١٢١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٤٤ ، والنويرى ، ص ٤٢٤ ، وقارن رحلة التجانى ، ص ٣٤٨ - حيث استعد أسطول عبد المؤمن ، واصطف عساكر المسلمين على الساحل ، وقال الحماكي : «كنت حاضراً وعبد المؤمن يصلى ويسجد في الأرض . ويقول : اللهم لاتضعع دعائم الإسلام» .

(١٢٢) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٤٤ ، والنويرى ، ص ٤٢٤ ، وقارن رحلة التجانى ، ص ٣٤٩ - حيث استولى أسطول المسلمين على ٨ (ثمان) قطع من أسطول الفرنج الذى انهزم . هذا ، كما فرق عبد المؤمن ١٢٠.٠٠٠ (اثني عشر ألف) دينار مؤتمية في غزاة الأسطول . وانظر البيهقي . ص ١١٥-١١٦ حيث : ونزل (عبد المؤمن) على المهديّة وكان فيها الروم (الصقليون) ، ومع النص على أنه لم يمت فيها (حرب المهديّة) إلا عبد الله بن أبى بكر إيجيت ، كما وجد الصقلي بالقطائع.

من الفرنج ١٠ (عشرة) فرسان وسألوا الأمان في أنفسهم وأموالهم ليخرجوا من المدينة المحاصرة ، حيث انعدم القوت حتى أكلوا الخيل . ولكنه لما كان عبد المؤمن ، كما هي عادته ، قد عرض عليهم الدخول في الإسلام ، وأبوا فقد بقى الموقف على ما هو عليه . ولكن الفرسان المحاربين لم ييأسوا ، وظلوا يلحون في استعطفهم لعدة أيام حتى وافق لأهل المدينة من الفرنج بالخروج بالأمان ، بل وأعطاهم . كما تقول الرواية ، سفنا ركبوا فيها . ولكنه لما كان الوقت شتاء « غرق أكثرهم ، ولم يصل إلا النفر اليسير » (١٢٣).

وتنص الرواية الإسلامية هذه على أن صاحب صقلية (غليوم بن روجار) كان قد قال : « إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بهجزيرة صقلية ، وأخذنا حرهم وأموالهم » - فكان من لطف الله « أن أهلك الفرنج غرقا » (١٢٤).

وهكذا دخل عبد المؤمن المهدية صلحا في عاشوراء (١٠) من المحرم سنة ٥٥٥ هـ / ٢١ يناير ١١٦٠ م ، ولهذا سماها سنة الأخماس - وذلك بعد ١٢ (اثنتي عشرة) سنة من ملك الصقليين لها (١٢٥)

وأقام عبد المؤمن ٢٠ (عشرين) يوما ، فرتب أحوال المدينة ، وأصلح ما انشلم من سورها ، « ونقل إليها الذخائر من الأتوات والرجال والعدد ، واستعمل عليها

(١٢٣) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٤٥ ، وقارن النويري (نفس الرواية) ، ص ٤٢٤ ، وقارن رحلة التجاني ، ص ٣٤٩ - حيث أيس أهل المهدية من النصرة فنزل في أواخر ذي الحجة ١٠ (عشرة) من فرسانهم يسألون الأمان لمن بهامن الأنفس والأموال ، وأن يسمح لهم بالخروج منها فعرض عليهم عبد المؤمن الإسلام . فقالوا : ما جئنا لهذا . ولما رأى منهم كمال الأجسام وتؤدة الكلام أعطاهم ما أرادوا . وخرجوا قلما وصلوا قرب صقلية وكان الفصل شاتبا هال البحر عليهم فهلك أكثرهم.

(١٢٤) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٤٥ ، وقارن النويري (نفس الرواية) ، ص ٤٢٤ .

(١٢٥) المصدر السابق ، وانظر رحلة التجاني ، ص ٣٤٩ .

بعض أصحابه ، وهو أبو عبد الله بن فرج الكومي (١٢٦) ، وجعل معه الحسن بن على ، أميرها الأسبق ، مستشاراً له . «واقطع الحسن إقطاعاً ، وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها وأولاده ، ورحل إلى المغرب في المحرم أو صفر (يناير - فبراير)» (١٢٧) .

ردع عرب إفريقية وتهجير جماعات منهم إلى المغرب والأندلس

كان وجود العرب الهلالية في بلاد المغرب الشرقية من أسباب اضطراب الدولة الزيرية في إفريقية ، وذلك على المستويين السياسى والاجتماعى (انظر ج ٣ ص ٤١٧) . هذا ، وإن كانت لجماعات منهم مشاركة في حكم البلاد ، وذلك في النظام السائد الشبيه بنظام دول الطوائف ، الذى عرفته البلاد على عهد الزيريين ، وإن كانت لهم مشاركتهم في الدفاع عن البلاد في وقت اللزوم ، ضد تهديدات العدو البحري المتمثل في الدولة لشورمندية الصقلية ، والتي أخذت تتطلع إلى بلاد السواحل الإفريقية ، بعد أن تم طرد الحكم العربى من صقلية .

وكان من الطبيعى ان يقدر عبد المؤمن بميزات عرب إفريقية الحربية ، بعد أن خبرهم في ساحات القتال ، منذ حملة تلمسان ووهران ضد المرابطين ، وحملة بجاية

(١٢٦) التوبرى ، ص ٤٢٥ وقارن ، رحلة التجانى ، ص ٣٤٩ - حيث ولى عبد المؤمن عليها أبا عبد الله محمد بن فرج الكومي وأسكن الحسن زويلة لمدة ١٠ (عشر) سنوات ، إلى ولاية أبي يعقوب ، فوصل أمره بطلوع الحسن إلى المغرب . فسار بأهله وولده سنة ٥٦٦ هـ وتوفي (في الطريق) بنامه من (موضع) آبار زلوا ، وقبره هناك في شهر رجب من نفس السنة ٥٦٦ هـ / مارس - إبريل ١١٧١ م .

(١٢٧) ابن الأثير ج ١ ص ٢٤٥ ، وقارن التوبرى ، ص ٤٢٤-٤٢٥ ، وابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤١ ، وابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٧٣ - حيث خروج عبد المؤمن لغزو المهديّة من مدينة مراكش في أول شوال سنة ٥٥٣ هـ / ٢٦ أكتوبر ١١٥٨ م .

التي انتهت بالقضاء على الدولة الحمادية ، وكذلك بالابقاع بالعرب بعد نهايتها (مسبق ، ص ٣٩١) . فمن تاريخ التجربة الزيرية مع عرب إفريقيا ، وممارسة الاحتكاك بهم في تجربته الشخصية ، كان عبد المؤمن يقدر الصفات القتالية عند العرب ، ويظنهم كيف أن دولة الإسلام قامت على أكتافهم ، ويرى أنه يمكن الاعتماد عليهم في الدفاع عن الإسلام أمام الخطرين : الصقلي - النورمندی في إفريقية ، والإسباني - «الرومي» في الأندلس - على وجه الخصوص.

وهكذا ، عندما شرع عبد المؤمن في العودة إلى المغرب بعد استرجاع المهديّة ، جمع أمراء العرب من بني رباح في إفريقية ، وقال لهم : «قد وجبت علينا نصرّة الإسلام ونريد منكم ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف) فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون في سبيل الله ، فأجابوا : السمع والطاعة ، فحلفهم على ذلك بالله تعالى ، والمصحف ، فحلفوا».

ولكنه أثناء مسيرتهم معه ، وعند وصولهم إلى مضيق جبل زشوان ، عرف عبد المؤمن من أحد زعمائهم الذي سيعرف فيما بعد «بيوسف الصادق» أن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس ، وقالوا : «ماغرضه (عبد المؤمن) إلا إخراجنا من بلادنا ، وأنهم لا يعرفون ما حلفوا عليه».

وفعلا تحقق ما قاله يوسف (الصادق) في اليوم التالي : «إذ هربوا إلى عشائهم ودخلوا البرّ ، ولم يبق منهم إلا يوسف . وهنا كان من الطبيعي أن يقابل عبد المؤمن «الفدر» بما يستحقه من المكر ، فسار بعسكره مغرباً بحث السير حتى قرب من مدينة قسنطينة ، فتنزل في مكان مخصب يقال له «وادي النساء» ، حيث كان الفصل ربيعاً والكلاً مستحسنًا ، والمرعى طيباً . وكما كان الحال في حملة بجاية (السابقة) أقام عبد المؤمن في المرقع لمدة ٢٠ (عشرين) يوماً والخيول في المرعى ، وقد ضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتة والناس لا يعرفون في جميع البلاد لهذا العسكر خبراً ، والناس يقولون : «ما أزعجه إلا خبر وصله من

الأندلس، فحث لأجله السير» (١٢٨).

يوم جبل القرون :

وفى هذه الظروف الضبابية رجع العرب من البرية إلى بلادهم التي ألفوها . ولما علم عبد المؤمن بذلك ، جهز ولديه أبا محمد (عبد الله) وأبا عبد الله (محمد) في ٣٠.٠٠٠ (ثلاثين ألف) مقاتل من شجعان الموحدين ، «فجدوا السير ، وقطعوا المفاوز ، فلما شعر العرب إلا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم ، من جهة الصحراء ليستنهمهم الدخول إليها إن راموا ذلك» . وكان العرب وقتئذ عند جبل القرن القريب من القيروان ، وهم حوالي ٨٠.٠٠٠ (ثمانين ألف) بيت ، تحت قيادة عدد من مشاهير أمراتهم ، وهم : محرز بن زياد (أشهرهم) ، ومسعود بن زحام ، وجبارة بن كامل وغيرهم.

واضطرب الزعماء من هول المفاجأة واختلطت كلمتهم . «ففر كل من : مسعود وجبارة ، ومن معهما من العشائر ، وثبت محرز بن زياد في عشيرته .

وبدأ القتال في العشر الأوسط من ربيع الآخر سنة ٥٥٥ هـ / أبريل ١١٦٠ م . «وثبت الجمعان ، واشتد العراك ، وكثر القتل» . ولحسن حظ الطرفين على ما نرى ، اتفق قتل محرز ، ورفع رأسه على عود (رمح) ، فانهزمت لذلك جميع العرب ، وركنوا إلى الفرار ، وأسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال . وحمل جميع ذلك إلى عبد المؤمن ، «فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائع ، وحملهن معه ، تحت الحفظ والبر والصيانة إلى بلاد المغرب - وقمل معهن مثلما فعل مع حريم الأتيح» سابقا (١٢٩).

(١٢٨) ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٤٥-٢٤٦ ، وقارن النويري ، ص ٤٢٥ .

(١٢٩) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٤٦-٢٤٧ ، وقارن النويري ، ص ٤٢٦ . أما عن قتلى معركة جبل القرن من العرب ، فقد جمعت عظامهم عند جبل القرن ، فبقيت دهرًا طويلًا ، كائنات العظم يفرح الناس من بعيد . أما عن سبايا معركة سطيف سنة ٥٤٧ هـ (قانظر ماسيق ، ص ٣٩٧).

وكما فعل عرب معركة سطيف من قبل ، فعل عرب معركة جبل القرن ، إذ « أقبلت إليه (عبد المؤمن) وفود رياح (قبيلة محرز) مهاجرين في طلب حريمهم فأجمل الصنيع لهم ، ورد الحريم إليهم ، فلم يبق منهم أحد الا صار عنده ، ولحق حكمه ، وهو يخفض لهم الجناح ، ويمذل فيهم الإحسان » (١٣٠)

وهكذا تأتى لعبد المؤمن أن ينفذ مشروعه في استخدام العرب في حرب الأندلس - على أساس مقولة : إن هذا الأمر (دولة الإسلام) لا يصلح آخره الا بما صلح به أوله ، تماما كما كان يقول محمد بن تومرت . فجهّزهم إلى ثغور الأندلس حسبما كان قد اشترط عليهم أولا . وهكذا ، ويفضل معركة سطيف ومن ثم جبل القرن ، « بقيت إفريقية ، مع نواب عبد المؤمن آمنة ساكنة ، لم يبق خارجا من العرب عن طاعته الا مسعود بن زمام ، وطائفة في أطراف البلاد » (١٣١)

(١٣٠) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٤٧ ، وقارن النويري ، ص ٤٢٧ .

(١٣١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٤٧ ، وقارن النويري ، ص ٤٢٧ ، وقارن رسائل صوحدي ، نشر بروكسسال ، الرسالة ٢١ عن غزو إفريقية والمؤرخة في ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٥٥ هـ / ٢٣ أبريل ١١٦٠ م - حيث الإشارة إلى القبيل المسترلى على اقطار إفريقية ، وهو القبيل الرياحي رفخد بنى محمد منه ، الذين انخرطوا في سلك أهل التوحيد ، وعزموا على الإقامة في المغرب ، إلى جانب غيرهم مثل جشم الذين عزموا أيضا على الاعتقال ، والأبج وزغبة الذين وصل أعيانهم يدون بد الاستتابة .

الفصل السابع
الانديس على عهد عبد المؤمن

A S R

A S R

١- خريطة الأندلس وأحوال أهلها

أثناء حرب المطاوعة على عهد عبد المؤمن

الخريطة :

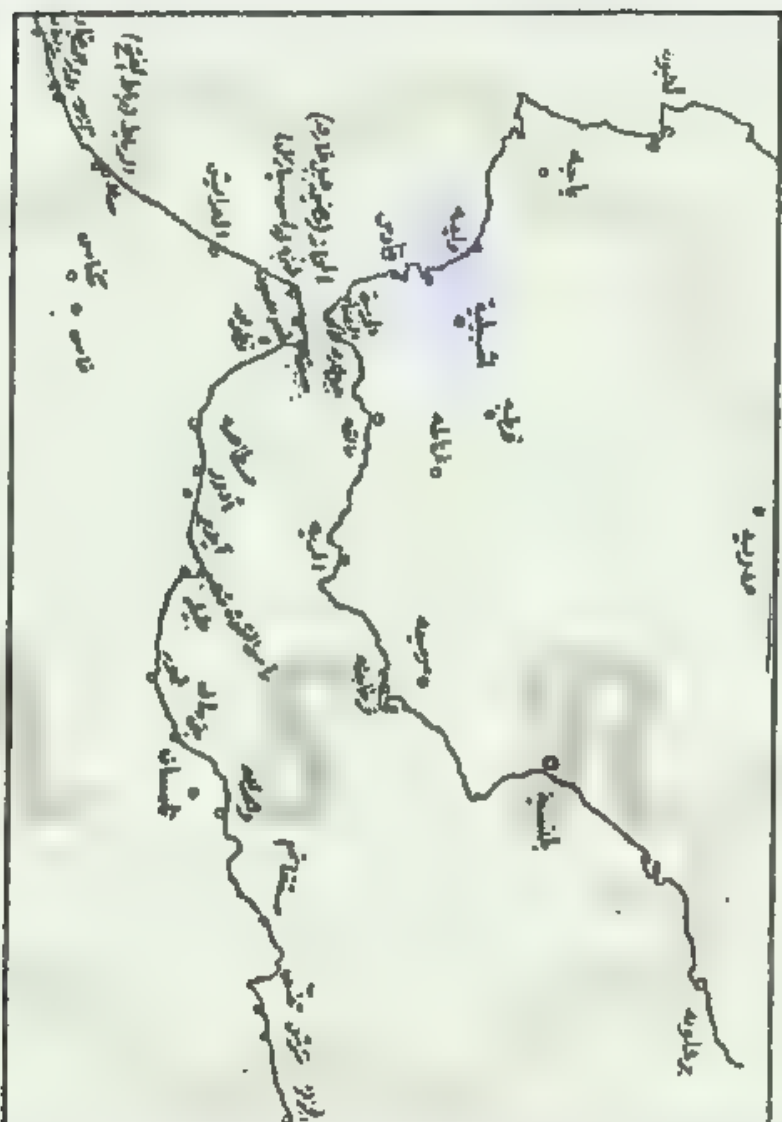
يشرح عبد الواحد المراكشي في «المعجب» الذي يعتبر وثيقة معاصرة ، كيف أن بلاد الأندلس عادت مرة أخرى إلى نظام الطوائف بعدما ضعفت دولة المرابطين إثر صراعها المذهني في المغرب مع القائمين عليها من الموحدون ، حيث النصّ على أنه «كادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية» (١).

ومثل هذا ما يشرحه الوزير الغرناطي الشهير ابن الخطيب باستاذية فذة في كتاب أعمال الأعلام - رغم كونه من نتاج متأخر ، من القرن الـ ٨هـ / ١٤م ، كما هو الحال بالنسبة لصديقه ابن خلدون - ترفعه إلى مستوى الوثائق المعتبرة . فهو يحطّ من قدر ملوك الطوائف في الأندلس ، ويرجع ذلك إلى سبب الخلاف الرئيسي بعد وحدة الكلمة (٢) . وهو بعد «ذكر تصبير أمراء الأندلس إلى ملوك لمتونة ، ابتداء من عهد يوسف بن تاشفين» (٣) يبين عودة نظام الطوائف على عهد دولة

(١) انظر المعجب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٢٠٨ - حيث : كان آخر دولة أمير المسلمين على بن يوسف أختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً ... أوجب ذلك تمادى المرابطين وتواكلهم ، وميلهم إلى الدعة .. فهاتوا على أهل الجزيرة ... وأجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . وكان أيضاً من اختلالها قيام ابن تومرت بسوس ، والاشتغال به عن مراعاة أحوال الجزيرة ... ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة من ضعف أحوال المرابطين أخرجوا من كان عندهم من الولاة . . . واستبد كل منهم ببلده .

(٢) ابن الخطيب أعمال الإعلام (بروفنسال) ، ص ١٤٤ - حيث النصّ على أن أمراء الطوائف : «ما بين (صقلبي) محبوب ، (بربري) مغربي ، (مجلوب) ومجند (بلدي) غير محبوب ، وغفل (نكرة) ليس من السراة محبوب» .

(٣) أصال الاعلام ، ص ٢٤١ .



المغرب والامم
على أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين

تاشفين (بن علي بن يوسف بن تاشفين) الذي «استثقل أمر الأندلس بما دهمه من حروب المهدي (ابن تومرت) ، واستيلائه على المغرب ، فلم يلق إلى الأندلس رأسا وأصبحت الأندلس دار البوار حيث كان ظهور الملوك والرؤساء والشرار» (٤).

هذا ، ويمكن القول إن بلاد الأندلس الإسلامية ، في ذلك الوقت من نهاية دولة المرابطين بالأندلس وبداية دولة الموحدين كانت تنحصر بشكل عام في الحدود الطبيعية التي يرسمها وادي آنة في جنوب ، وجنوب - شرق شبه الجزيرة الأيبيرية ، حيث الأقاليم في غرب ما بين بجليوس شمالا وميرتلة جنوبا كانت أراض متنازع عليها بين أمراء الأندلس المسلمين وبين دولة البرتغال التي كانت في دور التكوين ، والتمدد جنوبا على طول شاطئ المحيط ، فكان الأقاليم البحرية من الغرب الأندلسي كانت وقتئذ أشبه ماتكون منطقة الأرض الحرام (No man's land) بين المتحاربين من الجانبين . وكذلك الأمر بالنسبة للأراضي على طول امتداد النهر (وادي آنة) نحو الشمال الشرقي ، والتي كانت بمثابة منطقة الحدود الاعتبارية بين أراضي المسلمين جنوبا وأراضي قشتالة شمالا.

شرق الأندلس :

هكذا انقسمت الأراضي الإسلامية عند سقوط الدولة المرابطية إلى : شرق الأندلس حيث اتفق أهل بلنسية ومرسية ، وجميع أعمال شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند هو عبد الرحمن بن عياض ، الذي عرف بالصلاح والولاية . وعرف ابن عياض أيضا بأنه مستجاب الدعاء ، رقيق القلب ، سريع الدفعة ، كما كان فارسا صغوارا لا يقوم له أحد ، حتى أن الخوصوم من النصارى «كانوا يعدونه وحده بـ ١٠٠ (مائة) فارس ، إذا رأوا وایتة قالوا : هذا ابن عياض ، هذه مائة فارس ، فحمى الله تلك الجهات ، ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح.

والذى كانت وفاته فى قننة مرمية سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م (٥).

والمهم أن الذى خلف هذا الرجل الصالح (ابن عياض) فى شرق الأندلس ، هو
الشاعر الشهير - الأندلسى (الإسبانى) لحما ودما - : محمد بن سعد ، المعروف
عندهم بالاسم الاسبانى أصلاً : ابن مردنیش (Martinez = مارتين) (٦).

وكان ابن مارتين هذا فى بداية أمره «خادماً» (تابعاً : فصلاً - Vassal) لابن
عياض ، يحمل له السلاح ، ويتصرف بين يديه فى حوائجه ، فلما حضرته الوفاة
فضل أن يخلفه تابعه ابن مردنیش بدلاً من ولده الذى رأى عدم صلاحيته للقيادة ،
لشربه الخمر وإغفاله للصلاة - الأمر الذى يشك فى صحته من حيث انطباقه ، كما
هو دارج على ابن مردنیش أيضاً إلا إذا كان «ظهور النجدة عنده وكثرة الغناء فيه»
هو المرجح له على ولد ابن عياض ، وهو الأمر المقبول فعلاً (٧).

المسيرة :

أما ثلاثة مدن الشرق الساحلية فى الجنوب ، وهى المرية ، التى خالفت على
المرابطين ومن ثم ، على الموحدين ، فإن أهلها عرضوا الإمارة على قائد الأسطول :
أبى عبد الله محمد بن هبمون ولكنه رفض الرئاسة مكتفياً بإمارة البحر ، فعهدوا
بحكم المدينة إلى رجل ينتسب إلى الأمويين بصلته ويعرف بأبى يحيى الرميمى ،
من أهل بعض قرى قرطبة . ولكن الرجل فر من المرية عندما ذهبها النصارى براً
وبحراً ٤٠٢هـ / ١١٤٧م ، ولجأ إلى فاس حيث عاش خاملاً ، يعمل فى نسخ

(٥) انظر المعجب ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، وقارن أعمال الاعلام ، ٢٤٨ .

(٦) المعجب ص ٢٠٩ - ٢١٠ حيث أنه أصلاً من العرب البشنية ، وإن كان ينزع به عرق إلى
الاسبانية ، إذ كان يتشبه ملوك النصارى فى لباسه (الضيق) وسلاحه ، كما كان له جند من
المرتزقة الأسبان . هذا ، كما كان يهادن ملوك النصارى ، وكثيراً ما كان يستعين بهم فى
حروبه على المسلمين .

(٧) المعجب ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ حيث النص على استمرار ولاية ابن مردنیش إلى وفاته فى سنة

٥٦٨هـ / ١١٧٢م .

الكتب (٨).

جيان :

أما عن مدينة جيان وأعمالها فيما بين قرطبة وأغرناطة شرقا إلى حصن شقورة وما إلى الشفور ، فكانت لابن همشك - حليف وصهر ابن مردنيش المشهور هو الآخر والذي ربما ملك قرطبة أياماً يسيرة (٩).

دانية وميورقة :

أما عن دانية وميورقة فكانت بيد المصوفي يحيى من أسرة بنى غانية الملشمين الذين أحيوا الدولة المرابطية لعشرات السنين على عهد الموحدين - ليس في ميورقة فقط بل وفي إفريقية.

غرب الأندلس :

أما غرب الأندلس - المهده من قبل دولة البرتغال الناشئة - فقد قام فيه «دعاة فتن ورؤس ضلالات ، ممن استقرموا عقول الجهال ، واستمالوا قلوب العامة» ، فكانهم رأوا أن ينتحلوا شخصية محمد بن تومرت عن طريق تجديد دعوته ، في شكل حركة أولياء صوفية ، كما فعل أحمد بن قسي الذي ادعى الولاية ، وربما نسبت إليه أعمال الخيل والشعبذة (١٠) ، الأمر الذي عرفته سيرة ابن تومرت حقاً.

(٨) المعجب ، ص ٢١٠-٢١١ هـ.

(٩) المعجب ص ٢١١ - حيث يعرف عبد الواحد المراكشي أن اسم همشك (الذي يعني مقطوع الأذن) هو عبد الله ، وإن كان لا يعرف اسم أبيه.

(١٠) المعجب ، ص ٢١٢ ، وقارن ابن الخطيب أعمال الإعلام ، ص ٢٤٧-٢٤٨ حيث وصف حالة الأندلس على عهد دولة تاشفين (بن علي) ، بأنه استثقل أمر الأندلس بما دهمه من حروب المهدي (ابن تومرت) واستيلائه على المغرب فلم يلق إلى الأندلس رأساً... وأصبحت الأندلس دار البراءة. أما عن المشاهير من رجال غرب الأندلس فيذكر ابن وزير إلى جانب ثوار لبلة وشنترين وشمش.

كما سبقت الإشارة إليه (ص ٢٤٣) .

موسطة البلاد :

أما عن العاصمتين أغرناطة وأشبيلية من بلاد الوسط وأعمالهما ، فقد أقامت على طاعة المرابطين حتى تم استرجاعهما بسقوط الدولة اللمتونية.

الثغر الأعلى :

هذا ، بينما لم يبق من بلاد الشمال شئ في أيدي المسلمين ، فقد آل الثغر الأعلى إلى ملك أراجون (أرغون) : سرقسطة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م ، وطرطوشة ولاردة وأفراغة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م (١١) ، بينما كان ملك صقلية ، روجار الثاني ، يخضع عاصمة الفاطميين : المهديّة ، لهيئته المباشرة (مسبق ، ص ٣٨١) .

تلك كانت خريطة الأندلس السياسية المبسطة بشكل عام . فالحقيقة أنه لم يكن بأيدي المرابطين إلا الجزء الجنوبي من شبه جزيرة ايبيرية ، وهي منطقة الأندلس الحقيقية (Andalucia) ، أي الإقليم الجنوبي من شبه الجزيرة مع باطقة قرطبة القديمة ، التي كانت على أماننا هذه أشبه بالثغر ، مع استثناء عدد من الحصون الصغيرة والقلاع المتناثرة التي أضرب عبد الواحد المراكشي عن ذكرها لأنها نكرة ، انظر : «خشية الإطالة» (١٢) . هذا ، بينما أحصى ابن الخطيب الكثير منها في عملية إحصائية مرهقة (١٣) .

أحوال الأندلس طوال حرب المطاولة المرابطية - الموحدية :

يمكن تقسيم الأحداث التي آلت ببلاد الأندلس في تلك الفترة من حرب المطاولة،

(١١) المعجب ، ص ٢٠٨ .

(١٢) المعجب ، ص ٢١١ .

(١٣) أعمال الأعلام ، ص ٢٤٨-٣٦٥- حيث تصبّر أمر الأندلس إلى ملوك آل عبد المؤمن المدعويين بالموحدين ، على سبيل اللامع والاحالة.

نوعيا إلى أحداث : كونية (طبيعية) ، وسياسية واقتصادية وثقافية . ولما كانت طبيعة تلك الأحداث تتراوح ما بين الإيجاب والسلب ، كما كانت تتوالى أيضا في دورات شبه منتظمة - فكانها ملازمة للمتواليات الطبيعية أو القدرية ، وكأنها حلقات مترابطة ما بين المقدمات والنتائج المتواصلة ، كانت مساراتها تحتاج إلى بيان الأسباب أو التعليل. وهنا من المهم التركيز على أن رصد تلك الأحداث المترابطة في تسلسل زمني يحتاج إلى دراسة تاريخية توثيقية ، تسامر الزمن في أنسابه نحو المستقبل - سواء في الماضي أو الحاضر . وهنا يكون الاعتماد في ترتيب الأحداث على نظام التاريخ الحولى أنسب الترتيب . ومن أوفى كتب هذا النظام ما وصلنا من قطع كتابي ابن صاحب الصلاة (المن بالإمامة) وابن القطان (نظم الجحان) التي جانب بيان ابن عذاري ، والذي يجاريه في عديد من المواضع كامل ابن الأثير ، ونهاية النويري - وإن كانا مشرقيين.

أما عن أعلام ابن الخطيب فهو دراسة موضوعية للطوائف التي تتضع فيه ، وكأنها ظاهرة أندلسية ، وذلك بناء على الأوضاع الجغرافية لشبه الجزيرة الأيبيرية المتباينة الأطراف ، والتي تمثل الأوضاع الطبيعية التي تبنى عليها أحداث التاريخ البشرية (١٤). وفي ضوء هذه الفكرة يمكن أن نفهم أن قيام الموحدين على «إسلام جديد» حسب مقالة ابن الخطيب (١٥) ، كان بشيرا بعودة الوحدة إلى الأندلس بعد الفرقة على أواخر أيام المرابطين و ذلك ضمن أهداف دعوة التوحيد والوحدة على عهد عبد المؤمن .

والحقيقة أنه إذا كانت الطائفية في الأندلس تعبر عن تدنى الأوضاع السياسية

(١٤) انظر للمؤلف في هذا المجال ، عملية الانقاذ المرابطي في الأندلس، ما بين ملوك الطوائف وجماعات الشعب العامل على عهد يوسف بن تاشفين (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م - ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م . من بحوث ندوة الأندلس ، الدرس والتاريخ (١٤١٤-١٩٩٤) ، مطبوعات كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ، ص ٢١٢ وما بعدها .

(١٥) أعمال الأعلام ص ٢٤٣ .

على المستويات العسكرية والدفاع ، وبالتالي على نظم الحكم والإدارة وخاصة المالية ، الأمر الذى كان يؤدي الى الاضطراب والفتنة ، فإنه ليس من الغريب أن تتوافق حالة الفتنة هذه مع الكوارث الطبيعية الناتجة عن سنوات الجفاف والقحط ، وما يترتب عليها من انتشار الأمراض والأوبئة ، إلى ظهور سحببات الجراد المدمرة للزروع وبالتالي للضرع ، إلى انتشار الحرائق فى المدن والأسواق . وبطبيعة الحال كانت تلك الأمور تؤدي إلى انتشار الفقر والمرض ، وبالتالي عدم القدرة على مدافعة العدو ، خارجيا كان أم من أهل الحراية داخليا.

والمهم فى نظام الطوائف أنه كان يحقق التوازن العام بين أطرافه المختلفة ، كل فى إمارته أو مملكته - أو حتى امبراطوريته ، كما كان يظن (١٦).

والأمر المثير حقا أن الحرب عندما كانت تقوم بناء على طموحات بعض الأمراء ، أو مؤامرات الآخرين كان هدفها الأول هو تخريب حواشى بلاد الطرف المستهدف بصرف النظر عن جدوى هذا العمل من الناحية العسكرية أو السياسية . والتخريب والتدمير يظل هدفا أساسيا من أهداف الحروب ، فى القديم الغابر وفى حديثنا المعاصر - الأمر الذى يرفع الأعمال الإنسانية فى كثير من الأحيان إلى مستوى القوانين الطبيعية.

هذا ، إلى جانب الحركات الدينية المتطرفة ، من المهدية إلى الصوفية - مخلصه كانت أم دعية . والتي ظهرت كرد فعل لحركة الإصلاح المهدية الموحدة ، والتي كانت لها أصدائها فى المغرب مثل حركة ابن قسي الذى ادعى الهداية فى الاندلس وأصبح واحدا من أمراء الطوائف هناك - مما تأتى الاشارة اليه (ص ٤٤٤) أو مثل حركة الماس (أو الماسعى) الذى ادعى بدوره الهداية ، مما سبقت الإشارة إليه (ص ٣٤٦).

(١٦) والمثل لذلك ماكان يطلقه بعض الشعراء على المعتمد ابن عباد من لقب : «ملك الملوك» حتى بعد مماته ، الأمر الذى يمثل استقرار نظام الطوائف فى نفوس الطبقة المثقفة من الناس وقتئذ - انظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٦٥ - حيث يقول ابن الصيرلى شاعر المعتمد على قبره: ملك الملوك أسامع غانادى أم قد عدتكم عن السماح عواد.

هذا ، كما كان للحركة الثقافية ، من : أدب وشعر وعلم وفن ، أثرها أيضا في توطيد نظام الطوائف ، فقد كان لكل أمير بلاطه الخاص الذي يزخر بالكتاب والعلماء والشعراء الذين كانوا يساندون أمراءهم هؤلاء ، ويعملون بالتآلى على توطيد شرعية ذلك النظام ، بل والرفع من شأنه . والحقيقة أن الأندلس كانت بفضل ادبائها وشعرائها في بلاط أمير المؤمنين الموحدى فى مراكش ، ولدى السادة الأبناء الأمراء من ولاية الأندلس ، تعمل على توطيد أركان دولة الخليفة الموحدى فى كل من العدوتين : المغربية والأندلسية على السواء - الأمر الذى ترتب عليه أن كان التمدد الموحدى من المغرب إلى الأندلس أمراً طبيعياً ، بصفة دولة المغرب الموحدية الوريثة الطبيعية لدولة المرابطين المغربية - الأندلسية . وهى الأمل عند كل من الأمراء وطبقات الشعب فى عملية انقاذ مغربية جديدة.

الطائفية المرابطية في الأندلس على أواخر عهد المهدي ابن تومرت

الصراع ضد النصارى :

في السنوات الأخيرة من العقد الثاني من أوائل القرن السادس الهجري ١٢م كانت الأحوال العسكرية تسوء بظهور ابن ردمير ، ملك أراجون المعارب - وخاصة في شرق الأندلس (١٧) بينما كان أمر ابن تومرت (مهدي الموحدين) يستفحل في بلاد المغرب. ففي سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٧م كان الصنهاجيون في غرناطة يواجهون ابن ردمير في حرب بدأت سجالاً بانتصار المسلمين ، وانتهت بانتهازم الأمير (ابن حبوس) ، وبالتالي انهزام قواته التي تهددت أيدي سبا ، ولم ينقذهم من الاستئصال إلا التجاؤم إلى المعازل القريبة «فوقاهم الله شرهم» ، الأمر الذي أدّى إلى عزل الأمير فميم في السنة التالية ٥٢١هـ / ١١٢٨م (١٨).

ومن المهم الإشارة هنا إلى أنه في أثناء تلك الصعوبات الحربية التي كان يواجهها ملوك الطوائف في الأندلس أمام أمراء إسبانية المسيحية وخاصة ملك اراجون ، كان قاضي قرطبة الشهير أبو الوليد بن رشد يجوز من الأندلس إلى العدو المغربي ، لينصح الأمير علي بن يوسف بن تاشفين ببناء سور مدينة مراكش - ليقبضها هجمات رجال المهدي ابن تومرت - الأمر الذي كلف الأمير المرابطي ٧٠ (سبعين) ألف دينار (١٩) ، فكان ذلك مما يزيد في أعبائه المالية ، وبالتالي أعباء عامة الناس .

(١٧) ابن هذاري ، البيان ، بيروت ، ج ٢ ص ٤٤٦-٤٤٧ .

(١٨) ابن هذاري ، البيان ، بيروت ، ج ٢ ص ٤٤٧ .

(١٩) ابن هذاري ، البيان ، بيروت ، ج ٢ ص ٤٤٧ .

ردود فعل تومرتية في فاس :

ومن التداعيات التي تستدعي الانتباه أنه في الوقت الذي تقول فيه رواية ابن عذاري في سنة ٥٢٩هـ / ٣٥-١١٣٤م أنه تم الاعلان عن وفاة المهدي في تلك السنة ، وتسمية عهد المؤمن بن علي بأخير المؤمنين ، يظهر تأثير الحركة الموحدية التومرتية في قضاء مدينة فاس الذي تولاه (ابو محمد) عبد الحق بن عبد الله بن معيشة (الغزنائي أصلاً) ، إذ قام بما كان يقوم به محمد بن تومرت في نفس المدينة منذ أكثر من ١٥ (خمس عشرة) عاماً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مما كان يشير خواطر أهل السوق علي الأقل ، في ذلك الوقت. فقد قام القاضي الجديد ابن معيشة في سنة ٥٢٩هـ / ٣٥-١١٣٤م المذكورة ، في مدينة فاس «بإراقة الخمر ، وكسر الدنان ، وتشدد على أهلها (فاس) ، كما زاد في (توسعة) الجامع الكبير» (٢٠) . فكان ابن معيشة كان يقبل تجديد ابن تومرت الاسلامي ، ويعمل على تطبيقه قبل عشر سنوات من فتح عبد المؤمن لمدينة فاس وأكثر ، حيث كانوا يطمسون بالجص زخارف محراب المسجد الجامع التي كان يمكن ان تلهم المصلين عن الصلاة ، خشية غضب خليفة ابن تومرت (٢١).

(٢٠) ابن عذاري ، البيان (ط. بيروت) ، ج ٢ ص ٤٤٩ وعن توسعة الجامع انظر زهرة الآس للجزائري ، نشرة القرد بل (Alfred Bel) الجزائر ، ١٩٢٣ ، ص ٥٧ - حيث أمكن لابن معيشة - استخلاص ٨٠٠٠٠ دينار كانت في عهدة نظراء الأوقاف والوكلاء - وحيث بلغت الزيادة في الجامع (جامع القرويين) ١٠ (عشر) بلاطات.

(٢١) الجزائري ، زهرة الآس ، ص ٥٨ - حيث النص أيضا على أن ابن معيشة أخذ في عمل القبة التي بأعلى المحراب وما يحاذيها... لعل ذلك بالقريس الفاخر الصنعة والنقش فيه على المحراب دائر القبة التي عليه . ورُقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد ، واصناف الأصيلة... والمهم بعد ذلك أن النقش والتذهيب الذي كان بأعلى المحراب ودائر القبة التي عليها غطي ذلك كله بالكاغد (الورق) وعمل عليه الجص حين عزم الخليفة عبد المؤمن بن علي الدخول لفاس والصلاة في الجامع المذكور ، لأن ذلك كان مشقلا للمصلين . وانظر: بالباس (ليوبولد تيرنر) ، الفن المرابطي والموحدي ، ترجمة سيد شازي ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٢ - حيث تغطية نقوش محراب جامع فاس بالجص عندما تهيأ عبد المؤمن لدخول المدينة سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م.

استدعاء القائد الأعلى تاشفين من جبهة الأندلس الى الجبهة المغربية :

هذا ، كما كان استدعاء أمير المسلمين على بن يوسف لابنه تاشفين في سنة ٥٣١هـ / ٣٧-١١٣٦م من الأندلس ليجعل إليه ولاية العهد ، ويضع على عاتقه عبء مواصلة حرب عهد المؤمن ، وكل ذلك يعني المزيد من الاهتمام بالخطر الموحدى في المغرب على حساب مواجهة حرب الاسترداد في الأندلس ، والتي بدأت تتفاقم مظاهرها هناك . هذا ، مع ظهور حركات أندلسية محلية الطابع هذه المرة ، تقرب بين بعض الفئات الأندلسية والإسبانية من إسلامية ومسيحية بشكل يجعل من المواطنة رابطة متفوقة بين الأفراد على الثقافة الدينية ، مثل حركتي ابن مردنيش وابن همشك .

الاهتمام بالشعر في الأندلس :

أما عن الحالة الثقافية بشكل عام في تلك الفترة بالأندلس فيكفى دليلاً على حب الأندلسيين للأدب والشعر على أواخر عصر المرابطين في الأندلس ، أن بعض الناس كان يوقف غلة بعض أرضه على الشعراء الذين يستأذنون عليه . هذا ويستدل من القصة التي يوردها عبد الواحد المراكشي في معجبه ، أن الأدب والشعر كان قد تأثر في الأندلس بحالة الفتنة ، وهو الأمر الطبيعي ، إلى حد أن الشاعر أبا عبد الله بن حبوس كان يسعى للتعرف في مدينة شلب بغرب الأندلس على واحد من يرعون الشعر والشعراء ، وهو يتضور جوعاً ، بينما كان رجل من عامة أهل المدينة (شلب) يحتجز مالاً يبلغ مقداره ٧٠٠ (سبعمائة دينار ذهبي مرابطي) ، وهو لا يجد من يفد عليه من الشعراء ليأخذ ذلك المال بسبب الفتنة بالأندلس (٢٢) .

(٢٢) المصجب ، ص ٢١٤-٢١٥ - حيث تنتهي القصة بمقالة الشاعر عن طبيعة ثقلب الأحوال في عصر الفتنة ، هذا : «فدخلت عليه جائعاً فقيراً وخرجت عنه شبعان غنياً» .

تقييم الموقف في الأندلس

والمهم من كل ذلك أن ظهور ابن تومرت بالمغرب في منتصف العقد الثاني من القرن الـ ١٢ هـ / ١٢ م كانت له آثاره السلبية على الأحوال في الأندلس المرابطية وقتئذ، فحوليات ابن القطان التي ينقلها ابن عذاري تنص في سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م على أن حلول ابن تومرت (الملقب بالمهدي) بأغمات في تلك السنة كان تحريضا «على الخروج على السلطان (أمير المسلمين)» ، وتفريق الكلمة المنتظمة. وتؤكد تلك المقولة بالشوة الشعبية التي عرفت قرطبة في ذلك الوقت من سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م، والتي جعلت من أمير المسلمين الثاني : علي بن يوسف ابن تاشفين يظهر في نظر القرطبيين بظهر واحد من ملوك الطوائف ، بالمقارنة مع والده «أمير المسلمين الأول» الذي ظهر بعد انتصار الزلاقة بظهر المنقل بالتسبة لبلاد الأندلس أو المخلص . فكانه قد حدث - فيما بين العهدين - نوع من الانفصال الروحي بالأندلس بين الشعب وبين الدولة (انظر ج ٤ ص ٤٠٣ - ٤٠٥).

هذا الانفصال بين الحاكم والمحكوم في الأندلس المرابطية أكدته في السنة التالية (٥١٥ هـ / ١١٢١ م) هزيمة كتندة (قتندة) التي استشهد فيها ألوف المجاهدين (٢٣) . أما عن الانتصار الذي حققه المرابطون فيما بعد في إفراغه فلم يكن بأكثر من انتصار فردى ليهيى بن غانية ، صاحب غرب الأندلس (ما بعد ، ص ٤٢٩).

وهكذا كانت الأحوال تسوء في الأندلس مع مرور الوقت . فبينما كان أمر المهدي ابن تومرت يستفحل في سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م كانت الأحوال تزداد سوءا في الأندلس في السنة التالية ، حيث خرج ابن ردمير (الفونس المحارب ، ملك أرجون) إلى بلاد المسلمين فدوخها بلداً بلداً ، وضيق عليها في حملته الشهيرة التي اجتاحت فيها بلاد شرق الأندلس من أعلى ثغورها إلى أدنى بلادها إلى العدو (ج ٤ ص ٢٩٨) . الأمر الذي كان يهدد المرابطين بخسران عملية الانقاذ التي بدأت

(٢٣) ابن عذاري ، بيروت ، ج ٢ ص ٤٤٣ - حيث النص . نقلا عن ابن القطان أنه مات في تلك الوقعة نحر من ٢٢.٠٠٠ رجلا.

بشائرها في الزلافة. بشكل نهائي.

وعلى العكس من ذلك كان سفر ابن رشد من قرطبة إلى العاصمة مراكش لكي يعرض على أمير المسلمين : علي بن يوسف بن تاشفين مسألة مناصرة المستعربة من نصارى الاسبان في غرناطة لابن ردمير (ملك اراجون) ، وماترتب على ذلك من نصح الفقيه القرطبي الكبير بتحسين مدينة مراكش بالأسوار ، تأمينا لها من خطر اجتياحها من جانب الموحدين (انظر ج ٤ ص ٤٢٠) ، وماترتب على ذلك من حركة «التمتعيب» المماثلة بالنسبة لمدن الأندلس المهددة بخطر حرب الاسترداد (ج ٤ ص ١-٤٢٠) ، كل ذلك كان نذير أخطار جارفة تهدد وجود الدولة المرابطية ، ليس في الأندلس فقط ، بل وفي بلاد المغرب ذاتها - من جانب الموحدين.

والمهم أنه إذا كان الموحدون وادعين في المغرب عقب ذلك في سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م ، ولوفاة المهدي كاتمين كما ينص ابن القطان (٢٤) ، فقد كانت تلك الوداعة أشبه ماتكون بالرماد الناعم الذي يخفي تحته الجمر الملتهب . وذلك أن القدر ، ممثلا في الأحوال الطبيعية ، كان قد تخلى ، في ذلك الزمن أيضا عن مساندة الأندلسيين . ففي أخبار الأندلس سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م «اشتدت المجاعة والوباء بالناس بقرطبة ، وكثر الموتى» ، كما اشتد القحط بالثقال والجذب بالأحياء ، «إذ بلغ (سعر كيل) القمح ١٥ (خمس عشر) دينارا ، وكثر (بالثقال) الشر» ، بينما كان والي العاصمة الأندلسية التعيسة ، وهو ابن قنونة : ابن كنونه (ابو محمد عبد الله بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين) «لا يفتر ولا ينسى عن قتل أهله» (٢٥).

وإلى جانب القحط والوباء وسوء إدارة والي المرابطين (الزرجاني) كانت خيالة النصاري من الخصوم تضرب على قرى اشبيلية من جهة حصن القليعة ، وتنتشر في المنطقة الهلع والفرع ، والنهب والقتل والتخريب . كما كانت تكرر الغارة على

(٢٤) نظم الجمان ، ص ١٩٠ .

(٢٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٧ .

الضواحي بقيادة رودريجو جونزاليز ، بل وتقتحم شرق اشبيلية على حين غرة ، وتقتل الأعداد الكثيرة من أهله ، وتعود بالسبي من النساء والولدان (٢٦) . هذا ، وكان من شهداء تلك الواقعة القائد : عمر بن مقور (مجنون : بن علي بن الحاج) الذي كان « قد خرج على وجه الاستظهار ولكنه نكص فاراً ، فأدرك وقتل » ، الأمر الذي أدهش الناس ، ودعا إلى أغلاق أبواب المدينة (٢٧) .

وهكذا أصبحت منطقة أشبيلية في ذلك الوقت من سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م وكأنها من الشغور الإسلامية التي تتعرض للغارات المتوالية من الجيران الأعداء . بل وكذلك الأمر بالنسبة لغرناطة ، ثلثة العواصم الإسلامية وأقواها من حيث كونها مقر ولي العهد أو نائب الملك . وفي تلك السنة كانت مدينة يابرة محروبة بطليوس هدفا للخبيالة المسيحية أيضا الأمر الذي دفع الأمير : تاشفين صاحب غرناطة والقائد ابن قنونة ، صاحب قرطبة ، إلى السير اليهم واللقاء معهم حيث أمكن هزيمتهم وقتلهم ، واستنقاذ الغنيمة من بين أيديهم (٢٨) - في ذلك الموضع الذي لا يبعد كثيرا عن موقع الزلزال.

(٢٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٧ والهاسن - حيث الإشارة إلى أن المعركة تعرف عند النصارى باسم آثاريدا.

(٢٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨ والهاسن.

(٢٨) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٨ - حيث الإشارة إلى أن الحوليات النصرانية تقول إن تاشفين ثار من الفارة على يابرة Evora بالشارة على سلطنة - وهو الأمر المستبعد نظرا لطول المسافة بين المدينتين وما لا بأس من الإشارة إلى الحملة التي قام بها تاشفين ، والتي وصفها ابن الخطيب في رمضان سنة ٥٢٤هـ / يوليو ١١٣م والتي خرج فيها بجيش غرناطة ومتطوعاتها ، مع انضمام جيش قرطبة إليه ، حيث كان السير إلى حصن السبيكة من عمل طليطة ، والذي كان المدبر قد اتخذها مكانا للإضرار بالمسلمين على يدى قائد الكونت (Comes) فرند (Fernado). ونجح تاشفين في افتتاح ذلك الحصن غرة ، وعاد بمقاتله فرناندو وفرسانه إلى غرناطة - وربما استخدمهم ضمن الفرقة الأجنبية التي كانت لدى المرابطين بالاندلس - ابن الخطيب. الاطاعة (عتان) ج ١ ص ٤٥١ .

ولاية تاشفين عواصم الأندلس الثلاث :

وعندما رجع تاشفين من تلك الغزوة الموفقة ، علي كل حال ، صدر الأمر من قبل والده أمير المسلمين : علي بن يوسف ، بإسناد ولاية قرطبة واشبيلية وغرناطة إليه (٢٩) ، فكان ذلك المرسوم يوسع اختصاصات نائب الملك (ولي العهد المنتظر) بضم عواصم الأندلس الكبرى الثلاث تحت سلطانه المباشر ، بمعنى العمل على حمايتها والدفاع عنها ، أولاً وقبل كل شيء ، بعد أن أصبحت وكان أعمالها مناطق ثغور مفتوحة : لأصاحب لها . وترتب على إسناد ولاية قرطبة إلى تاشفين أن عزل عنها عبد الله ابن قنونة (جنونة) الذي اقتيد إلى إشبيلية حيث سجن فيها . وكان دخول تاشفين قصر الولاية في قرطبة في شهر شعبان (٥٢٦هـ / يونيو ١١٣٢م) (٣٠) .

وتستمر الغارات على أراضي المسلمين في سنة ٥٢٧هـ / ٣-١١٣٢م من قبل ملك قشتالة الفونسو المعروف باسم السليطين أي السلطان الصغرى (والذي سيتخذ (٢٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٩ .

(٣٠) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٩٩ ، وقارن ابن الخطيب ، الإحاطة (عنان) ج ١ ص ٢-٤٥١ - حيث خروج العدو في آخر عام ٥٢٦هـ إلى بلاد الإسلام فبصيح اشبيلية في ١٤ رجب ، وعندما يخرج إليه جيش المسلمين بقيادة عمر بن علي بن الحاح ، فتكون العاجعة باستشهاده والمحيطين به ونزول العدو في أعمال المدينة ونشر الخراب والقتل والمهمل أن تاشفين أسرع لإنقاذ الموقف ، ونجح بعد أن دخل اشبيلية ، وأخذ استعدادة فيها في تعقب العدو وفي مسيرته نحو بطليوس وباجة وبيرة ... حتى الوصول إلى فلاة بقرب الزلاقة ، كانت مليحاً للعدو الذي كان قد وصل يسوق أمامه مغلغلة . وكان اللقاء في معركة منظمة وقع فيها تاشفين ووجه المرابطين في موقع القلب ترلوف عليهم « لبنود الياسقات ، مكينة بالآيات ، وفي المجنبتين كمار رجال الدولة من أبطال الاندلس ، عليهم حمر الرايات بالصور الهائلة ، وفي الجناحين أهل الشجر والأشواب من أهل الجلالة ، عليهم الرايات المرمعات بالعدايات المجرعات » . وفي المقدمة « وقفت مشاهير زنته ولفيف لحشم الرايات المصبغات المنسقات » . والتقى الجمعان واشتد الضرب والضراب ، وامتد اللقاء بهزيمة العدو ، والذي استأصله الهلاك والإسار . وكان فتحاً جليلاً ، لاكفاً . له وصدر تاشفين ظاهراً إلى بلده في جمادى من هذا العام / فبراير .

لقب الامبراطور) مع حليفه ابن هود (الملقب هنا بالطاغية) ، وريث ماتبقى بين أيدي المسلمين من قلاع الشجر الأعلى. فلقد حام عسكرها حول اشبيلية ، كما اقتحموا مدينة شريش قبل ان يعودوا أدراجهم إلي بلادهم (٣١).

تاشفين بطل الدفاع ،

وهنا يظهر تاشفين بمظهر بطل الدفاع عن الأندلس ، فهو يطاول الخصوم الاسبان ويرد بغارات محائلة لتلك التي يقرمون بها على الأراضي الاسلامية ، الأمر الذي كان يؤمل تحقق نوع من التوازن في حرب المطاولة الأندلسية . ففي مقابلة مع شارة الملك القشتالي وحليفة ابن هود تعرض حولية ابن القطان في سنة ٥٢٧هـ / ٣ - ١١٣٢م هذه ، إلى حملة يقوم بها تاشفين إلى أراضي قشتالة حيث يفتتح حصن أنطاطة (شنت اشطين عند ابن الخطيب) ، حيث تم قتل الرجال وسبوا النساء والصبيان ، وهدم ذلك الحصن بتسوية أعلاه بأسفله. وإلى جانب الهدم والتخريب الذي كان متبادلا بين المسلمين والإسبان المسيحيين كان الجراد يأكل الزرع في تلك السنة . لكي تتم فصول المأساة الأندلسية (٣٢).

وعلى هذا النسق تتكرر المأساة في السنة التالية (٥٢٨هـ / ٤-١١٣٣م) حيث

(٣١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٠ .

(٣٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠١ و ١٥١ ، وقدرن ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٧-٢٤٨ - عن دولة تاشفين ، حيث: النصر على أنه «استشقل أمر الأندلس بمادهم من حروب المهدي واستيلائه على العرب ، فلم يلق إلى الأندلس رأسا...

وانظر ايضا لابن الخطيب ، الإحاطة (عنان) ج ١ ص ٤٥١ (عن تاشفين) حيث الص على أنه في ربيع الأول من عام ٥٢٦ هـ / يناير ١١٣٢ م ، عندما تعرف تاشفين خروج عدو طليطلة إلى قرطبة ... تهدد إلى العدو الذي اكتسح شنت اسطين (San Esteban) والراودي الأحمر .. وتلاحق بالعدو بقرية براشة «فترابى الجمعات صباحا... ونشرت الرماح والرايات . وهدرت الطبول ... واقتبذ العدو عن الغنمية ، والتف الجمع فقصر الرماح ، ودارت الحرب على العدو ، وأخذ السيف مأخذه ، وأتى القتل على آخرهم ، وصدر إلى غرناطة ظافرا.

الصراع مستمر بين المرابطين والموحدين في المغرب (٣٣) ، بينما كان قضاء اشبيلية يؤول بالأندلس إلى الفقيه الشهير ابي بكر بن العريش ، بعد عزل ابي عبيد الله بن أصبح . ويكون الشروع في بناء سور اشبيلية من ناحية الوادي (النهر) - الذي لم يعد كافيا لتحقيق الأمان من ناحيته ، كما نرى . وفي تلك السنة بينما كان ملك أراجون ابن ديمير ، يهاجم قلعة أفراغة في منطقة الثغر الأعلى غير بعيد من لاردة ، كان الجراد في الأندلس يأكل « كل ما كان على الأرض من زرع » (٣٤) .

وفي سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م التالية ، كان الإعلان في مراكش عن موت الإمام المهدي (ابن تومرت) ، والإعلان ببيعة عبد المؤمن خليفة ، الأمر الذي كان يعني الاستقرار في المغرب لعبد المؤمن ، بمعنى ضبطه للأمر دون منازع . هذا . وفي المقابل كانت أمور الأندلس تزداد ترددا رغم المجهودات المضنية التي كان يقوم بها تاشفين ، صاحب الولايات الثلاث بالأندلس ، غرناطة واشبيلية وقرطبة : نائب الملك.

والحقيقة أن تاشفين كان يبذل قصارى جهده - على المستوي الشخصي كقائد هام ، وعلى المستوى العام كأمر مسئول بالنهاية عن ضمان الأمن والاستقرار في البلاد المضطربة على المستويين الخارجي والداخلي . ومن الواضح أنه بينما كان الأمير الفارس يعمل على مكافحة طلائع العدو فيستنصر عامة الناس في قرطبة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م ، ويستدعي عساكر اشبيلية وباريه لكي ينزلوا في موضع يعرف « بالبيكار: Albacar » قرب قرطبة حيث تفاجئهم خيالة النصارى ليلاً ، فقتل منهم من قتل وتفرق الباقون أيدي سباً ، وكادت خيل العدو تصل إلى خباء تاشفين . ولكن الناس تماسكوا حوله ، وكانت له على العدو جولة ، ومن حسن الطالع أن أصيب بعض مقدمي النصارى ، فنكصروا على أعقابهم.

(٣٣) ابن القطان . نظم الجمان ، ص ٢٠٦ - حيث الإشارة إلى مقتل إبراهيم بن تاهباشت -

وأنظر ما سبق ص ٢٣٥ .

(٣٤) ابن القطان ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

وهكذا عندما « أصبح تاشفين في موضع محله ، وثاب الناس إليه سار بهم إلى بعض حصون المسلمين القريبة » وهو حصن « قصرش » Caceres ، ومن هناك عاد إلى قرطبة ، بينما رجعت النصاري إلى بلادهم بالغنائم (٣٥) ، فكان منطقة قرطبة ، بعد ولاية تاشفين إياها ، ظلت أشبه ماتكون بالشجر الخالي أو الأرض الحرام . ويؤيد ذلك خروج الناس من أهلها مع العساكر - الأمر الذي يعني ترك العمارة وأهل السوق لأشغالهم ومهنتهم - وبالتالي فساد الأحوال في البلاد .

وإلى جانب عارات العدو ، أتت غارات جعافل الجراد ، « ومحت ماعلي الأرض من زرع ، فلم يبق أمام الناس إلا أكل الجراد بدورهم . هكذا ، « أمر الناس بالخروج إلى الجراد فساقوا منها ٥٣٣ (خمسة آلاف وثلاثمائة وثلاثين) عدلا » ، وتركوا في الموضع منها (الجراد) أكثر (مما جلبوا) (٣٦) .

وإلى جانب مآسي حرب المطاولة ، ونكبات الطبيعة كان المجتمع الأندلسي يعاني كثيراً من الفتن الداخلية ، من : صراعات بين الأحراب الإسلامية المتناحرة دينياً وسياسياً ، وصراعات بين المسلمين من جانب وبين أقليات أهل الذمة من اليهود والمستعربة الإسبان من الجانب الآخر .

لمن غرائب نفس سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م مقتل قاضي قرطبة أبي عبد الله بن الحاج في صلاة الجمعة في المسجد الجامع ، إذ وثب رجل عليه بالسكين وهو في السجدة الأولى من الركعة الأولى فقتل . وكان نصيب المعتدي أن قتل بالضرب المبرح وهو يُجرى إلى صحن المسجد . أما القاضي الجريح فإنه نقل في عرش وهو غارق في دمانه ، ولكنه لم يقدر له الحياة إذ توفي في داره عشية يوم الجمعة ذاته ، وهو المؤرخ ٢٤ صفر / ١٥ ديسمبر ١١٣٤م (٣٧) . وبقيت قرطبة أشهراً دون فاضل إلى أن ولي قضاءها : أبو جعفر أحمد بن حمدين في شعبان من نفس العام .

(٣٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٥-٢١٦ .

(٣٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٧ .

(٣٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٥ .

أما عن الصراع بين العمامة وأهل الذمة فتتنص حولية نفس سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م القرطبية على أن رجلاً من اليهود قتل مسلماً ، الأمر الذي أدى إلى هياج عامتها « فاستطال المسلمون على اليهود (بقرطبة) وكانت فرصة انتهزها الغوغاء » فنهبت أموالهم وهدمت ديارهم » (٣٨).

وفي ظل هذه الأحوال المضطربة ، من : سياسية وحرية واقتصادية واجتماعية ، الأمر الذي يبنى بنهاية تعسة لحرب المطاولة الأندلسية ، كانت أنباء بعض الانتصارات المحلية التي يحققها المرابطون في الأندلس تُدَوَّى في جنبات البلاد ، وكأنها بشائر النصر ، ولكن دويها كان لا يلبث أن يخفت وتُجَلَّ الكآبة محل الفرح ، وإن كانت انتصارات الموحدين في المغرب على المرابطين أخذت تجدد الأمل في عملية انقاذ موحدية أخرى ، بل وزلاقات متجددة .

انتصارات أفراغة :

هكذا اعتبر النصر المرابطي في موقعة أفراغة في أواخر سنة ٥٢٨ هـ / سبتمبر ١١٣٤ م أوائل سنة ٥٢٩ هـ / أكتوبر ١١٣٤ م غريبة من غرائب ذلك الثغر المصائب لبلاد الفرنجة والحقيقة أن المعاصرين في أي من العدوتين الأندلسية أو المغربية ، كان لهم الحق في أن يعتبروا الانتصار على الطاغية ابن ردميو ، ملك أراجون ، الذي سبق له أن دوَّخ الأندلس بلداً بلداً (مات سبق ٤٢٦) ، أعجوبة من الأعاجيب ، وهو الأمر الذي تحقق في الثغر الأعلى وعلى يدي يحيى بن غانية المسوفي ، الذي أصبح الممثل الحقيقي للسلطة المرابطية بالأندلس ، بعد أن عهد إليه بولاية شرق الأندلس إلى جانب ولايته للمغرب ، الأمر الذي سيسمح بعد قليل باستدعاء تاشفين من الأندلس لمواجهة الأحوال المتردة في المغرب أمام الموحدين ، إلى جانب ولايته للعهد ، بدلا من أخيه سير (مات سبق ص ٤٣٠).

أما عن السبب في حرب أفراغة فتتلخص في أن تطلع أمير برشلوة القوى ،

وهو القومس (الكونت) وامون برنجار (الذي اشتهر بلقب الكبير) ، إلى الاستيلاء على كل من مدينتي الشجر الأعلى وهما : لاردة وأفراغة ، أدى إلى أن يشتري أمراء لتونة هناك سكوتهم عنهم ، بجزية مقدارها ١٢,٠٠٠ (اثنى عشر ألف) دينار من الذهب المرباطى ، حتى لا يقعوا بين سندانه ومطربة الفونسو المحارب. وأدّى ذلك إلى غضب هذا الأخير ، واعتبار ذلك عملاً عدائياً من الجانبين المتعاقدين ، فوجه لهما السّباب ، وهو يقول : «لو أعطوني (المسلمون) أنا درهما واحداً لأخذته» ، ووعده بالانتقام والإغارة على ثغور المسلمين ، واختار مدينة أفراغة هدفاً له ، باعتبارها أشدها حصانة وأقواها دفاعاً - وكان في ذلك تحدّ لمقدرة يحيى بن على بن غانية ، وإلى شرق الاندلس وغربه ، وصاحب بلنسية التي اتخذها عاصمة له (٣٩).

وعندما طال الحصار وضاق أهل أفراغة من شدة الحصر ونفاذ القوت ، كتبوا إلى يحيى (أبو زكريا) بن غانية يشكون ما هم فيه من الضيق ويطلبون منه إمدادهم بالقوت ، قائلين له : «وإن أنت لم تفعل خضعنا لابن ردمير ، وأعطيناه القادة (الرئاسة)» . وشعر القائد المسوفى أصلاً ، سليل الأسرة المالكة ، بالمستولية الكبيرة الواقعة على عاتقه ، وأعدّ لها خير إعداد . وفي سبيل ذلك لم يكتف القائد المستول عن شرق الاندلس وغربه بجميع العساكر فقط ، بل إنه قام بما يليق بمثل من أعمال القروسية والفداء ، والتي يحسن أن يلقي بها ربه ، إذا ما اشترى نفسه (بأن له الجنة) . فقد أعتق بعض إمائة (من أمهات أولاده) وعبيده ، وكتب وصيته . وهذه الأعمال الفدائية من جانب يحيى بن غانية يفسرها مقال له بعض خاصته «أتقزو بهذا العسكر ، وليس للمسلمين عسكر بالأندلس سواء ، فكيف تلقي على بنى يوسف بعد اليوم وقد انهزمت » (٤٠).

وكان الخروج بعساكر الشجر التي لا رده لها ، لمناجزة ابن ردمير (الفونسو المحارب) بعيداً في منطقة لاردة وأفراغة ، بالنسبة لفارس مسرفة أشبه بمقامرة

(٣٩) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٨-٢١٩-٢٢٩ .

(٤٠) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٩ .

كبرى ، وضع فيها كل ما يملكه ، وضمانه فيها شجاعته وفروسيته ، وثبات جنانه ، وإيمانه بالقضية الكبرى : « نكون فى الأندلس أو لانكون » . وطبيعة الحال لا ينبغي أن نغشط المجاهدين من الرجال وراء ابن غانية حقهم ، فالذى يفهم من مجمل الصراع حول مدينة أفرغة الحصينة ، أن تلك الحرب ما بين المسلمين والإسبان المسيحيين كانت ذات صبغة دينية . فعندما ملّ ابن ردمير من طول الإقامة حول القلعة التى لا ترام ، وكان قد جاء معه بعض الرهبان من داخل فرنسا (الفرجة) قال له أحدهم إنه سيدعو « فينهدم سور أفرغة » . وتريد الرواية الإسلامية هنا ، أن يحرز المسلمون قصب السبق فى تلك المناجزة المقدسة ، حيث نجح منجنيقهم أن يخطف روح الراهب الوثائق من نفسه ، وقد صعد الى قمة المرتفع الذى كان سيطلق منه الدعاء (٤١) وهكذا كان التحكيم الإلهى إلى جانب « المستضعفين » .

أما عن المعركة خارج أسوار أفرغة ، فتتلخص فى أنه « لما وافت عساكر المسلمين ، سار ابن ردمير إليهم ، فخرج أهل أفرغة ونهبوا محلته وأدخلوا ما فيها من الطعام والأدم الى مدينتهم ، وكانت الدائرة عليه فأهلكه الله ، وقتلهم المسلمون أبرح قتل » . وفر ابن ردمير فى شرذمة قليلة جداً ، ولحق بمدينة سرقسطة ، واله العقل . مخبول الذهن ، ثم خرج إلى وثقة ، فأقام بها شهراً محتبلاً ، إلى أن مات (٤٢) .

وهكذا حق للمسلمين أن يحتفلوا بهزيمة خصمهم اللدود : ابن ردمير (الفونسو المحارب) فى موقعة أفرغة ، وحق للكتاب العرب أن يحتفلوا بتلك الموقعة ، فكانها صنوة الزلاقة التى حطموها فيها الفونسو الفشتالى ، واعتبروها « غريبة » من الغرائب ، الأمر الذى تؤكد الأحداث السياسية والحربية التالية فى حرب المطاولة المرابطة مع النصارى الإسبان . فلقد ظهرت الآلة الحربية الأندلسية أكثر قوة ونشاطاً عن ذي قبل فى أخبار الأندلس التالية .

(٤١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٢ .

(٤٢) ابن القطان ، نظام الجمان ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ . وقارن ابن الأثير ، ج ١١ ص ٢٢ - بعد ٢٠ (عشرين) يوماً .

ففى سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م كان تاشفين بن على يتصدى لخيالة النصارى وينزل بهم الهزيمة على مقرية من قصر عطية «ويحتوي على أسلابهم وأثاثهم»، كما كان ينازل مدينة اشكلونة فيدخلها المسلمون بالسيف عنوة ، ويقتلون كل من كان فيها من الرجال ، ويأسرون نساءهم «ويحتون على أسلابهم وأثاثهم ظافرين ، ويسوقون جملة من نساءهم وغنائمهم» (٤٣).

ومن المهم الإشارة هنا إلى ماساقه معهم رجال تاشفين بين غنائمهم من نواقيس كنائس البلاد التى كانوا يدخلونها، كناية عن انتصار الإسلام بعد فترة القصور السابقة ، والتى كان يسرح فيها الفونسو المحارب ويروح ما بين الشمال والجنوب ، مدوّخا بلاد الإسلام بلداً بلداً ، مما سبقت الإشارة اليه.

والهمم أنه كان بين النواقيس التى دخلت قرطبة ناقوس عظيم ، كناية عن فتح مدينة كبيرة ، ربما كانت مقر رئاسة اسقفية . هذا ، وكان دخولهم قرطبة « يوم يروز عظيم ، وسرور كثير (٤٤) ، الأمر الذى كثيراً ما كان يشير أشجان أيام قرطبة الناصر والمنصور.

والى جانب احتفال الحوليات التاريخية بانتصار تاشفين (الزرجانى) ، كانت هناك أشارات فرحية عن أخبار أعماله العمرانية ، مثل : «بناء الناعورة على النهر الأعظم (الوادي الكبير) بقرطبة . ولا يعكر صفو هذه الأنباء الفرحية إلا «خروج الجراد واضراؤها للزروع كثيراً» (٤٥).

ولكنه بينما كانت أحوال حرب المطاولة الأندلسية تتحسن إلى جانب المرابطين بعد اختفاء «الفونس المحارب» الأراجونى عن مسرح الأحداث ، كانت الأمور تسير من سوء إلى أسوأ فيما يتعلق بحرب المطاولة المغربية ، على الجانب الآخر من المضيق ، الأمر الذى دعا أمير المسلمين : على بن يوسف إلى نقل ابنه تاشفين من

(٤٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٧-٢٢٨ .

(٤٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٨ .

(٤٥) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٨ .

قيادة الجبهة الأندلسية إلى جبهة المطاولة المغربية التي كانت تهدد كيان الدولة المرابطية في عقر دارها - فكان أمير المسلمين كان يفضل إنقاذ الدار المحترقة قبل إنقاذ ما بها من المنقولات - كما يقال *.

والمهم أنه أثناء خروج تاشفين من غرناطة نحو قرطبة استعداداً للمسير نحو العدو ، كان العدو (القشتالي) يخرج بجيشه العرمرم إلى بلد المسلمين ، وإن جرأ من ذلك الجيش كان قد عبر الوادي الكبير في أعلاه من جهة الشرق ، حيث مدينتي بياسة وأبذه ، واندفعوا في الغارة نحو قرطبة حتى وصلوا إلى موقع البراجلة حيث أوقفوا بالمسلمين هناك . والمهم أنه كان من الممكن أن تلحق بالمسلمين كارثة عظيمة لولا أن لعطف الله بهم ، فكانت السيول الجارفة والمطر الذي توالى مدة ٢٠ (عشرين) يوماً بلا انقطاع ، معوقاً للعدو فيما كان يصبر إليه من أهداف . فلقد انقطع الطريق أمام المهاجمين ولم يستطيعوا العودة من حيث أتوا ، إلا « في المعادي التي صنعوها للجواز » ، الأمر الذي كلفهم غرق بعض من كان فيها .

والحقيقة أن هذا المأزق الذي وقع فيه النصارى ، كان فرصة استهزأها قائد جيان لمطاردتهم نحو حصن شيبوطة من عمل أند (٤٦) . ومن الواضح أن تلك الأحداث كانت عاتقا في طريق تاشفين نحو العدو المغربية ، إذ استغرقت مسيرته إلى المجاز نحو من ٤٠ (أربعين) يوماً ، وهو يفكر في مدافعة العدو أثناء المطر (٤٧) .

والمهم أن تاشفين نجح بعد لأي في جواز المضيق في بداية شهر جمادى الأولى سنة ٥٣٦هـ / أواخر يناير ١١٣٧م ، ودخل مراكش في أول رجب / ٢٥ مارس ١١٣٧ م من نفس السنة ، لكي يبدأ حرب تقرير المصير في السنة الثانية من العقد الرابع من ذلك القرن السادس الهجرى / ١٢هـ ، قرن قسام وعظمة الامبراطورية المغربية الموحدية.

* نقلاً عن رحيل الدراسة في باريس، الصديق محمد محمد شاكور (له ترجمة).

(٤٦) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٣ .

(٤٧) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٣ .

السنوات الأخيرة من حرب المطاولة :

وهنا ينتهى الاعتماد شبه الكامل على رواية ابن القطان، ويكون الاعتماد على رواية ابن عذارى فى تاريخ الموحدين، وهى الرواية المعتمدة حقا على الأصول القديمة وبخاصة روايتى كل من ابن صاحب الصلاة وابن القطان (٤٨)، وتبدأ الرواية عن الموحدين هنا بسنة ٥٣٣هـ / ١١٣٧م، حيث خروج تاشفين للقاء عبد المؤمن بن علي ومعه قبائل جزولة الذين لم يرغبوا فى مواصلة القتال، بل طالبوا بالعودة الى بلادهم، حيث تعرضوا فى الطريق إلى كمائن الموحدين وهو الأمر الذى أزهقهم، ودعا مشايخهم إلى الرغبة فى التوبة والدخول فى طاعة الموحدين، فكتب لهم عبد المؤمن ظهيرا حسناً (٤٩)، الأمر الذى يعنى بداية النهاية بالنسبة للدولة لمستونة: دولة الملتئين المرابطية. وهنا يقدم ابن عذارى عنواناً معبراً لنهاية ذلك الصراع فى السنة التالية، يقول فيه: اختصار الخبر بحركة عبد المؤمن الطويلة الأعوام (الأعوام السبع)، ومقتل تاشفين أمير أهل الشام: ٥٣٤-٥٤٠هـ / ١١٣٩-١١٤٥م (٥٠).

وهذا ما يمكن أن يعنى بغفال أخبار الأندلس، خلال تلك الفترة الحاسمة من تاريخ المغرب والأندلس، والتي تنتهى بمقتل تاشفين بعد قرابة سنتين من وفاة والده على بن يوسف، الأمر الذى كان يعنى النهاية الحقيقية للدولة المرابطية - حيث لم يكن سقوط العاصمة مراكش بأكثر من إطلاق رصاصة الرحمة على العاصمة المحتضرة وهى مشحنة بالمجراح (٥١).

(٤٨) انظر نشر هوشى ميراندا، بمشاركة محمد بن تاويت، ومحمد بن إبراهيم الكتانى، وقارن النشرة السابقة لهوشى أيضا لذلك العمل تحت اسم: مجهول فى تاريخ الموحدين بعمران: El-Anonimo de Madridy Copenhagen ط. بلنسية، ١٩١٧- وهو يعمل العنوان العربى الخطأ «تاريخ ابن بسام».

(٤٩) ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١١.

(٥٠) البيان المغرب، ج ٣ (الموحدين)، ص ١٧.

(٥١) ما سبق، ص ٣٢٧ - وانظر ابن عذارى، الموحدون (هوشى)، ص ١٣ - حيث كان من نتائج عجز المرابطين فى المغرب: أن «ألح العدو النصرانى بالضربات، على جميع جهات =

والمهم بالنسبة للأندلس أن الأحوال كانت تزداد بها سوءاً مع رجحان كفة الموحدين على المرابطين بالمغرب . ففي سنة ٥٣٧هـ / ٣-١١٤٢م التى توفى فيها على بن تاشفين كان على الأندلس رغم حرج الموقف فيها ، أن ترسل العساكر إلى المغرب مع ولى العهد الصغير أبو اسحق ابراهيم بن تاشفين ، ومن ثم مرة أخرى فى آخر سنة ٥٣٨هـ / يونيو ١١٤٤م حينما كن على نفس ولى العهد أن يقطع دراسته فى قرطبة ويعود بالمدد من جديد إلى والده الذى كان يحارب آخر أشواطه فى تلمسان (٥٢) . ولد وصل ابراهيم بن تاشفين من الأندلس ، وأبوه « يميز العساكر من الخشود والجنود والوفود ، فميزوا ويرزوا وعجب الناس من كثرة عددهم واحتفالهم بالزينة ... » . ورغم ذلك كانت معاناة الصمود تقترب من نهايتها ، إذ قضى تاشفين فى ٢٧ من رمضان سنة ٥٣٩هـ / ٢١ مارس ١١٤٥ م (مسبق، ص ٣١٩) . وبعد ذلك كان فتح قاس ومكناسة على يدى عبد المؤمن ، الأمر الذى هباً للاستيلاء على بلاد المجاز : سلا وسبتة وطنجة ، وبذلك كان انتمهيد لسلامة العبور إلى جبل طارق فى سنة ٥٤٠هـ / ٦-١١٤٥م (مسبق، ص ٣٣٠) ، فكأنه فتح إسلامى جديد (أو ثورة) - والرمز لذلك هو إعادة تسمية الجبل العتيق بـ « جبل الفتح » - بدلاً من جبل طارق (بن زهاد) .

ومع تقدم عبد المؤمن نحو المجاز كانت الانقسامات الطائفية بالأندلس تزداد كثرة ، إذ صارت كل بلدة أشبه بدولة مستقلة ، الأمر الذى يصوره ابن الخطيب تصويراً مذهلاً . فالأمر لم يعد قاصراً على ظهور ما كان معروفاً من التقسيمات الإقليمية أو السياسية الكبيرة من شرق أو غرب الأندلس ، أو الجوف أو القبلة ، بل

=الأندلس، حين علموا عجز الإمارة فى المغرب ، واشتغالها بحرب الشايرين واستولى الروم فى هذا الوقت على كثير من البلاد والحصون ، وكثير من الشجر ، وحدثت الشعا ، والمقطعة بين قبيل لمتونة وصوفا - بعد توحيد جزولة الذى سبق الإشارة إليه .

(٥٢) انظر ابن عذارى ، والموحدون (هش) ، ص ١٥ - حيث النص بعد الإشارة إلى عودته الأولى دثم استدعاه (تاشفين) مها (الأندلس) ، ووصله إلى تلمسان آخر سنة ٥٣٨هـ / يونيو ١١٤٤م .»

أصبح هناك ملوك أو أمراء للمدن الثائرة ، من : شنترين وشريش وقادس وبظليوس ، وإن مدينة مثل لبلة يظهر لها إلى جانب صاحبها « أبو محمد سيد راي بن وزير » أو « يوسف البطروجي » أمير ثالث ، هو « الوهبي » : الثائر أيضا بليلة . هذا إلى جانب ذكر أسماء العديد من الثوار الذين لا يعرف لهم مقر محدود ، بل يذكر على وجه العموم أن لكل واحد منهم « خير ودولة على قدره » - ربما بمعنى أمراء تابعين (٥٣) . أما من فوق هؤلاء ، في الشهرة من الأمراء عند ابن الخطيب ، فهو : أبو القاسم بن قسي .

٢- ابن قسي وحركة المرينيين في الأندلس

بشائر حركات الطرق الصوفية ،

والذي نراه أن ابن الخطيب محق في اعتبار أبي القاسم بن قسي بمثابة النموذج لثوار تلك الفترة - الذين كانوا في حقيقة الأمر أشبه بتوابع لحركة المهدي محمد بن تومرت ، المصمودي - السوسي ، من نهاية العصر المرابطي وبداية العصر الموحي : عهد العودة إلى الدين والرباط من أجل الجهاد . حيث اختلاط الدين والشفافة بالحرب والسياسة ، قانما كما هو الحال في كل العصور - حيث تكون المناذاة في أوقات الأزمات بالعودة إلى الإسلام في نقائه الأول - حيث لا يكون صلاح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، مع الاعتراف في نفس الوقت بالمجددين الذين يظهرون على رأس كل قرن أو مائة عام .

هكذا كان لنجاح حركة الإصلاح الموحدية بالمغرب ، ردود فعلها في بلاد الأندلس ، في ذلك الوقت المتردى من العصر المرابطي وذلك بقيام حركات ثورية

(٥٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٨ - حيث ابن وزير شيخ غرب الأندلس ، وابن عياض الأمير لشرقي الأندلس ، ولبيد بن عبد الله مشنترين ، وعلى بن موسى بن ميسون صاحب (البحر) بقادس ، ومحمد بن علي الحجام صاحب بظليوس .

سياسية دينية شبيهة بحركتى المرابطين والموحدين ، فكانها أصداء لها أو توابع ، وإن كان من حيث الشكل فقط - ربما بسبب اختلاف الظروف.

ولقد قامت أولى تلك الحركات الشورية فى سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م ، فكانها كانت رد فعل لوفاة أمير المسلمين على بن يوسف تاشفين الذى عرف بمكونه عابداً متبتلاً ، وهذه الحركة هى التى عرفت وقتئذ فى الأندلس بشورة المريدين (٥٤). والمريد فى مصطلح ذلك العصر هو تلميذ الصوفى ، بمعنى خادم الزاهد المتقطع للعبادة ، فى بعض ملاحى الصوفية التى عرفت فى أول الأمر بالربط أو الأربطة (بمعنى المعسكرات أو الثغور) قبل أن تعرف باسم الخنقاوات (ومفردها خانقاه بالفارسية) ، وقبل أن تعرف حديثاً باسم الزوايا (ومفردها زاوية) أو الخلوات (ومفردها خلوة) ، ومن ثم قبل أن تعرف أخيراً فى العصر العثمانى باسم التكايا (ومفردها تكية).

والمعروف أن انتشار حركات المريدين بمعنى فتیان الصوفية أو أحداثهم (جمع حدث) بدأت فى شكل حركات شهابية شبه عسكرية ، فى إطار الحركات الصوفية عندما ضعفت حكومات الخلافة وبالتالي حكومات الطوائف التابعة فى بلاد الإسلام ، وعجزت عن الدفاع عن البلاد أمام ما كان يتهدهدها من الأخطار الخارجية أو أعمال الخرابة الداخلية ، وخاصة فى الثغور على حدود البلاد المتاخمة للعدو ، كما فى شبه جزيرة إيبيرية ، ومن ثم فى المغرب ، وكما كان الحال أيضاً فى ثغور الروم ، ومن ثم فى بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية المشرقية - على عهد الموحدين.

هكذا سميت حركة ابن قسبي فى غرب الأندلس - خاصة - بشورة المريدين. «إذا كان الرجل من مشايخ الصوفية المسمى أتباعهم بغرب الأندلس بالمريدين» (٥٥).

(٥٤) إنظر ابن الأثير ، الحلة السمر ، ج ٢ ، ص ١٩٨ - حيث النص على أن أصحاب ابن قسبي هم : المريدون ، ومن ثم الإشارة أيضاً إلى أن المريدين شعارهم التهليل والتكبير ، ولو أن الكلمة حرفت عند الخصم عليها نظراً - إلى المرتدين ، انظر فيما بعد ص ٧٤ ص ٤٤٩ .
(٥٥) ابن الخطيب أعمال الأعلام ، نشر بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .

وهو من هذا الوجه أول الثائرين في الأندلس عند اختلال دولة المثلثين (٥٦).

ابن قسي قائد المريدين :

وابن قسي قائد المريدين هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي ، من مشايخ طائفة الصوفية يومئذ ، على أواخر أيام المرابطين باقليم غرب الأندلس (٥٧) - ربما كره فعل للأزمة التي ألمت بمنطقة - الغرب (Algarfe) نتيجة للتمدد الذي كانت قد بدأت به دولة البرتغال ، جنوباً على طول شواطئ المحيط الأطلسي ، وبمعاونة مستمرة من الفرنج (الفرنسيين) والانجليز (الانقليشيين) ، وخاصة أولئك الذين كانوا يشاركون في الحملات الصليبية التي كانت تسير نحو جبل طارق في قوالب بحرية بمحاذاة الشواطئ الغربية للأندلس . وكان هؤلاء يمدون يد العون إلى الاسبان القاتمين ضد المسلمين بحرب المطاولة التي سموها «بحرب الاسترداد : الريحونكيستا» (ج ٤ ص ٣٦٩).

هكذا ، قامت حركة المريدين في غرب الأندلس ، في أعقاب الدولة اللمترية اعتباراً من سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م - سنة وفاة تاشفين بن علي بن يوسف (٥٨) - ابتدأ من منطقة مرتلة ، بلد ابن قسي ، ومنها انتشرت دعوته في كل من مدينتي بآيرة وشلب (٥٩).

(٥٦) ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٩٧ .

(٥٧) انظر ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٩٧ - حيث النص على أن ابن قسي رومي الأصل ، من بادية شلب ، وأنه بدأ موطئاً في الإدارة الخليفة (مشرقاً بالأعمال المخزنية) قبل أن يعزده .

(٥٨) ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٩٧ .

(٥٩) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٩ .

ما بين الفكر الثوري للمريدين والفكر المراهبطى الموحدى :

وعلى عكس حركة المراهطين التى بدأها رباط عبد الله بن ياسين بتعريف المريدين أصول الدين على المذهب المالكي ، مذهب أهل المغرب - دون غيره - وقتئذ (ج ٤ ص ١٧٤ وما بعده) ، فإن الدارسين فى ربط الصوفية فى غرب الأندلس ، فى مرتلة وليلة ، وخاصة فى مدينة شلب ، كانوا يخوضون فى موضوعات دينية وفلسفية تجعل مدارسها فى مستوى الجامعات الراقية فى أى عصر من عصور النهضة.

هذا . ولو أن مخرجها فى اختيار مناهجها ما بين الكتب الصوفية ، وموضوعات الغلاة من (الشيعة) الباطنية ، الى جانب الكلف برسائل إخوان الصفا (الفلسفية) ، وأمثال ذلك (٦٠) ، كان يخرجها من دائرة البقاء فى فلك الفكر المراهبطى السنى - الذى كان غالباً فى سنيته الى درجة رفض اجتهدات الغزالي ، وخاصة ماسجله منها فى الإحياء . وكذلك الحال بالنسبة للفكر الموحدى الملتزم بمنهج التوحيد التومرتى ، والذي كان يعرف إجراءات التطهير (أو التفتيش) التى عرفت بالتمييز وبالإعتراف (٦١).

(٦٠) ابن الخطيب . أعمال الأعلام ، ص ٢٤٩ وانظر ابن الأبار الحلة السيرة . ج ٢ ص ٢٠١ - حيث نرى أنه نسي مثل ذلك ينسب إلى أحد كتاب ابن قسى ، وهو ابو عمر احمد بن عبد الله بن حزين الشلبى أنه كان يقول فيه (ابن قسى) :

أهرب إلى الله واتراً من أحمد بن قسى
أم أنخلده إصاماً وأكفر بكسل نبي

(٦١) انظر ما سبق ، ص ٢١٣ و ص ٢٤٢ ، وانظر ابن الأبار . الحلة السيرة . ج ٢ ص ١٩٧-١٩٨ - حيث النص على أن ابن قسى أصله من بادية شلب ، مع الإشارة إلى أن الرجل أخذ علم التصوف فى الظاهر من أجل الثورة التى كان يضرها فى الباطن . فهو يزعم التزهد ، ويتظاهر بتعلم العلم فى الظاهر ، وفى ذلك يقبل على قراءة كتب الغزالي التى كان قد أحرقها المراهبطون بأمر على بن يوسف بن تاشفين (ج ٤ ص ٤١٥ وما بعدها) . وهو فى النهاية متهم بادعاء الهداية ، إذ يفعل ذلك مخترقة وتقويها على العامة وانظر ايضاً ص ٢٠٠ - حيث يقول ابن قسى شعراً :

وماتدفع الأبطال بالرعظ عن حمى ولا الحرب تطفى بالرقى والتسامى
ولكن يبيض مرهفات وذبل مرارها ماء الكلى والخلاصم .

والذي نفهمه من كل ذلك أن مدرسة ابن قسّ (من مشايخ الصوفية)، والذي كان ملتزما بالفكر التقليدي، حسبنا يفهم من مؤلفه «خلق النملين» (٦٢) كان في الحقيقة لا يفرق بين سنة وشيعة، بل يربط بين جميع المذاهب الإسلامية، تماما، كما هو الحال في توحيد ابن تومرت (مأسب، ص ٢١٧). وإذا صحّ ذلك فتكون مدارس الصوفية في غرب الأندلس وقتئذ، مدارس متفرقة تبعا للموقف السياسي والثقافي لكل من المدن الداخلة في حركة المريدين، بمعنى أن مدرسة مرتلة، مقر ابن قسّ والتي يظهر فيها الاتجاه السني، كانت تختلف عن مدرسة لبلة وعن مدرسة شلب من حيث أن هذه الأخيرة كانت أكبر مراكز المريدين، حسبنا يفهم من رواية ابن الخطيب (٦٣). ورغم أن الظروف السياسية، وقتئذ، كانت مناسبة لنمو حركة المريدين وانتشارها، إلا أن ذلك لم يكن موقف الدولة وأصحاب السلطان. فذلك ما يفهم من تسمية المريدين باسم المرتدين، وهي التسمية المعارضة، والتي ربما ظهرت فيما بعد (٦٤).

هذا، وعندما كثر جمع المريدين، ومن ثم انتشر خبرهم، وبدأت السلطات المرابطية بتقصي أخبارهم فإنيهم أخذوا حذرهم، من صاحب الدولة وتفرقوا (٦٥). وإذا كان ابن الخطيب لا يذكر اسم صاحب الدولة هنا، فالمفروض أنه يقصد يحيى بن

(٦٢) أصل العنوان كاملا هو: «خلق النملين في الوصول إلى حضرة الجيمين»، حسبنا يعرضه حاجي خليفة في كشف الظنون، المجلد الثاني ص ٢٢٧، حيث للشيخ أبي القاسم وهو أبو القاسم.. ابن قسّ شيخ الصوفية أحمد بن قسّ الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م وهو مختصر أوله:

الحمد لله أوجد بالحرفين دائرة الوجود الخ. وشرحه الشيخ محي الدين محمد بن علي بن عربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ذكر فيه أن المصنف كان من أهل الأدب والفضل، متضلّع في اللغة فلا يقصد إلى كلمة إلا لحكمة براها. وشرحه أيضا الشيخ عبد شراح الفصوص - مثالة د. نبيلة حسن.

(٦٣) أعمال الأعلام، ص ٢٤٩.

(٦٤) انظر ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، المقدمة، ص ٢٩، ١٣ - حيث التعريف بالمؤلف وكتابه عن المريدين، وكيف شاع تحريفها إلى كلمة المرتدين وغيرها من الكلمات القريبة الشبه.

(٦٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٤٩، وقارن ابن الأبار، الحلة الصبرا، ج ٢، =

على بن غانية، صاحب كل من غرب الأندلس وشرقه. أما عن تفرق المريدين عندما شاع أمرهم، فإن الكثرة من فأنهم قد استقرت في شرق الأندلس، في مينا المرية، مقر الأسطول الجهادي (الغزوي) حيث كان رئيسهم هناك هو الشيخ أو العباس ابن العريف. وعندما وصلت أخبار المريدين في المرية إلى أمير المسلمين: على بن يوسف، وجه يتطلب رئيسهم ابن العريف وكذلك نظيره في خطة الصوفية، وهو أبو الحكم ابن برجان وغيرهما من الشيخ. فحملوا إليه بمراكش، حيث استمالهم وأحسن إليهم، وإن أتت وفاة الشيخين بعد ذلك خلال سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢-٣م (٦٦)، دين تعهد موعد وصولهما إلى مراكش.

تصوف طريقتة ابن القسي

وبعد وفاة الشيخين: ابن العريف وابن برجان، بدأ ظهور أبي القاسم ابن لسي. والرجل الذي يرجع موطنه أصلاً إلى مدينة مرتلة، كان من شباب المثقفين، حيث كان يعمل مشرفاً مالياً في دائرة الجهاية بمدينة شلب (Silves) من أعمال أشبيلية، وكان قد التحق أثناء عمله هناك بجماعات الصوفية هؤلاء، كأحد المبتدئين في الطريق من التلاميذ المريدين. ومع مرور الوقت سار في سلم الترقى في «الطريقة» حتى وصل إلى مرتبة الولاية أو المشيخة. وهنا كان عليه أن يتصدق بجميع ماله، ليضم مقام الفقر إلى رتبة الولاية*، وتطوك على الأندلس سائحاً، دون مقر.

* ص ١٩٧- حيث النص على أن ابن لسي طلب فاستخفى وأنه قبض على عدد من أصحابه، وسير بهم إلى أشبيلية.

(٦٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص ٢٤٩. ولارن ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ٢ ص ١٩٧- حيث النص على لقاء أبي العباس بن العريف الذي ادعى الهداية (في شلب، أو في طنجة أو المرية).

* عن المقامات والأحوال أشير إلى بحث الأخ الصديق د. فتح الله خليف الذي لم ينشر بعد، والذي رجع فيه إلى الرسالة القشيرية، واللمع للسراج، وقوت القلوب للمكي، وعوارف المعارف للسهرودي (حيث الاجتهاد في المقام من أجل الترقى في الحال - كما أرى).

وأخيراً استقر به المقام بقرية جلة من قرى أشبيلية حيث ابنتي رابطة (العباد) ، وأعلن عندئذ ولايته بشكل رسمي ، فتسمى بـ «المهدي» (٦٧) ، فكانه يجدد حركة ابن تومرت ، في الأندلس هذه المرة . وهنا تتفق رواية عبد الواحد المراكشي مع رواية ابن الخطيب فيما يتعلق بمخاريف ابن قسي - حيث القول بأنه : «حج من ليلته» فكانه يعيد سيرة الاسراء النبوية ، وأنه كان أيضاً «ينفق من (أموال) الكون» ، فكانه يعيد سيرة الحلاج الذي كان ينفق من «نقود القدرة» . هذا ، الى جانب القول بأنه «كان صاحب حيل ، ورب شعبية» ، وأنه في نهاية الأمر «ادعى الهداية بمعنى اتخاذ لقب الهادي» ، وليس المهدي مثل محمد بن تومرت ، وهو ما نرجحه ، كما سيكون الحال بالنسبة للهادي : الماستي ببلاد السوس بالمغرب (عاسيق ، ص ٣٤٨) .

والهم أن أهل غرب الأندلس الذين كانوا يعانون من ضغوط ملك البرتغال عليهم ، لم يلبثوا أن التقوا حول «هادي» الأندلس الجديد . وفي ذلك يقول ابن الخطيب أنه «اتصل به أقوام من أهل البيوتات ، ومنهم : ابن وزير (٦٨) الذي عرف بشيخ الغرب ، وابن عتار : فارس جهة باهرة . ومحمد ابن المنذر ، من أهل شلب (٦٩) ، ومحمد بن عمر وغيرهم من أعيان الصقع الغربي . وكان هذا التحالف الكبير بين ابن قسي وكل من : ابن وزير وابن المنذر ، سببا في ضعف

(٦٧) ابن الخطيب ، أحوال الأهل ، ص ٢٤٩ ، وقارن ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ١٩٧ - حيث النص على أنه ادعى الهداية «مخرقة وقويها على العامة ، وتسمى بالإمام» .

(٦٨) ابن وزير هو : أبو محمد سيدواي الثائر قبل ابن قسي - انظر ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ص ٧٠٣ .

(٦٩) الحلة السيرة ، ص ٢٠٢-٢٠٣ - حيث الاسم : أبو الوليد محمد بن عمر بن المنذر . ويعتبر هو الآخر الرجل الثاني من أصحاب ابن قسي . فهو أحد أعيان مدينة شلب ، من بيت قدم من المرلدين ، لازم التعليم في صفرة بأشبيلية ، وشغل خطة الشوري (كأحد مستشاري الأمير بشلب) . ثم تزهد وانزوى ، ورابط على ساحل البحر في رباط الرحانة ، وتصدق بماله كما فعل ابن قسي . وانضم ابن المنذر في بداية الأمر إلى صحابة ابن قسي من المرلدين ، وامتنع من أجله ، وخلص من ذلك ثم اتبعه عند ثورته ، وقام بدعوته في بلدة شلب .

موقف المرابطين في غرب الأندلس ، إذا انقطعت عنهم الامدادات والتموين . كما تحامل عليهم الناس ، بل ان ذلك حراً الناس عليهم ، « فكثر التعدي في الطرق والدواب في السبل » (٧٠).

بداية العمل الايجابي : مرتلة قاعدة لابن قسي :

وهكذا شعر ابن قسي ، هادي غرب الأندلس : المنتظر ، بقوته ، وبدأ سياسة الاستيلاء على مناطق جديدة من الأندلس ، توسع نطاق نفوذه ، وتؤكد مع مرور الوقت سلطانه . ففي الشهور الأخيرة (شوال) من سنة ٥٣٨هـ / ابريل ١١٤٤م كان ابر القاسم بن قسي يوعز إلى واحد من معاونيه ان ينتهز الفرصة من أجل الاستيلاء على حصن منقوط . ونجح الرجل فعلاً في نفس شهر شوال / ابريل ، في الاستيلاء على ذلك الحصن أو كاد ، لولا تنبه المرابطين لما كان يدبر لهم في الخفاء ، ومواجهتهم للمتآمرين قبل أن يستكملوا خططهم . وهكذا ، نجحوا في إنزال الشائر قبل أن يوطد أقدامه في الحصن ، بل وقتلوه . وكان على ابن قسي أن يغادر المنطقة إلى حصون الغرب حيث ميرتلة من كورة شلونه (٧١).

والهم أن ابن قسي استقر في تلك المنطقة عند جماعة بني السنة - الأمر الذي يعني أن منطقة شلونه ربما كانت تحوى إلى جانب السنة جماعات أخرى من الشيعة مثلاً . وهناك أخذ يعد العدة للاستيلاء على مدينة مرتلة نفسها . واستعان في ذلك برأى من كبار أصحابه ، وهو : محمد بن يحيى الشلطي ، المشهور « بابن القابلة » ، والذي يوصف بأنه : « كان فريد دهره » ، فجعله (ابن قسي) ، « سيف ثورته » ، وعضد دولته » ، حتي سماه « بالمصطفى » ، وعينه لغدر « مرتلة ».

وهت نرى أهمية الإشارة إلى أن الهادي ابن قسي ، ومريديه كانوا يعملون في الخفاء ، وكانهم يمثلون حركة باطنية سرية فعلاً . فابن القابلة : محمد الشلطي ، وزير ابن قسي لم يخرج لغدر ميرتلة ، يوم الخميس ١٢ من صفر سنة ٥٣٩هـ / ١٥

(٧٠) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٤٩ .

(٧١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٥٠ .

أغسطس ١١٤٤م ، سنة مقتل تاشفين بن على ، إلا فى حوالي ٧٠ (سبعين) رجلا من المريدبن فقط ، نجحوا فى امتلاك الحصن خدعة (٧٢) ، كما نجحوا فى تدبير الدفاع عنه ضد المرابطين الذين «لم يفتنوا شيئا» . واكتفوا بتخريب قطر ميرتلة . مثلهم مثل العدو الخارجى . ومن المقبول أن يكون نجاح المريدبن فى أخذ ميرتلة من المرابطين ، دافعا لخروج مدينة يابرة عليهم أيضا ، إذ قام أهلها بالشورة - بزعامة فارسهم ابن عنان ، كما نرى - والتفوا حول زعيمهم ابن وزير (٧٣).

نظام دولة ميرتلة :

والواضح ان استيلاء ابن قسّى على ميرتلة ، وحلوله بقصبتها المنيمة فى ١ ربيع الأول سنة ٥٣٩ هـ / ١ سبتمبر ١١٤٤م ، يُعتبر البداية الحقيقية أو الرسمية لحركة المريدبن ، حيث كان الإعلان عن كونه «الإمام الهادى» . فمنذ ذلك الوقت بدأ ابن قسّى فى نشر عقيدته ، «وتسمى إماما ، ودعا إلى الشورة على المرابطين واتصل بالآشرار ...» (٧٤).

ومن المهم الإشارة هنا مرة أخرى الى أن المال كان متوفرا لدى ابن قسّى منذ البداية ، وإن كنا لا ندرى شيئا عن الطريقة التى كان يأتى بها ذلك المال . أما ما يقال من أنه كان إذا أعطى «يحث بيده قطع النقود من غير عدد» فذلك كناية عن

(٧٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠ ، وقارن ابن الأبار ، الحلة السبراء ج ٢ ، ص ١٩٨-١٩٩ - حيث تحدّد سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥م (فبراير) بسنة مقتل تاشفين.

(٧٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠ ، وقارن الحلة السبراء ، ص ١٩٨-١٩٩ ج ٢ حيث تغلب المريدون على ميرتلة ليلة الخميس ١٢ من صفر ٥٣٩ هـ / ١٥ أغسطس ١١٤٤م بعد أن قتلوا بواب القلعة - ، وأعلنوا بدعوة ابن قسّى.

(٧٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠ ، وقارن ابن الأبار ، الحلة السبراء ج ٢ ، ص ١٩٨-١٩٩ - حيث النص: وأقاموا على ذلك إلى أن وصلهم (ابن قسّى) فى غرة ربيع الأول فى جمع واقف من المريدبن شعارهم التهليل والتكبير ، فصعد إلى قصبتها ، واحتل قصرها ، وشرع فى مخاطبة أعيان البلاد... فاستجاب له كثير منهم ، وأولهم أهل يابرة ثم أهل شلب ، واتسع على المرابطين خرق لم يرقعوها ، وهجم عليهم حادث ظالما توقعوه.

عطاء كبار أصحابه ، وليس صفار الأتباع من المريدين.

أما عن القول بأن أصحابه كانوا يقولون للناس «أن المال يتكون عنده إذا فرغ» ،
فذلك كان نوعا من الدعاية التي تجلب الاتباع من صفار المريدين وأجنادهم (٧٥).

ومن المهم الإشارة هنا إلى أن دولة ميرتلة التي أقامها ابن قسي كانت كيانا
سياسيا دينيا على أكثر من مستوى. فإلى جانب الامام الهادي رئيسها كان معاونه
في الحكم أو وزيره ، وهو ابن القابلة ، يتمتع بلقب «المصطفى» ، وهو الأمر الذي
يدعو إلى الظن أن ابن قسي كان يعتبر الهداية أو الإمامة التي يتمتع بها
«معصومة» فوق مستوى الأصحاب والمريدين ، فكان «المصطفى» وزيره بمثابة همزة
الوصل بينه وبين الأتباع والرعية ، فهو من هذا الوجه أشبه بولي العهد أو بالخاجب
في نظام خلافة قرطبة.

وعلى هذا الأساس دخل تحت طاعة ابن قسي كل من (سيدراي) بن وزير في
مدينة يابرة ، وابن المنذر في أهل شلب ، إلى جانب دخول الكثيرين من «طلاب
الفتنة من الأشرار».

وفي هذه الظروف سقط بين يدي كل من الخلفيين : ابن المنذر وابن وزير حصن
مرجيق من أعمال شلب ، وقتلت فيه حامية المرابطين . وتبع ذلك دخول حاجة - التي

(٧٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠ ، وانظر ص ٢٥٦ أيضا ، حيث النص على أنه
من النوادر الخاصة بالمال الذي كان يعطيه ابن قسي ، أن رجلا من الصلحاء قال لأصحابه ،
وقد أعطاء (ابن قسي) : «أعجبا لهذا المال» الذي يصل إلى الإمام من السماء كيف عليه
طابع المرابطين . وتعليقا على ذلك تقول الرواية إنه : «نقل له هذا الحديث فكان آخر العهد
بالرجل (الذي قل تلك المقالة) . وفي جود ابن قسي ، يقول كاتبه ابن حزون :

لم أر جوداً لمستحاج	علمنى صتيعة امتداح
قد خلق الله راحتيه	من طينة اليأس والنجاح
ألقى على الجود نور بشر	فجاء كالقيث في الصباح
راش إمام الهدى جناحي	وليس في الحق من جناح .

خرجت حاميتها إلى أشبيلية . وكان إلى جانب مقاتلي ابن المنذر حلفاؤهم من
عسكر ابن وزير ، وعلى رأسهم أخوه : أحمد ، وخاله : عبد الله بن علي بن
الصميل (٧٦)

مرقلة دولة اتحاد ثلاثية :

وهكذا ، وبعد شهر من دخول ابن قسي إلى مدينة وقصبة مرقلة (في أول ربيع
الأول/الجمعة) استميرا كان قدوم ابن المنذر ومعه حليفه ابن وزير إلى مرقلة (في
أول ربيع الثاني ٥٣٩هـ / ١ أكتوبر ١١٤٤م) لكي يهايمها بالإمامة ، ويعلنوا
إذعانهما له بالطاعة . وعقب ذلك بدأ توزيع الولايات الخاضعة لهم ، فأقر ابن وزير
أميرا على باجة وما والاها من الأعمال، مثل أكشنه، إلى جانب يابرة ، وحسن
مرجيش من أعمال شلب . أما ابن المنذر فكان له الإمارة على شلب وما
والاها (٧٧).

والظاهر أن ذلك التقسيم كان مرضيا بالنسبة لابن وزير الذي انصرف على
عجل، بينما قهّل ابن المنذر لعدة أيام وتلوّم في محاولة لإعادة النظر فيما حدث ،
فلم تكن مجدية (٧٨).

والمهم أن ابن المنذر لحق ببلده حتى إذا اجتمع عسكر أكشنه إلى من عنده من
الشلبين وأصحابه المريدن ، عاد إلى ابن قسي ، ودخل عليه معلنا طاعته ،
مستعداً لنشر دعوته ، الأمر الذي سر به ابن قسي ، فجدد هو الآخر لابن المنذر
عهده على ما كان بيده . كما منحه لقباً تشريفاً دينياً هو : «العزیز بالله» (٧٩).

(٧٦) ابن الأبار ، الحلة السيرة ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٧٧) ابن الأبار ، الحلة السيرة ج ٢ ، ص ٢٠٣ .

(٧٨) الحلة السيرة ج ٢ ، ص ٢٠٣ - حيث النص : وتلوّم ابن المنذر أياها وقد أبدى مناساة لابن

وزير وحسادته.

(٧٩) ابن الأبار ، الحلة السيرة ج ٢ ، ص ٢٠٤ - حيث دوسماه العزیز بالله.

وكان على ابن المنذر بعد ذلك أن يعبر وادي آنة (جواديانة) ، ويسري الى ولة ويدخلها ، وان يملك بعد ذلك ليلة ، وذلك بمعاونة يوسف بن أحمد البطروجي - أحد مردة الثوار من المريدن - وهو ما أطمعه في اشبيلية نفسها ، فرنا إليها ، وهو يتخذ طريق كل من حصن القصر وحصن طلباظة (٨٠) من أعمال مرتفعات اشبيلية الغربية ، والتي تعرف بالشرف . ولكنه عندما التقى بهساكر المرابطين بقيادة يحيى بن على بن غانية - صاحب الاندلس - انكشف أصحابه ، وبذلك تمت الهزيمة على ابن المنذر ومريديه ، وطاردتهم القوات المرابطية عبر النهر إلى ليلة ، ومن ثم حتي مركز قيادتهم في شلب ، التي عهد إلى يوسف البطروجي بالدفاع عنها ، وهنا كان على يحيى بن غانية أن ينازل شلب في جيوشه ويضرب عليها الحصار مدة ٣ (ثلاثة) أشهر «في كلب الشتاء وحدته» ، إلى أن بلغه قيام ابن حمدين بقرطبة ، في رمضان ٥٣٩هـ / فبراير ١١٤٥م فانصرف عن شلب إلى اشبيلية ، وقد ساءت أخلاقه بالحق والغضب «فتغير على الناس واشتد هذره منهم (٨١)».

(٨٠) وهي الكلمة التي كثيراً ما يخطئ فيها الكتاب فيكتبونها في شكل طليظة . وهو الخطأ الواضح.

(٨١) ابن الأبار ، الحلة السيرة ج ٢ ، ص ٢٠٦ - حيث النص أيضاً : «فجرت له معهم ولهم معه قصص طويلة وانظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٢-٢٥٣ حيث التعريف بابن حمدين الذي ولي القضاة بقرطبة لأول مرة سنة ٥٢٩هـ / ٥-١١٣٤م ، وعزله على بن يوسف . ثم أنه بعد ثورة العامة سنة ٥٣٥هـ / ١-١١٤٠م على قاضيهما أحمد بن رشد الذي فر من المدينة ، وبعد بقاء ولاية القضاء شاذرة مدة عام ، سمح لهم الأمير باختيار قاض فاشاوروا أحمد بن حمدين الذي بقى في منصب القاضي من ٥٣٦هـ / ١١٤١م إلى ٥٣٩هـ / ١١٤٤م حيث أعلن الثورة على المرابطين في شهر رمضان / فبراير ١١٤٥م وهو نفس الشهر الذي قتل فيه تاشفين بن على في وهران - وهو التوقيت الذي يشير الانتبه تماماً كما هو الحال بالنسبة لوفاة على بن يوسف سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م أو فتح مراكش سنة ٥٤١هـ .

العلاقة مع ابن حمدين :

ولما سمع ابن قسّى بقيام قارطة ابن حمدين ، فإنه أمر ابن المنذر أن يحشد عساكره ، ويسير هو ومحمد بن يحيى : ابن القابلة - كاتب ابن قسّى ومستشاره - إلى قرطبة طمعا فى دخولها ، وترغيب أهلها فى الدخول تحت طاعته ، ولقيام بدعوته ، الأمر الذى كان يستهله وجود متعاطفين معه فى الرىض الشرقى ، مثل أبى الحسين بن مؤمن وغيره . ولكنه عندما تحرك ابن المنذر بعسكر شلب وليلة ، وجدوا أحمد بن عبد الملك بن هود : سيف الدولة وتابع ملك قشتالة قد سبقهم إلى قرطبة ، بناء على دعوة أهل ثغورها المجاورة لها ، بل وملكوه فعلا عليهم ، وطردها ابن حمدين الذى انحاز إلى حصن فرنجلوش . وإن كانت العدة قد قامت على ابن هود ، الذى لاذ بالفرار بعد قتل وزيره ابن شمش . وبذلك كانت عودة ابن حمدين من جديد إلى قرطبة ، بعد تغريبة لم تزد على أكثر من ١٢ (اثنى عشر) يوما ، وانصراف أصحاب ابن قسّى خائبين (٨٢).

والى جانب خيبة ابن قسّى فى ابن المنذر ، كانت خيبته أيضا فى صاحبه ابن وزير الذى لم يلب نداءه له ، وارتاب فى مقصده حتى طلب ابن قسّى من ابن المنذر محاربتة ، والمهم أن الصراع انتهى بين صاحبه ابن قسّى بانتصار ابن وزير والقبض على ابن المنذر واعتقاله فى مدينة باجة حيث انتهى هاك بسمل عينيه ، وبقائه معتقلا فيها حتى فتح الموحدون باجة وبلاد الغرب ، فأعادوه إلى شلب (٨٣).

(٨٢) ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢٠٦-٢٠٧ وقارن ابن الخطيب أعمال الأعلام ، ص ٢٥٣ - حيث النص على خلع دعوة المرابطين ومساعدة ابن حمدين لدى سكن قصر الخلافة ، وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين ، مع اعتراف القضاة من الشراة به لمدة ١١ (أحد عشر) شهرا ، انتهت بأن حرضوا عليه ابن عاتبة الذى تحرك فى جمادى الثانى ٥٤٤هـ / نوفمبر ١١٤٥ م ، والتقى بابن حمدين قرب استجة ، ودخل ابن عاتبة قرطبة فى شعبان ٥٤٤هـ / يناير ١١٤٦ م.

(٨٣) ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢٠٦-٢٠٧ .

أنحلال دولة ابن قسي :

وكان من الطبيعي الا يستمر ذلك التحالف الهش بين الدعي : الإمام الهادي ، وبين رجاله من أعيان الشوار وغيرهم من الأشرار ، الذين كانوا لا يهتمون إلا بمصالحهم الأنانية . وهكذا دب الفساد بين ابن قسي وبين كبار أصحابه ، فنازعه ابن وزير (شيخ غرب الأندلس) بشلب ، وكذلك أخوه (أخو بن وزير) بهجة .

وانتهى الأمر بأن تجمروا عليه فخلعوه ، وإن عادوا إلى الدخول في طاعته ، وأخيرا صرفوا الدعوة إلى قاضي قرطبة ابن حمدين ، عندما نازع المرابطين ، وأعلن استقلاله (بخاصة الخلافة قرطبة) . بل وتسمى «بالقاضي الخليفة» (٨٤) .

وهنا لم ير ابن قسي أفضل من أن يكون له «كخليفة قرطبة القاضي» صلة مباشرة بعبد المؤمن بن علي ، خليفة ابن تومرت في المغرب ، فكأنه كان يحرض عبد المؤمن ضد منافسه : دعي خلافة الأمويين بالأندلس . ولكنه لم يقدر لمكيدة ابن قسي النجاح ، وذلك لأنه هو نفسه ، كان يخاطب عبد المؤمن في كتابه بمصفته الإمام الهادي ، فكأنه هو الآخر كان مطالباً بالخلافة . وفي ذلك يقول ابن الخطيب ان ابن قسي لم يجد عند عبد المؤمن قبولاً لتعاليه عليه في الخطاب ، لجعل الهداية لنفسه ، وهي بضاعتهم (أي بضاعة الموحدين) (٨٥) .

والظاهر أن ابن قسي كان مضطراً للتنازل عن ادعائه الهداية والخلافة ، كمنافس لعبد المؤمن ، وبخاصة بعد أن قامت حركة الماسي (أو الماستي) بسوس المغرب الأقصى ، كرد فعل لحركة المرينيين بغرب الأندلس ، والتي تادت برؤيسها إماماً هادياً (ماسبق ، ص ٣٤٨) . فاعتذر ابن قسي لعبد المؤمن ثم تحرك إلى المغرب

(٨٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ٢٥٩ .

(٨٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٩ ، وقارن ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص

٢٣٣ - حيث النص على أن رسول ابن قسي أدى كتابه إلى عبد المؤمن ، وذكر ما به كلته من

النتع بالهدى ولم يجاوبه .»

حيث التقى به ، فى ربيع الثانى سنة ٥٤٠هـ / سبتمبر ١١٤٥م ، فكأنه كان يعترف به «خلافة» عبد المؤمن ، وبالتالي كان يدعوه إلى بسط سلطانه على الأندلس - كمحاولة إنقاذ أخيرة لتلك البلاد - مع تقديم معاونة مريديه من الصوقية الذين قبلوا الدخول فى توحيد المصاعدة السوسيين.

وقعلا أكرم عبد المؤمن ضيفه الرئيس الشيخ الصوفى ، وقبل عذره فيما ادعاه من الهداية ، مقابل الاعتراف بمهدية الموحدين وخلافه عبد المؤمن التى هى فى الحقيقة خلافة لابن تومرت (٨٦) . وفى ذلك قال ابن قسّى مقالته الطريفة: « ليس الفجر فجران . كاذب وصادق » ، وأنه كان يمثل الفجر الكاذب (٨٧) . وهنا يعتبر ابن خلدون أن زيارة ابن قسّى لعبد المؤمن هذه ، كانت بمثابة نقطة تحول حاسمة فى تاريخ دولة عبد المؤمن ونيه . إذ يقول عن ابن قسّى إنه « أول مقيم دعوة الموحدين بالأندلس » . أما عن رحلته المغربية فيقول: إن « ابن قسّى أجاز البحر إلى عبد المؤمن من بعد فتح مراكش بمدخلة على بن عيسى بن ميمون ، ونزل بسبته ، ... ولحق بهد المؤمن ، ورغبه فى ملك الأندلس » (٨٨).

وهكذا اعتبر خضوع ابن قسّى للموحدين فى رحلته إلى مراكش ، ومن ثم عودته بمسأكرهم إلى الأندلس: البداية الحقيقية لدخول الأندلس فى حظيرة الموحدين.

(٨٦) ابن الخطيب ، وأعمال الأعلام ، ص ٢٥١ .

(٨٧) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢١٢ ، وقارن ماسبق ، ص ٤٥ .

(٨٨) العبر ، ج ٦ ص ٢٢٣ - ٢٣٤ . وانظر ابن الخطيب ، وأعمال الأعلام ، ص ٢٥١ ، وقارن عبد الواحد المراكشى ، المعجب وح ٢١٢ - حيث النص ، ربما فى مناسبة تالية ، على أن أصحاب ابن قسّى هم الذين أسلموه إلى عبد المؤمن الذى قال له: بلغنى أنك ادعيت الهداية ، فقال (ابن قسّى): « ليس الفجر فجران كاذب وصادق ، فضحك عبد المؤمن ، وعما عنه » ، وقارن ابن شاذكر الكتفى ، عيون التواريخ - ج ١٢ ص ٤٠٨ حيث سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦-٧م ، وفيها فتح عبد المؤمن جزيرة الأندلس.

٣- دخول الموحدين إلى الأندلس

التمهيدات الأولى : هي الغرب :

إذا كان من الممكن أن يقال إن الدولة الموحدية المنتصرة ورثت الأندلس ضمن حدود الدولة المرابطة المهزومة في المغرب ، فالحقيقة أن أيلولة الأندلس إلى الموحدين ليست واضحة المعالم ، وذلك بسبب الأوضاع الشديدة التعقيد في تلك البلاد . فهناك لم تكن المسألة صراعا بين الموحدين والمرابطين عبر العدو المغربية ، إذ شارك في الصراع المرابطي الموحدى إلى جانب دويلات النصارى الإسبانية (أصحاب الريكونكيستا) جماعات الصوفية من المرينيين ، إلى جانب الداخلين الجدد في الصراع ، من : أصحاب النزعة الوطنية الأندلسية ، ممن يمكن تشبيه حركتهم أو تسميتها «بمعرب الاسترداد الأندلسية» ، كما كان الحال في حركة ابن حفصون القديبة قبيل قيام الخلافة الأموية ، ومن ثم وريثتها الحالية : حركة كل من ابن هشك وابن مردنيش القومية النزعة.

وفي دخول الأندلس في طاعة الموحدين وصلتنا روايتان قد تبدوان مختلفتين . وإن أمكن التعريق بينهما من حيث الموضوع ، والرواية الأولى منها ترجع إلى ابن الأثير ، وتقع ضمن حوليات سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ، وتأتى تحت عنوان : «ذكر استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس» . وفي الموضوع تقول الرواية إن السبب في ذلك أنه أثناء محاصرة عبد المؤمن لمراكش ، جاءه جماعة من أعيان الأندلس معهم مكتوب يتضمن بيعة أهل الأندلس لعبد المؤمن ، وأنه «استقبلهم وقبل منهم وشكرهم» . وعندما طلب الأندلسيون منه النصرة على الفرنج (الإسبان) جهز لهم جيشاً برياً كثيفاً ، كما عفر لهم أسطولا سبره في البحر إلى جانب الجيش . هذا وتنص الرواية بشكل مباشر إلى صعود الموحدين إلى إشبيلية حيث جيش المرابطين «فملكوها - لعلها (عنوة) - واستولت العساكر على البلاد»* ، فكانها عملية

* [ابن الأثير ، ج ١١ ص ١٠٨ - ضمن حولية أخذ الفرنج (الصقليين) طرابلس الغرب].

انقاذ موحدة أشبه بتلك التي قام بها يوسف بن تاشفين منذ حوالي ٦٠ (ستين) عاما.

والرواية الثانية يقدمها ابن خلدون وتحمي تفصيلات طريقة عن أول حملة أرسلها عبد المؤمن ، بناء على النصيحة التي قدمها له ابن قيس (شيخ المرينيين) بعد أن تم له فتح مراكش ، إذ رغبه وقتئذ في قتل الاندلس بعد أن دانت له عاصمة المرابطين. وهكذا شرع خليفة الموحدين في إرسال العساكر بقيادة الحليف المسن المرحد: براز بن محمد ، فعقد على حروب من بالاندلس من لتونة (الملثمين) والشوار (الأشرار).

واتبع عبد المؤمن جيش براز بمدد من عسكر ثان بقيادة موسى بن سعيد ، ومدد ثالث بقيادة عمر بن صالح (٨٩). وتأتى رواية ابن الأبار في الحلة السبراء ، لتكمل ما ناقص في الرواية الخلدونية ، بالنص على أن القوات الموحدة المصاحبة لابن قيس قد بدأت بفتح منطقة المجاز ، وذلك بالاستيلاء على كل من طرقة والجزيرة الخضراء ، ومن ثم بلاد الثلاثي: ابن قيس وابن وزير وابن المنذر حيث لبلة ومرتلة وشلب وباجة وبظليوس ، وذلك قبل التوقف عند دخول فصل الشتاء ، انتظارا لتحسن الأحوال الجوية مع الربيع ، الأمر الذي استغرق مدة ٣ (ثلاثة) أشهر . وهكذا كان فتح اشبيلية في شهر شعبان من سنة ٥٤١هـ / ٦ يناير ١١٤٧م على المرابطين ، من كل من البر والبحر بالأساطيل.

وفر الملثمون عصر ذلك اليوم إلى قرمونة . وفي ذلك اللقاء قتل عبد الله بن أبي بكر بن العري ، عن غير قصد . وأرسلت الكتب إلى عبد المؤمن تعلن الفتح بمراكش ، كما جاءته وفود المهنيين من الاندلس ، وانصرفوا بالجوائز والإقطاعات في السنة الثالثة (٥٤٢هـ / ٨-١١٤٧م) ، وأتى معهم القاضي ابن العري ، الذي قدرت له الوفاة وهو في طريق العودة. ودفن بمقبرة مدينة فاس (٩٠).

(٨٩) ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٩٠) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٤ . ابن الأبار ، الحلة السبراء . ج ٢ ص ٢٧١- حيث الإشارة إلى تغلى محمد بن سيد رأي بن وزير فيما بعد سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م ، عن شلب فعلت مع قلعة مرتلة (ميرتلة).

ومن الواضح أن ابن قسي بدأ يأخذ الإشفاق من الأصدقاء الجدد من المصامدة ، وأنه أخذ يتطلع إلى الاستعانة بنصاري الأندلس ، كما كانت عادة ملوك الطوائف وثوارهم ، «فدخل الطاغية ابن الريق صاحب قلنبرية (Coimbre) - وهو الفونسوهنريك : ملك البرتغال) في إيعاقته وإمداده (٩١) ، الأمر الذي أنكره أهل شلب ، فثاروا باهين قسي ، «وفتكوا به في قصر الشراجب منها (شلب) ... ونصبوا مكانه ابن المنذر الأعشى (حليقة العتيد) ، معللين بدعوة الموحدين ، وذلك في جمادى الأولى من سنة ٥٤٦هـ / ١٦ أغسطس ١١٥١م» (٩٢).

والأمر المستغرب أن هؤلاء الثوار الصفار الذين يوصفون أيضا بالأشوار ، كانوا همش أسلافهم من كبار ملوك الطوائف : رجال حرب وأدب وشعر ، وإن معاونهم وأتباعهم من الوزراء أو الكتاب كانوا مثلهم : أدباء وشعراء.

ولأبأس هنا من الإشارة إلى ما خلد ذكر ابن المنذر (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) مما قاله من الشعر في نكبته ، كذلك الأبيات التي قالها يخاطب ابنته ، ولد توفيت بعد خلعها وسمل عينيها ، ومته :

أواحدتي قد كنت أرحوك خلفه لعيني اختيك اللتين سبا الدهر

رضيت بحكم الله فيما أصابني إذا لم يكن يسر فيا حبذا العسر

(٩١) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢٠٠ - حيث : فأظهر إجابته إلى مراده . وحث إليه بقرص وسلاح.

(٩٢) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢٠٠ ، وقارن أيضا ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ - حيث تنص رواية ابن الأبار ها - في ترجمة ابن المنذر ، على أن هذا الأخير كان يحالس ابن قسي في ولايته من قبل الموحدين سنة ٥٤٠هـ - ٥٤٦هـ / ١١٤٥ - ١١٥٠م ، إلى أن خلع دعوتهم واتسلح من طاعتهم وداخل البصاري ، فاستراح ابن المنذر الي وجوه بلده .. ودبر معهم - وهو ذاهب لبصر - قتله ، فتم ذلك كما تقدم ذكره . وخلفه في ولايته قائما بالدعوة المهدية (الموحدية) . وذلك في جمادى الأولى سنة ٥٤٦هـ / ١٦ أغسطس ١١٥١م . فخيف أن يشور ثالثة ، فنقل إلى اشبيلية ، بعد أن خلف ابن وزير ، ملك شلب دونه في خبر ذكره ابن صاحب الصلاة ، في كتاب «ثورة الموحدين» من تأليفه . وبعد ذلك أجاز البحر إلى سلا ، فتوفي سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م.

وما يعبر عن ثقافة ابن المنذر ، ووزيره : أبى بكر بن المنخل ، ما قاله فى تكبته أيضا ، مثل :

يا واحد من ذا الورى بولائه	ووحيدهم - إن ناظروا - بذكائه
يا طالبا علم الكلام محققا	أبشر فقد أدركته بلقائه
من كان يرتاد الشفاء لنفسه	فلديه منه ما يفى بشفاؤه
ما ان يناظر حائرا فى دينه	إلا اهتدى وشفاه من أدوائه (٩٣)

ومن رثاء وزيره ابن المنخل فيه :

ومن لى بمثل المنذرى محمد	صديقا صدوقا أو خليلا مصافيا ؟
وقد كنت إستدنى البعيد برأيه	فبأتى على حكم الإرادة دائيا

فى شرق الأندلس :

ابن أضحى فى المريسة :

وفى مقابل زعماء الغرب المشاهير ، من ابن قسّى إلى صاحبيه : ابن المنذر وابن وزير دون ذكر واسطة عقدهم فى قرطبة : ابن حمدين - ظهر فى شرق الأندلس عدد من الثوار ، من أشهرهم : ابن أضحى - قاضى المريسة - والذى نشأ نشأة فقهية دينية ، مثل ابن قسّى ، إلى جانب عدد من «الأبدال» ، مثل: ابن عبد العزيز صاحب بلنسية وابن عياض أمير الشقر الذى كان يعد وحده ، بمائة فارس (ماسيق ، ص ٤١٩) مع حلفائه وأصحابه الذائعى الصيت من بنى مردنيش - الأندلسيين لحما ودما - فى كل من بلنسية وشاطية ومرسية ، على وجه الخصوص (٩٤).

(٩٣) الحلة السبراء ، ج ٧ ص ٢٠٨ .

(٩٤) عن ابن أضحى ، انظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ٢١٩ - حيث الاسم : أبو الحسن على بن عمر -

ابن أضحي في غرناطة :

وعندما قام ابن حمدين بقرطبة سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ، كان ابن أضحي في غرناطة فكاتبه قاضى قرطبة «الخليفة» ، وطالبه باتباعه - رغم أن قاضى المدينة وقتئذ كان أبو محمد بن سمالك . وفعلًا قام ابن أضحي بالدعوة لابن حمدين ، وتابعه في ذلك أهل غرناطة الذين نجحوا في إخراج المرابطين من المدينة ، فتحصنوا بالقصبة تحت قيادة ابن فنو - ودار القتال بين الطائفتين مدة (٩٥) .

وعندما طلب ابن أضحي المعونة من ابن حمدين بقرطبة ، ومن ابن جزى قاضى جيان ، كان ابن هود (سيف الدولة) أسرع من مدد قرطبة في الدخول الى غرناطة ، ومن ثم كان تعاونه مع ابن أضحي في قتال المرابطين عدة أشهر - دفع خلالها ابن

«ابن أضحي الهمداني - من بنية الأندلس الأوائل. ولد بالمرية في ربيع الأول سنة ٤٩٢هـ / ديسمبر ١٠٩٩م ، وولى قضاء المرية عقب ابن الفراء الزاهد ، وأعيد بعد ثانية ، ومن أحداثه ، انظر ص ٢١٥ .

أما عن شعره أو محاوراته من الشعر ، فيذكر أنه دخل مجلس الأمير: علي بن يوسف بن تاشفين بن يراكش ، فلم يهتبل به أحد ، ونزل حيث انتهى به المجلس ، فاستأذن الأمير في إنشاء بعض ما حضره من الشعر: بهتين قلما أذن له قال:

نعم الأهله في ظلام المندس حيث احتلنا ثم صدر المجلس

أن يهطل الزمن الخزون بهزنا ظلما فلم يذهب بهز الأنفس

وتقول الرواية إن أمير المسلمين إذا كان قد أمر بترغيه في المجلس ، فإنه لم يسامحه فيما غاب عنه من الخلل في الشعر ، إذ لو قال: «ذهب» مكان «يهطل» لكان أجرو.

هذا ، كما كان الرجل المعتز بنفسه ، عاشقا في شعره إلى أبعد الحدود ، فمن شعره:

أزف القراق وفي الفؤاد كلوم ودنا الترحل والحسام بحوم

قالوا الوداع يهيج منك سبابة وثير ماهر في الهوى مكتوم

قلت اسمحوا لي أن أفوز بنظرة ودعوا القيامة بعد ذاك تقوم

(٩٥) الخلة انسيرا ، ج ٢ ص ٢١٢ ، حيث رواية ابن صاحب الصلاة التي تقول : ان قائد

غرناطة وقتئذ كان : علي بن أبي بكر المعروف بابن فنو : أخت علي بن يوسف بن تاشفين ،

والذي وليها بعد يحيى بن علي بن غانية.

هود الثمن غالبا ، والذي قتل في حياة ولده الذي أسر وهو جريح من قبل من كان من المرابطين في القصبة ، ولم يلبث أن مات بين أيديهم ، فكفّنوه ووضعوه في نعش ، دفعوا به إلى أبيه لدفنه - كما كانت تقضى فروسية المثلثين.

والمهم أن الحامية المرابطية في غرناطة نجحت في الدفاع عن نفسها في قصبة غرناطة أمام أهل المدينة ومن تقدم لمعوتهم من الناس . فقد هزموا قاضي مرسية الشائر بها : ابن أبي جعفر ، وقتلوه ، كما أرغموا ابن هود (سيف الدولة) على الفرار. هذا ، كما أرغمت محمد بن أضحى (الذي خلف والده) على الفرار إلى المنكب (٩٦).

والذي يلفت النظر بعد ذلك انه تم التصالح بين أهل غرناطة والمرابطين تحت قيادة خليفة : ابن فنو، بعد وفاة ابن أضحى، وهو : سيمون بن يدر بن درقاء أو محمد بن الحاج (في نياحته عن يحيى بن علي بن غانية) ، والذي أقام بغرناطة حتى أسلمها إلى الموحدون في سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م (٩٧).

ابن عبد العزيز وابن عياض وابن أبي جعفر في : بلنسية وشاطبة ومرسية :

وإلى جانب ابن أضحى يذكر الثلاثي المتمركز في كل من بلنسية وشاطبة (٩٦) انظر الحلة السبراء ، ج ٢ ص ٢١٣ ، وأيضاً ص ٢١٤ - حيث حكاية أخرى لغبير ابن صاحب الصلاة تمر عن معاني شجاعة المثلثين الذين هزموا خصومهم الوافدين من جيان . ثم هزموا فرسان مرسية ورجالتهم الذين بلغوا ١٢٠٠ (اثني عشر ألفاً) رجل صابن فارس وراجل... « ويضرب المثلثون إلى معقلهم ظاهرين على عداتهم ، وظاهرين في حركاتهم - الأمر الذي يعني رواية مرابطية مضادة. ويملأ هاتين الروايتين . رواية ثالثة عن وفاة ابن أضحى في صينة شجاعة ، إثر انكشاف خدعة كان يهد بها قتل ابن هود في كوب شراب مسموم - وذلك عندما شرب الكوب حتى الثمالة . وقام ابنه أبو بكر (محمد) بن أضحى مكانه في أول سنة ٥٤٠هـ / يونيو ١١٤٥ م ليهرب عقب ذلك إلى المنكب ، حسبما جاء في الرواية السابقة.

(٩٧) ابن الأبار ، الحلة السبراء ، ج ٢ ص ٢١٥ .

ومرسية، وهم : ابن عبد العزيز (أبو عبد الملك) قاضي بلنسية ، وعبد الله بن عياض والى الشفر (الأعلى أو شاطبة) ومن معه من بنى مردنيش ، ومن ثم صاحب مرسية: أبو جعفر محمد بن عبد الله بن أبي جعفر ، وهم الذين كانوا يدورون فى بداية أمرهم فى فلك قاضى قرطبة ابن حمدين ، كما تدور الكواكب حول النجوم(٩٨).

فقصة قيام ابن عبد العزيز بثورته ضد المرابطين فى بلنسية تتصل بخبر قيام أبى جعفر حمدين بن محمد بن حمدين ، وبيعتة بجامع قرطبة الكبير ، فى يوم السبت ٥ رمضان سنة ٥٣٩هـ / ١ مارس ١١٤٥م ، وفشل ابن غانية (يحيى بن على) فى فتح لبلة ، واضطراب عامة أهل بلنسية وفى ذلك الوقت كان والى المدينة عبد الرحمن بن محمد بن على (ابن أخى يحيى بن غانية ، أمير شرق الأندلس وغربها) ، وكان القاضى هو أبو عبد الملك بن عبد العزيز ، وكان قد ولى القضاء فيها بمعرفة الأمير تاشفين بن على ، فى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٥٣٨هـ / ٢٩ من يونيو ١١٤٤م.

فى بلنسية :

ولما كان الدارج هو أن القضاء هم الذين يقومون بالثورة على السلطة المرابطية وقتل بالأندلس ، وكان اضطراب عامة أهل بلنسية بمشاهدة إعطاء إشارة الضوء الأخضر ، كما يقال الآن ، للقاضى ابن عبد العزيز للقيام بالثورة تحت مظلة قاضى قرطبة الأكبر ، أمير المسلمين (٩٩).

(٩٨) انظر ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، سرية رقم ١٤٥ ، ص ٢١٨ وما بعدها - عن ابن عبد العزيز: أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن مروان.

(٩٩) الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢١٨ ، وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٦ - ولاندرى أن كانت تحسن الإشارة هنا إلى أن انتشار نظام القضاء الأمراء فى الأندلس ، فى تلك الفترة من حكم ملوك الطوائف ، له علاقة بما هو معروف فى الشقافة الاسرائيلية القديمة بتقسيم تاريخ دولتهم اليائدة إلى عهدين ، هما: عهد الملوك وعهد القضاء.

والهم أن والى بلنسية المراهبى: عبد الله بن محمد بن على (بن غانية) وقاضيه مروان بن عبد العزيز اجتماعا فى الترو والحين ، ورغم مكانا يشعرا به من المنافسة بينهما ، وهما «يتفقان على الائتلاف وترك الخلاف» (١٠٠).

والحقيقة أن مسار الأحداث يدل على رغبة المحشولين المراهبين فى بلنسية فيما يتعلق بمستقبل ما يستجد من الأمور. فهذا ما يفهم مما قام به الوالى : عبد الله بن محمد بن على (ابن غانية) ، من إرسال عياله إلى شاطبة لى يستقروا فيها ثم مسيره هو نفسه بعد فترة ، إلى هناك إثر شجار قام بينه وبين الجند - الأمر الذى يوضح أنشقاق الجبهة الحكومية فى منطقة بلنسية التى كانت خيالة شاطبة تغير على بعض جهاتها ، الأمر الذى كان يثير سخط الناس واحتجاجهم . وهكذا اتجهت الانظار - كما هو الدارج فى غير بلنسية من المدن الأندلسية - نحو قاضى المدينة : أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز ، فعرض عليه «الجند والعرب ووجوه أهل البلد ، التأمّر عليهم». والغريب هنا هو رفض ابن عبد العزيز لذلك العرض المفردى حقا ، وإن كان ذلك من الأمور الدارجة . وهنا ترى أنه ربما كانت المسألة «تكتيكية» كما يقال الآن ، من جانب القاضى المرشح للرئاسة ، إذ أنه بعد فترة ثمنع وتردد استخفى فيها أبو عبد الملك بن عبد العزيز ، وعرض فيها الأمر على بعض قادة الجند . قبل ابن عبد العزيز الإمارة بعد أن لقي مساندة من قائد الثغر: ابن عياض (أبو محمد عبد الله) ، وابن مردنيش (العم: أبو محمد عبد الله) : زعيم حلفائه فى الثغر وأصهاره.

(١٠٠) انظر الحلة السهرا . ج ٢، ص ٢١٨ - حيث كان الاجتماع فى المسجد الجامع . وحيث قام القاضى مروان خطيبا يذكر بجهاد المستوطنين للروم وتصرهم للجزيرة (الأندلسية) ، واستنفاذهم بلنسية من أيديهم ، ويحض على التمسك بدعوتهم والوفاء لهم . ثم قام عبد الله بن محمد الوالى ، وتكلم بما حضره فى هذا المعنى . وذكر الناس بما انتظم بينهم وبين عمه (يحيى بن على) من الصلحة ، وانفصلوا.

مبايعة ابن عبد العزيز:

وهكذا تمت مبايعة ابن عبد العزيز يوم الاثنين ٣ شوال سنة ٥٣٩هـ / ٣٠ مارس ١١٤٥م أى قبل شهر من بيعته قاضى قرطبة ابن حمدين . وبدأ ابن عبد العزيز رئاسته لبطنسية : قاعدة شرق الأندلس ، بتولية ابن عياض الثغر وماولاه ، كما ضم إليه ماكان بأيدي بنى مردنيش (قبل ظهورهم) . ومن أجل مواجهة غارات المرابطين على جهات بلطنسية ومايجاورها من البسائط والحصون استدعى ابن عبد العزيز أجناد الثغر وسار بهم نحو شاطبة ، فما أن علم بذلك رجال الحامية المرابطية المقيمة فى القصبة هناك ، حتى نزلوا إلى المدينة «ونهبوا الديار وسبوا النساء» . وفى ١٨ من شوال / ١٥ أبريل ١١٤٥م ، بعد حوالي أسبوعين فقط ، كان ابن عبد العزيز يقابل المرابطين فى قصبة شاطبة ، كما وصلت إليه نجدة من مرسية فى آخر الشهر بقيادة الفقيه أبى جعفر الحشنى (محمد بن عبد الله أبى جعفر) . الذى كان قد قام فى مرسية فى شوال سنة ٥٣٩هـ / مارس ١١٤٥م .

وهنا قام العسكر البطنسى والمرسى بمحاصرة شاطبة . ولكنه لما كان صاحب مرسية طامعا فى الإمارة هو الآخر ، لم يجد عملهما العسكرى ضد شاطبة ، بل إن الاضطراب ساء مرسية .

وهكذا اضطر ابن عبد العزيز إلى الاستعانة بابن عياض ، قائد الثغر بنفسه ، الأمر الذى حقق له التفوق على : عبد الله بن محمد (بن على بن غانية) الذى فرّ لاحقاً بالمرية ، من حيث كان ركوبه البحر - فيما بعد - إلى أبيه محمد بن على بجزيرة ميورقة (الليبار) ، وذلك برأى أخيه: يحيى بن محمد بن على (أبو زكريا) ، صاحب شرق الأندلس - وذلك عند ثورة العامة باشبيلية (١٠١) .

(١٠١) ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ج ٧ ص ٢٩٩-٢٢٠ ، وقارن ابن الخطيب أعمال الأعلام ، ص ٢٥٦- حيث عبد الله بن حمّو (بدلاً من محمد) بن غانية ، القائد المرابطى ، الذى نجى من الحصار ، وقصد الساحل ، ووصل إلى المرية ، حيث : محمد بن ميمون ، قائد الأسطول وصنيعة الملكين الذى جهزه إلى مدينة ميورقة ، فألقاه بأبيه «حمّو بن غانية» .

وبذلك نجح الرئيس القاضى ابن عبد العزيز فى الاستيلاء على شاطبة إلى جانب بلنسية التى عاد إليها وهو راكب على جمل فى زى الجند . وهناك جددت له البيعة فى شهر صفر سنة ٥٤٠هـ / يولييه ١١٤٥م ، وانصرف ابن أبى جعفر إلى مرسية ، ثم قتل إثر ذلك بجهة غرناطة ، فانضامت لقنت وأعمال شاطبة إلى ابن عبد العزيز (١٠٢) .

وبسبب سوء الاحوال الاقتصادية ، وقلة الجبايات لم يكن ابن عبد العزيز يستطيع أن يلبى حاجات الجند من الرواتب والواجبات ، الأمر الذى أثار سخطهم حتى فكروا فى خلعه ، بل أنهم خاطبوا ابن عياض يستعجلون مجيئه من مرسية التى كان قد استولى عليها من ابن طاهر (أبو عبد الرحمن) فى جمادى الأولى ١٦ نوفمبر ، فخرج من قصره متنكراً ، وتدفى من سور بلنسية ليلال لى يلحق بالمرية حيث قبض عليه أمير البحر : محمد بن ميمون ، ومن ثم سلمه إلى عبد الله بن محمد ، عدوه وطريده من بلنسية وشاطبة ، فساقه فى الأسطول إلى جزائر ميورقة (حيث مقر الأسرة من بنى غانية) (١٠٣) .

خلع ابن عبد العزيز :

وعندما خلع الجند ابن عبد العزيز من إمارة بلنسية قدموا عبد الله بن محمد (أبو محمد : ابن مردئيش) نائباً عن ابن عياض الذى وصل إليها فى آخر جمادى الأولى / نوفمبر ، وأقام ناظراً فى أمورها ثم عاد إلى مرسية ، وترك صهره أباً

(١٠٢) ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ج٢ ص ٢٢٠ ، وقارن ابن الخطيب أعمال الأعلام ، ص ٢٥٦ .

(١٠٣) ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ج٢ ص ٢٢١-٢٢٢ - حيث رواية أخرى تقول إنه رجع إلى بلنسية ثم خرج مستخفياً إلى مرسية ثم خرج منها إلى المرية حيث قبض عليه . وقارن ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٦ - حيث : واتسعت طاعته (ابن عبد العزيز) إلى أن ضاقت جباهته ، وكرهته الرعية ، وثار به الجند فى ٢٥ جمادى الأولى ٥٤١هـ / ١٥ نوفمبر ١١٤٥م ، فصابروهم إلى الليل ، وترامى من السرر ، فلهب لوجهه ، وتلاعبت به الأيام إلى أن تولى مشرقاً براكش سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م .

محمد عبد الله بن سعد بيلنسية نائباً عنه ، وهو عم محمد بن سعد (ابن مردنیش) ، وهو أمير الشرق بعد ذلك (٤-١) .

أما ابن عبد العزيز فسبق إلى ميورقة حيث سجن في بيت مظلم مطبق لا يعرف فيه النهار من الليل لمدة تزيد على عشرة أعوام أو تقرب من اثني عشر عاماً . ولم يخلص من ذلك السجن إلا بسمعي الوزير أبي جعفر بن عطية لدى صاحب ميورقة: أسحق بن محمد بن علي (ابن ثمانية) سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م ، والذي بعث به إلى بجاية ، ومنها توجه إلى مراكش حيث سعى له ابن عطية ، فكان يحضر مجلس عهد المؤمن . والأمر المستغرب أن ابن عبد العزيز تنكر لابن عطية وأغرى عبد المؤمن به حتى كان من أسباب مقتله سنة ٥٥٢هـ . وكانت وفاة ابن عبد العزيز بمراكش سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ، وعمره ٧٣ (ثلاث سبعون) سنة (١٠٥) .

من تلك الإشارات إلى أحوال ثوار الشرق على نهاية عهد المرابطين ، نلاحظ أنهم كانوا أشد خطراً من ثوار الغرب . فالمريدون في الغرب كانوا أقرب إلى الثوار العباد من أهل الربط والخنقاوات ، دعاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . بينما كان ثوار الشرق من المحاربين الأشداء ، طلاب أعمال الشجاعة والبطولة والمغامرة . ويمكن تفسير ذلك على أساس الاختلاف في الموقف الاستراتيجي - الجغرافي لكل من الغرب والشرق . فالغرب كان مهزوماً أمام الـريكونكيستا الإسبانية أكثر من الشرق ، بسبب إطلالته على شواطئ المحيط الذي كان عمراً لسفن الصليبيين ، من: الفرنج والتنجيز الذين كانوا يمدون يد العون إلى أسبان غاليسيا وليون بالشمال ،

(١٠٤) الحلة السيرة ، ج٢ ص ٢٢٢ - وابن سعد بن مردنیش هذا هو شهيد البسيط أو اللج مع سيف الدولة بن هود - انظر هـ - ١ - عن البسيط ، وانظر ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٩ - حيث أيام الأخير أبي عبد الله محمد بن سعد الجدامي (ابن مردنیش: أمير شرق الأندلس ، ابن سعد أمير أفراغة وماو لاها من ثغور شرق الأندلس ، نازل ابن رزمير بافراغة ، وأهان الله الطاغية بظاهاها على يد يحيى بن غانية ، فظهر من سعد في ذلك اليوم من الصبر وحسن البلاء ما اشتهر به - و عن أفراغة ، انظر سابق ، ص ٤٣٤) .

(١٠٥) الحلة السيرة ، ج٢ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

ومن ثم إلى البرتغاليين في الغرب ، الأمر الذي سمح بتمدد هؤلاء جنوبا ، وبشكل أسرع مما كانت عليه الريكونكيستيا في الشرق ، الأمر الذي كان يشجع على قيام دولة البرتغال إعتباراً من أواخر القرن الخامس الهجري / ١١ م وأوائل السادس / ١٢ م (١٠٦).

وهذا الموقف أدى إلى أن صارت حرب الاسترداد في الجبهة الغربية وكأنها جهاد مباشر ضد ملكة البرتغال ، بينما بقيت في الجبهة الشرقية وكأنها فتنة داخلية - من نوع الخوابة - ضد ثوار الطوائف الأندلسيين ، وذلك في منطقة الوسط ، في بلنسية وشاطبة ومرسية ، فن وقت لم تكن «الريكونكيستا» قد استردت في الشرق إلا الثغر الأعلى في سرقسطة وعدد من أعمالها شمالا بشرق . ومن الواضح أن أهم أسباب الصمود في الشرق ، تلخصت في الوضع الجغرافي حيث كانت سواحل الشرق مشرفة على شواطئ الجزائر (المجاهدة) في المغرب ، بل وما وراء المغرب الأوسط في صقلية وجنوب إيطاليا ، حيث لم تكن الريكونكيستا والنورمندية قد استردت تلك المواضع تماما إلا قبيل الفترة التي نحن بصددتها أو القريبة من ذلك حيث وجود العرب في منطقة مرسية ، سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م - قبل أن يحصلهم عهد المؤمن إلى الأندلس (ما سبق، ص ٤١٤) ، وهم الذين كانوا يستطيعون الوقوف أمام محمد بن حمدين وإلى مرسية من قبل ابن عمه قاضي قرطبة ، فيبزموته ومنعونه من التقدم نحوها (١٠٧).

وهكذا كان على الموحدين - بعد المرابطين - أن يواصلوا الصراع في غرب الأندلس مع دولة البرتغال مباشرة، بينما كان عليهم في الشرق مواصلة الصراع ضد طوائف

(١٠٦) عن قيام دولة البرتغال انظر أشباح (يوسف) ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عناني القاهرة ١٩٤١ ، ص ١٨٧ - حيث الإشارة إلى أمير البرتغال الفونسو هنريكيث أمير البرتغال يتحالف مع ملك نافار ضد قبصر قشتالة الفونسو ريونديز وانظر أيضا محمود عمران، دور الحركة الصليبية في تكوين ملكة البرتغال، كتاب ندوة الأندلس، كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .

(١٠٧) ابن الأثير ، الحلة السبراء ، ج ٢ ص ٢٥٥ .

الأندلسيين من «فتوة مردين» مباشرة، وكذلك من وراءهم من الإسبان المحاربين. وهذا الأمر هو الذى يفسر ضياع الغرب حتى المجاز من أيدي المسلمين مع بقاء رأس جسر غرناطة والمرية بين أيدي بنى الأحمر الغرناطيين، خلفاء الموحدون فى الأندلس.

ومن هذا المنظور أيضا يمكن القول أنه بينما كانت حركة المردين فى غرب الأندلس تنتهى بتوحيد ابن قسي ، ومسيرة بصحبة طلائع الجيش الموحدى الذى أخذ مواضع من الغرب وحتى أشبيلية وأعمالها ، ليبدأ من ثم الصراع المباشر ضد البرتغال ، كان الشرق مايزال يقدم المزيد من ثوار الطوائف ، ممن سبقت الإشارة إليهم ، من : ابن عياض ، والحشنى ، وابن عبد العزيز ، ومن يأتى ذكرهم فيما بعد ، مثل : بنى مردنيش وابن همشك وحلفائهما من رجال الاسترداد من الإسبان.

فسيصف الدولة (Zavadola) ابن هود ، حليف ملك قشتالة ، كان له اتباعه بمرسية ، مثل : عبد الله الثغرى خلال شوال سنة ٥٣٩هـ / مارس إبريل ١١٤٥ م . والحشنى (اللقية : أبو جعفر ابن أبي جعفر) الذى توجه إلى شاطبة «لحرب من كان بها من الملثمين» ، ثم خرج غازيا إلى غرناطة ، ومعينا للقاضى أبى الحسن ابن أضحى ، حيث كانت قد اشتدت شركة الملثمين بقصبتها ، وبالفوا فى التصبيق على مدينتها وأكثروا القتل فى أهلها (١٠٨).

ومن الواقدين الجدد من الأسراء الثوار أبو عبد الرحمن بن طاهر تابع ابن هود والذي أجمع أهل مرسية على تأميمهم إياه فى أواخر ربيع الأول سنة ٥٤٠هـ / سبتمبر ١١٤٥ م ، والذي قدم أخاه أبا بكر قائداً للخيلة (١٠٩).

(١٠٨) انظر الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢٢٨ - حيث النص على تأهب المرابطين بغرناطة للحشنى ، كما يقال أن عبد الله بن محمد (حمو) بن على بن غانية كان فيهم قبيل لحاقه بأبيه ، وقدمه عليه بمبرقة ، فهرموا ذلك الجمع قرب غرناطة ، وقتل ابن أبى جعفر الحشنى.

(١٠٩) ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣١ - حيث النص على رد أهل مرسية للعسكر الذى بعثه إليهم ابن حمدين كما طالب المائلين إليه (ابن حمدين) . هذا ، مع الإشارة إلى دخول ابن هياض مرسية بناء على طلب أهلها دون علم ابن طاهر ، حتى دخل ابن عياض القصر الكبير بمرسية دون مدافعة أحد عنه ، الأمر الذى دعا ابن طاهر إلى الانتقال إلى الدار =

والمهم أن مرسية (بلد سدى أبى العباس شيخ الاسكندرية) كانت متبادلة فيما بين سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م و ٥٤٢هـ / ١١٤٧م ما بين عبد الله الشفري الذي قتل فى ٧ رجب سنة ٥٤١هـ / ١٤ ديسمبر ١١٤٦م ، وبين ابن عياض الذى استولى على مرسية ثانية وسائر بلاد الشرق إلى أن قضى تحبه من سهم رمى به فى بعض حروبه مع الروم يوم الجمعة ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٤٢هـ / ٢١ أغسطس سنة ١١٤٧ .

وخلف ابن عياض رئيسا على الشرق (صهره) محمد بن سعد (ابن مردنيش) الذى كان وقتئذ واليا على بلنسية (حيث دفن ابن عياض) برضاء أهل المدينة ، بل ومبايعتهم أيضا ، كما بايعه أهل مرسية فى شهر جمادى الأولى / سبتمبر - أكتوبر من نفس السنة (١١٠). والمهم أن ابن سعد بن مردنيش فرض هيمنته على البلاد إلى أن توفى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م . وعندئذ اطمأن ابن طاهر ، وظهر ، ودخل طوعا فى دعوة الموحدين ، وسار الى مراكش حيث توفى سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م (١١١).

«الشفري قيل أن ينتقل إلى داره ، بينما عفا ابن عياض عن دمه لعله يضعفه ، وكان (ابن عياض) مع شهامته حسن البيرة . هذا ، كما حلق مروان بن عبد العزيز فى بلنسية واستدعى أهلها ابن عياض فأمره ، وأقام الخطبة فى شرق الأندلس داعيا لابن هرد إلى أن قتل بالبريط فدعا لنفسه.

(١١٠) انظر الحلة السيرا - ج ١ ص ٢٣٢ وهـ ١ وعن ابن مردنيش لكوديرا ، فى اضمحلال وزوال دولة المرابطين (بالاسبانية) ط. سرقطة ١٨٩٩ ، ص ١١١ وما بعدها .
(١١١) الحلة السيرا - ج ٢ ص ٢٢٣ .

الموحدون في الأندلس

أرض الجهاد ودار الرياء

من التمهيدات الأولى لدخول الموحدين الى الأندلس يتضح أن ذلك التدخل أتى عن طريق عدد من الأسباب ، أولها بطبيعة الحال هو الرغبة في الجهاد من قبل الموحدين ، كما كان الحال بالنسبة للمرابطين ، وذلك بناء على ما هو معروف من أن الجهاد يعتبر فرضاً من فروض الاسلام ، وإن كان فرض كفاية.

ومن هذا المنطلق ، لم يكن من المستغرب أن تأتي الدعوة إلى الجهاد في الأندلس من جميع الأطراف الإسلامية ذات العلاقة ، من: مؤتلفة ومختلفة. ويظهر ذلك الأمر بشكل معبر من تنقل أمراء الأندلس ، من قضاة أبرار وثوار أشرار ممن يقبعون تحت مظلة الحكم الشرعي المرابطي أو الموحدى ، ومن يقعون تحت الهيمنة الإسبانية الممثلة في «الريكونكيستا» - وكان الأمر خضوع لقضاء الله ولقدره. وهكذا يمكن القول حقيقة أن الظروف السياسية والعسكرية المتقلبة هي التي كانت تقرر المواقف بالنسبة لكل طرف من الأطراف.

أسباب التدخل الموحدى :

وهكذا ظهر عدد من الروايات التي تحدد أنواعاً مختلفة لأسباب تدخل الموحدين في شئون الأندلس. وأقدمها يرتبط بفتح مدينة فاس ، بعد مقتل تاشفين بن علي سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥ م على مشارف وهران ، وتنص على أن صاحب الأسطول المرابطي في ميناء قادس الأندلسي الجنوبي ، وهو علي بن عيسى بن ميمون ، كان أول من اتصل بعبد المؤمن سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥-٦ م ، وأنه نقض بيعته المرابطين (الملثمين) ودخل في دعوة الموحدين (١١٢). والرواية التالية والتي يفترض أنها

(١١٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٣ حيث النص على أنه: دخل في دعوته. وخطب له به جامع فاس أول خطبة خطبت لهم بالأندلس عام ٥٤٠ هـ.

معاصرة لها ، وتقول أن أحمد بن قسّى (رئيس المريدين) كان أول مقيم للدعوة الموحدية ، إذ بعث رسوله: أبا بكر بن حبيش ، فلقى عبد المؤمن وهو على تلمسان (١١٣).

ولما كان المعروف أن رسالة ابن قسّى هذه لم تلق جوابا حسنا من عبد المؤمن بسبب أن ابن قسّى كان يدعى «الهداية» - وهى بضاعتهم (ماسبق ، ص ٤٤٤) - فإن الاتصال الصحيح الذى عرض فيه ابن قسّى توحيده ، ورغب فيه عبد المؤمن فى ملك الأندلس ، كان عندما سار بنفسه للقاءه أثناء أو بعد فتح مراکش (سنة ٥٤١هـ / ٧-١١٤٦م أو بعدها - ماسبق ، ص ٤٥٥) - فكان تلك الأسباب كانت مجرد دعوات لتدخل المنتصر.

أما عن الروايات التى تتحدث عن فتح الموحدين للأندلس فتحا حقيقيا ، فهى تلك التى تنص على أن الشيخ أبا حفص عمر أيتى ، أكبر مشاهير القادة الموحدين الأوائل ، وهو «أول من فتح الأندلس» ، وأنه «أطاعه أهل غرب الأندلس» ، وأنه تبع ذلك «أن جمع عبد المؤمن جموعه للعبور» (١١٤).

وهكذا تتعدد أسباب الفتح الموحدى للأندلس ، من : انحياز بعض الفواد المرابطين إلى جانب الموحدين ، عندما تبين لهم رجحان كفتهم ، أو محاولة استقطاب البعض من ثوار الأندلس مثل ابن قسّى ، لعبد المؤمن أو الاستنصار به ضد منافسيهم الذين كانوا يستجدون بملوك النصارى الإسبان ، كما فعل قاضى قرطبة ابن حمدين . أم عن الفتح الحقيقى ، الذى قام به أبو حفص عمر الهنتاتى ، فكان المحصلة الأخيرة للموقف ، بعدما تمهدت الأمور لاستقبال القوات المصمودية فى الأندلس - إثر تأكيد فشل المرابطين فى تقويم الأحوال.

(١١٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٤ .

(١١٤) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٦٣ .

يحيى بن غانية آخر ولاية المرابطين:

وهنا لا بأس من النظر في موقف آخر ولاية تاشفين بن علي بن يوسف في الأندلس، وهو يحيى بن علي بن غانية ، آخر مشاهير المرابطين ، والذي ستنبج عائلته في الاستقرار في جزائر مبرقة (الشرقية) ، في محاولة أخيرة من جانب «آل تاشفين» للوقوف أمام الامبارطورية الموحدية الصاعدة ، الأمر الذي كانت له آثاره السلبية ولاشك ، على النهضة الموحدية ، وخاصة في البلاد الأفريقية من المغرب.

وهكذا كان (ابو زكريا) يحيى بن غانية آخر ولاية المرابطين على شرق الأندلس وغربه. وفي ذلك تصفه الروايات التاريخية بأنه كان بطلا شهما حازما ، كثير الدهاء والإقدام والمعرفة بالحرب (١١٥). وذاع صيت يحيى وبسالته في كل الأندلس حتى إن والي بلنسية (في الشرق) ، وهو يدر بن ورقاء ، رغب في استلحاقه بعسكره ليستعين به في الدفاع عن الشرق ، واستجاب أمير المسلمين علي بن يوسف لطلب يدر ، ووصل يحيى فعلا إلى بلنسية حيث أقام بها نائبا عنها ، إلى وفاة ابن ورقاء ، فولاه علي بن يوسف علي بلنسية وشرق الأندلس.

السيطرة على الموقف :

وفي الشرق ظهر غناء ابن غانية وجهاده ، وهناك حقق انتصاره اللامع على ابن ردمير (الفونس المحارب : الأراجوني) في موقعة أفراغة الشهيرة - سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٤م ، فطار ذكره واشتهر بعده ، كما يقول ابن الخطيب (١١٦).

(١١٥) انظر ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ص٣٤٤ - حيث الإشارة ابتداء إلى نشأة يحيى بن غانية في كنف زوج أمه : محمد بن الحاح اللخوني ، والي قرطبة حتى قرى منفصلا عن جماعته ، وحيث دخل في سلك العسكرية: «يتصرف في الحروب ... ويشتغل بالسياسة والديانة».

(١١٦) الإحاطة ، ج٤ ص٣٤٤ ، وانظر أيضا ص ٣٤٥ - حيث النص على شدة عزمه إلى جانب بسالته وديانته ، وحيث النص على أنه طلق زوجته الشريفة الجميلة ... (وفي ذلك) =

واعتباراً من سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م عهد إليه علي ابن يوسف (بولاية الأندلس)، الأمر الذي توج به جهاده هناك ، وبفضله «استمسك حال البلاد» ، وبذلك «استقامت الامور بحسن سيرته وظهوره سعده» إلى صفر من عام ٥٣٩هـ / أغسطس ١١٤٤م حسبما يري ابن الخطيب (١١٧). ومؤرخنا يقصد بذلك التاريخ (صفر ٥٣٩هـ / ١١٤٤م) بدء قيام ثورة ابن قيس الذي كان بمثابة الشرارة التي ألهمت ثورة الماسي (الماسي) في السوس الأقصى من بلاد المغرب ، وهو إذن تاريخ مهم ، يرجع إليه ، من حيث اعتباره «باكورة الفتن» التي أودت بحكم المرابطين للأندلس. فعندما قام يحيى بن غانية بالخروج من قرطبة لمهاجمة مدينة لبله (حيث المريدون) ، انتهب ابن حمدين الفرصة وأعلن الثورة بعاصمة الخلافة العتيدة (قرطبة) التي صارت دار ملكه، وذلك في شهر رمضان من سنة ٥٣٩هـ / فبراير ١١٤٥م. والمهم أن أهل قرطبة أيدوا ثورة ابن حمدين ضد الملتشين ، الأمر الذي شجعه على استباحة قصر يحيى بن غانية (قصر الخلافة بقرطبة) ، «وانطلقت الأيدي على قومه (من اللمتونيين)» ، وبذلك نجح في السيطرة على الموقف في قرطبة . وعندما بلغ يحيى الخبر عاد أدراجه إلى اشبيلية ، التي ثار أهلها بدورهم «فناصبوه الحرب ، وأصابوه بجراحة». ورغم ما تنص عليه الرواية من أنهم حينما ألجأوه إلى حصن «مرجانة (القريب من اشبيلية)» ، حيث «أقام يصابر الهول ، ويرقع الفتن» ، فالمهم أن يحيى استطاع هزيمة ابن حمدين ، الذي لجأ إلى حصن أندوجر القريب ، بل ونجح أيضاً في استرجاع قرطبة ، في شعبان سنة ٥٤٠هـ / فبراير - مارس ١١٤٦م (١١٨).

منازلة ابن حمدين ،

ومن المهم أيضاً أن يحيى بن غانية نهض الى منازلة ابن حمدين الذي رأى

« قال مقولته التي ذهبت مثلاً: «والله ما فارقتها عن علة تدم ، ولكن خفت أن اشتغل بها عن

الجهاد» حيث أكدت تلك المقولة الربط الذي لا ينفصل بين الجهاد الحربي والجهاد النفسي.

(١١٧) الإحاطة، ج٤، ص ٣٤٥ .

(١١٨) الإحاطة، ج٤، ص ٣٤٥ .

الاستعانة بملك قشتالة (الفونسو السابع) (١١٩) وهو يطمعه في قرطبة . وعندما تحرك الملك القشتالي لتصرة ابن حمدين ، ووصل الى أندوجر ، توانى يحيى بن غانية عن الدفاع ، وفضل العودة بجيشه الى قرطبة ، والعدو القشتالي فى آثارهم ، وفى صحبته تابعه ابن حمدين . وهكذا انتهى اللقاء باعتصام يحيى بن غانية بقصر قرطبة ومايتاخذه من المدينة ، ودخول العسكر القشتالي مع ابن حمدين إلى قلب المدينة ، وذلك في يوم عيد الأضحى (١٠ من ذى الحجة) من عام ٥٤٠هـ / ٢٤ مايه ١١٤٦م.

والملاحظ هنا أن الرواية الإسلامية الممثلة فى ترجمة ابن الخطيب ليحيى ، تصف ذلك الحدث على أنه «كارثة» حلت بقرطبة من جانب النصارى الذين استباحوا المسجد (الجامع) ، وأخذوا ماكان فيه من النواقبس التى كانت قد جلبت بمعرفة تاشفين بن على بن يوسف (١٢٠) فى حملة اشكلونه سنة ٥٣١ هـ / ١١٣٧م - بعد انتصار أفرغة ٥٢٨ هـ - ٥٢٩ هـ / ١١٣٣ - ١١٣٤م والتي كانت قد استخدمت في الجامع كالثريات العظيمة - رمزاً للتفوق الموحدى. هذا ، كما ينسب اليهم تمزيق مصاحفه ، ومنها - فيما زعموا - مصحف عثمان ، كما أنزلوا منار (مصباح أو ثريا) الصومعة المصنوع من الفضة الخالصة.

والذى نراه انه ماكان للحليف القشتالي (الفونسو ال ٧ «ريمونديز») ان يطلن رجاله يفسدون المدينة التى كان طامعا فى ملكها ، بل نرى ان عامة أهل قرطبة الذين كانوا يناصبون المرابطين العدا - منذ ثورة ابن حمدين - تماما كما كان يحيى يبادلهم الاشفاق والحذر ، ولا يتوقع منهم الا القدر والخيانة ، هم الذين قاموا بشورتهم العارمة ، التى لاتبقى ولا تذر ، والقرينة على ذلك حرق الأسواق وإفساد المدينة.

(١١٩) الفونسو ال ٧ ريمونديز ملك قشتالة قبصراً ١١٢٦-١١٤٤ م / ٥٢٠-٥٣٨ هـ (يوسف أشياخ الترقيم مج ١ ص ١٧٨).

(١٢٠) انظر ماسبق ص ٤٣٤ (عن الاندلس) الأمر الذى لم يتصوره بعض الباحثين فظنوا كلمة النواقبس نوعاً من القناديل المصفحة أو المزينة بالنحاس - على ما ترى.

التحالف مع الفونس :

أما عن موقف الملك القشتالي الذي كان يطالب يحيى بن غانية ببعض المعاقل والحصون في سبيل التنازل عن المطالبة بقرطبة ، فإن موقفه تعدل الى صالح يحيى بن غانية ، ليس لأنه أظهر من الصبر على المكاره ، وشدة البأس وصدق الدفاع الذي أياأس منه عدوه فقط ، بل وبسبب وصول نيا اجتياز الموحدين من المغرب الى الأندلس ، فلقد رأى الرومي أن الأمر يقضى بمهادنة يحيى بن غانية « ويتركه بقرطبة في نحر عدوه من الموحدين ، سدا بينهم وبين بلاده » (١٢١).

وهكذا تمت التسوية بين (القيصر) الفونس السابع القشتالي وبين يحيى بن غانية أمير الأندلس المرابطي. وفي ذلك تقول رواية ابن الخطيب أنه عقدت الشروط ، واستحضر ابن غانية أهل قرطبة للرومي - الأمر الذي يعنى أنهم كانوا أصحاب هياج يوم عيد الأضحى بقرطبة - والذي قال لهم : « أنا فعلت معكم الخير ما لم يفعل أحد من قبل . غلبتكم في بلدكم ، وتركتم رعية لى ، وقد وليت عليكم يحيى بن غانية ، فاسمعوا له وأطيعوا (١٢٢) . فكان الأمير المرابطي هو الآخر ، استند في شرعية وجوده بالأندلس الى مساندة الملك القشتالي ، نظير الجزية - بطبيعة الحال - وهو الأمر الذي حاولت الرواية الاسلامية إعطاء نوعا من الشرعية عن طريق تقرير ان الملك القشتالي أضاف قائلا للقرطبيين : « فعندى كتاب نبيكم إلى جدى » على نسق ما هو معروف في أدب الفتح « بالعهد النبوى » (١٢٣).

(١٢١) الإحاطة ، ج٤ ص ٣٤٥-٣٤٦ .

(١٢٢) ابن الخطيب الإحاطة ، ج٤ ص ٣٤٦ .

(١٢٣) وذلك ما أكدته الملك المسيحي عندما أحضر حقا من ذهب ، فتحه وأخرج منه «كتاب مسطر فيه: كتاب من رسول الله صلعم إلى قيصر ملك الروم - وهو جده بزعمه». والأمر المستغرب بعد ذلك ما تقوله الرواية من أن الكتاب بخط على بن طالب ، الأمر الذي يضي على الرواية طابع القصة الشعبية أو الأسطورة . وأن توثقت الرواية بتأكيد صحتها «بما جاء في حديث البخاري». هذا ، مع التأكيد أيضا على انصراف الملك المسيحي إلى بلاده، وانصراف ابن حمدن ، إلى حيث كانت نهايته بمدينة مالقة «بعد اضطراب كثير» - الإحاطة ج٤ ص ٣٤٦- هذا ولا بأس من الإشارة هنا إلى غاжд العهد النبوى الموجودة في مخطوطات دير سانت كاترين المحفوظة في متحف كلية الآداب بالاسكندرية.

والمهم أن يحيى بن غانية استقر في قرطبة وهو مشفق من غدر أهلها ، وأنه شرع في تحصين المدينة ، « فشرع في بنیان القصر (القصبه) ، وسد عورتها ، وسام أهلها الخسف وسوء العذاب ، ووالى إغرامهم ، واستعجل أمرهم ، واتصل سلمه مع العدو الى تمام سنة ٥٤١هـ / مائة ١١٤٧م . أما عن اشبيلية فكان قد تملكها الموحدون ، بالإضافة الى أعمالها ، وإن ظل موقفهم سلبيا من استبداد العدو الاسباني بابن غانية ، وبالتالي هيمنتهم الحقيقية على قرطبة (١٢٤) .

الآثار السلبيّة لثورة الماسي في الأندلس :

والحقيقة أن الموحدين كانوا قد انشغلوا في المغرب بثورة الماسي (أو الماستي) ، الأمر الذي استغرق كل جهودهم لبعض الوقت ، والذي أدى إلى « تكالب العدو على الأندلس » ، بل ومنازلته الكثير من مدائنها ، مثل : الاشبونة ، وشنترين في الغرب ، والمربة وطرطوشة ولاردة وأغراغة في الشرق والشعر ، بل وطمعه في استئصال الإسلام . والمهم في النهاية أن ابا زكريا يحيى بن غانية ، رجل الحرب والدين ، رأى أن تقويم الموقف لا يكون إلا بالاتفاق مع الموحدين . « فدخل (يحيى) سرا من باشبيلية من الموحدين ، ووصله كتاب خليفتهم بما أحب » . والظاهر أن ملك قشتالة استشعر بما كان يدور في الخفاء بينه وبين عبد المؤمن « فتحرك نحوه في جهش لا يرام ، وطالب ابن غانية بالخروج عن جيان ، وتسليمها اليه » ؛ وهنا سار يحيى ابن غانية إلى غرناطة ، « آخر ماتبقى للمرابطين من القواعد ليجمع بها أعيان لمتونة ومسوفة ، في شأن صرف الأمر الى الموحدين » (١٢٥) .

(١٢٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج٤ ص ٣٤٦ - حيث النص على أن يحيى بن غانية ضيق عليه النصارى في طلب الأتاوة . كما اشتطوا عليه في طلب بعض المواضع ، مثل : بياسة وأبد ، فعتازل لهم عنها .

(١٢٥) انظر مجموع رسائل موحدية ، نشر بروقتسال ، الرسالة الرابعة ص ٦ - والرسالة المؤرخة ٩ ربيع الآخر سنة ٥٤٣ هـ / ٢٧ أغسطس ١١٤٨م صادرة من عبد المؤمن إلى الشيخ الأجل أبي زكريا يحيى بن علي (بن يوسف المسرفي) وتنص الرسالة على توارده كتب طلبه «

وفاة يحيى بن غانية :

والمهم من كل ذلك أن يحيى بن غانية لم يبق بغرناطة أكثر من شهرين ، إذ توفي عصر الجمعة ١٤ شعبان سنة ٥٤٣هـ / ٢٨ ديسمبر ١١٤٨م ، وكان مصيره كراحد من أبطال الجهاد والشهامة أن دفن بداخل القصر بغرناطة ، بالمسجد الصغير المتصل بقصر الأمير باديس بن هبوس الصنهاجي ، وإن قبره هناك صار مزاراً يتبرك به بتبرك صاحبه (١٢٦) .

ابن قسّى والمرابطون وابن حمدين :

وإذا كانت رواية ابن الخطيب هذه في الإحاطة ، قد ركزت على يحيى بن غانية بصفته أمير الأندلس المرابطي في تلك الفترة من نهاية حكم المرابطين ، فإن رواياته في أعمال الأعلام عن ابن قسّى (شيخ المريدن الصوفية) تضيف أشياء تفيد في مواضع أخرى ، مثل : تقلّب أحد اتباع ابن قسّى على حصن منتقوطة في شوال سنة ٥٣٨هـ / أبريل ١١٤٤ ، ولجّاح المرابطين في إنزال ذلك التابع قبل أن يتمكن من الحصن ، وقتله . وتوجه ابن قسّى إلى مبرتلة واحتلال قصبتها المنيعه في ١ ربيع الأول من سنة ٥٣٩هـ / ١ سبتمبر ١١٤٤م ، بعد أن فشل المرابطون في استرجاعها - وإن ضربوا قنطرة مبرتلة - قبل ارمحالهم عنها . هذا إلى جانب تحريك ابن قسّى إلى

«الأندلس يعلمون بجل ابن غانية إلى الموحدين وأنهم تحققوا من محبته لهم والتعاون معه في ذات الله واختيارهم لصدق هدهد ووفائه ، مع الإشارة إلى صانته حقه قبيلته مسونة من التكريم لدحولهم في التوحيد ، وكذلك الشيخ أبو زكريا يحيى بن اسحق رينود وقرايته ، مع الطلب أن يسير على منها جهم - وقارن الدراسة ، ص ٢٣ .

(١٢٦) ابن الخطيب الإحاطة ، ج ٤ ص ٣٤٧ ، وقارن ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٥ - حيث النص على مهلكة (بغرناطة) في شعبان سنة ٥٤٣هـ / ديسمبر ١١٤٨م - وقبرة بها معروف لهذا العهد ، وقارن روض القرطاس ، حيث خروج يحيى بن غانية سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، من قرطبة إلى غرناطة ليكلم عليها المسترسي في قتلها للموحدين إذ كان سكنه من قرطبة وقمرونة ، فتوفي بغرناطة ٢٤ شعبان سنة ٥٤٣هـ / ١٢ يناير ١١٤٥م . ودع في القصة بازا - قبر باديس بن هبوس وانظر فيما بعد ص ٤٨٧ و ٤٨٣

عبد المؤمن ولقائه به في ربيع الثاني سنة ٥٤٠هـ / يوليو أغسطس ١١٤٥م ، ومن ثم تحديد مداخلة ابن قسي لملك البرتغال (ابن الرنق: صاحب قلمرية) (١٢٧) ومثل هذا يقال عن ثورة قاضي قرطبة ابن حمدين التي تحدد برمضان سنة ٥٣٩هـ / فبراير-مارس ١١٤٥م ، واستمرت لمدة ١١ (أحد عشر شهراً ، حيث كانت حركة يحيى بن غانية الى قرطبة في جمادى الثاني سنة ٥٤٠هـ / نوفمبر ١١٤٥م ، بينما كان دخوله إليها بعد هزيمة ابن حمدين في ١٢ شعبان سنة ٥٤١هـ / ٩ فبراير ١١٤٧م . ومن ثم عودة ابن حمدين إلى حصن اندوجر ، قرب قرطبة ، والذي حاصره يحيى بن غانية ، فكان ذلك سبب استصراخه بطاغية الروم ، الذي تبع ابن غانية وفي إثره ابن حمدين الذي دخل قرطبة في دى الحجة سنة ٥٤٠هـ / مايو ١١٤٦م بينما اعتصم يحيى بن غانية بالمدينة الرسمية (القصبة).

أما عن الفترة من دخول الموحيدين إلى اشبيلية (٥٤١هـ / ٤٧-١١٤٦م) وإقامة ابن حمدين بـحصن فرنجلوش ، خائباً في ظل صاحب قشتالة ، ومن ثم قصده عبد المؤمن ، بل وحتى وفاة ابن حمدين بمالقة في ١٩ رجب سنة ٥٤٦هـ / ٥ نوفمبر ١١٥١م ، وهي الفترة التي تعادل حوالي ٥ (خمس) سنوات (١٢٨) ، فهذه الفترة غامضة بشكل مثير ، وابن الخطيب في أعماله لا يشير خلالها إلا إلى انصراف ابن حمدين من مراكش على عجل ، ليلحق بحليفه صنيعة القاضي ابن حسون (أبو الحكم : الحسين بن الحسين الكلبي) ، الذي أعلن الثورة بمالقة ، على أمل ان يستعين به في استرجاع قرطبة من يحيى بن غانية ، وعندما فشلت المحاولة عاد ابن حمدين إلى مالقة ، حيث ساعد ابن حسون بها على مخالفة الموحيدين ، فدعا إلى نفسه (ابن حسون) . وهكذا كان جزاء ابن حمدين مبيتاً من قبل الموحيدين عندما استولوا على مالقة ، أن «نيشوا لحدّه (بقيلى مسجد مالقة) ، وصلبوه» سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م ، وإن ظل بحال لم يتغير بعد ، بعد عشرين سنة من وفاته (١٢٩) -

(١٢٧) أعمال الأعلام ، ص ٢٥٠-٢٥١ .

(١٢٨) أعمال الأعلام ، ص ٢٥٤ .

(١٢٩) أعمال الأعلام ، ص ٢٥٤ .

فكانها كرامة من قاضى قرطبة العتيد ، تخفف من وقع ثورته أو انتهازيته.

أبى حسون صاحب مאלقة ،

وبعد ١٠ (عشرة) أشهر من وفاة ابن حمدين بمالقة ، كانت النهاية المأساوية المذهلة لصنيعه ابن حسون صاحب مאלقة الذى دعا إلى نفسه بقاعدة الأسطول العتيدة بعد أن أنزل الحامية المرابطية من قصبتها ، وانتقل إليها - كمدينته الملكية - حيث «تسمى بالأمبر ، وأقام (بها) سالكا طريقة : القضاء مع الإمارة» - مع تعيين أخيه قائداً للجيش . والمهم هنا هو أن إلحاح المرابطين المقيمين بانتقيره عليه جعله يستدعى الروم (الإسبان) - كما هى العادة - نظير دفع المال السنوى . وكان من الطبيعى أن تضج الرعية من الإلحاح على طلب المزيد من المال ، حتى شرعوا فى التدبير عليه مع بعض خدامه ، كما قتلوا أخاه (القائد) أبا الحسن فكانت نهايته المأساوية التبعة (١٣٠).

وفى مقابل روايات ابن الخطيب المجموعة فى ترجمة يحيى بن غانية ، والمتفرقة فى تراجم أعلام تلك الفترة من عصر طوائف الشوار على أواخر أيام المرابطين ، يتميز معاصره ابن خلدون وصديقه ، فى عبره ، برواية مركزة تعطى معلومات دسمة فى شكل خريطة تاريخية طبوغرافية واضحة التفاصيل - بصرف النظر عما يعتورها فى بعض المواضع من الانحراف عن المسار الزمنى.

(١٣٠) فلقد عز على القاضي الأمير أن تلحق به تلك الإهانة ، وخشى أن يبالغ أعداؤه فى الانتقام منه ، فحاول قتل بياته غيرة عليهن ، فامتنعن منه فى الغرف ، فأطلق النار فى كتبه وذخيرته ، ولما شرب السم فلم يفعل شيئاً ، «فذلّ رمحا وحمل على سانه إلى أن خرج من ظهره ، ولم يجهز عليه» ودخل القصر ، لوجد مشحطاً فى دمه يجرد بنفسه ، ثم مات ليومين (السبت ١١ ربيع الأول سنة ٥٤٧هـ / ١٧ يولييه ١١٥٧م) - وصلت جثته بعد فصل رأسه الذى حمل إلى العاصمة مراکش. وهكذا ، تم ما كان القاضي ابن حسون يحشاه من الفضيحة والعار ، وذلك أنه عندما استولى الموحدون على مאלقة ، بعده «سبع بناته وأهله، وتسرى بعضهم جلة من أهل الدولة» ابن الخطيب، أعمال الاعلام، ص ٧٥٥ .

بداية التدخل الموحدى فى الأندلس

وتبدأ رواية فتح الأندلس وشتونها ، هذه ، بخروج قائد الأسطول على بن عيسى بن ميمون على طاعة لمتونة ، وعبوره من قادس ، ومن ثم اللحاق بعبد المؤمن ، وهو يحاصر مدينة فاس ، والخطبة له بجامع فاس ، وهى التى اعتبرت كأول خطبة للموحدين بالأندلس سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م (١٣١) . وتلتها دعوة من سدرay بن وزير صاحب الغرب : بطليوس وباجة ، الذى سار بـداخلة على بن عيسى ، صاحب الأسطول ، إلى سبتة ، من حيث جهز للحاق بعبد المؤمن لترغيبه فى ملك الأندلس ، وإغرائه بالملثمين ، وحسب رواية ابن خلدون هذه ، يكون ابن وزير أول من أغرى عبد المؤمن بالأندلس ، وأنه بعث معه عساكر الموحدين بقيادة برار بن محمد المسوقى ، كما عقد له على حروب من بالأندلس من كل من : لمتونة والثوار . واتبع عبد المؤمن هذه الحملة الأولى بعملتين تاليتين بقيادة كل من : موسى بن سعيد ، وعمر بن صالح الصنهاجى ، فكان غزاة الموحدين الأوائل فى الأندلس كانوا من المرابطين أصلاً ، الأمر الذى يعنى تدرجاً عادياً فى مسار الأحداث بالأندلس . وليس انقلاباً ثورياً ، كما قد يظن.

وكان نزول العسكر الموحدى هذا بقاعدة شريش حيث الثائر: الغمر بن (عزّون). ومن هناك قصدوا لبلدة حيث يوسف بن أحمد البطرورجى الذى أعلن الطاعة. ثم ساروا إلى ميرتلة حيث دخل ابن قيسى فى الطاعة. ثم فتحوا شلب وأمكنوا منها ابن قيسى. ومن ثم نهضوا إلى بطليوس وباجة، قلب منطقة الغرب، حيث كان سيدرأى بن وزير. وبعد انصرام الشتاء وتحسن الأحوال الجوية كان الخروج إلى حرب اشبيلية حيث تم الاستيلاء على منطقة طلياطة بإقليم الشرف الغربى، وحصن القصر.

والمهم أن سائر الثوار اشتركوا فى حصار اشبيلية براً وبحراً إلى أن فتحوها فى شعبان ٥٤٦هـ / يناير - فبراير ١١٤٧م . ولقد قر المثلثون منها إلى قرمونة ، وقتل من تم أدراكه منهم ، « وأتى القتل على عبد الله بن القاضى أبى بكر بن العرسى فى

هيعة تلك الدخلة - من غير قصد » (١٣٢).

وكتب زعماء أشبيلية بالفتح إلى عبد المؤمن ، وكان على رأس وفدهم إلى مراكش القاضي ابن العربي ، فتقبل طاعتهم وصرفهم بالجوائز والإقطاعات لجميع أعضاء الوفد ، وذلك في سنة ٥٤٢هـ / ٤٨ - ١١٤٧م . وفي الطريق توفي القاضي أبو بكر بن العربي ، وتم دفنه بمقبرة فاس (١٣٣).

رد الفعل المضاد للوجود الموحدى بالأندلس ومسئولية أخوى المهدي ابن تومرت

لم يمض قليل وقت على فتح الموحيين لأشبيلية بمؤازرة من دخل في التوحيد من زعماء المرابطين ، وبناء على دعوات الثوار من: مریدین وقضاة ، حتى انقلبت الآية رأساً على عقب ، وذلك بعودة أولئك الخلفاء الجدد إلى سيرتهم السابقة ، وهو الأمر المفهوم ، من حيث كان ثوار الأندلس يعملون على تحقيق مآربهم الأتانية العاجلة . وكان ذلك يتم عن طريق التحالف مع الموحيين بصفتهم سنداً ضد المنافسين لهم من الإخوة الأعداء ، أو من وراءهم من الملوك الإسبان ، سواء في: قشتالة في الوسط أو في البرتغال قرباً أو في برشاونة وأرجون شمالاً بشرق ، فكان أولئك وهؤلاء بمثابة الصنعة التي ترجع كفة الميزان - عند الرغبة الآتية - وحيث يتحقق توازن

(١٣٢) العبر ، ج ٦ ص ٢٣٤ .

(١٣٣) العبر ، ج ٦ ص ٢٣٤ ، وانظر روض القرطاس ، ص ١٩٠ - حيث النص في أحداث سنة ٥٤٢هـ / ٩ - ١١٤٨م - حيث النص على وصول وفد أهل أشبيلية على أمير المؤمنين عبد المؤمن فوجدوه مشغولاً بقتال الناسي ، فأقاموا عنده نحو ستة ونصف لم يروه حتى لقوه بالمصلى في يوم عيد الأضحى ، وفيهم القاضي أبو بكر بن العربي ، فسلموا سلام جماعة ثم بعد ذلك دخلوا عليه فسلموا وقبلت بيعتهم ، وبعد سؤال ابن عربي عن لقائه بمحمد ابن تومرت لدى الغزالي ، صرف الوفد إلى أشبيلية ، وكتب لهم منشوراً بتحرير أملاكهم ، فانصرفوا عنه في جمادى الثاني سنة ٥٤٣هـ / نوفمبر ١١٤٨م .

التعايش الهش بين الجميع.

والأمر المستجد فى اشبيلية الحديثة العهد بالتوحيد هو الضجة التى ثارت فيها بعد برهة وجيزة ، والثى نسبت إلى أخوى المهدي: عبد العزيز وعيسى، وهو الأمر المستغرب حقاً ، من حيث الزمان، بعد حوالى عشرين عاماً من وفاة «الإمام المعلوم، المهدي المعصوم» ، ومن إسدال الستار على مشكلة الخلافة أو الخليفة، ومن حيث المكان، بعيداً فيما وراء الحدود، فى بلاد الأندلس. والمهم هنا هو ظهور كل من عبد العزيز وعيسى أخوى المهدي ، فجأة ودون سابق انذار أو مقدمات.

فالروايات الخاصة بمحمد ابن تومرت عندما كان صغيراً ، يعرف باسم (الذليج) «أسفور» (ضياء) ، لاتعرفنا بأخوة صفار له عندما كان بغادر ، فى سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م دارهم فى السوس نحو الأندلس والمشرق. والروايات التى تتكلم عن والده بعد ذلك تتكلم عن اشتىاق الأسرة الى رؤيته وخاصة الوالد الشيخ (أصفار) : «تومرت» (عبد الله) ، الأمر الذى يعنى أن عبد العزيز وعيسى كانا طفلين صغيرين ، لادراية لهما بما كن يدور حولهما من أمور السياسة والدين ، إلا إذا كانا أخوين غير شقيقين من الأم مثلاً ، وهذا ما لاتشير إليه المصادر حتى مطلع العقد الخامس من قرننا السادس هذا (١٢م). ويرجع اقتراحنا هذا ما عرفتاه فيما بعد من أن عبد المؤمن كان له أخت ، اسمها فندة أو بندة ، والتى زوجها للشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى ، ون انتهى ذلك الزواج بالانفصال حسب رغبة الأميرة . وكذلك ما عرفتاه من بعد من صلة القرابة بين عبد المؤمن ووزيره عبد السلام الكومى الذى كان أخا غير شقيق لاخت عبد المؤمن عن طريق الأم (١٣٤).

والرواية الخاصة بحملة اشبيلية تنص على أن عبد العزيز وعيسى أخوى المهدي (١٣٤) أنظر ما بعد ص ٥٠٨. وهـ ١٧٠، ص ٥١٩ وهـ ١٨٩. وعن أخوى المهدي وصفاتها الخلقية والخلقية انظر رسائل موحدية ، مجموعة بروقتسال ، الرسالة رقم ١١ ص ٣٨ وما بعدها حيث تقسب شقاوتهم بجنون الشباب أولاً (ص ٣٩) ، واستمرار ذلك مع ارتفاع أسنانهم إلى أطوار الكهولة عندما حصلت هـ هـ وأبدانهم أنهم فى حد أولى الفهم والعقول «دون جدوى (ص ٤٠)».

كاننا من مشيخة (أى رؤساء) العسكر الموحدى باشييلية . وتذهب الرواية مباشرة ودون مقدمات الى أنه «ساء أثرهما بالبلد ، واستطالت أيديهما على أهله» . بل وأكثر من هذا أنهما وأصحابها «استباحوا الدماء والأموال ...» ثم «اعتزما على الفتك بيوسف البطروجى صاحب لبلة» (١٣٥) . وترتب على ذلك أن البطروجى «ترك العسكر الموحدى فى اشبيلية ، وعاد برجاله إلى بلده ، حيث أخرج الموحدون منها ، وحول الدعوة عنهم» (١٣٦) .

وتبين بقية الرواية أن يوسف البطروجى بعدما عاد إلى لبلة اتصل بالمرابطين فى منطقة طلياطة وحسن القصر ، بشرف اشبيلة الغربى ، معلنا اعترافه بالسلطة المرابطية ، وشملها وقتل يحيى بن غانية . وتبع ذلك الانفصام عن الموحدين ، وخروج أحمد بن قسى ، شيخ المريدن ، بدوره عما كان أعلنه لعبد المؤمن من الطاعة . وكذلك كان الأمر بالنسبة لقائد الأسطول المرابطى فى قادس ، وهو على بن عيسى بن ميمون الذى ارتد عن الدعوة المؤمنية .

هذا ، وانضم إلى جانب المرتدين عن خلافة عبد المؤمن : محمد بن الهجاء صاحب بظليوس ، ثانية مدن الغرب بعد حاجة . هذا ، ولما كان يحيى بن غانية قد استولى على الجزيرة الخضراء ، كما كان أهل سبتة قد انتفضوا بمعرفة قاضيهم عياض ، يكون المضيق قد انغلق أمام القوات الموحدية أو كاد . وذلك أنه لم يبق على طاعة عبد المؤمن سوى أبو الغمرين عزون بمدينته شريش وزندة وجهاتهما (١٣٧) .

(١٣٥) انظر ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٤ ، وقارن الرسائل موحدية ، الرسالة رقم ١١ ص ٣٩-٤٠ . حيث وصف آخرى المهدي وأصحابها بأنهم «أغمان لا ينفهسون ، وسرايب لا يلقون عند حد ولا ينتهون ... وهمل يريدون التصرف فى المنكرات بما يشاؤون ويشتهون . دأبهم استخلاص الفسقة ، واستصحاب الخونة من حشائى الناس والسرقة» . وهذا إلى جانب القول : «ومع ما كان الأمر يتوسع لهم من الأرزاق المنعمة والخيرات المتعممة والمنازل المكرمة ، والهيل المرمية ، فلم يكن مستظاهم إلا غلوا يحترقون بناره ، ويتطرقون بهارده» .

(١٣٦) ابن خلدون . المعبر ، ج ٦ ص ٢٣٤ .

(١٣٧) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٤ .

وهكذا انحصر الموحدون في اشبيلية وسط بحر الثوار من الاندلسيين المرتدين عن الدعوة ، واضطر أخيراً المهدي : عهد العزيز وعيسى وبصحبتهما ابن عمهما يصلاتين إلى الخروج من كان بصحبتهما من عساكر الموحدين إلى خارج اشبيلية ، ولحقوا بجبال بستر القربة ، حيث لحق بهم صاحب شريش : أبو الفجر بن عرون . وتم التخليط بينهم لفك الحصار عن المجاز ، باستعادة الجزيرة الخضراء من أيدي اللحتونيين ، ولجحوا فعلاً بافتتاحها ، وقتل حاميتها المرابطية.

وهكذا اتفتح الطريق - عبر المجاز - إلى المغرب ، أمام الموحدين بشكل عام ، وأمام المغضوب عليهم من جانب الأندلسيين ، وهم جماعة يصلاتين وأخو المهدي ، الذين هربوا الدعوة.

والحقيقة إن الجماعة التومرتية المنشقة كان لها نشاطها المسن للدولة في كل من سبتة حيث أناروا أهلها ، وكذلك الأمر بالنسبة لمدينة فاس ، العاصمة المغربية العتيقة . فذلك ما يفهم من رواية ابن عذارى التي تعاني من بعض الخروم* ، من أنه بعد أن استقر عهد العزيز وعيسى وأصحابهما لبعض الوقت في فاس ، أثناء تلك الفتنة التي « أشعلت نار الحسد في نفوسهم ، وكستهم ثياب الحقد عوضاً عن لبوسهم ، مع ما كانوا طبعوا عليه من سوء الاعتقاد ، وكأس الأحقاد » . وهكذا « شدوا في الحين ليلاً ونهاراً إلى مراكش ، لينتفضوا ما عقده الله في محله ، وأمله لأهله » (١٣٨) وحتى لحقوا بحضرة مراكش فعلاً حسب رواية ابن خلدون (١٣٩).

* (الموحدون ، ص ٢٧)

(١٣٨) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٢٨ .

(١٣٩) العبر ، ج ٦ ص ٢٣٤ . وقارن رسائل موحدة ، الرسالة رقم ١١ ص ٤٢ - ٤٣ - حيث النص علي أنه « فلما كانت غزوة فتح بجاية وسانر تلك البلاد لشرقية (سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م) ... ثارت كرامن حسدهم وسلوكوا في التحريب والتخريب مسلكين لا يشك فيه ولا يراب .. فنظر بعون الله في إطفاء نورهم قبل اشتعالها ... وحز رؤوس الفتنة عند صراخها ، واقتضى الأمر الإبقاء والإملاء في الشقيين ... وتأخيرهما بقدر الله عن ذلك المهلك ، فأقاما بهذه الحضرة (فاس) - حرسها الله - في قيد النفلة ، وفترة المهلة.

وال موحدى جديد لإشبيلية :

ويبحث عبد المؤمن واليا جديدا على إشبيلية ، هو : يوسف بن سليمان ، ومعه
عسكر من الموحدين ، وأبقى براز بن محمد على الجباية . وبعد أن تسلم يوسف بن
سليمان ولايته بإشبيلية ، خرج يتعقب المرتدين والشوار وبقايا اللصتونيين ، فدوَّخ
أعمال يوسف البطروحي ببليلة وطلايطة من أعمال الشرف الغربى ، وكذلك الأمر
بالنسبة لعزل ابن قسى بشلب .

هذا ، كما أغار يوسف (بن سليمان) على جبيرة ، كما أخضع عيسى بن ميمون
صاحب شنتمرية ، والذي شاركهم الغزو بنفسه على رأس رجاله . هذا ، كما خضع
للموحدين محمد بن الحاج ، صاحب بطليوس ، الذى أرسل لهم «بهداياهم فتقبلت ،
ورعيت له» . ورجع يوسف بن سليمان إلى إشبيلية والغرب جميعا (١٤٠) .

الصراع من أجل قرطبة :

وإذا كان ابن خلدون يسقط من روايته دور ابن حمدين قاضى قرطبة «الخليفة»
وكيف لجأ إلى الاستنجاد بملك قشتالة ، بل ومكنه من دخول قرطبة واستباحة
مقدساتها ، الأمر الذى كان ينذر بنهاية نمرة لعاصمة الخلافة العتيدة قبل أوانها ،
لولا ظهور الموحدين واستيلاؤهم على إشبيلية ، الأمر الذى سمح بعقد الهدنة بين
أمير المرابطين يحيى بن غانية والملك القشتالى نظير أن يدفع المرابطى الجزية
السنوية (ما بعد ، ص ٤٨٩) ، فإنه يقدم الرواية التى تقرر بداية الوحشة بين
الطاعبة الرومى الذى استغلظ على يحيى بن على بن غانية بقرطبة ، وألح على
جهاته حتى نزل على سياسة وريدة (١٤١) ، وطالب ابن غانية بالزيادة فى جريته أو

(١٤٠) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٥ .

(١٤١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٥ - حيث نكلمة النص المضطرب : وتثلب على الأشبونة
(بالبرتغال) وطرطوشة ولاردة وأفراغة وشنتمرية ، وغيرها من حصون الأندلس - وهذه من
الليم الشرق والغرب .

الإمراج له عن قرطبة (١٤٢) . وأمام هذا التهديد بأخذ قرطبة رأى يحيى بن غانية أن يرأسل براز بن محمد (المسوفى) ، وتم اللقاء بينهما فى أستجة ، وانتهت المفاوضات بين الرجلين بأن ضمنَ براز لابن غانية إمداد الخليفة عبد المؤمن ، على أن يتخلى للموحدين عن قرطبة وقرمونة.

ابن غانية يتخذ جانب الموحدين

وهكذا غدر ابن غانية بأقباطه (كونتاته) الحلفاء ، وطردهم من قلعة ابن سعيد. هذا ، كما أفرج الملك القشتالى عن جيان ، بينما لحق يحيى بن غانية بقرنطة ، حيث كان بها ميمون بن يدر اللمتونى فى جماعة من المرابطين ، وهم يعلنون الطاعة للموحدين . وهناك كانت وفاة يحيى بن غانية فى (أواخر) شعبان سنة ٥٤٣هـ / يناير ١١٤٩م (١٤٣).

وانتهز ملك قشتالة (الفونسو الـ ٧) فرصة فى قرطبة فزحف إليها ، وعندئذ أخرج الموحدون بأشبيلية القائد أبا الغمر بن عزون للدفاع عنها ، كما خرج إليها من لبلبة يوسف البطروجى الذى كان فى طاعة الموحدين . وعندما بلغ عبد المؤمن الخبر بعث إليها عسكرياً من الموحدين تحت قيادة يحيى بن يغمور . وعندما وصلت لمجدة ابن يغمور إلى قرطبة اضطر العدو القشتالى إلى الإفراج عنها ، وفك الحصار - بعد أيام قليلة . وعقب ذلك هادر الشوار إلى ابن يغمور يطلبون منه الوساطة فى طلب الأمان من عبد المؤمن . وقام يحيى بن يغمور بترتيب زيارتهم إلى مراکش .

(١٤٢) قرطبة (ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٥ .

(١٤٣) كتاب العبر ، ج ٦ ص ٢٣٥ - حيث ينص ابن خلدون ، على أن قبر يحيى بن غانية بها (قرنطة) معروف لهذا العهد فى أواخر القرن الثامن هـ / ١٤م ، وانظر روض القرطاس ، ص ١٩١ - سنة ٥٤٣هـ / آخر ١١٤٨م حيث فتح قرطبة التى ملكها الموحدون بقيادة من واليه يحيى بن على ابن غانية الذى خرج معها إلى قرنطة ليكلم عاملها اللمتونى فى فكيفها للموحدين ، إذ كان هو قد سكنه من قرطبة وقرمونة ، فتوفى بقرنطة يوم ٢٤ شعبان سنة ٥٤٣هـ / ٩ يناير ١١٤٩م . ودفن فى القصبة بازاء قبر باديس بن حبوس وقارن ما سبق ٤٧٨ وهـ ١٢٦ .

فساروا إلى هناك ، حيث استقبلهم الخليفة وصفح عنهم . وفى نفس سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ملك عبد المؤمن مدينة جيان وخطب له فيها (١٤٤) .

لقاء كيبير مع أهل الأندلس فى سلا سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م ،

وهكذا كانت وفود الأندلس تترى للقاء الخليفة عبد المؤمن فى مراكش العاصمة ، تمهيداً للقاء كبير يتم بينه وبينهم فى رباط سلا ، القريب من العدو . وفى سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م تهض عبد المؤمن إلى مدينة سلا (١٤٥) .

وهناك بدأ الأعمال الأولية التي ستمهد لقيام مدينة رباط الفتح فى تلك المنطقة من مدينة سلا أو شلة القديمة . وكانت أول الأعمال التي بدأ بها عبد المؤمن هناك ، هو إمداد المنطقة بالماء الجارى ، الذى أخذ من عين غبولة حتى وصل إلى قرب سلا فى المنطقة التي حددت لبناء رباط جديد - لجهاد برغواطة وليس للجهاد فى الأندلس (١٤٦) .

ومن هناك استدعى أهل الأندلس ، فوفدوا عليه وبايعوه جميعاً بالخلافة . وفى تلك البعثة العامة تعهد الثوار من الزعماء الأندلسيين بالانخلاع من الأمر . وهناك تعدد الرواية الخلدونية من هؤلاء الأمراء :

- سيد رأى بن وزير صاحب باجه وباهره .

- يوسف البطروجى صاحب لبله .

- أبو الغمر بن عزون صاحب شريش وزندة .

- (محمد) بن الحجام صاحب بظليوس .

- عامل بن مهيب صاحب ظلييرة .

(١٤٤) روض القرطاس ، ص ١٩١ .

(١٤٥) ابن خلدون - ج ٦ ص ٢٣٠ .

(١٤٦) روض القرطاس ، ص ١٩٢ ، (سنة ٥٤٥) .

وتنص الرواية بعد ذلك على تخلف ابن قسي وأصحابه من أهل شلب عن حضور هذا الجمع ، فكان ذلك سببا لقتله فيما بعد.

ومن المهم الإشارة إلى أن وفد أمراء الأندلس هؤلاء كان يصحبهم من رجال الحاشية «نحو من ٥٠٠ (خمسمائة) «فارس» ، من: الخطباء والفقهاء والقضاة والأشياخ والقواد» وكان في استقبالهم ، على مسافة ميلين ، ٣ (ثلاثة) من كبار رجال الدولة ممن يحملون لقب الوزير ، حسب رواية القرطاس ، وهم : أبو إبراهيم (سليمان بن ابيجيج) وأبو حفص (عمر الهنتاتي) و(أبو جعفر) أحمد بن عطية الذي يصفه النص أيضا ، بالفقيه الكاتب - فكانه الوزير الحقيقي ، باعتبار الشبختين الكبيرين الآخرين وزيري شرف - على ما نرى (١٤٧) .

وبعد ضيافة فاخرة لمدة ٣ (ثلاثة) أيام ، «أنزلوهم (فيها) خير نزول» وأدخلوهم على الخليفة عبد المؤمن ، وذلك في يوم الجمعة من أول شهر المحرم لسنة ٥٤٦هـ / ٢٠ أبريل سنة ١١٥١م حيث بدأ مهرجان الخطابة والشعر بتلك المناسبة التاريخية التي انعقد فيها رباط «التوحيد» بين العدوتين (١٤٨) .

وعندما رجع عبد المؤمن إلى مراكش ، وحضر أهل الأندلس ، استهفي هؤلاء الزعماء الشوار واستصحبهم معه إلى مراكش ، فلم يزالوا هناك بحضرته ، إلى ما شاء الله (١٤٩) .

ما بين فتح افريقية وضبط الأندلس :

والهم هنا هو أن عبد المؤمن انشغل في وقت واحد بكل من الأندلس المهددة من العدوين : الداخلي المتمثل في الشوار ، والخارجي المتمثل في الطغاة (أعداء الإسلام) ، ومع أنه كان قد قرر البدء بتوحيد الثراب المغربي في افريقية (الجزائرية -

(١٤٧) انظر روض القرطاس ، ص ١٩٢ .

(١٤٨) انظر روض القرطاس ، ص ١٩٢ .

(١٤٩) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٥ .

التونسية) ، الا أنه ظل حريصا على التمسك بأهداف الأندلس - وكأنه يولى الجهاد الحقيقى هناك أهميته الأولى - وهو الأمر المقبول.

وهكذا بدأ عهد المؤمن حملته الافريقية سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م بالخروج من مراكش إلى سبتة ، وكأنه يقصد المجاز ، كما فعل فى السنة السابقة (٥٤٥هـ / ١١٥٠م) . وأثناء مقامه فى سبتة كان يموء فيسأل عن أحوال الأندلس ، لكى يدخل الجزائر بعد ذلك على حين غفلة حتى لا يعرف مقصده (ماتبقى ، ص ١).

غارة على المرية المحتلة:

والمهم أنه اذا كان عهد المؤمن يوجه كل قواه البرية إلى المغرب الأوسط فإنه كان يستعين بالمتعاطفين معه من الأندلسيين والمرابطين ، كما كان الحال بالنسبة لبيحى بن غانية الذى كان يرسل إليه رسالة رسمية من إنشاء الوزير ابن عطية ، يطلب منه فيها الدخول صراحة فى طاعته ، مما سبقت الإشارة إليه (ماتبقى ، ص ٤٧٧) ، فإنه كان يشجع رجال الأسطول الأندلسيين بصفة خاصة ، على الانضمام إلى الموحدين ، الأمر الذى كان يساعد على مواجهة القوى البحرية المعادية ، سواء كانت مرابطية أو أسبانية فوجية ، كما كان الحال فى المرية التى كانت مستعمرة فرنجية . إسبانية منذ سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م.

وهنا يرجع الفضل إلى أحدي الرسائل الموحدية التى اكتشفها الأستاذ «أ. ليفى - بروفنسال ، وهى الرسالة الخامسة - الموجهة إلى طلبة سبتة - والتى تقدم معلومات تفصيلية دقيقة عن غارة قامت بها وحدة من الأسطول الموحدى الناشئ ، بقيادة «الطالب» : أبى محمد عبد الله بن سليمان ، وإلى غمارة وسبتة وقتل ، وبمعونة رجال أسطول سبتة ، وذلك فى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م ، ضد مرفأ المرية . فلقد اجتاز الغزاة بكل من مرفأى : مالقة والمنكب . فلما رأوا من أهلها الامتناع والاستعداد للدفاع ، قصدوا المرية ، وصبحوها بكرة باكرة ، فوجدوا أهلها قد استعدوا لهم ، وذلك بتسليح مراكب البضائع التى لم يكونوا قد استطاعوا تفريغ حمولتها.

وعندئذ لجأ الموحدون إلى قطع الحبال التي كانت تربط تلك المراكب المعروفة بالشخاتير ، بالبر ، وبدأوا في سحبها . وعندئذ « لم يجد أعداء الله غيائنا إلا بالمبادرة إلى الترامي في الماء ... فاقترفى الموحدون آثارهم بالقتل . وهكذا تمكن الموحدون من دخول باب المدينة آمنين وبعد جولة اخترقوا فيها شوارع المدينة وطرقوا « منشآت الكافرين » حتى وصلوا إلى قرب المسجد الجامع ، « فأخذوا على بركة الله في الانصراف إلى قطاتعهم وأحتسوا على ما كان بالمرسى من الثغراب والشخاتير (مراكب الشحن) ، وحرقوا ما لم يكنهم جلبه ... وشنموا من تلك الآلات الحربية ما أتى الوصف على ذكره . هذا ، مع الإشارة إلى ضرورة منع المسلمين من التعاون مع الأعداء في المدينة والمتاجرة معهم (١٥٠) .

تعيين أولاد عبد المؤمن عبد المؤمن على ولايات المغرب

الافصى والاوسط:

وبعد فتح إفريقية وأخضاع عربها عاد عبد المؤمن إلى مراکش في السنة التالية ٥٤٧هـ / ١١٥٢ م . لكي يوطد ضبطه لأفريقية عن طريق تعيين أولاده ولاية لعوام البلاد ، وتزويدهم بالمستشارين من الوزراء الحكماء والقواد الكفاة . على الوجه الآتي :

- فاس : وعقد عليها لابنه السيد / أبي الحسن ، على ، واستوزر له : يوسف بن سليمان .

- تلمسان : وعقد عليها لابنه السيد / أبي حفص (عمر) ، واستوزر له أبا

(١٥٠) انظر بروفنسال ، رسائل صرحدية ، الرباط ، ١٩٤١ ، ص ١٠-١٣ ، والدراسة (بالفرنسية) - مكتبة لاروز ، باريس ، ١٩٤٢ ، ص ٢٥-٢٦ ، وقارن روض القرطاس الذي يحدد سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١ م ، ولكنه يخلط ذلك مع حملة استرجاع المرية سنة ١١٥٢م ، وانظر ابن الأثير الذي يحدد سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١ م ... وان جعل العنوان حصر غرناطة والمرية . وانظر دراسة بروفنسال الذي يحدد التاريخ ما بين ٥٤٣هـ / ١١٤٨ م و ٥٤٦هـ / ١١٥١ م .

محمد بن وانودين.

- صبة : وعقد عليها لابنه السيد/ أبي سعيد (عثمان) ، واستوزر له : محمد بن سليمان.

- سحاية : وعقد عليها لابنه السيد/ أبي محمد عبد الله ، واستوزر له : يخلف بن الحسين (١٥١).

ولاية العهد :

هذا ، كما قرر عبد المؤمن أن يتخذ من أسن أولاده ، وهو الأمير : السيد أبي عبد الله محمد ، وليا لعهد ، بمعنى استقرار أمور الدولة المرحدية ، باستكمال أحكامها السلطانية ، بما يعنى قواعدها الدستورية أي الديوانية ، كما يقال الآن.

بنو أمغار أخوا المهدي والموقف من التعيينات الإدارية :

ومن المهم هنا بيان أن استكمال الدولة الموحدية المؤمنية لدواوينها ، من تنظيم إدارة الولايات عن طريق تعيين السادة الأمراء من بني عبد المؤمن ، ومن ثم منصب ولي العهد (الذي كانت له ولاية الأندلس على عهد المرابطين) والذي آل إلى أكبرهم سنا ، وهو السيد/ أبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن ، كان سببا في نكس بعض الجروح المتصلة بالنسبة لآل المهدي ابن تومرت ، من : الأخوة وحتى أبناء العم . فقلقد أدت تلك التعيينات أو الإجراءات النظامية الخاصة بإقرار قواعد الدولة الموحدية المؤمنية ، إلى تغير ضmann أخوي المهدي ، وهما : عبد العزيز وعيسى ، اللذين كانا قد خرجا من الأندلس بعد إثارة الكثير من المتاعب في اشبيلية وأعمالها حتى أجبرا - على مضض - على الخروج منها ، بل الجواز - بصعوبة - إلى العدو المغربية . ورغم ما تقول الروايات الخاصة بأخوي المهدي - بشكل عام - من أنهما جازا مع قريبيهما يصلاتين ، إلى مراكش ، إلا أنه من المعروف - وثائقيا - أنهما أجبرا

على الإقامة القسرية في فاس لبعض الوقت قبل أن يقرأ إلى حضرة مراکش ،
مضمرين الغدر بها .

اللاحاق بمراكش وقتل التوالمى :

واذا كانت الروايات الخاصة بأخوى المهدي تبدو مبتسرة فى كثير من المصادر ،
فإنه يرجع الفضل إلى رواية البندق فى تقديم تفصيلات الغدر بحضرة مراکش -
وهو الأمر الذى توثقه رسالة موحدية ، هى الـ ١١ (الحادية عشرة) من مجموع
بروفنسال - وهى مؤرخة بما بعد فتح بجاية سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م . فلقد هرب بنو
أمغار من فاس إلى مراکش ، وأخير وإلى فاس : الجبائى (أبو محمد عبد الله بن
خيار) الخليفة عبد المؤمن بمنزله من سلا بهرويه من فاس إلى مراکش . وهناك نزلوا
بيستانهم (بحيرتهم) بباب الدباغين ، من حيث وجهوا إلى أخوتهم المناققين فخرجوا
إليهم . وفى وقت السحر قصدوا المسجد حيث اعترضوا نائب الخليفة على مراکش ،
وهو القائد : عمر بن تفراجين ، وطلبوا منه مفاتيح الأبواب ، فلما امتنع قتلوه .

وقام أهل المدينة على صرخ استغاثة مؤذن المسجد من أعلى الصومعة ،
وحصروا الثوار داخل الأسوار ، ولجحوا فى قتل عبيدهم ، ومن ثم قتل هيد العزيز
عند باب الدباغين ، وقتل عيسى عند باب أغمات هيلانة ، هذا كما قتل كاتبهم
(وزيرهم) عند باب أغمات وريكة ، وأخذ منه الخرج الذى كانت فيهم دواوينهم
وكتبهم وقامت العامة بعد ذلك بصلبهم أعلى باب الشريعة .

هذا ، وكان عبد المؤمن قد أرسل وزيره الشهير أبو جعفر أحمد بن عطية ليسبقه
إلى مراکش قبل أن يستشرى الأمر . وعندما وصل عبد المؤمن ووقف على حجم
المؤامرة الكبيرة ، عن طريق قراءة أسماء المشاركين المسجلة فى الكتب ، بدأ مطاردة
المتأمرين وإنزال العقوبات الرادعة بهم ، فكانت بداية لعملية تمييز جديدة أو
تفتيش (١٥٢) .

التمييز أو التطهير

والمهم بعد ذلك أن حركة أخوى المهدي التي عرفت بحركة بنى أمغار أى بنى الشيخ نسبة إلى تومرت والد المهدي ، تطلبت إجراء حركة تطهير - مما عرف

(١٥٢) انظر البيدي ، ١١٢-١١٣ ، وقارن الرسالة رقم ١١ مجموع الرسائل الموحدة ، ص ٢٨ وما بعدها حيث : ... الأشقياء فلان وفلان وأصحابهما كانت نفوسهم الخبيثة نائمة على لذاها ، ولم تزل بعد الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم - رضى - من أهل هذا الزمن يحملهم فى حجر الكفالة والكفاية ... وتأخذ بأيديهم وهم يحزون على وجوههم... ونرى وصل أرحامهم التى قطعناها شقارتهم من جملة ما يجب للمهدي - رضى - من الحفظ والرعاية ، وهم خلال ذلك أغماراً يقهسون ... وهمل يرددون التصرف فى المنكرات ما يشاؤون ويشتهون ، ذابهم استخلاص الفسقة واستصحاب الخلوة من حشالة الناس... ونحن نرجو أن شعب الجنون من شباههم تسكن ، ومستأنف الأحوال من قبيح أدايهم محسن .. وسابق الشقاء مع ذلك يستتبع المراجعة ... وحمل أراهم المنتومة وحوادثهم المذمومة .. حتى انتبذوا عن أمر المهدي... وكلما ارتفعت استأنفهم إلى أطوار الكهولة ... اجتهازهم شيطانهم إلى غضب الجور والنعول ، واقترب بهم من قرناء الرجس وشيطان الإنس.

ومع ما كان الأمر يتوسع لهم من الأرزاق النعمة والخيرات المتممة والمنازل المكرمة والحيل المسومة فلم يكن مستطابهم إلا غلواً يحترقون بناره ويتطرقون بهاره .. حتى تفاحش منكرهم ... فلما أشرف على دأهم الإعياء هجروا قصد التأديب .. ومع أنهم أظهروا القوة إلا أنهم عادوا إلى الإنحراف .. ولم يجد هجرهم مرة بعد مرة إذ استمر تخبطهم فى مسالك العطب. ودعائهم للناس فى السر إلى اعتقاد مذهبهم .. على أستار واحتجاب. والأشقياء المذكورون لا يرون الإحسان إحساناً .. وسمرم الغل قش فى أعضائهم وتتدرج .. فلما كانت الفزوة التى فتحت فيها بهجة وسائر هذه البلاد الشرقية ... ثارت كوامن حسدهم تطرق وتنهاب... وسلكوا فى التحريب والتخريب مسلماً لا يشك فيه ولا يرتاب ... وكان الهدف الشقى فلان عمرة كبرى... وأقام فى السجن إلى أن كان الإياب ... فنظر بعين الله فى أطفاله نورهم قبل اشتغالها ... وقتل فلان بنى فلان .. وأخذت على الكفرة والفجرة سخارج الجبهات ، وتقبضت على الباقين منهم يد الأسر بعد الاتحان وشدة الوثاق ... واقتضى الإبقاء والإملاء فى الشقيين الباقين فلان وفلان وتأخذهما بقدر الله .. على ثيقن من فسادهما .. وارتابدهما... (وأخيراً) أرسلنا من عقاب الاعتقال . واختير لهما سكن فاس وأمرهم بما =

بالتمييز في مثل تلك المناسبة . وفي ذلك تقول رواية ابن هذاري ، إن عبد المؤمن تتبع أصحاب الناكثين في العاصمة مراکش ، وأنه ألفاهم كثر من كل قبيل ، وأنهم سجنوا بعد اقارهم ، وأمر أبناء كل قبيلة بتولوا قتل إخوانهم بأيديهم . وتم ذلك في حضرة عبد المؤمن الذي جلس على الدرج في أعلى قصر الحجر ، وإذا كانت ترتبت على تلك الفتنة آثار سلبية على جماعة الموحدين من السعاية بالفتنة والنميمة والوحشة ، فلم يلبث الجميع أن « تراموا على خليفتهم راغبين في العفو وإزالة الكدر ، فقبل منهم ما أملوا وتعطف عليهم على هادته - بما سألوا : وسارت الكتب إلى البلدان بتخاف الموحدين (١٥٣) .

هتقم بهم من المؤسسات والمحترث والجنات .. والافتتان ... وتسلسل إليهم من أشقيائهم متكهين جرى ... عند بيعة رباط الفتح ... اشتعلت لها نار الحسد بين ضلوعهم .. انتهز الفرصة في الحضرة ... اغتيال الشيخ أبي حفص عمر بن تراجين عند خروجه إلى الجامع لصلاة الصبح ... وركبوا خيلهم إلى مصارعهم على أيدي العامة . وقارن ابن خلدون ، ح ٦ ص ٢٣٦ - حيث الإشارة أن أخوي المهدي عندما تغير ضمايرها بسبب ولاية السادة الأبناء دونها ، لحقا هراکش مضمرين للغدر ، وأنهم " أدخلوا بعض الأوفاد في شأنهم . ومن ثم : انقضوا فجأة على قائد قصبة مراکش وهو عمر بن تراجين وقتلوه ، و بكائه من القصة » . والمهم أن الخبر وصل إلى عبد المؤمن الذي أرسل وزيره أبا حفص أحمد بن عطية في أثر عبد العزيز وعيسى اللذين قتلا مع من كان مشاركاً لهما في تلك الجريمة .

أما عن رواية ابن هذاري فتتص على أن المتآمرين قتلوا وصلبوا ، وأن قتل عيسى كان قرب باب الدهاقين ، بينما كان قتل عبد العزيز بباب أغمات مع توضيح أن ذلك حدث بمعرفة الوزير ابن عطية ، بينما كان الخليفة قافلاً في أثره من سلا إلى مراکش ، وإن أخبار الفتنة وصلته على أيدي " الرقاصين " من عمال البريد ، وهو في منتصف الطريق .

والمهم أن عبد المؤمن استكمل القضاء على دابر المتآمرين "بحكم السيف في أولهم وآخرهم" ثم أنه أمر الوزير ابن عطية بكتابة الرسائل الخاصة بذلك الأمر إلى جميع البلدان (ابن هذاري ، الموحدين ، ص ٢٨) .

(١٥٣) انظر ابن هذاري ، الموحدين ، ص ٢٨-٢٩- حيث النص على أن الكتب كانت من إنشاء الكاتب الوزير ابن عطية ، وأنها مؤرخة لسنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م . وقارن البيهقي ، ص ١٦٦ - حيث سلخ عبد المؤمن السوقة وأمر بإخراج المتهمين من السجن ليقتلوا على أيديهم .

استكمال فتح الأندلس

وبعد الاطمئنان على أحوال كل من إفريقية والمغرب ، وما كان قد تمت الهيمنة عليه من بلاد الأندلس ، كان من الطبيعي استكمال فتح الأندلس ، بمواصلة توجه البعوث إليها . فلقد بلغ عبد المؤمن في سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م أن والي إشبيلية ، وهو يحيى بن يغمور كان قد انتقم من أهل ليلة فقتلهم جزاء لهم على موقفهم المتهاون من غدر الشائر الوهبي لبلدتهم . وعندما تأكد من سوء تصرف ابن يغمور عزله عن ولايته كل من إشبيلية وقرطبة وعين بدلا عنه أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي التبنملي على إشبيلية ، وأبا زيد بن بجيت (مكيت) على قرطبة . وأكثر من هذا فقد أرسل عبد المؤمن القائد عبد الله بن سليمان إلى الأندلس ، فأتى يحيى بن يغمور معتقلا إلى حضرة مراکش حيث ألزم الإقامة الجبرية في منزله ، إلى أن فك أسره ، وبعثه مستشاراً مع ابنه السيد / أبي حفص (عمر) إلى تلمسان (١٥٤).

وفي آخر سنة ٥٤٩هـ / ٦ فبراير ١١٥٥م هذه ، وصل ابن وزير إلى أمير المؤمنين ، وأخبره بتسلط العدو ابن الرنك (ملك البرتغال) على الثغور ، وملازمته لهم بقطع زروعهم والإغارة عليهم في بساتينهم . فأمر عبد المؤمن بالكتابة إليهم بعدم بالنصر ، ويعرفهم باستعداده لغزو أعدائهم ، وكذلك برفع الضرائب عنهم . وخاطب بذلك أهل باجة وأهل يابرة ، وذلك بتاريخ ٢٣ من المحرم سنة ٥٥٠هـ / أبريل

(١٥٤) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٣٦ ، وقارن ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٢٩ - حث المريد من التفصيلات عن الغدر بليلة ليلاً وأن بعض أهل ليلة لجأ إلى قصبة الموحدين فأمرهم من عادية الحادثة . وأبن يغمور أنقذ الموقف بسرعة يدحول القصبة وهرب الشقي الوهبي . ومن ثم ظلمهم لأهل البلدة وقتلهم استيذاً برأيه الخسيس اللعين وبترخيص من أبي الفمر بن عرون - وذلك يوم الخميس ١٤ شعبان سنة ٥٤٩هـ / ١١٢٥ أكتوبر ١١٥٤م وكذلك الأمر عن اعتقال ابن يومور بمشاركة برز بن محمد واخذه يوم الفطر من عام ٥٤٩هـ / ٩ ديسمبر ١١٥٤م في قطعة بحرية.

١١٥٥م (١٥٥).

وبفضل تلك الاجراءات الصارمة استقامت أحوال الأندلس . وهكذا ، خرج ميمون بن يدر اللتوني عن قرطبة للمرحدين فملكوها ، وأجاز إليها السيد / أبو سعيد (عثمان) صاحب سبته بعهد أبيه عبد المؤمن ، بينما لحق الملتشون منها إلى مراكش (١٥٦).

النشاط الحربي في أشبيلية وقرطبة :

ويخصص ابن عذاري فقرة خاصة برصول التينمللي (أبو محمد عبد الله بن أبي حفص) ، وأبن إيجيت (أبو زيد عبد الرحمن) سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م إلى كل من إشبيلية وقرطبة ، حيث كان نهض ابن إيجيت مع الموحدين من قرطبة لغزو حصن البطروج وما يليه من الحصون التي فيها الإسبان (النصارى) . وكانت حملة مظفرة تمت فيها هزيمة الكونت (القمط) صاحب بطروج ، ومن ثم استخلاص الحصن من بين برائنه ، بل وتم أسر صاحبه الكونت نفسه ، وسيره خاضعا إلى الحضرة مراكش.

وكانت فرصة غير فيها التينمللي والى أشبيلية عن سعادة بلدته بذلك النصر ، فأمر بضرب الطبول عليه سرورا ، كما استقبل أعيان أهل أشبيلية مهنئين ، الأمر الذي دعا أحد مشايخ الحضرة الى لفت نظر والى أشبيلية الى أنه « لم تجر العادة بأن يحتفل أهل قرطبة بانتصارات أهل أشبيلية ، كناية عن حثه على العمل بدلا من الاكتفاء بالتصفيق ، الأمر الذي تغير له لون أبي محمد المذكور ، وفهم ما أشار اليه (١٥٧).

وهكذا كان على والى إشبيلية أن يقوم هو الآخر بالمجهود الحربي الموازي لنشاط والى قرطبة ، وبدأ الترتيب لحملة الغزو الاشبيلية بالتفاوض مع بزاز صاحب المخزن

(١٥٥) ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٣٠ .

(١٥٦) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٦ .

(١٥٧) ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٣١ .

المستول على الإدارة المالية ، والذي وافق على الجهاد . وبناء على ذلك تم الاتصال بصاحب بطليوس قاعدة الغرب ، وطلب إليه الاستعداد بالعسكر ، وأن يكون على الأهبة للتحرك وقت اللزوم . هذا ، كما انضمت الى عسكر اشبيلية طوائف كثير من المجاهدين المحتسين (المريدين) الذين خرج بهم أبو محمد التينمللى الى بطليوس ، حيث تم اللقاء بعسكرها ، ثم كان الاتفاق على غزو بلاد ابن الرنك (الريق : ملك اليرغال) .

وهكذا بدأ الإسراء لبللا ، عبر قنطرة السيف ، إلى حصن أطرونكس (Trancoso) الذي كان نموذجاً لحسن البنیان والحصانة فى المنطقة ، فتتمت الإغارة على جهاته وجنباة . وتتلخص نتائج الحملة فى نهب المنطقة «حتى امتلأت أبدى المسلمين من نسائهم وأبنائهم ومواشيهم» ، «كما أبيع السيف فى رقاب رجالهم وتقبضوا على أموالهم» . وكل ذلك فى البسائط قبل الوصول الى الحصن الذى صمد أمام الهجوم .

حمية فى الجهاد ،

والمهم أنه عندما أتى أهل المناطق المجاورة من الإسبان ثروت أثارهم وممتلكاتهم أصبحت الحرب سجالات بين الطرفين ، وانتهت الحملة برجوع أبى محمد بعسكره إلى إشبيلية حيث قسم بنفسه عليهم الخمس من الفى . والظاهر أنه قام نوع من التسابق فى جهاد الاسبان بين كل من رجلى إشبيلية وقرطبة ، تم التغلب فيها على بعض الحصون مثل حصنى: منتورا (Montora) والمدور (Almo do'var del Rio) ، الأمر الذى أدى الى استدعائهما إلى العاصمة مراكش لتقديم الحساب عن أعمالهما الجهادية فى منطقة الوسط (القلب) من الأندلس . وكان على المجاهدين : أبى محمد بن أبى حفص التينمللى ، وأبى زيد عبد الرحمن بن ايجيت أن يبايعا عبد المؤمن ، وأن يعرفاه بما تم على أيديهما من الانجازات ، وخاصة الجهادية منها - إلى جانب رعاية أهل الأندلس ، والتأكيد على نصرة الخليفة لهم (١٥٨) .

وكان من بين الطالع بالنسبة لوالى اشبيلية وقرطبة أن اتت الأخبار تترى بتوحيد أهل غرناطة ، ومن ثم فتحها . ومن ثم توالى البشائر ، التى زادت بقبول عبد المؤمن طلب تشريف العاصمتين الأندلسيتين بسيد من الأبناء ، بشرق على أمور الحكم ، الأمر الذى توثق برغبة الشيخ أبى بكر بن الجذ ، قصدت الأوامر بتعيين السيد / أبى يعقوب (يوسف) أميراً وقائداً لكل من اشبيلية وقرطبة (١٥٩) ، فكأنه البشارة بتقدمه بين السادة : الأبناء ، ومن ثم تقديمه إلى ولاية العهد ، كما يأتى فيما بعد (ص٥٤٣).

توحيد غرناطة ١

أما عن أهل غرناطة ثالثة الأتافي ، بعد اشبيلية وقرطبة ، فعندما اتصل بصاحبها ميمون بن يدر اللمتونى ماحققته كل من اشبيلية وقرطبة من فتوح فى أرض العدو ، فإنهم «جزعوا من انفرادهم وقلة أعدادهم ، فخاطبوا الحضرة راغبين فى الصلح نظير العفو عنهم ، فقبل منهم» . وأمر عبد المؤمن ابنه أبى سعيد (عثمان) والى سبتة ، وأمير البحر أبى محمد عبد الله بن سليمان بالإجابة ، فأجاز الأخير البحر إلى الجزيرة الخضراء ، ومنها نهض إلى غرناطة من حيث عاد بن كان بها من الملتصين . أمثين فى نفوسهم وأهليهم وأموالهم وبنيتهم ، ووصلوا فى صحبته إلى الحضرة مراکش حيث أنعم عليهم بالديار والأموال ، وعاشوا فى الاستقرار . وبعد ذلك أضاف عبد المؤمن إلى ابنه السيد/ أبى سعيد ولاية غرناطة إلى جانب ولاية سبتة ، فأجاز البحر إليها بجمع من الموحدين والجنود المرتزقة ، وبأمر إليه هناك عدد من الشوار المجاورين ، مثل: أبى مروان ابن سعيد وبنيه ، وأبى جعفر بن ملحان وغيرهم (١٦٠).

(١٥٩) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٢ .

(١٦٠) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٣ .

تحرير المرية سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م :

والمهم أنه بعد أن سيطر الموحدون على غرناطة كان عليهم أن يوجهوا أنظارهم نحو ميناء المرية ، قاعدة الأسطول وغزة البحر الاندلسيين العتيدة ، من أجل تحريرها من نير الحكم الفرنجي الإسباني الذي وقعت تحته منذ سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٨م ، من حوالي عشر سنوات ، حينما هاجمتها جحافل حلف ، من: القيصر الفونسو ٧٢١ (السلطين) ، والكونت غليوم صاحب مونيبييه ، وبمشاركة قوات من برشلونة وكتالونية وجليقية (غاليسيا) وأشتوريش وناقارا ، وذلك في نفس الوقت الذي سقطت فيه لشبونة (أشبونة) بين يدي ملك البرتغال الذي كان يقارع قوات ابن قسي وأصحابه من المريدن ، ويعونة من الفرسان الصليبيين الذين قدموا من فرنسا على وجه الخصوص (١٦١).

فبعد استقرار السيد / ابي سعيد (عثمان) في ولاية غرناطة ، حتى فكر جدبا في استرجاع المرية اعتبارا من سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م . فلقد نهض العسكر الموحدى، وكمن على مقربة منها إلى نصف النهار ، ثم إنهم خرجوا وأغاروا على باب المرية ، وقتلوا من النصارى الفرنج (الاسبان) عددا كثيرا ، ورجعوا من غارتهم هذه الى حصن برج (Berja) فبادر أهل الحصن للقاء الموحدن ، وقالوا لهم : ان النصارى بقصبة المرية في عدد قليل ، فنزلوا من برجة وهاطبوا السيد ابا سعيد بأغرناطة بمقالة أهل برجة . ووصل السيد / أبو سعيد (عثمان) الى المرية ونازلها ، وضيق عليها بالمجانيق ، فاستغاث من كان في القصبة بقومسهم (الكونت) الفونس (اذفونش) ، فوصلهم بعسكره الذميم ، ووصل معه حليفه ابن مردنيش معينا له ، فلم يجدوا سبيلا الى القصبة ، ولا للدخول عليهم. «فنزلوا على بعد ،

(١٦١) انظر يوسف اشياخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عتات ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ - حيث الإشارة إلى رواية كوند المرية التي لا يعرف الآن لها أصل.

وعلى حال خزي لا يقدر لهم على شيء». وكان في جملة الموحدين أحمد بن ملحان الشائر هوادي آش مع من وصل من السوار المجاورين لأغرناطة ، معينا برجاله وفرسانه ، فجري بينه وبين أبي محمد بن سليمان منازعة ، فأنف من ذلك ، وارتد ابن مردنیش إلى الفونس الـ ٧ ، وعلق بعسكره.

ولما عجز الفونس الـ ٧ وابن مردنیش عن معونة الفرنج الأسبان أقلعا واقتربا ، فراجع «الاذفتش» خاسراً ، وعظم عليه الأمر حتى أنه مات في نفس السنة . وعندما عرك السيد / ابو سعد عثمان ، صاحب غرناطة ، أباه الخليفة بذلك ، فأمر ان يتوجه «الوزير أبو جعفر أحمد ابن عطية وبصحبته الأمير السيد. أبي يعقوب يوسف ، والى اشبيلية وقرطبة إلى الأندلس ، يرسم المسير إلى المرية وانزال المحتلين «النصارى» من قصبتها ، على شرط الأمان - دون تعسف فإذا كمل هذا عادا الى اشبيلية (١٦٢).

(١٦٢) انظر ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٣٣ . وقارن روض القرطاس ، ص ١٩٣ (سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥١ م - حيث بنى السيد عثمان على معقلته سوراً أحاط بها فاستنقذت النصارى بالفش وابن مردنیش فلم يملكهم اعائتهم ... فحصر السليطيين على أبذة وبياسة . ولزم لسيد / عثمان على حصار المرية حتى فتحها وأنزل منها النصارى صلحاً بالأمان على يد الوزير الكاتب أحمد بن عطية . وقارن رسائل موحدية ، نشر بروفنسال - الرسالة ١٦ في فتح المرية وبياسة وأبذة من إنشاء أبي عقيل بن عطية - حيث أهمية المرية من حيث كونها ناظمة بين الجهات لشرقية والغربية ورابطة بين البلاد البرية والبحرية ... واقتحموا ... أبواب المرية .. واستولوا عليها ... ببركة هذا الأمر ... ولم يبق للمشركين الا من انحصر في القصة فرأى من العلية . ابن مردنیش نهض بجملته اليانسة ... واستصرح بالسليطيين (الذي سار بجمود بنفسه ويتطارح على رصمه المحاصرون في القصة يادروا إلى أبذة (دخلها الموحدين) وبياسة ... والآن - وفقكم الله - قد استراحت الأندلس من دائها العصال ، واستباححت حمى الكفرة - كتب في العشر الأول من شعبان المكرم سنة ٥٥٤ هـ / أوائل سبتمبر ١١٥٧ م - الترجمة والدراسة ، ص ٣٩ .

السيد يوسف وإلياء على أشبيلية ،

أما عن تولية السيد / أبي يعقوب يوسف لأشبيلية فتم في سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م بناء على رغبة أهلها ، وبطلب صريح من الفقيه ابن الجذ. ولما وصل يوسف إلى ولايته هذه ، بدأ أعماله الجهادية بغزو طيبرة (Tavira) من مدن البرتغال ، وكان الشائر فيها هو علي الوهبي فحصرها في البر والبحر ، وذلك عندما رجع الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية من مدينة المرية ، ونزل النصارى (الاسبان) من قصبتها على الأمان (١٦٣).

ابن عطية يصالح الوهبي ،

والمهم أن الموحدين أقاموا مدة شهرين ، من أول عام ٥٥٢هـ / فبراير - مارس (ربيع) ١١٥٧م ، وهم يحصرون طيبرة ويقاتلونها ، وذلك في الوقت الذي بدأت تنثر الأنباء من العاصمة مراكش بالمطالبة لابن عطية (الوزير) في مجلس الخليفة . وأمام القلق المضى الذي أصاب الوزير ، ورغبته في الانصراف بعدما بلغه من الوقوع في جانبه هناك ، قرر المصالحة مع الوهبي والقبول منه بذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة. وعندما تم ذلك عاد السيد / أبو يعقوب يوسف إلى أشبيلية بعدما استولى على بلاد ابن وزير ، وقدم على شلب وبلاد الغرب ، يعقوب بن جيسون الهزرجي ، ووجه معه الحفاظ من الموحدين ، «فكمل القبض على بلال ابن وزير ، والعزل بأهدع تدبير» (١٦٤).

ونى تلك الحملة ملك الموحدون مرتلة (Mertola) بطاعة صاحبها تاشفين

(١٦٣) ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٣٣-٣٤ ، وقدرن ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ - حيث: ويرجع الفضل إلى الموحدين في استرجاع مياء المرية من ايدي النصارى ، من. الاسبان والايطاليين والفرننج ، وذلك على يدي والي غرناطة السيد / ابي سعيد عثمان الذي أنزلهم منها على الأمان. وإن تطلب الأمر حضور الوزير ابن عطية بعد أن أمدهم ابن مرتيش الشائر بشرق الأندلس ، وحليفه الطاغية ملك قشتالة ، فمجزوا جميعا عن الدفاع عنها .
(١٦٤) ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٣٤ .

اللمتوني ، وذلك في يوم الخميس ١٨ جمادى الأولى سنة ٥٥٢هـ / ٢٩ يونيو ١١٥٧م (١٦٥).

هزيمة زغبولة ،

وهكذا بدأت الأمور في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م بداية طيبة ، مع أول ولاية السيد / يوسف لاشبيلية ، فلم يعكر صفوها الا في ربيع الاول من نفس السنة (ابريل -مايه) ، عندما أملت الهزيمة بالموحدين بقيادة نفس الأمير ، في منطقة زغبولة ، على مقربة من اشبيلية ، وذلك على ايدي النصاري البرتغاليين الذين نزلوا في نظر اشبيلية وغمصوه.

وأمام ذلك التحدى أمر السيد يوسف القائد : ميمون بن حمدون ، والى منطقة الغرب ، بحشد العساكر من شلب ومن البلاد التي كانت بيد ابن وزير. وانظاها ان العجلة في المسير الى مواجهة العدو كانت على حساب حسن الاستعداد للحرب. فعندما تمت المواجهة ، تقول الرواية ان الأمير يوسف استعجل الحرب بعسكر اشبيلية ، ولكن اللقاء انتهى باجفال الموحدين وانهزامهم بل وباستشهاد عدد من كبار القواد ، منهم : ابن عزون ، ومحمد بن علي الحجام ، وميمون بن حمدون ، صاحب الغرب نفسه.

وكان من حسن الطالع ان لحا الأمير يوسف بفضل الدليل المحنك الذي أخرجه من

(١٦٥) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٤ - حيث النص على أن مرتلة تعتبر أول بلد خرج عنها الملتصون ، وآخر بلد ثار فيها المرتدون على الموحدين. وتنص الرواية على أنه لما وصل السيد / أبو يعقوب يوسف إلى طيبرة ونازلها ، وفد عليه أشياخ بني ودير ، وفي جملةهم الشاعر الأديب : أبو بكر بن المنحل ، فقال يمدحه ويتغزله في قصيدة أولها :

أفدك أم قص من الهان أحيف	ولخطك أم سيف من الهند مرهف
فقالوا أغزو ! قلت لاشك أنه	فقالوا فمن يقزو العدى قلت يوسف
سليل أمهر المؤمنين وكفه	وصارمة العضب الذي يتخوف .

(ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٤).

الملحمة متكرراً في الفيار «فطار به أى مطار» ، بينما فر ابن وزير بجواد معار من أحد قرابته ، وأسر من عامة اشبيلية بشر كثير (١٦٦).

والمهم هنا ما تقولوه الرواية من أنه عندما وصل عبد المؤمن خبر تلك الهزيمة «نظر في استجلاب العرب ، وحماية الجزيرة من الحرب والنوب».

سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م : عام ابن عطية ،

لما كانت المطالبة للوزير الكاتب الشهير : ابو جعفر أحمد بن عطية قد بدأت مع بداية سنة ٥٥٢هـ / فبراير - مارس ١١٥٧م فلا بأس من اعتبار تلك السنة من حوليات المغرب والأندلس هي سنة ابن عطية ، وذلك تكريماً للرجل العظيم الذي بدأ بداية غامضة في سلك العسكر من الرماة في بلاد السوس سنة ٥٤٢هـ / ٨-١١٤٧م ، والذي انتهى أيضاً نهاية غامضة ، وهو في أعلى علمين ، يشاهد الأفلاك وعوالم النجوم . وهو إن هبط من علم ، على يدى عبد المؤمن بن علي ، حل محله أخو أخت عبد المؤمن لأمه ، وهو عبد السلام الكومي ، الذي لم تشفع له هو الآخر تلك القرابة القريبة ، فكانت الوزارة بكل أوزارها ، هي السبب المباشر في هلاك القريب المدلل . الذي كان يرجى منه شد الأزر ، وليس ارتكاب الوزر.

فعندما رجع أحمد بن عطية بعد عيبة طويلة عن العاصمة مراكش ، في بلاد الأندلس ، وجد أن حاله قد تغيرت ، وإن عبد السلام الكومي قد استكفأ بالحال ، وانتضى سيفه لمطالبته بأعظم نصال . فقد أحضر ابن عطية إلى المسجد الجامع بجانب دار الحجر ، وهو حاسر الرأس ، قد أزال عمامته بالأمر عن رأسه ، وقد جمع الناس له وسئلوا عن أحواله ، في حضرة أشياخ الموحدين ، والطلبة ، وأهل الأندلس . وفي ذلك قال كل إنسان بحسب دينه وعقله ، حتى وصل السؤال إلى ابن وزير فقال :

أعطاني فوق ما أعطيته أضعافاً . وسيدنا لو جعل بينه وبيننا عبداً حبشياً

يوصل له كلامنا لعظمتاه وهدينا. فكان كلامه سببا لرفع السؤال عنه في هذا المجلس. وهنا تقول الرواية ان ابن عطية أخرج إلى موضع اعتقاله فكان آخر العهد به ، وذلك في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م ، ثم أنفذ فيه وفي أخيه حكم الله ، فأخرجا من سجنهما وحملا إلى جبل ، وقتلا بموضع تاجموت ، قرب الملاحة . يوم ٢٩ صفر من سنة ٥٥٣هـ / ١٥ أبريل ١١٥٧م.

وفي فضائله قيل : طرق المكارم واجتناب المحارم ، والتذاذه بقضاء المسائل ، وتلطفه في توصيل المرغِب ، من مضطر وسائل ... أما عما نسب إليه (من السلبات) ، فهو: كشف السر ، وصحبة أعداء الأمير. وفي غدر الإخوان ، قيل: كان أعظم الناس مطالبة له ، مروان بن عبد العزيز ، ثائر بلنسية ، على حسن ماسعى له ابن عطية ، حتى خلّصه من سجن ميورقة ، فقد قال فيه شعراً يحرض فيه على قتله ، والايقاع به ، ومنه :

قل للإمام أدام الله مدته قولا تبين لذى لب حقائقه

إن الزاجين قوم قد وترتهم مطالب الثأر لم تؤمن بوائقه

وللوزير إلى أرائهم ميل لذاك ما كثرت فيهم علاقته

فبادر الحزم في إطفاء نورهم فرما عاق عن أمر عوائقه (١٦٧).

وحسب رواية ابن داودوش التي يوردها ابن عذارى أيضا (الهامش السابق) ، فإن ابن عطية حبس مدة (ثم إن عبد المؤمن اقتاده معه عندما سار لزيارة المهدي ،

(١٦٧) انظر ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٣٧- حيث : وعن ابن عطية يحكى ابو عبد الله بن داودوش:

سئل ابو العباس الجراوى عن الوزير الكاتب أبى جعفر (أحمد) بن عطية . فقال فى سبب الاياع به: اختلف الناس فى ذلك، والأشهر أنه خرج بسر أوثره . وربما كان ذلك السر خاصا بالصحرأوى أخى زوجة ابن عطية الذى ثارت الريبة حول صدق طاعته للموحدين فكان تحذير ابن عطية له بل ونصحه بالسير إلى بني غانية - أعداء الموحدين من المثلثين - فى جزيرة ميورقة - انظر ماسبق ، ص ٥٠٣ .

ربما ليستخير الله في ابن عطية ، في المزار المبارك ، ثم دفع إلى رجل من كومية يعرف بيوسف بن عبد المؤمن ، فحمله إلى موضع يعرف بتبليسكت من طريق تينمل (طريق العودة) ، فقتله بذلك الموضع بأشياء غير محصلة (١٦٨).

هذا ، ويظهر من تلك الرواية السابقة ان أكبر أسباب الإيقاع بابن عطية ، هو حقد خليفة الكاتب الوزير المقرب : عبد السلام الكومى الذى أمسك ماكتبه ابن عطية استعظافاً لعبد المؤمن نظماً ومنه:

عظفا على أمير المؤمنين فقد	بان العزاء لفرط البث والحزن
قد أغرقتنا ذنوب كلها ليج	ورحة منكم أنجى من السفن
وصيبة كفراخ الورد من صفر	لم يألوا النوح فى فرع ولان
قد أوجدتهم أباد منك سابقة	والكل لولاك لم يوجد ولم يكن

ونشراً ، ومنه :

قاله لو أحاطت به كل خطيئة ، ولم تنفك نفسى عن الخيرات بطيئة حتى
سخرت بالوجود ، وأنفت لآدم من السجود ، وأبرمت لخطب الخليل جبلا ، وأبريت
بمده إلى ثمود نبلا ... واغتريت على العذراء الهتول وقذفتها ، وقبضت قبضة من
أثر الرسول فنهذتها ... لقد آن لقاتلى أن تسمع وتغفر لى هذه الخطيئات أجمع؛
فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا يحمل قلوب هَذَا الخفقان (١٦٩).

(١٦٨) ابن هذارى ، المردود ، ص ٣٧ .

(١٦٩) ابن هذارى ، نفس المصدر ، ص ٣٧ ، وقارن ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ص ٢٦٣
(عن نهايته حيث علاج شبابه وبدايته مع رماة جيش الموحدين الذى كان يقاتل الماسى الثائر
بالسوس ، وكيف تم اكتشافه بعد أن كتب رسالة رائعة أعجبت عبد المؤمن فاستخدم كاتبها
وزيرا) ص ٢٦٤ (عن محنته حيث الإشارة الي غزو النصارى قصبة المربة ومشاركته فى
حصارها مع السيد/ أبو يعقوب يوسف والى أشبيلية ، كما نجح فى استنزال المحتلين من
النصارى منها وعلى العهد بحسن محاولة ، وكما شارك فى حرب الثائر الوهبى ، ومن ثم

وبصرف النظر عن صحة الرواية أو خطئها. فإن المقد الأديبى الذى يقرر «وكان ماكتبه ابن عطية حرى بعفو الخليفة عنه» ، قد يلتبس فى نفس الوقت شيئا من العذر للمتأمر الذى كانت تأكله نار الحقد والذى سيشرب من نفس الكأس التى سقى لابن عطية (١٧٠).

ما بين مهدية سلا الموحدية ومهدية افريقية الفاطمية:

من المهم الإشارة هنا إلى أن عيد المؤمن كان فى السنوات الأولى من ذلك العقد السادس من القرن الـ٦هـ / ١٢م ، مشتقا ما بين جهاد الإسبان فى الأندلس ، والفرنج النومانديين الصقليين بافريقية ، بل إن بعض مصاعب الحرب فى الأندلس ، مثل الفشل الذى ألم بأهل اشبيلية الموحدين فى زغبولة جعله يفكر فى جلب العرب الهلالية من إفريقية من أجل مساندة عملية الإنقاذ الموحدية بالأندلس . يظهر ذلك عندما تحرك عيد المؤمن الى سلا فى شوال سنة ٥٥٣هـ / أكتوبر -نوفمبر ١١٥٨م حيث موضع رباط الفتح التى كان قد أطلق عليها اسم المهدية تخليداً للذكرى ابن تومرت وتينما بمهدية الفاطميين التى كان يرتب وقتئذ لفك أسارها من نير الصقليين . فهو عندما اتجه إلى رباط الفتح من سلا لى يبدأ وزيره الجديد عبد السلام الكومى الافريقى . وكانت عيد الملك بن عياش القرطبى الأندلسى فى الكتابة الى القبائل فى نواحي بلاد المغرب المختلفة «بالنفر للجهاد والاستعداد فى الزاد» ، كما

« وجد حساده والسعى به حتى أوغروا صدر الخليفة . فاستوزر الكومى الذى انبرى لمطالبة ابن عطية (...)» ص ٢٦٧ (عن شعره وكتابه) ، ص ٢٧١ (عن دخوله غرناطة ومولده بمراكش عام ٥٢٧هـ / ٣٢-١١٣٣م ، ومن ثم وفاته ٨ فى صفر سنة ٥٥٣هـ / ٣ أبريل ١١٥٨م) (١٧٠) وانظر ايضا روض القرطاس ، ص ١٩٦-١٩٧ - سنة ٥٥٢هـ / ٨-١١٥٧م - حث بكه ابن عطية وسجده ، ثم قتله فى شوال / أكتوبر -نوفمبر مع إيراد نفس القطع الأدبية من شعر ونثر مع اختلافات طفيفة فى الصياغة. وكعاشية لابن عطية ، تقول رواية ابن أبى زرع إن عبد المؤمن «استوزر مكانه (ابن عطية) عبد السلام بن محمد الكومى، وكان والد عبد المؤمن تزوج أم عبد السلام هذا ، فولدت له ابنة تزوجها أبو حفص (الهناتى) ثم طلقها ، فاستوزره عبد المؤمن حين قتل ابن عطية، واستكتب فى الرسائل والأوامر عبد الملك بن عياش القرطبى.

بأمر « أهل البلاد البحرية بإنشاء الأساطيل والأجفان » (١٧١) ، كان يؤه بأن قصده الجهاد في الأندلس وليس في أفريقية التونسية ، وتلك علامة مهمة من علامات عبقرية سياسة عبد المؤمن الحربية . فهو لا يكتفي بإعداد الآلة الحربية الضخمة والحسنة التسليح ، بل يضيف إلى ذلك عامل المفاجأة عن طريق المكر والتمويه - فالهرب خدعة ، كما يقال (انظر ماسبق ، ص ٣٩٢) .

التراتييب الادارية أساس الأعمال الحربية :

هذا ، ولو أن تحرير البلاد الافريقية من الاحتلال الصقلي من جانب ، وإخضاع عرب إفريقيا من الهلالية لنظم الدولة الموحدية من جانب آخر عن طريق توطيئ جماعات من المجاهدين منهم في الأندلس (ماسبق ، ص ٤١٤) ، إنما يعنى إنعاش المقاومة لحرب الاسترداد وإقرار الأمن في أرجاء الأمبراطورية الموحدية الناشئة . وفي ضوء هذه الاعتبارات الاستراتيجية كان عبد المؤمن يتحرك بحشوده الضخمة من منطقة سلا (رباط الفتح) في ١١ من صفر سنة ٥٥٤هـ / ٣ أبريل ١١٥٩م نحو أفريقية «برسم منازلة المهدي» ، وقد استخلف مكانه :

١- على بسائط العدو ، الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ابن تقي (الهنثاني) - ليتطلع أمر البلاد الغربية.

أما عن الأقاليم في المغرب والأندلس ، فقد عهد بولاياتها على النسق الآتي :

- في بلاد المغرب :

٢- فاس وانظارها : يوسف بن سليمان

٣- حضرة مراکش : الأمير (السيد) أبو الحسن على

- في الأندلس :

٤- اشبيلية وقرطبة : السيد الاسنى : أهر يعقوب يوسف - على أن يكون

لكل منهما نائب.

- أشبيلية : عبد الله بن أبي حفص.

- قرطبة : ابن أبيجيت (يوسف).

٥- غرناطة : الأمير (السيد) أبو سعيد (عثمان) (١٧٢).

وهكذا كان خروج حملة المهديّة ضد المحتلين الصقليين من سلا ، غير بعيد من العدو الأندلسية . وفي أثناء حصار المهديّة كان عبد المؤمن يخاطب العرب من بني سليم (الهلالية) الذين كانوا يعيشون في منطقة قابس ، ويحرضهم على أعداء الإسلام الحقيقيين ، ويستدعيهم ويستدنيهم بشعر من إنشاء القاضي أبي عمران ، يقول فيه :

أسليم دعوة ذي إطاء مرشد	هاد إلى الحق المبين المسعد
وما ذكرنا ما كان اسلاف لكم	فضلوا به أفعال كل مسدد
بجهاد أعداء الإله ونصرهم	لرسول ربهم النبي محمد
وتعرفوا إنا عليكم حسبر	حتى يعود جواب هذا المنشد

والمهم أنه عندما لم يأت ذلك النظم بما كان يرجى منه ، جرد عبد المؤمن عنهم عسكرياً تمكّن خلال أيام من هزيمتهم . وكان أول من كتب إليه بهذا النصر على عرب أفريقية هو والي أشبيلية: السيد / أبو يعقوب يوسف . وهكذا انشجرت بذلك النصر صدور الموحدين بالأندلس ، « وقرئ الكتاب على المنابر » هناك (١٧٣).

(١٧٢) ابن عذاري ، الموحدين ص ٣٨-٣٩ ، وقارن روض القرطاس ، ص ١٩٨ .

(١٧٣) ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٣٩- حيث النص : « وهي (الرسالة) طويلة نظماً ونشراً . أخبرنا عنها للاختصار ، وعن منازل العرب الهلالية في المغرب والأندلس - وأن كان بغير تواريخ محددة ، انظر عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٢٢٤-٢٢٥- حيث انصروا »
[الغالبية:-]

رفع المعنويات بالأندلس ضد الثوار

والذي يفسر اهتمام عبد المؤمن بإبلاغ ابنه ونائبه الوالي على اشبيلية اخيار الانتصار على نصارى صقلية ، وعلى عرب بنى سليم ، هو - كما نرى - رفع المعنويات في الأندلس ، حيث كان الشرق يعاني من ضغوط ابن مردنيش وحلفائه من ثوار الأندلس أو اسبان الريبكونكيسعا . ففي ذلك الحين من سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م ، خرج محمد بن مردنيش بعسكره من مدينة مرسية مع أصحابه النصاري (الاسبان) ، وجمعه من المفسدين ، وهم يشتهزون الفرصة في قرطبة أثناء غياب أمير المؤمنين . وشجعه على مواصلة الفتي - إلى جانب ماكانت افسدته الخسر من صفاء الذهن - أن والي جيان الموحدى ، وهو محمد بن على الكومى ، من بنى جلدة الوزير عبد السلام وكذلك الخليفة ، أظهر له قبولاً للنكث بالبيعة ، الأمر الذي جعل ابن مردنيش يسي الظن بغير الكومى من الموحدين .

وهكذا واصل ابن مردنيش المسيرة إلى قرطبة ، ونازلها ، ودمر زروعها . ولكن واليها أبو زيد عبد الرحمن بن إيجيت دافع مذاقعة الأبطال - وظلت قرطبة تعاني

== ثم كر عبد المؤمن واجماً إلى مراكش بعدما ملأ ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلاً ورجلاً . من: المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند .. (ثم القول) إلى أن ملك أبو محمد عبد المؤمن ... قصيرهم (العرب) جنباً له ، وأقطع رؤسائهم بعض تلك البلاد ... فكتب إليهم رسالة يستغفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس ، وفي آخرها أبيات كتبها (عبد المؤمن) في ذلك المعنى وهي:

أقيموا إلى العليا هرج الرواحل	وقودوا إلى الهيجا حرّ الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر	وشدوا على الأعداء شدة صائل
بني العم من عليا هلال بن عامر	وماجمعت من باسل وابن باسل
تعالوا لقد شدت إلى الغزو نيسة	عواقبها منصورة بالأوائسل
بها تفتح الديننا ، بها تلسخ المني	بها ينصف التحقيق من كل باطل

فاستجاب له معهم جمع ضخم ، فلما أراد الانفصال عن الجزيرة بشهم فيها ، نى: نواحي قرطبة ونواحي اشبيلية مما يلي شيش وأصاليها .. لهم بها إلى وقتنا هذا سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م .

من الحصار إلى أن عن لكل من القاضي أحمد بن إدريس ، وابن بجيت التحيل بحيله على لسان ابن وزير ، من أشبيلية إلى ابن مردنيش يقول له: عجل بالافلاج عن قرطبة ، وسر إلى إشبيلية ، وأنا ضامن لك دخولها . وعندما وصل ابن مردنيش إلى أشبيلية تبين له أن الأمر خدعة ، «فأقلع خاسراً عنها» . وإن «لقيت أشبيلية من ذلك عظيم الخطب ، وحميم الرعب ، وحل بأهلها كرب وحرب» .

والمهم أنه رغم دقة الموقف نجح السيد يعقوب في ضبط المدينة بعزمه وجده ، ومن كان من الموحدين وأشياخ أشبيلية وأعيانها المخلصين . فقد كانوا «يسمرون (يقظون) طول ليلهم على الأسوار ، ويقفون بالأبواب طول النهار ، ويتعوز الجار من الجار» . وترتب على ذلك أن ظن الموحدين بالناس (الظنون) ، فسجن من أتهم ، وأمضى السيف على من صح عنه أنه غش الأمر وأجرم ، وسلم من لازم الطاعة واستسلم .

ولقد تمادى ذلك كله حتى وردت الكتب المبشرة بالفتح (على العرب) ، والمؤرخة في ٢ من ذي الحجة من سنة ٥٥٤هـ / ١٦ ديسمبر ١١٥٩م ، من ظاهر المهدي (١٧٤) .

والمهم بالنسبة للأندلس هو أن عبد المؤمن ، أثناء انشغاله بفتح المهدي ، بل وقبل أن يتم له هذا الفتح ، كان مشغولاً وهو في محله بظاهر العاصمة الفاطمية العتيقة ، بأمر إنشاء مدينة جبل طارق ، جنباً إلى جنب مع إنشاء مهدية - سلا .

والحقيقة أنه في خطابه المؤرخ في ٢٠ من ذي القعدة سنة ٥٥٤هـ / ٤ ديسمبر ١١٥٩م ، والمحرو من محلة الموحدين بظاهر المهدي قبل الفتح بين ان بلد الأندلس كانت الشاغل الحقيقي له وهو في ساحة القتال خارج المهدي ذلك أن موضوع الكتاب كان - وهو الأمر المستغرب حقاً - هو بناء مدينة جبل طارق التي ستعرف منذئذ بجبل الفتح . كناية عن الفتح الموحد الجديد للأندلس . فعبد المؤمن يقول - وهو في تلك المطالع الشرقية - : «ومازلنا ... نتلفت من تلکم الجهة إلى العدو

(١٧٤) ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٤٠-٤١ وقارن ابن صاحب الصلاة ، ص ١١٥-١٢٧ .

الأندلسية - حفظها الله بما يجب لها من الالتفات وهو النظر في اختطاط مدينة عتيقة مباركة بهجبل طارق - عمره الله - مجمع البحرين والقطب الأخذ بأطراف البرين ، يختص بعون الله بهذا الأمر العزيز انشاؤها ... وقد قويت العزيمة بحول الله على الاشتغال بهنائه وعمارة فتنائه ... واعداده على مقتضى المدين المحصنة ... ووجهنا الشيخ أبها اسحق برار بن محمد (المسولي) والحاج يعيش - أكرمهما الله للاشتغال بذلك وليتجمعوا ومن اليكم من الأشياخ الاندلسيين ... وقد خاطبنا الشيخ الأجل أبها حفص ليصل الى المكان ، والشيخ القائد أبها محمد عبد الله بن خيار (الجباني) ليصله ، وتتلاقى هناك الأراء ...»

هذا إلى جانب الإشارة إلى فتح قصعة ومخاطبة الفارين من عرب قابس الذين طلبون الأمان ... «ونحن قد استخرنا الله على التوجه الى الغرب» (١٧٥).

ومن المهم بالنسبة للأندلس أيضا هو أنه بعد فتح المهديّة سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م ، وجلس عبد المؤمن لتقبل التهنئة، وأمره بإرسال الكتب الى سائر أنحاء البلاد بما يستره الله من القنوح ، جرى الكتاب (الصادر للسيد / أبي يعقوب يوسف ، والى اشبيلية ، تلك الأبيات التي قيل إنها من نظم الخليفة عبد المؤمن ، والتي تقول في مطلعها:

وأشرفت الشمس المنيرة فوقنا	وأصبح وجه الحق غير مُعجَب
وظهر هذا الصقّ من كل كافر	وعاد به الإسلام بعد تقلب
وأبهر أبها حفص (١) بنصر مؤزر	كفيل بما تبخيه في كل منصب (١٧٦)

(١٧٥) رسائل موحديّة لبروقنسال ، الرسالة رقم ١٩ ص ٩٥-٩٩ ، الدراسة ص ٤٣ وقارن ابن صاحب الصلاة ، ص ١٢٠-١٢١ (عن الكتابين الواردين في هذا الشأن).

(١٧٦) (١) - المقصود بأبي حفص هنا - حسبما نرى - هو السيد / أبو حفص عمر شقيق السيد / أبي يعقوب يوسف الوالي ، ومستشاره ووزيره ، ثم وزير عبد المؤمن بعد الكومي (عبد السلام) - حسبما يرد في ابن عثاري، الموحدون ، ص ٤٤ وقارن ابن بالامامة ، ص ٢٤ .

ويطبيعة الحال كانت تلك الأبيات الخاصة بأهم فتوح الموحدين في إفريقية ضد النورمنديين في صقلية ، والذين جاروا على مدن الساحل الأفريقي ، وجعلوا منها بشاية مستعمرات أجنبية ، موضوع عناية السيد/ أبي يعقوب يوسف ، الذي أمر بأن يكتبها طلبة أشبيلية ، وأن يحفظوها. إلى جانب إقامة الاحتفالات في العاصمة الأندلسية ، الخاصة بإطعام الطعام ، وقرع الطبول على هذا المسار (١٧٧).

وكان جواب السيد / أبي يعقوب على كتاب والده بالتهنئة والدعاء والتأميل، « كما طلب منه إغائته للأندلس ». وشمل الكتاب إلى جانب ذلك شعراً لأبي العباس بن سيد المالقي ، يعرف فيه بأحوال الأندلس المتردية ، وفيه يذكر حال الفتنة، وأحوال ابن مردنيش الذي كان « يلح بالفتنة والضرر ، ويستعين بانتصاري (الاسبان) أهل الكفر. وأشبيلية في مثل الحلقة من الفتن (١٧٨).

البريد البحري السريع :

وإن تبادل الرسائل بين الخليفة في إفريقية والأمير (السيد)/يوسف وإلى أشبيلية والمرشح لولاية العهد ، يلقي بالضوء على أساليب عمل البريد البحري السريع - حسبما تسمح به قوة الرياح - من حيث يكون ركوب الرقاص ، وهو ساعي البريد ، من بجاية ، وخروجه من المركب في ميناء المرية ، الذي كان قد استنقذ من بين أيدي المحتلين ، من الإسبان والفرنح الإيطاليين في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م .

(١٧٧) ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٤١ وقارن ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٢٥-١٢٦ .

(١٧٨) ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٤١-٤٢ حيث شعر المالقي الذي يقول فيه بالحمية التاريخية لانتصار الدعوة الموحدية ، حيث :

هو الأمر أمر الله ليس له رد	تزيده أيد ويسمو به حسد
إليكسم أميسر المؤمنين توجهت	بنا الرغبات الجم بجمتها جهد
لعل عياننا منككم كعبيدكم	وقرنا بكم منهم يذال له البعد
بكم يعتلى الإسلام شرقا ومغربا	فلله فيها ذاتها ولله الحمد

وجملتها ١٤ بيتا وقارن ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٢٨ .

فالخطاب المؤرخ في ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ / مارس ١١٦٠م كان يصل من بجاية إلى
المرية ، ومن هناك يخرج إلى أشبيلية في أقرب وقت من تأريخه - ولو أن الرواية
لا تحدد تاريخ الوصول ، أو عدد الأيام التي كان يستغرقها وصول الرسالة (١٧٩).

الاهتمام بالبريد البحري

وهذا الاهتمام بالبريد البحري يذكرنا باهتمام الموحدين منذ مطلع العقد الخامس
(٥٤٢هـ / ١١٤٨م) بتنظيم إدارة البريد بعد ما ظهر فيها من المساوئ، وهو الأمر الذي
يظهر بشكل جلي في رسالة الفصول، حيث النقد الموجّه للرقاصين من موزعي البريد،
الذين كانوا يتجمعون على الطرقات، ومن ثم ينزلون في أفنية الناس ويرهقونهم
بمطالبهم من الزاد والعلف الذي تطلب الكتابة بمنع ذلك إلى القهاتل والكور (١٨٠).

إشارة ذات مغزى

مكان الاحتفال باستكمال فتح أفريقية
صلي الفرنج الصقليين هو جبل طارق

بعد وصول رسائل فتح المهدية ودفع العرب بعيداً عن قصص ، أتت إلى الأندلس
رسائل جديدة تهشّر بقرب وصول أمير المؤمنين عبد المؤمن ، ولها أوامره ببناء مدينة
في جبل طارق الذي سمي بجبل الفتح فكانها عودة إلى أيام الفتح الأولى: ففتح
طارق بن زيادة ، وموسى بن نصير. وهكذا « توجه السيد / أبو سعيد (عثمان) من
أشبرناطة بنفسه، وعسكره ، إلى الجبل المذكور ، ففزلوا فيه ، وابتدأوا البناء في
المرضع ... فزادت آمال الأندلس ، وتحققوا نيل الأمل ، وايقنوا بالفتح والنجاح
بنيان هذا الجبل » (١٨١).

(١٧٩) ابن عذاري ، المرحون ، ص ٤٢ ، وقارن ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ص ١٢٩
ومابعدها - حيث الإشارة إلى نص الرسالة الواردة بهذا الشأن.

(١٨٠) انظر ما سبق ، ص ٢٨ (الرسالة ٢٢) ، عبد الهادي العازي ، التاريخ الديبلوماسي
للغرب ، ج ١ ط ١٩٨٧ ، ص ٢٥-٢٦ .

(١٨١) ابن عذاري ، المرحون ، ص ٤٢ - ٤٣ .

ويقدم ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة معلومات تفصيلية عن بناء جبل الفتوح ، إذ يحدد بدء البناء في ٩ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ / ١٩ مارس ١١٦٠م . وكان صدور الأمر إلى السيد / أبي سعيد عثمان بالمشي من غرناطة بنفسه وأصحابه وجملة عسكره إلى جبل طارق ، والاجتماع فيه بطلبة أشبيلية للاجتماع بالشيخ أبي حفص (عمر الهنتاتي) ، وبأبي اسحق براز بن محمد ، وبالحاج (المهندس) يعيش ، والقائد (أبو محمد) عبد الله بن خيار الجبالي ، والتشاور معهم في أمر البناء ، هذا كما كتب أيضا للسيد أبي يعقوب يوسف ، وطلب استنفار جميع الفعلة من البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء من جميع بلاد الأندلس (التي تحت نظر الموحدين) . ومشى من أشبيلية العريف أحمد بن باسة بجميع البنائين ومن يشاكلهم .

وهكذا بدأ البناء في الموضع المختار من ناحية سيف البحر . وأحكم البنائون فيه القصور المشيدة والديار (للسادة من البنين والأعيان) ، وأغشروها في أسسها طيقانا وحنابا لتعتدل الأرض ، مبنية بالحجر المنجور والجيار مما هو عجيب في الآثار . هذا ، كما بنى الحاج يعيش في أعلى الجبل رحي تطحن الأقوات بالريح - وأن لم يقدر لها أن تعمل لمدة طويلة .

هذا كما بنى السور الحصين ، وسمى بابه من حيث كان الدخول «ببواب الفتوح» ، فجاء فردا في المعازل التي لا يطمع فيها طامع من البر والبحر (١٨٢) . أما تمام البناء فكان في ذي القعدة من نفس العام ، فكان بناءه استغرق حوالي ٩ (تسعة) أشهر (١٨٣) كما شارك في بنائه الحاج يعيش المهندس ، الذي ينسب إليه بناء رحي بأعلى الجبل تطحن الأقوات (القمح والشعير) بالهواء (١٨٤)

والمهم هنا هو أن عبد المؤمن وهو يعود من فتح المهدية يريد طنجة ، يرسم الجواز إلى الأندلس ، كان يشغل معه جماعات من القبائل العربية الهلالية ، من أجل الجهاد في الأندلس ولقد قدرت أعداد العرب ، حسب الاتفاق ، بألف رجل من كل (١٨٢) ابن صاحب الصلاة المنى بالإمامة ، ص ١٣٧ - ١٤٣ .

(١٨٣) روض القرطاس ، ص ١٩٩ .

(١٨٤) الحلل الموشية ، ص ١٥٥ .

قبيلة ، بهيالاتهم وأبنائهم وإذا كان ابن أبي زرع ينص على أنهم جميعا من عرب
جشم (١٨٥) ، فإن رواية ابن صاحب الصلاة تنص على أنه (عبد المؤمن) «استاق
فى أتباعه من العرب : بنى رياح وبنى جشم وبنى وعدى وقبائلهم ما يضيق بهم
الفضاء ، على عدد الذباب وعدد الحصى (١٨٦)» .

وفى مقابل جبل الفتح يذكر لعبد المؤمن بناء مدينة البطحاء على نهر شلف
بالمغرب الأوسط ، من أجل سكنى الموحدين المجاهدين فى المشرق ، حتى يقيموا
هناك وأبنائهم فلا يشعرون بالتفرب عن أوطانهم (١٨٧) .

القبض على الوزير عبد السلام الكومى :

وفى الطريق الى طنجة ، وعند دخول مدينة تلمسان ، قبض عبد المؤمن على
وزيره عبد السلام بن محمد الكومى ، غريم الوزير السابق أحمد بن عطية ، وحبسه
قبل أن ينتهى الأمر بموته ، ربما بتدبير من عبد المؤمن (١٨٨) .

وتتلخص أسباب الوحشة بين عبد المؤمن ووزيره عبد السلام الكرمى فى تغلب
عبد السلام على كل الأمور ، خلال غزاة المهدية ابتداء من شوال سنة ٥٥٢هـ / ٢٦
أكتوبر ١١٥٨م . هذا ، إلى خلافه مع السادات الأبناء ، وعلى رأسهم والى تلمسان
أبى حفص . وما أخذ على عبد السلام جرأته فى اتهام السادات بافعال القبائح ،
من : الراحات والبطالات ، وشرب الخمر ، الأمر الذى تأثر له عبد المؤمن . والمهم أن
الوالد المبتسئس كلف جماعة من شيوخ الموحدين بتحري حقيقة الأمر ، فأتضح أن
الأبناء لا يتناولون الخمر المتعارف عليه ، بل مشروب الرب المطبوخ الذى براه البعض

(١٨٥) روض القرطاس ، ص ١٩٩ .

(١٨٦) المن بالإمامة ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(١٨٧) هذا ، وإن قيل إن الدافع لبناء البطحاء كان محاولة بعض المغاضين من المغاربة الذين
سئموا الغربة فى إفريقيا ، الانتقام من عبد المؤمن يقتله - انظر روض القرطاس ، ص ١٩٩ .

(١٨٨) روض القرطاس ، ص ٢٠٠ - حيث النص على سبه فى ثردة لى أو ثردة فروج - مع عدم
الاتفاق على مدة موته فى ليلة واحدة أم بعد وقت أنسل فيه جسده مع عمل السم فى جسده

حالا - كما فعل الجاحظ في رسالته فيما حلل وحرم من أنواع النبيذ.

هذا ، كما أخذ على عبد السلام استبداده بالمهزومين من العرب من أهل قابس ،
والذين قتلوا واستنصروا ، كما استبد عبد السلام بجميع الغنائم والأموال .. حتى
نسب إليه احتيجان الأموال ، والانتكار لها والكتمان . وهكذا تكلم عليه مشايخ
الموحدين في مقببه ، بل ورغبوا في أن يكون السيد / أبو حفص هو وزير والده .

وبعد فتح المهديّة ، وفي طريق العودة إلي تلمسان تشكى أهل العدوّة من عمال
عبد السلام وظلمهم ، وكذلك الشكاية من كرمية إخوانه ، وأظنّوا في التشكي
والتيكي ... فتغيّر عبد المؤمن وتأثر ... وتعجب من قلة الأموال في المخزن ...
فقبض على عبد السلام الذي سجن في موضع مجلسه ثم تحيل في قتله .

أما عن سبب إدلال عبد السلام ، فهو المعروف من أنه كان والد عبد المؤمن تزوج
من والدّة عبد السلام فولدت له ابنة تسمى بندق (أو فندقة) فكان يرى لنفسه
حقاً (١٨٩) .

(١٨٩) انظر اخبار عبد السلام الكومي في ابن عذاري . الموحدين ، ص ٤٣ . وانظر الأصل في
ابن صاحب الصلاة ص ١٧٣ وما بعدها ، المن بالإمامة ، حيث يورد قصة عبد السلام
الكومي ، من : أن عبد المؤمن استوزجه سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م ، ووصل معه إلى سلا ، ومن ثم
وجهه إلى جزيرة الأندلس في قطعة بحرية ليتطلع أحوالها ، فوصل إلى إشبيلية ثم إلى قرطبة
وغرناطة ، وأنهى إلى الطلبة الذين فيها الأوامر العزيزة التي حملها ، وانصرف إلى أمير
المؤمنين بسلا في ١٥ يوما غاب عنه . فلما وصل عبد المؤمن في غزاته إلى تلمسان ومن ثم
إلى بجاية أمر ولديه السيدين الواليين : أباه حفص وأباه محمد ، فمشيا معه في العساكر .
وهنا لوحظ «أن الوزير عبد السلام الكومي تغلب على الحال كلها في هذه الغزوة ، وطالب
السادات وضايقهم ، ونسب إليهم عند أبيهم قبائح الأفعال . - فرفع إلى أمير المؤمنين -
رضى - أنهم يشربون الخمر المحرمة ، وقرر ذلك وكرّر المطالبة لهم هنالك» .

والهم أن عبد المؤمن بحث في الأمر عن طريق شيوخ الموحدين «فوجدهم يأكلون طعاما وبين
أيديهم مشروب مطبوخ من الرب الحلال» . هذا إلى جانب أنه عند تنازلة المهديّة ومخاطبة أهل
قابس بالتحديد ، بحث عبد المؤمن عسكرياً ضخماً بقيادة عبد السلام ، وصحبة عدد من «

الاستقرار في جبل الفتح .

ومن تلمسان سار عبد المؤمن إلى طنجة فرصلها في شهر ذي الحجة سنة ٥٥٥ هـ / ديسمبر ١١٦٠ م ، ومن طنجة كان جوازه إلى الأندلس بالمراتب الحربية من أجل استطلاع أحوال المجاز بالعدوتين ، ومن ثم استقراره في جبل الفتح لمدة شهرين ، كان خلالهما يشرف على أحوال الأندلس ، ويستقبل القواد والأشياخ والشعراء والخطباء . وذلك لتلقى البيعة ، وتقبل مراسم الخضوع والطاعة (١٩٠) .

== النظمية والحفاظ . ولما اقترعوا من قابس ، بادر أهلها مع قاضهم بالخروج إلى الموحدين . وتلقاهم بالطاعة والتزام أمر الدين والجماعة . وعندما انهزم العرب المقيمون بالمنطقة ، وقتلوا واستوصلوا ، استبدّ عبد السلام بجميع المغانم والأموال ، وتنقل بأشياء من الانتقال . وادل بقرابته ووزارته غاية الادلال ، فنسب إليه في الأموال الاحتجاج والانكار والكتان . وفي مدة مغبه تكلم اشباخ الموحدين في حال عبد السلام واستعلائه ، وتقصيره بأولاد أمير المؤمنين السادة . واقترح الشيخ أبو محمد برزيج على جماعة المشايخ أن يؤزل منصب الوزير إلى السيد أبي حفص ، واستجاب لهم عبد المؤمن . وبعد فتح المهديّة ، وعند الوصول إلى تلمسان تشكى أهل المنطقة من عمال عبد السلام وظلمهم للرعية وكذلك من كومية أصحابه ، ووصفهم باحتجاج الأموال والخيانة في جميع الأفعال مع رضا عبد السلام عن كل ذلك . وبعد أن استمع عبد المؤمن إلى تلك الشكاوى تغير وتأثر ، وقال : «عجبا من هذا الأمر وسعته ، وعدم المال عند مأمته ، كانت لتونة إنما يلكون إلى تلمسان هذه ، وكانوا ينصفون أجنادهم ، ونحن الآن قد ملكنا ذلك ، وزائدا على ماكان بأيديهم : إفرينة كلها ولاعندما مانعطى للموحدين هذا من عجب العجب » .

وأمام محمد بن الشيخ : عبد الحق بن وانودين (من أصحاب المهدي) قام عبد المؤمن مغضبا ، تاركا نعله ليمشي حاليا ، ثم أنه أصدر الأمر في نفس اليوم - بالقبض على عبد السلام ثم إنه تعجل في عينته بالسم في ثرثرة لبن أو ثرثرة فروج ...

(١٩٠) ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٤٣ - حيث النص على أنه كان من اشتغال السيد / أبي يعقوب (يوسف) بأشبيلية ، أن يزج الفعلة والرجال للبناء المذكور ، ويرتقب وصول الأخبار بقراب والده من هذه الأقطار . وقارن الحل المرشحة ، ص ١٥٥ - حيث النص على أن التخطيط والبناء كانا من عمل عبد المؤمن وابنه السيد / أبي سعيد عثمان ، كما كان ممن شورى في البناء الحاج يعيش المهندس - الذي أقام الرعى الهوائية في قمة الجبل ، مما سبقت الإشارة إليه ص ٥١٧ .

الغدر بقرمونة ،

والمهم أنه بعد وصول الأنباء المفرحة من إفريقية إلى الأندلس باستنقاذ المهديّة أتمت من الأندلس أنباء محزنة عن الغدر بمدينة قرمونة الذي تكبدت بسببه الأحوال في أشبيلية وفي سائر بلاد الأندلس الموحدية. وهكذا كان على عبد المؤمن أن يأتي مباشرة من إفريقية لكي يهيم المجاز مباشرة إلى الأندلس. وفي ذلك الحين وصلت أنباء غير صحيحة إلى إشبيلية عن أن قرطبة كانت هدفاً هي الأخرى ، لغدر ابن همشك صهر ابن مردنيش الذي نازلها ودمر زروعها. والحقيقة أن والي قرطبة أبا زيد (عبد الرحمن) بن بجيت عندما سمع بخبر خروج ابن همشك نحو قرطبة خرج برجاله يستطلعون الأمر ، فخرج عليه الكمين الذي كان قد أعده الشائر ، فقتل ابن بجيت شهيداً (١٩١) .

جواز عبد المؤمن (سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م)

إلى جبل الفتح بعد تحرير المهديّة الفاطمية

إعلان بقيام الأبراطورية الموحدية

كان جواز عبد المؤمن إلى قاعدته الأندلسية الجديدة في جبل الفتح في شهر ذي القعدة ٥٥٥هـ / نوفمبر - ديسمبر ١١٦٠م ، وكان البرنامج المخطط لتلك الزيارة يتركز في الاجتماع بالموحدين في الأندلس ، ورؤساء تلك البلاد من الداخلين في طاعة أمير المؤمنين عبد المؤمن. وكان الموضوع المعروض للمناقشة ، ومن ثم التنفيذ ، هو : كيفية مواصلة الجهاد ضد الخطر الإسباني (الرومي) على أمل توطيد

(١٩١) ابن عسار ، الموحدون ، ص ٤٤-٤٥ وقارن ابن صاحب الصلاة ، ص ١٤٥-١٤٦ حيث كان الغدر بقرمونة يوم الجمعة ١٥ ربيع الأول ٥٥٥هـ / ٢٢ مارس ١١٦٠م بعد الصلاة ، وكان الغدر بتدليس الشقي: عبد الله بن شراحيل وإن الموحدين تحصنوا بالقصبة، واضطر السيد أبو يعقوب يوسف الخروج من السفينة التي كان سيعبر بها إلى جبل طارق ، وكان يومها عصيباً بأشبيلية . ونظر السيد الأعلى (يوسف) في مقابلة هذا العدو...

الأمن والاستقرار في بلاد المسلمين ، بل واستعادة ما أنتزع من أيدي المسلمين في الوقت القريب قبل أن تتأكد ملكية العدو له عن طريق الأمر الواقع والتفادم.

وهكذا خرج للقاء الخليفة عبد المؤمن ممثل السلطة الموحدية في الأندلس ، وهو ابن الخليفة والى أشبيلية السيد / أبو يعقوب يوسف - المرشح لولاية العهد. وكان يحيط به أصحابه من الموحدين ، ومن الرؤساء الأندلسيين ، من: مشايخ أشبيلية وطلبتها وأعيانها ، وعلى رأسهم قاضيها : أبو بكر الخافقي ، وأبو بكر بن الجد ، إلى جانب سائر أهل النباهة بالعاصمة الأندلسية الجديدة (أشبيلية) ، من : الكبراء والشعراء . هذا إلى جانب أهل العاصمة العتيقة (قرطبة) ، وأهل جميع الأقطار والأعمال (الأنظار) التي تحت طاعة الموحدين (١١٩٢).

والمهم أنه أقيم حفل عظيم لاستقبال هذا الحشد الكبير بمدينة عبد المؤمن الجديدة: مدينة جبل الفتح ، وكان منظم الحفل الكبير هو الوزير السيد / أبو حفص عمر ، وكان البروتوكول الموحدى المتبع وقتئذ ، يقضى بدخول الناس ليسلموا (في أول الأمر) سلام جماعة ، وأن يقرؤا فيه للخليفة بالسمع والطاعة «من تجديد البيعة الكرية ، وتقبيل اليد المباركة . وأن يقوم أبو محمد عبد الله بن أبي حفص وأبو بكر الخافقي بتعيين أهل أشبيلية وتسميتهم ، وأهل الغرب ، وكذلك قاضي قرطبة في تعيين أهل قرطبة ونظريها . ثم يؤذن للشعراء بانشاد ، ما أوردوه من نظمهم

(١١٩٢) ابن عذاري ، المرحدون ، ص ٤٥ . وقارن الأصل في ابن صاحب الصلاة ، ص ١٤٩ - حيث وصول السيد / أبو سعيد وأشياخ غرناطة في نفس يوم وصول السيد / أبي يعقوب يوسف وكذلك أهل قرطبة وجميع الأقطار والأنظار التي تحت طاعة الموحدين وقارن ابن أبي زرع ، روض القرماس ، ص ٢ - حيث خرج عبد المؤمن من تلمسان إلى المغرب ، ووصله إلى طنجة في ذي الحجة ٥٥٥هـ / ديسمبر ١١٦١م . ومن ثم الجور من طنجة إلى الأندلس . والنزول بجبل الفتح حيث الإقامة به شهرين . وحيث استشرى على أحوال بلاد الأندلس ، فأنه قوادها وأشياخها للسلام ، وانظر الحلل الموسية ، ص ١٥٥ - حيث الجواز إلى الأندلس ، إلى جبل الفتح ... وحيث أنه وفود الأندلس من كل مكان ، ومن ثم الاحتفال الذي شارك فيه الشعراء والخطباء . وقارن عبد الواحد المركشي، المعجب، ص ٢١٢ وما بعدها - حيث الاحتفال الكبير بجبل الفتح وكأنه تم بعد انتهاء البناء في سنة ٥٢٨هـ / ١١٤٣م.

وابشكار قرانهم.

وحسبما تقرر رواية ابن صاحب الصلاة التي ينقلها ابن عذاري كان أول المنشدين
هو: أبو بكر بن منخل ، حيث قال من قصيدة طويلة وأن لم يورد منها صاحب
البيان إلا بيتها الأول ، وهو المعبر فعلا عن واقع الحال في تلك المناسبة وهو :

فتفتحم بلاد الشرق فاعقدوا الغربا فإن نسجم النصر بالفتح قد هبنا
ومنها :

اقبموا إلى ابن الرقيق (١) بعد صدورها وليس عليكم ان ترمى ضمرا قبا
فإن تبدأوا بالغرب فالفتح واضح وأن لجوم الدين طالعة غربا
ضمان عليكم أن تبيعوا حرمه وأن تكسروا فيها التماثيل والصلبا
وأن توردها نهر دوبر صسواديا فتأنف أن تسقي بها البارد العذبا (١٩٣)
وأشد القرشي المسروق باين الطليق ، قصيدة أولها :

ما للعسدي جنة أوقسى من الهرب كيف المفر وخيل الله في الطلب
لو يذكسوا قد ما زلت بقادمة لأصبح الكل طياراً من الرعب (١٩٤)
(١٩٣) ابن صاحب الصلاة ، المن الامامة ، ص ١٥١-١٥٢ - وعن ابن الرقيق (١) - فهو
القوسو هتركيز ملك البرتغال.

(١٩٤) ابن عذاري الموحدون ، ص ٤٥ ، وانظر ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ١٥٩ -
حيث النص على ان الطليق كان ينشد ويحمد والكاتب ابو الحسن بن عياش القرطبي ، كاتب
الخليفة يعسن الأبيات وهو واقف ويكررها. والحقيقة ان القصيدة الطويلة هي عرض تاريخي
لاتجازات صد المؤمن الحربية ، كما في الأندلس؛
وبنا - جبل طارق (جبل الفتح) :

حدث عن الروم في افطار اندلس والبحر قد ملأ العبرين بالعرب
ولفتح القرية : منه يعاود هذا الفتح ثانية أضعاف ماحدثوا في سالف الحقب
وحرب النورمندان : دامت جبال ديار القيروان فلم يخن الأعنسة الا وهي كالكسبة



امبراطورية الموحدين : المدن الرئيسية في المغرب والأندلس علي عهد عبد المؤمن
 من ٥٥٤ : ١١٣٠م إلي ٥٥٨ : ١١٦٣م -

وأشهد أبو عبد الله بن صاحب الصلاة ، من قصيدة وأولها:

تلاّ من نور الخلافة بارق أضاءت به الأفاق والليل غاسق

وأشرقت الدنيا به فكأنها من البشر في كل الجهات مشارق (١٩٥).

ويظهر من رواية بعض الحاضرين أن احتفال جبل الفتح هذا ، بدأ في يوم ٢٠ من ذي القعدة سنة ٥٥٥هـ / ٢٢ نوفمبر ١١٦٠م وأنه استمر مدة ٢٠ (عشرين) يوماً إلى عيد الأضحى / ١٢ ديسمبر حيث انفضّ الجمع مع التهنئة بالعيد. ولكن الناس

سوحرب العرب الهلالية: صدرت بالعرب العرباء وانتقلت عن الحسام «رياح» شر منقلب
وعهد الخلافة: خليفة الله بادي العلم مبتسم عن جوهر من بديع النظم منتخب
وقارن عبد الواحد المراكشي ، المسجب ، ص ٢١٥-٢١٦ حيث النص على أنه انشده (عبد
المؤمن) رجل من ولد الشريف الطليق (طليق النعامة ، أيام المنصور ابن أبي عامر) المرواني ،
الذي كان شريفاً من جهة أمه . وحيث النص على أنه عندما انتهى من الشطرة الأولى ، وهي:
ما للمسيح جنة أرقى من الهرب أين المرح وخيل الله في الطلب
قال عبد المؤمن إلى أين؟ إلى أين؟ فقال الشاعر:

واين يذهب من في رأس شساعة وقد رمت سهام الله بالشهب

حدث عن الروم في أقطار أندلس والبحر قد ملأ العرب بالعرب

وتنتهي رواية المسجب بأنه عندما أتم الشاعر قصيدته قال عبد المؤمن: «يمل هذا قروح الخلفاء» ،
فسمى نفسه خليفة. وهذا التقرير ربما كان السبب في تأريخ عبد الواحد للاحتفال الكبير بسنة
٥٢٨هـ / ٤-١١٤٣م بمعنى السنة التي تم فيها بناء مدينة جبل الفتح ، وهذا عكس ما يسجله
ابن عذاري في بيانته (عن الموحدين) من أن ذلك الحفل كان بمناسبة جواز عبد المؤمن بعد فتح
المهدية سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م إلى الأندلس ، وبداية ترتيبه لأمر الأندلس ، وهو التاريخ
الصحيح لذلك الحدث. وهذا ما يؤيده البيت الثالث في شطره الثانية ، حيث: «والبحر قد
ملأ العربين بالعرب» أي بعد تسيير العرب الهلالية بمعركة عبد المؤمن بعد فتوح بجاية سنة
٥٤٧هـ / ١١٥٢م ، ومن ثم فتح المهدية فيها بعد سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م . وهذا ما يؤكد
أيضا عبد الواحد المراكشي ، ص ٢٢٤- الأمر الذي يؤكد أن ذلك الحفل هو حفل زيارة جبل
طارق (جبل الفتح) سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م .

(١٩٥) ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٤٥ ، وقارن ابن صاحب الصلاة ، ١٦٤ ، حيث ٣ قطع

فيها عدد أبياتها ٣٣ بيتاً ، منها ، ص ١٩٦:

ملكك قلوب الناس حباً وروية فدان بك الصنفان : بر وفاسق .

لم ينصرفوا إلا بإذن الخليفة ، بعدما انتهى من ترتيب أموره ، وتجهيز عساكره ،
والتأكد من تحصين بلاد الأندلس - بحسب لطاريئ يكون- وحينئذ إذن للناس
بالانصراف إلى مواطنهم ، فانصرفوا (١٩٦).

والأمر المستغرب ان ابن عذارى رغم أنه يعرف أهمية ذلك الاجتماع الذي رتبته
عبد المؤمن ومعاونوه من كبار العمال، مثل: السيد/ أبي حفص الذي صار وزيراً
للخليفة الوالد، والسيد/ أبو يعقوب يوسف وإلى أشبيلية وقرطبة ، ولى العهد
المنتظر ، لا يقدم من الشعراء بعد ابن متخل والظليق ، إلا أبا العباس الجراوى الذى
يُدعى عبد المؤمن قاتلاً:

أجليت دين الواحد القهار	بالمشرقية والقنا الخطار
واقيت أندلساً فأمن خائف	وسما لأخذ النار رب النار
وحللتهم جيل الهدي فحللتهم	منه عقود عزائم الكفار
ملك الملوك لقد ألفت إلى العلى	ونظرت من فوق إلى الانوار

هذا ، إلى جانب قوله يمدحه ، ويذكر إفریقیة حين كان بها على المهديّة (٥٥٥هـ/
١١٦٠م):

ومن يكن من أمير المؤمنين فقد قامت على فضله منه الشهادات

(١٩٦) ابن عذارى ، الموحدون ، ص ٤٥-٤٦ ، وقارن عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص
٢٢٣-٢٢٤ - حيث النص على أن عبد المؤمن أقام بجبل الفتح ، مرتباً للأمر ، مهاداً
للملكة ، وأعيان البلاد يقدون عليه فى كل يوم ، إلى أن تم له ما أراد من إصلاح ما استولى
عليه من جزيرة الأندلس. ثم تأتى ولايات الأندلس كالآتى:- إشبيلية: يوسف ، وقرطبة: أبو
حلى عمر ايهتى - غرناطة - أبو سعيد عثمان الذى كان صديقاً لعبد الواحد المراكشى الذى
يقول فيه ، انه كان من نهبا - أولاده (عبد المؤمن) ... وذوى الصداقة منهم إلى جانب محبته
للآداب والشعر.

ومن قوله في فتح المهديّة ، وتمدح الخليفة عبد المؤمن :

جهل النصاري أنه الملك الذي برث البلاء وعذرهم مقبول
بالأمس يلاً سمعها ناقوسهم واليوم يلاً سمعها التهليل (١٩٧)

ويقول عبد الواحد المراكشي أن عبد المؤمن لم يكر راجعا إلى مراكش إلا بعدما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلا ورجلا ، من : المصامدة ، والعرب ، وغيرهم من أصفاء الجند (١٩٨) . وإذا كان صاحب الحلل الموشية يروى أنه أثناء مقام عبد المؤمن بجبل الفتح أرسل ١٨,٠٠٠ (ثمانية عشر ألف) فارس من عسكريه إلى أرض العدو (١٩٩) ، فلا بأس أن تكون رواية ابن أبي زرع هي التي تقدم لنا تفصيل ذلك ، حيث انضم على غزو بلاد غرب الأندلس على يد الشيخ عبد الله ابن أبي حفص الذي خرج من قرطبة في جيش كثيف إلى حصن أطرانكش من أحواز بطليوس ، كما هزم ملك قشتالة (الغنش) الذي جاء لاضافته في ملحمة كبيرة ، راح ضحيتها ٦٠٠٠ (ستة آلاف) رجل من عسكريه ، كما ساق المسلمون السبي إلى كل من قرطبة وإشبيلية (٢٠٠) .

ومما يستحق الإشارة أن كل ما أنشد في الحلل حسب ابن عذاري ، يدل على أن عبد المؤمن كان ، وهو في جبل الفتح سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ، يحكم امبراطورية عظمى تمتد من المغرب الأقصى والأندلس إلى إفريقية التونسية ، فهو يستحق من الجاوي لقب «ملك الملوك» (٢٠١) .

(١٩٧) ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٤٧ - ٤٨ .

(١٩٨) المعجب ، ص ٢٢٤ ، وابن عذاري ، الموحدين ، ص ٤٨ .

(١٩٩) الحلل الموشية ، ص ١٥٥ .

(٢٠٠) روض القرطاس ، ص ٢٠٠ .

(٢٠١) ابن عذاري الموحدين ، ص ٤٥ - ٤٧ .

مَسَاحُ الأَرْضِ الزراعيّة في الدولة الموحّدية ولتقدير خراجها :

وهنا تحسن الإشارة إلى أول قرار أمبراطوري أصدره عبد المؤمن في سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م ، قبيل فتح المهدية وهو الذي يقضى «بتكسير: تحديد مساحة» إفريقية والمغرب ، من برقة وإفريقية إلى بلاد نول من السوس الأقصى ، بالفراسخ والأميال طولا وعرضا . ولقد أسقط من التكسير الثلث (١/٣) في الجبال والشعراء والأنهار والسباح والطرق والحزون ، ومابقى قسط عليه الخراج عينا ونقداً ، فلقد ألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق (النقد) - فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب .

وإذا كانت رواية القرطاس تختتم ذكر هذا الحدث الجليل بالقول بأن عبد المؤمن تلك المهدية وفتحها يوم عاشوراء من سنة ٥٥٥هـ / ٢١ يناير ١١٦٠م ، قالذي نراه أن تكسير الأمبراطورية الموحّدية المغربية - الأندلسية ينبغي أن يكون قد حدث بعد فتح المهدية ، احتفالاً بخلاص البلاد من المحتل النورمندي . أما عن النص على أن عبد المؤمن هو أول من أحدث ذلك بالمغرب ، ففي ذلك تشريف للدولة الموحّدية التي وصلت على عهدها التنظيمات الإدارية المغربية إلى الذروة في كل العهود الإسلامية حتى ذلك الوقت من منتصف القرن الـ ٦هـ / ١٢م (٢٠٢) - حيث : وكمل له (عبد المؤمن) الملك بإفريقية ، مسيرة ٤ أشهر من المشرق إلى المغرب ، من طرابلس إلى أقصى السوس (طولا) ومن قرطبة إلى سجلماسة (عرض) :

أما عن حفل «جبل الفتح» الكبير عند عبد الواحد المراكشي في المعجب ، فهو احتفال الإنتهاء من المدينة بعد سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م بدلا من ٥٥٥هـ / ١١٦٠م ، عندما انتشرت دعوة المصامدة بالمغرب الأقصى وتشوف إليهم أعيان مغرب الأندلس (المغرب) ... فدخل في ملكهم كشير من جزيرة الأندلس ، كالجزيرة الخضراء ، ورندة ثم أشبيلية وقرطبة وأغرنية ، وذلك على يدى الشيخ أبى حفص عمر إبنى ، حيث كان عبور عبد المؤمن من سبتة إلى جبل طارق ، الذى سمّاه «بجبل الفتح» . فلقد أقام عبد المؤمن أشهرا هناك ، ابتنى فيها قصورا عظيمة ، وبنى هناك مدينة كانت باقية على أيام عبد الواحد المراكشي ، في العشرينات من

القرن السابع الهجرى / ١٣ م . وهو يدون فى المشرق كتابه المعجب (٢٠٣).

وفى المدينة الجديدة بجبل طارق «وقد على عبد المؤمن وجوه الأندلس للبيعة ... وكان له بهذا الجبل يوم عظيم ... واستدعى الشعراء فى هذا اليوم ابتداء . ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم» .

وفى هذا الحفل أنشد من الشعراء عدد كبير ، منهم :

- أبو عبد الله محمد بن حبوس - الذى كان ينحو منحى ابن هاتى الأندلسى ، والذي كان مقدما فى شعراء لتونة ثم حرب إلى الأندلس واستخفى إلى نهاية الدولة . ولقد أصبح ابن حبوس حظيا لدى عبد المؤمن ، ونال فى أيامه ثروة ، كذلك فى أيام ابنه يوسف.

- ولد الشريف ابن الطليق المروانى (الذى بورده ابن عذارى فى حفل جبل الفتح سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م).

- ابن سيد (الاشبيلي) الملقب باللص ، وتبدأ قصيدته التى استعقلها عبد المؤمن رغم أنها من خيار ما مدح به (عبد المؤمن) لولا أن تكرر (الشاعر) صلوها بهذه الفاتحة:

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسى على جبل
أنى استقر به ، أنى استقل به أنى رأى شخصه العالى فلم يزل

فقد قال له عبد المؤمن ثقلتنا يارجل ، فأمر به فأجلس - والذي نراه أن وصف الرجل العظيم بالجهل وصف مقبول بالنسبة لمعايير النقد الأدبى المتعارف عليها «كلاسيكيا» (٢٠٤).

(٢٠٣) المعجب ، ص ٢١٣ .

(٢٠٤) انظر عبد الواحد المراكشى ، ص ٢١٨-٢٢١ ، وعن نفس القصيدة انظر ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٥٠-١٥٦ وفيها :

ص ١٥٦ - خليفة الله ما جاء الزمان به إلا ليرثو قوما فيه من الخلل

- والوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البيلنسى ، الشهير بالرفائى
الرفاء. ومطلع القصيدة التى أنشدها ، وهو شاب لم يكمل العشرين من العمر :

- ١- لو جئت نار الهدى من جانب الطور قهست ما شئت من علم ومن نور
- ٢- نور طوى الله زبد الكون منه على سقط إلى زمن المهدي مذخور
- ٣- يادار دار أمير المؤمنين بفسح الطود طود الهدى ، بوركت فى الدور
- ٤- وحيث قامت قناة الدين ترفل فى لواء نصر على البرين منشور
- ٥- تسنم الفلك من سخط المرار ولد تؤدين ياخير أفلاك الصلا سيري
- ٦- لما تسابقت فى بحر الزقاق به تركن شطبه فى شك وتحير
- ٧- لله ما جبل الفتحين من جبل معظم القدر فى الأجيال مذكور
- ٨- يميز الجيش ، ملتفا مواكبه من كل مشلول عرش الملك مفهور
- ٩- فالهجر قد عاد من ضرب العصا يمسأ والأرض قد غرقت من فورنهور
- ١٠- فإن يكن من المهدي قائمه فموضع الحذ منه حذ مشهور
- ١١- والشمس إن ذكرت موسى فما نسبت فتاء يوشع قماع الجهابير (٢٠٥).

ص ١٥٧- ملك اذا تشغل الدنيا أذا شرف ألقته بالمعالى جذ مشتغل
والملك ليس بمروءة قواعده عالم يقم بن أيدي الخيل والابل
ص ١٥٨- قدوخ الأرض لم يمتنع له ملك الا وصيره أعلى من الطلل
حتى اذا استوسق الأمر العلى له فى الشرق كركنصر العرب فى عجل
أبلغ قوى الشرك والإفساد قاطبة ان ماله من جنود الله من قبل

ص ١٥٩- رهبوا إلى السلام والاسلام بحكم لائحسوا دولة التوحيد كالدول
والله يعلد مولانا ومييدنا حتى يبلغ فيكم غاية الأمل
ويمثل الجبل كان يدح بعض أمراء الأيوبيين فى رثاء الشاعر له : حيث يقول :

جبل هوى فارتجت الدنيا له فكأنها ركبت جناحي طائر

وهو البيت الذي استعزاه لرفاء استاذنا : أحمد فكري - فى كتابه التذكاري.

(٢٠٥) آخر القصيدة - انظر عبد الواحد المراكشى ، المعجم ، ص ٢١٨-٢٢١- وصاحبه

ومن المهم الإشارة هنا إلى ما يقرره عبد الواحد المراكشى من القول: «ثم تكرر عبد المؤمن راجعا إلى مراكش ، بعدما ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلا ورجلا من المصاعدة والعرب وغيرهم من أصنافه الجند ، الأمر الذى يعنى أن ذلك الاجتماع الكبير فى «جبل الفتح» كان فى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠هـ بعد فتح الغريقية ، وليس فى بداية ملك الموحدين للأندلس ، فى مطلع العقد الخامس من القرن السادس الهجرى ١٢م ، كما يسجل عبد الواحد المراكشى فى المعجب.

والحقيقة أنه فى أوائل السنة التالية (٥٥٦هـ / ١١٦١م) ، وقيل وحبيل عبد المؤمن إلى المحضرة مراكش ، كان الموحدون قد ملكوا وقتئذ ، مدن : بطليوس ، وباجة ، وبابورة ، وحصن القصر فولى عليها محمد بن علي بن الحاج ، ورجع إلى مراكش فى ربيع الأول / فبراير - مارس ١١٦١م (٢٠٦).

ومن الطبيعى أن تكون تظاهرة جبل الفتح الاحتفالية الكبرى هذه فى أواخر سنة ٥٥٥هـ / ديسمبر ١١٦٠م قد أثارت حب الاستطلاع عند الإسبان المجاورين . وفى ذلك تقول رواية ابن صاحب الصلاة إنه خلال هذه الإقامة المؤبدة وصلت من جهة جيان سرية من النصارى لتتطلع الأخبار ، وأن الأوامر صدرت من الخليفة باتباعهم ، ففزاهم الموحدون وسبوهم ، فكان وعدا بالنصر على الأعاجم. وهكذا كان الرحيل إلى المحضرة مراكش فى أول عام ٥٥٦هـ / يناير ١١٦١م بعد الأطمنان «على تهديد أمره العزيز ، وتألف العرب الذين جلبهم لحماية رعيته ، وأن يكونوا من جملة أجناده وأعوانه ، مما أمله من غزو الكفر وكسر صلبانه» (٢٠٧).

مواصلة الصراع فى الأندلس :

أما عن أخطر الأحداث فى سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م ، بعد مفادرة عبد المؤمن جبل

= المعجب بورد بعد ذلك فاذن من شعره فى موضوعات مختلفة ، مثل: نهر اشبيلية الأعظم - بستان بعض الناس - وصف دولاب - صبي يتباكى - قائم قد لحبب العرق على خده.

(٢٠٦) ابن أبى ذر ، زوحى القرطاس ، ص ٢٠٠ .

(٢٠٧) المن بالإمامة ، ص ١٧٢-١٧٣ .

الفتح إلى مراكش ، فهو مناجزة الغادرين بقرمونة منذ ١٥ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ / ٢٥ مارس ١١٦٠م . فبعد أن ودع السيد / أبو يعقوب يوسف والده وعاد إلى أشبيلية ، بدأ ترتيب حرب أهل قرمونة الناكثين . وتلخص التكتيك في مواصلة الكفاح الهادئ إذ أخذ الموحدون « يغادونهم ويراحونهم » حتى أمكنهم الله من الغادر نفسه ، وهو : عبد الله بن شراحيل الذي مكن ابن همشك من قرمونة ، فأخذ ابن شراحيل أسيراً مقبداً في الحدييد إلى السيد أبي يعقوب يوسف الذي أنزل به وبأتباعه وأشياعه العقوبة العظمى - الموت قتلاً .

وفي تلك الأثناء وصل الجيش الضخم الذي جهزه عبد المؤمن من مراكش ، وكان يقوده يوسف بن سليمان . وبذلك الاهتمام بالأندلس على المستوى العسكري انتعشت آمال الناس هناك ، وقويت بالموحدين إشبيلية ، كما أمكن إدخال الأقوات والميرة دون عوائق إلى قرطبة (٢٠٨) - التي كانت مهددة من قبل العدو ، وكأنها أرض حرام ، كما نرى .

والمهم أن الأحوال غير المستقرة بالأندلس كانت تتطلب المشاورات المتواصلة مع حاضرة الخلافة ، فكان على السيد / أبي يعقوب يوسف أن يتوجه من إشبيلية إلى مراكش لزيارة الوالد الخليفة عبد المؤمن ، وكان عليه أن يستخلف على قرمونة القائد أبا محمد عبد الله بن أبي حفص (الهنثاتي) ، الذي كان عليه أن يظهرها من كان بداخلها من بقايا الثوار أو المتآمرين الأشرار . وسار إليها ابن أبي حفص ، وضيق على من كان بداخلها من الرعية والشرذمة الشرقية (شرذمة ابن مردنيش وابن همشك) . ورغم ما تقوله الرواية من أن المحصورين بقرمونة يشسوا من نصرة ابن مردنيش ، إلا أنهم لم يستسلموا للمرحدين إلا بمداخلة رجل من أهل المدينة - اسمه شراحيل - طلب الأمان لنفسه ولأهله نظير فتح باب المدينة التي دخلها الموحدون بعد أن طال حصارها مدة تقرب من سنتين ، وذلك في يوم الجمعة ١٥ من المحرم سنة ٥٥٧هـ / ٦ يناير ١١٦٢م (٢٠٩) .

(٢٠٨) ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٤٩ ، ابن صاحب الصلاة ، ص ١٨١-١٨٢ .

(٢٠٩) ابن عذاري ، الموحدون ، ص ٤٩ ، وقارن ابن صاحب الصلاة ، حيث المزيد من تفاصيل الأحداث ، مثل : عميل الموحدين شراحيل (غير الغادر السابق) والإشادة بالقائد أبي محمد =

سنة الأسطول

أما عن سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م فهي ، بالنسبة لعبد المؤمن وأميراطوريته الناشئة: سنة الأسطول. ففيها صدرت أوامر الخليفة بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل بلاد المغرب وإفريقية والأندلس ، استعداداً للغزو في سواحل وفي عمق بلاد الروم الإسبانية، سواء في سواحل البرتغال حيث كان مرور أساطيل الفرنج من الصليبيين أو في سواحل الشرق وميورقة اختياراً من بلنسية ودانية والمرية ، وهي المنطقة التي كانت مسرحاً للعمليات البحرية المضادة من قبل الإيطاليين من الجنوبيين والبيسانيين (أهل بيزة) . فلقد تم في تلك السنة إنشاء ٨٠٠ (ثمانمائة) قطعة دفعة واحدة ، فكان عام ٥٥٧هـ / ١١٦٢م هو عام الأسطول الموحدى - الأمر الذى جعل امبراطورية الموحدين دولة بحرية بفضل جهود خليفة المهدي ابن تومرت (عبد المؤمن) (٢١٠).

عبد الله بن أبى حفص إينتى الذى يوصف بأنه رجل مجرب، فارس مقدم في الحروب مجرب، حافظ فاضل، درب بالفطنة، سايس ذى ناب في الفتن ومخلب، خطيب باللسان العربى العرب.

هذا مع الإشارة إلى أنه سكن أثناء مناجزة قرمونة في قلعة جابر Alcala de Guadoura وصعد سور قرمونة من موضع حصن بنى سلام. ولحقه صحبته الشيخ أبو العلاء بن هرون نصيح الأمر العزيز، ومعه أصحابه المهند الأندلسيون الموسومون في الأمر الكريم... واتحصر الشقى القائد الشرقى: أبى أبى جعفر بالقصبة مع أصحابه ، ثم نزل على الحكم فيه، وتحتها الله صفوة الجمعة ١٠ المحرم / ٢٦ يناير (٥٥٧ هـ)، وكان ثمرها ضحوة الجمعة أيضاً ١٥ ربيع الأول / ٢٢ مارس (٥٥٨ هـ) . ومن المهم الإشارة إلى ما يقوله أبى صاحب الصلاة من أن أبى محمد بن أبى حفص عندما دخل قرمونة غسل جامعه بالماء، كما يقول : " ولقد مشيت إليه وتهيته على الفتح، وهو في الجامع يغسله وهو جالس مستند إلى الحائط الشرقى من جامع قرمونة" - المن بالإمامة ص ١٨٢ - ١٨٥ .

(٢١٠) انظر روص القرطاس ، ص ٢٠٠ - حيث قائمة باعداد المراكب المنشأة في سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م كالآتي: في خلق المعمورة (مصب وادى سبو- حيث المهدية الحالية وغيرها) : ٤٠٠ قطعة ، منها في مرسا المعمورة : ١٢٠ قطعة ، ولحق طنجة وسنة وباس ورأس الريف : ١٠٠ قطعة ، وفي إفريقية ووهران وهين : ١٠٠ قطعة- وأخيراً في بلاد الأندلس : ٨٠ قطعة ، =

العناية بسلاح الفرسان :

والى جانب الأسطول نظر عبد المؤمن فى العناية بسلاح الفرسان الذى كان يمثل القوة الضاربة فى جيوش ذلك الزمان - من حيث كانت الخيالة أشبه بفرق العربات المدرعة ، السريعة الحركة ، فى عصرنا الحديث . هذا ، كما اعتنى بانتاج السلاح وخاصة السهام والنبال ، التى كانت تحقق لجيوش العصور الوسطى ماصارت تحققه المدفعية فى عصورنا الحديثة . من الضرب عن بعد دون الالتحام . هكذا أمر عبد المؤمن بضرب (صنع) السهام فى جميع البلاد ، فكان ناتج ذلك فى اليوم الواحد ١٠ (عشرة) قناطير ، فجمع من النبال مالا يعصى عدداً (٢١١) .

شوار الشرق والغدربقرناطة ،

ومنذ سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م كان الصراع يزداد حراوة فى البلاد الشرقية مع ابن مردنيش وحليفه وصهره ابن همشك . والحقيقة أنه إذا كان الموحدون قد استرجعوا قرصونة فى أول سنة ٥٥٧هـ / ٢١ ديسمبر ١١٦١م ، وأجهضوا محاولة ابن همشك فى الغدر بها ، فإن هذا الأخير عرض تلك الخسارة بمصيد سمين آخر ، هو مدينة

= وقارن ابن صاحب الصلاة المن بالأمامة ، ص ٢١٢-٢١٤ - حيث قال الراوية (الذي ربما كان ابن صاحب الصلاة نفسه) : وإن أمهر المؤتمنين - رضى - نصره الله تعالى ... وغزو الروم بجزيرة الأندلس ، واضر غزوهم برأ وبحراً ... فأمر بإنشاء القطنع فى سواحل هذه الأندلس فصنع منها زهاء ٢٠٠ (مائتى) قطعة أعمد منها فى مرسى المعمورة بحلق البحر على وادى سبر ١٢٠ قطعة وقفت عليها وعندتها بالمرسى المذكور . وأعد باقى العدد فى أرباب المعمورة والأندلس.

وأمر يكتب الرجال والرؤساء والابطال لعسارتها والقيام بحمايتها والنظر فى آلتها وأعد من القمح والشعير للعلوفات والمواشاة للعساكر ... ماعينته مكسباً كأمثال الجبال بقى إلى عام ٥٦٢ هـ / ١١٦٦م حتى فنى فى أكداة وعاد تراهيا .

(٢١١) روض القرطاس ، ص ٢٠١ ، وقارن ابن صاحب الصلاة ، الذى ربما كان الأصل ، ص ٢١٥ - حيث ونظر - رضى - فى استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة الإفريقية . واتخذ الاسلحة من السيوف المحلاة . والرشاح الطواله على أجسل الهيئات ، والدروع والبيضات والترسة ، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعصائم والبرانس .

غرناطة التي كانت أهميتها تزداد مع مرور الوقت ، منذ بداية الحكم المرابطي للأندلس.

فلقد أنتهز ابن همشك فرصة خروج والي غرناطة السيد / أبو سعيد عثمان لزيارة والده الخليفة بالحاضرة مراكش ، لتدارس أحوال ولايته ، وغدر بغرناطة نفسها . والحقيقة أن ابن همشك كان يهدف إلى أخذ قرطبة ، وكأنه كان ينافس القونس السابع ملك قشتالة في تحقيق ذلك الهدف . فإثناء حملة عبد المؤمن الأفريقية كان ابن همشك يفسد زرع قرطبة في كل صائفة - فكانها أرض أعداء الإسلام ، كما غدر بقرمونة وأفسد كثيرا من أعمال أشبيلية ، الأمر الذي جعل عبد المؤمن يقوم أولا ببناء رباط الفتح في سلا كقاعدة أمامية في مواجهة كل من برغواطة والأندلس ثم بناء مدينة جبل الفتح ليؤمن عبور المجاز عندما يتطلب الأمر .

وهكذا كان عبور عبد المؤمن سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م إلى جبل الفتح واستقباله وفود أهل الأندلس من كل مكان ، عامل استقرار للأمور في الأندلس ، إلى جانب ما قام به من أعمال حربية ألزمت الثوار التحلي بالهدوء والتريث ، وإن ظلت قرمونة فريسة لغدر ابن همشك . وهكذا تفيد رواية ابن عذارى أن مغادرة عبد المؤمن إلى الحاضرة مراكش لم تكن السبب في اضطراب ثوار الشرق (الأندلسي) ، بل إن استرجاع الموحدين لقرمونة من أسر ابن همشك كان السبب في اضطراب نيران الفتنة في قلب ابن همشك الذي قرر الغدر بأغرناطة بينما كان يحاصر جيان ، ورأى أن يداخل من كان بمدينة الحمراء من اليهود . فكانه يقابل المكر بمثيله .

وهكذا كانت مغادرة السيد / أبي سعيد عثمان لولايته غرناطة من أجل زيارة الوالد في حضرة مراكش ، فرصة انتهزها ابن همشك ليدخل اليهود على تمكينه من مدينة غرناطة ، دون القصبة التي كانت محصنة بالرجال الأبطال مملوءة بالآلات والأقوات (٢١٢) .

اليهود الأسلاميون ما بين ابن همشك وابن مردنيش :

وفعلًا مكّن يهود غرناطة ابن همشك من المدينة ، ومن ثم «خاطب أميره ابن مردنيش برسّية يعلمه بما أتفق عليه ، وأطمعه في أنه إذا وصل بعسكره ، ينزل طوعا من بالقصبة من الموحدين» . والحقيقة أن ابن همشك لم ينتظر وصول أميره ابن مردنيش بل إنه قاتل من كان بالقصبة من الموحدين ، وتمكن من أسر بعضهم حيث أراد أن يجبرهم على الاستسلام باستخدام وسائل التعذيب الجسدي والإرهاب النفسي ، فكان يرميهم في كفة المنجنيق ، كما يرمى بالحجارة . والحقيقة أن ما كان بالقصبة من الأقوات والآلات ساعد المحصورين على الصمود . وكان من الطبيعي عندما وصلت تلك الأخبار الرهيبة إلى عبد المؤمن بمراكش أن يقرر الحركة على رأس جيوشه للجواز إلى الأندلس ، وبصحبه والي غرناطة السيد / أبي سعيد عثمان (٢١٣) .

وصول الموحدين من مراكش :

ولما وصل عبد المؤمن على رأس قواته إلى سلا سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م ، قرر السيد / أبي سعيد عثمان والي غرناطة ، أن يتقدم بسرعة ليدخل قصبة المدينة ، لعل ذلك يكون رادعا لابن همشك فينصرف فراراً . وعلى عكس ذلك وجد السيد / أبو سعيد أن الأمور بغرناطة كانت قد ازدادت تفاقمًا ، وذلك بتدخل ابن مردنيش الذي وجّه إلى غرناطة عسكراً من الروم (الإسبان) يناهز الألفي فارس وكثير من الرّجالة . وهكذا كان على الأمير أبي سعيد ، عندما وصل الي مالقة ، أن يرسل لاستدعاء والي إشبيلية: أبي محمد عبد الله بن أبي حفص ، الذي توجه إليها بعسكره .

هزيمة السواقي :

مرج الرقاد :

وهكذا سار السيد / أبو سعيد بالموحدين والأندلسيين ، إلى فحص غرناطة - حيث السواقي الجارية. وخرج اليهم ابن همشك برجاله الإسبان ودارت الحرب بين الطرفين في موضع مرج الرقاد ، وأسفرت عن انهزام الموحدين وفرارهم أجمعين ، فكانوا طعنا لتلك السواقي التي سقطوا فيها بخيلهم ، فكانت السبب المباشر لهزيمتهم. وإذا كانت الهزيمة قد أسفرت عن مقتل كثير من الموحدين والأندلسيين ، وأستشهد الشيخ: أبي محمد بن أبي حفص ، فإنه من حسن الطالع أن تغلص السيد / أبو سعيد ووصل إلى مالقة.

والهم أن المحاصرين في قصبة غرناطة صمدوا ، وأنصرف ابن همشك مع أصحابه النصاري ، إلى القصبة الحمراء بغرناطة ، وهو يقتل أسرى الموحدين ، ويعيث بهم علي مرأى من إخوانهم في القصبة (٢١٤). ولما وصل خبر الواقعة إلى رباط الفتح ، وكانت العساكر قد تلاحقت بأمر المؤمنين من أجل الغزو في الأندلس من الموحدين والعرب والمرسومين (المرتقة) ، فاختر منهم عسكرا ضخما من أعيان كل قبيلة ، وعهد بقيادته إلى ولده السيد / أبي يعقوب يوسف الذي سار معهم وبرفقته الزعيم الموحدى أبي يعقوب يوسف بن سليمان إلى بحر الزقاق ، من حيث جازوا إلى الجزيرة الخضراء ، ومن ثم كان التحرك إلى مالقة حيث كان اللقاء بالسيد / أبي سعيد ، ومن ثم التحرك إلى غرناطة. أما عن عبد المؤمن فبقى محاطا بحرسه الخاص المكون من ٢٠.٠٠٠ (عشرين ألف) رجل من الفرسان والرُجالة.

أما عن الوضع في منطقة غرناطة فكان ابن مردنيش قد وصل بحملته من المسلمين والإسبان (النصاري) طعنا في ملك غرناطة ، وكان نزوله في الجبل المتصل بقصبة المدينة . أما ابن همشك فكان قد عسكر بالحمراء (القصبة) بجبل السبيكة

(٢١٤) ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٥١ . وقارن ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة ، ص ١٩٢

وفي معبته نحو من ٨ (ثمانية) آلاف فارس من الإسبان ، فضلا عن عسكره الخاص . وكان جملة رجال ابن مردنيش - وهو الأمير - أكثر عددا من عسكر ابن همشك - بطبيعة الحال . وسار الموحدون نحو الخصوم بتزودة حتى وصلوا إلى وادي شنييل (٢١٥) .

انتصار وادي حذاره :

وفي يوم ٢٧ من رجب ٥٥٧هـ / ١١ يولييه ١١٦٢م (٢١٦) علف الموحدون خيولهم ، ثم ركبوا بعد صلاة العصر ، عازمين على السير ليلا ، وأمامهم الأدلاء - خشية من مفاجأة غير متوقعة من خصومهم المدربين على حرب العصابات ، المبنية أصلا على عنصر المفاجأة بفضل آلاتهم الخفيفة ، كما نرى - خاصة وهم يتسمنون الجبل الذي على الوادي ، والمتصل بالقصبة الحمراء حيث محلة ابن همشك . والمهم أن الموحدين هم الذين حققوا مفاجأة العدو ، بعد أن مشوا طول ليلهم على شواطئ الجبل وأحجاره . وعندما برق نور الفجر أطلعوا على محلة الكفرة أصحاب ابن همشك ، فيدروهم بالكفاح في مضاجعهم ... فظنوا أن الأرض متصلة إلى محلة ابن مردنيش التي كانت بوادي حذاره ، فتردوا في الوادي ، وتقطعت أجسادهم في حافات.

وكان انتصارا عظيما للموحدين ، وهزيمة قاصمة للنصارى الذين قتل قائدهم الأقرع : حفيد البرهانس ، وحز رأسه ، وسيبقى بعد أيام إلى قرطبة حيث علق بهاب القنطرة . « وتردى في الوادي صهر ابن مردنيش «أبن عبيد» ، وقواده الأكابر ، وقرساته المشاهير ، وابن مردنيش يرى ذلك » (٢١٧) .

(٢١٥) المن بالإمامة ، ص ١٩٤-١٩٥ ، وقارن ابن عذارى ، ص ٥٢ .

(٢١٦) ها تحسن الإشارة إلى أننا رجحنا الأخذ بتاريخ ابن صاحب الصلاة هذا على أساس النص على أنه يوم الخميس ليلة الجمعة بدلا من ٢٥ رجب / ٩ يولييه عند ابن عذارى .

(٢١٧) ابن عذارى ، الموحدين ، ص ٥٢ ، وقارن الأصل في ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص ١٩٨-١٩٩ حيث : وانصلت الواقعة ، الساحقة المطبوعة في الاشقياء والنصارى من كل جانب واستولى الموحدون عليهم يقتلونهم بتحكيم الرماح والسيوف في السهل وفي الجبل - بنصر الله .

ودخل الموحدون مدينة غرناطة مظفرين ، وسط النهار ، «ونزل المحصورون في القسبة منهم إلى المدينة يقتلون من كان فيها من الأشقياء» ، بينما انهزم ابن مردنيش مع باقي شذمته ، تاركا أخبثته وأسلابه ، والموحدون يقتفون أثره ويقتلون من أدركوه من قومه» . واعتبر ذلك النصر سعادة للسيد / أبي يعقوب يوسف ، واستقر ذلك في النفوس ، «وكان ذلك سببا في نبذ الأمر العزيز» (٢١٨) .

حصار ابن همشك في جيان ومحاولة إحياء قرطبة :

وسر عبد المؤمن بنأ ذلك الفتح . وكان على الموحدين بقيادة السيدين / يوسف وعثمان أن يتحركوا بعد ذلك لحصار ابن همشك بمدينة جيان . ونزل الموحدون بساحل الكدية التي كان قد سبق أخذها ، فلما ابن همشك ومن معه من الأشقياء الثوار ببقايا الخرائب ، وبمشاهك الأشجار ، فانتصف ماحوالي جيان وخرّب عامرها ، فكان خراب منطقة جيان الثائرة سببا في عمران قرطبة ، حيث صدرت الأوامر إلى السيدين الابنين باستيطانها . وكان ارجحال الأميرين يوسف وعثمان إلى قرطبة في شهر شوال من سنة ٥٥٧هـ / سبتمبر - أكتوبر ١١٦٢ م ، حيث أقاما فيها مدة ٤ (أربعة) أشهر .

وتدل رواية ابن عذاري على أن محاولة إحياء عاصمة الخلافة العتيقة لم تكن أمراً سهلاً في ذلك الوقت من بداية الهيمنة الموحدية على الأندلس . فقد خرج أهل قرطبة لاستقبال السيدين بجهة باب القنطرة ، «وكان أعيان قرطبة الذين أبقتهم الفتنة على أقدامهم بارزين مع النظارة من العامة ... نحو من ٨٠ (ثمانين) رجلاً

(٢١٨) ابن عذاري الموحدون ص ٥٣ . وقارن ابن صاحب الصلاة ، ص ١٩٩ . حيث «وقشت الحال في ضم أموال المنافقين للمخزن . بما وجب عليهم من نفاقهم ، وارتدادهم إلى الفتن ثم نظر في صلاح البلدة بمعنى التسكين والصارة لجوانبها والتوطين»

... ظهر عليهم البزء (٢١٩).

محاولة من جانب عبد المؤمن لإحياء قرطبة ، وابن صاحب الصلاة كاتباً ،

وهنا يرجع الفضل لرواية ابن صاحب الصلاة في بيان اهتمام عبد المؤمن بقرطبة في تقديم معلومات طريفة عن محاولة عبد المؤمن أرجاع الشباب إلى العاصمة التي كان قد أكل عليها الدهر وشرب، كما يقال . فقد صدر الأمر الخلاقى أثناء حصار جيان للسيد بن أبو يوسف يعقوب وأبو سعيد عثمان أن تكون قرطبة مقراً لإدارة الأندلس، كما كانت عليه الحال أيام بنى أمية .. وهكذا وصل إليها أبو اسحق برّاز بن محمد المرسقى مأموراً بولايتها ، واستقر داخلها ، واستدعى الكتاب والمشارف من إشبيلية وأنظارها ... وهكذا يادر إليه الكتاب من إشبيلية ، مثل : أبي القاسم بن عساكر ، وأبي بكر المراني وأبي بكر الحصار، ومعهم العدد الكبار من صفار الكتاب. هذا ، كما انتقلت الى قرطبة جماعة كبيرة من مشاهير الأعيان. وهنا يشير ابن صاحب الصلاة الى أنه كان في جملة من كتب من الكتاب ، ولكنه استعفى وانزعم غيره ممن كتب لتقييد أموال المخزن بها وبأنظارها ، وبالبلاء المفتوحة المرجعة من أيدي المناققين، ولضمّ الزكوات والفرائض المفروضات. فقرهم عند وصولهم إليه وأدناهم وأنزلهم الديار للسكنى ، وستي لهم الخيرات ... ووالاهم بالخيرات واستعملهم على الأشغال ووالاهم.

وهكذا - عمرت قرطبة بعد فقرها ، وأمنت من كربها بالفتنة وذعرها ، وتلاحق الناس والكتاب لهذه الآمال ، وشغلوا بالتصرف في الأعمال . وأظهر أبو اسحق برّاز بن محمد عاداته في النصح لجميع المخازن (الادارات) ، في داخل قرطبة

(٢١٩) ابن عسّار ، الموحدين ، ص ٥٣ - حيث يعلق الراوى على ذلك قائلاً : «فلقد ذاتت قرطبة وأهلها من سوء هذه الفتنة الأندلسية ، ما لم يذقه أحد من أرائلهم في الفتنة الحمودية ، بالخارج ابن هشام ، وقصائره العجيبة». ولما استقر السبدان بقرطبة أمراً ببناء قصورها وحمايتها ثغورها».

وخارجها ، وجميع الأفطار التي للموحدين والمواطن ، واستعمل على أشبيلة من أصحابه من وثقه ، واختصه وصدقه . ولم يزل في عمله في من النصح ، وشغله البين الوضوح كالصبح ، مدة حياته الى أن توفي بقرطبة بعد ذلك في عام ٥٥٩هـ / ١١٦٤م بعلة النقرس (٢٢٠) .

قرطبة العاصمة الأندلسية العامرة،

عند عودة السيدين يوسف وعثمان من غزوتهم المنصورة ومعهم الشيخ أبو يعقوب ، في ١٢ شوال سنة ٥٥٧هـ / ٢٤ سبتمبر ١١٦٢م ، خرج جميع أهل قرطبة إلى لقائهم ، وكان ابن صاحب الصلاة أحد من خرج للتبرك بهم مع وفد كتاب أهل اشبيلية إلى باب القنطرة المتصل بالفحص إلى طريق جيان ، وكانوا حوالي ٨٠ رجلا في حالة رثة بسبب غارات ابن همشك وقساوته . والمهم أن السيدين والشيخ أبو يعقوب استقروا بقرطبة ، فأمرؤا ببنيان قصورها ، وعمارتها ، وحماية ثغورها . وجلبوا البنائين والعرفاء والفعله لبنيان القصور والدور من خرائبها ، وإعادةها على رفيع قبابها ، وصرف حالتها من شيبها إلى شبابها .

وتفرد العريف أحمد بن باسة إلى ذلك ، وجدّد ما وهى هنالك ، وانجلب أهلها إليها في أقرب مدة ، وتجددت آمالهم ، وصلحت أحوالهم أحسن جدة .

ثم انصرف الشيخ أبو يعقوب بمن أمر له من العسكر المزيّد من الموحدين والمجاهدين والعرب المجائزين ، إلى الحضرة مراکش لشرح الحال وأقام السيدان بباقي الموحدين ، فوصلهم من الأفطار الوفود بالتهاني ، وأصبحت بهم قرطبة بعد يؤسها مطمحا للهمم ، ومسرحا لآمال الأمم .

وتراجع أهل قرطبة من البلاد إلى موطنهم ... وأحسن السيدان الأجلان للطلبة من أهل قرطبة المذكورة صابث اسماءهم في زمانم العسكرية للمواساة ، ورتبوا الأجناد وجلبوهم من كل بلد للسكنى فيها ، وأظهروا الاغتباط بنواحبها . فظهر

ال عمران ، واتصل الأمن وسكنت الأوطان ، وكان الفتنة لم تكن . وأقام السيدان إلى أول المحرم من عام ٥٥٨هـ / ١٠ ديسمبر ١١٦٢م ووصل السيد أبو يعقوب الاستدعاء السعيد من الحضرة الجليلة فتحرك من قرطبة إلى إشبيلية ١٠ من المحرم / ١٩ ديسمبر ١١٦٢م ، وبعد ٥ (خمسة) أيام واصل سيره إلى الحضرة ليكون الأمر له بدلا من أخيه محمد المخلوع.

وزاد السيد أبو سعيد قرطبة تمصيرا ، ومهددا تهيدا وتبشيرا . ومشى الأوامر العلية بالتسكين والتوطين والإحسان والتأنيس . وانضات اشبيلة ونظرها في الأشغال السلطانية من الولاية والعزل والتقديم والتأخير في العقد والحل إلى نظر السيد الأجل بقرطبة بمن فيها . وكذلك اشغال المخزن - انهاء الله - إلى نظر أبي اسحق براز بن محمد المسوفي : فكان باشبيلية على شغل الموحدين : أبو داود بلول بن جلداسن ، وكان على شغل المخزن بها : محمد بن المعلم الإبلاني يجتمعان كل غدوة على المصالح ثم يفترقان إلى النصائح ، داما على هذا إلى أن كانت وفاة الخليفة المرضي - خليفة المهدي (٢٢١).

سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣ م : سنة وفاة عبد المؤمن

أبو يعقوب يوسف (أمير أشبيلية) ولياً للعهد :

تعتبر سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣ م من السنوات الفارقة في تاريخ امبراطورية الموحدين في شمال افريقية وأيبيرية الجنوبية. فلقد شهدت حدثين جليدين ، أولهما : تحويل عبد المؤمن ولاية العهد من ولده أبي عبد الله محمد ، الذي جُرحت أهليته لولاية الأمر ، نتيجة حتمية لجهده بتعاطي الخمر (أس المنكر) ، إلى ولده المجاهد ، وإلى اشبيلية : أبو يعقوب يوسف.

فلقد وصلت الأوامر إلى السيد / أبي يعقوب « بالحركة إلى الحضرة ، فسار من قرطبة إلى اشبيلية ، حيث أقام ٦ (ستة) أيام ، وأصل بعدها سيره إلى الحضرة ، بينما أقام السيد / أبو سعيد عثمان بقرناطة ، فزادها تمصيراً ، » كما انضافت اشبيلية ، ونظرها في الأشغال إليه».

وتنص رواية ابن عذارى على أن الأمير يوسف ، وهو يلهم دعوة والده ، كان يأمل في أن يكون مسيره ، من أجل صيرورة الأمر اليه بولاية العهد ، وذلك بخلع أخيه « المخلوع : محمد » ، واتفاق الموحدين على تقديمه (يوسف) للإمامة . هنا ، كما يذكر سبب خلع محمد (أبي عبد الله) من ولاية عهد أبيه ، فيقول: إن عبد المؤمن زار ضريح الإمام المهدي في فصل الشتاء والبرد ، وإنه في تلك الحركة « ظهر من جرحه (محمد المخلوع) ... من شرب الخمر وظهور السكر عليه ، إذ تقياً وهو راكب على فرسه في المعلقة (المعسكر) على مرأى من أشياخ الموحدين ... فأسقط هو بفعله من الأمر نفسه (٢٢٢) ».

وهنا لا بأس من القول أنه ربما كان في الأمر كرامة من خليفة المهدي المعصوم ، الذي ربما شعر بقرب نهاية أجله ، فكان يعد العدة لترتيب أمور الدولة ، قبل أن (٢٢٢) ابن عذارى الموحدين ، ص ٥٤ ، وانظر الأصل في ابن صاحب الصلاة ، ص ٢١٥-٢١٧- حيث البرد والبلل وقصة سكر محمد المخلوع.

يلحق بالمعصوم ، تماما كما فعل هذا الأخير ، عندما أكد خلافة عبد المؤمن له إثر هزيمة البحيرة (الكارثة) ، فقال : الأمر باق مابقي عبد المؤمن (ماسيق ، ص ٢٦٢) .

وإلى جانب استمرار الأمر بولاية العهد التي نقلت إلى السيد / يوسف ، أمير الأندلس المستدعى إلى مراكش ، كان عبد المؤمن يعمل على إقرار الأمور في الأندلس ، في الأيام الأخيرة الباقية من عمره . وهكذا قرر وهو يخرج من مراكش في ١٥ من ربيع الأول سنة ٥٥٨هـ / ٢١ مارس ١١٦٣م ، أن خروجه على نية الفوز والجهد ، الأمر الذي كان يتطلب النظر في الآلات والاستعداد (٢٢٣) . واتصل سيره البطيء على عادته - حتى لا يرهق الرجال - مع الاستراحة في المنازل المبنية على طول الطريق ، حتى وصل إلى رباط الفتح من سلا ، بالفحص المتصل بقبولة ، التي تحولت من رباط لجهاد المخالفين في بلاد برغواطية ، أهل الخرابية ، إلى رباط أماسي لجهاد العدو الإسباني ، صاحب الريكونكيستا ، لحيصا وراء - المضيق (٢٢٤) .

(٢٢٣) انظر ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٢٥٥ . ورضي القرطاس ، ص ٢٠٢ - حيث خروج عبد المؤمن سنة ٥٥٨هـ - ١١٦٣م من مراكش إلى الأندلس برسم الجهاد يوم الخميس ٥ من ربيع الأول / ٢١ - فبراير ، فوصل رباط الفتح ، من حيث استنفر القبائل إلى الجهاد ، فأجابه خلق كثير ، من العسكر النظامي ، ومن الموحدين ، والمرتقة من قبائل المغرب الأقصى ، ومن رناتة المغرب الأوسط ما يزيد على ٣٠٠.٠٠٠ (ثلاثمائة ألف) من الفرسان كما تريد الرواية . كما أجابه من المطوعة ٨٠.٠٠٠ (ثمانين ألف) فارس ، ومن الرجال ١٠٠.٠٠٠ (مائة ألف) راجل - وهي الأعداد المبالغ فيها من غير شك .

(٢٢٤) انظر ابن عذاري ، الموحدين ، ص ٥٥ ، وقارن روضي القرطاس ، ص ٢٠٢ - حيث . فضائق بهم الأرض . وانتشرت المحلات والمعسكر في أرض سلا ، من عين غبولة إلى عين خميس . واستدارت راجعة إلى حلق المصورة . عهد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٢٣٥ - حيث النص على أنه بعد فتح المهديّة أقام عبد المؤمن مراكش بقية سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ و ٥٥٦ هـ / ١١٦١م ، و ٥٥٧ هـ / ١١٦٢م ، وفي أول سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢م حرج أمره إلى الساس كافة بالفزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس . وكثبت عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ، ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، فاجتمعت له جموع عظيمة . وخرج بقصد جزيرة

وفى ذلك تقول رواية ابن صاحب الصلاة أنه بعد أن اجتمعت العساكر فى غبولة ، فى عدد أزيد من ٢٠٠.٠٠٠ (مائتى ألف) فارس وراجل ، جمع عبد المؤمن أشياخ الموحدين ، وسألهم الرأى فى غزو العدو الرومى (الإنسيائى). وهنا ينص أبو محمد سيد رأى بن وزير ، على أنه عندما قال أشياخ الموحدين إن الرأى الأخير له ، وعندما قال عبد المؤمن : «نقسم العسكر على روم جزيرة الأندلس إلى ٤ (أربع) جهات ، سارع ابن وزير بأن تكون الجهات الأربعة ، هى :

١- وجهة البهوج (مملكة ليون).

٢- وجهة قلمية (البرتغال).

٣- وجهة أذفونش (قشتالة).

٤- وجهة برشلونة (أرجون) .

فكان ابن وزير هو المستشار الأول فى الشؤون العسكرية الأندلسية (٧٢٥).

وفى الوقت الذى كان ينتظر فيه عبد المؤمن وصول المتأخرين من العساكر ، مرض فى أرض الرباط والجهاد (رباط الفتح) مرضه الذى مات فيه - فكانه كرامة ثالثة تذكر له ، بعد ولايته عهد المهدي ، وولاية العهد لأبى يعقوب يوسف بدلا من أبى عبد الله محمد ، وأخيراً تأتى الوفاة فى أرض الجهاد والرباط ، ومن ثم الدفن فى دار الهجرة: تينمل.

والمهم أنه فى الوقت الذى كان الأطباء يدخلون عليه للعلاج ، لم يفتنه الأمر بتأكيد نقل ولاية العهد ، وذلك بإسقاط اسم ابنه محمد من الخطبة ، يوم الجمعة ٢ جمادى الآخر ٥٥٨هـ / ٨ مايه ١١٦٣م ، والاتفاق مع الشيخ أبى حفص كبير

« الأندلس مظهر الفزوة والاحتساب » ، ويتم مابقى منها بيد محمد بن سعد (ابن مردنيش) ، وسار إلى سلا حيث أقام ينتظر تكامل العساكر ، فاعتل علته التى مات فيها - رحمه الله . (٧٢٥) المن بالامامة ، ص ٢١٨-٢٢١ .

مشيخة المصامدة على تقديم ابنه يوسف (٢٢٦).

وكانت وفاة سراج الموحدين : عبد المؤمن بن علي الكومي ، ليلة الخميس ١٠ من جمادى الثانية سنة ٥٥٨هـ / ١٧مايه ١١٦٣م ، وحمل إلى تينملل ودفن بجانب المهدي (ابن تومرت) - كما كان الحال بالنسبة لأبي بكر ، أول خلفاء الإسلام - وكان له من العمر ما بين ٦٣ و ٦٤ سنة.

أما عن مدة خلافته فهي : ٣٣ (ثلاثة وثلاثون) سنة و ٨ (ثمانية) أشهر ، ٢٥ (خمسة وعشرون) يوما وهي من الخميس ١٤ رمضان ٥٧٤هـ / ٢١ أغسطس ١١٦٣م إلى الثلاثاء ٨ جمادى الثاني ٥٥٨هـ / ١٥مايه سنة ١١٦٣م (٢٢٧).

هذا ، وينفرد عبد الواحد المراكشي ، وينقل عنه صاحب روض القرطاس بوصف عبد المؤمن وصفا «قوتوغرافيا وبالألوان» ، كما يقال ، من حيث كان : أبيض اللون مشربا بحمرة ، أكحل العينين ، شديد سواد الشعر ، أجعد ... أما عن أوصافه في السياسة ، فهو «لامثيل له في ملوك الموحدين» وهو في الهمّة : «لم يخلد إلى الراحة ، ولا ركن إلى اللذات» (٢٢٨).

(٢٢٦) ابن صاحب الصلاة، ص ٢٢١ .

(٢٢٧) انظر عذاري ، الموحدون ، ص ٥٥ ، ابن صاحب الصلاة ، ص ٢٢١-٢٢٢ ، وقارن ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٢٠٢- حيث نفس تاريخ الوفاة (١٠ جمادى الثاني) مع الاختلاف في اسم اليوم ، حيث: فجر الثلاثاء ، هنا بدلا من ليلة الثلاثاء عند ابن عذاري ، مع النص على ان من حدد عمر عبد المؤمن بـ ٦٣ سنة هو ابن الخشاب ، أما من حدده بـ ٦٤ سنة فهو ابن صاحب الصلاة في المن بالامامة .

(٢٢٨) انظر عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٩٧ ، وقارن ابن أبي زرع ، روض القرطاس ،

ص ٢٠٤-٢٠٣ .

المصادر والمراجع

- ابن الأبار ، الحلة السيرة
نشر وتحقيق حسين مؤنس
في ٢ ج - ١٩٦٣ .
- أحمد مختار العبادي ،
تاريخ المغرب ، والاندلس ١٩٦٨ .
- احمد ابريز ،
رؤي العالم ، دليل العمل الميداني
الانثروبولوجي
(المركز القومي للبحوث الاجتماعية
والجنائية) القاهرة ط ١٩٩٣ .
- ابن الأثير ،
الكامل في التاريخ
ج ١١ (من ٥٢٧ هـ - ٥٨٣ هـ)
(تاريخ المغسرب : المرابطون
والموحدون) ط أوروبا .
- احمد عزايي : رسائل
مرحبة :
مجموعة جديدة ، تحقيق ودراسة :
أحمد عزايي ، الطبعة الأولى -
- ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
(من منشورات كلية الآداب والعلوم
الانسانية القنيطرة - المغرب)
- الإدريسي ، نزهة المشتاق ، نشرة
كاملة ، في ٢ ج .
القاهرة - ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
- ادريس (هادي روجيد)
Idris Hady Roger
بلاد البربر الشرقية علي عهد
الزيريين ، من القرن الـ ١٠ - ١٢ م .
La Berberie Orientale Sousles
Zirides
الجزء الأول باريز - ١٩٦٢ .
- الاستبصار في عجائب الأمصار
(كتاب)
نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد ،
من منشورات كلية الآداب بجامعة
الإسكندرية - ١٩٥٨ .
- أشباخ (يوسف) .
تاريخ الاندلس في عهد المرابطين

اسلامية (بالفرنسية) باريس ١٩٧٦
 □ ابن بشكوال
 كتاب الصلة، مجموعة المكتبة
 الاندلسية ،
 مدريد ١٨٨٢ .
 □ البيدق.
 اخبار المهدي محمد بن تومرت.
 نشر عهد الحميد حاجيات.
 الجزائر ١٩٨٦ .
 □ التجاني (أبو محمد عبد الله بن
 محمد) الرحلة : رحلة التجاني (من
 ٧٠٦ - ٧٠٨ هـ) ط تونس
 ١٣٨٧ هـ / ١٩٥٨ م .
 □ الحسن الوزان (ليون الافريقي) ،
 وصف المرقيا ، ترجمة عبد الرحمن
 حميد ،
 نشر السعودية .
 □ الحلل الموشية في ذكر الاخبار
 المراكشية -
 مجهول ، تحقيق سهيل زكار ،
 عبدالقادر زمامة .
 ط. الدار البيضاء . ١٩٧٩

والموحدين ترجمة من الالمانية -
 محمد عبد الله عتاق .
 ٢ ج ط . القاهرة - ١٣٦٠ هـ -
 ١٩٤١ م .
 □ البكري المسالك والممالك ،
 القسم الخاص بالمغرب نشر دي سلان
 De Slane .
 ط الجزائر ١٨٥٧ .
 □ بروفنسال .
 نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب
 الأقصى نشر إ. ليفي - بروفنسال .
 مطبوعات لاروز - باريس - ١٩٤٨
 □ بروفنسال :
 مجموع رسائل موحدية من انشاء
 كتاب الدولة المؤمنية .
 اعتني باصدارها لافي بروفنسال ،
 رباط الفتح ١٩٤١ .
 E.Lévi - Provençal , Un
 Recueil de Lettres officielles
 Almohades
 Etude diplomatique et
 historique , Paris, 1942.
 □ برونشفيج (روبير)
 (R.Brunschwig) دراسات

مراكش - بالفرنسية.
ط - الرباط ١٩٥٩ .
□ رُم لاندو (Rom Landou) .
القصبات في جنوب مراكش
The Kasbas of Southern
Morocco
لندن ١٩٦٩ .
□ رشيد بورويبة .
عبد المؤمن : سراج الموحدين .
Rachid Baurouiba
Abdel - Mu' men Flambeau
des Almohades
ط . الجزائر ١٩٧٤ .
□ ريكارد : P. Ricard
مراكش ، المرشد الأزرق ، بالفرنسية
Maroc. Les Guides Bleus,
Paris 1950
□ ابن أبي زرع ،
روض القرطاس ،
ط - الرباط - ١٩٧٣ .
□ سحر عبد العزيز سالم ،
مدينة الرباط في التاريخ الاسلامي .
الاسكندرية ١٩٩٦ .

□ ابن الخطيب ،
كتاب أعمال الأعلام فيمن يبيع قبل
الاحتلام من ملوك الاسلام .
تحقيق وتعليق إ. ليفي - بروفنسال
دار المكشوف - لبنان ط ٢ -
١٩٥٦ .
□ ابن خلدون .
كتاب العير ، ج ٦ ط . بولاق ،
(عن الموحدين) .
□ المقدمة ، ط . التجارية ،
القاهرة بدون تاريخ
□ ابن خلكان ،
وفيات الأعيان (ترتيب في سنة
٦٥٤ هـ / بالقاهرة) .
ط . بيروت - ١٩٧٨ .
□ دوزي ، Dozy
ملحق القواميس العربية
Supplement aux
dictionnaires arabes
في ٢ ج . ط ٣ . بريل - ليدن و
باريز ١٩٦٧ .
□ ديفيردان (Deverdan) ،

ملوك الاندلس والمغرب.
القسم ٣ في تاريخ الموحدين .
نشرة أمبروزيو وبني ميراندا
(هوني) بمشاركة محمد بن تاويت
ومحمد ابراهيم الكتاني.
منشورات معهد مولاي الحسن -
تطوان). ١٩٦٣ .
□ عنان (محمد عبدالله) ،
المرابطون والموحدون - ٧ ج .
ط - القاهرة ١٢٨٣ هـ / ١٩٦٤ م.
□ الغزالي ،
إحياء علوم الدين ،
٤ ج . ط - صبيح - الازهر .
بدون تاريخ .
□ فتح الله خلف ،
الأحوال والمقامان ،
بحث مخطوط لم يطبع بعد .
□ فيليب حتي ،
تاريخ العرب المظول ، ٢ ج
دار الكشاف - ١٩٦٩ .
□ ابن القطان .

□ سيليرييه (Celerier) ،
مراكش (بالفرنسية)
ط - باريس ١٩٤٨ .
□ ابن صاحب الصلاة ،
المن بالامامة علي المستضعفين .
نشر وتحقيق وتعليق د . عبدالهادي
التازي بيروت ١٩٦٤ .
□ (أبو بحر) صفوان بن ادريس
(ت ١٦ شوال ٥٩٨ هـ) .
زاد المسافر وغرة محبب الادب
السافر .
بيروت ١٩٧٠ .
□ عبد الواحد المراكشي ،
المعجب في تلخيص أخبار المغرب
القاهرة - ١٩٤٩ .
□ عبدالهادي التازي ،
التاريخ الدبلوماسي للمغرب من
أقدم العصور الي اليوم .
(ج ١) ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
□ ابن عذاري ،
البيان المغرب في اختصار أخبار

نظم الجمال.

تحقيق محمود علي مكي .

(من منشورات كلية الآداب والعلوم
الانسانية ، جامعة محمد الخامس -
الرباط).

□ كوديرا (د. فرانسيسكو).

Codera (D. Francisco).

اضمحلال وسقوط المرابطين في
اسبانيا.

Decadencia y Desaparicion
de los Almoravides en
Espana.

سرقطة - ١٨٩٩ .

□ لاوست (إميل) Laoust

(Emile) إضافة إلى دراسة تسمية

جبال أطلس العليا (لدرش) .

Contribution a une étude de la
toponomie du Haut Atlas
(par Drech).

مجلة الدراسات الإسلامية

(بالفرنسية) ، سنة ١٩٣٩ ،

الكراسة ٣ - ٤ ، ص ١٩٩-٣١٢ .

الماتريد - كتاب التوحيد، نشر

وتحقيق فتح الله خليف .

ط مصر - بدون تاريخ.

□ محمد بن تومرت،

اعز ما يطلب.

نشر وتحقيق عمار الطالبي.

الجزائر ١٩٨٥ .

□ محمد بن شاذي الكنتي.

عيون التواريخ.

تحقيق فيصل السامر، نبيلة

عبدالمعظم داود.

ج ١٢ - بغداد - ١٩٧٧ .

□ الشيخ / محمد عبده،

رسالة التوحيد .

ط . عيسى الحلبي.

مصر - ٨ - ١٣٥٧ هـ .

□ محمد يعلي.

المصادر الاندلسية - ١٠ - ٢)

نصوص عربية)

□ كتاب الانساب .

لابن عبدالحليم (ق ٨ هـ / ١٤ م).

□ كتاب عقاقر البربر

(المجهول).

Storia dei Musulmani de
Sicilia

في ٣ أجزاء بمراجعة كارلو الفونسو
نلينو ط. كاتانيا - ١٩٣٩ (من
مكتبة عبد الحميد العبادي).

□ النباهي ،

تاريخ قضاة الأندلس ،

نشر بروكسسال - ١٩٤٨ .

□ النويري .

نهاية الأرب.

الجزء الخاص بالمغرب والأندلس -
نشر وتحقيق أبو ضيف - الرباط -
الدار البيضاء . بدون تاريخ.

نشر دار الكتب بالقاهرة - المجلد
رقم ٢٤ . تحقيق نصار والأهواني
١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

□ هالفن (لوي).

مجموعة شعوب وحضارات (بالفرنسية).

Peuples et Civilisations

الجزء السادس ، فصل الحروب
الصلبية للوي هالفن Louis
Halphen ط. ٢ باريس ١٩٤٠ .

□ هويشي ميراندا ، (Huici)

□ كتاب شواهد الجلة (ابن العربي

ت ٥٤٣ / ١١٤٩).

دراسة وتحقيق محمد يعلي.

(المجلس الاعلى للابحاث العلمية -

الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي).

□ المسعودي،

مروج الذهب، ٤ ج ط. بيروت.

□ مصطفى أبو ضيف ،

أثر القبائل العربية في الحياة

المغربية خلال عصري الموحدين وبني

ميرين (٥٢٤ - ٨٧٦ هـ / ١١٣٠ -

١٤٧٢ م).

الدار البيضاء - ١٩٨٢ .

□ المقرئ.

نفع الطيب، ط بيروت.

□ المؤلف .

تاريخ المغرب العربي ٤ ج.

ط. الاسكندرية.

(منشأة المعارف : جلال حزي).

□ ميشيل أماري Michele

Amari

تاريخ المسلمين في صقلية.

التاريخ السياسي لامبراطورية
الموحدين

Historia Política del Imperio
Almohade

ج ١ ط - تطوان-مراكش ١٩٥٦ .
□ الوسياني .

كتاب السير : مخطوط دار الكتب،
دراسة للمؤلف تونس ١٩٧٥ (وانظر
ج ٢ للمؤلف ، ص ٦٠٦)
□ ياقوت الحمودي،

معجم البلدان،
مطبعة السعادة - مصر ١٩٠٦ م.

□ دائرة المعارف الإسلامية.
دائرة معارف ليكسيكون (Lexicon)
الأمريكية.

الكشاف

أسماء الرجال والقبائل والجماعات

أحمد (أبو جعفر) بن عطية ٢٧٩ -
 ٤٦٩ - ٤٩٥ - ٥٠٣ - ٥٠٤ -
 ٥٠٦ - ٥٠٩ -
 أحمد بن ملحان ٥٠٣ -
 أخيل بن إدريس (الرندي) ٢٧٩ -
 الإدارة ٢٣ -
 إدريس بن جامع ٢٧٩ -
 الإدريسي ٣٢ - ٧١ - ٧٢ - ٧٥ -
 ٧٦ - ٨٣ - ٩٤ - ١١٠ -
 ٢٨٣ -
 بنو أزكثرا ٣٠٤ -
 الأسبان (المسيحيون) ٣٥٥ -
 ٣٧٣ - ٤٤٦ - ٥٢٧ - ٦٣٨ -
 اسحاق بن جامع ٣٣٤ -
 اسحق بن علي (منافس أبو اسحق
 إبراهيم) ٣٣٨ - ٣٣٤ -
 أبو اسحق بن علي ٢٦١ -
 اسحق بن عمر الهتاني ٣٦٦ -

(١)

ابن الأبار ٢٥ -
 إبراهيم (ابن عبد المؤمن - ابن بنت
 ماسن) ٣٠٩ -
 إبراهيم (أخو عبد المؤمن) ٣٠٨ -
 أبو إبراهيم (انظر سليمان بن
 أبيج).
 إبراهيم (أبو اسحق) بن تاشفين
 (آخر المرابطين) ٣١٢ - ٣١٦ -
 ٣٣٤ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ -
 ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤ -
 ٣٥٥ - ٤٤٢ -
 الألبج ٣٩٨ -
 ابن الأثير ٢٤ - ٢٥ - ١٨١ -
 ١٨٩ - ٣٧٩ - ٣٩١ - ٣٩٥ -
 ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٥٦ -
 أحمد بن إدريس (القاضي) ٥١٣ -
 أحمد بن ياسة ٥١٧ - ٥٤١ -

- اسحق بن محمد بن علي بن غانية
(صاحب ميورقة) ٤٦٩ .
- اسماعيل ابن عبد المؤمن (ابن
فاطمة بنت يوسف) ٣٠٩ .
- أسفو (محمد بن تومرت) ٢٢٦ -
٢٢٩ - ٢٧٢ .
- اسماعيل ايجيج (ابو ابراهيم)
٣٠٧ - ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣٢٨ .
- الأشعري (المؤرخ - الشاعر) انظر
علي (ابو الحسن) .
- أبو الاصبح بن سهل (القاضي)
١٤٣ .
- ابن أصبغ (أبو طالب عبد الجبار
الأموي) ١٣٠ .
- ابن أضحى (قاضي المرية) ٤٦٢ -
٤٦٣ .
- الأطرابلسي (توفيق بن محمد)
١٥٤ .
- الأعيان ١٢ - ١٥ - ١) أعيان
هرقة ١٦ - ١٧ .
- أهل أغمات ٧٩ - ٨٠ .
- الأقرع (حنيد البرهانس) ٥٣٨ .
- آلدي بن موسى (القائد) ٢٤٩ .
- الفونسو الـ ٧ - ١٢ - ١٥ - ٤٣٢
(المسليطين) - ٤٧٧ - ٤٧٨ -
٤٨٩ - ٥٠١ - ٥٠٢ - ٥٠٣ -
٥٣٥ .
- الفونسو المحارب ٤٣٦ - ٤٣٧ -
٤٣٩ .
- الفونسو هنريك (ملك البرتغال)
٤٦١ .
- بنو آمرسال ٣٠٢ .
- بنو أمغار (الشيخ تومرت) ٢٣٢ -
٤٩٥ - ٤٩٦ .
- بنو أمية ٥٤٠ .
- الأمويون (بالأندلس) ٤٥٧ .
- الإنجليز (الانقليش) ٤٤٦ .
- آنجمار (يحيى) ٣٢٤ - ٣٢٥ .
- الانديسيون ٤٥٩ - ٤٧١ .
- أهل ايلان (أغمات هيلانة) ٢٦٢
- ٢٦٤ .
- بنو أوبران ٧٥ .
- ابن إيجيت (ابو زيد عبد الرحمن)

برغواطية ٣٥٥ - ٣٥٧ - ٣٦١ -
٣٦٢ .

بروفنسال ١٠ - ٢٠ - ١٦٠ .

بنو بروكسن ٤١٣ .

ابن بشكوال ١١٩ - ١٢١ - ١٢٨ -

- ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢ -

- ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٧ - ١٣٨ -

- ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ -

- ١٤٦ -

البشير (أبو محمد عبد الواحد

الونشسريشي) ١٧٢ - ٢٤٣ -

- ٢٤٥ - ٢٥٤ - ٢٥٦ - ٢٥٨ -

- ٢٦٠ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٧٢ .

ابن بشير (محمد بن محمد) ١٣٤

بظليموس ١٢٣ .

بطي بن اسماعيل اللمتوني ٢٤١

- ٢٥٨ .

أبو بكر (خليفة النبي) ٢٧٢ .

أبو بكر بن العربي ٤٨٤ .

أبو بكر الفافقي ٥٢٢ .

أبو بكر الحصار ٥٤٠ .

٤٤٩ - ٥٠٠ - ٥١١ - ٥١٢ -

٥١٣ .

الابطاليون ٥٣٣ .

آينكست ٣٦٨ .

(ب)

باديس بن جوس الصنهاجي ٤٨٠

الباجي (أبو الوليد) ١٢٥ - ١٤٢ -

- ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ .

الباسيليوس (قيصر الروم) ٢٨٧

ابن الباتلاني ١٥٥ .

براز بن محمد المسوفي (أبو اسحق)

- ٣١٣ - ٤٦٠ - ٤٨٣ - ٤٨٨ -

- ٤٨٩ - ٥١٤ - ٥١٧ - ٥٤٠ -

٥٤٢ .

الببوج (والبيبوج : ملك ليون)

٥٤٥ .

ابن بجر (مؤرخ المرابطين) ٣٢٢ -

٣٣٥ .

البربر ٥ - ٧١ - ٧٢ - ٧٥ .

بربر مصودة ٨ .

ابن بروجان (أبو الحكم) ٤٤٩ .

أبو بكر المراني ۵۴۰ .

أبو بكر بن المنخل ۵۲۳ .

البكري ۷۱ - ۱۳۰ .

بكر (أبو بكر) بن علي ۲۵۸ - ۲۹۹ .

بلازة بنت القاسم بن قيس ۳۷۴ .

بلال بن وزير ۵۰۴ .

البلخي (أبو عبد الله محمد الخولاني) ۱۴۱ .

بومزكيد ۳۹۱ .

البياسي (أبو بكر) ۱۴۵ .

البيروج: انظر البيروج

البيدق: أبو بكر الصنهاجي ۹ -

۱۰ - ۱۵۰ - ۱۶۵ - ۱۶۶ -

۱۷۱ - ۱۷۴ - ۱۸۱ - ۱۸۲ -

۲۳۶ - ۲۴۷ - ۲۵۱ - ۲۵۴ -

۲۵۳ - ۲۶۰ - ۲۶۲ - ۲۶۴ -

۲۸۷ - ۲۸۸ - ۲۹۰ - ۳۰۱ -

۳۰۶ - ۳۱۸ - ۳۲۴ -

۳۳۱ - ۳۳۲ - ۳۳۸ - ۳۳۹ -

۳۵۵ - ۳۵۶ - ۳۶۱ - ۳۷۱ -

۳۹۷ .

البيسانيون ۵۳۳ .

(ت)

تادلا ۳۶۵ .

تازرفت بن قتلوان ۳۶۵ .

تاشفين بن علي بن يوسف ۱۷۴ -

۲۹۸ - ۳۰۲ - ۳۰۵ - ۳۰۶ -

۳۰۸ - ۳۱۲ - ۳۱۳ - ۳۱۶ -

۳۱۸ - ۳۱۹ - ۳۲۰ - ۳۲۱ -

۳۲۲ - ۳۲۳ - ۳۲۵ - ۳۲۶ -

۳۲۷ - ۳۷۳ - ۴۱۹ - ۴۲۸ -

۴۳۱ - ۴۳۲ - ۴۳۳ - ۴۳۴ -

۴۳۵ - ۴۳۹ - ۴۴۰ - ۴۴۱ -

۴۴۶ - ۴۵۲ - ۴۶۵ - ۴۷۵ .

تاشفين بن ماخوخ ۳۱۵ - ۳۵۹ .

ابن تاغيشت (أبراهيم) ۲۸۷ .

تاماكوت بنت بينتان ۳۰۱ .

أهل تامسنا ۷۴ - ۷۵ - ۱۰۷ -

۱۰۸ - ۲۶۸ .

التيجاني (صاحب الرحلة) ۳۷۷ .

الترك ۲۳۰ .

تراسي (Terrasse) معابد ومعامل

جبارة بن كامل ٣٩٤ - ٤١٣ .
 ابن الجبير (أبو بكر يحيى) ٣٢٧ -
 ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٦١ - ٣٦٤ .
 ابن الجند (أبو بكر) ٥٢٢ .
 جدميوة (قبائل) ١٦ .
 الجذامي (أبو الحسن علي بن عبد
 الله) ١٤١ .
 الجذميوي (محمد بن يحيى) ٣٦١ .
 جراوة ٣٥٥ - ٣٦١ .
 الجراوي (أبو العباس الشاعر) ٥٢٦
 الجريسون (أصل جرية) ٣٧٥ -
 ٣٧٩ .
 جرزولة ٢٣٩ - ٢٨٩ - ٣٠٠ -
 ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣٥٠ -
 ٣٦١ .
 جشم (عرب قبيلة) ١٨ .
 أبو جعفر الحشني ٤٦٧ .
 جلاوة ٢٨٧ .
 جلمودة (قبائل) ١٦ .
 ابن جلداسن (أبو داود يلول) ٥٤٢
 ابن الجمان (أبو زيد عبد الرحمن)

مصحفية (Sanctuaires et
 forteress Almohades) 1932
 تميم (أبو الطاهر) بن يوسف بن
 تاشفين ٢٤١ - ٢٥٧ .
 بنو توجين ٣١٤ - ٣٢٢ .
 ابن توقيان ٢٣٣ .
 تومرت ٢٢٦ .
 ابن توندوت (محمد أبي بكر) ٣٦٦
 توندوت (من نساء هسكورة) ٣٥٤
 أهل تونس ٤٠٨ - ٤٠٩ .
 تيتيلا ٣٢٤ - ٣٢٥ .
 ابن تيفلوت (عبد الله بن يحيى بن
 أبي بكر) ٢٩٧ .
 التينملي (أبو عمران) موسى ٢٧٦
 - ٢٧٧ .
 التينملي (أبو محمد عبد الله أبي
 حفص) ٤٩٩ - ٥٠٠ .
 أهل تينمل ٢٤١ - ٢٤٩ - ٢٦٤ .
 (ج)
 جاعة ٣٦٢ .
 أهل جبال درن ٥ - ٧٠ .

ابن حموس (ابو عبد الله محمد)
٥٢٩ - ٤٢٦ - ٤٢٨ (الشاعر)
حجاج بن يوسف ٢٨١ .
ابن الحذا - (القاضي) ١٣٤ .
الحري (ابو محمد القاسم -
البحري) ١٢٧ .
ابن حزم (الابن : أبو اسامة يعقوب
بن علي ١٣٣ - ١٣٤ .
ابن حزمون (عبد العزيز بن عبد
الله) ١٢٩ .
ابو الحسن (الاشبيلي الخطيب)
٢٨٧ .
أبو الحسن علي الأشيري (المؤرخ
الشاعر) ٢٦٧ - ٢٨١ - ٢٨٣ -
٢٨٧ - ٢١٦ - ٢٢٧ - ٢٣٩ .
حسن بن تغلب ٣٩٢ - ٣٩٤ .
الحسن بن علي بن يحيى ٣٧٢ -
٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ -
٣٧٧ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣ -
٣٨٤ - ٣٩٠ - ٣٩١ - ٤٠٣ -
٤١١ .
الحسن بن المعلم ٣٦٢ .

١٢٩ .
ابن جواهر (محمد بن محمد) ١٤٥
جنفيسة (قبائل) ١٦ - ٢٥٠ .
الجنوبون ٥٣٣ .
ابن جهور القيسي (أبو القاسم
عيسى) ١٢٦ - ١٢٧ .
جورجي (ابن ميخائيل) الانطاكي
٣٧٦ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٨٧ -
٣٨٨ - ٣٩٠ .
جوسن بن العزيز ٣٩٣ .
الجوهري (ابو بكر اللتوني) ٢٥٩ -
٣٠٦ .
الجواني (ابو بكر عبد الله بن خبار)
١٧ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣٥ -
٣٥٥ - ٣٥٨ - ٣٦٢ - ٣٩٥ -
٥١٤ - ٥١٧ .

(ح)

أبو حاتم بن محمد ١٢٩ - ١٣٦
حاجة (قبائل) ١٦ - ٦٨ - ٦٩ -
٢٣٥ - ٣٥٣ - ٣٦٠ .
حازم بن محمد ١٢٧ .

(خ)

ابن خراسان (أحمد بن عبد العزيز)
٣٧٤ - ٣٧٥ - ٤٠٣ - ٤٠٤ .

بنو خراسان (أصحاب تونس)
٣٧٤ .

ابن خزرج (أبو محمد) ١٣٦ .

الحشني ٤٧١ .

ابن أبي الخصال (الوزير) ٢٥٣ .

ابن الخطيب ٢٥ - ٤٢٢ - ٤٢٣ .

٤٣٣ - ٤٤٢ - ٤٤٨ - ٤٥٠ .

٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٨٢ .

ابن خلدون ٦ - ٢٥ - ١٦٣ .

١٦٦ - ٢٧٢ - ٢٧٨ - ٢٩٣ .

٤٠٤ - ٤٥٨ - ٤٦٠ - ٤٨٣ .

ابن خلكان ٢٤ - ١٥٩ - ٢٧٣ .

خلي بن أبي تجارة ١٧٧ .

ابن خليفة (محمد بن سليمان)

١٤٣ .

أهل (أيت) الحسين ١٩٩ .

(د)

درعة ٢٣٩ - ٣٠٠ .

بنو درياغل الصنهاجين ١٦٨ .

حسون بن عشرة (القاضي) ١٨٠ .

ابن حسون (القاضي: أبو الحكم

الحسين بن الحسين الكلبي) ٤٨١ -

٤٨٢ .

الحفاظ ٣٥٤ .

الحلاج ٤٥٠ .

الحلل الموسية (صاحب) ٣٣٤ -

٣٣٥ - ٣٥٦ .

الخلواني (أبو بكر محمد) ١٢٧ .

الحماديون ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٩٠ .

٣٩١ - ٣٩٢ .

حمادة بن مطهر (من بني يلموي)

٣١٠ .

ابن حمدين (أبو محمد علي -

قاضي الجماعة بقرطبة) ١٣٠ -

١٥١ - ٤٥٣ (أبو جعفر أحمد) -

٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٦٢ - ٤٦٣ -

٤٦٥ - ٤٦٧ - ٤٧٦ - ٤٧٧ -

٤٨١ - ٤٨٢ .

حواء (زوجة يعزي بن مخلوف)

٢٩٧ .

أبن حيان (أبو مروان) ١٢٨ .

دكالة ٧٧ - ٢٣٥ - ٣٥٣ -

٣٥٦ - ٣٦٢ - ٣٥٧ :

(دكالة : بلاد) انظر اسماء المدن

دمام (الشاعر) ٢٥٤ .

(٥)

أهل الامة ٤١٠ .

(٦)

ابن الراعي ٢٣٦ .

رافع بن جاسع (صاحب قبايس)

٣٧٢ .

رامون برنجار (القومس) ٤٣٧ .

البرتير (الروبرتير) ٢٩٦ - ٢٩٧

- ٢٩٩ - ٣٠٢ - ٣١٠ - ٣١١

- ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ .

رجراجة (قسانل) ١٦ - ٧٤ -

٢٣٥ - ٣٤٩ - ٣٥٦ - ٣٦٠ .

ابن رومير (رودمير : الفونس

المحارب) ٢٥٢ - ٤٢٦ - ٤٢٩ -

٤٣٠ - ٤٣٤ - ٤٣٦ - ٤٣٧ -

٤٣٨ - ٤٧٥ .

ابن رزق (ابو جعفر) ١٢٩ - ١٣٠ -

- ١٣٢ - ١٣٣ .

الرسول ٧ .

ابن رشد (الجد : ابو الوليد محمد)

١٣٢ - ٤٢٦ - ٤٣٠ .

رشيد بن رافع بن جامع ٣٨٠ .

الرصافي (ابو عبد الله محمد بن

غالب - الشاعر) ٥٣٠ .

الرعي (ابو عبد الله محمد .. بن

الخلف) ١٤٤ .

رقانة ٣٢٧ .

الرميسي (ابو يحيى - من بعض فري

قرطبة) ٤٢٠ .

روجار الثاني (الصقلي) ٣٧٣ -

٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٨ - ٣٧٩ -

٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٦ -

٣٩٤ - ٣٩٦ - ٤٢٢ .

رودويجو جونزاليز ٤٣١ .

الروم (الاسبان) ٣١٤ - ٣١٨ -

٣٨٦ (القسطنطينية) ٣٩٠ -

٥٣٣ .

الرومان ٥٦ .

ابن الرنك (الريق) : ملك البرتغال

الفونسو هنريكيز) ٤٩٨ - ٥٠٠ .

رهونة ٧٣ .

رباح (قبيلة عرب) ١٧ - ٣٩٦ -
٤١٢ - ٤١٤ .

ابن الربوطي : محمد بن علي
الطيبلي ١٢٥ - ١٢٦ .

(ز)

زارة (قبيلة) ٣٥٥ .

الزبيدي (محمد بن عمرو بن قطري)
١٣٧ .

ابن زجو (عبدالرحمن) ٢٨٤ -
٢٩٨ - ٣٠٠ - ٣٠٥ - ٣٠٩ .

ابن زجو (محمد) ٣٠٦ - ٣٢٠ .

ابن أبي ذرع ١٥٦ - ٢٧٢ - ٢٨٢ -
٣٤٩ - ١٥١ - ٥١٨ - ٥٢٧ -

٥٤٦ .

ابن زرقون (ابو عبد الله) ١١ .

زقارة ٧٤ .

زكريا بن مسعد الوريكي ٣٦٢ .

زناتة ٦٨ - ٧٣ - ٢٩٣ - ٢٩٤

٣٠٧ - ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١ -

٣٢٧ - ٣٥٥ .

الزنادقة ٣٦٥ .

بنوزيري الصنهاجيون ٣١٢ - ٣٧٠ -

٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٤ - ٤١٢ -

الزهراري (ابو حفص) ١٢٨ .

زيري بن ماسوخ ٢٩٣ - ٢٩٤ -

٣٠٧ .

زينب (أخت ابن تومرت) ٢٣٠

زينب بنت ابي صمران موسي

التنبلي ٢٧٦ .

(س)

ابن ساقطرا (علي) ٢٨٨ .

أهل سبعة ٣٥٢ .

سبع بن العزيز بن يحيى ١٩٤ .

السجلماسيون ٢٩٩ .

ابن سراج (مروان) ١٣٢ - ١٣٣ .

سعد الدين يحيى ٣٩٤ .

السفاح (الخليفة) ٣٢٤ .

السفاسي (ابو عمرو) ١٢٨ .

ابن السقاط (محمد بن خلف

القاضي) ١٤٥ .

السلاجة ٢٢٧ .

ابن سلمة (أبو عامر محمد) ١٣١ .

ابن سلمة (أبو المطرف عبد الرحمن)
١٤٥ .

السمرقندي (أبو الفتح) ١٤٤ .

بنوسوار ٢٩٥ .

أهل السوس ٧٨ .

السوق ٤٠٦ .

سيد رأي (أبو محمد) بن وزير

٤١٤ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٧ -

٤٨٣ - ٤٩٠ - ٥٨٣ - ٥٤٥ .

سيد الملوك بن يزيد عسنت

السدراتي ٣٢١ .

سير بن الحاج ٣٣٩ .

سير بن علي بن يوسف ٢٩٣ -

٢٩٤ .

سير بن مزدلي اللمتوني ٢٣٧ .

سير بن واربيل (أبو بكر) ٢٦٢ .

سير بن يثتبان ٣٣٩ .

ابن سيقل (أبو الوليد) ١٤٤ .

(ش)

الشاشي (أبو بكر) ١٢٧ - ١٢٨ -

١٤٦ - ١٥٣ .

ابن شعيشع (أبو الحسن عبد العزيز

ابن عبد الله) ١٤١ .

الشلطيشي (أنظر ابن القابلة) .

الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن

القاسم) ١٥٣ .

الشيحي (أبو عبد الله) ٢٧٧ .

الشيخ أبو يعقوب ٥٤١ .

أشياخ الموحدين ٥٤٥ .

(ص)

ابن صاحب الصلاة ٤٢٣ - ٥١٧ -

٥١٨ - ٥٢٣ - ٥٢٥ - ٥٤٠ -

٥٤١ - ٥٤٥ .

صاعد الأندلس ١٢٨ .

صطفورة (كومية قديما) ٢٧٢ .

صفية (بنت عبد المؤمن) ٢٧٥ .

الصقلي (محمد بن سابق) ١٤٣ .

الصقليون ٣٧٣ - ٣٧٧ - ٣٧٨ .

صصلاح الدين (الأيوبي) ٢٧٠

والهامش.

صنبل الفتي ٣١٩

الطلبة ١٢ - ٣٥٤ .
 طلبة سبتة وطنجة ١٤ - ١٥ .
 طلبة قرناطة ١٦ .
 طلبة فاس ١٧ .
 طلبة قرطبة والموحدين ١٧ .
 الظلمنكي (أبو عمر) ١٤٠ .
 الظليطي (أبو عامر محمد بن أحمد) ١٤٥ .
 أهل طنجة ٣٥٩ .
 ابن الطليق (الشاعر) ٥٢٣ - ٥٢٩ .
 الطوائف (أمرأء) ٤٢٤ - ٤٢٥ .
 (ج)
 عائشة (بنت عبد المؤمن) ٢٧٥ .
 بنو هابد (آل عبدالمؤمن في كومية) ٢٧٢ .
 عامل بن مهيب ٤٩٠ .
 ابن عبد البر (أبو عمر) ١٢٨ - ١٣٠ - ١٤٢ .
 عبد الحق بن إبراهيم بن جامع ٣٨٨ .
 عبدالحى الكتاني (سيدي) ٢٠ .
 عبدالرحمن بن جعفر ١٧٩ .

صنهاجة ٥-٧٤ - ٢٣٥ - ٢٨٨ -
 ٢٨٩ - ٣١٢ - ٣١٤ - ٣٢٠ -
 ٣٤٥ - ٣٦١ - ٣٩١ - ٣٩٣ -
 ٤٠٦ - ٤٢٦ .
 الصوفية ٤٤٨ - ٤٥٨ - ٤٥٩ .
 الصيرفي (أبو الحسن بن عبد الجبار) ١٣٨ .
 (ح)
 أبو طاشوز (الزعيم الكومي) ٣٠٧ .
 ابن طاهر (أبو عبد الرحمن محمد) ١٤٤ - ١٤٥ .
 طاهر بن كساب (من بني حماد) ٣١٢ .
 الطبري (أبو معشر) ١٤٤ .
 الطرابلسي (أبو القاسم حاتم بن محمد) ١٣١ .
 ابن طرخان (أبو بكر محمد) ١٢٧ - ١٣٨ .
 طراد (الشريف أبو الفوارس) ١٣٨ .
 الطرطوشي (أبو بكر السكندري) ١٢٢ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ -
 ١٤٥ - ١٤٦ - ١٦٠ .

- عبد الرحمن بن سلمي ١٢٥ .
عبد الرحمن بن عياض ٤١٩ -
٤٢٠ .
عبد الرحمن بن محمد بن غانية
٤٦٥ .
عبد الرحمن النصراني (وزير
صفلية) ٣٧٣ .
عبد السلام أغيتي ٢٦٣ .
عبد السلام بن عيشوش ١٧٩ .
عبد السلام الكومي ٢٧٦ - ٥١٨
- ٥١٩ .
عبد الصمد بن تادراوت ٣٦٢ .
عبد العزيز (أخو ابن تومرت لأبيه)
٢٣ - ٢٣٣ - ٢٦٤ - ٤٨٥ -
٤٨٧ - ٤٩٤ .
ابن عبد العزيز (أبو عبد الملك
سروان) ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ -
٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧١ .
عبد العزيز (أبو محمد الغيفاني)
٢٨٩ .
عبد الغالب السالمي ٩٢٦ .
عبد الكريم الغيفاني ٣٦٢ .
عبد الله بن داود ٣٥٥ - ٣٦١ .
عبد الله بن (القاضي) أبي بكر بن
العربي ٤٨٣ .
عبد الله بن سليمان (أبو محمد أمير
البحر) ٣٥٤ - ٣٦١ - ٤٩٨ -
٥٠١ .
عبد الله بن شريف ٣٥٥ .
عبد الله (أبو محمد) بن أبي حفص
٥٥٢ .
عبد الله (أبو محمد) بن عبد المؤمن
٣٢٣ - ٣٩٥ - ٤١٣ - ٤٩٤ .
أبو عبد الله بن أبي حبيب (الكاتب)
٣٣٨ .
أبو عبد الله بن فرج الكومي ٤١١ .
أبو عبد الله اللخمي ٢٧٤ .
عبد الله بن محمد بن علي بن غانية
٤٦٦ .
عبد الله بن وطيب ٣٦٢ .
عبد المؤمن (بن علي) ٨ - ٩ -
١٠ - ١٣ - ١٧ - ١٨ - ١٩ -

- عبد الرحمن بن سلمي ١٢٥ .
عبد الرحمن بن عياض ٤١٩ -
٤٢٠ .
عبد الرحمن بن محمد بن غانية
٤٦٥ .
عبد الرحمن النصراني (وزير
صفلية) ٣٧٣ .
عبد السلام أغيتي ٢٦٣ .
عبد السلام بن عيشوش ١٧٩ .
عبد السلام الكومي ٢٧٦ - ٥١٨
- ٥١٩ .
عبد الصمد بن تادراوت ٣٦٢ .
عبد العزيز (أخو ابن تومرت لأبيه)
٢٣ - ٢٣٣ - ٢٦٤ - ٤٨٥ -
٤٨٧ - ٤٩٤ .
ابن عبد العزيز (أبو عبد الملك
سروان) ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ -
٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧١ .
عبد العزيز (أبو محمد الغيفاني)
٢٨٩ .
عبد الغالب السالمي ٩٢٦ .

- ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠٢ - ٤٠٤ -
 - ٤٠٥ - ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤٠٩ -
 - ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ -
 - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ -
 - ٤٢٧ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٥٧ -
 - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٧٠ -
 - ٤٧٤ - ٤٨١ - ٤٨٣ - ٤٨٤ -
 - ٤٨٦ - ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩٠ -
 - ٤٩١ - ٤٩٢ - ٤٩٣ - ٤٩٥ -
 - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠١ -
 - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٩ - ٥١٣ -
 - ٥١٨ - ٥٢٠ - ٥٢١ - ٥٢٦ -
 - ٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٢ -
 - ٥٣٣ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٤٠ -
 - ٥٤٣ - ٥٤٤ - ٥٤٥ - ٥٤٦ .

عبدالهادي النازي ١٩ :

عبد الواحد (أبو محمد بن عمر
 (برزيجن : الشرقي) ١٦٩ .

عبد الواحد المراكشي ١٨ - ٢٣ -
 - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٧٣ -
 - ٢٧٣ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٥٢٧ -
 . ٥٣١ - ٥٤٦ .

١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ -
 (سراج الموحدين) - ١٧٤ - ٢٤٧ -
 - ٢٥٨ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٦ -
 - ٢٦٨ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ -
 - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٨ - ٢٨٠ -
 - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ -
 - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ - ٢٨٨ -
 - ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩٣ - ٢٩٤ -
 - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٣٠٠ -
 - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٤ -
 (الخليفة) - ٣٠٥ - ٣٠٦ - ٣٠٧ -
 - ٣٠٨ (الخليفة) - ٣٠٩ -
 - ٣١٠ - ٣١٢ - ٣١٤ - ٣١٥ -
 - ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٢١ - ٣٢٤ -
 - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٠ -
 - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٤ -
 - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٤٠ -
 - ٣٤٣ - ٣٤٥ - ٣٤٩ - ٣٥٠ -
 - ٣٥١ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٧ -
 - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ -
 - ٣٦٢ - ٣٦٩ - ٣٧٧ - ٣٨٧ -
 - ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٣ - ٣٩٤ -
 - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ -

(الجانزين الى الاندلس).
 عرب بني قرة ٣٨٠ - ٣٨١ .
 عرب قابس ١٧ .
 ابن العربي (القاضي الإمام أبو بكر) ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ .
 ابن العريف (رئيس المريدن).
 العزيز بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ١٦٣ - ١٦٤ .
 ابن عشرة (أحمد الفقيه) ١٨٠ .
 ابن عشرة (عبد المحسن أبو تميم) ١٧٩ - ٣٣٢ .
 بنو عطوش ٨٦ .
 أهل (آيت) العشرة ١٩٨ .
 عطية (أبو محمد - صاحب المهدي) ٢٨٧ .
 ابن عطية (أبو جعفر وزير عبد المؤمن) ٣٥١ .
 عطية بن عطية (أبو محمد) ٢٧٦ .
 ابن عفيف (الطليطلي أصلاً) ١٢٨ .
 بنو (آيت) عفيف ٣٥٧ .

بنو عبد الواد ٣١٠ .
 عبيد المخزن ٢٥٥ .
 عبيد الله المهدي (الفاطمي) ٢٧٧ .
 ابن عتاب اللخمي (أبو محمد عبد الله) ١٢٧ - ١٢٨ - ١٣٠ .
 عثمان (أبو سعيد) بن عبدالمؤمن ٤٩٤ - ٤٩٩ - ٥٠١ - ٥٠٣ - ٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٩ .
 ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٤٣ .
 عدي ٣٩٣ .
 ابن عذارى ٢٣ - ٣٠٨ - ٣١٤ - ٣٢٧ - ٣٣٤ - ٣٤٨ - ٣٤٩ .
 ٣٥٠ - ٤٩٧ - ٤٩٩ - ٥٠٧ .
 ٥٢٣ - ٥٢٧ - ٥٣٩ - ٥٤٣ .
 العذري (أبو العباسي) ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣٢ - ١٣٤ - ١٤٥ .
 العرب (بأفريقية) ١٣ - ١٧ - ١٨ - ٧١ - ٣٨٤ (الهلالية) - ٣٨٥ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٨ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٨ - ٥٣١ - ٥٤١ .

عمر بن أبي الحسن القرطبي ٣٩٨
- ٤٠٠ .
عمر بن الخطاب (انظر الماسي) .
عمر بن صالح الصنهاجي ٤٨٣ .
عمر (أبو حفص) بن عبد المؤمن
٢٧٥ - ٤٩٣ - ٤٩٨ - ٥١٩ -
٥٢٢ .
عمر (أبو حفص) بن علي أصناج
٢٥٤ - ٢٦١ - ٢٦٤ - ٢٦٩ -
٢٧٥ - ٢٨٧ - ٣٠٣ .
أبو عسمران بن موسى بن قار
الجدميوي ٢٥٤ - ٢٩٧ .
عمران بن موسى الصنهاجي ٤٠٨ .
عمر بن ميمون ٣٦١ - ٣٦٤ .
عمر بن يحيى الهنتاني (أبو حفص
آيتي) ١٤ - ١٧ - ٢٤٧ - ٢٧٥
٢٨٠ - ٢٨٧ - ٣٠٧ - ٣٢٠ -
٣٢٢ - ٣٣٣ - ٣٥٠ - ٣٥٤ -
٣٥٧ - ٤٧٤ .
عمر بن ملوك ٢٥٤ .
أبو عمرو (الزعيم الأغصاني)
٣٦٠ .

أبن عقيل (أبو الوفاء) ١٥٥ .
أبو العلاء المصري ١٥٥ .
علي (أبو الحسن) الأشيري أنظر
أبو الحسن .
علي بن الحسن (بن علي بن يحيى)
٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ .
علي بن سافطرا ٢٨٨ .
علي (أبو الحسن) بن عبد المؤمن
٤٩٣ - ٥١٠ .
علي بن هيمسي بن ميمون (أمير
البحر) ٣٤٢ - ٣٥٢ - ٣٥٣ -
٣٧٢ - ٤٥٨ - ٤٨٣ - ٤٨٦ .
علي بن يحيى بن قهم ٣٧٠ - ٣٧١ -
٣٧٢ .
علي بن يخلف ٣٦٢ .
علي بن يوسف بن تاسفين ١٨١ -
١٨٢ - ١٨٥ - ١٩١ - ٢١٣ -
٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٦ -
٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٨ - ٢٨٦ -
٣١٢ - ٣١٣ - ٤٢٦ - ٤٢٩ -
٤٣٠ - ٤٣٢ - ٤٤٩ - ٤٧٦ .
عمر بن تفرجين (أبو حفص) ١٣ .

ابن العواد (أبو الوليد هشام
القرطبي) ١٣٣ .

ابن عياض (عبد الرحمن) ٤١٩ -
٤٦٢ .

عياض (القاضي) ١٠ - ٣٣٣ .

ابن عياض (أبو محمد عبدالله)
٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٧١ .

عيسى (أخو بن تومرت) ٢٣٠ -
٢٦٤ - ٤٨٥ - ٤٨٧ - ٤٩٤ .

عيسى بن حسن (من عرب بجاية)
٣٩٤ .

عيسى بن ميمون ٤٨٨ .

عيسى بن يحيى بن تميم ٣٧٠ .

(غ)

بنو غانية ٤٢٩

الغزالي (حجة الاسلام أبو حامد)
١٢١ - ١٣٨ - ١٤٠ - ١٤٧ -
١٤٨ - ١٥١ - ١٥٨ - ١٦١ -
١٩٧ .

الغساني (أبو علي) ١٢٧ - ١٣٢ -
١٣٣ - ١٣٦ - ١٤٣ .

غلبوم : غلبالم بن لجار ٤٠٠ -

٤٠٩ - ٤١٠ .

غمارة (الغماريون) ٦٨ - ١٠٨ -
٢٩٧ - ٢٩٨ - ٣٥٥ - ٣٦١ .

أبو الغمر بن عزون (الثائر بشريش)
٣٣٦ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٩ -
٤٩٠ .

غيفرت ٣٦٢ .

(هـ)

هازاز ٣٦١ .

أهل فاس ٧٦ - ١٠٧ .

ابن فاطمة (عبد الله) ٣٦٢ .

فاطمة بنت يوسف الزناتية ٣٠٥ .

ابن فسانو (يحيى) ٢٩٣ - ٣٠٦ -

(محمد بن يحيى) ٣٠٧ - ٣٠٩ .

ابن فتح (مرزوق) ١٤٥ .

أبو الفتوح بن يحيى ٣٧٠ .

ابن الفراء (الحسين بن مسعود أبو
يعلى) ١٥٣ - ١٥٥ .

ابن قرج (أبو عبد الله محمد) ١٢٧ -
١٢٩ - ١٣٠ .

الفرنج النورمندیون (الصقليون)

ابو القاسم بن عساكر ٥٤٠ .

ابن قريال (ابو بكر عبدالماقي)
١٤٠ .

القرطبيون ٤٧٨ .

ابن قسي (أحمد : الهادي) ٤٢١ -

٤٢٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٨ -

٤٥٠ (المهدي والهادي) - ٤٥١ -

٤٥٢ (الهادي) ٤٥٣ (الهادي) -

٤٥٤ - ٤٥٦ - ٤٥٧ (الهادي)

- ٤٥٨ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٧١ -

٤٧٤ - ٤٨٠ - ٤٨٦ - ٤٩١ -

- ٥٠٢ -

أبو قصبه (من بني زلدوي من
صنهاجة) ٣٩٢ .

ابن القطان (ابو الحسن علي بن

محمد) ١٩ - ٢٠ - ٢٢ - ٢٣٤ -

٢٣٦ - ٢٤٥ - ٢٥٧ - ٢٦٠ -

٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٨١ - ٢٨٤ -

- ٢٨٨ - ٢٢٩ - ٢٣٣ - ٢٤١ -

القنصيون ١٧ .

ابن قنونة (أو كُنونة - كنونة) ٤٣٠

٣٦٦ - ٣٦٩ - ٣٧٩ - ٣٨٠ -

٣٨٢ - ٣٨٦ - ٣٩٤ - ٤٠٠ -

٤٠١ - ٤٠٥ - ٤٠٩ - ٤١٠ -

٤١١ - ٤١٢ - ٥٠٩ - ٥١٥ -

٥١٦ .

الفرنسيون (الفرنج) ٤٤٦ .

فقهاء بجاية ١٦٦ .

الفلاكي ٢٣٧ - ٢٨٩ - ٢٩٦ .

فندة بنت علي (بن يوسف بن

تاشفين) ٣٢١ .

فندة (بندة - أخت عبد المؤمن

للأب) ٥١٩

فنزارة (قبيلة) ٣٥٣ .

فيليب المهدي (مولى روجار خليفة

جورجي الأنطاكي) ٣٩٦ .

الفينيقيون ٥٦ .

(ق)

ابن القابلة (محمد بن يحيى

الشاطبيشي) ٤٥١ - ٤٥٣ -

(المصطفى).

قاسم بن عبد الرحمن (القاضي)

١٦٥ .

- ٤٣١ - ٤٣٢ .

(ك)

الكافة ١٢ - ١٥ - ١٧ .

بنو كانون ٢٩٨ .

كتامة ٣٩٢ - ٣٩٣ .

ابن أبي كدية الليراوني (محمد بن عتيق) ١٥٥ .

ابن كرز الانصاري (ابو الحسن علي) ١٤٢ .

ابن كرمب (أبو حفص) ١٤٥ .

كزناية (ست قياتل) ٣٠٤ - ٣٢٧ .

كسري فارس ٢٨١ .

الكتاني (ابو الوليد هشام بن أحمد) ١٤٠ .

كومية ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٣٠٦ .

٣٠٧ - ٣١١ - ٣١٦ .

(ل)

اللص (ابن سيد الاشيلي) ٥٢٩ .

لحوتة ٣٠٩ - ٣١٥ - ٣٣٧ .

٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤١ - ٣٩١ .

٤١٧ - ٤٦٠ .

لطة ٢٣٥ .

الماسي (الماسي) : محمد بن عبد

البد بن هود) ١٠ - ٣٤٦ - ٣٤٧ .

٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١ .

٣٥٢ - ٣٥٤ - ٤٢٤ - ٤٧٦ .

٤٧٩ .

(م)

بنو ماخوخ ٣١٠ .

مينة ماكسن بن المعز ٣٠٥ .

المالقي (أبو محمد غانم) ١٤٢ .

مالك بن وهيب ١٨٣ .

مائي بن مصدور بن مرسعي بن

يعوط ٢٧٢ .

الماوردي ٢٠٦ .

المبارك بن عبد الجبار ١٥١ .

المجسمل ٢٤٨ - ٢٥١ - ٢٩٠ .

٢٩٨ .

المجاهدون ٥٤١ .

ابن المجوز (عبدالرحمن بن محمد

الكتامي) ١٢٥ - ٢٥٣ .

محرز بن زياد (زعيم بن رباح)

٢٦٧ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٦
 ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٩٥
 ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٤ - ٣٧٥
 ٣٩٥ - ٤٠١ - ٤٢١ - ٤٢٣
 ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٩ - ٤٥٠
 ٤٥٧ - ٤٥٨ .

أبو محمد بن جبل (الخطيب) ٢٧٧
 (أبو جعفر) محمد بن أبي جعفر
 ٤٦٥ .

محمد بن الحاج ١١ - ٤٨٨ .

محمد بن الحجام ٤٨٦ .

محمد بن الحجام (صاحب بطليوس)
 ٤٩٠ .

محمد الخامس (السلطان) ٢٠ .

محمد بن رشيد بن رافع بن جامع
 ٣٨١ - ٣٨٣ - ٣٩٩ .

- محمد بن سعد (انظر ابن
 مردنيش) .

محمد بن شاذان الكتبي ١٥٩ .

محمد بن شريفة ٢٠ .

محمد بن عبد المؤمن (أبو عبد الله)

٣٨٤ - ٣٩٤ - ٤١٣ - ٤١٤ .

محمد إبراهيم الكتاني ٢٤ .

محمد بن تاويت ٢٤ .

محمد بن تومرت ٧ - ٨ - ٩ .

١٠ - ٢٣ - ١١٩ - ١٢١ .

١٢٣ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨ .

١٣٠ - ١٣١ - ١٣٤ - ١٣٧ .

١٣٩ - ١٤٠ - ١٤٤ - ١٤٥ .

١٤٨ - ١٥٠ - ١٥٣ - ١٥٥ .

١٥٦ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ .

١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ .

١٦٧ - ١٦٨ - ١٧١ - ١٧٢ .

١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٧ .

١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ .

١٨٣ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٨ .

١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٧ .

٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢١٢ - ٢١٥ .

٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٤ - ٢٢٩ .

٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٤ .

٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ .

٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٤ - ٢٤٧ .

٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ .

٢٥٣ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٦٥ .

محمد بن يوسف (التونسي - مدرّس
العبّاد) ١٧٤ .

محمود علي مكّي ١٩ .

المراهطون ٦ - ١٠ - ٢٣ - ٢٣١

٢٣٥ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٥

٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩

٢٥٣ - ٢٥٥ - ٢٥٨ - ٢٦٢

٢٦٣ - ٢٦٨ - ٢٨٣ - ٢٩٠

٢٩٣ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٣٠١

٣٠٢ - ٣٠٤ - ٣١٠ - ٣١٣

٣١٤ - ٣١٧ - ٣٢٠ - ٣٣٣

٣٣٧ - ٣٣٩ - ٣٤٥ - ٤١٧

٤٢٥ - ٤٢٩ - ٤٢٣ - ٤٣٤

٤٤٥ - ٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٣

٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٣ - ٤٦٥

٤٧٠ - ٤٧٣ - ٤٧٩ - ٤٨٢

- ٤٨٦ -

أهل (سكان) مراكش ٧٩ .

المرتضي (الخليفة الموحد) ٢٢ .

المرتضي (الشهرزوري : الموصلي)

. ١٥٤

المري (أبو العباس : شيخ

الاسكندرية) ٤٧٢ .

١٤ - ٣٩٥ - ٣٩٦ (ولاية العهد)

٤١٤ - ٥٤٣ - ٤٩٤ (المخلوع)

- ٥٤٥ -

محمد علي باشا ٣٩٨ .

محمد بن علي الكومي ٥١١ .

ابن مردنيش (محمد بن سعد) ١٣

- ١٥ - ٤٢٠ - ٤٢٨ - ٤٧٢ -

٥٠٢ - ٥٠٣ - ٥١٢ - ٥١٣ -

٥٣٤ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٩ .

بنو مردنيش ٤٦٥ .

ابن مردنيش (العم : أبو محمد عبد

الله) ٤٦٦ - ٤٦٩ .

محمد بن عمرو بن قطري الزبيدي

. ١٢٦

ابن مسرة (أبو مروان عبد الملك)

. ١٣٢

محمد بن فارة (القاضي) ١٧٥ .

محمد (المخلوع) بن عبد المؤمن .

محمد (أبو عبد الله) بن ميمون انظر

ابن ميمون.

محمد بن يحيى بن فانو ٣٠٦ -

. ٣٠٧

٢٦٢ .
 مطرف بن علي بن حمدون ٣٧٤ .
 بنو مطروح (في جربة) ٣٧٦ -
 ٣٧٨ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٧ .
 مطماطة ٧٤ .
 المعافري (ابو محمد عبد الله بن
 بشير) ١٢٩ .
 المعتزلي (ابو الوليد) ١٥٥ .
 معد بن المنصور (الحمادي) ٤٠٣ .
 مقمر بن رشيد بن رافع بن جامع
 ٣٨١ .
 مفتاح بن عمر (الصنهاجي) ٣٠٢ .
 المقرئ (محمد بن عبد الرحمن) ٧٤
 - ١٣٦ - ١٤٢ .
 ابن المعلم الإبلاني (محمد) ٥٤٢ .
 ابن مقزوز (مجزوز : عمر بن مجزوز
 بن علي بن الحاج) ٤٣١ - ٤٣٥ .
 مكلاتة ٣٢٧ .
 اهل مكناسة ٧٤ - ٧٥ .
 المشمون ٥ - ٢٦٤ - ٢٩٣ -
 ٣١٢ - ٣٣٤ - ٣٤٩ - ٣٦٢ -
 ٣٩٤ - ٤٦٠ .

المريئون ١٨ - ٤٤٥ - ٤٤٦ -
 ٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٣ -
 ٤٥٤ - ٤٥٨ - ٤٥٩ .
 - ابن مردلي (صاحب تاشفين)
 ٣١٩ .
 ابن مسعود (محمد بن أحمد) ١٤٤
 مسعود بن زحام ٤١٣ .
 مسعود بن ورتيغ ٢٦٢ .
 المسلمون ٤٢٦ - ٤٣٨ - ٤٣٩ -
 ٤٤٠ - ٤٤٦ - ٥٢٢ .
 مسوفة ١١ - ٣٠٩ - ٣١٤ .
 مشيخة المصامدة ٥٤٦ .
 المشيخة (الاشياخ) ١٢ - ١٥
 (شيوخ هرغة ١٦) - ١٧ .
 المصامدة (مصمودة) ٥ - ٨ - ٦٨
 - ٦٩ - ٧٧ - ١٠٤ - ١٠٥ -
 ١١٤ (المرأة المصمودية) - ٢٢٦ -
 ٢٣٥ - ٢٣٧ - ٢٤٠ - ٢٤٧ -
 ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٣ - ٢٥٥ -
 ٢٥٨ - ٢٨٣ - ٣٠٣ - ٣٠٨ -
 ٣١٦ - ٥٣١ .
 مصامدة : هتتاة وجنفية ومزاته

ملكشاه ١٥٢ - ١٥٤ .

ملك أراجون ٤٢٦ .

ملوك الطوائف (بالاندلس) ٤١٧ -

٤٢٦ - ٤٥٨ .

بنو ملوك ٢٩٥ .

ابن ملوية (ملويات عبد الله) ٢٤٦ -

٢٤٧ - ٢٦٢ - ٢٨٥ - ٢٨٦ -

أهل (بنو) ملوية ٢٩٨ .

ابن مغيث (برنس بن محمد) ١٣٤ .

المهدي (محمد بن تومرت) ١٣ -

(وأخوه) - ٣٠ - ٤٢ - ٧١ -

٧٢ - ١٦٨ - ١٩٠ - ١٩٥ -

٣٤٥ - ٤١٩ - ٤٨٥ .

المهدي (الامام - المعصوم ابن

تومرت) ٢٢٦ - ٢٣٠ - ٢٣١ -

٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٧ - ٢٤٦ -

٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٦٢ - ٢٦٤ -

٢٦٥ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ -

٢٧٢ - ٢٧٥ - ٢٧٧ - ٢٧٨ -

٢٨٢ - ٢٨٤ - ٢٨٧ - ٢٩٨ -

٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٣٠ - ٢٣٤ -

٤٨٥ - ٤٩٧ - ٥٠٨ - ٥٤٣ -

٥٤٤ .

المهدي (الخليفة العباسي) ٣٦٥ .

الموحديون ٥ - ١٠ - ١٧ - ٣٠ -

٥٧ - ٢٣٤ - ٢٣٧ - ٢٤٦ -

٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٥١ - ٢٥٤ -

٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٩ -

٢٦٠ - ٢٦٨ - ٢٧٠ - ٢٨٩ -

٢٩٠ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٤ -

٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٩ -

٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٦ -

٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣١١ - ٣١٤ -

٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٨ - ٣١٩ -

٣٢٢ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٧ -

٣٣٢ - ٣٣٧ - ٣٣٩ - ٣٤١ -

٣٤٣ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥٥ -

٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦١ - ٣٦٢ -

٣٨٩ - ٣٩٣ - ٣٩٥ - ٤٠٦ -

٤٠٧ - ٤١٩ - ٤٢١ - ٤٢٣ -

٤٣٠ - ٤٣٣ - ٤٤١ - ٤٤٢ -

٤٤٥ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٧٠ -

٤٧٣ - ٤٧٩ - ٤٨١ - ٤٨٤ -

٤٨٩ - ٤٩٧ - ٥٠٣ - ٥٠٤ -

٥١٣ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٣٢ -

ميمون بن يدر الممتوني ٤٨٩ -
٤٩٩ .

(ن)

نائب الملك (ولي العهد) ٤٣١ .
النبي ٢٦٥ - ٢٧٩ - ٢٨٢ .
نجاشي الحبشة ٢٨١ .
النصاري ٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢٦ .
٤٣٠ - ٤٣٣ (السيحيون) -
٤٤٠ - ٤٥٩ - ٤٧٤ (الاسبان)
٥٠٢ - ٥١٢ (صقلية) - ٥٣١ -
٥٣٧ .

نظام الملك (الوزير) ١٥٤ - ٢٠٦ .
نعمان بن عبد الحق الهنتاتي ٤٠٨ .
النورمان (الصقليون) ٣٩٨ .

(هـ)

ابن الهبارية (محمد بن محمد
الشريف العباسي) ١٥٤ .
هرطقة ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٣٢ -
٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٤٦ - ٢٤٨ .
هزرجة ٢٨٧ - ٣٦٢ .
هزميره ٢٣٥ - ٢٤٩ - ٣٥٠ -

٥٣٩ - ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٤٣ .

موسي (ابو عمران) بن الحسن ٣٢١
موسي (ابو عمران) التينملي
٢٧٦ .

المؤثون ٣٦٥ .

ابن المنذر (حليف ابن قسي وابن
وزير) ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ -
٤٥٦ - ٤٦١ .

المنذر بن المنذر ١٤٠ .

ابن منظور (أبو عبد الله محمد)
١٣٦ - ١٤٤ .

موسي بن سعيد ٤٨٣ .

ابن ميمون (أبو محمد عبد الله)
٤٢٠ .

ميمون بن ياسين (وليس تاسقيموت).
٢٨٤ .

ميمون بن حمدون (أبو محمد) ١٢ .

ابن ميمون بن المنتصر ٣٢٠ .

ميمون الكبير (تابع ابن تومرت)
رئيس الحرس السوداني ٢٥٠ .

ميمون الهواري (القرطبي) ٢٧٩ -
٢٧٧ .

. ٣٦٠

هسكورة ٢٣٥ - ٢٤٩ - ٢٥٠ -

. ٢٥٩ - ٢٨٧ - ٣٥٠ - ٣٦١ .

هلال الأصلع : انظر يروكان .

ابن هلال (محمد) ١٢٨ - ٤٠٨ .

الهلالية (العشائر العربية) ٣٦٦ -

. ٣٦٩ - ٤٠٦ - ٥١٧ .

ابن هَمَشَك (ابراهيم صهر ابن

مردنيش) ٤٢١ - ٤٢٨ - ٤٥٩ -

. ٥٢١ - ٥٣٢ - ٥٣٤ - ٥٣٥ -

. ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٩ - ٥٤١ .

ابن هَمَشَك ٢٥٨ .

هنتاة ٢٨٩ - ٢٩٠ .

الهنثاني (أبو محمد عبد الله بن

أبي حفص) ٥٣٢ .

هنكبسة ٢٣٥ .

هواره ٧٠ .

ابن هود (أحمد بن عبد الملك سيف

الدولة) ٤٣٣ (حليف السليطين) -

. ٤٥٦ - ٤٦٣ - ٤٦٤

هوشي (امبروزوميراندا) ٢٤ -

. ٢٥ - ٣٣٤ .

(و)

ابن والمحيي (عبد الله بن أبي بكر)

. ٣٢٠ - ٣٢١ .

ابن وانودين (سليمان الهنتاني)

. ٣٢٤

ابن وانودين (أبو محمد) ٢٥٨ .

ابن وانودين (يوسف) ٣٠٩ - ٣١٠ -

. ٣٥٥ -

ابن وجاج (أبو الحسن يوجوت)

. ٢٣٧ - ٢٤٠ .

بنو وجدان ٢٩٥ .

ودسكاين (الجنفسي) ٢٣٤ .

ابن ورميل (أبو بكر اللمتوني) ٢٣٣

. ٢٤٨ -

ابن وردون (القاضي أبو اسحق)

. ١٤٢

الورياغلي (أبو الحسن) ٣٥٤ .

بنو ورياغل ٣٤٩ - ٣٥٤ .

وربكة ٣٦٤ .

ابن وزير : انظر سيدراي .

وسنار (أبو محمد) ٢٢ - ٢٦٤ -

وسنار (أبو محمد) ٢٢ - ٢٦٤ -
٣٧١ .

بنو وسيفن ٣١٠ .

وقوط بن ميمون ١٧٩ .

أبن ولجسوط (يذر) ٢٩٩ - ٣٠٩

بنو ومانو ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٨

ومتصال بن ودرج ٣٦٠ .

الونشريس انظر البشير .

الوهبي (علي : ثائر ليلة) ٤٤٤ -

٥٠٤ .

(ي)

ابن ياجريان (عبد العزيز) ٢٣٧ .

يالثني ٢٤٧ .

بيورك (بولغاه : محمد وعلي)

٣٣٩ .

بنو يبطش (من زنانة) ٧٣ .

يحي بن اسحق بن ابراهيم ١١ .

يحي : انجمار (أبو زكريا بن

بيجب) ٣٩ - ٣٤٩ .

يحي بن تالكفت ٣٠٩ .

يحي بن تعيثت ٣٥٣ .

يحي بن قميم (الزيري) ٣٧٠ .

يحي توكروزينون ٣٦١ .

يحي الدرعي ٣٦٢ .

يحي بن ساقطرا ٢٨٨

يحي بن سحنون ٣٦٢ .

يحي بن الصحراوي (الصحراوي)

٣٢٣ - ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ -

٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ -

٣٥٦ - ٤٢١ .

يحي بن عبد العزيز (الحساوي)

٣٧٤ - ٣٨٤ - ٣٩٠ .

يحي بن علي بن عايشة ١١ .

يحي (بن علي) بن هانية أبو

زكريا) ١١ - ٣٣٢ - ٤٢٦ -

٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٣٨ - ٤٤٨ -

٤٤٩ - ٤٥٥ - ٤٦٥ - ٤٦٧ -

٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٨ - ٤٧٩ -

٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٦ - ٤٨٨ -

٤٨٩ .

يحي بن كالحان ٢٦٢ .

يحي بن محسن ٢٩٩ .

أبو يحيى بن مطروح النجفي ٣٩٨

٣٩٩ -

يحيى بن المعتز (آخر ملوك بني
الرند) ٤٠٧ .

يحيى بن يغمور ٤٨٩ - ٤٩٨

ابن يحياتن (عبد الله) ٣٠٤

يخلف (أبو سعيد) آتيجي ٣٥٧ -
٣٦١ - ٣٩٢ .

يخلف بن أمسجير ٢٥٠ .

أبو يندر بن مصال ٣٥٥ .

يندر بن ورقا ٤٧٥ .

ابن يربوع (أبو محمد عبد الله بن
أحمد) ١٣٦ .

يروكان (هلال الأصلح) ٣٥٧ .

يصلاتن ٤٩٤ .

يصلاتن بن الممز ٣٠٧ - ٣٥٤ .

يعقوب بن جيون الهزرجي ٥٠٤

يعيش (الحاج المهندس) ٥١٧

يوسف (مولى رشيد بن نافع بن
جامع) ٣٨٠ - ٣٨١ .

يوسف البطروجي ٤٤٤ - ٤٨٦ -
٤٨٨ - ٤٩٠ .

يوسف بن تاشفين ٣٤١ - ٣٤٥ -
٤١٧ - ٤٦٠ .

يوسف الذكالي ١٦٥ .

يوسف (أبو يعقوب بن عبد المؤمن

من زينب بنت أبي عمران) ٢٧٦ -

٢٧٩ - ٢٩٩ - ٥٠١ - ٥٠٣ -

٥٠٤ - ٥٠٥ - ٥٠٩ - ٥١٠ -

٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٧ - ٥٢٢ -

٥٣٢ - ٥٣٩ - ٥٤١ - ٥٤٣ -

٥٤٥ .

يوسف (أبو يعقوب) بن سليمان

٣٢١ - ٣٦٥ - ٤٨٨ - ٥١٠ -

٥٣٧ .

يوسف الصادق ٤١٢ .

يوسف بن عبد العزيز ١٧٣ .

يوسف بن محمد ١٧٩ .

بنو يوسف بن مسكاته ٢٢٨

يوسف بن يندر ٣١٠ .

بنو يلومي ٣١٠ - ٣١١ .

بنو ينجاسن ٣١٠ .

اليهود ٥٣٥ - ٥٣٦ .

ابن یومر ۲۰۹ - ۳۱۰

بنو یغز (یغز) ۲۳۵ - ۲۸۹ .

یہنقان (یہنقان) بن عمر ۲۳۶ -

۲۹۷ - ۳۳۰ - ۳۳۹ .

أسماء المدن والجبال والأنهار

وغيرها من المواضع

أشبونة (الأشبونة) ٣٤٥ .	(١)
أشبيلية ٨٤ - ٧٢ - ١٢٦ -	أبقرول (منطقة) ٣٥٥ .
١٣٦ - ١٣٨ - ٣٦٧ - ٤٢٢ -	أرض كومية ٣٠٧ .
٤٣٠ - ٤٣١ - ٤٣٢ - ٤٣٣ -	الأربع (مدينة) ٤٠٨ .
٤٣٤ - ٤٥٠ - ٤٥٤ - ٤٥٥ -	آجر صيف ١٧٧ .
٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦٧ - ٤٧٦ -	آجر فرجان ٢٩٥ .
٤٧٩ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ -	الأخماس ١٧٢ .
٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩ -	أراجون (برشلونة) ٤٨٤ - ٥٤٥ .
٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠١ - ٥٠٣ -	آريولة ١٢١ .
٥٠٤ - ٥١٠ - ٥١١ - ٥١٣ -	أزرو ٢٩٨ .
٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٧ - ٥٢١ -	الأزوروس (رياح) ٤٥ .
٥٢٢ - ٥٢٦ - ٥٤٢ - ٥٤٣ .	أسترم (متاع الغزي) ٢٥١ .
أشتوريش .	الاسكندرية ٣٤ - ١٢١ - ١٢٢ -
أشكلونة ٤٣٩ .	١٤٠ - ١٤٦ - ١٤٩ - ١٦٠ -
أصروان ٢٢٨ - ٢٢٩ .	١٦١ - ١٦٢ - ٣٧١ .
أصليم (أزليم) ٢٤٩ .	آسيا (واسط) .
أغصان وإيلان (وريكة) ٦٤ - ٧٨ -	أشبار ٢٩٧ .
٧٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٤ - ٩٧ -	
١٨٥ - ١٠٣ -	

٤٥٠ - ٤٤٩ - ٤٤٦ - ٤٤٥ -
٤٧٣ - ٤٦٧ - ٤٦٥ - ٤٦٢ -
٤٧٨ - ٤٧٦ - ٤٧٥ - ٤٧٤ -
٤٨٥ - ٤٨٤ - ٤٨٣ - ٤٧٩ -
٤٩٩ - ٤٩٨ - ٤٩١ - ٤٩٠ -
٥١٢ - ٥١٠ - ٥٠٩ - ٥٠٠ -
٥١٧ - ٥١٦ - ٥١٤ - ٥١٣ -
٥٣١ - ٥٢٧ - ٥٢٦ - ٥٢٢ -
٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٣٤ (الشرق)
٥٣٧ -

آنده (عمل) ٤٤٠ .

أوثان انظر رأس ٣٤ .

ايجكان ٢٣٨ .

ايجلي (عاصمة السوس) ٩٤ - ٨٩
٢٨٩ - ٣٦٠ .

ايجليز هرغة ١٨٧ - ١٩٥ - ٢٣٢
٢٣٨ - ٢٣٧ - ٢٣٦ - ٢٣٤ -
٣٤٠ - ٣٣٦ -

ايرفي (مسطح ماء) ٦١ .

إيطاليا ٣٧٠ .

إيفيل (منطقة) ٩٧ - ١٠٧ .

آينكيست ٣٦٠ .

أفراغة ٤٢٢ - ٤٣٦ - ٤٣٧ -
٤٣٨ - ٤٧٥ .

أفريقية :

٣٦٦ - ٣٤٥ - ٣٦ - ٣٤ - ٣٠ .
٣٩٣ - ٣٩١ - ٣٨٦ - ٣٨٢ -
٤٩٨ - ٤٩١ - ٤١٢ - ٤٠٦ -
٥٢٦ - ٥١٦ - ٥١٥ - ٥١٠ -
٥٣٣ - ٥٢٨ .

الأكاسيا (شجر) ٤٨ .

اكشنة ٤٥٤ .

الإلزة (رياح) ٤٥ .

ام الربيع (قرية) ٨٤ - ٩٧ - ١٨٠
أمسكروطان ٢٩٦ .

الأندلس ٥ - ٥٤ - ٨٣ - ١٢٠ -
١٤٩ - ١٢٧ - ١٢٦ - ١٢٣ -
٣٣٦ - ٣١٢ - ٢٥٢ - ٢٢٣ -
٣٦٩ - ٣٥٢ - ٣٤٩ - ٣٤٥ -
٤١٥ - ٤١٢ - ٤١١ - ٣٨٧ -
٤٢٢ - ٤٢١ - ٤٢٠ - ٤١٩ -
٤٢٩ - ٤٢٨ - ٤٢٥ - ٤٢٣ -
٤٣٧ - ٤٣٦ - ٤٣٤ - ٤٣٣ -
٤٤٤ - ٤٤٢ - ٤٤١ - ٤٣٨ -

٢٥٥ - ٢٥٧ - ٢٥٩ - ٢٦٢ -
 ٢٦٣ - ٢٦٩ - ٢٧٩ - ٢٨٤ -
 ٣٩٢ .
 البرتغال ١٧٠ - ٤٨٤ - ٥٤٥ .
 برشلونة ٤٣٦ - ٤٨٤ - ٥٤٥ .
 برقة ٣٤ - ٣٦ - ٥٥ - ٣٦٦ .
 الجربة ٤١٣ .
 بياسة ٤٨٨ .
 بروغانس ٣٧٠ .
 البصرة (بصرة الألبان) ٨٨ .
 البطحاء ١٧٣ .
 بطليوس ٧٧ - ٣٤٥ - ٤٤٤ -
 ٤٦٠ - ٤٨٣ - ٤٨٦ - ٤٨٨ -
 ٤٩٠ - ٥٠٠ - ٥٢٧ (أحواز)
 بقصاد ١٤٨ - ١٥١ - ١٥٥ -
 ١٥٦ .
 البكار (موضع) ٤٣٤ .
 بلرم ٣٧٦ .
 بلنسية : ١٢٠ - ٤١٩ - ٤٦٢ -
 ٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ -
 ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧٧٢ -
 ٥٠٧ .

(ببا)

باب أجنار ٢٥٦ .
 باب أقسام (الدباغين) ٢٥٤ -
 ٢٥٥ .
 باب أيلان (هيلانة) ٣٣٨ .
 باب تاسغيموت ٢٨٤ .
 باب دكالة ٣٣٧ .
 باب درن (حمر) ٤٢ .
 باب السودان (حمر) ٤٢ .
 باب الفترج (الرباط) ٥١٧ .
 باب الفخارين ٢٨٤ .
 باجسة ٤٥٦ - ٤٦٠ - ٤٨٣ -
 ٤٨٦ - ٤٩٠ - ٤٩٨ .
 باطقة (منطقة قرطبة القديمة) ٤٢٢
 بامير (هضبة) .
 بجاية ١٦٦ - ٣١٢ - ٣٦٧ -
 ٣٧٤ - ٣٨٤ - ٣٨٧ - ٣٩٠ -
 ٣٩١ - ٤٩٤ .
 البحر المتوسط ٤٠ - ٤٥ - ٤٨ -
 ٣٧٠ .
 البحيرة (وقعة) ٢٥٢ - ٢٥٤ -

بليو نشي (قرية) ٨٣ .

بونيه (جزيرة) ٣٨٦ - ٣٩٦ -
٣٩٨ - ٣٩٩ .

بيزان الاينات ٢٨٤ .

(ت)

تاللة (تادلا) ٧٤ - ٩٢ - ٢٨٧ -
٢٩٠ - ٢٩٨ - ٣٥٢ - ٣٥٤ -

٣٦٤ - ٣٦١ .

تاجرة ٢٩٠ .

تارودانت ٧٧ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ -
٢٨٩ - ٢٩٦ .

تازا (رباط) ٤١ - ٥٢ - ٨٥ .

تازاجورت ٢٨٦ - ٢٨٧ .

تازروت .

تازغذرا ٣٠٢ .

تازكاغت ١٨٨ .

تاساوت ٢٩٧ .

تاسفرت ٢٩٩ .

تاسفيومت ٢٨٤ - ٢٨٥ .

تاسلوت ٢٩٦ .

تاغزوت ٣٠٢ .

تامللت ٣٠٠ .

تاقروت (تاجروت من مكناسة) ٨٦ -
٨٧ - ٢٨٧ - ٣٠٠ - ٣٢٣ -

(من تلمسان) ٣٢٤ .

تالات ٢٢٦ .

تالماغت ٣٥٤ .

تامادغوست ١٨٨ .

تامازيرت ١٨٨ .

تامدلت ٩٤ - ٩٥ .

تامسنا ٦٨ - ٧٣ - ٨٣ - ٨٤ -
٣٢٣ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١ -

٣٥٤ - ٣٥٧ - ٣٦٢ .

تطن (مدينة) ٨٤ .

تطيلة ١٤٤ .

تفنوت ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٦١ .

تل تلوت (منطقة) ٤٢ .

تلمسان ١٧٣ - ١٧٤ - ٣٠٦ -

٣٠٧ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٥ -

٣١٧ - ٣١٨ - ٣٢٢ - ٣٢٣ -

٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٤٥ - ٣٦٦ -

٣٦٧ - ٣٦٩ - ٤١١ - ٤٧٤ -

٤٩٣ - ٥١٩ .

(ج)

- جبال أطلس.
انظر جبال درن.
جبال تويكال ٤٢ .
جبال تنمل (تينملل) ٤٢ .
جبال جدميوه ٤٢ .
جبال جزولة (ملازة) ٤٢ .
جبال (جبل) درن (أطلس) ٣٢ -
٣٣ - ٣٤ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ -
٣٩ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٨ -
٥٤ - ٥٥ - ٦٠ - ٦٣ - ٦٥ -
٦٩ - ٧٩ - ٩٢ - ٩٧ - ٩٨ -
١٠٣ - ١٩٦ - ٢٤٠ .
جبال منجون ٤٢ .
جبال الورغة ٨٢ .
الجبل الأخضر ٣٦ .
جبل أماتراس ٤٠ .
جبل أوراس ٣٤ - ٣٦ .
جبل البرقات (البرانس) ٧٤٠ .
جبل برق - انظر الجبل الأخضر .
جبل بيديفين ٤٠ .

قلو (آماللو) ٢٨٨ - ٢٩٧ .

تنسيفت ٣٥٠ .

تودا (مدينة) ٨٢ .

تونس ١٦٤ - ٣٦٧ - ٣٧٢ -

٣٧٤ - ٣٨٦ - ٤٠٣ - ٤٠٤ .

تيتلين ٢٩٦ .

تنمل (تينملل) وتنملت ٤٢ - ٩٥

- ١١٠ - ١٩٧ - ٢٣٨ - ٢٤٠ -

٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٤ - ٢٤٦ -

٢٥٣ - ٢٨٤ - ٢٨٧ - ٢٨٩ -

٢٩٠ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ -

- ٣٢١ - ٣٣١ - ٥٠٨ .

التير (Tirs أرض) ٥٢ .

تيرزفت ٢٩٩ .

تيزي (بسيط) ٢٩٨ .

تيفسرت (موضع) ٣٠٧ .

تيمونوين ٢٩٦ .

تينملت بزنانس ١٧٢ .

تينيكست ٥٠٨ .

(ث)

الشفر الأعلي ٤٧٢ - ٤٣٤ - ٤٦٧

- جبل جنقيسة ٢٩٦ .
- جبال الريف ٣٦ - ٣٧ - ٤٠ .
- ٣٠١ .
- جبال زاير ٤٣ .
- جبل زغوان ٤٠٨ .
- جبل السوس ٤٢ - ٧٨ .
- جبل طارق (جبل الفتح) ٣٠ - ٤٠ .
- ٨٢ - ٨٣ - ٤٤٢ - ٥١٦ -
- ٥١٧ - ٥١٨ - ٥٢٠ - ٥٢١ -
- ٥٢٥ - ٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٢٩ -
- ٥٣١ - ٥٣٢ .
- جبل طرابلس أنظر نفوسة).
- جبال عياش.
- جبل غمارة ٨٢ - ١٠٨ - ٢٩٣ .
- جبل غباتة ٢٩٢ - ٢٩٤ - ٣٠٧ .
- جبل القرن ٤١٣ - ٤١٤ .
- جبل المصامدة ٢٣٥ - ٢٤٨ .
- جبل موسى ٤٠ .
- جبل المينا ٥٤ - ٨٣ .
- جبل نفوسة ٣٤ - ٣٦ .
- جبل هنتاة ٤٢ .
- جبل وريكة ٢٣٨ .
- جبل ونشريس ٣٦ .
- الجبالة (اقليم) ٤٣ - ٤٧ - ٥٠ -
- ٥٤ .
- جسرة (جزيرة) ٣٧١ - ٣٧٥ -
- ٣٩٧ .
- جلالة (منطقة) ٤٢ - ٢٨٧ .
- الجزائر (حزا - بني مزغناي) ٣٦ -
- ٣٨٤ - ٣٩٠ - ٤٧٠ - ٤٨٧ .
- الجزيرة الخضراء ٤٦٠ - ٤٨٦ -
- ٥٢٨ - ٥٣٧ .
- جنيارة ٨٨ .
- جوز (رباط) ٩١ .
- الجوزات (موضع) ٣٠١ .
- جبان ٤٢١ - ٤٨٩ - ٨٩٠ -
- ٥٣٩ .
- جيجل ٣٧٧ .
- جليقية (غاليسيا) ٥٠٢ .
- (ح)
- حاجة ٢٩٧ - ٣٠٠ - ٣٦٠ .
- حصن أطرونكس (اگرانكش) ٥٠٠ -
- ٥٢٧ .

خندق الحمراء (وادي الزيتون) ٣٠٦

(د)

دار الحجر (القضية) ٣٣٩ .

دائنة ٤٢١ .

دائي (مدينة) ٩٠٣ - ٢٨٨ .

درعة ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ .

دكالة ٤٣ - ٧٧ - ٩٢ - ٣٥٣ -

٣٥٦ - ٣٦٢ .

دمنات ٢٩٧ .

الدير (Dir) الأطلسي ٥٠٠ .

(ر)

الرأس الأبيض ٣٢ .

رأس اسبارتل ٣١ - ٤٤ - ٥٢

- ٥٤ .

رأس أوثان ٣٤ .

رأس درعة ٣٢ .

رأس غير (Cap Guir) ٣٢ .

رأس كانتين .

الرباط (رباط الفتح) .

٤١ - ٤٣ - ٥٦ - ٦٢ - ٣٦١ -

٣٨٨ - ٤٩٠ - ٥٠٩ - ٥٣٥ -

حصن أندوجر ٤٨١ .

حصن برجة (Berja) ٥٠٢ .

حصن البطروج ٤٩٩ .

حصن شبوطة ٤٤٠ .

حصن طلياطة ٤٥٥ .

حصن فرنجلوش ٤٨١ .

حصن القصر ٤٥٥ - ٤٨٣ - ٤٨٦

حصن قصرش ٤٣٥ .

حصن المدور ٥٠٠ .

حصن مرجيق ٤٥٤ .

حصن منتورا ٥٠٠ .

حصن هزوجة ٢٨٧ .

حلق الوادي (يسلا) ٣٤ .

حوز تلمسان ٣٢٣ .

حوز سراكش ٧٧ - ٧٩ - ٨٠ -

٩٠ .

حومة أغمات ٢٦٢ .

(خ)

خليج بادس ٣١ .

خليج الحسيمي ٣١ .

خليج مليلة ٣١ .

. ٥٤٤

رباط ماسة ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ .

الرباط المقدس (بهران) ٣٢٢

ردات (نهر) ٨٨ .

رندة ٤٨٦ - ٤٨٨ - ٤٩٠ .

الريف (بلاد وجبال) ٣٩ - ٤٠ -

٤١ - ٤٧ - ٥٠ - ٥٣ - ٤٥ .

٦١ - ٦٨ - ٧٣ - ٨١ - ١١٥ -

- ٣٢٣ .

(ز)

الزقاق (بحر) ٥٣ - ٥٣٧ .

زغبولة ٥٠٥ .

الزلاقة ٤٣١ .

زويلة ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠١ -

. ٤٠٥

(س)

الساحل الأطلسي ٤٣ - ٥٢ .

ساحة الفنا (براكش) ٩٧ .

ساليرو ٣٧٠ .

سبينة ٣٠ - ٤٠ - ٥٤ - ٨٢ -

٨٣ - ١٢٣ - ١٢٥ - ٣٣٠ -

٣٢٢ - ٣٤٩ - ٣٥٢ - ٣٥٣ -

٣٥٤ - ٣٥٧ - ٣٩٠ - ٤٤٢ -

٤٩٢ - ٤٩٤ - ٤٩٩ .

سجل ماسة ٣١٢ - ٣٦٢ - ٣٦٣ .

سطنسيف ٣٢٠ .

سطيف ٣٩٤ .

سرقسطة ٤٢٢ .

سلا ٣٢ - ٥٦ - ٦٢ - ٧٤ - ٨٤ -

٨٥ - ٣٣١ - ٣٤٦ - ٣٤٩ -

٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٩٠ - ٤٤٢ -

٤٩٠ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥١١ -

. ٥٤٤

السقال ٤٤ .

السودان (بلاد) ٥ - ٩٠ - ١٠٣ .

السوس (بلاد : الأقصى والادنى)

٤٣ - ٦٣ - ٧٨ - ٨٩ - ٩٢ -

٩٣ - ٩٨ - ١٠٣ - ١٨٩ -

٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٤٨ - ٢٨٣ -

٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٤٥ - ٣٤٨ -

شنترين ٤٤٤ .

شنتمبرية ٤٨٨ .

(ص)

صا ١٧٥ - ٣٠٧ .

الصمراء الكبرى (الافريقية) ٣٣٥ .

صفائس (سفاقص) ٣٧٠ - ٣٨٥ .

٣٩٧ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٥ .

٤٠٧ - .

صفروي ٨٩ - ٣٠٠ .

صفلية ٣٤٥ - ٣٦٩ - ٣٧٠ .

٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٣ .

٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٩٤ - ٣٩٥ .

٣٩٧ - ٣٩٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ .

٤٧٠ - ٥١٥ .

(ط)

طبيرة (Tavira) ٥٠٤ .

طرابلس الشام ١٥٤ .

طرابلس (الغريب) ٣٦ - ١٦٣ .

٣٦٦ - ٣٦٧ - ٣٧٦ - ٣٧٨ .

١٧٩ - ٣٨١ - ٣٨٦ - ٣٩٦ .

٤٠٧ .

٣٤٩ - ٣٥٤ - ٣٥٨ - ٣٦٠ .

٣٦٣ - ٤٥٠ - ٤٧٦ - ٤٨٥ .

٥٢٨ .

سوسة ٣٧٠ - ٣٨٥ .

السرهر (أطلس ج. ش) Serrho

٤٨ .

(ش)

شاطبة ٤٦٢ - ٤٦٤ - ٤٦٧ .

٤٦٨ - ٤٧٠ .

الشام ١٢١ .

الشاوية (تامسنا) ٤٣ - ٥٣ .

٨٤ .

الشرف (غرب اشبيلية) ٤٨٣ .

٤٨٦ .

شمرش ١٢٦ - ٣٣٢ - ٣٣٦ .

٤٣٣ - ٤٤٤ - ٤٨٣ - ٤٨٦ .

٤٨٧ - ٤٩٠ .

شلب ١٢١ - ١٤٤ - ٤٤٦ .

٤٤٨ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ .

٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٨٣ - ٤٨٨ .

٤٩١ .

شلف (وادي) ١٧٢ .

عين غبولة ٣٨٨ - ٥٤٥ .

عين وهران ٣٢١ .

(غ)

الغار ١٩٥ .

غاليسيا ٤٦٩ .

الغرب ٤١ - ٤٣ - ٣٦٢ - ٤٤٦

- ٤٨٣ - ٤٨٦ - ٥٢٢ .

غرناطة (أغرناطة) ١٢٠ - ١٤٢ -

- ٣٦٧ - ٤٢٢ - ٤٣١ - ٤٣٢

- ٤٤٠ - ٤٦٣ - ٤٦٤ - ٤٦٨

- ٤٨٠ - ٥٠١ - ٥٠٢ - ٥٠٣

- ٥١١ - ٥١٧ - ٥٣٤ - ٥٣٥

٥٣٧ (فحص) ٥٣٧ (القصة

الغمرات) - ٥٣٩ .

غمارة (بلاد) ٨٢ - ٣٦٧ - ٣٦٣

- ٤٩٤ .

غياتة ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٧ .

(ف)

غازاز ٢٩٨ - ٢٩٩ .

فاس ٤١ - ٤٣ - ٦٨ - ٧٥

- ٧٦ - ٨١ - ٨٢ - ٨٦ - ٨٧

طرطوشة ١٤٥ - ٤٢٢ .

طلبيرة ١٢٦ - ٤٩٠ .

طلياطة ٤٨٣ - ٤٨٦ .

طليطة ١٢١ - ١٢٩ - ١٤٥ -

٤٥٥ .

طنجة ٣١ - ٣٢ - ٤١ - ٤٢ -

- ٥٢ - ٥٤ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٨

- ٣٣٢ - ٣٤٩ - ٤٤٢ - ٥١٧

- ٥٢٠ .

(ع)

العباه (من تلمسان) ٣١٢ .

عهده (منطقة) .

العدوة (العدوتان) ٨٣ - ٣٤٥

- ٣٥٢ - ٣٩٧ - ٥١٠ - ٥١٩

- ٥٢٠ .

العرائش (العرايش) ٥٦ - ٦٢ .

العراق ١٤٨ .

عسقلان ٣٨٧ .

عفسيق (قرية) ٩١ - ٩٩ .

عمود هرقل (أعمدة) ٤٠ - ٤٤ -

٨٢ .

- ٤٩٨ - ٤٨٩ - ٤٨٨ - ٤٨١
 - ٥١٠ - ٥٠٣ - ٥٠١ - ٤٩٩
 - ٥٢٢ - ٥٢١ - ٥١٢ - ٥١١
 - ٥٤٠ - ٥٣٩ - ٥٣٥ - ٥٢٧
 . ٥٤٣ - ٥٤٢ - ٥٤١
 قرقنة (جزيرة) ٣٩٧ .
 قرصونة ٤٦٠ - ٥٢١ - ٥٣٢
 . ٥٣٥
 قسنطينة ١٦٥ - ٣٦٧ .
 قشتالة ٤٣٣ - ٤٧٧ - ٤٨٤
 . ٥٤٥ - ٥٣٥
 قصر الحجر ٤٩٧ .
 قصر الدياس ٣٧٣ .
 قصر التراجب ٤٦١ .
 قصر عبد الكريم ٨٥ - ٣٠٢ .
 قصر مصمودة ٣٠٢ - ٣٣٢ .
 قنصة ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٥١٤ .
 قلعة اقلبيية ٣٨٦ .
 قلعة بني حماد ٣٩٢ .
 قلنبرية قلعبرية (Coimbre) ٣٦١
 - ٥٤٥ -
 قوصرة (جزيرة) ٣٨٣ .

- ٨٨ - ١٠٣ - ١٠٧ - ١٢٠
 - ٣٠٠ - ٢٩٨ - ١٧٨ - ١٢٥
 - ٣٢٧ - ٣٢٥ - ٣٢٣ - ٣٠٤
 - ٣٤٩ - ٣٣٥ - ٣٣٠ - ٣٢٩
 - ٣٦٧ - ٣٦٣ - ٣٦٢ - ٣٥١
 - ٤٦٠ - ٤٤٢ - ٤٢٧ - ٤٢٠
 - ٤٩٣ - ٤٨٧ - ٤٨٣ - ٤٧٣
 . ٥١٠

الفجارات (الخطارات) ٦٧ .

فرنسا ٣٧٠ .

(٥)

قاييس ٣٧٥ - ٣٨٠ - ٣٩٨
 . ٥١١ - ٤٠٧
 قسادس ٤٤٤ - ٤٧٣ - ٤٨٣
 . ٤٨٦
 القاهرة ٣٧١ - ٣٧٦ .
 قرطبة ١٢٠ - ١٢٦ - ١٢٧
 - ١٣٤ - ١٣٢ - ١٣١ - ١٢٩
 - ٤٢٠ - ٣٦٧ - ١٤٥ - ١٤٩
 - ٤٣٩ - ٤٣٦ - ٤٣٥ - ٤٣٢
 - ٤٥٥ - ٤٥٣ - ٤٤٢ - ٤٤٠
 - ٤٦٧ - ٤٦٣ - ٤٥٧ - ٤٥٦
 - ٤٧٩ - ٤٧٨ - ٤٧٧ - ٤٧٦

(م)

معلقة ١٢١ - ١٤٣ - ٤٨١ -
٤٨٢ - ٤٩٢ - ٥٣٦ - ٥٣٧ .

متيجة ١٧١ .

المجاز ٨٣ - ٤٤٢ - ٤٨٧ .

المحاميد (بلاد) ٦١ .

المحيط الأطلسي ٤٠ .

مسراكش ٣٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٥ -

٤٦ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٥ - ٦٨ -

٧٩ - ٨١ - ٨٩ - ٩١ - ٩٨ -

١٠٠ - ١٠١ - ١١٠ - ١١٢ -

١٢٠ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٨١ -

١٨٤ - ٢٥٧ - ٢٩٤ - ٢٩٥ -

٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٣ - ٣٣٤ -

٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٤١ -

٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٩ - ٣٥٠ -

٣٥١ - ٣٥٤ - ٣٧٢ - ٣٩١ -

٣٩٥ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٣٠ -

٤٣٤ - ٤٤٠ - ٤٥٨ - ٤٦٠ -

٤٦٩ - ٤٧٢ - ٤٧٤ - ٤٨١ -

٤٨٧ - ٤٨٩ - ٤٩١ - ٤٩٢ -

٤٩٥ - ٤٩٨ - ٥٠١ - ٥٠٩ -

قلورية (كالابريا) ٣٤٥ .

القيروان ٣٦٧ - ٣٨٦ - ٤٠٧ .

قلييرة ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(ك)

كاسطف ٢٩٥ .

كتالونية ٥٠٢ .

كرانده (جراندة) ٢٩٨ - ٣١٢ .

كزناية (موضع) ٣٠٤ .

الكوست ١٦ - ٢٨٥ .

الكناري (تيار) ٤٤ .

الكورسكي (أعشاب) ٥٠ .

(ل)

لاردة ٤٢٢ - ٤٣٧ .

لالمجدوك ٣٧٠ .

لهلة ٤٨٨ - ٤٦٠ - ٤٧٦ -

٤٨٦ - ٤٨٨ - ٤٩٠ - ٤٩٨ .

لكاي (موضع) ٣٠١ .

لمزمة (موضع) ٣٠٤ .

ليون ٤٦٩ - ٥٤٥ .

المغرب ٤٧ - ٥٥ - ٧١ - ١٠٣	٥١٠ - ٥٢٧ - ٥٣٢ - ٥٣٥
١١٤ - ١٢٠ - ١٥٦ - ٢٩٤	٥٣٦ - ٥٤١ - ٥٤٤ .
٣٥٧ - ٣٥٢ - ٣٤٥ - ٣٠٠ -	مرتلة (ميرتلة) ٤٤٨ - ٤٤٦ -
٣٩٣ - ٣٩١ - ٣٨٦ - ٣٦٩ -	٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤ -
٤١٧ - ٤١٧ - ٤١١ - ٤٠٢ -	٤٦٠ - ٤٨٠ - ٤٨٣ - ٥٠٤ .
٤٤١ - ٤٣٦ - ٤٣٠ - ٤٢٥ -	مرج الرقاد ٥٣٧ .
٤٥٧ - ٤٤٧ - ٤٤٤ - ٤٤٢ -	مرسي أنزلان ٨٢ .
٥١٠ - ٥٠٩ - ٤٩٨ - ٤٧٨ -	مرسي آسفي ٦٣ - ٧٤ .
٥٣٣ - ٥٢٧ -	مرسي البيضاء (جون : مرس) ٦٣
المضيق (جبل طارق) ٤٣٩ .	مرسي الفيط ٦٣ - ٧٤ .
المغرب الأوسط ٣٠ - ٣٤ - ٣٦	مرسي فضالة ٦٢ - ٧٤ - ٨٤ .
٣٩٢ - ٣٠٥ - ٣٠٣ - ٣٠١ -	مرسي مازيفن .
٤٩٣ -	مرسي ماست ٦٣ - ٩٢ .
المغرب الأقصى ٣٠ - ٣٣ - ٤١ -	مرسية ١٤٤ - ٤١٩ - ٤٢٠ -
٤٣ (البلاد المراكشية) ٧٠ - ٨٠ -	٤٦٢ - ٤٦٥ - ٤٦٧ -
٣٥٨ - ٢٩٩ - ١٠٢ - ٨١ -	٤٦٨ - ٤٧٠ - ٤٧٢ .
٣٦٦ - ٣٦٩ - ٢٩٣ - ٥٢٧ -	المريجة ٣٤٩ - ٤٢٠ - ٤٤٩ -
٥٢٨ .	٤٦٢ - ٤٩٢ - ٥٠٢ - ٥١٥ .
المقعدة (شرقي فاس) ٣٠٠ .	مسكدال ٥١ .
مفيلة ٨٧ - ٨٨ .	مصر ٣٤ - ١٢١ - ١٤٧ - ١٥٨ -
مكناسة (الزيتون) ٧٤ - ٧٥ -	١٥٩ - ٣٧٠ - ٣٨٤ .
٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ١٠١ - ١٧٩ -	المشرق ٣٦٧ - ٤٨٥ .
٣٥٤ - ٣٢٩ - ٣٢٨ - ٣٢٦ -	

. ٨٣ - ٦٨ - ٦٣ - ٥٤

(ن)

. نابولي ٣٧٠

. ناغارا ٥٠٢

. ندرومت ٢٩٠

. نفوسة (جبل) ٤٠٧

. نفيس (مدينة) ٨٠ - ٩٢ - ٩٣

. نوليس ٣٠٠

نهر : أنظر وادي

. نول لمسطبة ٩٤ - ٩٨ - ٩٠ - ٩٠ - ٩٠

. ٥٢٨ - ٢٨٥

. نومكران ٢٢٨

(هـ)

. الهبط ٣٥٤

. الهضبة الايبيرية الوسطى ٤٣

(و)

. وادي أم الربيع ٥٥ - ٥٧ - ٥٨

. ٢٩٨ - ٦٧ - ٥٩

. وادي أودغيس ٦٠

. وادي أولكس لوكوس ٨٥

. ٣٦٣ - ٣٦٢ -

. مكة (المكرمة) ١٥٨ - ١٥٦

. ملالة ١٦٨

. مليانة ١٧٢

. مكنول (قرية) ٩٢

. مليانة ٣٨٩

. مليلة (جزيرة) ٣٠٠

. منانة (بلاد) ٢٩٥

. المنكب ٤٩٢

. المهديّة (العاصمة الفاطمية) ١٦٣

. ٣٧٣ - ٣٧٢ - ٣٧١ - ٣١٢ -

. ٣٨٢ - ٣٨١ - ٣٧٦ - ٣٧٤ -

. ٣٩٩ - ٣٩٧ - ٣٨٥ - ٣٨٣ -

. ٤٠٥ - ٤٠٢ - ٤٠١ - ٤٠٠ -

. ٥١١ - ٥٠٩ - ٤٠٩ - ٤٠٦ -

. ٥٢٧ - ٥٢٦ - ٥١٧ - ٥١٤ -

. مرجادور ٣٩ - ٥٢ - ٥٤

. الموصل ١٥٤

. مونبلييه ٥٠٢

. المهديّة (متاح إن مليح) ٣٠٥ -

. ٣٦٧ - ٥٠٩

. الميزيتا (الهضبة المراكشية) ٤٣ -

- وادي آش ٥٠٣ .
وادي ايدرسي ٦٠ .
وادي ابنان ٥٢ - ٥٧ .
وادي بهت ٥٧ .
وادي بودجرج (نهر الرقراق) ٥٢ -
٥٦ - ٦٢ - ١٠٤ .
وادي تنسيلت ٤٩ - ٥٢ - ٦٣ -
٦٤ - ٧٨ - ٨٠ - ٩١ .
وادي جبر ٦٠ .
وادي حدارة ٥٣٨ .
وادي دادس ٥٥ - ٦٠ .
وادي درعة (دراع) ٦٠ - ٣٠٠ .
وادي درنت ٥٩ .
وادي ديس ٦١ .
وادي ردم ٥٧ .
وادي زادت ٦٤ .
وادي زاد سرو ٥٩ .
وادي زيز ٥٥ - ٦٠ - ٢٩٩ .
وادي سبر ٤٠ - ٤١ - ٥٢ - ٥٤ -
٥٥ - ٥٧ - ٦٧ - ٩٠ - ٩٢ .
وادي سواره ٦٠ .
وادي السوس ٦٤ .
وادي شيشاوة ٦٤ .
وادي غدجايا .
وادي فاس ٥٧ - ٨٨ - ١٠٢ .
وادي كرت ٤٠ .
وادي لوكوس ٥٦ - ٦٢ - ٨٥ .
وادي ماست (نهر السوس) ٦٣ -
٦٥ - ٩٣ .
وادي الملوية (ملوية) ٤٠ - ٤١ -
٥٢ - ٥٥ - ٥٧ .
وادي نفيس ٨٠ - ٩١ .
وادي نكور ٦١ - ٨٢ .
وادي ورغة ٥٧ .
وادي وريكة ٦٤ .
وادي وطاق ٦٠ .
وادي ولاو .
واديان (أنهار) الاطلنطي ٦١ .
واطوب ٢٩٩ .
وانشريس ١٧٢ .
وجدة ١٧٥ .
الورغة (نهر) ٨٢ .

وهران ٣١ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣٢٠

- ٣٢١ - ٣٢٤ - ٣٤٥ - ٣٦٦

- ٣٦٩ - ٤١١ - ٤٧٣ .

(ي)

باصرة ٤٤٦ - ٤٥٤ - ٤٩٠ -

. ٤٩٨

البحر (السعيدة) ٥٦ .



